المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية و الحـ

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٣٦٢٣

الحياة العلمية في العراق
خلال
عصر نفوذ الأتراك

(٢٣٢-٣٣٤هـ / ٨٤٧-٩٤٦م)

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الحضارة الإسلامية

إعداد
الطالب/ زيني بن طلال الحازمي

إشراف
الأستاذ الدكتور/ ضيف الله بن يحيى الزهراني

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

K.S.A. 100 YEARS

توحيد وبناء

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم رباعي	زيني بن طلال الحازمي	كلية	الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم	الدراسات العليا التاريخية والحضارية	التخصص	حضارة ونظم إسلامية
الأطروحة مقدمة لنيل درجة	الماجستير		

عنوان الأطروحة : الحياة العلمية في العراق خلال عصر نفوذ الأتراك
(٢٣٢-٢٣٤هـ / ٨٤٧-٩٤٦م)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد . .

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٢٩/٦/١٤٢١هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه . .

والله الموفق ،،،

أعضاء اللجنة :

المشرف :	المناقش :	المناقش :
الاسم : أ.د. حبيب الله بن محمد الرحيلي	الاسم : د. جمال بن حسن إمام	الاسم : د. علي بن محمد الزهراني
التوقيع :	التوقيع : ٥/٧/١٤٢١هـ	التوقيع : ٥/٧/١٤٢١

رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

أ . د . حبيب الله بن محمد الرحيلي

يوضع هذا النموذج أمام الصفحة القابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

الرقم .... التاريخ / / ١٤ هـ المشفوعات : ....

مطابع جامعة ام القرى

بسم الله الرحمن الرحيم

((إنِّي رأيت أنه لا يَكتبُ إنسان كتاباً في يَومِه إلاَّ قال في غَده : لو غُيِّر هذا لكان أَحسن ، ولو زِيدَ كذا لكان يُستحسن ، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل ، ولو تُرِكَ هذا لكان أجْمَل ، وهذا من أعظم العِبَرْ ، وهو دليلٌ على استيلاءِ النَّقْص على جُمْلةِ البشر)) .

العماد الأصفهاني

((ولرُبَّمَا أراد مؤلفُ الكتاب أن يُصلِحَ تَصْحيفاً ، أو كلمةً ساقطَةً ، فيكون إنشاء عَشْرِ ورقاتٍ من حُرِّ اللفظ ، وشريفِ المعانِي ، أيسرَ عليهِ من إتمامِ ذلك النقصِ ، حتى يَرُدَّهُ إلى مَوْضعهِ من اتصالِ الكلام)) .

الجاحظ

الإهـــداء

.. **إلى** أبي وأمي ، حفظهما الله تعالى ، وألبسهما ثوب الصحة والعافية ، ورزقني حسن برهما .

.. **إلى** إخوتي الأعزَّاء ، رفقاء عمري .

.. **إلى** زوجتي العزيزه ، التي عانت – وأعانت – في سبيل إنجاز هذا العمل .

.. **إلى** أقربائي وأساتذتي وأصدقائي ، الذين لم يبخلوا علي بالدعاء ، سراً وعلانية .

.. **إلى** إبنتي نردين ، أنبتها الله نباتاً حسنا .

الباحث

شكر وتقدير

إن من ألزم لوازم أي عمل ، الاعتراف بالفضل لكل من ساهم في إنجازه . فأتقدم بكل عبارات الشكر ، والتقدير ، والاحترام ، والامتنان إلى أستاذي الفاضل سعادة الأستاذ الدكتور/ ضيف الله بن يحي الزهراني . الذي تفضَّل عليَّ بقبوله الإشراف على هذه الدراسة . وكان سعادته معي في كل مرحلة من مراحل البحث ، بعلمه ، وجهده ، ووقته ، وما غمرني به من حسن توجيه ، ودماثة خلق ، جعلتني أحس في قرارة نفسي بأن سعادته أكثر حرصاً مني على ظهور هذا العمل بالصورة المبتغاة . فأسأل الله العلي القدير أن يجزل له المثوبة ، وأن يبارك في عمره ، وعلمه ، وصحته . ويجعل ما قدمه لي في موازين حسناته .

كما أشكر أستاذي سعادة الأستاذ الدكتور/مريزن سعيد عسيري على ما قدمه لي من مساعدات عديدة ، فجزاه الله عني خير الجزاء .

ولا أنسى في هذا المقام أن أذكر أستاذي سعادة الدكتور/ جميل بن عبد الله المصري ، رحمه الله تعالى ، الذي ما كان يفتأ بتقديم النصح والإرشاد كلما تشرفت بزيارته أو مقابلته ، فأسأل المولى عزَّ وجَلْ أن يسبغ عليه شآبيب رحمته ، ويدخله فسيح جناته ، وأن يجعل ما قدمه في حياته ذخراً له يوم القيامة .

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى معالي مدير جامعة أم القرى ، وإلى سعادة عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، وإلى جميع أساتذتي الأفاضل ، وزملائي الكرام ، الذين لم يبخلوا علي بآرائهم السديدة ، وتوجيهاتهم الكريمة ، وخزائن كتبهم .

والشكر موصول إلى القائمين على المكتبات ، والمعاهد ، والمراكز العلمية التي ترددت عليها ، نظير المساعدات التي قدموها لي . وإلى من قام بطباعة هذه الرسالة .

أسأل الله العلي القدير أن يرزقنا جميعاً الإخلاص في العمل لوجهه الكريم ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباحث

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة ماجستير بعنوان:

"الحياة العلمية في العراق خلال عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢-٣٣٤هـ/٨٤٧-٩٤٦م)"

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحابته ، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين . وبعد:

تتكون هذه الدراسة في تناولها من **مقدمة** عن طبيعة موضوع الدراسة بوجه عام ، والدوافع خلف سبر أغوار هذا الموضوع ، والأهداف المبتغاة من تناوله ، وبعض النقاط الخاصة بمنهجية البحث ، والصعوبات التي لقيها الباحث أثناء إعداد هذه الدراسة . ويلي المقدمة **عرض لأهم مصادر ومراجع الدراسة** . ثم يأتي **التمهيد** ، والذي خصص للحديث عن الأوضاع العامة في العراق ، خلال فترة النفوذ التركي بشكل عام ، ومدى تأثيرها على الحياة العلمية ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وما هي الجوانب الثقافية التي تأثرت بتلك الأوضاع .

وبعد التمهيد تنتظم الدراسة في بابين وستة فصول . وخصص **الباب الأول** للحديث عن النشاط العلمي في العراق خلال عصر نفوذ الأتراك ، وذلك في فصلين رئيسين . تناول **الفصل الأول** الحديث عن عوامل رقي الحياة العلمية في العراق في تلك الفترة ، وحصرت في ثلاثة عوامل ، هي: الأول: اهتمام الخلفاء بالحركة العلمية ، والثاني: اهتمام الأعيان ، من أمراء ، ووزراء ، وقُوّاد ، وحُجّاب ، ونحوهم بالحركة العلمية ، والثالث: اهتمام العلماء بالحركة العلمية ، وتفصيل دورهم في دعم المسيرة الثقافية . أما **الفصل الثاني** فقد تضمن الحديث عن مظاهر النشاط العلمي في العراق إبان تلك الفترة ، وانحصرت هذه المظاهر في: حركة الترجمة ، والوراقة والوراقون ، وخزائن الكتب ، والعلاقات العلمية بين العراق والمراكز العلمية الأخرى ، والتربية والتعليم . حيث أفردت كل واحدة من هذه المظاهر الخمسة بالحديث في مبحث مستقل .

وخصص **الباب الثاني** من هذه الرسالة ، لدراسة شاملة عن النتاج العلمي الذي **خلّفه** علماء العراق في شتى العلوم والمعارف ، وبيان حجم هذا النتاج ، من خلال الحديث عن كل علم من العلوم القائمة في العراق في ذلك الوقت في إلماحة موجزة ، مع بيان لأبرز علماء كل علم ، ومصنفاتهم . ولقد جرى تقسيم هذا الباب إلى أربعة فصول رئيسة . حيث يتطرق **الفصل الأول** للدراسات الشرعية ، وما أضافه علماء العراق في علوم القرآن ، والحديث ، والفقه وأصوله . في حين يبحث **الفصل الثاني** في الدراسات اللغوية والأدبية ، والمؤلفات التي وضعت في علوم اللغة ، والنحو والصرف ، والأدب والبلاغة . وفي **الفصل الثالث** كان الحديث عن الدراسات الإجتماعية ، وبيان جهود علماء العراق في حقلي: التاريخ ، والجغرافيا . وخصص **الفصل الرابع** لدراسة النتاج العلمي لعلماء العراق في العلوم التطبيقية ، في فروعها الثلاث: الطبية ، وتشمل: الطب ، والصيدلة . والطبيعية ، وتشمل: علم النبات ، وعلم الحيوان ، وعلم الكيميا والمعادن ، وعلم الفيزياء ، وعلم الحيل (الميكانيكا) . والرياضية ، وتشمل: الحساب ، وعلم الجبر والمقابلة ، وعلم حساب المثلثات ، وعلم الفلك . واختتم البحث **بخاتمة** تتضمن أهم النتائج المستخلصة من هذه الدراسة ، ومنها:

١- أهمية دور الخليفة في توجيه فكر رعيته .

٢- سيطرة مبدأ وحدة الأمة ، الذي غرسه الإسلام في نفوس أبنائه ، على التفاعل الثقافي بين الأقطار الإسلامية في ذلك الوقت .

٣- خطورة الانجراف نحو ترجمة تراث الأمم غير المسلمة دون احتراز ، لما في ذلك من أثر على عقيدة المسلم ، وفكره .

٤- إن الدافع الرئيسي لعلماء المسلمين في مجال العلوم والمعارف كان نابعاً من عقيدتهم ، وإدراكهم لغرض وجودهم في هذه الأرض ، والمهمة المنوطة بهم . فكانت النتيجة حضارة علمية خيرة .

ويعقب الخاتمة **ملاحق** توضيحية معينة للرسالة ، ثم ثبتاً **بمصادر البحث ومراجعه** ، وفي آخر الرسالة **فهرساً شاملاً لمحتوياتها** .

أسأل الله العلي القدير أن يرزقنا الإخلاص في العمل لوجهه الكريم ، ويهدينا إلى سواء السبيل .

الطالب	المشرف	عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
زيني بن طلال الحازمي	**أ.د/ضيف الله بن يحي الزهراني**	**أ.د/ محمد بن علي العقلا**

مفتاح الرموز الواردة في الرسالة

الرمز	الدلالة
ت	توفي
(/)	(الجزء/الصفحة)
(/ /)	(المجلد/الجزء/الصفحة)
مج	مجلد
ج	جزء
ع	عدد
هـ	العام الهجرى
م	العام الميلادي
ص	الصفحة
ط	الطبعة
د . ت	بدون تاريخ نشر
د . ط	بدون طبعة
د . م	بدون مكان نشر
د . د	بدون دار نشر

المُقَدِّمَة

المقدمة

الحمد لله بجميع المحامد على جميع النعم . والصلاة والسلام على خير خلقه محمد المبعوث إلى خير الأمم . وعلى آله ، وصحبه ، مفاتيح الحكم ، ومصابيح الظلم .

وبعد :

فقد كان ظهور الإسلام نقطة الانطلاق لهذه الأمة نحو التأثير في حياة البشرية إذ أنشأ مجتمعاً جديداً ، له خصوصيته الفكرية ، التي تُميز أفراده عن بقية الأمم ، على الرغم من تباين بيئاتهم ، وثقافاتهم ، وألسنتهم ، وأعراقهم . إلا أن المدرسة المحمدية صهرت هؤلاء جميعاً في بوتقة واحدة ، جوهرها فكر جديد يرتكز على قواعد صلبة ، وفهم لطبيعة وجود الإنسان في هذه الحياة ، ومهمته العليا ، بفضل التوجيهات القرآنية ، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن هذا المنطلق ، كانت البيئات الإسلامية ، على اختلاف مواقعها ، وتعاقب الحضارات الغابرة المتعددة عليها ، تتفاعل مع معطيات الفكر الإنساني الناتج من تلك الأمم ، وتتوارثه .

وتشكل المنجزات الحضارية الإسلامية ، في ميدان العلوم والمعارف ، جانباً مهماً في التاريخ الإسلامي ، ذلك أن النتائج المستخلصة من الدراسات المتعلقة بتاريخ العلوم عند المسلمين ، لها أهميتها البالغة ، وقيمتها الاعتبارية ، وذلك لأمور ثلاثة :

أولاً : محاولة التعرف على أسباب القوة والضعف ، التي أثرت في مسيرة العلوم ، والاستفادة من ذلك في إيجاد مرتكزات ننطلق من خلالها نحو إعادة الدور الذي قام به علماء المسلمين من قبل في حقول العلم ، والمعرفة .

ثانياً : البرهنة على القدرة العلمية الفذة للعقلية الإسلامية في تحقيق التقدم العلمي إذا سارت الأمة على النهج الرباني ، وجعلته المهيمن على حياتها .

ثالثاً : تقدير حجم الإنجازات التي حققها المسلمون في ميادين العلوم المختلفة ، للوقوف بقوة أمام النظرة الراسخة للدوائر الاستشراقية ، والمؤرخين لتاريخ العلوم منهم ،

ومحاولتهم تهميش أثر المسلمين في كتابة تاريخ العلوم ، وتطورها ، وقولهم بأن تاريخ العلم يبدأ من الإغريق بمرحلتين فقط : مرحلة اليونان (الإغريق) ، ومرحلة عصر النهضة . ولن يتحقق هذا الأمر ما لم يعمل أبناء هذه الأمة على إبراز منجزاتها في حقل العلوم ، وبيان الحلقة العظيمة التي شكلها المسلمون في سلسلة تاريخ العلوم .

ويمثل العراق في العصر الإسلامي نموذجاً رائعاً لتفاعل العقلية الإسلامية مع المعارف الموروثة عن الحضارات السابقة ، دون اضطراب أو تعنُّت . ذلك أن بلاد الرافدين تكتنز تراكمات حضارية لممالك ودول ، ظلت آثار منجزاتها الحضارية ، الفكرية والمادية ، تتفاعل مع تيارات ثقافية جديدة ، شرقية وغربية ، تعيشها مدنه الحضارية ، فقدمت ثقافة روحها الإسلام ، ثقافة تتناسب مع فطرة الإنسان ، بصورة أكثر وضوحاً من بقية البيئات الإسلامية الأخرى .

ولذا ، كان التقدم الذي حصل للعلوم في العراق في العصر العباسي يمثل مرحلة خطيرة في تاريخ العلم والمعرفة الإنسانية . فكان تهميش إسهام المسلمين في كتابة تاريخ العلم ، هو تهميش لأثر البيئة العراقية الإسلامية في هذا الأمر أيضاً .

وعند قراءة تاريخ العراق في العصر العباسي ، يلفت نظر القارىء ، أن هناك فترة زمنية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين ، شهدت أسماء لامعة من أهل العراق ، لهم تأثيرهم القوي والفعَّال في تاريخ العلم والفكر الإنساني . سواء على صعيد العلوم الإسلامية الخاصة ، كالعلوم الشرعية واللغوية . أو العلوم التي يشترك فيها المسلمون مع غيرهم من الأمم ، كالعلوم الاجتماعية ، وسائر العلوم التطبيقية (علوم الأوائل) .

وفي الوقت نفسه، يجد القارىء أن هذه الشخصيات عاشت في فترة سياسية حرجة عاشها العراق ، تمثلت في سطوة العنصر التركي على مقاليد الأمور في الدولة ، وسلب الخليفة حق التصرف في إدارة الدولة ، بصورة أظهرت العراق ، سياسياً ، في صورة هزيلة ، لا تتناسب مع مركز الخلافة الإسلامية ، أدخلت العباسيين في وضع اقتصادي متردي ، وتغير كبير في الخارطة الاجتماعية العراقية ، بدخول الكثير من الموروثات الأجنبية ،

من عادات ، وتقاليد ، ومفاهيم عن طريق العناصر الأجنبية ، فظهر اللحن في كلام القوم ، وتعددت رواسب وآثار وجود العنصر التركي في العراق . وقبل هذا وذاك ، لم يخل الوضع الديني من الاضطراب .

فإذا كان الوضع في العراق كذلك ، فإن هناك تساؤلات عدة تحتاج إلى إجابة شافية ، للتوفيق بين متناقضين . كيف كانت الحركة الثقافية تسير في ظل تلك الأوضاع العامة المتردية ؟ . وما هو موقف الخلفاء منها ؟ . وإذا كانت هناك حركة ثقافية « مزدهرة » ، ما هو حجم الإنجاز الذي حققته ؟ . وما هي الظروف التي أثَّرت في هذا الأمر ؟ . أخيراً ما هو السر في نشاط الناحية العلمية في ظل تلك الأوضاع ؟ .

مجموعة تساؤلات أثارت لدى الباحث الرغبة في الإجابة عليها ، من خلال دراسة موضوع :

الحياة العلمية في العراق خلال عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢ ـ ٣٣٤هـ/٨٤٧ ـ ٩٤٦م) .
وذلك لاعتبارات عدة ، منها :

١ ـ أن هذه الفترة تعتبر فترة مبكرة نسبياً لبعض العلوم الإسلامية ، وانتقالية لبقية العلوم من مرحلة الأخذ عن الأمم الغابرة ، من خلال الترجمة ، إلى مرحلة العطاء والابتكار ، وإبراز إسهام المسلمين المشرقيين ، على وجه الخصوص ، في ميدان تاريخ العلوم .

٢ ـ بروز العديد من العلماء المؤثرين في حقول العلوم المختلفة ، بل وشهدت بعضها بروز علماء فيها كانوا بمثابة المؤسسين أو الواضعين لقواعدها العلمية .

٣ ـ أن مصنفات علماء العراق ، في ذلك الوقت ، أصبحت مصادر أولية فيما بعد للأجيال القادمة من علماء المسلمين ، ووصول أغلب هذه المصنفات إلى أوروبا ، واعتبارها مصادر أولية لتأسيس نواةٍ لبعض العلوم في جامعاتها ، لا سيما في مجال العلوم التطبيقية .

٤ ـ ظهور معلومات جزئية عن الحياة العلمية ضمن دراسات سياسية ، أو اجتماعية ، أو اقتصادية . أو دراسات تعرضت لشخصية أحد خلفاء تلك الفترة . أو دراسات تتناول بعض الشخصيات العلمية والأدبية في ذلك الوقت .

وهذا النوع من الدراسات ، لم يعالج ـ أثناء الطرح ـ كافة جوانب الحركة العلمية ، والأوضاع المؤثرة فيها . إضافة ، إلى أن هناك بعض المؤلفات التي لا تتسم بالجدية العلمية ، من حيث المنهج ، وطريقة التوثيق ، وهي تبحث في الحضارة الإسلامية بصفة عامة ، مع تعرضها لشذرات عن نشاط العلوم في الأقطار الإسلامية بشكل عام وسريع ، من ضمنها العراق خلال فترة الدراسة . وسيرد الكثير من هذه الدراسات والمؤلفات في ثنايا البحث ، وحصرها في ثبت المصادر والمراجع في آخره .

وقد انتظمت هذه الدراسة في بابين وستة فصول . تسبقها مقدمة ، وعرض لأهم مصادر البحث ، وتمهيد عن الأوضاع العامة في العراق خلال فترة النفوذ التركي ، وأثرها على الحركة العلمية .

وخُصِّصَ **الباب الأول** للحديث عن النشاط العلمي في العراق خلال فترة النفوذ التركي ، في فصلين رئيسيين : ففي **الفصل الأول** ، تضمن الحديث عن عوامل رقي الحياة العلمية في العراق في ذلك الوقت ، وانحصرت في ثلاثة عوامل ، هي : اهتمام الخلفاء بالحركة العلمية ، وكذلك اهتمام الأمراء الأعيان به ، وأيضاً اهتمام العلماء بالحركة العلمية .

أما **الفصل الثاني** ، فيتناول مظاهر النشاط العلمي في العراق ، وهي : حركة الترجمة ، والوِراقة والوراقين ، وخزائن الكتب ، والعلاقات العلمية بين العراق والمراكز العلمية الأخرى ، والتربية والتعليم . حيث تم استعراض كل واحد من هذه المظاهر في مبحث مستقل ، لبيان أثرها في دعم الحركة العلمية .

وأُفرد **الباب الثاني** لدراسة شاملة عن النتاج العلمي الذي خلَّفه علماء العراق في شتى الميادين العلمية ، وبيان حجم هذا النتاج ، وأثره في إثراء المكتبة الإسلامية ، إذ يظهر بجلاء ، من خلال هذا الباب ، الإسهام الكبير لعلماء العراق في تاريخ العلوم . وذلك في إلماحة موجزة ، دون الخوض في الموضوعات والقضايا الدقيقة في تلك العلوم ، لكي لا يخرج البحث عن إطاره . وجرى تقسيم هذا الباب إلى أربعة فصول ، بحسب العلوم القائمة في ذلك الوقت :

حيث يتطرق **الفصل الأول** للدراسات الشرعية ، وما أضافه علماء العراق في : علوم القرآن ، وعلوم الحديث ، وعلم الفقه وأصوله .

في حين يبحث **الفصل الثاني** في الدراسات اللغوية والأدبية ، والمؤلفات التي وضعت في : علوم اللغة ، والنحو والصرف ، والأدب .

وفي **الفصل الثالث** من هذا الباب ، كان الحديث عن الدراسات الاجتماعية وبيان جهود علماء العراق في حقلي : التاريخ ، والجغرافيا .

وخُصِّصَ **الفصل الرابع** والأخير لدراسة النتاج العلمي لعلماء العراق في العلوم التطبيقية بكافة فروعها : الطبية ، من : طب وصيدلة . والطبيعية ، من علم : نبات وحيوان وكيمياء وفيزياء وعلم حيل . والرياضية ، من : رياضيات وهندسة وفلك .

وأُختُتم البحث **بخاتمة** تتضمن أهم النتائج المستخلصة من هذه الدراسة . تعقبها **ملاحق** توضيحية ومعينة أثناء البحث . ثم **ثبت بالمصادر والمراجع** المعتمدة في هذه الدراسة .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن هناك أربعة نقاط تتعلق بمنهجية البحث يجب توضيحها :

الأولى : أن البحث اقتصر على الشخصيات ، بمختلف فئاتها الاجتماعية ، الذين كانت سنة ولادتهم قبل عام (٣١٠هـ/٩١٧م) ، وإذا لم تتيسر معرفة سنة ولادته ، فإن الاعتماد في ذلك سيكون على القرائن المتعلقة بسيرته .

الثانية : السير بحسب التسلسل التاريخي لتاريخ وفاة الشخصيات التي يتم التطرق إليها أثناء البحث ، عندما يقتضي الموضوع تعدادهم . مع إهمال هذه القاعدة عندما لا تسمح طبيعة بعض النقاط التفصيلية للسير عليها .

الثالثة : اقتصار الترجمة للأعلام ، والأماكن ، والمصطلحات ، التي يقتضي البحث التعريف بها ، مع إهمال الترجمة لـ : الشخصيات التي لا تشكل أهمية في عدم ذكرها . وترك المشهور من الأماكن ، والواضح معناه بالنسبة للمصطلحات .

الرابعة : أن بيان حالة مصنفات علماء فترة الدراسة ، اقتصر على المؤلفات التي تيسر للباحث معرفة وضعها ، أما المؤلفات التي لم يشر الباحث إلى وضعها ، أهي مخطوطة ، أو مطبوعة ، فذلك يعني أنه لم تتوفر له أسباب التعرُّف على حالتها ، ولا يعني ذلك أنها مفقودة .

الخامسة : سوف يكون إيراد مصادر ترجمة علماء العراق في الباب الرابع في جميع فصوله عند تعدادهم في آخر ترجماتهم ، مع الخروج عن هذا المنهج في بعض الأحيان تبعاً لمقتضى الحال .

وما من شك في أن التصدى للموضوعات المتعلقة بتاريخ العلوم عند المسلمين تكتنفه بعض الصعوبات . ذلك أن وفرة المعلومات عن موضوع الدراسة ـ ولله الحمد ـ قد صاحبتها صعوبة في التوفيق بين النصوص تارة ، أو الوصول إلى نتيجة محددة حيال نقطة ما تارةً أخرى . إذ يتطلب الأمر ، النظر في المؤلفات التي تتعلق بجميع العلوم التي تضمنتها هذه الرسالة . وهو أمر يوشك أن يكون متعسراً ؛ نظراً لاختلاف طبيعة هذه العلوم ، الأمر الذي تطلب الرجوع إلى عشرات المؤلفات الشارحة والموضحة للقضايا الدقيقة ، وسؤال ذوي الاختصاص فيها .

وعلى الرغم من كل الصعوبات التي واجهت الباحث أثناء هذا العمل ، إلا أنه جهد المقل في حق التراث الإسلامي . والباحث يحدوه الأمل ، بأن تكون هذه الدراسة المتواضعة سهماً نحو المجحفين ، ودفاعاً عن العلوم عند المسلمين ، وإظهاراً لمكانتها في تاريخ العلوم بصورة أكثر عدالة ، ومكانة لائقة .

أسأل الله (عز وجل) أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه العظيم ، إنه جواد كريم ، وصلى الله على نبي الهدى والرحمة والعلم ، أزكى صلاة وأتم تسليم ، وعلى آله ، وصحابته أجمعين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباحث

عرض لأهم
مصادر البحث

عرض لأهم مصادر البحث

اعتمد الباحث ، في إنجاز هذا العمل ، على مجموعة كبيرة من المصادر الخطية والمطبوعة ، والمراجع والبحوث ، والمقالات . إذ يتطلب البحث في الجوانب الحضارية الإسلامية ، وخاصة تاريخ العلوم ، الرجوع إلى كتب مختلفة ومتنوعة في شتى العلوم ، ذلك أن كتب التاريخ العام قد أغفل أصحابها النواحي الحضارية في التاريخ الإسلامي ، وكان تركيزهم منصباً على الأحداث السياسية ، والاقتصادية ، ونحو ذلك .

وأمام هذا الأمر . فقد عُني الباحث في جمع المادة العلمية بالرجوع إلى كتب الطبقات ، والتراجم ، والسير ، والمسالك ، والممالك ، والوفيات ، والأدب ، واللغة ، والجغرافيا ، وكتب العلوم التطبيقية ، وغيرها . وكذلك مؤلفات علماء الفترة المتوفرة ، من مخطوط ومطبوع ، ليتسنى من خلالها الحصول على معلومات ، أو استنتاجات عن موضوعات معينة . إذ أن هناك العشرات من المصنفات ، الأصول منها والشروح ، والمعاجم لكل فرع من العلوم التي تضمنتها الدراسة . ومن بين عشرات المصادر والمراجع المعتمدة في هذا البحث ، فإن هناك بعض المصادر التي أسهمت في بناء البحث ، وكان الاعتماد عليها كثيراً في ثناياه ، لا سيما بعض المصادر المعاصرة لفترة الدراسة ، إذ كانت هناك بعض المؤلفات لعلماء العراق في هذه الفترة تم الرجوع إليها ، لاستقاء المعلومات منها .

وعلى الرغم من الرجوع إلى عدد كبير من المصادر الخطية الخاصة بعلماء فترة الدراسة والتي زادت على (٥٣) ثلاثة وخمسين مخطوط ، إلا أنها لم تُشكِّل مصادر أساسية للبحث إلا ما ندر ، إذ أنها تتعلق بقضايا علمية بحتة ، فكان الاعتماد عليها بكثرة في الباب الثاني ، عند استعراض النتاج العلمي للعلماء ، والتركيز على المعلومات المفيدة في تقويم نشاط تلك العلوم . ورأى الباحث أن يقتصر على نشر بعضها في هذه الدراسة ، والتي تشكل أهمية ـ في نظره ـ بالنسبة للعلوم المتعلقة بها ، وسوف يكون استعراض أهم تلك المصادر ، بحسب التسلسل التاريخي لوفيات أصحابها ، دون التمييز بين المطبوع منها ، والمخطوط :

ويعتبر كتاب « **فردوس الحكمة** » لابن ربن الطبـــري (ت ٢٤٧هـ/٨٦١م) من المصادر المهمة في إلقاء الضوء على بعض العلوم التطبيقية بوجه عام ، وفيه معلومات قيِّمة تمت الاستعانة بها بكثرة في مبحثي : العلوم الطبية ، والطبيعية . خاصة وأن ابن ربن أحد أطباء العراق في تلك الفترة ، فكان لكتابه أهمية كبيرة في بيان بعض الجوانب في تلك العلوم .

ولمؤلفـات الجـاحظ (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م) . وهـي : « **الحيوان** » ، و« **البيان والتبيين** » ، و« **الرسائل** » ، و« **البخلاء** » ، قيمة علمية في هذا البحث ، فقد رفدت هذه المصادر ـ موضوع الدراسة ـ بمعلومات قيِّمة في فصوله المختلفة ، وخاصة فيما يتعلق بالترجمة ، والتربية والتعليم ، وفصل العلوم اللغوية والأدبية ، وموضوع علم الحيوان . كما تمت الاستعانة بكتابه « **التبصر بالتجارة** » عند الحديث عن بعض الجوانب الخاصة بالسلع التجارية ، ومصادرها ، والتعريف بها ، وخواصها الكيميائية ، والفيزيائية . وتميز الجاحظ بتسجيل آرائه لأحداث عصره . ولذا ، كانت المعلومات التي يوردها في مؤلفاته ذات أهمية باعتباره من المعاصرين لفترة الدراسة وهي مبثوثة في ثنايا البحث .

أما مؤلفات الكندي (ت ٢٦٠هـ/٨٧٤م تقريباً) . وهي عبارة عن رسالتين ، الأولى بعنوان : رسالة « **في علة اللون اللازوردي** » ، والثانية بعنوان : رسالة « **في علة الثلج والبرد** » . فكانت الاستفادة منها منحصرة في موضوع علم الفيزياء .

وشكّلت مؤلفات حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠هـ/٨٧٤م) : « **العشر مقالات في العين** » ، و« **المسائل في الطب** » ، و« **رسالة في حفظ الأسنان واللثة** » ، رافداً مهماً للبحث في مواضع شتى من مبحث العلوم الطبية ؛ نظراً لمكانة حنين الطبية في وقته ؛ وأثر آرائه في توضيح ملامح ممارسة الطب في العراق في تلك الفترة . وكذلك تمت الاستعانة بها في بعض نقاط مبحث التربية والتعليم .

ومن مصادر البحث المهمة ، مؤلفات ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) . وهي : « **المعارف** » ، و« **أدب الكاتب** » ، و« **عيون الأخبار** » ، و« **الشعر والشعراء** » ، و« **الأنواء** » . وهو من علماء الفترة ، حيث جرى الاعتماد على مؤلفات ابن قتيبة في

التعريف ببعض الأعلام الوارد ذكرها في البحث ، لا سيما كتابه « **المعارف** » ، الذي يُعد معجماً للأعلام ، والأماكن ، والأيام ، والفرق ، والأمم الغابرة . واشتمل كتابه « **أدب الكاتب** » على العديد من المعلومات الخاصة بالكاتب ، وشروطه ، وآدابه ، ونحو ذلك ، وكانت الاستعانة به أكثر في موضوع الكتابة من مبحث علم الأدب . كما أفاد البحث من كتاب « **عيون الأخبار** » في مواضع شتَّى ، وخاصة مبحث التربية والتعليم ، إذ أورد ابن قتيبة معلومات جيدة عن المسائل المتعلقة بالكتاتيب ، وأساليب التعليم ، ومكانة المعلمين والمؤدبين ، ونحو ذلك . وتمت الاستعانة بكتابه « **الشعر والشعراء** » في ترجمة الشعراء السابقين لفترة الدراسة ، ويرد ذكرهم في ثنايا البحث . إذ لم يترجم ابن قتيبة لأي من شعراء العراق المعاصرين لفترة الدراسة ، سوى لدعبل بن علي الخزاعي (ت ٢٤٦هـ/٨٦٠م) .

ومن مصادر البحث المهمة أيضاً ، مؤلفات أبو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م). والتي منها : كتابا : « **الأخبار الطوال** » ، و« **النبات** » . وكانت الفائدة ضئيلة من الكتاب الأول ، إذ رجع إليه في حالات قليلة جداً من البحث . أما الكتاب الثاني ، فقد ضم بين دفتيه معلومات ذات قيمة عالية فيما يختص بعلم النبات ، وبعض النقاط في علم الحيوان ، وكثرت النقولات منه في هذين العلمين .

وتعد مؤلفات اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ/٩٠٥م) من الروافد المهمة لهذه الدراسة . وقد أفاد البحث من كتابه « **تاريخ اليعقوبي** » في الأخبار المتعلقة بخلفاء بني العباس حتى عهد الخليفة المعتمد ، الذي يتوقف عنده كتاب اليعقوبي . كما يذكر اليعقوبي بعض الأحداث والأزمات الاجتماعية ، والكوارث التي تعرضت لها مدن العراق في ذلك الوقت . وكانت فائدة كتابه بشكل واضح في فصل التمهيد ، ومبحث اهتمام العلماء بالحركة العلمية ، إضافة إلى استقاء بعض المعلومات عن أخبار الأمم السابقة ، وأخبار الفلاسفة اليونان ، لا سيما في فصل العلوم التطبيقية . كذلك تمت الاستعانة بكتابه « **البلدان** » في التعريف ببعض الأماكن الواردة في متن الرسالة ، خاصة المتعلقة بمدن العراق .

UMM AL-QURA UNIVERSITY

ولم يخلُ كتابه « **مشاكلة الناس لزمانهم** » من المعلومات الجيدة التي أوردها اليعقوبي عن الخلفاء العباسيين حتى عصر الخليفة المعتضد . فقد أراد اليعقوبي بكتابه هذا الحديث عن بعض الجوانب الاجتماعية . فقدم نماذج مختلفة من التقاليد التي سار عليها الناس ، وكان الأصل فيها تقليد الخلفاء . وهو أول كتاب يؤلف في موضوع « الأوائل » .

وتأتي أهمية مؤلفات اليعقوبي لقيمتها الاعتبارية ، فهو أحد أبناء بغداد المعاصرين لفترة البحث ، الذين شُغفوا بالتطواف ، ولم يكن مستقراً بها .

أما مؤلفات المبرِّد (ت ٢٨٦هـ/٨٩٩م) . لا سيما كتابي : « **الكامل في اللغة والأدب** » ، و« **الفاضل** » . فقد تمت الاستعانة بهما في مواضع عدة في فصل العلوم اللغوية والأدبية ، إذ يورد المبرد فيها الكثير من شروح المعاني ، والشواهد الشعرية لشعراء معاصرين له ، ولفترة الدراسة بالطبع ، جرى ذكرها عند الحديث عن هؤلاء الشعراء .

وكانت لمؤلفات ثعلب (ت ٢٩١هـ/٩٠٤م) حضور في مصادر هذه الدراسة ، ومنها : كتاب « **مجالس ثعلب** » . وقد أفاد منه البحث في مواضع ، منها : عدة مبحث : اهتمام العلماء بالحركة العلمية ، وكذلك مبحث : التربية والتعليم . أما كتابه الآخر ، وهو « **قواعد الشعر** » ، فقد تمت الاستفادة منه عند الحديث عن النقد الأدبي في مبحث علم الأدب .

واشتمل كتاب « **طبقات الشعراء** » لابن المعتز (ت ٢٩٦هـ/٩٠٨م) على معلومات مفيدة عن بعض الشعراء الذين ورد ذكرهم في ثنايا الدراسة ، وخاصة عند الحديث عن أبرز الشعراء الذين ظهروا في العراق في تلك الفترة ، حيث اهتم ابن المعتز بالترجمة للعديد من الشعراء المعاصرين له ، مما يجعل لمعلوماته أهمية كبيرة باعتباره من رجال العصر . كذلك كان كتابه الآخر ، وهو « **البديع** » من المصادر المعتمدة عند الحديث عن بعض القضايا الأدبية ، وخاصة في موضوع النقد الأدبي .

وأورد وكيع القاضي (ت ٣٠٦هـ/٩١٨م) في كتابه « **أخبار القضاة** » ترجمات لمجموعة من قضاة العراق ، حيث أن معظمهم كان من الفقهاء والمحدثين ، فأفاد الدراسة في فصل العلوم الشرعية في مواضع عدة .

ويُعتبر كتاب « **تاريخ الرسل والملوك** » للطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م) من المصادر الأساسية في كتابة التاريخ الإسلامي ، إذ رتبه مُصَنِّفُه على نظام الحوليات ، ووصل به إلى نهاية (٣٠٢هـ/٩١٥م) . ويحتوي الكتاب على معلومات قيِّمة تتعلق ببعض الشخصيات التي ورد ذكرها في البحث ، حيث يُلحق الطبري ، في بعض الأحيان ، ذكره لوفيات سنة معينة ، شذرات من أخبارهم المتفرقة . كما تمت الاستعانة بكتاب الطبري هذا ، عند الحديث عن المراسيم الصادرة عن الخلفاء في مناسبات مختلفة ، ومن بينها منشور الخليفة المتوكل إلى عُمَّاله في الآفاق بخصوص معاملة أهل الذمة في ديار الإسلام الخاضعة للحكم العباسي .

وتُعد مصنَّفات الرازي (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م) في الطب والكيمياء ، من المصادر التي استقى البحث منها كماً وفيراً من المعلومات في هذين الحقلين ، وهذه الكتب ، هي : « **الحاوي** » ، و« **المرشد أو الفصول** » ، و« **تقاسيم العلل** » ، و« **مالفارق** » ، و« **القولنج** » ، و« **التجارب في الطب** » . إذ تكمن أهمية المعلومات التي تحويها مصنفات الرازي تلك ، في إيمانه بأهمية التجربة في الحكم على النظريات العلمية . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن كتب الرازي تُعدُّ نموذجاً لنقد علوم القدماء ونظرياتهم ، في الطب على وجه الخصوص ، التي سرت في مناهج أطباء العراق في ذلك الوقت ، على نحو ما سيتضح أثناء الحديث عن العلوم الطبية . وتُعد رسالة الرازي : « **المدخل الصغير إلى علم الطب** » ، و« **أخلاق الطبيب** » من الرسائل المهمة ، التي رفدت البحث بمعلومات مهمة تتعلق بأخلاق ممارسة مهنة الطب ، وفي مبحث التربية والتعليم ، فيما يتعلق بالاستعدادات التي ينبغي لطالب الطب أن يحرص على اكتسابها قبل ممارسته هذه المهنة .

أمـا مـؤلفـات قـدامـة بن جـعـفـر (ت ٣٢٧هـ/٩٣٨م) . وهي : « **الخراج وصنعة الكتابة** » ، و« **نقد الشعر** » ، و« **نقد النثر** » ، فجاء الاعتماد عليها مقتصراً على مـواضـع عدة من مـبـحث علم الأدب ، وخـاصـة في مـوضـوع النقـد الأدبي . ووردت بـعض المعلومات المستقاة من كتاب « **الخراج وصنعة الكتابة** » في مبحث الفقه وأصوله .

وتشكِّل مـؤلفـات الصُّولي (ت ٣٣٥هـ/٩٤٦م) : « **أدب الكتاب** » ، و« **أخبار الشعراء المحدثين** » ، و« **أخبار الراضي بالله والمتقي لله** » ، و« **أشعار أولاد الخلفاء** » مورداً مهماً للدراسة . فالصولي أحد أدباء عصره المؤرخين ، وتعتبر مصنفاته ذات قيـمـة عـاليـة ، حيث تميَّز الصولي بالاهتمام بالقضايا الحضارية أكثر من السياسية . ومعاصرته لأغلب من كَتَب عنهم ، مما يجعل لرواياته نوعاً من المصداقية في بعض الجوانب . ولذا ، جاءت فائدة مصنفاته في أكثر موضوعات الدراسة . ولكتابه « **أخبار الراضي بالله والمتقي لله** » موقع مهم بالنسبة للمصادر التي تحدثت عن هذين الخليفتين ، إلا أنها لم تكن بالصورة التي جاء بها الصولي في كتابه ، فهو متصلٌ بهما منذ أن تولى تأديبهما ، ثم في زمرة ندمائهما فيما بعد ، وخاصة الخليفة الراضي .

ويُعد كتاب « **مجالس العلماء** » لأبي إسحاق الزَّجَّاجي (ت ٣٣٧هـ/٩٤٩م) ، من المصـادر المهمـة التي أثرت الدراسـة بمعلومات غـزيرة ، ومـهـمـة في نفس الوقت نفسـه ، عن مجالس العلم التي كان يعقدها العلماء ، وما كان يجري بينهم من مناظرات علمية في علوم اللغة والأدب . وكان التركيز على هذا الكتاب في مبحثي : اهتمام العلماء بالحركة العلمية ، والتربية والتعليم . وفي بعض المواضع من فصل : العلوم اللغوية والأدبية بشكل عام .

وشكَّلت مـصنفـات المسـعـودي (ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م) ، وهي : « **مروج الذهب ومعادن الجوهر** » ، و« **التنبيه والإشراف** » ، أهمية كبيرة في بناء هيكل البحث . إذ تميزت بالجمع بين التاريخ ووصف الأقاليم الإسلامية وصفاً جغرافياً ، وقد أفاد البحث من هذين المصدرين بشكل واسع في هذه الدراسة ، وخاصة « **الكتاب الأول** » .

ولعل ما يميز المسعودي عن بقية مؤرخي العصر ، أن المسعودي ، وإن كان عراقي المولد والنشـأة ، إلا أنه كتب هـذين الكتـابين وهـو يعـيش في منفـاه ، متنقـلاً مـا بين الشـام

ومصر، وهو ما يُصرِّح به كثيراً في هذين الكتابين . ولذا ، نراه يكتب بـ « حرية » عن خلفاء بني العباس المعاصرين له ، ومن حسن الحظ أنه عاصر جميع خلفاء فترة الدراسة .

ومما أكسب كتبه قيمة علمية ، اهتمامه بالجوانب الأخرى في شخصية الخلفاء بعيداً عن السياسة ، وأيضاً إيراده للكثير من تراجم العلماء والأدباء عندما يتناول فترة كل خليفة من الخلفاء الذين جاء ذكرهم في كتابه « **مروج الذهب** » . على أن المسحة الشيعية التي تبدو في بعض نصوص كتبه ، تجعل الأخذ منها يكون على درجة من الحذر .

ومن المصادر التي أثرت البحث ، كتاب « **أخبار النحويين البصريين** » للسِّيرَافي (ت ٣٦٨هـ/٩٧٨م) . وتأتي أهمية هذا المصنَّف ، أن صاحبه كان من العلماء المعاصرين لفترة الدراسة ، وترجم للعديد من أعلام البصريين في اللغة والنحو ، ممن كانوا المعاصرين له ، مما أكسب أخباره أهمية ، باعتباره شاهداً على ذلك العصر . وبوجه عام ، فقد تمت الاستعانة بهذا المصدر في كثير من المواضع التي جاء فيها ذكر العلماء الذين ترجم لهم .

وكان لكتاب « **طبقات النحويين واللغويين** » للزُّبيدي (ت ٣٧٩هـ/٩٨٩م) أهمية كبيرة ، كأحد المصادر المعينة في كثير من مواضع البحث ، وخاصة فيما يتعلق بالعلوم اللغوية والأدبية ، وتراجم أعلامها ، والمواضع التي جاء ذكرهم فيها من البحث .

وتبدو أهمية هذا الكتاب ، أن الزبيدي يُعتبر من علماء الأندلس المشهورين في اللغة والنحو ، ولذا كانت آراؤه ، والمعلومات التي قدمها ، ذات قيمة عالية ، فهي صادرة عن عالم متخصص ، وبارز في مجاله .

ويُعتبر كتاب « **الفهرست** » للنديم (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) أهم مصادر البحث . إذ ساهم ، وبشكل كبير ، في المادة العلمية للبحث . وقد الاستعانه به الباحث في جميع فصول الدراسة ومباحثها دون استثناء . وتأتي مكانة هذا الكتاب المتميزة ، أنه يُعد أفضل كتاب أخرجه المسلمون في باب فهرسة العلوم ، وإحصائها ، والحديث عن أبرز أعلامها ، ومؤلفاتهم . واهتمام المؤلف بالجوانب الحضارية ذات العلاقة بنشاط العلوم ، كالوِراقة ، وأشهر الورَّاقين ، والخط ، من حيث أنواعه ، وتاريخه ، وأبرز الخطَّاطين ، ومناهجهم ،

وغيرها من الأمور ذات الأهمية بالنسبة لدراسة الحياة الثقافية في الدولة الإسلامية حتى أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي تقريباً .

أما كتاب « **طبقات الأطباء والحكماء** » لابن جُلْجُلْ (ت بعد ٣٨٤هـ/٩٩٤م) فيعتبر من أهم الكتب المتعلقة بأخبار الأطباء ، وتراجم المشهورين منهم . وعنه نقل من جاء بعده ممن كتب عن الأطباء والحكماء ، كالقفطي ، وابن أبي أصيبعة ، والعُمَري ، وابن العِبري . وجاءت فائدة هذا الكتاب بالنسبة لهذه الدراسة في المواضع التي جاء فيها ذكر أخبار تتعلق بالشخصيات التي ترجم لهم ابن جُلْجُلْ ، وكانوا معاصرين لفترة الدراسة، وخاصة في مبحث : علم الترجمة ، وفصل : العلوم التطبيقية .

ومن المصادر المهمة التي جرى الاعتماد عليها كثيراً في هذه الدراسة ، كتاب « **تجارب الأمم** » لمُسْكَوَيه (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م) . وهو من المصنَّفات التاريخية التي توسَّع فيها المصنف في ذكر الأحوال السياسية ، والمعلومات المتعلقة بالنواحي الاقتصادية . وقد أفاد البحث منه بشكل خاص في فصل التمهيد ، وبعض المواضع المتفرقة من البحث .

كما أفاد البحث بشكل واسع من مصنفات الثعالبي (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) وهي : « **أداب الملوك** » ، و« **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر** » ، و« **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** » . وذلك في أماكن متعددة من البحث ، ماعدا الكتاب الأول ، فقد اقتصر الاعتماد عليه في مبحث اهتمام الخلفاء بالحركة العلمية . ويُعد الكتابين الآخَرَيْن ، من الكتب الأدبية الغنية بالمعلومات التي قد لا توجد في بقية كتب الأدب والتراجم .

ويُقدِّم كتاب « **الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** » للصابيء (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) ، معلومات مهمة قد لا تتوفر في أي مصدر آخر . وهذه المعلومات تتعلق بسيرة بعض وزراء فترة الدراسة ، وأخبارهم مفصَّلة ، كالوزير أبي الحسن ابن الفرات ، ومحمد بن عبيد الله بن يحي بن خاقان ، وحامد بن العباس ، وعلي بن عيسى بن الجراح . حيث خَصَّص الصابيء كل كتابه للحديث عن الوزارة العباسية في عهد هؤلاء الوزراء ، وما صاحب فترة وزارتهم من أحداث لها علاقة بجوانب من شخصياتهم ، تمت الاستعانة بها عند الحديث عن هؤلاء الوزراء في مواضع من البحث ، لا سيما في موضوع اهتمام الوزراء بالحركة العلمية .

كما كانت الفائدة جيدة من هذا الكتاب ، والكتاب الآخر للصابيء « **رسوم دار الخلافة** » في التعرُّف على النفقات الخاصة بـ « بيمارستان صاعد » في بغداد ، ونفقات الأطباء ، وأصحاب الصيد ، والقائمين على رعاية الدواب ، وخاصة حيوانات الصيد ، من مستخدمين ، وأطباء بيطريين . وذلك في فترات معينة خلال عصر نفوذ الأتراك ، على نحو ما سيتضح في موضوع علم الطب ، وعلم الحيوان .

ورَفَد كتاب « **زهر الآداب وثمر الألباب** » للحُصَري (ت ٤٥٣هـ/١٠٦١م) البحث بمعلومات غزيرة في جوانب شتى من البحث . نظراً لنفاسة هذا الكتاب ، وهو كما يصفه المتقدمون بأنه : « جمع كل غريبة » ، بفضل ذوق صاحبه الأدبي الصرف ، فكان كتابه بمثابة دائرة معارف أدبية . ولذا ، فقد اعتمدت على هذا الكتاب في أغلب فصول البحث تقريباً .

ومن المصادر المعتمدة في الدراسات المتعلقة بالعلوم التطبيقية كتاب « **طبقات الأمم** » لصاعد الاندلسي (ت ٤٦٢هـ/١٠٧٠م) ، حيث يكشف المؤلف عن الجهود التي قام بها علماء تلك العلوم خلال تلك الفترة ، وجاء الاعتماد عليه بكثرة في مبحث الترجمة ، وفصل العلوم التطبيقية بلا استثناء .

ومن المصادر المهمة في بناء هذا البحث ، كتاب « **تاريخ بغداد** » للخطيب البغدادي (ت ٤٦٧هـ/١٠٧٤م) . إذ يُعد كتابه هذا أهم مصدر لتاريخ مدينة بغداد العلمي حتى عصر المؤلف ، وجاءت أهمية هذا الكتاب ، لما تضمنه من معلومات غزيرة جداً عن جوانب من الحياة الثقافية في عاصمة الخلافة العباسية ، جاءت في ثنايا التراجم التي عقدها للمحدِّثين الذين خصهم بكتابه ، وجاءت المعلومات موزَّعة على أغلب صفحات البحث دون استثناء ، إذ كثرة المعلومات المستفادة من هذا الكتاب . إضافة إلى الدراسة المفُصَّلة لخطط بغداد ، والتي استهل بها الكتاب . إذ رفدت البحث في بعض جوانبه بمعلومات تعتبر عزيزة في وجودها .

كما كان لبعض مؤلفات الخطيب البغدادي الأخرى ، وهي : « **الكفاية في علم الرواية** » ، و« **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع** » ، و« **شرف أصحاب**

الحديث » ، و« **الرحلة في طلب العلم** » قيمتها العلمية في المعلومات التي أوردها المؤلف فيها ، وقد استقى منها الباحث المعلومات الخاصة بالرحلة في طلب العلم ، وما يتعلق بها ، وأيضاً في مبحث : التربية والتعليم ، وكذلك في مبحث : علم الحديث .

وأفاد البحث أيضاً من كتاب « **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** » لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) . وهو كتاب حولي في التاريخ الإسلامي العام ، يقدم فيه مؤلفه معلومات جيدة عن الأوضاع السياسية ، والأزمات الاقتصادية ، مع ترجمة موجزة لبعض الأعلام المتوفين في كل عام . فكانت نصوصه ذات فائدة للكثير من موضوعات البحث ، وخاصة في فصل التمهيد ، وكذلك فيما يختص بنشاط بعض العلماء العلمي ، وشذرات متفرقة منه في مواضع أخرى من البحث بشكل عام ، وخاصة في فصول الباب الثاني من هذه الدراسة .

كما كان لمؤلفات ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) ، وهي : « **معجم الأدباء** »، و« **معجم البلدان** » ، و« **المشترك وضعاً والمفترق صقعاً** » ، دور في إثراء البحث في جميع فصوله ، لا سيما الكتاب الأول ، لما حواه من معلومات تفصيلية عن حياة العلماء ، والأدباء ، الذين ترجم لهم في كتابه هذا ، حيث يذكر جوانب متعددة من حياتهم أمدت البحث بقدر لا يستهان به من المعلومات المستفيضة ، كاشتغال بعضهم بالوِراَقة ، وذكر خزائن الكتب لبعض من ترجم لهم ، وحجم سعتها ، ونحو ذلك . هذا فيما يتعلق بكتاب ياقوت الأول ، أما الكتابين الآخرين ، فكانا من أهم مصادر البحث في الكشف عن المدن ، والتعريف بها ، وقد تميز كتاب « **معجم البلدان** » بغزارة المعلومات ، وسعة الرقعة الجغرافية التي تناولها مُصنِّفه .

ومن أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث في تكوينه ، كتاب « **الكامل في التاريخ** » لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) . إذ يُعتبر ابن الأثير من أعظم مؤرخي الإسلام ، ويُعد كتابه هذا من أهم مصادر التاريخ الإسلامي ، التي لا يستغني عنها أي مؤرخ ، وهذا الامتياز نابع من نهج مؤلفه ، وتوخيه الصدق ، والدقة في الكتابة ، بشكل مختصر غير مخل ، وكذلك جدة بعض المعلومات التي انفرد بها ابن الأثير عن غيره من

المؤرخين . مع تعليقه على بعض الأحداث التي يرى ضرورة توضيحها . وقد نهج ابن الأثير الطريقة الحولية في التأليف ، ويتوقف بكتابه هذا إلى سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) . ولقد أفاد البحث من هذا المصدر في أغلب فصول البحث بلا استثناء ، ذلك أنه يذكر وفيات كل عام في نهاية حديثه عن تلك السنة ، مع نبذة قصيرة عن المشهورين منهم .

وللقفطي (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) ومصنفاته : « **إنباه الرواة على أنباه النحاة** » ، و « **تاريخ الحكماء** » ، و « **المحمدون من الشعراء** » أثر كبير في بناء هيكل البحث ، وخاصة كتابيه الأولين ، وتكمن أهمية كتابه الأول ، بأن القفطي جمع فيه أغلب ما كُتب عن الشخصيات التي ترجم لها . ولذا كانت معلوماته خلاصة لكل من كتب قبله عن أى شخصية من تلك الشخصيات . ولهذا ، كان الاعتماد عليه كبيراً في جميع فصول الرسالة بلا استثناء . وخاصة فيما يتعلق بتراجم أهل اللغة والأدب . أما كتابه الثاني ، فهو أحد المؤلفات الوحيدة في تاريخ الإسلام ، التي اهتمت بترجمة علماء المسلمين ، وغيرهم ، الذين برزوا في العلوم التطبيقية . ولذا ، كان لكتابه هذا أهمية بالغة في رصد إنجازاتهم . وكان من المصادر المعتمدة في أغلب فصول الرسالة أيضاً .

ويُعد كتاب « **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** » لابن أبي أُصَيْبِعة (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) ، من أهم المصادر التي أسهمت في توفير المادة العلمية الخاصة بالدراسات الخاصة بالعلوم التطبيقية بلا استثناء . وخاصة في مبحث العلوم الطبية ، وما يختص بمستشفيات بغداد ، وما يتعلق بها . ويُقدِّم ابن أبي أصيبعة معلومات عزيزة المنال في بقية المصادر التي ترجمت لأصحاب تلك العلوم ، إذ تميَّز بسعة الاطلاع على نفائس المصادر ، وأكثر مؤلفات الأعلام الذين ترجم لهم ، فيورد معلومات عن مؤلفات فُقدت مع الزمن ، ولم يتسَّن لأحد غيره أن يطلع عليها ، فانفرد بالكثير من النصوص عن جوانب مختلفة من حياة شخصيات كتابه ، تمت الاستعانة بها في مباحث مختلفة من البحث .

ولا يقل كتاب « **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** » لابن خِلِكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) أهمية عن كتاب ابن أبي أصيبعة في غزارة المعلومات التي أفاد منها البحث في أغلب موضوعاته ، إذ قدم في مؤلفه تراجم وافيه لأبرز الأعلام ، في مختلف

العلوم والمعارف ، من فئات المجتمع ، من خلفاء ، ووزراء ، وغيرهم . ولذا كان هذا الكتاب من المصادر التي لا يستغني عنها أي باحث في تاريخ العلوم . ومما تميز به ابن خلِّكان عن غيره ، أنه في أغلب التراجم إن لم تكن جميعها ، يشرح العِلة في تسمية الشخصية الفلانية بالكُنية ، أو الإسم المشهور به .

ومن كتب التاريخ التي رفدت هذه الدراسة بمعلومات مستفيضة ، كتاب « **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** » لابن الطِّقْطَقِي (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م) . ومن عنوانه ، يتضح موضوع الكتاب ، وتركيز مؤلفه على الأمور الخاصة بالملك ، وسياسته ، نهج فيه مؤلفه المنحى الموضوعي ، لا الحولي ، في تأليفه ، وقد أفاد البحث في مواضع مختلفة من الدراسة .

وتُعتبر مؤلفات الذهبي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) ، وهي : « **تاريخ الإسلام** » ، و« **تذكرة الحفاظ** » ، و« **معرفة القراء الكبار** » ، و« **الأمصار ذوات الآثار** » ، و« **دول الإسلام** » . من الروافد المهمة جداً التي استقى الباحث منها معلومات غزيرة مبثوثة في ثنايا البحث بشكل عام ، وأسهمت في بنائه ، وتميَّز الذهبي في مصنفاته بذكر الآراء التي قيلت في الشخصيات التي ترجم لها في مصنفاته تلك ، سواء في مدحه أو قدحه .

كما أفاد البحث من السفر التاسع من كتاب « **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** » للعُمَري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) ، والذي خَصَّصَه المؤلف للحديث عن أبرز أطباء الممالك الإسلامية ، وحكمائها وقدَّم العُمَري ، في ترجمته لهم ، معلومات قيِّمة استعان بها الباحث عند الحديث عن نشاط العلوم التطبيقية بوجه خاص ، والمناسبات المختلفة في ثناياه ، التي يرد فيها ذكر المواقف التي يكون فيها أحد أعلام كتابه .

وكان لابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م) وكتابه « **البداية والنهاية** » ، فضل في إعداد مادة البحث ، والاعتماد عليه في أغلب فصوله ، وذلك للمعلومات المفصَّلة التي يأتي بها عند حديثه عن أحداث كل عام ، ووفياته فيفرد ، بعد ذلك ، ترجمة للأعلام البارزة ، فيجمل الحديث عنها ، مع تسجيل رأيه في بعض الأحيان لما يورده من معلومات عن تلك الشخصيات . وقد سار ابن كثير في كتابة تاريخه على المنهج الحولي .

وشكَّلت مصنَّفات السُّيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) ، وهي : « **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** » ، و« **طبقات الحفاظ** » ، و« **وطبقات المفسرين** » ، وغيرها ، مصادر مهمة لفترة البحث ، وخاصة في الأخبار المتعلقة بعلماء الشريعة ، واللغة ، والنحو . حيث ذكر المؤلف معلومات جيدة عن جوانب من حياة شخصيات كتبه الثقافية .

وهناك العديد من المصادر المتخصصة في تراجم رجال المذاهب الأربعة ، كَثُرَ الإيعاز عليها في صفحات البحث ، عدا الفصل الخاص بالعلوم التطبيقية .

ومن هذه المصادر : كتاب « **طبقات الفقهاء** » للشِّيرازي (ت ٤٧٦هـ/١٠٨٣م) ، وكتاب « **طبقات الحنابلة** » لابن أبي يَعْلى (ت ٥٢٦هـ/١١٣١م) ، وكتاب « **طبقات الشافعية الكبرى** » للسُّبْكِي (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) ، وكتاب « **طبقات الشافعية** » للأسْنَوي (ت ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م) ، وكتاب « **تاج التراجم** » لابن قُطْلُوبُغَا (ت ٨٧٩هـ/١٤٧٤م) ، وكتاب « **المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد** » للعَلَيمي (ت ٩٢٨هـ/١٥٢٢م) ، وكتاب « **الفوائد البهية في تراجم الحنفية** » للكَنَوِي (ت ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م) ، وغيرها .

وما ذُكر في الصفحات السابقة لا يعني حصر مصادر البحث ، وإنما هي أهم المصادر التي أسهمت أكثر من غيرها في بناء هيكل البحث . وإلا فهناك العشرات من المصادر ، والمراجع ، والدوريات ، كوَّنت مجتمعة هذه الدراسة ، وقد جرى حصر جميع مصادر المعلومات الخاصة بها في ثبت خاص بالمصادر والمراجع في آخر البحث يمكن الرجوع إليه .

التمهيد

التمهيد

الأوضاع العامة في العراق وأثرها على الحركة العلمية

قبل الخوض في غمار موضوع الحياة العلمية فإنه لزاماً علينا أن نستشرف الأوضاع التي كان يعيشها العراق في تلك الحقبة التاريخية ، لما لهذا الأمر من أهمية في التعرف على الظروف المصاحبة لنشاط العلوم ، ومدى تأثيرها عليها .

لقد جاء الخليفة المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/٨٤٧ ـ ٨٦١م) إلى سدة الخلافة بعد وفاة الواثق ، بترشيح ومساندة القادة الأتراك في الجيش (١) .

ونهج المتوكل سياسة محددة أراد من خلالها تحقيق ثلاثة أهداف ، هي (٢) :

١ ـ الانتصار لمذهب أهل السنة والجماعة ، والقضاء على المعتزلة .

٢ ـ التشديد على الشيعة ، وأهل الذِّمّة .

٣ ـ الحد من نفوذ الأتراك في الخلافة .

وأمام هذه الأهداف ، كان الخليفة المتوكل يرسم سياسته في الحكم ، وتحقيق قدراً مناسباً من الاستقرار السياسي . فقد قريء على المنبر كتاب المتوكل إلى أهل بغداد بالتوقف عن القول بخلق القرآن ، وحضر المناقشة ، والكلام حول القرآن الكريم ، والكف عن الخوض في علم الكلام ، والفلسفة ، والجدل (٣) .

فكان هذا الأمر انتصاراً لأهل السنة والجماعة ، وضربة قوية للمعتزلة ، ظلت آلامها طيلة أيام المتوكل .

وكتب المتوكل إلى عمّاله في الآفاق سنة (٢٣٥هـ/٨٤٩م) كتاباً بشأن أهل الذِّمّة ، وما يتعلق بالضوابط التي يجب أن يلتزموا بها في طريقة لبسهم ، ومشيهم ، وفي صفة بيوتهم ، والدواب التي يستخدمونها في الركوب ، ونحو ذلك (٤) .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (١٥٤/٩) .

(٢) فاروق عمر : الخلافة العباسية ، ص ٦٣ .

(٣) البلخي : البدء والتاريخ ، (٢٠١/٢) .

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (١٧١/٩) . وانظر نفس الكتاب في ملحق رقم (٣) في آخر الرسالة .

ولم يفتأ المتوكل عن اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لمحاربة تسلط القادة الأتراك . واستطاع التخلص من القائد التركي « إيتاخ » سنة (٢٣٥هـ/٨٤٩م) [١] ، وكوَّن فِرقاً عسكرية في الجيش من العناصر العربية ، وعناصر أخرى ، ليقابل بها سطوة العنصر التركي [٢] . بل وأقدم على خطوة جريئة نحو الاستعانة بالعنصر العربي ، عندما عزم على نقل مركز الخلافة من سُرَّ مَنْ رأى إلى دمشق ، حيث توفر النفوذ العربي . وفي سنة (٢٤٣هـ / ٨٥٨م) رحل المتوكل إلى دمشق ، ولم يضع في حسبانه أن نفوس أهل الشام لم تكن تتقبل العباسيين . ففي كنفهم حكم الأمويون بقاعاً شاسعة ، وكانت دمشق عاصمة دولتهم . وكما كان الأمر متوقعاً ، فلم ترق دمشق للمتوكل ، خاصة وأنه واجه أثناء مقامه فيها شغب جند الشام ، وطالبوه بالعطاء ، ثم تجرأوا إلى حد البدء برمي النشاب على مقر الخليفة . وفي نهاية الأمر عاد المتوكل إلى سُرَّ مَنْ رأى مرة أخرى [٣] .

ولقد وقف المتوكل ضد الشيعة العلوية ، وضيق الخناق عليهم ، وعلى أنشطتهم . فأمر في سنة (٢٣٦هـ/٨٥٠م) بهدم قبر الحسين بن علي (رضي الله عنه) ، وهدم ما حوله من المنازل والدور ، وأن يبذر ويسقى موضع قبره . وأن يمنع الناس من إتيانه . وهدد من يزوره بالسجن ، فترك الناس زيارته [٤] .

إن الأعمال السابقة التي نفذها المتوكل على الصعيد الداخلي ، قد أوجدت نوعاً من الاستقرار في الداخل بوجه عام . غير أن انشغاله بضبط الأمور الداخلية في مقر الخلافة قد أدى إلى ظهور الفوضى في الأقاليم الخارجية ، وقويت الميول الانفصالية ، فازداد خطر الصفاريين في سجستان ، وثارت حمص سنة (٢٤٠هـ/٨٥٤م) [٥] ، وحاولت أرمينية الانفصال [٦] . كما استغل البيزنطيون الفرصة ، وهجموا على السواحل المصرية ، فأحدثوا النصب ، والحرق ، والسبي في ميناء دمياط سنة (٢٣٨هـ/٨٥٢م) [٧] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٧/٤٦ ـ ٤٧) .

(٢) فاروق عمر : الخلافة العباسية ، ص ٤٢ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ، (٤/١١٤ ـ ١١٥) .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٧/٥٥) .

(٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٩/١٩٧) .

(٦) المصدر السابق ، (٩/١٨٧) .

(٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٧/٦٨ـ ٦٩) .

غير أن عهد المتوكل تميَّز بكثرة النفقات ، إذ أسرف الخليفة وأسرته على بناء القصور في سُرَّ مَنْ رأى ، حتى قيل عنه ((إنه لم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها في أيام المتوكل)) ⟨١⟩ . وعندما أقدم الوزراء والكتَّاب على الاختلاس والخيانة ، عمل المتوكل على اتباع سياسة « المصادرة » ، وهي تدل على الفساد الإداري الذي كانت تعاني منه الدولة ، وفقدان الأمانة عند المسؤلين ⟨٢⟩ . ولم يحتمل القادة الأتراك ضغط المتوكل عليهم ، وتضييقه الخناق عليهم ، فدبروا مؤامرة قتله ، وقاموا بتنفيذها في شوال سنة (٢٤٧هـ/٨٦١م) . كانت نتيجتها مقتل المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ⟨٣⟩.

وبمقتل الخليفة المتوكل ، دخلت الخلافة العباسية منعطفاً جديداً ، اشتدت فيه سطوة الأتراك على مقاليد الأمور ، وأصبح بيدهم تماماً اختيار الخليفة وعزله . ولم يبق للخلفاء شيء من الممارسة السياسية سوى الإسم فقط ، ((فكان الخليفة في أيديهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه)) ⟨٤⟩ .

ونصَّب الأتراك ، بعد مقتل المتوكل ، ابنه **المنتصر** (٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ/٨٦١ ـ ٨٦٢م) ، الذي لم تدم فترة خلافته سوى (ستة أشهر) . أحكم خلالها الأتراك قبضتهم على زمام الأمور ، وسلبوا منه كل مقومات الخلافة ، بل وكان ينفذ أوامرهم ، ومنها : إجباره لأخويه ، المعتز والمؤيد ، على تنازلهما عن الخلافة ، بناءً على رغبة الأتراك ⟨٥⟩ .

ولقد ضاق المنتصر ذرعا من تصرفات الأتراك ، وكان يعلن دائماً عن سخطه عليهم ، ويهددهم بالقتل ، إلا أن الأتراك باغتوه بالقتل قبل أن يقدم عليه هو ، فأوصوا طبيبه الخاص ابن الطيفوري بأن يتولى هذا الأمر ، حيث قام بفصده بمبضع مسموم فمات بسببه ⟨٦⟩ .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، (١٢٢/٤) .

(٢) ضيف الله الزهراني : النفقات وإدارتها في الدول العباسية ، ص ٦٨ .

(٣) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، (٤٥٧/٢) .

(٤) ابن الطقطقي : الفخري ، ص ١٩٧ .

(٥) ابن العمراني : الإنباء في تاريخ الخلفاء ، ص ١٢١ .

(٦) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٢٥١/٩ ـ ٢٥٢) .

وتولى الخلافة بعده **المستعين** (٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ/٢٦٢ ـ ٨٦٦م) ، وجاء اختياره من قبل الأتراك ، وفق مواصفات محددة في شخصه أرادها الأتراك بما يتوائم مع مصالحهم الذاتية . وقام المستعين ، ولأول مرة ، بتعيين قائد تركي من الجيش وهو : أوتامش وزيرا له [١] . وكان المستعين ضعيف الشخصية ، واقعا تحت تأثير أمه ، وسطوة الأتراك . وكان التنافس على أشده بينهم حول النفوذ ، فأصبحت هناك جبهة أوتامش الوزير من جهة ، وجبهة القائدان التركيان : وصيف ، وبغا من جهة أخرى .

وانتهى التنافس بينهم بمقتل أوتامش ، وخلفه باغر على منصب الوزارة ، ولكنه لقي حتفه هو الأخر على يد وصيف ، وبغا [٢] .

وزاد أمر الأتراك سوءاً ، مما أدى إلى وقوع فتنة عظيمة في الجانب الشرقي من بغداد أوائل صفر سنة (٢٤٩هـ/٨٦٣م) ، وذلك أن الناس ضاقوا ذرعاً من تصرفات الأتراك ، وتغلبهم على أمر الخلافة ، وما أقدموا عليه من قتل المتوكل ، واستضعافهم للمنتصر ، والمستعين من بعده . وفي ربيع الأول من السنة المذكورة نهض الناس من أهل سُرَّ مَنْ رأى ثائرين ، وأخرجوا من في السجن ، كما فعل أهل بغداد ، وشغبوا في المدينة . عند ذلك ركب وصيف وبغا الصغير ، وعامة الأتراك ، فقتلوا من العامة خلقاً كثيراً ، وجرت فتنة طويلة ثم سكنت [٣] .

هذه التداعيات جعلت المستعين يبذل مساعيه في سبيل إضعاف سطوة الأتراك . فرحل إلى بغداد سنة (٢٥١هـ/٨٦٥م) ، ومعه أنصاره من الأتراك . ولم تفلح معه محاولات القادة الأتراك لثنيه عن قراره ، ومحاولة إقناعه بالعودة إلى سُرَّ مَنْ رأى ، حيث أن وجوده فيها يكسب وجودهم فيها أيضاً الصفة الشرعية ، مما يجعلهم يعملون بإطمئنان نحو تحقيق أهدافهم ، ومصالحهم الذاتية .

---

(١) القضاعي : عيون المعارف ، ص ٤٦١ ، ٤٦٢ .

(٢) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، (٢٢١/١ ـ ٢٢٢) .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، (٣/١١) .

ولما رفض المستعين طلبهم ، قاموا بمبايعة ابن عمه المعتز بالخلافة ، وأصبح هناك خليفتان للدولة العباسية ، أحدهما ببغداد ، والآخر بسُرَّ مَنْ رأى ، وفي ذلك دلالة على الوضع الهزيل والمزري الذي كانت تعيش فيه خلافة بني العباس في ظل هيمنة العنصر التركي على مقاليد الأمور .

ولكن المستعين لم يصمد في المواجهات التي حدثت بينه ، وبين المعتز ، اضطر معها أن يخلع نفسه سنة (٢٥٢هـ/٨٦٦م) ، ورحل إلى واسط ، حيث قتل هناك بتدبير من القادة الأتراك [١] .

ولم يكن حال المستعين بأحسن من أخيه المنتصر . فقد اضطربت الأمور المالية بشكل سيء حيث أطلق يد أوتامش ، وشاهك الخادم ، وأمه أيضاً ، في أموال الأمة ((فكانت الأموال ترد على السلطان من الآفاق إنما تصير إلى هؤلاء)) [٢] ، و ((أطلق يد أوتامش ، وشاهك الخادم في بيوت الأموال ، وأباحهما فعل ما أرادا فعله فيها)) [٣] .

فكان ذلك سبباً في شيوع حالة الفوضى ، والاضطراب ، وكثر الشغب في مدن العراق ، كما سلف ، نتيجة لذلك .

أصبح **المعتز** (٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ/٨٦٦ ـ ٨٦٩م) الخليفة الجديد بعد المستعين ، وقد جاء به الأتراك إلى الحياة السياسية . واستمر التنافس فيما بينهم حول النفوذ ، وظهرت شخصية بايكباك التركي ، الذي استطاع السيطرة على الأمور أمام وصيف وبغا ، اللذان تجاوزا كل حد في علاقتهما بالخليفة ، حتى أن المعتز كان يتمنى التخلص منهما ، وخاصة بغا .

وفعلاً ، نجح المعتز في التخلص من بغا بقتله ومصادرة أمواله . وعمل على دعم فرق المغاربة والفرغانيين في الجيش ، للوقوف في وجه طغيان العنصر التركي [٤] .

---

(١) المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ٣١٥ . الذهبي : العبر ، (١/٣٦١) .

(٢) ضيف الله الزهراني : النفقات وإدارتها في الدول العباسية ، ص ٦٩ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٩/٢٦٣) .

(٤) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، (٢/٤٦٩ ـ ٤٧٠) .

ولكن محاولات المعتز باءت بالفشل حين اصطدم بالأزمة المالية ، فقد كانت الخزينة خاوية ، وعلى وشك الإفلاس [١] . وكتب المعتز إلى أمراء الأطراف بتوجيه الأموال إليه ، إلا أن شيء من ذلك لم يحدث ، فقد كان الفساد في النظام الإداري ، وانشغال القادة الأتراك بتحقيق مصالحهم الذاتية ، وحالة النزاع بين الجيش ، وقلة المحاصيل ، وتدهور الزراعة ، والتجارة ، قد أدى إلى ضعف في موارد الدولة [٢] .

وعندما احتاج المعتز إلى المال لصرف أرزاق الجند ، لم تكن الخزينة تحتوى على مبلغ تلك الأرزاق ، فاستعان بأمه لكي تقرضه المال اللازم ، ولكنها رفضت طلبه ، على الرغم من امتلاكها لأضعافه ، فقبض عليه الجند وقتلوه [٣] .

وعندما تسلم **المهتدي** (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٧٠م) منصب الخلافة ، أدرك بأن ضعف الخلافة يكمن في سطوة بعض القادة الأتراك المؤثرين في الجيش ، وأن السبيل لإنقاذ الخلافة هو التخلص منهم ، والحد من نفوذهم السياسي .

ولم يستغل المهتدي حقد الجند ، وصغار القواد على القادة الأتراك الكبار ، لأنهم أحسوا أن هؤلاء القواد يعملون لمصالحهم الذاتية فقط . وقد ثار الجند ضد هؤلاء القواد في سُرَّ مَنْ رأى ، وبغداد . ورفعوا شكواهم للخليفة لتأخرهم في دفع أعطياتهم . غير أن المهتدي لم يستغل هذا الوضع لصالحه ، وإنما فضل ضرب القادة الأتراك بعضهم ببعض ، واتباع سياسة فرق تسد ، التي تقوم على التحريض والإغراء ضد بعضهم البعض .

ولكن الأتراك فطنوا لهذا الأمر ، وتعاهدوا بعدم الإنجراف وراء خطط المهتدي الرامية إلى تفريق صفوفهم . إلا أن هذا التضامن لم يمنع المهتدي من قتل القائد بايكباك ، والتخلص من خطره [٤] .

---

(١) فاروق عمر : الخلافة العباسية ، ص ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٣) الذهبي : العبر ، (٣٦٣/١) .

(٤) القضاعي : عيون المعارف ، ص ٤٦٩ . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٢٠٣/٧ ـ ٢٠٤) . فاروق عمر : الخلافة العباسية ، ص ٧٤ .

واتصف المهتدي بحسن سيرته ، وتقريبه لعلماء الدين واستشارتهم ، ورغبته في إرساء دعائم الدين في سياسة الدولة [١] ، وخاصة في مركز الخلافة . ففي سنة (٢٥٥هـ/٨٦٩م) قام بإخراج القيان والمغنين من سُرَّ مَنْ رأى ، ونفيهم إلى بغداد [٢] . وكانت لديه قناعة بأن السبيل إلى عودة الخلافة القوية ، اتباع سياسة الشدة في السيطرة على زمام الأمور ، حتى أنه كان يتلفظ على القادة الأتراك بعبارات قاسية ، تحمل في طياتها الإنذار العلني لهم ، بأن القتل مصير كل من يجرؤ على المساس بهيبة الخلافة [٣] .

وقام المهتدي بمحاولات جادة للإصلاح الإداري ، حيث تولى الخلافة والخزينة خاوية ، بعد أن عبث بها القادة الأتراك ، ونساء وأمهات الخلفاء . وكان يشرف بنفسه على الدواوين ، ويجلس ومعه الكتّاب لعمل الحساب [٤] . كما اتبع سياسة ترشيد المصروفات ، سواء في قصور الخلافة ، أو مصروفاته الشخصية . بل وأمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن ، فضربت دنانير ودراهم [٥] .

كان المهتدي يقصد من تلك الإصلاحات العمل على الوصول إلى توازن النفقات مع الواردات التي اختلت أمورها في عهود من سبقه . وكادت سياسته أن تؤتي ثمارها لولا أن الأمور من حوله كانت فوق طاقته [٦] . لقصر فترة حكمه من جهة ، والتي لم تدم أكثر من عام ، وانشغاله بالفتن والثورات التي تعرَّضت لها الخلافة العباسية من جهة أخرى . ففي عهده ، هبدأت« ثورة الزِّنْج » بالبصرة ، وذلك سنة (٢٥٥هـ/٨٦٩م) ، كأحد إفرازات سوء الأوضاع الاقتصادية ، والسياسية في مركز الخلافة .

ولقد أقضَّ الثوار الزِّنْج مضجع الدولة العباسية فترة من الزمن ، استمرت قرابة خمس عشرة سنة ، كلَّفت الدولة الكثير من المال والرجال . وفوق ذلك اختلال الأمن ،

---

(١) ابن العمراني : الإنباء في تاريخ الخلفاء ، ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٤٠٦/٩) .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، (٢١/١١ ـ ٢٢) .

(٤) حسن أحمد وزميله : العالم الإسلامي في العصر العباسي ، ص ٢٦٩ .

(٥) المسعودي : مروج الذهب ، (١٨٩/٤) .

(٦) ضيف الله الزهراني : النفقات وإدارتها في الدول العباسية ، ص ٧١ .

وتردي الأوضاع الاقتصادية ، فكانت آثار هذه الثورة سيئة على الأحوال العامة في مقر الخلافة العباسية [١] .

واستمر الأتراك في جشعهم ومؤامراتهم ، مما اضطر الخليفة إلى إعلان النفير العام ضد القادة الأتراك ومن معهم ، رافعاً شعار : ((يا معشر الناس قاتلوا عن خليفتكم)) . فلم يجبه أحد إلى طلبه ، كما انسحب من كان معه من الجند الأتراك ، فاندحر المهتدي ، وألقي القبض عليه ، وقام الأتراك بقتله ، ولكنهم أعلنوا خلعه قبل وفاته [٢] .

وإذ كان المهتدي لم يصل إلى الأهداف التي أرادها بسياسته الحازمة ، إلا أنه مهد الطريق لأن تعيش الخلافة فترة من الانتعاش المؤقت ، استعادت فيها الخلافة هيبتها ، وبات سلطان الخليفة العباسي هو المسيطر على مقاليد الأمور .

فعندما جاء **المعتمد** (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ/٨٩٢ ـ ٩٠٢م) إلى سدة الخلافة ، كانت الفتن والثورات قد زادت ، وتفاقم خطرها . ولم تكن الموارد الماليه توفي بالتزامات الدولة إزاء هذه الظروف .

فاتخذ المعتمد ، الذي كان لاهياً عن شؤون الدولة ، قراراً بأن يوكل إلى أخيه الموفق تولي زمام الأمور في الدولة ، وكان الموفق يتصف بصفات الخليفة القوي ، من حنكة ودراية وجسارة في مواجهة الصعاب . فكان الموفق هو الخليفة الفعلي ، ولم تكن لأخيه المعتمد سوى الخطبة ، والسكة ، والتسمي بإمرة المؤمنين [٣] .

لقد كانت أمام الموفق العديد من المشكلات التي تهدد الخلافة العباسية على الصعيدين ، الداخلي والخارجي . ففي الداخل تفاقم خطر الثوار الزنج ، وعاثوا في مدن

---

(١) عن ثورة الزِّنْج وما يتعلق بها ، انظر : أحمد علبي : ثورة الزنج . وهو من أفضل ما ألف عن هذا الموضوع . وهؤلاء الزنج ، كانوا قد جلبوا من سواحل إفريقية الشرقية على شكل رقيق ، وكانوا يعملون في البصرة عند منطقة المستنقعات ، حيث يقومون بتجفيف هذه المستنقعات ، ويزيلوا السباخ (الطبقة الملحية) ، ويجمعون الملح على شكل كثبان ، ثم يقومون ببيعه لصالح أصحاب الأراضي الذين يعملون لديهم . وكانوا يعيشون حياة بائسة ، وسيئة للغاية .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٤٦١/٩ ، ٤٦٨ ـ ٤٦٩) .

(٣) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

العراق فساداً . وكذلك ثورة الخوارج في الشمال ، إضافة إلى العمل على إضعافه لنفوذ الأتراك .

وعلى الصعيد الخارجي فهناك خطر يعقوب بن الليث الصفار في سجستان وخراسان ، وانفصال ابن طولون في مصر ومد نفوذه إلى الشام .

ولقوة شخصية الموفق وسطوته على أمور الدولة ، وبطشه بأعدائه ، فقد هابه الأتراك ، ولم يستطيعوا الإفلات من قبضته . وتمكن الموفق عن طريق إعلان الجهاد المقدس ، واستقبال جموع المجاهدين من مختلف الأقاليم الإسلامية ، من وضع الخطط المناسبة لمواجهة هذه المخاطر ، لا سيما خطر الزنج [١] .

واستطاع الموفق القضاء على آخر معاقل الزنج بالجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب ، وقتل صاحب الزنج . وهدأت الأمور في بغداد حين دخلها الموفق ومعه رأس قائد الفتنة ، واستراح الناس من خطر هذه الثورة [٢] .

كما نجح الموفق في ضرب الصفاريين ودرأ خطرهم عن مقر الخلافة . ومع أنه لم يستطع القضاء على ابن طولون في مصر ، إلا أنه أجبره على زيادة مقدار الضريبة التي يدفعها للحكومة المركزية [٣] . وبعد وفاة الموفق سنة (٢٧٨هـ/٨٩١م) ، الذي أعاد هيبة الخلافة وثبت سلطة الحكومة المركزية وكسب ثقة الجيش ، خلفه ابنه المعتضد على جميع أعماله ، بعد أن منحه الجيش الثقة بعد والده ، وبيعة الخليفة المعتمد له بولاية العهد بعد ولده جعفر ، ولكن سرعان ما أجبر المعتمد على خلع ابنه من ولاية العهد الأول والمبايعة للمعتضد ، وذلك سنة (٢٧٩هـ/٨٩٢م) ، وفي نفس السنة توفي المعتمد ، وتولى المعتضد منصب الخلافة [٤].

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٩/٦٥٤ ـ ٦٥٥) . رشاد معتوق : الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي ، ص ٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، (٩/٦٥٩ ، ٦٦٣) .

(٣) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، (٢/٤٧٤ ـ ٤٧٥ ، ٤٧٦) . المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٢٠٠ ـ ٢٠١ ، ٢١٠ ـ ٢١٣) .

(٤) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، (٢/٤٧٨) .

أصبح **المعتضد** (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ/٨٩٢ ـ ٩٠٢م) خليفة المسلمين ، وبه بدأ عصر انتعاش الخلافة ، وقد أكمل ما بدأه والده من إعادة سلطة الخلافة ، وتقوية كيان الدولة ، سياسياً واقتصادياً ، يساعده في ذلك قوة شخصيته ، واتصافه بصفات والده ، حتى القادة الأتراك لم يجرء واحداً منهم على القيام بعمل قد يغضب المعتضد ، لأنهم يعلمون أن المعتضد إذا غضب على أحد أمر بالقائه في حفرة ، وردم عليه [١] . ولذا وصف بالسفاح الثاني ، لبطشه وقوته .

والواقع أن المعتضد كان سريعا في تدبيره للأمور ، وقمعه للثورات ، خاصة وأن عهده كان مليئاً بالحوادث والفتن . ففي إقليم الجزيرة ، استطاع المعتضد أن يقضي على ثورة قبائل شيبان ، الذين كانوا يهاجمون المدن ، ويقتلون ويسلبون . وكذلك فتنة الخوارج . وأخمد حركة العصيان التي قام بها بنو حمدان في الموصل بهدف تأسيس إمارة لهم [٢] .

وفي جنوب العراق ، تمكن المعتضد من إخماد حركة القرامطة ، الذين باتوا خطراً كبيراً يهدد عاصمة الخلافة خاصة بعد أن إنضم إليهم البدو والأنباط [٣] .

كما استطاع المعتضد أن يضرب الصفاريين بالسامانيين ، وحسَّن علاقته بالصفَّاريين [٤] . كما أعاد سيطرة الدولة العباسية على إقليم الجبال بعد استقلالها بزعامة آل أبي دلف . وعمل المعتضد على تحسين علاقته بالطولونيين ، الذين اعترفوا بسيادة العباسيين ، والتزموا بدفع ضريبة سنوية ، وتنازلوا عن مدينة قنسرين بالشام لصالح مركز الخلافة [٥] .

وعمل المعتضد على زرع الثقة بينه وبين الخدم في قصره ، لما لهم من أثر في الإعتماد عليهم وقت الشدائد والمؤامرات التي قد تحاك للخليفة ، ففي سنة (٢٨٤هـ/٨٩٧م) أمر المعتضد طريف المخلدي الخادم بالقبض على من يصيح من

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، (٢٣٣/٤) .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ، (١٤٢/٥) . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٤٥٣/٧ ـ ٤٥٤) .

(٣) البلخي : البدء والتاريخ ، (٣٠٤/٢) .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ، (١٣٨/٥) .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٤٧٩/٧ ، ٤٩١) .

العامة على خدم الخليفة من السود : ياعقيق ، بأن يسجن ويضرب بالسياط ، فكف الناس عن ذلك [١] .

ولا شك أن قوة الدولة سياسياً ، واستقرارها إدارياً ، كان له نتائج إيجابية على الوضع الاقتصادي ، فقد اهتمت السلطة في عهد المعتضد بأمور الري ، وإقراض الفلاحين الحبوب والحيوانات ، وتأخّر موعد استيفاء الخراج من المزارعين ، ليعطي فرصة أكبر لنضج الحاصل وبيعه ، ومنع عمال الخراج من ظلم دافعي الخراج [٢] . ويدلنا على انتعاش اقتصاد الدولة ، بأن المعتضد عندما توفي قُدِّر ما في بيت المال بعد وفاة المعتضد بـ (٩٠ مليون دينار) [٣] .

وعندما تولى **المكتفي** (٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ/٩٠٢ ـ ٩٠٨م) مقاليد الخلافة بعد والده المعتضد ، سار على نهج والده في سياسة الأمور ، إلا أنه لم يكن في قوة والده ، فقد استسلم للدسائس وتدخل الوزراء والمقربين إليه في أمور الدولة . فأهمل أمر ولاية العهد ، ولم يتخذ حياله إجراءً رسمياً ، الأمر الذي فتح المجال من جديد للقادة والوزراء للتدخل في أمر اختيار الخلفاء [٤] .

ولكن المكتفي استطاع القضاء على خطر القرامطة ، وقتل زعيمهم الحسين بن زكرويه الملقب بصاحب الشامة ، وابن عمه عيسى بن مهرويه الملقب بالمدثر ، بعد أن عاثا في الأرض فسادا ، وذلك سنة (٢٩١هـ/٩٠٣م) . غير أن زكرويه بن مهرويه استلم زعامة القرامطة بعد ذلك ، وأخذ يثأر لابنه الحسين ، فأباد الكثير من قوافل الحجيج قبل أن يتم القضاء عليه في ربيع الأول سنة (٢٩٣هـ/٩٠٦م) . كما استطاع المكتفي في نفس السنة من إعادة مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية ، والقضاء نهائياً على الطولونيين [٥] . ولكن المكتفي لم يفلح في زيادة الموارد المالية للدولة كوالده ، فالفرق شاسع بين ما خلفه والده في

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٥٣/١٠ ـ ٥٤) .

(٢) الصابيء : الوزراء ، ص ١٠ ـ ١١ ، ٥١ . ابن الجوزي : (١٤٩/٥ ، ١٦٢) .

(٣) ضيف الله الزهراني : النفقات وإدارتها في الدول العباسية ، ص ٧٤ .

(٤) فاروق عمر : الخلافة العباسية ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٥) المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٦ .

خزينة الدولة ، كما أشير سابقاً ، بينما توفي هو وفي بيت المال (١٤ مليون دينار) ، إلا أن أمور الخلافة سارت على نحـو حسن ، رغم كثرة النفقات التي أنفقت على إعداد الجيوش ، لا سيما في حربه ضد القرامطة [١] .

ولقد أعتبر عهد المكتفي فترة انتقال من عصر الصحوة المؤقتة للخلافة العباسية إلى عصر جديد ، عاد فيه الخليفة أضعف مما كان عليه في بداية نفوذ القادة الأتراك . ولقد بدأت مرحلة الضعف بتولي **المقتدر** (٢٩٥ ــ ٣٢٠هـ/٩٠٨ ــ ٩٣٢م) منصب الخلافة وهو لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره . ويصف المسعودي أيـام المقتدر إجمالاً بقوله : ((أفضت الخلافة إليه ، وهو صغير ، غر ، ترف ، لم يعان الأمور ، ولا وقف على أحوال الملك ، فكان الأمراء ، والوزراء ، والكتّاب ، يدبرون الأمور ، ليس له في ذلك حل ولا عقد . ولا يوصف بتدبير ولا سياسة ، وغلب على الأمر النساء ، والخدم ، وغيرهم . فذهب ما كان في خزائن الخلافة من الأموال ، والعدد ، بسوء التدبير الواقع في المملكة . فأداه ذلك إلى سفك دمه ، واضطربت الأمور بعده ، وزال كثير من رسوم الخلافة)) [٢] .

ومما يدل على فساد أمور الخلافة ، أن جارية أمه وتسمى « ثُمْل » كانت تجلس بالرُّصَافة للنظر في مظالم الخاصة ، والعامة ، ويحضرها الوزير ، والكتّاب ، والقضاة ، وأهل العلم [٣] .

ولقد أدى تسلط النساء ، وعلى رأسهم أم المقتدر « شغب » ، والكتّاب ، واستبدادهم بالأمور والأموال ، إلى تعرض الدولة إلى أزمة مستحكمة ، أدت إلى تذمر الجنود ، وتكررت مطالبتهم بالأرزاق ، مما فتح الباب على مصراعيه أمام عودة قادة الجيش إلى التدخل في شئون الخلافة مرة أخرى [٤] .

---

(١) ضيف الله الزهراني : النفقات وإدارتها في الدولة العباسية ، ص ٧٤ .

(٢) المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ٣٢٨ .

(٣) القضاعي : عيون المعارف ، ص ٤٩٢ .

(٤) القرطبي : صلة تاريخ الطبري ، ص ٢٥٩. حسام الدين السامرائي :المؤسسات الإدارية ، ص ٥٦ ــ ٥٨ .

ولم ينتظر بعض القادة الأتراك ، كمؤنس وغيره ، بل هاجموا القصر سنة (٣١٧هـ/٩٢٩م) فهرب المقتدر ، وبايع القادة أخاه القاهر بالخلافة . **إلا أن القاهر** لم يستطع تدبير المال اللازم للجند ، فثاروا عليه وعلى نازرك التركي ، زعيم الانقلاب ، وكانت النتيجة مقتل الأخير وخلع الأول ، وإعادتهم للمقتدر ثانية إلى الخلافة بعد يومين من خلعه [١] .

ولقد حاول المقتدر الخروج من الأزمة المالية الخانقة بتعيين الوزير تلو الآخر ، حتى بلغوا إثني عشر وزيراً [٢] ، ولكن دون فائدة ، تضرر من جرائها الشعب ، ففي عامي (٣٠٨هـ/٩٢٠م) حصل نقص شديد في المواد الغذائية ، وغلت الأسعار ببغداد ، وحدث هياج بين العامة ، هاجموا خلاله دار صاحب الشرطة ، وتطور الأمر بأن تدخل الجيش للسيطرة على الموقف ، وكانت الحصيلة سقوط عدد من القتلى في صفوف العامة . وتكرر الأمر نفسه سنة (٣٠٩هـ/٩٢١م) [٣] .

غير أنه كان للوزير علي بن عيسى بن الجراح (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م) إصلاحات اقتصادية حاول من خلالها العمل على تقليص النفقات إلى أقصى حد ممكن ، وألغى الزيادات ، وبذل جهوداً مضنية ، ومخلصة في سبيل الخروج من هذه الأزمة . إلا أنه عزل من منصبه ، لأن أصحاب النفوذ قد شملهم هذا التقليص في النفقات بالطبع [٤] . وزادت الأمور سوءاً و ولم تخرج الدولة من ضائقتها المالية .

وجاء مؤنس التركي بعد مقتل المقتدر بأخيه **القاهر** (٣٢٠ ـ ٣٢٢هـ/٩٣٢ ـ ٩٣٤م) ليتولى منصب الخلافة ، وليضع حداً لتدخل الحريم ، وعلى رأسهم السيدة شغب . وأصبح القاهر ألعوبة في يد مؤنس ، وابن مقلة الوزير ، ومحمد بن ياقوت صاحب الشرطة [٥] .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ، (٦/٢٢١ ـ ١٢٢) .

(٢) المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ٣٢٨ .

(٣) القرطبي : صلة تاريخ الطبري ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٤) عن هذا الأمر ، انظر : ضيف الله الزهراني : الوزير العباسي علي بن عيسى بن داود بن الجراح ، إصلاحاته الاقتصادية والإدارية .

(٥) مسكويه : تجارب الأمم ، (١/٢٤١ ـ ٢٤٢) . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٨/٢٤٤ ـ ٢٤٥) .

غير أن القاهر قد اتصف بالحذر ، والجرءة ، والعنف في التعامل . مما جعله يباغت المتآمرين عليه قبل تحقيق أهدافهم ، كما فعل ابن مقلة ، ومؤنس الخادم ، والقائد يلبق . وبعد أيام صدرت أوامر القاهر بقتل مؤنس ، ويلبق ، وابنه ، والأمير محمد بن المكتفي ، الذي استولى على الخلافة عند خلع القاهر . ووصفت بعض المصادر هذا العمل بالمجزرة الكبيرة ، نجى منها الوزير ابن مقلة فقط ، الذي هرب واختفى عن الأنظار [١] .

ولقد امتازت فترة القاهر ، على قصرها ، بالصراع السياسي ، وكانت النفقات في عهده قليلة جدا ، لعدم توفر الحمل إلى دار الخلافة [٢] .

إلا أن سوء معاملة القاهر مع الجند الذين ساندوه ، وتأليب ابن مقلة الجند الأتراك وقائدهم « سيما » ، جعلهم يتآمرون ضد الخليفة ، واستطاعوا القبض عليه في قصره بغتة في جمادى الأولى سنة (٣٢٢هـ/٩٣٤م) ، وسُمِلَتْ عيناه ، فكان القاهر أول خليفة تسمل عيناه [٣] .

بويع **الراضي** (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ/٩٣٤ ـ ٩٤٠م) بالخلافة بعد إقصاء القاهر . وكانت السلطة الفعلية بيد ابن مقلة الوزير ، ومحمد بن ياقوت صاحب الشرطة ، ولقد شهد عهد الراضي تطورات جديدة في الداخل والخارج . ففي الداخل ، زادت هوة الخلاف والشقاق بين الأتراك اتساعاً ، وقام الجند الأتراك بثورات متعددة ، ليس فقط ضد الخليفة ، بل ضد رؤسائهم ، الذين باتوا يشعرون بعدم الإطمئنان إلى مستقبلهم في بغداد . كما أخذت فرق عسكرية غير تركية تظهر على مسرح الأحداث ، وتثبت أهميتها بحيث ساندت الخلفاء في مجابهتهم للجند الأتراك مثل فرقة المغاربة [٤] .

أما في الخارج ، فقد برزت قوة الحمدانيين في الجزيرة الفراتية ، وسيطر البويهيون الديالمة على فارس ، وتمكن البريديون بمساندة ابن مقلة الوزير من الاستقلال في

---

(١) ابن العمراني : الإنباء في تاريخ الخلفاء ، ص ١٦١ ـ ١٦٢ .

(٢) القرطبي : صلة تاريخ الطبري ، ص ١٥٥ .

(٣) الذهبي : العبر ، (١٣/٢) . وسَمْلُ العين : فقؤها ، يقال : سُمِلَتْ عينه تُسْمَل إذا فقئت بحديدة محماة . ابن منظور : لسان العرب ، (٣٤٧/١١) .

(٤) فاروق عمر : الخلافة العباسية ، ص ٩٥ .

خوزستان [١] . وبعد سنتين من حكمه ، تبين للراضي عجز الوزراء الذين استوزرهم على حل الأزمة الإقتصادية الحادة التي تعيشها خزينة الدولة . لذلك استحدث منصب جديد هو منصب « أمير الأمراء » على أمل أن يكون في ذلك حلاً للأزمة ، وقد بادر الخليفة الراضي إلى مفاتحة محمد بن رائق ، الذي كان متغلباً على واسط والبصرة ، وعرض عليه أن يوليه المنصب الجديد ، شريطة أن يقوم بتوفير الأموال التي تحتاج إليها الخلافة ، وبأن يتعهد بتحمل رواتب الجند ونفقاتهم [٢] .

وفعلاً ((استحوذ ابن رائق على أموال العراق ، ونقل أموال بيت المال إلى داره ، ولم يبق للوزير تصرف في شيء بالكلية ، ووهن أمر الخلافة جداً ، واستقل نواب الأطراف بالتصرف فيها ، ولم يبق للخليفة حكم في غير بغداد ، ومعاملاتها)) [٣] .

وتعتبر فترة تولي القائد التركي « بجكم » منصب إمرة الأمراء من أخطر الفترات في ولاية هذا المنصب ، حيث ازداد ضعف سلطة الخليفة ، وأصبح أمير الأمراء بالتالي صاحب النفوذ الأكبر ، حتى أن الخليفة كان مضطراً للرجوع إلى رأيه في كل كبيرة وصغيرة [٤] .

وأصبح منصب أمير الأمراء هدفاً لأصحاب النفوذ ، واشتد التنافس عليه فيما بينهم ، ونشب القتال من أجله . وتبين بأنه لم يكن العلاج المناسب لمواجهة أزمة الدولة المالية المستحكمة ، وإنما أصبح نقطة ضعف في الخلافة العباسية ، ازداد بسببه وهن الخليفة وضعفه ، وتهميشه في تسيير أمور الدولة [٥] .

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم ، (١/٣٢٠ ـ ٣٢١) . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٨/٢٨٥ ، ٣٠٦ ـ ٣٠٧) .

(٢) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ . مسكويه : تجارب الأمم ، (١/٣٥٠ ـ ٣٥٢) . حسام الدين السامرائي : المؤسسات الإدارية ، ص ٧٦ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، (١١/١٨٤) .

(٤) حسام الدين السامرائي : المؤسسات الإدارية ، ص ٧٧ .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم ، (٦/٣٢٦ ، ٣٣٠) . رشاد معتوق : الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي ، ص ٣٥ .

ومن نتائجه السيئة أيضاً ، تفشي الغلاء ببغداد أكثر من مرة في خلافة **المتقي** (٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ/ ٩٤٠ ـ ٩٤٤م) ، وانتهى أمره بأن سملت عيناه على يد توزون التركي أمير الأمراء بعد بجكم [١] .

وبويع **المستكفي** (٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٤٦م) بالخلافة ، ولكن لم يكتب له التفرد بالخلافة سوى ستة عشر شهراً ، قبل أن يدخل معز الدولة بن بويه بغداد ، لتبدأ حينئذ فترة التسلط البويهي ، وسيطرتهم على الخلافة العباسية خلفاً للأتراك ، وسلبوا الخليفة جميع اختصاصاته ، وتفردوا بتدبير الأمور جميعها ، الإدارية والمالية .

وإذا كان التسلط التركي يشبه التسلط البويهي في سطوته على الخلافة العباسية ، إلا أن التسلط البويهي كان أكثر سوءاً ، حيث واكب تمييع مكانة الخليفة العباسي ، محاربة مذهب السنة والجماعة وإحياء التشيع في العراق على كافة الأصعدة .

أثر الأوضاع العامة على الحركة العلمية :

إن الأحداث في أي مجتمع ، إنما هي من صنع يده وليست دخيلة عليه . وعندما يتعلق الأمر بثقافة هذا المجتمع وفكره ، فإن لظروف معيشته وأحواله أثر في صياغة تلك الثقافة ، وتوجيه ذلك الفكر [٢] .

وإذا كان هناك أثر للأوضاع العامة في العراق خلال فترة التسلط التركي على الحياة العلمية ، فإنه يمكن أن يعد تفاعلاً بين علماء العراق وأدبائه مع تلك الأوضاع في الغالب .

ونقول في الغالب ، لأن بعض الأحداث التي جرت على أرض العراق في تلك الفترة لا تعد من باب التفاعل ، وإنما كانت نتيجة أثر سلبي خلفته الأوضاع السياسية المتردية في تلك الحقبة التاريخية . فلقد ذهب العديد من العلماء من جراء قتلهم على يد الزنج إبان ثورتهم . ففي سنة (٢٥٧هـ/٨٧٠م) قتل الزِّنْج بالبصرة عالم اللغة ، أبا الفضل عباس

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ، (٦/٣٣٨ ـ ٣٣٩) .

(٢) يقول ابن خلدون : ((اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم ، إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش)) . المقدمة ، ص ٩٦ .

بن الفرج الرياشــي [١] ، وأبا يعلى بن أبي زرعة الباهلي النحوي [٢] ، وبريد بن أحزم الطائي [٣] ، وغيرهم .

كما أدت هذه الثورة إلى هروب العديد من علماء البصرة خارج العراق من قبضة الزنج ، فخسر العراق بعض من لم يعد منهم بعد إخماد الثورة . فقد رحل إمام اللغة أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م) إلى عمان [٤] . أما عالم النحو والأخبار ، القاسم بن إسماعيل المعروف بأبي ذكوان فقد خرج إلى مدينة سيراف في فارس [٥] .

ومن آثار هذه الثورة السيئة على الثقافة والعلم في العراق أيضاً . أن ضاعت ، بسبب حرقهم لمنازل أهل البصرة ، العديد من مكتبات العلماء حرقاً ، كما حدث لمكتبة الفقيه أبو بكر أحمد بن أبي عاصم الضحاك النبيل (ت ٢٨٧هـ/٩٠٠م) [٦] .

ومن جانب آخر ، فقد كانت ثورة الزنج ، وما خلفته من دمار في المدن التي عاثوا فيها فساداً ، أن أصبحت إحدى الموضوعات التي صنف بعض علماء العراق وأدبائه في أخبارها ، وأخبار صاحبها . فصنف محمد بن الحسن بن سهل الكاتب المعروف بشيلمة كتاب « أخبار صاحب الزنج ووقائعه » [٧] ، حيث تناول فيه أخباره ، وما كان من بدء أمره ، ووقوعه إلى بلاد البحرين ، وما كان من خبره مع الأعراب [٨] . كما صنف أبو الطيب محمد بن أحمد الوشاء النحوي والأديب (ت ٣٢٥هـ/٩٣٧م) كتاب « أخبار صاحب الزنج » [٩] .

---

(١) السيرافي : أخبار النحوين البصريين ، ص ١٠٢ .

(٢) القفطي : إنباه الرواة ، (١٩٠/٤) .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، (٢٩/١١) .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣٢٥/٤) .

(٥) القفطي : إنباه الرواة ، (١٠/٣) .

(٦) السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٢٨٥ .

(٧) النديم : الفهرست ، ص ٢٠٥ .

(٨) المسعودي : مروج الذهب ، (١٩٥/٤) .

(٩) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٣٣/١٧) .

وكما ذهب بعض علماء العراق ضحية الثوار الزنج ، فقد قتل البعض منهم على يد القرامطة أيضاً ، ومن هؤلاء : أبو الحسين محمد بن إسحاق المروزي المحدث المعروف بابن راهويه سنة (٢٩٤هـ/ ٩٠٧م) [١] ، وكذلك الفقيه أبو سعيد أحمد بن الحسين البردعي وذلك سنة (٣١٧هـ/٩٣٠م) [٢] .

ولقد كان لبروز بعض القضايا المهمة في الجانب الديني ، أثره في تفاعل علماء العراق المسلمين مع تلك القضايا دفاعاً عن هذا الدين ، ودحراً لأعدائه . وما فتنة القول بخلق القرآن ، وما ابتدعته المعتزلة ، والآثار المترتبة عليها في حق علماء السنة ، إلا مجالاً شهد زخماً كبيراً من حيث التأليف في الرد على الجهمية ، والمشبهة ، وغيرهم من الفرق الضالة ، أو التأليف في صبر العلماء الذين امتحنوا في هذه الفتنة . فنجد الإمام أحمد بن حنبل يصنف كتاب « الرد على الجهمية » [٣] ، أما ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) فله كتاب « الرد على الجهمية والمشبهة » [٤] ، وكتاب « الرد على القائل بخلق القرآن » [٥] . في حين صنف أبو عبد الله إبراهيم بن محمد الأزدي المعروف بنفطويه (ت ٣٢٣هـ/٩٣٥م) كتاب « الرد على من قال بخلق القرآن » [٦] . أما أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت ٣٣٠هـ/٩٤١م) فإنه حارب الاعتزال بنفس أسلحته بعد أن تركه ، وأصبح من المنافحين عن مذهب أهل السنة والجماعة ضد المعتزلة ، وذلك من خلال مؤلفاته ، ومنها : كتاب « الإبانة عن أصول الديانة » [٧] ، وكتاب « اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع » [٨] ، وكتاب « مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين » [٩] ، وغيرها .

---

(١) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٢٦٩/١) .

(٢) اللكنوي : الفوائد البهية ، ص ٢٠ .

(٣) مطبوع بتحقيق : أحمد بكير ، دار قتيبة ، بيروت ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

(٤) مطبوع بتحقيق : علي النشّار وعمار الطالبي ، منشأة المعارف ، الأسكندرية ، ١٩٧١م .

(٥) الداوودي : طبقات المفسرين ، (٢٥١/١) .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ١٣١ .

(٧) مطبوع : دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

(٨) مطبوع بتحقيق : حمود غرابة ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

(٩) مطبوع بتحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م .

ولقد كان لخلفاء تلك الفترة أثر في سير الاتجاهات الفكرية الدينية السائدة في العراق . فكما كانت الدولة العباسية منذ عصر المأمون وحتى الواثق السند القوي الذي يتكيء عليه المعتزلة في نشر آرائهم الفاسدة ، وتضليل فكر المسلمين ، وازدياد قوة شوكتهم عندما أسند لبعضهم المناصب العليا في الدولة ، فكانت قناة مهمة لتمرير ظلالاتهم للعامة . كذلك كان الحال في عصر النفوذ التركي ، فعلى الرغم من ضعف أغلب خلفاء تلك الفترة وخضوعهم لسيطرة القادة الأتراك ، إلا أنهم ومنذ عصر المتوكل لم يكونوا يسمحون بظهور التيارات التي تخالف العقيدة الإسلامية ، وتشوش على فكر المسلمين ، سواء في تدعيمهم لأهل السنة والجماعة ، ومحاربتهم لأهل البدع والزيغ ، وما سطرته أقلامهم . أو القضاء على أصحاب المذاهب الهدامة ، بالقبض عليهم وقتلهم .

ومر معنا ، أن المتوكل منع القول بخلق القرآن ، وعدم الخوض في علم الكلام ، وترك المباحث الفلسفية ، والمنطقية . واتبع ذلك بالقبض على أحمد بن أبي دؤاد ، صاحب فتنة القول بخلق القرآن ، وزعيمها منذ أيام المأمون وحتى عهد الواثق . حيث قام المتوكل بمصادرته ، ومصادرة ولده أيضاً ، وتوفي بالفالج ، وكان ذلك سنة (٢٣٩هـ/٨٥٣م) [١] . وكان المتوكل قد أمر بالقبض على رجل يقال له محمود بن الفرج النيسابوري سنة (٢٣٥هـ/٨٤٩م) ظهر بسُرَّ مَنْ رأى ومعه سبعة وعشرون رجلاً ، وزعم أنه ذو القرنين ، فقبض عليهم ، وأمر المتوكل بضربهم بالسياط ، مات من جرائها النيسابوري وحبس أصحابه [٢] . وفي سنة (٢٤١هـ/٨٥٥م) شهد على عيسى بن جعفر بن عاصم ، صاحب خان عاصم ببغداد ، عند قاضي الشرقية أبي حسان الزيادي سبعة عشر رجلاً ، بأنه شتم أبا بكر ، وعمر ، وعائشة ، وحفصة ، رضي الله عنهم أجمعين ، فأمر المتوكل بجلده بالسياط ، ولما توفى رمي به في دجلة ، ولم تدفع جثته إلى أهله [٣] .

كما حارب المعتمد جميع الوسائل التي تجلب اللوثة لعقل المسلمين من كتب الفلاسفة والمنطقيين . ولذا أمر في سنة (٢٧٩هـ/٨٩٢م) بالنداء في مدينة السلام بغداد ،

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٩٦ ـ ٩٧) .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٩/١٧٥) . البلخي : البدء والتاريخ ، ص ٣٠٢ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٩/٢٠٠ ـ ٢٠١) .

ألا يقعد على الطريق ، ولا في المسجد الجامع ، قاص ، ولا صاحب نجوم ، ولا زاجر ، وحلَّف الوراقين ألا يبيعوا كتب الكلام ، والجدل ، الفلسفة [١] .

وفي سنة (٣٠٩هـ/٩٢٢م) ألقي القبض على رأس الزندقة الحسين بن منصور الحَلاَّج ، الذي أفسد على المسلمين دينهم ، وحُكم عليه بضربه ألف سوط ، فإن لم يمت ضربت عنقه . وصادق الخليفة المقتدر على الحكم ، ونفذ به في شهر ذي القعدة من تلك السنة ببغداد [٢] .

وما هذه إلا نماذج على حماية خلفاء بني العباس ، في تلك الفترة ، لعقول الأمة من كل ما يصيبها في دينها ، وقطع دابر كل من تسول له نفسه الإقدام على ذلك ، على الرغم من سطوة الأتراك على الكثير منهم . إلا أن الأتراك لم يكونوا يعبهون بمثل تلك الأمور ، لجهلهم بها ، ولأنها لا تمثل لهم شيء في قلوبهم ، وإنما كانوا حريصين على إرضاء الخلفاء حتى يذعنوا لهم ، ولمصالحهم الخاصة .

وكان ظهور بعض السلبيات في بعض الجوانب الاجتماعية مدعاة لأن يلتفت إليها علماء العراق وأدبائه . فلقد كان المجتمع العراقي في ذلك الوقت خليطاً من العرب ، والعجم ، بمختلف جنسياتهم وأصولهم العرقية . ونتيجة للإحتكاك والمحاكاة ، بدأت تظهر بعض الأمور السلبية المتعلقة باللسان العربي ، حيث أصابه اللحن من جراء هذا الاختلاط ، فانبرى علماء اللغة والنحو بمعالجة هذا الأمر الخطير في مؤلفات تحمل عناوين ذات موضوع واحد ، وهو : ما تلحن فيه العامة [٣] .

كما كانت المحاكاة بين طبقات المجتمع في المأكل ، والملبس ، والمشرب ، والبناء ونحو ذلك ، نتيجة للترف المادي الذي كانت تعيش فيه الطبقة الغنية في المجتمع ، من الأمور التي لفتت أنظار بعض المثقفين ، فأخذوا في وضع المؤلفات التي تبحث في مثل هذه

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٤٥٣/٧) .

(٢) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٤ .

(٣) انظر مبحث علم اللغة ص ٣٥٩ .

الموضوعات ، على نحو ما نجد في كتاب « مشاكلة الناس لزمانهم » [١] لليعقوبي (ت نحو ٢٩٢هـ/٩٠٤م) . وظهور عدد من المصنفات التي تتحدث عن الطبيخ [٢] .

ويمكن القول بأن الشعراء كانوا أكثر الفئات المثقفة في العراق تجاوباً مع جميع الأحداث بمختلف جوانبها ، سلباً أو إيجاباً . فلا تخلو مناسبة ، أو حادثة من قصائد ، أو أبيات شعرية قيلت فيها .

وبالرجوع إلى دواوين الشعراء ، وكتب الأدب الخاصة بتلك الفترة نجد المئات من هذه النماذج . فعندما خلع المستعين وتولى المعتز منصب الخلافة قال الشاعر مروان بن أبي الجنوب من قصيدة طويلة [٣] :

إنَّ الأمورَ إلى المعتزِ قد رجعَتْ ... والمستعينُ إلى حالاتِهِ رجعَا

قَدْ كانَ يعلمُ أنَّ الملكَ ليس لهُ ... وأنَّهُ لكَ لكنَّ نفسهُ خدعَا

بل وتعتبر بعض القصائد الشعرية بمثابة شاهد مهم على فترات تاريخية ، ضمنها أصحابها أوصافا للوضع الراهن في ذلك الوقت ، بشكل قد لا يتوفر في كثير من المصادر التاريخية أو الأدبية على حد سواء .

ففي قصيدة « باسم الإله » يصور ابن المعتز ، الأمير والشاعر ، حال الخلافة إبان تلك الفترة ، ومدى ما وصلت إليه الأوضاع من وضع مزري لا يتناسب مع عاصمة الخلافة الإسلامية ، وما أحدثته الثورات ، وخاصة ثورة الزنج من دمار في البلاد ، ويصوغ ذلك في أبيات تقطر ألماً وحسرة . ثم يصور عهد الخليفة المعتضد باحتفالية كبيرة ، لوقعها في نفس ابن المعتز ، وإحساسه بنشوة العز ، كل تلك المقارنات يسطرها في أرجوزته هذه ، ومن ذلك قوله [٤] :

وكلُّ يومٍ ملكٌ مقتولُ ... أو خائفٌ مروعٌ ذليلُ

أو خالعٌ للعقدِ كيما يغني ... وذاكَ أدنى للردى ، وأدنى

---

(١) مطبوع بتحقيق : وليم ملورد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٦٢م .

(٢) النديم : الفهرست ص ٤٩٣ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ، (١٦٩/٤) .

(٤) ابن المعتز : الديوان ، ص ٤٨١ ـ ٤٨٢ .

وقوله [١] :

وكلُّ يومٍ شغبُ ، وغضبُ	وأنفس مقتولة وحربُ

وكمْ فتى قدْ راحَ نهباً راكباً	إما جليسَ ملكٍ ، أو كاتبًا

وقوله في ذكر بعض الثوار الخارجين عن الدولة [٢] :

والعلويُّ قائدُ الفساقِ	وبائعُ الأحرارِ في الأسواقِ

والدلفي العودِ ، والصفارِ	ومنهم إسحاق البيطارِ

ويقول عن الزنج وقائدهم [٣] :

وقاتلُ الشيوخِ والأطفالِ	وناهبُ الأرواحِ والأموالِ

فخرب الأهواز والأبلة	وواسطا قد حلَّ فيه حله

وتركَ البصرةَ من رمادٍ	سوداءِ لا توقفَ بالميعادِ

ثم يبدأ في وصف أيام المعتضد بقوله [٤] :

ثم استوتْ مِنْ بعدهِ الخلافةِ	وزالَتْ الرهبةُ والمخافةُ

وولي الملكُ إمام عادل	قائل كلَّ حكمةِ ، وفاعلُ

وبما أن الإنسان ابن بيئته ، فلم يكن أهل العراق بمنأى عن الأوضاع العامة في بلادهم ، ولم يكن المثقفين منهم بعيدين عن آثار تلك الأوضاع ، إن لم نلمسها في فكرهم قولاً ، نجدها في مؤلفاتهم مُسطَّرة .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٨٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٨٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٨٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٨٩ .

الباب الأول

النشاط العلمي في العراق خلال عصر نفوذ الأتراك

الفصل الأول : عوامل رقي الحياة العلمية في العراق خلال فترة النفوذ التركي.

الفصل الثاني : مظاهر النشاط العلمي في العراق خلال فترة النفوذ التركي .

الفصل الأول

عوامل رقي الحياة العلمية في العراق خلال فترة النفوذ التركي

المبحث الأول : اهتمام الخلفاء بالحركة العلمية .

المبحث الثاني : اهتمام الأمراء والأعيان بالحركة العلمية .

المبحث الثالث : اهتمام العلماء بالحركة العلمية .

المبحث الأول

اهتمام الخلفاء بالحركة العلمية

كان الاهتمام بالعلماء ، والاستعانة بأصحاب الحكمة والرأي السديد من شارات الملك وواجباته ، لما لهذه الفئة من أثر على شخصية الحاكم وبالتالي على سياسته لأمور مملكته ، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهو نبي يوحى إليه من ربه عزّ وجل ، أكثر الناس مشورة ، حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه : ((ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم)) .[١] وفي هذا الصدد يقول الثعالبي : ((وأكثر الملوك يرون المشاورة فرضاً واجباً ، وحقاً لازماً للملك الذي يستخدم به العقول ، ومن أجله يرتبط الحكماء ، وفصحاء الوزراء . إذ هو أعظم الأشياء ، وأعلى الأخطار ، وأجل المراتب ، وأولى الأحوال بأن يجعل لها الآراء الصاينة ، ويستعان فيها بالأذهان الثاقبة ، وله شوائب ، وعوارض ، ونوائب ، لا تداوي إلا بثمرات الألباب ، ونتائج الأفكار)) [٢] . ويذهب الثعالبي إلى أبعد من ذلك ، إذ يرى أن مشاورة الحاكم لأهل العلم في شئون دولته بمثابة مشاورته لأمهر الأطباء في حفظ صحته ، وتشخيص علته [٣] .

ويشدد الغسّاني على وجوب اهتمام السلطان بمجالسة أهل العلم والأدب ، ومحاورتهم ، والاستفادة منهم ، لما في ذلك الأمر من أثر إيجابي على شخصية الحاكم ، إذ يقول : ((وينبغي أن يكون الملك كثير الإعتناء بمجالسة العلماء الصلحاء ، والأدباء الفضلاء ، فإن في ذلك تلقيح للعقل ، وتهذيب للنفس)) [٤] .

وقد اتضح لنا ذلك من خلال عناية خلفاء بني العباس بالعلم والعلماء ، وتوفير كل ما من شأنه أن يسهم في استمرار الحركة العلمية نحو التقدم والازدهار ، على ما سيأتي تفصيله في مكانه من البحث .

---

(١) الترمذي : السنن ، (٤/١٨٥ ـ ١٨٦) .

(٢) الثعالبي : آداب الملوك ، ص ٩٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

(٤) نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

إضافة إلى ما سبق ، فإن ظروف الحياة في الدولة العباسية كان لها الأثر الكبير في بلورة شخصيات الخلفاء ومن دار في فلكهم من الوزراء ، والأعيان ، والقواد ، وغيرهم . إذ تربى في نفوسهم حب العلم والمعرفة ، واحترام العلماء ، وتقريبهم إليهم ، ذلك أنهم وجدوا أنفسهم مطالبين بأن يكونوا على قسط وافر من العلم والمعرفة كي يجاروا عصرهم (١) ، الذي كان يمثل مرحلة تعد من أزهى الفترات التاريخية في تقدم العلوم والفنون إن لم تكن أفضلها على الإطلاق ، سجلت خلاله الحضارة الإسلامية أكثر إسهام في تراث الإنسانية العلمي . وقد اتخذ اهتمام الخلفاء بالحركة العلمية مظاهر عدة ، تمثلت فيما يلي :

١ ـ الاهتمام الشخصي لأكثر الخلفاء بالتحصيل العلمي ، حتى أن البعض منهم كان يشارك في الحوارات ، والمناقشات العلمية التي كانت تتم بين الحاضرين في قصورهم .

٢ ـ إكرام الخلفاء للعلماء والأدباء ، وبذل المكافآت المادية ، ورفع مكانتهم أدبياً ، واجتماعياً.

٣ ـ عقد الخلفاء لمجالس الحوار ، والنقاش ، والمناظرة داخل قصورهم ، وفي أماكن تواجدهم خارج القصر .

ولكن نلاحظ أن هذه المظاهر قد لا تظهر أو تبرز جميعها في شخصية خليفة واحد ، وإنما قد تختلف من خليفة إلى آخر ، تبعاً للظروف الراهنة لفترة خلافته ، أو لطبيعة نشأته وشخصيته .

ويُعد **الخليفة المتوكل** من أبرز الخلفاء العباسيين الذين اهتموا بالحركة العلمية ، ودفع عجلة التقدم في العلوم ، والمعارف نحو الإزدهار ، وحظي أهل العلم ، والأدب في أيامه بكل عناية ، واهتمام .

لقد كان هذا الاهتمام من قبل المتوكل للعلم وأهله نابع من إيمانه لأهمية العلم بالنسبة للرعية . ونلمس هذه النظرة فيما دار بين المتوكل وأبو الفضل الرياشي ، إذ طلب منه المتوكل تولى قضاء البصرة فاستعفى ، معتذراً بخلو مسجده منه ، فأعفاه وأعطاه ، ووسع له (٢) .

---

(١) علي هاشم : الأندية الأدبية في العصر العباسي ، ص ٧٢ .

(٢) القفطي : إنباه الرواة ، (٢/٣٧٠) .

وفي قصر المتوكل ، كان العلماء والأدباء يجتمعون في جو من الحوار والنقاش والتنافس العلمي بحضرة الخليفة ، فكان القصر بمثابة المنتدى ، كل صاحب علم أو فن يدلي فيه بدلوه ، فيتحول المجلس إلى ساحة معركة ثقافية جميلة ، أسبغ عليها اختلاف تخصصات الحاضرين ، واختلاف مشاربهم ، مزيداً من التنوع في الطرح ، والعرض ، والنقاش ، كل ذلك كان يسير في هدوء واحترام لآراء الآخرين .

ولم يكن المتوكل يقف موقف المتفرج في هذه المجالس ، وإنما كان يشارك مشاركة جادة ، وفي بعض الأحيان يطلب من الحاضرين أن يتناولوا موضوعاً معيناً ، خصوصاً عندما يكونوا في مجال علمي واحد . ففي إحدى اللقاءات حضر أبو عثمان المازني ، وأبو يوسف ابن السِّكِّيت إلى مجلس المتوكل ، فقال لهم المتوكل : تكلما في مسألة نحوية . وبعد أن تحدثا في مسألة معينة ، وأجاب المازني على سؤال ابن السِّكِّيت ، قال المتوكل : « هذا هو الحق » [١]. فحُكْم الخليفة هنا بالحق على كلام المازني دليل على فهمه ودرايته بالنحو ، وإلاَّ لما تجرأ بحكم قاطع كهذا أمام عالمين جهبذين في فنهما .

غير أن هذه المجالس لم تخل من بعض التصرفات غير المألوفة الصادرة عن أهل السلطان ، وأشراف القوم [٢] في مثل هذه المواقف ، كما كان من أمر المتوكل ، الذي لم يعترض أو يمنع التجاوزات الصادرة من قِبل بعض الحاضرين فيما بينهم . ومن ذلك شتم أبو العنبس الصيمري وسخريته من أبي الوليد البحتري في حضور المتوكل ، ووزيره الفتح بن خاقان ، وأبي العباس المبرِّد عالم العربية ، بأبيات فحش وقذع . وعلى الرغم من ذلك فقد أسعد ذلك الأمر المتوكل ، وأمر بأن يكافأ الصيمري على ذلك بعشرة آلاف درهم ، وبعد أن شفع الفتح للبحتري (صاحب الحق) والمبرِّد في عطائهم ، أمر المتوكل بأن يعطى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم مثل الصيمري [٣] . وعلق المبرد على هذا الموقف بعد أن ذكره بقوله : ((فانصرفنا كلنا في شفاعة الهزل بثلاثين ألف درهم ، ولم ينفع البحتري جده ، واجتهاده ، وحزمه)) [٤] .

---

(١) القفطي : إنباه الرواة ، (١ / ٢٨٦) .

(٢) علي هاشم : الأندية الأدبية في العصر العباسي ، ص ٧٩ .

(٣) القفطي : إنباه الرواة ، (٣/٢٤٥ ـ ٢٤٦) .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ، (٩٢/٤) .

إن موقف المتوكل مما حدث ، وإن كان فيه كسر لخاطر البحتري ، وغير عادل من قبل المتوكل ، الذي كافأ الصيمري على ذلك ، إلا أنه ليس بمستغرب ليس من المتوكل فقط ، وإنما من معظم الخلفاء ، الذين يميلون في أكثر الأوقات إلى هذا الطابع من المحاورة الشعرية ، التي تبعث على انبساط الخليفة واستمتاعه بذلك .

وإذا كان هذا اللون من الشعر الهزلي محبب عند معظم الخلفاء ، فمن الطبيعي أن يكون الشعراء الهجائين الهزليين ،هم المرغوبون لدى الخلفاء . ولذلك ظل أبو العنبس « خفيفاً على قلوب الخلفاء ، يسلكونه في ندمائهم » [١] .

وهناك أمر مهم يجب الإشارة إليه وهو ، أنَّ موقف المتوكل ، فيما ذكرناه آنفاً ، لا يعني بحال من الأحوال أن المتوكل كان في نفسه شيء من البحتري فسمح للصيمري بهجائه ، أو أراد أن ينقص من قدر البحتري أمام الحاضرين ، وإنما أراد المتوكل أن يستمتع بالموقف فقط ، بدليل أن البحتري كان أكثر الشعراء ملازمةً للمتوكل ، وشاعره الخاص . وما وجود البحتري مع المتوكل يوم مقتله إلا شاهد على ذلك ، الأمر الذي أصبحت معه رواية البحتري هي المصدر لبعض أصحاب الأخبار ، كالمسعودي [٢]، والذهبي[٣]، وغيرهما في تفاصيل مقتل المتوكل ، وما حدث في تلك الليلة .

ولقد أخذت الموجة العلمية والفكرية العارمة ، والتي كانت سمة ذلك العصر ، في كنفها الخلفاء ، والوزراء . فأصبحوا ينهلون من معين العلم والثقافة ما استطاعوا ، واستدعي أبو العباس المبرد من البصرة إلى سُرَّ مَنْ رأى ليحكم في منازعة حدثت بين الخليفة المتوكل ، ووزيره الفتح بن خاقان في تأويل آية [٤] .

---

(١) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص ٤٣٣ .

(٢) مروج الذهب ، (١١٨ـ١٢١) . وعلق المسعودي بعد إيراده رواية البحتري بقوله (ص ١٢١) : ((وقد ذكر في كيفية قتل المتوكل غير ما ذكرنا ، وهذا ما اخترناه في هذا الموضع ، إذ كان أحسن ألفاظاً ، وأقرب مأخذاً)) .

(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٢٤١ ـ ٢٥٠هـ) ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب (٨٩/٤) . القفطي : إنباه الرواة ، (٢٤٣/٣ ـ ٢٤٤) .

ووصل اهتمام المتوكل بالعلم إلى أنه كان يتدارس مع القاضي يحيى بن أكثم في العلوم الشرعية ، وخصوصاً الحديث ، إضافة إلى أن المتوكل يملك عنه سنداً لبعض الأحاديث النبوية الشريفة . ففي إحدى المرات كان حديث مجلس المتوكل عن الرفق ، ومن الحاضرين : نصر بن علي الجهضمي [١] ، ويحيى بن أكثم القاضي . فأخذ نصر يحض المتوكل على الرفق ، ويمدح الرفق ، ويوصي به ، والمتوكل ساكت . فلما انتهى نصر من حديثه ، التفت المتوكل إلى ابن أكثم فقال له : ((أنت يا يحيى حدثتني عن محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن الأعمش عن موسى بن عبد الله بن يزيد عن عبد الرحمن بن هلال عن جرير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((من حرم الرفق حرم الخير)) [٢] .

ثم دلل المتوكل على ذائقته الأدبية ، ونظمه للشعر ، أن أردف حديثه بأبيات قال فيها :

الرفقُ يمنٌ والأناةُ سعادة فاستأن في رفقٍ تلاقِ نجاحاً

لا خيرَ في حزمٍ بغيرِ رويةٍ والشكُ وهن إن أردْت سراحاً [٣]

بل وكان المتوكل حريصاً على تقويم شخصيته العلمية بالسؤال والاستفسار من أهل العلم والأدب ، ومحاولة إيجاد حلول لما قد يصادفه من غموض في نظم الشعر . فعندما دخل عليه جعفر بن عبد الواحد الهاشمي [٤] ، قال له المتوكل : ((ياجعفر ربما قلت البيت الواحد فإذا جاوزته خلطت ، وقد قلت :

تذكرتُ لما فرَّقَ الدهرُ بيننا فعزَّيْتُ نفسِي بالنبِي محمد

---

(١) نصر بن علي الجهضمي : أحد رواة الحديث البصريين وقدم بغداد ، وحدث بها . وكانت له مواقف مع الخليفة المتوكل ، ودعاه الخليفة المستعين لتولي القضاء ، ولكنه توفي قبل أن يجيب الخليفة سنة (٢٥٠هـ/٨٦٤م) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٨٧/١٣ ـ ٢٨٩) .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (١٦٦/٧) : السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٦٦/٧) .

(٤) جعفر بن عبد الواحد : هو جعفر بن عبد الواحد بن جعفر الهاشمي ، من نسل العباس بن عبد المطلب ، (رضي الله عنه) ، تولى قضاء القضاة بسُرَّ مَنْ رأى سنة (٢٤٠هـ/٨٥٤م) ، وحدث بها ، وكان أحد حفاظ الحديث ، وفي سنة (٢٥٠هـ/٨٦٤م) أقصي من منصبه ، ونفي إلى البصرة بأمر الخليفة المستعين ، وتوفي سنة (٢٥٨هـ/٨٧٢م) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٧٣/٧ ـ ١٧٥) .

فأجابه أحد الحاضرين في المجلس بقوله :

وقُلتُ لـهُ : إنَّ المنايـا سبيلُنـا فمنْ لم يمُتْ في يومِهِ ماتَ في غدِ [١]

وتميز الخليفة المتوكل أيضاً ، بسرعة البديهة في ترجمة المواقف المؤثرة ، وصياغتها في أبيات تكون وليدة لحظتها . ومن ذلك ما يذكره علي بن الجهم ، أن المتوكل كان شغوفاً بقبيحة أم ولده المعتز ، وفي إحدى المرات رآها وقد كتبت على خديها بالغالية « جعفرا » فتأملها ، وأنشأ يقول :

وكاتبـة فـي الخـدِ بالمسكِ جعفرا بنفسي محطُ المسكِ منْ حيثُ أثرا

لئن أودعَتْ سطراً من المسكِ خدها لقدْ أودعَتْ قلبي من الحبِ أسطرا [٢]

وفي عهد الخليفة المتوكل ، كانت حركة الترجمة على موعد مع معاودة ازدهارها أيام الخليفة المأمون ، بعد حالة الركود الظاهرية التي شهدتها في عهد الخليفتين : المعتصم ، والواثق .

إذ أن ما حدث من ترجمات خلال الفترة التي أعقبت وفاة المأمون سنة (٢١٨هـ/٨٣٣م) وحتى مجيء المتوكل إلى الخلافة سنة (٢٣٢هـ/٨٤٧م) ، كان بفضل النقلة أنفسهم ، لا بفضل رعاية المعتصم أو الواثق [٣] .

ولسنا هنا في موضع المقارنة بين جهود الخلفاء في رعاية حركة الترجمة ، بقدر ما هو محاولة للتعرف على أهمية فترة الخليفة المتوكل في إنعاش حركة الترجمة من جديد ، بفضل رعايته الشخصية ، وتوفير جميع الإمكانات التي تكفل النجاح والازدهار ، وتحقيق النتائج المرجوة .

ولذلك فقد ((جدَّدَ المتوكل مدرسة الترجمة ومكتبتها في بغداد ، وألقى عبء إدارتها على عاتق حنين بن إسحاق ، ومهَّد الخليفة ورجال دولته جميع السبل لتلاميذ النصارى

---

(١) المصدر السابق ، (١٦٩/٧) .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، (٣٥٠/١٠ ـ ٣٥١) . السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٠ .

(٣) رشيد الجميلي : حركة الترجمة في المشرق الإسلامي ، ص ١٤٠ .

للبحث العلمي ، وقدموا لهم جميع التسهيلات للسفر ، والتنقيب عن المخطوطات اليونانية ، وحملها إلى بغداد لترجمتها)) [١] .

ويشير النص السابق إلى أمر مهم يتعلق بموقف الخلفاء العباسيين ، والمتوكل خصوصاً ، من علماء أهل الذمة . وتكمن هذه الأهمية في الإشارة إلى مدى ما وصلت إليه العقلية عند المسلمين في تعاملهم مع العلم وأهله . فالمتوكل عندما يغدق ويبذل المال على هذه الفئة ، خاصة في الجانب العلمي ، فهو لا يفرق في المعاملة بين شخص وآخر ، وخصوصاً في هذا الأمر بالذات ، والمتوكل يدرك أهمية الترجمة في تطور العلوم ، وإتاحة الفرصة أمام علماء الأمة في جميع العلوم للإستفادة من هذه الترجمات . ولذا ، استحوذت هذه الفئة بنصيب وافر من اهتمام المتوكل وعنايته .

ولكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال ، أن المتوكل كان معيار حكمه القومية الوطنية ، أو الإنتماء إلى الأرض . بل كان معياره ، كخليفة للمسلمين ، هو الدين ، فكانت نظرته إلى أهل الذمة تنطلق مما شرعه الإسلام بخصوص هذه الفئة .

ولهذا ، نرى حنين بن إسحاق العبادي ، الذي نال مكانة عظيمة جداً ، يحظى باختيار المتوكل ليكون رئيس المترجمين ، إلا أن ذلك لم يمنع بأن يلبس حنين « الزُّنّار » [٢] ، تنفيذاً لأمر المتوكل الذي أصدره سنة (٢٣٥هـ/٨٤٩م) [٣] .

ولقد حظى أصحاب العلم ، والأدب ، مسلمين وذميين ، عرب وعجم ، بعناية المتوكل واهتمامه [٤] ، وإغداق الأموال عليهم بدون حساب ، ورفع مكانتهم الإجتماعية ، حتى أصبحوا يمثلون طبقة من طبقات المجتمع الغنية في العراق .

---

(١) العلوجي : تاريخ الطب العراقي ، ص ١٨ .

(٢) العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٢٢١/٩) . والزُّنّار : هو ما يشد على وسط النصارى والمجوس . الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، ص ٥١٤ .

(٣) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، (٤٥٠/٢) .

(٤) القلقشندي : مآثر الأنافة ، (٢٣٠/١) .

ولقد اشتهر المتوكل في سيرته بسخاء يده [١] ، ولذلك قصده أهل العلم والأدب ، بل وفئة من أهل المجون ، والهزل ، واللهو . قال المسعودي : ((ولا يعلم أحد في صناعته ، في جد ولا هزل ، إلا وقد حظي في دولته ، وسعد بأيامه ، ووصل إليه نصيب وافر من ماله)) [٢] . ولذلك حظي أهل الأدب في أيامه ، وقربهم إليه [٣] ، حتى قيل : ((ما أعطى خليفة شاعراً ما أعطى المتوكل)) [٤] .

وحفظت لنا المصادر التاريخية العديد من النصوص الدالة على إكرام المتوكل لمن نال رضاه حتى من أصحاب الهزل ، فما بالنا بأهل العلم والأدب ، إذا أضفنا إلى ذلك حب المتوكل للعلم وأهله ، وإجلاله ، وإكرامه لهم .

ومن ذلك ما ذكره مروان بن أبي الجنوب ، الشاعر المعروف ، وأحد ندماء المتوكل ، ما حصل له مع الخليفة المتوكل في إحدى المرات . فقد أنشده أبيات قال فيها :

سقى الله نجداً والسلامُ على نجدِ ... وياحبذا نجدِ على النأى والبعدِ

نظرتُ إلى نجدِ وبغداد دونها ... لعلى أرى نجداً وهيهات من نجدِ

ونجدُ بها قوم هواهم زيارتي ... ولا شيء أحلى من زيارتِهم

فأمر له المتوكل بمئة وعشرين ألف درهم ، وخمسين ثوباً ، وثلاثة من الظهر : فرس ، وبغلة ، وحمار ، فأراد ابن أبي الجنوب أن يشكر المتوكل على هذه المكافأة ، فأنشأ يقول أبياتاً مطلعها :

تخيرَ ربُ الناس للناسِ جعفراً ... فملَّكَهُ أمرُ العبادِ تخيرا

فلما وصل إلى البيت :

فأمسكْ ندى كفيكَ عنيِّ ولا تزدْ ... فقدْ خفْتُ أنْ أطغى وأنْ أتجبرا

---

(١) الذهبي : دول الإسلام ، ص ١٣٣ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ، (١٢٢/٤ ـ ١٢٣) .

(٣) القضاعي : عيون المعارف ، ص ٤٥١ .

(٤) العصامي : سمط النجوم العوالي ، (٣٣٦/٣) .

قال المتوكل : ((لا والله ، لا أمسك حتى أغرقك بجودي ، وفي رواية : حتى أعرفك بجودي)) . ورد عليه ضياعه التي صودرت في عهد الواثق [١] .

وهذا علي بن الجهم ، يدخل على المتوكل وبيده صُرَّتان يقلبهما ، فألقى عليه قصيده مطلعها :

وإذا مـررْتَ ببــئرِ عُــروةٍ [٢] فاسقِـني مِنْ مائِها

فرمـى المتوكـل بالصرة على ابن الجهـم ، فأخـذ يقلبهـا ، فقـال لـه المتوكـل : ((تستنقص بها ! وهي والله خير من مائة ألف . فقال علي : لا والله ، ولكني فكرت في أبيات أعملها آخذ بها الأخرى)) . فقال المتوكل : قل . فأنشأ علي يقول :

بُسَّـر مَـنْ رأى إمـام عـدل تغـرفُ مِـنْ بحـرهِ البحارُ

حتى قالَ :

يـداه فـي الجـودِ صرتـان عليـه كلتـاهمـا تغـارُ

لـم تـأتِ منـه اليمـينُ شيـئاً إلا أتَـتْ مثْلُهـا اليسـارُ

فرمى المتوكل إليه بالصرة التي في يساره [٣] .

وتمتع يزيد بن محـمد المهلبي (ت ٢٥٩هـ/٨٧٣م) بمكانة عظيمة عند المتوكل ، حتى أصبح أحد مصادر المؤرخين لسيرة الخليفة المتوكل ، وكل ما يتعلق بحياته الخاصة والعامة [٤] .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٩/٢٣٢) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٣/١٥٤) . الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٢٤١ ـ ٢٥٠هـ) ، ص ١٩٨ .

(٢) بئر عروة : بئر بعقيق المدينة ، تنسب إلى عروة بن الزبير بن العوام ، كان ماؤها يهدى من المسافرين لأهلهم عند رجوعهم ، وهي اليوم مهجورة . ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٨ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (١/٣٠٠) . شيخ الربوة : نخبة الدهر ، ص ٢٨٤ .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٧/١٦٧) . العصامي : سمط النجوم العوالي ، (٣/٣٣٩ ـ ٣٤٠) ، وهناك بعض الاختلاف في كلمات الأبيات . وقال الخطيب البغدادي : ((وقد رويت هذه الأبيات للبحتري في المتوكل)) .

(٤) يونس السامرائي : يزيد المهلبي ، حياته وما تبقى من شعره ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج ٣٢ ، ج١ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

ولا أدل على عمق هذه العلاقة ، مرثية المهلبي للمتوكل بعد وفاته [١] . والتي يصور فيها مشاعر حزنه على مقتله ، ومصوراً فيها إكرام المتوكل له . والتي يقول في مطلعها :

لا حزنَ إلا أراهُ دونَ ما أجـدُ ... وهلْ كمنْ فقدت عيناي مفتقدُ [٢]

ويصف كرم المتوكل عليه في أحد أبيات مرثيته قائلاً :

قدْ كنتُ أسرفُ في مالي وتخلفُ لي ... فعلمتْنِي الليالي كيفَ أقتصدُ [٣]

ولم يكن علي بن يحيى المُنَجِّم ، الشاعر والراوى والإخباري ، أقل من سابقيه عند المتوكل ، بل فاقهم في مكانته عنده ، حتى أصبح ((آنس خلق الله به ، وأغلبهم عليه وعلى الفتح (بن خاقان) ، وتقدم الجلساء جميعاً عنده ، ووثق به حتى عزم على إدخاله معه إلى الحرم إذا جلس معهن)) [٤] . وعندما علم علي بما عزم عليه المتوكل ، خاطب الفتح بن خاقان الوزير في ذلك ، وطلب منه أن يقنع الخليفة بأن يعفيه من هذا الأمر ، فرد عليه الفتح بقوله : ((إن هذا الذي ندبك إليه أمير المؤمنين منزلة ليس فوقها منزلة في الخصوص)) [٥] . ولكن ابن المنجم استطاع أن يتخلص من هذا الموقف الحرج فأعفاه المتوكل .

إن قوة الصلة وطول أمدها بين المتوكل وابن المُنَجِّم نشأت ، وتأصلت بفضل المدة التي استغرقتها خلافة المتوكل ، والتي أربت على أربع عشرة سنة ، هي التي حملت أكثر المؤرخين على تأكيدها ، وإبرازها في صدر ترجماتهم لابن المُنَجِّم ، بالإضافة إلى أن أخباره مع المتوكل ، نظراً لملازمته إياه ، أكثر عدداً وتنوعاً من سواها ، مع أي

---

(١) انظر نص هذه المرثية في : المبرد : الكامل ، (٢/٣٨٥ ـ ٣٨٦) . وقام يونس السامرائي في بحثه السابق (ص ٥٦١ ـ ٥٦٣) بترتيب أبيات المرثية مع بيان مصادرها .

(٢) المبرد : الكامل ، (٢/٣٨٥) .

(٣) المصدر السابق ، (٢/٣٨٥) .

(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء (١٥/١٦٩) . النديم : الفهرست ، ص ٢٣١ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/٣٧٤) .

(٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء (١٥/١٨٩ ـ ١٧٠) .

شخصية عباسية أخرى ، سواء من الخلفاء ، أو عليه القوم ، من الأمراء او الوزراء ، او الأعيان [١] .

إن منزلة ابن المنجم المكينة عند المتوكل لم تقتصر على تقريبه وإيناسه به فقط ، بل تمثلت أيضاً في جوائز الخليفة وصلاته له ، التي وصلت إلى ثروة طائلة ، ويصور ابن المنجم حجم هذه الثروة في قوله : ((وأحصيت ما وصل إليَّ من أمير المؤمنين المتوكل من رزق ، وصلة فكان مبلغه ثلاثمائة ألف دينار)) [٢] . ولعل أبلغ دليل على حب المتوكل لأهل العلم والأدب . أن مولاه الفتح بن خاقان التركي ، الذي كان له نصيب من العلم أيضاً ، ومنزلة من الأدب وصاحب خزانة الكتب المعروفة بإسمه ، وصنف كتاباً في الأدب وسمه بكتاب « البستان » ، كان وزيراً له [٣] . وهو منصب صعب المنال ، ولا يصل إليه شخص عادي في ذلك الوقت .

ونتيجة لاهتمام المتوكل بأهل الأدب ، وحبه لهم ، وإغداقه عليهم ، أن أكسبهم ذلك نوع من الجرأة ، والجسارة في مواجهة المتوكل ، لثقتهم بأنهم وصلوا إلى المكانة المرموقة التي تسمح لهم بذلك [٤] . ومن ذلك أن أبا العيناء [٥] الشاعر دخل على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري سنة (٢٤٦هـ/٨٦٠م) ، فقال له المتوكل ((كيف قولك في دارنا هذه ؟ ، فأجابه أبو العيناء قائلاً : إن الناس بنوا الدور في الدنيا ، وأنت بنيت الدنيا في دارك . فاستحسن المتوكل ذلك منه)) [٦] .

---

(١) يونس السامرائي : علي بن يحيى المنجم ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج ٣٦ ، ج١ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص ٢٠٣ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٥/١٥٢) .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٨٦ ـ ٨٧) . ابن العمراني : الإنباء في تاريخ الخلفاء ، ص ١٢٠ .

(٤) علي هاشم : الأندية الأدبية في العصر العباسي ، ص ٨٦ .

(٥) أبو العيناء : هو أبو عبد الله محمد بن القاسم اليمامي ، كان أديباً ، إخبارياً ، بليغاً ، تميز بالظرف ، وسرعة الجواب ، مع غلبة روح السخرية في شعره ، وكان مقلاً في الشعر ، توفي سنة (٢٨٣هـ/٨٩٦م) بالبصرة . المرزباني : معجم الشعراء ، ص ٣٥٩ .

(٦) المسعودي : مروج الذهب (٤/٢٣٦) .

وعلى الرغم من حب المتوكل لأهل الأدب وتقريبهم إليه والإنفاق عليهم ، فقد امتدت هذه العناية إلى الأطباء أيضاً ، فنالوا المكافآت المادية والمكانة الإجتماعية اللائقة . فهذا إسرائيل بن زكريا الطيفوري الطبيب ⟨١⟩ ، أقطعه المتوكل بسُرَّ مَنْ رأى ، وأمر بعض قُوَّاده بأن يرافقوا إسرائيل ، ويتجولوا معه كل أنحاء المدينة حتى يختار الأرض المناسبة له . وفعلاً قام إسرائيل ، والقُوَّاد معه ، بالتجول في أنحاء المدينة واختار الموقع المناسب له ، بلغ في مساحته : خمسين ألف ذراع . ثم دفع له المتوكل ثلثمائة ألف درهم للنفقة عليها ⟨٢⟩ . وفي إحدى المرات ، احتجم المتوكل دون إذنه فغضب إسرائيل لذلك ، فافتدى المتوكل غضبه بثلاثة آلاف دينار وضيعة تغل له في السنة خمسين ألف درهم ⟨٣⟩ .

ومما يصور عمق العلاقة التي تجمع بين المتوكل وإسرائيل الطبيب ، أن الخليفة المتوكل عندما زار إسرائيل في مرضه ، وضع بيده تحت رأس إسرائيل مخدة ديباج ، وقال لوزيره ⟨٤⟩ : ((ياعبيد الله هذه حياتي معلقة بحياته ، إن عدمته لا أعيش)) ⟨٥⟩ .

ونتيجة لاهتمام المتوكل بإسرائيل هذا ، وإنفاقه عليه بلا حدود ، أن وصل إلى درجة عظيمة من الغنى ، صاحبها أبهة في العيش حتى أصبح ((متى ركب إلى دار المتوكل يكون موكبه مثل موكب الأمراء وأجلاء القواد ، وبين يديه أصحاب المقارع)) ⟨٦⟩ .

ولم يكن إسرائيل وحده من الأطباء الذين تمتعوا بعناية المتوكل وجوده ، بل شاركه في ذلك بختيشوع بن جبرائيل الطبيب ، الذي حظي بكرم المتوكل وتقريبه منه إلى درجة

---

(١) إسرائيل بن زكريا الطيفوري : طبيب الوزير الفتح بن خاقان ، وكان مقدما في صناعة الطب ، جليل القدر عند الخلفاء والملوك ، وكان المتوكل يعتمد عليه كثيراً ، وله عنده المنزلة الرفيعة . العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٩/١٩٩ ـ ٢٠٠) .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٢٥ .

(٣) الرهاوي : أدب الطبيب ، ص ٢٢١ .

(٤) وهو : عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، تولى الوزارة للمتوكل ، وكانت له عنده مكانة رفيعة ، والمعتمد . وكان حسن الخط ، له معرفة بالحساب والاستيفاء . توفي سنة (٢٦٣هـ/٨٧٦م) . اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، (٢/٤٥٢ ـ ٤٥٣ ، ٤٧٤) .

(٥) الرهاوي : أدب الطبيب ، ص ٢٢١ .

(٦) العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٩/٢٠٠) .

جعلت المتوكل ، عندما عاد بختيشوع في مرضه ، يقول لوزيره : ((اكتب في ضياع بختيشوع فإنها ضياعي ، وملكي . ومحله منا محل أرواحنا من أبداننا)) [١] .

ووصل الحال ببختيشوع ، نتيجة لاهتمام المتوكل ورعايته المادية والأدبية له ، أن بلغ ((في الجلالة ، والرفعة ، وعظم المنزلة ، وحسن الحال ، وكثرة المال ، وكمال المروءة ، ومباراة الخليفة في اللباس ، والزي ، والطيب ، والفرش ، والضيافات ، والتفسح في النفقات ، مبلغاً يفوق الوصف)) [٢] .

وبلغ بختيشوع من المنزلة عند المتوكل ، أن دخل ((يوماً إلى المتوكل ، وهو جالس على سدة في وسط داره الخاصة ، فجلس بختيشوع ، على عادته ، معه على السدة)) [٣] .

إن الأسماء السابقة من الأطباء ، لم تكن الوحيدة المقربة من المتوكل ، بل هناك أطباء آخرين أدخلهم المتوكل في جملة ندمائه . ومن هؤلاء : على بن سهل (ربن) الطبري [٤] ، ويوحنا بن ماسويه [٥] ، وغيرهم .

أما اهتمام **الخليفة المنتصر** بالحركة العلمية فلم يكن الدافع إليه أنه أحد شارات الملك ومظاهره فقط ، وإنما طبيعة شخصية المنتصر أيضاً ، فقد كانت له ((أخبار حسان ، وأشعار ، وملح ، ومنادمات ، ومكاتبات ، ومراسلات قبل الخلافة)) [٦] . ومن شعره :

متى ترفعُ الأيامُ مَنْ قَدْ وضعتْهُ	وينقادُ لي دهرٌ على جموح
أعللُ نفسي بالرخاءِ وإنني	لأغدو على ما ساءني وأروح [٧]

---

(١) العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (١٩٢/٩) .

(٢) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٠٢ .

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٦ .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٦ .

(٥) صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٠١ .

(٦) المسعودي : مروج الذهب ، (١٤٣/٤) .

(٧) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ . القفطي : المحمدون من الشعراء ، ص ١٧٨ .

كان المنتصر أديباً بطبعه ، ولذلك لا نجد غرابة في اهتمامه بأهل العلم والأدب . وترجم هذا الاهتمام على أرض الواقع ، من خلال اهتمامه الشخصي بالأدب ، وإجزال العطاء لجلسائه ، وتقريبهم إليه . فلم يبخل على أحد منهم ، وكان يذلل لهم ما قد يواجهونه من أعباء الحياة ، أو أي شيء قد يؤثر على عطائهم الأدبي . وفي ذلك يقول علي بن يحيى المنجم: ((ما رأيت مثل المنتصر، ولا أكرم مالاً بغير تبجح منه .رآني مغموما فسألني فوريت ، فاستحلفني ، فذكرت إضاقة لحقتني في شراء ضيعة ، فوصلني بعشرين ألفا)) [١] .

وكان المنتصر ، في بعض الأحيان ، يصرح لبعض من حظي عنده بالإعجاب ، فنراه يقول ليزيد بن محمد المهلبي : ((والله إنك لمن ذوي ثقتي ، وموضع إختياري ، ولك عندي الزلفى [٢] ، فطب نفسا ، قال المهلبي : ووصلني بثلاثة آلاف دينار)) [٣] .

وسار **الخليفة المستعين** على نهج سابقيه ، من خلفاء بني العباس ، في اهتمامهم بالعلم والعلماء ، لا سيما أن المستعين كان حسن المعرفة بأيام الناس ، لهجا بأخبار الماضين ، فاضلا ، أديبا [٤] . ويقدم لنا أبو البيضاء ، رئيس وفد المدينة المنورة إلى المستعين صورةً ، عن اهتمام المستعين بالأخبار وأيام الناس وحسن درايته بها . ويقول : ((وفدنا في أيام المستعين من المدينة إلى سُرَّ مَنْ رأى فينا ، جماعة من آل أبي طالب وغيرهم من الأنصار ، فأقمنا ببابه نحواً من شهر ، ثم وصلنا إليه ، فكل تكلم وعبر عن نفسه ، فقرب ، وآنس ، وابتدأ بذكر المدينة ، ومكة وأخبارهما ، وكنت أعرف الجماعة بما شرع فيه فقلت : أيأذن أمير المؤمنين في الكلام ؟ . قال : ذلك إليك ، فشرعت معه فيما قصد إليه ، وتسلسل بنا الكلام إلى فنون من العلم في أخبار الناس)) [٥] .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، (٤/١٣٧ ــ ١٣٨) . الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٢٤١ ــ ٢٥٠هـ) ، ص ٤١٩ . واللفظ للذهبي ، وورد النص مطولاً عند المسعودي .

(٢) الزلفى : القربة والمنزلة . الرازي : مختار الصحاح ، ص ٢٤٠ .

(٣) الأصفهاني : الأغاني ، (٩/٣٠٢ ــ ٣٠٣) .

(٤) العصامي : سمط النجوم العوالي ، (٣/٢٤٥) .

(٥) المصدر السابق ، (٤/١٥٦) . وفي النص السابق إشارة لموقف المستعين الإيجابي من الطالبيين .

ولذا ، نرى المستعين يولي العلماء والأدباء كل عناية وتقدير . فنراه يرد بختيشوع الطبيب إلى الخدمة ، ورد إليه أملاكه التي قام بمصادرتها المتوكل ، وزاد في إكرامه وتقريبه إليه ، وأكثر من الإحسان إليه [١] . بل ويهب يزيد بن محمد المهلبي (مائتي ألف درهم) على قصيدة لم يبق منها سوى بيتين [٢] .

ولم يكن الحافز المادي المظهر الوحيد في اهتمام وتشجيع المستعين لأهل العلم والأدب ، بل استخدم حافزاً اجتماعياً ، وهو المناصب العليا ، والتي تكسب صاحبها مكانة مرموقة في مجتمعه . ولذا ، نجده يقلد علي بن يحيى المنجم أعمال العاصمة كلها ((وكل ما على شاطيء دجلة إلى البطيحة من القرى)) [٣] . فكان ابن المنجم أحد أنصار المستعين أثناء نزاعه مع المعتز على الخلافة [٤] .

وشهدت علاقة المستعين بابن المنجم نوعاً من الخصوصية ، وصلت إلى أن المستعين كان لا يأكل إلا ما يحمل إليه من منزل ابن المنجم [٥] .

وهذا عبد الله بن محمد بن داود الهاشمي المعروف بأترجة [٦] ، دخل على المستعين مرة ، وأنشده أبياتاً مطلعها :

غدوتُ بسعد غدوةً لك باكره فلا زالت الدنيا بملكِكَ عامرةً

فدفع إليه المستعين بخريطة كانت في يده مملوءة دنانير ، ودعا بغالية فجعل يغلفه بيده [٧] .

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص ٢٠٢ .

(٢) يونس السامرائي : يزيد المهلبي ، حياته وما تبقى من شعره ، ص ٥٣٢ .

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٥/١٧١ ـ ١٧٢) .

(٤) المصدر السابق ، (١٥/١٧٢) .

(٥) المصدر السابق ، (١٥/١٧٢) .

(٦) لم يعثر له على ترجمة .

(٧) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٥/٨٥) . والخريطة : وعاء مثل الكيس ، تكون من الخرق ، والأدم ، يشد على ما فيها . ابن منظور : لسان العرب ، (٧/٢٨٦) . المعجم الوسيط ، ص ٢٥١ . والغالية : نوع من الطيب الفاخر . والمعنى : أن المستعين تولى بنفسه تطييب عبد الله الشاعر .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد انتقد بعض المؤرخين الخليفة المستعين من الناحية العلمية ، ووصمه بأنه ((يدعي معرفة الأدب ، ولم يكن يحسن شيئاً منه ، ويتشاعر ، ولم يكن شاعراً)) (١) .

وواصل **الخليفة المعتز** مسيرة سلفه في الاهتمام بالحركة العلمية ، فقد كان من محبي الشعر ونظمه . ولقد حوت بعض المصادر التاريخية والأدبية ، نماذجاً من الأبيات التي أنشدها في مناسبات ومواقف مختلفة . ومن ذلك قوله عند توليه الخلافة :

تفردني الرحمنُ بالعزِ والتقى فأصبحتُ فوقَ العالمين أميرا (٢)

واتصف المعتز بحسن استقباله لأهل العلم ، وتفتح أساريره عند رؤيتهم ، فعندما علم بقدوم الزبير بن بكّار (٣) من الحجاز ، خرج مستعجلاً فتعثر ، فانشأ يقول على البديهة:

يموتُ الفتى مِنْ عثرةٍ بلسانه وليسَ يموتُ المرءُ من عثرة الرجل

فعثرتهُ من فيهِ ترمى برأسهِ وعثرتهُ في الرجلِ تَبْرأُ على مهلِ (٤)

ووصف شعر المعتز بأنه : ((شعر لا بأس به)) (٥) .

إن الاستعداد الأدبي الموجود عند المعتز يكفي لأن يكون دافعاً له لاهتمامه بأهل العلم والأدب ، وتقريبهم وتحفيزهم بصور شتى ، سواء كانت مادية ، أو أدبية ، أو إجتماعية .

---

(١) ابن العمراني : الإنباء في تاريخ الخلفاء ، ص ١٢٦ .

(٢) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ٣٥٧ . القفطي : المحمدون من الشعراء ، ص ١٧٨ .

(٣) الزبير بن بكّار : هو أبو عبد الله الزبير بن بكر بن بكّار القرشي ، من نسل الصحابي الجليل الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، تولى القضاء بمكة ، ولم يزل عليه حتى وفاته ، وله كتاب ((أنساب قريش)) ، وعلى هذا الكتاب اعتماد الناس في معرفة نسب القرشيين . وعند قدومه إلى العراق ، عرض عليه الخليفة المعتز تأديب ولده ، ولكنه اعتذر . وتوفي ابن بكّار سنة (٢٥٦هـ/٨٧٠م) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣١١/٢ ـ ٣١٢) .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٢٥/٢) . ابن كثير : البداية والنهاية (١٦/١١ ـ ١٧) ، والبيت الثاني انفرد بذكره ابن كثير .

(٥) ابن العمراني : الإنباء في تاريخ الخلفاء ، ص ١٣٠ .

فعندما قدم علي بن يحيى المنجم على المعتز ، بعد توليه الخلافة مباشرة ، تلقاه المعتز ((بأجمل لقاء ، وخلع عليه ، ووصله ، وقلده الأسواق ، والعمارات ، وما كان يتقلده قبل خلافته وخصَّ به ، وغلب عليه حتى تقدم عنده على الناس كلهم)) ⟨١⟩ .

ونتيجة لذلك ، عاش ابن المنجم في رغد من العيش ، وأصبح من أثرياء القوم ، لما كان يصله من المعتز ، فقد حسب ابن المنجم ما وصل إليه من المعتز من صلته ورزقه منذ أن خدمه إلى أن تصرمت أيامه ، فكان مبلغه (ثلاثة وثلاثين ألف دينار) . وعندما قلده المعتز مهمة بناء القصر المعروف بالكامل وصله عند فراغه منه بخمسة آلاف دينار ، وأقطعه ضيعة ⟨٢⟩ .

وبلغ يزيد بن محمد المهلبي مكانة عظيمة عند المعتز ، لدرجة أصبح معها المهلبي أحد مصادر المؤرخين في بعض جوانب سيرة المعتز الخاصة ⟨٣⟩ .

ويذكر البحتري الشاعر ، أنه دخل يوماً على المعتز ، وأنشده قصيدة يمدحه فيها : فأمر له بمائة ألف درهم ، وقال له : ((لا تُعلِم بها الشعراء ، فإني قد أمرت لهم بخمسمائة ألف درهم ، فإذا علموا بما أعطيتك لم يفرزوا نصيبك ، فخذ هذه ، وامض ؛ وخذ نصيبك معهم)) ⟨٤⟩ .

ولم تكن الأعطيات المالية المظهر الوحيد من مظاهر اهتمام المعتز بأصحاب العلم والأدب ، بل تمثل أيضاً في تقليد من يثق به منهم المناصب الرفيعة ، كتقليده يحيى بن مروان بن أبي الجنوب الشاعر على اليمامة والبحرين . وذلك لأنه لزم المعتز ، وخصَّ به ⟨٥⟩ .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء (١٥/ ١٧٣) .

(٢) المصدر السابق ، (١٥/١٧٣) .

(٣) يونس السامرائي : يزيد المهلبي ، حياته وما تبقى من شعره ، ص ٥٣٢ .

(٤) ابن العمراني : الإنباء في تاريخ الخلفاء ، ص ١٢٩ .

(٥) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ٤٣٤ .

ولم يقتصر اهتمام المعتز على الأدباء فقط ، بل ونال الأطباء أيضاً كل عناية وتقدير من المعتز . فكان إبراهيم بن الأبرش الطبيب من أخص الأطباء عند المعتز ، وكانت صلاته إليه واصلة لا تنقطع [١] .

وما قول المعتز ، عندما وصل إليه خبر وفاة الجاحظ : ((لقد كنت أحب أن أشخصه ، وأن يقيم عندي)) [٢] ، إلا دليل على مدى حب المعتز للعلم وأهله .

أما **الخليفة المهتدي** ، فقد كان من أحسن خلفاء بني العباس مذهباً ، وورعاً ، وأكثرهم عبادة [٣] ، مما كان له أثر في اهتمامه بالحركة العلمية . وهذا الأثر نجده ظاهراً في بعض المواقف التي حدثت بين المهتدي مع بعض أهل العلم والأدب .

وكان المهتدي ميالاً لأخبار الناس وأيامهم ، وخصوصاً الأخبار التي تتحدث عن الزهد في الدنيا ، وما جاء في هذا الصدد من أخبار السابقين ، لذلك كان يأنس لأصحاب الأخبار الذين تميَّزوا بالاستقامة ، بل وكان يقضي معهم الليالي في مذاكرة أخبار الناس وأيامهم ، ويكتب بنفسه ما يستفاد فيها من الأخبار . فيذكر محمد بن علي الربعي ـ وكان ممن يكثر ملازمة المهتدي ، وكان حسن المجلس ، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم ـ أنه كان يبايت المهتدي ، ويتذاكرون أخبار الزهد ، والزُّهاد ، وكل ما يدخل في هذا الباب من أبواب الرقائق . وأنهم تذاكروا في إحدى الليالي تذاكرا خبر أحد الأشخاص ويعرف باسم « نوف » مع الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ، (رضي الله عنه) ، وكان نوف هذا يسامر علي (رضي الله عنه) الليالي ، ويتبادلون فيها الحديث عن الزهد وفضله على صاحبه في الدنيا والآخرة . قال الربعي : ((فوالله لقد كتب المهتدي هذا الخبر بخطه)) [٤] .

ولهذا ، يمكن القول ، أن للمهتدي كتابات خاصة يسجل فيها مثل هذه الأخبار ، وهذا يجعلنا نتوقع بأنه جمع كتاباً في نوادر الأخبار لم يصل إلينا .

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٤١ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٢٩١ .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣/٣٤٨) . . القلقشندي : مآثر الأنافة ، (١/٢٤٨ ـ ٢٤٩) .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ، (٤/١٩٣ ـ ١٩٤) .

كذلك كان علماء الفقه أصحاب مكانة عالية عند المهتدي ، وقربهم إليه [١] . فقد كان أبو بكر الخصاف ، الفقيه والمحاسبي ، من العلماء المقدمين عند المهتدي ، ونال كل اهتمام وتقدير منه ، وقد ترجم الخصاف نتيجة هذا الاهتمام بتصنيفه كتاب « الخراج » وإهدائه للمهتدي [٢] .

وكان للمهتدي موقف خاص من مسألة الصلات يختلف عن جميع الخلفاء السابقين له واللاحقين . وهذا الموقف نابع من طبيعة شخصيته وسِمَتها .

ولعل الموقف الذي حدث بين المهتدي والبحتري الشاعر يعطينا تصوراً واضحاً عن موقف المهتدي من هذه المسألة ، وأمور أخرى من الأفضل الحديث عنها بعد إيراد الخبر .

فقد أنشده البحتري قصيدةً بديعة يصف فيها زهده ، وسيرته ، ولبسه للصوف ، وأعجب المهتدي ببيتين في القصيدة . قال البحتري : ((فلما فرغت من إنشاد القصيدة قال لي : والله لقد أحسنت في تينك البيتين . وليس لي مال أصلك به ، ولا أرى لك في بيت مال المسلمين حقاً . ولكني أفعل معك فعلاً آخر ، وأمر بإحضار أهله ، وأقاربه ، وقال لهم : أبو عبادة خطيب بيتنا ، وشاعر دولتنا ، وليس في يدي شيء سوى الأموال التي في بيت مال المسلمين ، وهي وديعة في يدي ، والله يسألني عنها يوم القيامة ، ويحاسبني عليها ، فأجيزوا أبا عبادة عني فجمعوا لي بينهم في الحال مائة ألف درهم . فقال المهتدي : يا أبا عبادة : والله ما ملكت عشرها قط ، ولا أملكه إن شاء الله)) [٣] .

إن هذا الموقف قد حوى مضامين مهمة عن شخصية المهتدي ، وموقفه من بعض الأمور ، ويمكن أن نستعرضها في نقاط كما يلي :

أولاً : الموقف الإيجابي والمعتدل من أهل الأدب ، دون مجاوزة الحد في استمالتهم ، والابتعاد عن الأدب الهزلي وما لا يستحسن منه عموماً .

---

(١) اليعقوبي : مشاكلة الناس لزمانهم ، ص ٣٤ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٨ .

(٣) ابن العمراني : الإنباء في تاريخ الخلفاء ، ص ١٣٤ ـ ١٣٦ . وانظر فيه الأبيات .

ثانياً : موقف المهتدي الواضح والصريح من قضية الصلات لأهل العلم والأدب ، والذي يجسد فيه ورعه وخوفه من الله سبحانه وتعالى ، إذ يرى أن هؤلاء ليس لهم حق في أموال بيت المال . وهو بذلك يشذ عن جميع الخلفاء العباسيين ، الذين كانوا يدخلون أموال العطاء ضمن مصروفات بيت المال [١] .

ولم يكن **الخليفة المعتمد** ، على الرغم من ضعف شخصيته وتغلب أخيه الموفق على أمور الدولة ، أقل من سلفة في اهتمامه بالحركة العلمية ، وتقريبه لأهل العلم والأدب ، وعقد مجالس النقاش والمناظرة في قصره .

فكان المعتمد يعقد المجالس الأدبية في قصره بحضور أهل الأدب ، ويتناول الحضور مختلف الموضوعات الأدبية التي كانت تطرح على ساحة النقاش [٢] .

وكان يغشى مجلس المعتمد زمرة من الأفاضل ، وصفهم عبيد الله بن خرداذبة ، والذي كان من ندماء المعتمد وخاصته [٣] ، بأنهم ((من ذوي العقول ، والمعرفة ، والحجى)) [٤] .

وتذكر لنا المصادر بعض أسماء ندماء المعتمد وجلسائه من أهل العلم والأدب ، فمنهم ابن خرداذبة ، وأبو العنبس الصيمري [٥] ، وعلي بن يحيى المنجم [٦] ، الذي ((حل منه محله ممن كان قبله من الخلفاء ، فقربه وأدناه ، وقدمه على الناس جميعاً ، ووصله ، وقلده ما كان يتقلد من أعمال الحضرة ، وعهد إليه القيام ببناء قصره

---

(١) عن مقدار هذه المصروفات انظر : ضيف الله الزهراني : النفقات وإدارتها في الدولة العباسية ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٢٢٦) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٢٣٩ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٢٢٠) .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٢٤٤ .

(٦) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ١٢٥ . النديم ، الفهرست ، ص ٢٣١ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/٣٧٣) .

المعشوق ، .. فبنى له أكثره)) [١] ، ومن الندماء أيضاً ، يزيد بن محمد المهلبي [٢] ، وغيرهم .

وفي عهد **الخليفة المعتضد** ، لقيت الحركة العلمية كل عناية واهتمام منه ، كيف لا ، وهو نفسه كان من المهتمين بالدراسات المنطقية ، فقد طلب من وزيره القاسم بن عبيد الله أن يعهد إلى من يراه من العلماء ، ليفسر له الجداول الموجودة في كتاب « جامع المنطق » لمحمد بن يحيى العسكري المعروف بمحبرة النديم ، وتولى هذه المهمة أبو إسحاق الزجاج [٣] ، الذي كان أحد ندمائه أيضاً [٤] .

ولقد اشتهر المعتضد باحترامه الكبير للعلماء ، وحسن وفادته لهم ، وتميزه عن بقية الخلفاء في هذا الجانب ، وتمدنا المصادر بشذرات جميلة تصور لنا هذا الأمر .

ففي أحد الأيام ، كان المعتضد وثابت بن قرة الطبيب يطوفان في أحد البساتين ، وكانت يد المعتضد على يد ثابت ، وفجأة انتزع المعتضد يده من يد ثابت ، ففزع ثابت من هذا الفعل ، فقال له المعتضد : ((ياثابت ، أخطأت حين وضعت يدي على يدك وسهوت ، فإن العلم يعلو ولا يُعْلَى)) [٥] . وعلق البيهقي على هذا الموقف بقوله : ((فهذه غاية إكرامه في بابه)) [٦] .

وبلغ ثابت من المنزلة العظيمة عند المعتضد لدرجة أنه ((كان يجلس بحضرته في كل وقت ، ويحادثه طويلاً ، ويضاحكه ، ويقبل عليه دون وزرائه وخاصته)) [٧] .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٥/١٧٤) .

(٢) يونس السامرائي : يزيد المهلبي ، حياته وما تبقى من شعره ، ص ٢٣٣ (مقال) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٩٥ . القفطي : إنباه الرواة ، (١/١٩٩) ، وفيه أن اسم الكتاب « جامع النطق » . وفي ترجمة القفطي لمحبرة النديم (٣/٢٣٢) ذكر : أن اسم الكتاب « جامع المنطق » ، وهو ما يتفق مع ما ذكره النديم في الفهرست .

(٤) القفطي : إنباه الرواة ، (١/١٩٩) .

(٥) البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام ، ص ٢٠ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٩٦ . وفيه أن المعتضد قال : ((فإن العلماء يَعلون ولا يُعلون)) .

(٦) البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام ، ص ٢٠ .

(٧) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١١٥ ـ ١١٦ . الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٢٨١ ـ ٢٩٠هـ) ص ١٣٨ ، ويضيف الذهبي : ((وكان يجلس عنده ، والوزير قائم)) .

وكان المعتضد يتمتع بموهبة شعرية . فكانت المحاورات الشعرية تجري بينه وبين نديمه يحيى بن علي المنجم [١] . وفي ذلك دلالة على أن هناك تفاعل بين الخليفة والعلماء ، وبالتالي يعطي صورة رائعة عن مدى ما وصل إليه اهتمام الخلفاء بالحركة العلمية .

ومن مظاهر اهتمام المعتضد بالحركة العلمية ، تقريبه لأصحاب العلم والفكر . مما جعل البعض منهم يحرص على توطيد هذه العلاقة ، وتعميقها إلى درجة أوصلت بعضهم إلى مكانة مرموقة عند المعتضد . وما علاقة أحمد بن الطيب السرخسي بالمعتضد ، إلا أحد الشواهد على ذلك ، إذ كان المعتضد يفضي إليه بأسراره ، ويستشيره في أمور مملكته [٢] . وزاد على ذلك أن قلده الحسبة ببغداد [٣] . ووصلت علاقة المعتضد بداؤد بن ديلم الطبيب إلى أن توقيعات الخليفة كانت ((تخرج بخط ابن ديلم ، لمحله منه ومكانته ، وكان يتردد إلى دور المعتضد ، وله من الإحسان الكثير ، والإنعام الوافر)) [٤] .

أما **الخليفة المكتفي** ، فلم تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات وافية عن طبيعة اهتمام المكتفي بالحركة العلمية ، ولكن هناك بعض النصوص الدالة على وجود بوادر لاهتمام المكتفي بالعلم والعلماء . فقد كانت له عناية بالشعر ونظمه . وتورد له بعض المصادر ، شذرات من شعر نظمه في بعض المواقف ، وهو القائل لما شخص إلى الرَّقّة لحرب صاحب الخال [٥] :

يامَنْ رحلْتَ بجيشِ اللـه أطلبه ... أنتَ القتيلُ على قربٍ وإدناءِ

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، (٢٧٩/٤) . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٧٩ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٧٧ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٩٣ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ، (٢٥٩/٤) . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٩٣ .

(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣١٥ ـ ٣١٦ .

(٥) الرقة : إحدى مدن إقليم الجزيرة على نهر الفرات ، وقصبة ديار مضر . وهي مدينة قديمة ، ويجري بها نهري : الهنا ، والمرا . وهي اليوم إحدى مدن الجمهورية العربية السورية الشمالية . شيخ الربوة : نخبة الدهر ، ص ٢٥٦ . حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٤١٧ .

وإنْ بَعُدْتَ فأنتَ العيرُ في رسن   تُهدي إليَّ كمَا أُهدِي لآبائي

تَذوّقْ ما ذاقَهُ العاصون مُنْذُ زمن   وهذهِ عادتِي في كل أعدائِي [١]

وله أيضاً :

كيفَ لي بالودادِ ممنْ هويت   ليسَ يشقى وقَدْ لعمْري شقيتُ

لستُ أرضَى لعزه مع ملكي   واقتدارِي بلَى برغمِي رضيتُ [٢]

ومن مظاهر اهتمام المكتفي بالحركة العلمية ، تقريبه للعلماء والأدباء ، ومجالستهم . والمصادر ترفدنا ببعض الأسماء لعلماء وأدباء كانوا من جلساء المكتفي وندمائه . ومن هؤلاء : أبو بكر الصولي [٣] ، وابن حمدون [٤] ، وإسحاق بن حنين بن إسحاق الطبيب [٥]، ويحيى بن علي المنجم [٦] ، وأبو إسحاق الزجاج [٧] ، وغيرهم .

ولم تسعفنا المصادر بنصوص عن مدى عناية الخليفة المقتدر بالحركة العلمية ، وهو أمر عائد إلى سوء الأحوال العامة في العراق خلال عهده ، وانشغاله عن أمور الدولة باللهو ، والملذات ، خصوصاً في بداية خلافته وسيطرة الحاشية على مقاليد الأمور . ولذلك لم يكن المقتدر مهيئاً لأن يكون راعياً للعلم والعلماء ، أو عقد المجالس الأدبية في قصره كبقية سلفه من الخلفاء .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن المقتدر وبقية خلفاء بني العباس ، يشتركون في أمر واحد ، وهو احترامهم وتقديرهم لأهل العلم ، بل وعدم تجرئهم على إزعاجهم .

---

(١) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ١٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٩/١١٠) .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٢٨٩) .

(٥) البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام ، ص ١٨ .

(٦) ابن العمراني : الإنباء في تاريخ الخلفاء ، ص ١٥١ . الصابيء : الوزراء ، ص ١٣٦ .

(٧) القفطي : إنباه الرواة ، (١/١٩٨) .

ويحفظ لنا الهمذاني نصاً مهماً ، يبين وجود مبدأ احترام العلماء وتوقيرهم من قبل المقتدر . فقد سمع علي بن بشار الزاهد [١] غناءً من أحد خدم قصر المقتدر ، وكان ابن بشار يسكن بجواره ، فلما أصبح قال : ((هذا الإمام ، ولا يمكننا الإنكار على الإمام ، ولكن ننتقل ، فبلغ ذلك المقتدر ، فأنفذ إليه رسولاً قائلاً له : أيها الشيخ لا تنزعج فتزعجنا ، ونحن أولى بالانتقال منك ، فكان هذا من عمل خادم ، وقد أدبناه ، وصرفناه عن دارنا ، ولن ترى بعدها ، ولا تسمع ما تكره)) [٢] .

أما **الخليفة القاهر** فهو كسابقه ، الخليفة المقتدر ، من حيث ندرة المعلومات حول اهتمامه بالحركة العلمية . إلا أنه كان شغوفاً بسماع أخبار الناس وأيامهم بشكل عام ، وأسلافه العباسيين على وجه الخصوص ، لا سيما أبو العباس السفاح ، وأبو جعفر المنصور ، وهارون الرشيد ، ممن اشتهروا بقوة الشكيمة ، وشهرتهم كخلفاء أقوياء .

ولذا ، كان القاهر يأنس بمجالسة أصحاب الأخبار والسير ، ومنهم محمد بن علي العبدي الخراساني الإخباري [٣] ، وفي إحدى المرات طلب منه الحديث عن خلفاء بني العباس من السفاح إلى عهده ، ففعل الخراساني [٤] .

كما كان لبعض الأطباء مكانة رفيعة عند القاهر ، ووصلت منزلة عيسى بن يوسف المعروف بابن العطّارة [٥] عند القاهر ، بأن كان (ثقته ، ومشيره ، وسفيره بينه وبين وزرائه ، وتقدم في وقته تقدما كثيراً)) [٦] .

---

(١) علي بن بشّار : هو أبو الحسن علي بن محمد بن بشّار البغدادي الزاهد . روى الحديث عن جماعة ، وروي عنه . أحد أصحاب أحمد بن حنبل المشهورين بالزهد والورع . وكان ذكره منتشراً بين الناس . قال أبو عبد الله بن بطة الفقيه : ((إذا رأيت البغدادي يحب أبا الحسن بن بشّار ، وأبا محمد البربهاري ، فاعلم أنه صاحب سنه)) . وتوفي ابن بشّار سنة (٣١٣هـ/٩٢٥م) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٦٧/١٢) .

(٢) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٢٤٨ .

(٣) لم يعثر على ترجمته .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ، (٣١٣/٤ ـ ٣١٩) .

(٥) عيسى بن يوسف : ويعرف بابن العطّارة ، وهو أحد أطباء بغداد ، وكان يشترك مع سنان بن ثابت بن قرّة في تطبيب الخليفة القاهر . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٥٠ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

أما **الخليفة الراضي** ، واهتمامه بالحركة العلمية فهو يختلف تماماً عن بقية خلفاء فترة نفوذ الأتراك .

فالراضي كان أديباً شاعراً قبل أن يكون راعياً للعلم وأهله ، وهو ما يُجمع عليه أصحاب التاريخ والأدب . فوصفه أبو بكر الصولي ، وهو أقرب شخص للراضي من بين جميع الجلساء والندماء ، بأنه : ((من أطبع ملوك بني العباس في الشعر ، وأكثرهم شعراً)) [١] ، كما يصفه المسعودي بقوله : ((وكان الراضي أديباً ، شاعراً ، ظريفاً ، وله أشعار حسان في معان مختلفة)) [٢] .

وإضافة إلى تمتعه بالقدرة على نظم الشعر ، كان الراضي عارفاً بالتاريخ ، والنجوم ، والعَروض [٣] .

لقد كان الراضي صادقاً في اهتمامه العلمي ، ومحاولته بأن يضع لنفسه سمة طالب العلم ، وليس الخليفة .

ولذا ، لم يكن الراضي يجد غضاضة بأن يتخذ كل وسيلة يتعرف من خلالها على جوانب القصور في شخصيته العلمية فيما يتعلق بالنواحي اللغوية ، او النحوية ، او البيانية ، فقد أرسل إلى أبي بكر الصولي رقعة بخط يده فحواها : ((أبقاك الله يا محمد ، قد لحظك طرفي وأنا أخطب .. فعرفني ، على تحري الصدق ، واتباع الحق ، كيف ما سمعت ، وهل تهجن الكلام بزيادة فيه ، أو اختل بنقص منه ، أو وقع ذلك في لفظه ، أو إحالة في معناه ، جارياً فيه على عادتك في حال الإمرة ، غير مقصر عنها للخلافة إن شاء الله)) [٤] .

---

(١) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ١٨ ـ ١٩ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ، (٣٢٣/٤) .

(٣) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ٣٨٢ . القضاعي : عيون المعارف ، ص ٥١٣ . الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٣٢٣ . القفطي : المحمدون من الشعراء ، ص ١٨٣ .

(٤) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٧٨ .

ولا نجد حرجاً من القول بأن الراضي يعد من أبرز شعراء عصره ، بل وساهم في دعم الدراسات الأدبية في جانب الشعر بديوان شعر لم يصل إلينا . وقد أملاه على أبي بكر الصولي . وقام بنسخه من حضر مجلس الإملاء من ندماء الراضي [١] . وهو آخر خليفة له شعر مُدوَّن [٢] .

ولم يكن الراضي مجرد ناظم للشعر ، بل كان ناقداً له أيضاً . ومن ذلك أن الراضي أرسل جواباً إلى الصولي على قصيدةٍ بعثها إليه الأخير ، قائلاً فيه : ((قد استحسنت الشعر غاية الاستحسان ، ورأيتك تكلفت فيه ما لا يجب عليك من لزوم الواو في أرداف القافية)) [٣] .

كذلك كان الراضي يتمتع بذاكرة شعرية تنم على شدة اهتمامه بالشعر اهتماماً كبيراً . فقد أنشده الصولي قصيدة زائية في أيام النيروز ، فلما أتم إنشادها أعجب بها الراضي ، وقال له : ((ما أعرف زائية مثلها ، بل لا أعرف زائية إلا للشمَّاخ ، وتلك عجوز وهذه شابه)) [٤] .

ومن مظاهر اهتمام الراضي بالحركة العلمية ، عقده لمجالس الأدب ، سواء في داخل قصره أو خارجه ، حيث تناقش فيها الموضوعات المختلفة ، ويسهم الحاضرون في إثرائه وإثارته [٥] . ويعد الراضي آخر خليفة يجالس الندماء [٦] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٥٤ . ومن حسن الحظ أن الصولي احتفظ في كتابه السابق بأكثر الديوان ، فأورده مرتباً على حروف الهجاء بالنسبة للقوافي ، مبتدئاً بقافية الباء ، ومختتماً بقافية الهاء . وبعد إيراده لشعر الراضي ، يستدرك الصولي بقوله : ((وشعر الراضي كثير ، وقد جئت بالمختار منه)) . المصدر السابق ، ص ١٥٤ ـ ١٨٢ .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٤٣/٢) . أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، (٨٧/٢/١) .

(٣) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٨٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٢ ، ٣٨ . وللراضي أبيات كثيرة جداً ذكرها الصولي في ثنايا كتابه هذا . والشمَّاخ : هو الشماخ بن ضرار الذبياني الغطفاني . شاعر مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام . من طبقة لبيد والنابغة . وكان أرجز الناس على البديهة . شهد معركة القادسية . وله ديوان شعر مطبوع . وتوفي سنة (٢٢هـ/٦٤٣م) . الجمحي : طبقات الشعراء ، ص ٢٩ . ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ص ١٩٩ ـ ٢٠١ .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٤٣/٢) .

(٦) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، (٨٧/٢/١) .

وكان مجلس الراضي يعقد وفق تنظيم دقيق ، من حيث نوعية الشخصيات المدعوة للحضور ، وترتيب جلوسهم ، وتقسيمهم إلى مجموعتين للتناوب في منادمة الراضي ، مع حرصه الشديد على عقد هذه المجالس مهما كانت الظروف [١] .

وكان يغشى مجلس الراضي أسماء لامعة في ميادين العلوم المختلفة من علماء العراق ، ومنهم : سنان بن ثابت بن قرة الحراني الطبيب [٢] ، وأبو بكر محمد بن القاسم الأنباري [٣] ، ومحمد بن عبد الله بن حمدون ، وأحمد بن محمد العروضي ، وإسحاق بن إبراهيم اليزيدي ، وأخيه علي ، ويوسف بن يحيى المنجم ، وأخيه أحمد [٤] ، وغيرهم .

ولم يكن هذا الإثراء العلمي ، وحماس العلماء والأدباء في الإنتاج العلمي ليتم لولا الدعم المادي الكبير الذي حظي به هؤلاء من الخليفة الراضي ، والذي عرف بسخائه ، خاصة على أهل العلم والأدب ، بلا حدود [٥] .

وبالغ الراضي في إنفاقه على جلسائه حتى تكلم الناس في إسرافه ، فورد الخبر إلى الراضي ، فرد على ذلك بأبيات قال فيها :

لا تعذِلوا كرمي على الإسراف	ربْحُ المحامدِ مَتْجرُ الأشراف
أَجري كآبائي الخلائفِ سابقاً	وأشيدُ ما قدْ أسَّسْت أسلافي
إنـي مِنْ القومِ الذين أكفُّهُم	مُعتادةُ الإخلافِ والإتلافِ [٦]

---

(١) انظر عن ذلك كله مفصلاً : الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٨ ـ ٩ ، ١١٠ ، ١٣٧ .

(٢) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، (١/٢٦٣) .

(٣) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٩٩ .

(٤) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٨ ، ٩ . ولم يعثر على ترجمة هؤلاء الذين ذكرهم الصولي .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢/١٤٣) . العصامي : سمط النجوم العوالي ، (٣/٣٦٢) . القلقشندي : مآثر الأنافة ، (١/٢٨٦) .

(٦) الغساني : نزهة الظرفاء ، ص ٥٢ .

ونتيجة لما سبق ، فقد نشأة علاقة ود حميمة بين الراضي والعلماء ، جعلت الراضي ينتابه القلق إذا طال غياب أحد جلسائه . فعندما تأخر أبو بكر الصولي ذات مرة لعلة أصابته ، كتب الراضي إليه رقعة فيها :

يا عليلاً جعلَ السا — عةَ إذا غابَ شُهُورَا
ولقَدْ كانَ بِهِ الدَّ — هرُ إذا جَاءَ قَصِيرَا
لعلومٍ لا أرى الدَّ — هرَ لهُ فيها نظيرَا
صرفَ اللَّهُ الأذى — عنْكَ ولقَّاكَ سروراً [١]

وارتقت هذه العلاقة الوثيقة بين الراضي وأهل العلم إلى أرفع المستويات . فقد وجد الراضي وجداً شديداً لوفاة عمر بن محمد القاضي سنة (٣٢٦هـ/٩٣٧م) فكان يبكيه بحضرة الجلساء ويثني عليه بقوله : ((كنت أضيق بالشيء ذرعاً حتى أراه فيوسعه لي برأي يسير يشير به)) [٢] .

ولكن فإن الراضي ، على الرغم من ذلك ، لم يكن ليسمح لأحد من جلسائه أن يستغل هذا التودد من قِبَلِه له . بل كان شديداً مع من يكتشف أنه لم يكن أهلاً لأن يكون أحد جلسائه وندمائه . ولذلك نراه يطرد ابن حمدون النديم من مجلسه ، لبلوغه أنه كان يجالس ابن رائق ، المنشق عن الدولة العباسية وعدو الراضي ، ويخبره بما يحدث في مجلس الراضي [٣] .

أما **الخليفة المتقي** ، فقد كان تقياً ، ديناً ، وهو يشبه في ذلك الخليفة المهتدي . ولذلك كان لطبيعة شخصيته أثر على اهتمامه بالحركة العلمية ، وهو ما يظهر في قوله : ((لا أريد نديما غير المصحف)) [٤] .

---

(١) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٦٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٢ .

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٥ . ابن دقماق : الجوهر الثمين ، (١٧٩/١) وفيه أنه قال : ((نديمي المصحف)) .

ولعل هذا الأمر قد أغضب الندماء بالطبع ، لأن في ذلك حرمان لهم من الصلات ، والمكافآت المالية . ولذلك نرى الصولي ينتقد وبشدة ما قاله المتقي آنفا ، في قوله : ((ولما رأيت أنا أن المتقي لله لا يريد جليسا ، وما سمع بخليفة قط قال : لا أريد جليسا ، أنا أجالس المصحف . أفتراه ظن أن مجالسة المصحف خص به دون آبائه وأعمامه الخلفاء ، وكان وحده دونهم ، أو أن هذا الرأي غمض عليهم ، وفطن هو وحده له ؟ . فاستأذنت في الخروج فأذن لي)) [١] .

وكان المتقي يسير على نفس طريق سلفه الخليفة المهتدي بالامتناع عن الأعطيات المالية ، حتى مقابل قصائد المدح التي ألقيت بمناسبة توليه الخلافة ، ولا في غيرها من المناسبات ، وهو ما يصرح به الصولي ، الذي ألحَّ في أكثر من مناسبة على المتقي لكي يصله بمكافئة ولكن دون جدوى ، حيث يقول : ((فوالله ما وصل إليَّ منه عاجل ، ولا آجل شيئا ، حتى انقضت أيام ولايته)) [٢] .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن النصوص تظهر لنا مدى ما كان يتمتع به المتقي من حسن دراية بأخبار الناس وأيامهم ، والشعر ، وأنساب الخيل ، وصفاتها ، ومراتبها ، وما جاء في ذلك من أشعار العرب [٣] .

ولم تمدنا المصادر التاريخية ، للأسف ، بمعلومات جيدة عن مدى اهتمام **الخليفة المستكفي** بالحركة العلمية ، وإن كانت هناك إشارات عند المسعودي عن عقد المستكفي لقاءات مع ندمائه ، ممن كان تربطه به علاقة قبل الخلافة ، وهي أقرب للمسامرة منها إلى المجلس العلمي .

وفي هذه اللقاءات كانت الموضوعات المطروحة تدور حول ((الخمر وأفعالها ، وما قال الناس فيها من المنثور ، والمنظوم ، وما وصفت به)) [٤] . وفي أحيان أخرى يكون

---

(١) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ١٩٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٨ ـ ١٩١ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب (٤/٣٤٣ ـ ٣٥٢) .

(٤) المصدر السابق ، (٤/٣٥٨) .

الحديث عن أصناف الأطعمة والأشربة ، وما قيل فيها ، وفي وصفها ، وكان كل واحد من الحضور يجتهد في العثور على كل منظوم قيل في أي صنف من الطعام والشراب ، أو ما يمكن نظمه في الحال إذا كان هناك أحد القادرين على ذلك [١] .

ومن الطريف أن المستكفي كان يأمر بتحضير كل صنف من الأطعمة بعد أن ينتهي النديم من إنشاء الأبيات ، بل ويشترط في تحضيرها أن تكون كما جاءت في الوصف [٢] .

ومن مظاهر اهتمام المستكفي بالحركة العلمية ، مكافأة جلسائه وندمائه بعد انفضاض المجلس ، فبعد انتهاء إحدى هذه المجالس ((أجاز جميع من حضر من الجلساء ، والمغنين ، والملهين ، ثم أحضر ما حضره في وقته من عين وورق ، مع ضيق الأمر إليه)) [٣] .

مما سبق يتبين لنا مدى اهتمام الخلفاء بالحركة العلمية من خلال مظاهر هذا الاهتمام ، ورأينا التفاوت الواضح فيما بينهم بالنسبة لوجود هذه المظاهر أو بعضها في هذا الخليفة أو ذاك ، تبعا لشخصية الخليفة ، واتجاهه الفكري ، والظروف التي سادت فترة خلافته .

ولا شك أن هذا الاهتمام كان له تأثير كبير على الحركة العلمية . إذ أسهم في إثراء المكتبة التراثية ، من خلال المؤلفات التي قام أصحابها بتصنيفها ، وإهدائها إلى الخلفاء ، كرد فعل إيجابي منهم على الاهتمام الذي حفلوا به على أيديهم . فصنف أبو بكر الخصَّاف (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م) كتاب « الخراج » للخليفة المهتدي [٤] . وقام الفضل بن حاتم النيريزي (ت نحو ٣١٠هـ/٩٢٢م) بعمل كتاب « أحداث الجو » للخليفة المعتضد [٥] . وللمعتضد أيضاً ، صنف يحيى بن أبي حكيم الحلاجي الطبيب كتاب « تدبير الأبدان النحيفة التي قد

---

(١) المصدر السابق ، (٣٦٢/٤ ــ ٣٧٠) .

(٢) المصدر السابق ، (٣٦٣/٤ ، ٣٦٤) .

(٣) المصدر السابق ، (٣٧٠/٤) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٨ .

(٥) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٥٤ .

غلبت عليها الصفراء » [١] . في حين عمل أبو الحسن علي بن هارون المنجم (ت ٣٥٢هـ/٩٦٣م) كتاب « شهر رمضان » للخليفة الراضي [٢] .

لقد أدرك الخلفاء العباسيون ، بأنهم مطالبون بأن يكونوا على مستوى الحدث من الناحية العلمية ، وذلك بسبب موقع العراق الحضاري في ذلك الوقت ، والذي كان يمثل أهم مركز ثقافي في العالم ، وكذلك مسؤليتهم في استمرار نمو العلوم والمعارف ، ومواصلة الازدهار الذي حققته خلال العصر العباسي الأول .

وعلى هذا الأساس جاء اهتمام الخلفاء بالحركة العلمية ، ومواصلة السير نحو تحقيق المزيد من التقدم للعلوم والفنون .

ولقد رأينا ، مما سبق ، التباين الواضح في درجة اهتمام خلفاء بني العباس بالحركة العلمية ، سببه شخصية الخليفة ، وتوجهه الفكري في المقام الأول ، ثم قد تأتي عوامل أخرى مؤثرة على هذا الاهتمام بشكل أو بآخر . ذلك أن الوضع السياسي ، وهو معيار حكم أغلب المؤرخين على فترة معينة دون غيره ، لم يكن واضح التأثير على هذا الاهتمام بقدر ما كان رغبة عند هذا الخليفة أو ذاك في خدمة العلم ، ورعاية أهله .

فالمتوكل ، على الرغم من استقرار الأوضاع السياسية بصورة جيدة في عهده ، إلا أن اهتمامه بالعلم والعلماء يوازي اهتمام الراضي في ذلك ، على الرغم من سوء الناحية السياسية في عهده ، بل وربما تفوّق على المتوكل من الناحية العلمية ، إذ يكفي أنَّ الراضي كان أحد الشعراء البارزين في عصره ، وله أيضاً ديوان شعر .

أما صدق التوجه والمبدأ في الاهتمام بالحركة العلمية ، نلاحظ أثره في نموذج المهتدي والمتقي ، فقد كان اهتمامهما بجانب معين من العلوم ، وهو التاريخ ، ينسجم وطبيعة شخصيتهم الدينية ، حيث أخبار السابقين وأيامهم ، وهو مايزرع في النفس جانب الموعظة ، والتدبر ، والزهد ، مع عدم إغفالهما للأدب ، وخصوصاً الشعر الجاد ، الذي يحقق الفائدة ، والاستمتاع الحقيقي .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/٣٧٦) .

ولتشابه نزعة كلاً من : المقتدر ، والمكتفي ، والمستكفي نحو الملذات ، كان اهتمامهم ينحصر في هذا الإتجاه دون غيره .

ولكن هناك أمر مهم يجب أن لا نغفله ، وهو أن الخلفاء جميعهم ، على اختلاف طبائعهم ، كانوا يقدرون أهل العلم والفضل ، ويبجلونهم بدرجة عظيمة ، وما موقف المقتدر مع ابن بشار الزاهد إلا أحد الشواهد على ذلك ، على الرغم من سيرة المقتدر ، التي قد تجعلنا نستغرب منه هذا الأمر .

المبحث الثاني

اهتمام الأمراء والأعيان بالحركة العلمية

إن الدور المهم الذي قام به الخلفاء العباسيين ، والذي تمثل في رعايتهم للحركة العلمية ، أحد العوامل المهمة التي أدت إلى ازدهار العلوم والفنون والمعارف في العراق في ذلك الوقت .

ولقد كان لهذا الدور أيضاً ، الأثر الكبير في نفس أمراء البيت العباسي ، وأعيان الدولة من وزراء ، وقواد ، وولاة ، ووجهاء ، ونحوهم . إذ أعطت هذه الفئات الكثير من وقتها، وجهدها ، ومالها لدعم النشاط العلمي ، باختلاف الأهداف ، والغايات من وراء هذا الدعم .

ولتوضيح هذا الأمر ، سنتحدث أولاً عن أمراء البيت العباسي ، ثم أعيان الدولة ، وأثرهم في الحركة العلمية .

أ ــ الأمراء :

كان لبيت الخلافة العباسي دور مهم في ازدهار النشاط العلمي بوجه عام . وبرز من هذا البيت أمراء ساروا على نهج آبائهم وأخوانهم من الخلفاء ، مقتدين بهم في رعايتهم للحركة العلمية ، بفضل ما غرس في نفوسهم من حب العلم والعلماء ، كأحد ثمار التعليم الجيد الذي كانوا يحظون به [١] .

والذي أدى بدوره إلى بروز شخصيات كان لبعضهم دور حيوي في المسيرة الثقافية . سواء من خلال رعايتهم للعلم وأهله ، أو أنهم كانوا أنفسهم من العلماء البارزين في فن من الفنون ، أو بهما معاً .

ومن أبرز الأمراء الذين برزوا في هذا المضمار : **الأمير الموفق** (ت ٢٧٨هـ/٨٩١م) ، وكان القائم بتسيير أمور الدولة في خلافة أخيه المعتمد ، لضعف شخصيته [٢] .

---

(١) انظر عن هذا الموضوع مبحث : التربية والتعليم في العراق .

(٢) المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ٣١٨ .

وكان الموفق عالماً بالأدب ، والنَّسب ، وسياسة الملك [١] .

ولقد عايش الموفق الازدهار العلمي ، ونشاط العلماء والأدباء الذي ساد العراق في وقته ، فأدرك الأهمية العليا للعلم ، وارتباطه الوثيق بعمران المدن ، وازدهارها عن طريق تعليم الأمة ، وتنويرها .

إن هذه الرؤية الثاقبة للموفق نراها واضحة في موقفه مع أبي داود السجستاني صاحب السنن ، حيث قام الموفق بزيارته في منزله ببغداد ، وطلب منه مطالب ثلاث ، من بينها قوله له : ((تنتقل إلى البصرة ، فتتخذها وطناً ، ليرحل إليك طلبة العلم من أقطار الأرض ، فتعمر بك ، فإنها قد خَرِبَتْ ، وانقطع عنها الناس لما جرى من محنة الزنج)) [٢] . ونستنتج من هذا الموقف ، إضافة إلى إدراك الموفق لأهمية العلم في إعمار المدن ، وبث الحياة فيها ، مدى ما وصل إليه العلماء من مكانة رفيعة ، ومنزلة عظيمة ، حتى نرى الموفق يأتي إلى أبي داود ، ويستأذنه ، وينتظر الإذن بالدخول وهو واقف عند الباب [٣] .

ولقد حظي أهل العلم والأدب باهتمام الموفق وعنايته ، وصلته إليهم .

ومن هؤلاء يوحنا بن بختيشوع بن جبرائيل الطبيب [٤] ، الذي خدم الموفق فنال ثقته ، ووسعت مكانته عنده لدرجة وصلت إلى أن الموفق كان يدعوه : مفرج كَرْبي . وقد أشبعه بالأملاك والضيع [٥] .

وكان الموفق يتلمس أوضاع العلماء وأحوالهم ، ويصلح من ساءت حاله منهم . فقد ذكر الوزير إسماعيل بن بلبل عند الموفق أبا العباس ثعلب ، عالم اللغة والنحو ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٤٤٣/٧) .

(٢) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (١٦٢/١) .

(٣) انظر تفصيل ذلك في : المصدر السابق ، (١٦٢/١) .

(٤) يوحنا بن بختيشوع : طبيب ، ترجم العديد من المؤلفات من اليونانية إلى السريانية ، واختص بخدمة الأمير الموفق . وله من الكتب : كتاب « تقويم الأدوية » في الصيدلة ، وكتاب « فيما يحتاج إليه الطبيب من علم النجوم » . وتوفي يوحنا نحو (٢٩٠هـ/٩٠٣م) . الزركلي : الأعلام ، (٢٠٩/٨) .

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٧٦ .

وسوء حاله ، فأمر له الموفق رزقاً من بيت المال ، فحسن موقع هذا العمل من أهل العلم والأدب [١] .

وكان لصفات الموفق الحسنه ، وحبه للعلم وأهله ، دافعاً للعديد من العلماء والأدباء إلى أن يقصدوا مجلسه ، ويحظون بشرف المجالسة ، والمكافأة . فبالإضافة إلى الأسماء السابقة ، فقد اتصل به : أبو معشر البلخي [٢] ، عالم الفلك المشهور ، وكذلك علي بن يحيى المنجم [٣] ، ثم ولده يحيى من بعده [٤] .

وبلغ الموفق نهاية الكرم لجلسائه في قوله : ((وأنا والله أرى جلسائي بالعين التي أرى بها إخواني ، والله لو تهيأ لي أن أغير أسماءهم ، لنقلتها من الجلساء إلى الأصدقاء ، والإخوان)) [٥] .

كما برز من أمراء البيت العباسي ، **عبد الله بن المعتز** (ت ٢٩٦هـ/٩٠٨م) ، والذي كان متقدماً في الأدب ، وأحد فرسانه ، وممن أسهم بفاعلية في الدراسات الأدبية بإنتاجه الأدبي [٦] . وكان ابن المعتز يؤمن بأهمية احترام العلم والعلماء ، لما لهذه الفئة من تأثير على مصير الأمة ، ونلمس ذلك من أقواله المأثورة في فضل العلم والعلماء . ومن ذلك قوله : ((العلم جمال لا يُخْفَى ، ونسب لا يُجْفَى)) [٧] ، وقوله أيضاً : ((زلة العالم كانكسار سفينة تغرق ، ويغرق معها خلق كثير)) [٨] .

---

(١) القفطي : إنباه الرواة ، (١/١٧٧) .

(٢) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٥٣ .

(٣) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ١٢٥ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٥/١٤٤) .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٦/١٩٨) .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٧/٤٤٣) .

(٦) القلقشندي : مآثر الأنافة ، (١/٢٧٦ ـ ٢٧٧) . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (١/١٢٢) . انظر عن إسهام ابن المعتز في الدراسات الأدبية : مبحث علم الأدب .

(٧) الحصري : زهر الآداب ، (١/٢/٤٢٩) .

(٨) المصدر السابق ، (٢/٤٢٩) .

ولذا اشتهر ابن المعتز بأنه كان ((يقدم أهل العلم ، ويؤثرهم)) [١] . ولقد ترجم ابن المعتز هذا الأمر على أرض الواقع . فقد جاء يوماً إلى أستاذه أبي العباس ثعلب ، وهو في حلقته بالمسجد الجامع ، ليسلِّم عليه . فقام له ثعلب وأجلسه مكانه [٢] . وفي ذلك دلالة على الاحترام المتبادل بين المعلم وتلميذه .

ويصور ابن المعتز هذا التفاعل والود الذي يربطه بأساتذته بقوله : ((كان أبو العباس محمد بن يزيد النحوي المبرد يجيئني كثيراً .. ويضيف : وكنت لقيت أبا العباس أحمد بن يحيى (ثعلب) في المسجد ، وكان يتشوقني ، ويعتذر من تأخره عني)) [٣] . كما كانت بينه وبين ثعلب مراسلات ، ومكاتبات شعريه ، يصرح فيها ابن المعتز لثعلب بشوقه إليه ، ويقدم اعتذاره له عن عدم مجيئه إلى المسجد لرؤيته ، ويرد ثعلب على ذلك بشعور متبادل بأبيات مثلها ، يشكره على ذلك [٤] .

وكان ابن المعتز شديد الاهتمام بأحوال العلماء والأدباء ، وخصوصاً إذا تأخر أحدهم في إرسال رسالة قد تعودها منه ، ومن ذلك أنه أرسل بأبيات إلى أبي الحسن علي بن مهدي الأصفهاني يعاتبه فيها عن تأخر أخباره عنه :

يا باخلاً بكتابِهِ ورسولِهِ ... أأردْتَ تجعلُ في الفراقِ فراقَا

إنَّ العهودَ تموتُ إنْ لَمْ تُحَيها ... والنأي يُحدثُ للفتى أخلاقَا [٥]

كما كانت بينه وبين أبي الطيب القاسم بن محمد النميري ، وأبي الحسن القاسم ابن أحمد الكوفي مكاتبات ، ورسائل [٦] .

---

(١) الصولي : أشعار أولاد الخلفاء ، ص ١٠٧ .

(٢) الصولي : أدب الكتّاب ، ص ٦٧ .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٩٥/١٠) .

(٤) الصولي : أشعار أولاد الخلفاء ، ص ١١٤ ـ ١١٥ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٩٥/١٠ ـ ٩٦) . الحصري : زهر الآداب ، (٢١٧/١/١ ـ ٢١٨) . وذكر الحصري : أن ابن المعتز كتب هذه الأبيات وهو في السجن . وهناك تشابه بين الحصري والصولي والخطيب البغدادي في البيت الأول ، ويختلف عنهما تماماً في الثاني ، والثالث .

(٥) اليغموري : نور القبس ، ص ٣٣٨ .

(٦) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ١٩٦ ـ ١٩٧ . وفيه أبيات بعث بها ابن المعتز إليهما معاتباً لهما لانقطاع رسائلهما ، وأخبارهما . ولم يترجم لهما المرزباني ترجمة وافية .

ولقد بلغت العلاقة بين ابن المعتز وجلساته إلى أعلى درجات الود والوفاء ، فعندما توفى أبو الحسين بن ثوابه رثاه بأبيات مطلعها :

ليسَ شـيء لصحـةٍ ودوام　　　غلبَ الدهـرُ حيلـةَ الأقوامِ

إن شخصية ابن المعتز المحبة لمجالسة أهل العلم والأدب جعلته مقصد الكثير منهم ، فاتصل به العديد من العلماء والأدباء . فبالإضافة إلى من ذكرناهم سابقاً . اتصـل بـه أبو سعيد محمد بن هبيرة الأسدي المعروف (بصعودا) أحد علماء النحو واللغة الكوفيين . حيث كان منقطعاً إلى ابن المعتز [١] . كما اتصل بـه ابـن حمدون النديم ، الـذي قـال ابن المعتز في حقه : « ذاك ريحانة الخلفاء ، وشمامة الظرفاء » [٢] . وأيضاً كان ابن بسّام الشاعر ممن اتصل بابن المعتز ، ورثاه [٣] .

وكانت أكثر هذه الأسماء تجتمع في مجلس ابن المعتز في قصره ، فقد ((كانت داره مغاثاً لأهل الأدب)) [٤]. وفي هذا المجلس كانت تدور المناقشات والحوارات الأدبية .

ويصف أبو بكر الصولي ، أحد جلساء ابن المعتز ، ما يدور في مجالسه من مناقشات ، ثم يتبع ذلك مكافأته للحاضرين بعد انتهاء المجلس ، بقوله : ((اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند أبي العباس عبد الله بن المعتز ، وكان يتحقق بعلم البديع تحققاً ينصر دعواه فيه لسان مذاكرته ، فلم يبق مسلك من مسالك الشعراء إلا سلك بنا شعباً من شعابه ، وأوردنا أحسن ما قيل في بابه ... فما أحد من الجماعة انصرف من ذلك المجلس إلا وقد غمره من بحر أبي العباس ما غاض معه معينه ، ولم ينهض حتى زودنا من بره ، ولطفه نهاية ما اتسعت له حاله)) [٥] .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ١١٧ .

(٢) الثعالبي : آداب الملوك ، ص ١٤٦ .

(٣) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، (٢٤١/١) .

(٤) الصولي : أشعار أولاد الخلفاء ، ص ١٠٧ .

(٥) الحصري : زهر الآداب ، (١٠٤٧/٤/٢ ـ ١٠٤٨) .

وفي مجلس آخر يصف ابن المعتز ما دار فيه من مناقشة بينه وبين المبرد وأحد الكتاب حول شعر أبي تمام الطائي [١] .

ب ـــ الأعيان :

لم يكن الاهتمام بالحركة العلمية قاصراً على الخلفاء والأمراء فقط ، بل ساهم في ذلك أعيان الدولة من : وزراء ، وولاة ، وقواد ، وحجاب ، ونحوهم .

ومن أبرز هؤلاء الأعيان ، الوزير **أبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات** (ت ٢٣٣هـ/٨٤٧م) ، وكان كاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً ، عالماً بالنحو واللغة [٢] .

ولقد وصل ابن الزيات في علم النحو إلى درجة جعلته الفيصل في الحكم على المسائل النحوية حتى بين علماء النحو ، لثقتهم بعلمه ، على الرغم من صغر سنه قبل توليه الوزارة ، فقد كان أبو عثمان المازني النحوي إذا رأى اختلاف المجلس حول مسألة في النحو ، قال لهم : « إليَّ هذا الفتى الكاتب ـ يعني ابن الزيات ـ واسألوه واعرفوا جوابه ، فيجيبهم ابن الزيات على مسألتهم بجواب يرتضيه المازني ، ويقنع به » [٣] .

ولم يكن بروز ابن الزيات قاصراً فقط على النحو واللغة ، بل أيضاً في الأدب ، شعراً ونثراً ، إضافة إلى أن لابن الزيات إسهام في دعم المكتبة الأدبية من خلال ((ديوان رسائل)) يقع في خمسين ورقة [٤] ، ووصفه ابن خلكان بأنه جيد [٥] . وتحتفظ الكثير من المصادر الأدبية والتاريخية بنماذج من شعر ابن الزيات ، والذي وصفه ابن خلكان بأنه كله نخب [٦] . ومن ذلك ، أبيات قالها وهو مكبل بالحديد عندما سجنه المتوكل ، منها :

---

(١) اليغموري : نور القبس ، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٠١/٥) . ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ . اليافعي : مرآة الجنان ، (١١١/٢) .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٤٢/٢) . اليافعي : مرآة الجنان ، (١١١/٢) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ١٩٧ .

(٥) وفيات الأعيان ، (٩٧/٥) .

(٦) المصدر السابق ، (١٠٢/٥) .

سَلْ ديارَ الحي ما غيَّرهـا	وعفاها ومحَا منظرَهـا
وهي الدنيا إذا ما أنقلبَتْ	صيَّرت معروفَها منكرَها
إنمـا الدنيـا كظلٍ زائـلٌ	نحمدُ اللّه كـذا قدَّرَهـا [١]

وبتوليه الوزارة تحققت لابن الزيات المكانة الاجتماعية ، إضافة إلى المكانة العلمية التي كان يتمتع بها من قبل ، ولذا كان ابن الزيات مقصد العلماء والأدباء ، ومجلسه منتدى يجـتـمـعـون فـيـه ، يضم المبـرزين من أهل العلم والفـضل ، وفي هذا المجلس كـانت تدور المناقشات العلمية بين الحاضرين بمشاركة ابن الزيات ، وفي بعض الأحيان كان ابن الزيات يثري المجلس بطرح موضوع معين ، أو يطلب من أحد الحاضرين أن يناظر آخر ، كما فعل مع المازني وابن السكيت ، عالمي اللغة والنحو ، فقد طلب من المازني أن يسأل ابن السكيت مسألة ، فدار النقاش بينهما حول مسألة في علم الصرف ، وابن الزيات والحضور يتابعون ردود العالمين على بعضهما البعض [٢] .

وكـان ابن الزيات يشـارك في هذه المجالس مـشـاركة خـبـيـر . ومن ذلك مـا ذكـره المازني بقـوله : ((حـضـرت أنا ويعـقـوب ابن السـكت مـجلس مـحـمـد بن عـبـد الملك الزيات ، وأفـضنا فـي شـجـون الحـديث إلى أن قلت : كـان الأصـمعي يقـول : بينا أنا جالس إذ جـاء عمرو . فقال ابن السكت : هذا كلام الناس . قال : فأخذت في مناظرته ، فقال محمد بن عبد الملك : دعني حتى أبين له ما اشتبه عليه ، ثم التفت إليـه ، وقال : ما معنى بينا ؟ قال : حين ، قـال : أفيـجـوز أن يـقـال : حـين جـاء عـمـرو إذ جاء زيد ؟ . قال : فـسكت ابن السكيت)) [٣] .

---

(١) الخطيب البغـدادي : تاريخ بغـداد ، (٣٤٤/٢) . وانظر نماذج من شعره في : الثعالبي : ثمار القلوب ، ص ٤٢٩ . الحصري : زهر الآداب ، (٥٢١/٢/١) . ابن عبد البر : بهجة المجالس (٢٠٩/٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧) . ابن خلكان : وفيات الأعيان (٩٥/٥ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢) .

(٢) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٠٣ .

(٣) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ . والأصمعي : هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب الباهلي ، من أهل البصرة ، راية للشعر ، والغريب . أحد أعلام اللغة والنحو . موثوق بـه فـي الحديث ، روى عنه يحيى بن معين كثيراً . وصحب هارون الرشيد ، وله أشعار جياد ، وكان الشعر سهلاً عليه ذلولاً على لسانه . وله مـصنفـات عـدة في علوم اللغـة . توفي سنة (٢١٧هـ/٨٣٢م) . ابن الجـراح : الورقـة ، ص ٣١ ـ ٣٤ . السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ص ٧٢ ـ ٨٠ . النديم : الفهرست ، ص ٨٦ ـ ٨٧ .

ولقد نالت بلاغة ابن الزيات في حديثه وكتاباته إعجاب الشعراء . ومن هؤلاء البحتري ، الذي صور بلاغة ابن الزيات وحسنها ، وصاغها في أبيات شعرية ، منها قوله :

وتفننْتُ في البلاغةِ حتى عطلَ الناسُ فنَ عبدَ الحميدِ [١]

وقوله :

في نظامٍ من البلاغةِ ما شـ ـكَّ امرؤ أنَّهُ نظأم فريد

ومعانٍ لو فضلتها القوافي هجَّنَتْ شعرَ جرول ولبيد [٢]

واتصل بابن الزيات أسماء لامعة من علماء العصر وأدبائه ، فبالإضافة إلى الأسماء السابقة ، اتصل به أديب العصر الجاحظ ، وكان ملازماً له [٣] . كما اتصل به أبو العيناء الشاعر ، وله معه أخبار [٤] . وكذلك الشاعر أبو عباده البحتري ، والذي مدحه بقصيدته الدالية ، والتي أشاد فيها ، ووصف خط ابن الزيات ، وبلاغته [٥] .

ويعتبر ابن الزيات أحد الرعاة الفاعلين لحركة الترجمة ، ومن الذين رموا فيها بسهم وافر في مواصلة ازدهارها ، وقدموا للقائمين عليها الدعم المادي والمعنوي [٦] .

ومن الوزراء الذين اسهموا في دعم الحركة العلمية ، **الوزير أبو محمد الفتح بن خاقان** (ت ٢٤٧هـ/ ٨٦١م) ، وكان أديباً فاضلاً ، في نهاية الذكاء والفطنة [٧] . فصيحاً مفوهاً ، وشاعراً محسناً . وكان مع قوة ذكائه متبحراً في العلوم [٨] . فأصبح له نصيب من العلم ، ومنزلة من الأدب [٩] .

---

(١) الثعالبي : ثمار القلوب ، ص ١٩٦ .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (٢٤٢/٢ ـ ٣٤٣) . وانظر فيه الأبيات كاملة .

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء (٧٦/١٦ ، ١٠٦) . ابن الأبار : إعتاب الكتّاب ، ص ١٥٤ .

(٤) الشابشتي : الديارات ، ص ٨٣ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان (٩٧/٥) .

(٦) عن هذا الموضوع ، انظر مبحث : حركة الترجمة .

(٧) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٧٤/١٦) .

(٨) الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٢٤١ ـ ٢٥٠هـ) ، ص ٣٨٩ ـ ٣٩١ .

(٩) المسعودي : مروج الذهب ، (٨٧/٤) .

إن هذه الصفات لم تكن لتتأتى للفتح ، وهو التركي الأعجمي ، لولا حبه للعلم والمعرفة ، واجتهاده في بلوغ هذه الدرجة ، ولذا كان الفتح يستثمر وقته في تحصيل العلم ، وذلك من خلال الإنكباب على الكتب ، والتي أحبها بشكل يبعث على الإعجاب ، حتى قال أبو هَفَّان : ((ثلاثة لم أر قط ، ولا سمعت بأكثر محبة للكتب والعلوم من : الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، وإسماعيل بن إسحاق القاضي)) [١] .

وبلغ من حب الفتح للكتب ، وشغفه بالقراءة ، أنه كان إذا جلس في حضرة المتوكل ، وأراد أن يقوم إلى المتوضأ أخرج من كمه الواسع كتاباً لطيفاً ، فلا يزال يطالعه في ذهابه وعوده ، فإذا وصل إلى مجلس المتوكل أعاده إلى كمه [٢] . ولذا ، كان من الطبيعي أن يملك الفتح خزانة كتب مشهورة في كتب التاريخ [٣] .

ولقد تميز أدب الفتح بالظرافة ، وشعره بالملاحة ، ومن شعره قوله :

بني الحبُّ على الجودِ فلو ... أنصفَ المعشوق فيه لسمج

ليسَ يستملحُ في وصفِ الهوى ... عاشق يحسنُ تأليفَ الحججِ [٤]

ولم يكن الفتح بن خاقان متذوقاً للأدب فقط ، بل ساهم في ميدان التأليف أيضاً بالكتب التي قام بتصنيفها ، ومنها : كتاب « اختلاف الملوك » ، وكتاب « الصيد الجارح » ، وكتاب « الروضة والزهر » ، وكتاب « البستان » [٥] .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٧٤/١٦) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ١٨٦ ــ ١٨٧ . ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٦ .

(٣) عن هذه الخزانة ، انظر مبحث : خزائن الكتب .

(٤) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ١٧١ .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ١٨٧ . وذكر النديم أن كتاب « البستان » منسوب إلى الفتح وهو لم يصنفه ، والذي صنفه له رجل اسمه محمد بن عبد ربه ويلقب برأس البغل ، وبهذا أيضاً قال ياقوت الحموي في « معجم الأدباء » (١٧٤/١٦ ــ ١٧٥) . ويذكر المسعودي في « مروج الذهب » ، (٨٧/٤) هذا الكتاب عند حديثه عن الفتح ، وقال عنه : ((وألف كتاباً في أنواع من الأدب ترجمة بكتاب « البستان »)) .

ومن مظاهر اهتمام الفتح بالحركة العلمية ، عقده لمجالس العلم والمحاورة ، فقد كان له مجلس علمي يحضره فصحاء الأعراب ، وعلماء الكوفيين والبصريين [١] . وفي هذا المجلس كانت تدور رحى المناقشات بين الحاضرين ، وكل ذلك بحضور الفتح .

ونظراً لمكانة ابن خاقان العلمية ، فقد كان أحد المصادر المعتمدة في الأخبار عند بعض رواتها ، فقد روى عنه المبرد ، وأحمد بن يزيد المؤدب ، وغيرهما [٢] . كما اتصل بالفتح العديد من الشخصيات العلمية والأدبية البارزة في ذلك العصر ، ومن هؤلاء : أبو العباس المبرد [٣] ، وعلي بن يحيى المنجم ، الذي قام بعمل خزانة الكتب له [٤] ، وكذلك ابن حمدون النديم ، الذي قال : ((كان الفتح بن خاقان يأنس بي ، ويطلعني على الخاص من سره)) [٥] . كما اتصل به الزبير بن بكّار عالم الأنساب [٦] . وأيضاً البحتري الشاعر ، وكانت له أبيات في مدح الفتح بن خاقان [٧] .

وممن أشتهر من أعيان الدولة بالأدب ، ورعاية أهله ، **أبو العباس محمد بن عبد الله بن طاهر** (ت ٢٥٣هـ/٨٦٧م) صاحب شرطة بغداد . ومن بيت إمرة وتقدم ، ((وكان من الجود ، والكرم ، وغزارة الأدب ، وكثرة الحفظ ، وحسن الإشارة ، وفصاحة اللسان ، وملوكية المجالسة ، على ما لم يكن عليه أحد من نظرائه في عصره)) [٨] . كما اتصف بالسماحة ، و ((حسن الأخلاق مع أدب ، وحسن معرفة ، وافتنان في سائر العلوم ، وضبط ، وسياسة ، وتقدم في التدبير)) [٩] .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ١٨٦ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٧٤/١٦) .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، (حوادث ووفيات ٢٤١ ـ ٢٥٠هـ) ، ص ٣٩٠ .

(٣) القفطي : إنباه الرواة ، (٢٤٧/٣) .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣٧٤/٣) .

(٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء (١٧٧/١٦) .

(٦) اليغموري : نور القبس ، ص ٣٢١ .

(٧) المرزباني : الموشح ، ص ٤٥ . الحصري : زهر الآداب ، (١٠٦/١/١) . وفيه أبيات مدح البحتري بها الفتح بن خاقان .

(٨) المسعودي : مروج الذهب ، (١٧٢/٤) .

(٩) الشابشتي : الديارات ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

إن إجماع المؤرخين على تمتع ابن طاهر بهذه الصفات لهو دليل على مكانته الاجتماعية ، والأدبية .

وكان ابن طاهر محباً للشعر ، ناظماً له ، وله « ديوان شعر » ، ذكر النديم أنه يقع في سبعين ورقة [١] . وكان مع ذلك شديد العناية بتحصيل ما قد يخفى عليه بالسؤال عنه ، مع احتراز في أخذ المعلومة ، وهو ما يوضحه المبرد بقوله : ((كان محمد بن عبد الله بن طاهر رجلاً لا يقبل من العلوم إلا حقائقها)) [٢] ، فقد ركب إلى الحسن بن وهب [٣] يسأله عن بيت من الشعر لبعض الأعراب ، وهو :

ليتَ الديارَ التي تبقى لتحزننا   كانت تبينُ إذا ما أهلُها بانوا [٤]

ومن شعر ابن طاهر قوله :

أواصلُ منْ هويْتُ على خلالِ   أذودُ بهنَّ أسبابَ التقالي

وفاء لا يحولُ به انتكاث   وودٌ ، لا تخونُه الليالي

واحفظُ سِرَّهُ والغيبَ منه   وأرعى عهدَهُ في كلِ حال

وأوثره على عسرٍ ويسرِ   وينفذُ حكمُهُ في سرِ مالي [٥]

وكان لابن طاهر مجلس علم يجتمع فيه العلماء الكبار ، كالمبرد ، وثعلب . ولنا أن نتخيل الإثراء العلمي بوجود هذين العلمين فقط . وكان ابن طاهر في بعض الأحيان يطرح

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٢٦١ .

(٢) الزجاجي : مجالس العلماء ، ص ٩٤ .

(٣) الحسن بن وهب : هو أبو علي الحسن بن وهب بن سعيد الحارثي ، كاتب ، وشاعر ، وجيهاً . استكتبه عدد من الخلفاء . كان معاصراً لأبي تمام ، وله معه أخبار . وهو أخو سليمان بن وهب وزير الخليفة المعتز ، ثم المهتدي . توفي الحسن نحو (٢٥٠هـ/٨٦٥م) . الزركلي : الأعلام ، (٢/٢٢٦) .

(٤) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ٣٤٣ .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٥/٤٢١) . وانظر نماذج من شعره في : الوشاء : الظرف والظرفاء ، ص ٣٩ ـ ٤٠ ، ٨٨ ، ٢٣٦ ، ٢٨٢ ـ ٢٨٣ . المرزباني : معجم الشعراء ، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ . الشابشتي : الديارات ، ص ١٢٦ ، ابن عبد البر : بهجة المجالس ، (١/٢٥٤ ، ٣٢٠) .

بينهما موضوعاً للنقاش ، ويتولى إدارته . والمشاركة أيضاً ، مع وجود رؤوساء مدرستي : الكوفة ، والبصرة في النحو [١] . ومن ذلك ما دار بين المبرد وثعلب من نقاش حاد حول شعر لامرئ القيس ذكره ابن طاهر ، وطلب منهما أن يدلى كل واحد منهما برأيه فيه ، وأخذ النقاش يطول بينهما ، ووافق رأي ابن طاهر رأي ثعلب ضد رأي المبرد ، الذي سكت عندما سمع تأييد ابن طاهر لرأي ثعلب ، ونهض المجلس [٢] .

وفي بعض الأحيان كان ابن طاهر يراقب المناظرة بين المبرد وثعلب من حيث لا يراه أحد ، ويقول : ((قد حضر هذان الشيخان ، وإني أودُّ أن أعلم أيهما أعلم فأجلس في الدار الفلانية ، وأجمع بينهما ، وأسمع كلامهما)) [٣] .

وكان ابن طاهر يدرك أهمية استقرار الأمور المالية للعلماء في تهيئة الظروف المناسبة للعطاء والإنتاج ، ولذا نراه يجري على أبي العباس ثعلب أرزاق ، وألف درهم في الشهر [٤] .

ولم يكن ابن طاهر يسمح لأحد ممن يعمل تحت إمرته بأن يضايق أهل الأدب ، أو يؤذيهم . فقد كانت لأبي عبد الرحمن ابن أبي فنن الشاعر [٥] ضيعة في قطيعة لابن طاهر ، فكان الحاشر [٦] يؤذيه ، فشكا ابن أبي فنن إلى ابن طاهر بأبيات من الشعر ، فلما قرأ ابن طاهر الأبيات وقع تحتها : ((قد أجرناك أبا عبد الرحمن ، وأمرنا باحتمال خراجك ، وكان مبلغه ثمانية آلاف درهم ، ووجه إليه بألف دينار ، وحلف عليه أن يقبلها)) [٧] .

---

(١) أورد الزجاجي في كتابه « مجالس العلماء » خمسة مجالس علمية عقدها ابن طاهر في اللغة والنحو ، جمعت بين المبرد وثعلب . أو بينه وبين ثعلب فقط . وكان ابن طاهر يشارك في هذه المجالس مشاركة خبير .. انظر : مجالس العلماء ، ص ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ . وفيه تفاصيل ذلك المجلس وما دار فيه من نقاش بين الحاضرين .

(٣) القفطي : إنباه الرواة ، (١/١٧٥ ـ ١٧٦) . وفيه تفاصيل هذا المجلس .

(٤) المصدر السابق ، (١/١٨٢ ـ ١٨٣) .

(٥) لم يعثر له على ترجمة .

(٦) الحاشر : هو عامل جباية المال من قبل الدولة . المعجم الوسيط ، ص ١٩٧ .

(٧) الشابشتي : الديارات . ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

وكان ابن الرومي الشاعر أحد الشخصيات التي كانت تربطها بابن طاهر علاقة حميمة ، وقد رثاه بأبيات عند وفاته [١] .

وكانت لشخصية ابن طاهر أهمية كبيرة بالنسبة لابن المعتز ، والذي تربطه به علاقة متينة ، لأن ابن المعتز يرى أن الأتراك يهابونه من أجله ، لمكانته المرموقة [٢] .

ومن الوزراء البارزين في رعاية الحركة العلمية ، ودعمها ، الوزير **أبو أيوب سليمان بن وهب** (ت ٢٧٢هـ/٨٨٥م) ، وهو أحد أفراد أسرة آل وهب المشهورة [٣] . وكان سليمان هذا ((أحد كتّاب الدنيا ، ورؤسائها ، فضلاً ، وأدباً ، وكتابة في الدَرْج [٤] ، والدُسْتُور [٥] ، وأحد عقلاء العالم وذوي الرأي منهم)) [٦] .

وإذا كانت شهرة سليمان بن وهب كأحد الكتّاب البارزين ، فإن ذلك لا يعني عدم اهتمامه بالشعر ، بل العكس من ذلك ، فقد كان سليمان شاعراً بليغاً ، مترسلاً ، فصيحاً [٧] ، وله « ديوان رسائل » [٨] . ومن شعر سليمان ، قوله :

لو أبتْ عيناي أن تطعمَ الكرى ... وأن يمنعا ذرَّ الدموع السواكبِ

تثاءبتُ كي أبغي لدمعي علةً ... وكم مع لدعائي بقاءَ التثاؤبِ [٩]

---

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ، (١٢٧/١) ، وذكر محقق الكتاب أن هذه الأبيات لا وجود لها في ديوان ابن الرومي المطبوع .

(٢) الشابشتي : الديارات ، ص ١٢٨ .

(٣) يقول ابن الطقطقي عن هذه الأسرة : ((وكان بنو وهب من رؤساء الناس ، وحذاقهم ، وفضلائهم ، وكرمائهم. وكانت دولتهم ناظرة ، وأيامهم مشرقة ، والأدب في زمانهم قائم الموسم ، والكرم واضح المعالم)). الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٢٤٩ .

(٤) الدَرْج : ورق طويل يلوى على نفسه ، ويكتب فيه . الصابىء : رسوم دار الخلافة ، ص ٥٦ .

(٥) الدُسْتُور : الدفتر الذي تكتب فيه أسماء الجند ، ومرتباتهم . المعجم الوسيط ، ص ٣٠٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٤٧ .

(٧) الحصري : زهر الآداب ، (٦٨٠/٣/٢ ـ ٦٨٢) . وأورد الحصري في كتابه بعض الأبيات الشعرية لسليمان، نستشف من خلالها سعة حفظه للشعر ، وتاريخه . اليافعي : مرآة الجنان ، (١٨٦/٢) .

(٨) النديم : الفهرست ، ص ١٩٨ .

(٩) الصولي : أدب الكتّاب ، ص ٣٥ . وانظر نماذج من شعر سليمان في هذا المصدر ، ص ٨٦ . وانظر بن عبد البر : بهجة المجالس ، (٢١٦/١) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤١٥/٢) .

ونظراً لمركزه الاجتماعي والسياسي ، فقد كان سليمان مقصد الشعراء ومبتغى ذوي المطامع والمناصب ، مع ما عرف عنه من كرم . ولذلك تقرب إليه أبرز أدباء عصره ، وشعرائه . ومن هؤلاء : الشاعر البحتري ، الذي كان يقصده ، ويتقرب إليه ، ويمدحه [١] . وممن اتصل بسليمان من الأدباء المشهورين : يزيد بن محمد المهلبي ، ومدحه بقصيدة لامية [٢] . وكان أبو العيناء الشاعر ممن اتصل بسليمان بن وهب أيضاً [٣] .

وكانت للوزير **أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن المدبر** (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) جهوداً ملموسة في دعم حركة العلوم في عصره . بل ، وكان أديباً فاضلاً ، وشاعراً جواداً ، مترسلاً ، وصاحب نظم رائق ، ونثر فائق [٤] .

ووصفه الصولي بأنه : ((رجلاً جليلاً ، عالماً ، شاعراً ، ولا يدانيه أحد في ذلك كله)) [٥] . ولم تذكر المصادر أن ابن المدبر قد جمع شعره في ديوان ، ولكن له بعض الأبيات منشورة في بعض المصادر ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن ابن المدبر كان مقلاً في الشعر ، كما قال النديم [٦] . ومن شعر ابن المدبر ، قوله :

يا كاشف الكَرْبِ بعد شِدَّتِهِ ومنزلُ الغيثِ بعدما قَنَطُوا

لا تُبْلِ قَلْبي بشحطٍ بينهم فالموتُ دانٍ إذا همْ شحطُوا [٧]

---

(١) البحتري : الديوان ، (٢/١١٢٩) .

(٢) محمد خفاجي : الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

(٣) الحصري : زهر الآداب ، (٢/٣/٦٨١) .

(٤) النديم : الفهرست . ص ١٩٨ .

(٥) ابن الأبار : إعتاب الكتّاب ، ص ١٥٩ .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ٢٧٢ .

(٧) ياقوت الحموي : معجم الأدباء (١/٢٢٨ ـ ٢٢٩) . وانظر نماذج من شعر ابن المدبر في : ابن الأبار : إعتاب الكتّاب ، ص ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ . قحطان رشيد : إبراهيم بن المدبر الشاعر ، مجلة الأستاذ ع٢ ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ص ٥٥٤ ـ ٥٦٩ . ويستعرض صاحب المقال ما نظمه ابن المدبر في شتى أغراض الشعر ، وفنونه .

ولقد كان لابن المدبر إسهام في الدراسات الأدبية من خلال تصنيفه « الرسالة العذراء » [١] ، ولهذه الرسالة أهمية كبيرة في تاريخ النثر ، ونقده ، تكمن في أنها أول رسالة تناولت بدقة صناعة النثر [٢] . وهي رسالة في موازين البلاغة ، وأدوات الكتابة ، ورسالة موجهة إلى معشر الكتّاب ، ومتضمنة أوصاف الكتّاب ، ورسوم الكتابة ، وأصولها ، وما ينبغي أن يتحلى به الكاتب من ثقافة عامة .

ولا شك أن ما وصفه ابن المدبر في رسالته هذه من فكر ، ورأي ، يعطينا الطمأنينة بأن ابن المدبر كان يتصف بالصفات التي ذكرها في رسالته ، والتي ينبغي أن يتحلى بها الكاتب . ولذلك كانت شخصية ابن المدبر ، العلمية والاجتماعية ، محببة لدى المثقفين .

إن صدق ابن المدبر في مبادئه واضحة ، فلم يكن يسمح لنفسه بأن يكوِّن علاقة علمية بأحد إذا لم يكن ممن يثق في علمه ، وجديته ، فكان ينتقي جلسائه بدقة ، وقد يوكل بهذا الأمر إلى أحد العلماء البارزين الموثوق بهم . فقد طلب من المبرد أن يختار له جليساً ، فندب إليه أبا الحسن علي بن سليمان المعروف بالأخفش الصغير (ت ٣١٥هـ/٩٢٧م) [٣] ، عالم النحو ، ليكون أحد جلسائه ، وفي الوقت نفسه مؤدباً لولده [٤] .

وقد اتصل بابن المدبر أسماء لامعة في ميدان اللغة ، والأدب ، والتاريخ ، والطب . ومن أبرز هؤلاء : أبو عثمان الجاحظ ، وكان يجتمع معه كل ثلاثة أيام [٥] ، وهذا دليل على أن ابن المدبر كان ينزل كل شخص من هؤلاء منزلته ، ويعطيه أهميته التي تليق به .

---

(١) وهي مطبوعة . ونشرت ضمن « رسائل البلغاء » في (٢٧ صفحة) ، (ص ٢٢٧ ـ ٢٥٣) ، بعناية : محمد كرد علي ، وبإشراف لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م . وقد طبعت عدة طبعات بعد ذلك . انظر : محمد صالحية : المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ، (٦٢/٥ ـ ٦٣) .

(٢) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص ٥٢١ .

(٣) الأخفش الصغير : أحد نحاة بغداد ، رحل إلى مصر ، وأقام بها ما بين (٢٨٧ ـ ٣٠٠هـ) ، ثم خرج إلى حلب ، ثم عاد إلى بغداد ، وتوفي بها سنة (٣١٥هـ/٩٢٧م) ، وهو ابن (٨٠ سنة) . وله تصانيف ، منها : كتاب « شرح سيبويه » ، وكتاب « الأنواء » ، وكتاب « المهذب » . وكان ابن الرومي يكثر من هجوه . السيوطي : بغية الوعاة ، (١٦٧/٢ ـ ١٦٨) .

(٤) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١١٥ . القفطي : إنباه الرواة ، (٢٧٧/٢) .

(٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٩٤/١٦) .

كما اتصل بابن المدبر ومدحه من الشعراء : ابن الرومي [١] ، وكذلك البحتري ، وأبو العيناء ، وأبو العباس اليزيدي النحوي [٢] . ومن الأطباء : قسطا بن لوقا البعلبكي [٣].

وتحتفظ بعض المصادر بنماذج لما كان يدور في مجلس ابن المدبر من حدة في النقاش ، وإبداء للرأي بين الحاضرين . ومن ذلك ما ذكره ابن المدبر نفسه عن إحدى مجالسه ، والتي ضمت أبو العباس اليزيدي ، وأبو العيناء ، والبحتري ، وما دار بينهم من حوار ونقاش [٤] .

إضافة إلى ما سبق ، كان ابن المدبر مصدراً من مصادر المؤرخين في كثير من الأخبار ، وخصوصاً التي عاصرها ابن المدبر ، إيماناً منهم ، وثقةً في ابن المدبر ، وصدق روايته ، فقد نقل عنه : الأصفهاني ، وابن عبد ربه ، والشابشتي ، والطبري ، والحصري ، وغيرهم [٥] .

وإذا كانت شهرة ابن المدبر منطلقة من كونه واحداً من كبار كتّاب القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، فإن ذلك لا يمنع من أن يكون شاعراً مجيداً ، فالنثر والشعر ، كلاهما ميدان قلمه ، وعنوان شهرته .

أما الوزير **أبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب** (ت ٢٨٨هـ/٩٠١م) ، فكان يعد من كبار الوزراء ، ومشايخ الكتّاب ، بارعاً في صناعته ، حاذقاً ، ماهراً ، لبيباً ، جليلاً ، مع حزم في الرأي وقوته [٦] .

---

(١) الحصري : زهر الآداب ، (٤/٢/١ ـ ٣) . وفيه أبيات مدح ابن الرومي بها إبراهيم بن المدبر .

(٢) اليغموري : نور القبس ، ص ٩٣ .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٣٠ .

(٤) انظر تفاصيل ذلك في : الحصري : زهر الآداب ، (٣٢٥/١/١ ـ ٣٢٦) . اليغموري : نور القبس ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٥) مثال ذلك ، انظر : الطبري : تاريخ الطبري ، (١٦٨/١٠ ، ٤٧٧) . الشابشتي : الديارات ، ص ١٥٤ . الحصري : زهر الآداب ، (٣٢٥/١/١ ـ ٣٢٦) .

(٦) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٢٥٤ . ابن كثير : البداية والنهاية ، (٩١/١١) .

ولا شك أن لمجلس أبيه سليمان ، الذي كان يضم أبرز علماء العصر وأدبائه ، وما كان يدور فيه من نقاشات ، وحوارات ، ومناظرات ، وحضور أبو القاسم له ، ومراقبته لما يدور فيه ، الأثر الكبير في تكوين شخصية أبي القاسم العلمية ، إضافة إلى جهده الشخصي في طلب العلم ، حتى أضحى بذلك من أكابر الكتّاب في العراق .

إن صفات عبيد الله بن سليمان الحسنة ، جعلته محط إعجاب الناس ، وعلى رأسهم الخلفاء ، فقد كان الخليفة المعتضد يصفه بالدهاء ، والرُّجْلَةِ [١] .

هذه المميزات جعلته أيضاً ، مصدراً موثوقاً لأصحاب الأخبار ، والتراجم عند حديثهم عن أحد الشخصيات ، وكان رأي عبيد الله مقبولاً عندهم ، لثقتهم في نزاهة رأيه ، وحكمه على الآخرين ، فقد أخذ عنه محمد بن داود بن الجراح [٢] رأيه في إبراهيم بن المهدي الشاعر ، وضمنه كتابه .

وكان عبيد الله يبدي رأيه بأمانه ، ونزاهة ، بعيداً عن المجاملات ، حتى ولو كان الشخص من المادحين له . فيذكر محمد بن الجراح ، أنه سمع عبيد الله بن سليمان يَسْتَغِثُّ شعر أبي تمام ، ويكرهه . فقال محمد له : ((أنت أحق الناس بألا تقول فيهِ هذا ، لأنه مادحك ، ومادح أهلك ! ، فقال عبيد الله : لا يشبه الحق شيء)) [٣] .

وكان مجلس عبيد الله مقصد أهل العلم ، ومجمعاً لهم ، وفيه كانت تدور رحى المعارك العلمية والأدبية بين الحاضرين ، وكانوا من أبرز أهل العلم ، والفضل ، والأدب . فكفلوا لهذا المجلس حرارة النقاش ، وإثرائه بكل ما هو مفيد . ويذكر الثعالبي ما دار في أحد مجالس عبيد الله الوزير من نقاش بين عبيد الله وبعض الحاضرين حول موضوع هو : أيهما كان مفتاح الفتن ؟ ، مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أم مقتل الحسين بن علي

---

(١) ابن الأبار : إعتاب الكتّاب ، ص ١٧٧ . والرُّجْلَة : مصدر الرجل ، يقال : رجل جيد الرجلة ، وهي من الرجولة . ابن منظور : لسان العرب ، (٢٦٧/١١) .

(٢) ابن الجراح : الورقة ، ص ٢٠ ، وسيرد الحديث عن محمد بن داود بن الجراح ، وإبراهيم بن المهدي الشاعر في مبحث : علم الأدب .

(٣) المرزباني : الموشّح ، ص ٣٤٤ .

رضي الله عنه ؟ فأخذ الحاضرون في المناقشة ، والحوار ، وعرض وجهات النظر في ذلك الأمر ، وفي هذا المجلس تتضح سعة دراية عبيد الله بالتاريخ ، وقراءته الجيدة له [١] .

واتصل بعبيد الله أسماء لها حضور قوي في ميدان اللغة ، والأدب ، منهم : أبو إسحاق الزجاج ، عالم اللغة والنحو ، والذي اختصّ به ، وأفاد بطريقه مالاً جزيلاً [٢] . وكان ابن الرومي الشاعر ممن نشأت بينه وبين عبيد الله علاقةٌ وثيقة ، ومدحه بأربع قصائد طويلة [٣] . كما اتصل به أبو العباس المبرد ، وكانت بينهما مجالس في نقد الشعر [٤] . وممن مدحه أيضاً من الشعراء ، علي بن إبراهيم الخزاعي ، وقد مدحه كثيراً [٥] . كما اتصل به : هارون بن الحائك النحوي [٦] .

ويأتي على رأس هؤلاء جميعاً ، عبد الله بن المعتز ، الذي كانت تربطه بعبيد الله رابطة وثيقة ، وقوية ، وهي نابعة من حب ابن المعتز لآل وهب عموماً ، لمواقفهم الإيجابية معه ، وصوّر ذلك الأمر بأبيات قال فيها :

لآلِ سليمانُ بن وهبٍ صنائع ... لديّ ومعروف إليّ تقدّما

هم علّموا الأيامَ كيف تَبُرُّني ... وهم غسّلوا من ثوبِ والدي الدمَا [٧]

---

(١) انظر تفاصيل هذا المجلس في الثعالبي : ثمار القلوب ، ص ٦٨٩ ـ ٦٩٠ .

(٢) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١١١ . القفطي : إنباه الرواة ، (١/١٩٨) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١/٥٠) .

(٣) يونس السامرائي : آل وهب من الأسر الأدبية ، ص ٣٠٢ .

(٤) التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، (٣/١٨٦) .

(٥) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ١٣١ .

(٦) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٥١ . وهارون بن الحائك : أحد أعيان أصحاب ثعلب في النحو ، أصله يهودي من الحيرة ، وكان يناظر المبرد . وله مصنفات ، منها : كتاب « العلل في النحو » ، كتاب « الغريب الهاشمي » . ولم تعرف سنة وفاته . النديم : الفهرست ، ص ١١٩ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٩/٢٦١ ـ ٢٦٢) .

(٧) المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٢٩٥) .

غير أن لعبيد الله بن سليمان بالأخص مكانه خاصة عند ابن المعتز ، خصه بقصائد في المدح والرثاء [١] ، وهي منثورة في ديوانه [٢] . فمن رثائه له :

قد استوى الناسُ . وماتَ الكمالُ ونادَتْ الأيامُ اينَ الرجالْ

هذا أبو القاسمِ في نعشِهِ قوموا انظروا كيفَ تسيرُ الجبالْ

يا ناصرَ الملكِ بآرائِه بعدك للملكِ ليالٍ طوالْ [٣]

كما اتصل بعبيد الله بن سليمان : أبو العيناء الشاعر ، وله معه أخبار . وكان عبيد الله يتودد إليه ، ويلاطفه ، ورده إليه رداً جميلاً [٤] .

وكان الوزير **أبو الحسن القاسم بن عبيد الله بن سليمان** (ت٢٩١هـ/٩٠٣م) من الوزراء الذين ساهموا في دفع مسيرة التقدم العلمي في العراق في ذلك العصر ، كما فعل والده ، وجده . ووصف بأنه ((من دهاة العالم ، ومن أفاضل الوزراء ، شهماً ، فاضلاً ، لبيباً ، كريماً ، مهيباً [٥])) .

ويعد أبو الحسن أحد الكتّاب الشعراء ، وله شعر رقيق في الغزل [٦] ، وإن كان من المقلين في نظم الشعر عموماً [٧] .

وكان أبو الحسن يحرص على حضور حلقات كبار العلماء : كالمبرد ، وثعلب ، سواء للاستفسار ، أو الاستماع . قال العجوزي : صرت إلى المبرد مع القاسم والحسن ابني

---

(١) وقد مدحه بسبع مقطوعات ، وخمس قصائد . ورثاه بإثنتي عشرة مقطوعة ، وأربع قصائد . يونس السامرائي : آل وهب من الأسر الأدبية ، ص ٣٠٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال : ديوان ابن المعتز ، ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

(٣) ابن المعتز : الديوان ، ص ٣٨٩ .

(٤) الحصري : زهر الآداب ، (٣٢٤/١/١ ـ ٣٢٥) . الشابشتي : الديارات ، ص ١١٧ .

(٥) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٢٥٧ .

(٦) الزركلي : الأعلام ، (١٧٧/٥) .

(٧) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ١٩٨ ـ ١٩٩ . وفيه نماذج من شعره . النديم : الفهرست ، ص ٢٧٤ .

عبيد الله بن سليمان بن وهب . فقال لي القاسم : سَلْهُ عن شيء من الشعر ، فقلت : ما تقول ـ أعزك الله ـ في قول أوس :

وغيرُعا عن وصلِها الشيب أنه　　　شفيعٌ إلى بيضِ الخدورِ مُدَرَّبُ

فأجابهم . ثم صاروا إلى أبي العباس ثعلب ، قال العجوزي : فلما غصّ المجلس ، سألته عن البيت السابق ، فأجابهم [١] .

لقد أراد القاسم بطريقته هذه ، المقارنة بين جواب المبرد وجواب ثعلب ، وهما رؤساء فنهما ، وجوابهما يحمل أهمية كبيرة بالنسبة له ، لفهم المسألة بدرجة كافية .

واشتهر القاسم بحب الكتب ، وجمعها ، فكانت له خزانة كتب ، زادت شهرتها بعد أن ضم إليها مكتبة ثعلب ، التي قام بشرائها بعد وفاته [٢] .

أما علاقة القاسم بعلماء عصره وأدبائه فكانت على مستوى عالٍ ، وما صلته بالزّجّاج ، الذي كان مؤدبه ، ثم نديمه بعد توليه الوزارة ، إلا أحد الشواهد على ذلك [٣] وكان القاسم باراً به ، كثير الإحسان إليه ، ومسبغ العطاء عليه ، وخاصة بعد توليه الوزارة . حتى وصل الزّجّاج إلى درجة كبيرة من الغنى ، وهو ما يذكره الزّجّاج صراحة [٤] .

وكان ابن الرومي من الشعراء الذين اتصلوا بالقاسم أيضا ، وكانت له معه أخبار حسان ، ومعاتبات [٥] . في المقابل كان القاسم معجباً بابن الرومي وشعره . لدرجة أنه كان يقول لابن الرومي : ((يا أبا الحسن : أمل الأبيات على كاتب يكتبها بخطه وهاتها ، فكان ابن الرومي يفعل ذلك)) [٦] .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٥/١١٤ ـ ١١٥) . ولم يعثر على ترجمة للعجوزي ، راوي الخبر ، ويبدو أنه أحد المرافقين لأبناء الوزير عبيد الله بن سليمان .

(٢) عن هذه الخزانة ، انظر مبحث : خزائن الكتب .

(٣) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١١١ . الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٢٣٧ .

(٤) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٨٤ .

(٥) المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٢٨٤) . الحصري : زهر الآداب ، (١/٢/٥٢٨) .

(٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٢/٢٣) .

وديوان ابن الرومي مليء بالقصائد التي أنشدها في القاسم بن عبيد الله ، في مناسبات مختلفة ، وهي مبثوثة في مواضع مختلفة منه [١] .

وممن اتصل بالقاسم من الأطباء : إسحاق بن حنين بن إسحاق العبادي الطبيب ، وأحد رموز الترجمة في وقته ، وكان إسحاق منقطعاً في أخر أيامه إلى القاسم ، مقدماً عنده ، حتى وصل من المكانة العظيمة في نفس القاسم إلى درجة أنه كان يفضي إليه بأسراره [٢] . ولكن تبقى علاقة القاسم بابن المعتز الأبرز ، وما ذلك إلا امتداد للعلاقة الوثيقة ، والوطيدة التي كانت تربط ابن المعتز بآل وهب ، فكان من الطبيعي أن يكون للقاسم نصيب كبير من شعره [٣] . ومن مدحه له ، قوله :

قلم ما أراه أمْ فلك يَجْـ	ـري بما شاء قاسم ويسيرُ
خاشعٌ في يديه يَلْثِمُ قرطا	ساً كما قبَّل البساطَ شكورُ
ولطيفُ المعنى جليل نَحيفُ	وكبيرُ الأفعالِ وهو صغيرُ [٤]

وكان القاسم يلتقي بجلسائه ، من رموز العلم والأدب ، في مجلس أُعِد لذلك ، وفيه يتساجل الحاضرون في قضايا علمية مختلفة . ويشير ابن الرومي في إحدى قصائده التي مدح بها القاسم إلى مجلس من مجالسه ، مع ذكر بعض الأسماء الحاضرة له [٥] .

وهذا **أبو أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر** (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) صاحب شرطة بغداد خلفاً لأخيه محمد ، الذي مرَّ ذكره . وكان عبيد الله أحد

---

(١) ابن الرومي : الديوان ، (٢/٦٧٧ ، ٦٧٨ ـ ٦٨١) ويذكر السامرائي في كتابه : آل وهب من الأسر الأدبية ، ص ٣٦٥ : أن مجموع ما قاله ابن الرومي في القاسم بلغ : (٤٧ قصيدة ومقطوعة) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٨ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٨٠ .

(٣) في ديوان ابن المعتز (٥٤ قصيدة ومقطوعة) في آل وهب ، منها (٨ مقطوعات) ، و (٤ قصائد) في مدح القاسم ، و (٣ مقطوعات) في رثائه . يونس السامرائي : آل وهب من الأسر الأدبية ، ص ٣٦٦ .

(٤) الحصري : زهر الآداب . (١/٢/٤٧٩) . ولم أعثر على هذه الأبيات في ديوان ابن المعتز .

(٥) ابن الرومي : الديوان ، (١/٨٢) .

الشعراء المترسلين ، ومن أحسن الناس أدباً ، وتصرفاً في سائر العلوم ، مع كرم نفسه ، وحسن خلقه [١] .

وكان عبيد الله راويةً للحديث ، فقد حدّث عن : أبي الصلت الهروي ، والزبير بن بكّار . وروى عنه : محمد بن يحيى الصولي ، وعلي بن الحسن الأشناني ، وأبو القاسم الطبراني ، وغيرهم [٢] .

إضافة إلى ذلك ، كان عبيد الله من المتمكنين في الشعر ، ونظمه أيضاً ، وله ديوان شعر يقع في نحو مائة ورقة [٣] . وتحفل العديد من المصادر الأدبية والتاريخية بأشعاره ، مستشهدةً بها في بعض الأحيان ، وخاصة الشابشتي ، الذي قال عند إيراده لشعر عبيد الله : ((ولعبيد الله شعر كثير ، وأخبار طريفة ، اخترنا منها ما يليق بغرض الكتاب ، ولا يخرج إلى حد الإطالة)) [٤] . كما أكثر الوشّاء من الاستشهاد بشعر عبيد الله في كتابه [٥] .

ومن جيد شعره ، بيتين نَظمْهما عندما توفي أخوه سليمان ، ووقف على قبره متَّكئاً على قوسه ، ونظر إلى قبور أهله ، فأنشد قائلاً :

النفسُ ترقى بحزنٍ في تراقيها ... ودمعةُ العينِ تجري في مآقيها

لبقعةٍ ما رأتْ عيني كقلّتها ... ولا ككثرةِ أحبابٍ ثَوَوْا فيها [٦]

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ١٨٧ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٢٠/٣) .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٤٠/١٠) . ابن كثير : البداية والنهاية ، (١١٩/١١) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٢٦١ .

(٤) الشابشتي : الديارات ، ص ١٢١ .

(٥) فقد نقل عنه الوشّاء في كتابه « الظرف والظرفاء » أبيات شعرية في كثير من صفحات كتابه ، إما مشافهة ، أو رواية عنه . انظر على سبيل المثال : ص ٤٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٣٠ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ،(٣٤١/١٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣) . الثعالبي :ثمار القلوب، ص ٦٣٤ ، ٣٤٦ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٩٣ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٢٣/٣) .

ولقد جمع عبيد الله بن طاهر بين المكانة العلمية والاجتماعية ، فأصبح أحد رجالات العصر المقصودين عن غيرهم ، ومال إليه الكثير من علماء وقته ، وأدبائه .

ومن أبرزهم : عبد الله بن المعتز ، وقد ربطته به علاقة حميمة ، ومودة مكينة ، نلمسها في أخبارهما المشهورة ، فيذهب ابن طاهر من بغداد إلى ابن المعتز في سُرَّ مَنْ رأى ، استجابةً لطلب الأخير له للمؤانسة به [١] . وكانت بين الرجلين رسائل شعرية ونثرية متبادلة في مناسبات مختلفة ، وفيها تظهر بوضوح براعة ابن طاهر الأدبية ، وما يتمتع به من القوة في البيان [٢] ، ومن كثرتها استطاع ان يجمعها في كتاب « مراسلاته لعبد الله بن المعتز » [٣] .

واتصل به من شعراء عصره ، أبو عبادة البحتري [٤] ، وأبو العيناء [٥] ، وابن الرومي [٦] .

وكان عبيد الله بن طاهر شديد الاهتمام بأحوال الأدباء ، ممن تربطه به صله وثيقة ، بالسؤال عنهم إذا تأخرت أخبارهم . فعندما تأخر أبو الحسن القاسم بن أحمد الكوفي الكاتب [٧] عن ابن طاهر فترةً من الزمن ، فكتب إليه ابن طاهر يتشوقه بأبيات ، مطلعها :

مُحبك شاكٍ ولو يستطيعُ ... أتاك لإعظامِ حقُ الصديقِ

---

(١) الشابشتي : الديارات ، ص ١٠٩ .

(٢) انظر أمثلة لهذه الرسائل في : المصدر السابق ، ص ١١٣ ـ ١١٦ ، ١٢١ .

(٣) الصولي : أشعار أولاد الخلفاء ، ص ١٣٢ . النديم : الفهرست ، ص ١٨٨ . وقد أوردنا نماذج منها في موضوع الرسائل الإخوانية ، ضمن مبحث : علم الأدب .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٠/٣٤١) .

(٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٨/٢٩١) .

(٦) الحصري : زهر الآداب ، (١/٢/٣٥٤) . وقد ذكر له أبيات في مدح عبيد الله بن طاهر .

(٧) لم أعثر له على ترجمة .

فرد عليه القاسم بأبيات أيضاً [١] .

وعاتب عبيد الله بن طاهر أبا العباس المبرد لاستبطائه عليه . فرد عليه المبرد بأبيات يعتذر فيها له على هذا التأخير ، ويمدحه أيضاً [٢] .

وتوَّج ابن طاهر اهتمامه بالحركة العلمية ، بإسهامه في حركة التأليف الخاصة بالدراسات الأدبية والتاريخية بعدة مصنفات ، وهي : كتاب « الإشارة في أخبار الشعراء » ، وكتاب « رسالة في السياسة الملوكية » ، وكتاب « البراعة والفصاحة » . إضافة إلى كتابه الذي ذكرناه آنفا ، وهو : « مراسلاته لعبد الله بن المعتز » [٣] .

وللوزير **أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات** (ت ٣١٢هـ/٩٢٤م) [٤] جهود كبيرة في تنشيط الحركة العلمية ، فقد كان من أجَلِّ الناس وأكرمهم ، وكان موصوفاً بالدهاء ، والفصاحة ، والخبرة [٥] . وكان فوق ذلك ((حسن الكتابة ، ظاهر الكفاية ، خبيراً بالحساب والأعمال ، حتى تقدّم على أهل زمانه في هذه الأحوال)) [٦] . غير أن بروز ابن الفرات في الكتابة كان من الناحية الإنشائية فقط دون الخط ، وهذا ما ذكره كاتبه ، أبو عبد الله بن زِنْجي ، في أحد مجالس الوزير أحمد الخُصَيْبي [٧] ، إذ قال : ((كانت يد

---

(١) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ١٩٦ ـ ١٩٧ .

(٢) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ . وانظر فيه بقية الأبيات .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ١٨٨ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٢٠/٣) .

(٤) أبو الحسن ابن الفرات : من أجَلِّ الناس كرماً وجوداً . له محاسن كثيرة ، وخدمات جليلة . تولى الوزارة ثلاث دفعات في أيام الخليفة المقتدر . وفي وزارته الثالثة أطلق يد ولده المُحسِّن في الناس فأساء كثيراً ، فكان سبب نكبته سنة (٣١٢هـ/٩٢٤م) . وقد فصَّل الصابىء الدفعات الثلاث التي تولى فيها ابن الفرات الوزارة . الوزراء ، ص ٩ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٣٩ . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (١٤٩/٨ ـ ١٥٥) .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤٢٢/٣) . ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٢٦٥ .

(٦) الصابىء : الوزراء ، ص ٩ . ابن كثير : البداية والنهاية ، (١٥١/١١) .

(٧) أحمد الخُصَيْبي : هو أحمد بن عبد الله بن الخصيب الجرجرائي . أحد الكتاب الذين نكبهم الخليفة الواثق سنة (٢٢٩هـ/٨٤٣م) . وشارك في بيعة المنتصر ، واتخذه وزيراً . ثم وزَّر للمستعين ، وارتفع شأنه ، وكانت بينه وبين وصيف التركي شحناء وتباغض ، حيث دبر خلافة المستعين ، ونفاه المستعين إلى المغرب سنة (٢٤٨هـ/٨٦٢م) . وكانت وفاته سنة (٢٦٥هـ/٨٧٨م) . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (١١١/٧ ـ ١١٢) . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (١٤٩/١) .

أبي الحسن بن الفرات تخونه لفساد خطه ، وكان يعمل النُّسَخْ بأجزل كلام ، وأحسنه ، ويخرجها إليّ فأحررها)) ثم عرض ابن زنجي على الحاضرين ثلاث رسائل لابن الفرات من إنشائه [١] .

وكان ابن الفرات عارفاً بالتاريخ ،وتفاصيله . فحدث أن رُفع إلى ابن الفرات أن رجلاً يهودياً ادعى أن معه كتاباً من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فأمره بإخراج الكتاب ، فلما قرأه قال له : هذا مُزَوّرْ . لأن خيبر افتتحت بعد تاريخ كتابك بسبعة وستين يوماً فقال راوي الخبر : فرُجع إلى كتب التاريخ ، فَوجِد الأمر كما ذكره ابن الفرات [٢] .

ولم يكن ابن الفرات ببعيد عن تفقد أحوال أهل العلم ، والأدب ، والتوسيع عليهم ، والعمل على كل ما من شأنه أن يحفِّزهم على النشاط العلمي ، والعطاء الفكري ، إدراكاً منه بأهمية هذا الجانب ، فأجرى الرواتب الشهرية عليهم ، بعد أن نمى إلى علمه حالة الفقر التي كان يعيش فيها بعض طلبة الحديث ، وأصحاب الأدب ، وتعففهم عن إفشاء حالهم ، فقال ابن الفرات : ((أنا أحق من أعانهم ، وأطلق لأصحاب الحديث عشرين ألف درهم ، وللشعراء عشرين ألف درهم ، ولأصحاب الأدب عشرين ألف درهم ، وللفقهاء عشرين ألف درهم ، وللصوفية عشرين ألف درهم ، فذلك مائة ألف درهم)) [٣] . كما تذكر المصادر أن ابن الفرات كان ((يُجري الرزق على خمسة آلاف من أهل العلم ، والدين ، والبيوت ، والفقراء ، أكثرهم مائة درهم في الشهر ، وأقلهم خمسة دراهم)) [٤] ، خلاف المكافآت التي كان يمنحها للأدباء ، تشجيعاً منه . حيث يذكر الصولي أنه مدح ابن الفرات بقصيدةٍ فكافأه عليها بستمائة دينار [٥] .

---

(١) الصابيء : الوزراء ، ص ٥٢ ، وقد أورد الصابيء هذه الرسائل الثلاث في كتابه ، ص : ٥٣ ـ ٥٥.

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (١٥٤/٨) .

(٤) الثعالبي : ثمار القلوب ، ص ٢١٢ . الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٣٠١ ـ ٣٢٠هـ) ، ص ٤٣٧ . ابن كثير : البداية والنهاية ، (١٥١/١١) .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤٢٢/٣) .

ولم يقتصر عمل ابن الفرات ، في تهيئة الظروف المناسبة للعلماء ، على النواحي المالية فقط ، بل تجاوزه إلى توفير المواد اللازمة للكتابة ، والتأليف أيضاً ، وذلك بتخصيصه إحدى الحجرات في داره تعرف « بحجرة الكَاغَدْ » [١] ، يدخل إليها كل من احتاج إلى الورق ، فيأخذ قدر حاجته منه [٢] .

وتوّج ابن الفرات اهتمامه بالحركة العلمية بعقد المجالس العلمية في قصره ، ومشاركته فيها مشاركة فاعلة ، ويظهر فيها قدرته العلمية ، فيذكر الهمذاني : أن ابن الفرات أشخص إليه في سنه (٣١١هـ/٩٢٣م) الفقهاء ، والقضاة ، والكتّاب ، وفيهم النعمان بن عبد الله الكاتب [٣] ، وناظره ابن الفرات مناظرةً طالت [٤] .

وفي بعض الأحيان قد يطرح ابن الفرات موضوعاً على بساط البحث ، ليكون محور الحديث ، ويدلي كل من في المجلس برأيه ، مع مشاركة ابن الفرات للحاضرين في طرح آرائه [٥] .

---

(١) الكَاغَدْ : كلمة فارسية من أصل صيني ، وهي تطلق على الورق الصيني الذي كان يصنع في مدينة سمرقند ، ثم أصبح يطلق على الورق المصنوع في العراق بشكل عام . آدي شير : الألفاظ الفارسية المعربة ، ص ١٣٦ . طه الحاجري : الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج ١٢ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٦ .

(٢) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٢٦٦ . ويقول ابن الأثير عن ابن الفرات في هذا الأمر : ((وكان إذا ولي الوزارة ، ارتفعت أسعار الثلج ، والشمع ، والسكر ، والقراطيس ، لكثرة ما كان يستعملها ، ويخرج من داره للناس)) . الكامل في التاريخ ، (٨/١٥٤ ـ ١٥٥) .

(٣) النعمان الكاتب : كان والي الأهواز في عهد المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ/٩٠٨ ـ ٩٣٢م) . الصابيء : الوزراء ، ص ١٩٩ ، ٢٠١ .

(٤) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٢٣٣ .

(٥) الصابيء : الوزراء ، ص ٤٢ . وفي أحد المجالس عرض ابن الفرات على الحاضرين تساؤلاً مفاده : لِمَ سُمِّيَ السواد سواداً ؟ . فأخذ الحاضرون يدلون بآرائهم ، وكانت لابن الفرات الإجابة الشافية . انظر تفصيل ذلك في نفس المصدر .

وكان ابن الفرات شديد الاهتمام بأدق التفاصيل في مجلسه العلمي ، واجتهاده في تهيئته بأفضل فرش حتى يضمن راحة جلسائه ، والحاضرين ، وكان يهتم بهذا الأمر قبل وزارته ، وبعد وزراته أيضاً ^(١) .

وكان الوزير **أبو الحسن علي بن عيسى بن الجراح** (ت ٣٣٤هـ/٩٤٦م) من الوزراء العلماء . ويعد علي بن عيسى أحد الشخصيات المرموقة ، والنزيهة ، التي خدمت الدولة العباسية بإخلاص ، وتفانٍ ، واشتهر ابن الجراح في التاريخ الإسلامي بإصلاحاته الاقتصادية ، والإدارية ، إبّان توليه الوزارة ، وعمله على الخروج بالدولة من مأزقها الاقتصادي [٢] .

وكان لنشأة ابن الجراح العلمية عظيم الأثر في بلورة شخصيته العلمية ، والسياسية . فقد درس العلوم الشرعية ، وحفظ القرآن ، ودرس تفسيره ، وأصبح متمكناً ، عالماً بمعانيه ، وإعرابه [٣] . إضافة إلى حسن درايته بالحديث ، وروايته ، فقد حمل عن أبيه الحديث ، وسمع جماعة من المحدثين ، منهم : أحمد بن بُدَيل الكوفي ، والحسن بن محمد الزعفراني ، وحميد بن الربيع ، وعمر بن شَبَّة . وأخذ عنه : ابنه عيسى، وسليمان بن أحمد الطبراني ، والقاضي أبو طاهر محمد بن أحمد بن عبد الله النُّهَلي [٤] . وكان شيخه في اللغة أبو بكر ابن السرّاج .

وأصبح ابن الجراح بذلك أحد العلماء الرؤساء من أهل بغداد ، وشيخاً من شيوخ كتّابها [٥] . ولقد أثنى المؤرخون على ابن الجراح ثناءً عطرا ، فيقول الصولي ، أحد

---

(١) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٢٦٦ .

(٢) حول جهود ابن الجراح في هذا المجال بشكل واسع ، انظر : ضيف الله الزهراني : الوزير العباسي علي بن عيسى بن داود بن الجراح ، إصلاحاته الاقتصادية ، والإدارية .

(٣) ابن الأبار : إعتاب الكتّاب ، ص ١٨٦ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٤/١٢) . ابن الأبار : إعتاب الكتّاب ، ص ١٨٦ .

(٥) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٢٦٧ . الزركلي : الأعلام ، (٣١٧/٤) .

معاصريه : ((ولا أعلم أنه وزّر لبني العباس وزير يشبهه في زهده ، وعفته ، وحفظه للقرآن ، وعلمه بمعانيه)) [١] .

ولم تكن العلوم الشرعية وحدها ميداناً لبروز ابن الجراح العلمي ، ولكن تجاوزه إلى ميدان الأدب ، فكان ابن الجراح شاعراً ، واسع المعرفة بالشعر ، حتى قال الصولي عنه : ((ولا أعلم أنني خاطبت أحداً أعرف منه بالشعر)) [٢] ، وله « ديوان رسائل » أيضاً [٣] . ومن جيد شعره ، قوله :

ما الناسُ إلاّ مع الدنيا وصاحبِها	فكيفما انقلبَتْ يوماً به انقلبوا
يعظّمـون أخـا الدنيا فـإن وثَبَتْ	يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا [٤]

كما كان ابن الجراح ((متميزاً ببلاغات ، وبيان لا تعرف لغيره من الكتّاب)) [٥] ، حتى أضحى موضع ثقة لغيره من كتّاب عصره ، ونقّاده ، ونجد قدامة بن جعفر يعرض في سنـة (٣٢٠هـ/٩٣٢م) كتابـه « الخـراج وصنعـة الكتابة » على علي بن عيسى لِيُقَيِّمَهُ ، كما يذكر ابن الجراح . وأخذ في الحديث عن رأيه في الكتاب ، مستشهداً بأقوال العرب في اللغة . مما يعطينا فكرة واضحة بسعة علم هذا الرجل ، وبـروزه فـي اللغـة العربية [٦] . لقد كان ابن الجراح عالماً قبل أن يكون وزيراً ، ولذا عرف قيمة العلم ، وأهله ، فكان محباً لهم ، وافر الاحترام لمقامهم ، ورافع لقدرهم . فعندما حضر ابن الجراح إلى المسجد للصلاة على مولى الخليفة المعتضد ، ويسمى « واثق » حضر إلى الصلاة وجوه الدولة من القوّاد ،

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٤/٦٩) . ابن كثير : البداية والنهاية (١١/٢١٧) ، وله كلام يشبه قول الصولي .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٤/٦٩) .

(٣) المصدر السابق ، (١٤/٦٨) .

(٤) ابن الأبار : إعتاب الكتّاب ، ص ١٨٧ . وانظر نموذجاً آخر من شعـره فـي : ابن كثـير : البدايـة والنهايـة (١١/٢١٧) .

(٥) ابن الأبار : إعتاب الكتّاب ، ص ١٨٦ .

(٦) التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، (٢/١٤٥ ـ ١٤٦) . وفيه تفصيل أوسع عن هذا الأمر .

والكتّاب ، والأشراف ، والقضاة ، وغيرهم ، وكان من بين الحضور ، القاضي أبو جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول الأنباري [١] ، وقيل لابن الجراح : تقدم ، فجاء ليتقدم فوقفت عينه على أبي جعفر ، فجذبه وقدمه ، وتأخر هو . وقال راوي الخبر بعد إيراده له : ((هذا مع نفرة كانت بينهما ، ولكن أبا الحسن ، لفضله ، لم يكن يدفع أهل الفضل عنه ، وإن لم يكن ما بينه وبينهم مستقيما)) [٢] .

وكان لابن الجراح مجلس علم يجتمع فيه أبرز العلماء ، في العلوم الشرعية ، واللغة ، والطب . ومن هؤلاء : أبو بكر محمد بن داود الظاهري ، وأبو العباس ابن سُرَيْج ، وكانت بينهما مناظرات في مجلس الوزير [٣] . كما اتصل به أبو بكر الشافعي الفقيه [٤] ، وكذلك أبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي الطبيب ، أحد النقلة المجيدين ، وممن انقطع إلى ابن الجراح [٥] .

إن الأسماء السابقة لأعيان الدولة ، لم تكن الوحيدة في دعمها للحركة العلمية ، بل أن هناك أسماء أخرى كان لها إسهام أيضاً في هذا الأمر ، ومن هذه الأسماء : الوزير **أبو الصقر إسماعيل بن بلبل** (ت ٢٧٨هـ/٨٩١م) ، [٦] والذي اشتهر بكثرة صلاته

---

(١) أبو جعفر الأنباري : هو أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي الأنباري من كبار القضاة الأحناف ، تولى قضاء مدينة الأنبار ، ثم قضاء مدينة المنصور عشرين سنة ، عالماً بالأدب والسير ، وله اشتغال بالتفسير والحديث ، وكانت وفاته سنة (٣١٨هـ/٩٣٠م) ، وله من المصنفات : كتاب « النحو » على مذهب الكوفيين ، وكتاب « الناسخ والمنسوخ » ، وكتاب « أدب القاضي » . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ،(٤/٣٠ ـ ٣٤) . السيوطي : بغية الوعاة ، (١/٢٩٥ ـ ٢٩٦) .

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ، (١/٢٥٨ ـ ٢٥٩) .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤/٢٥٩ ـ ٢٦٠) .

(٤) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٢٣٠ .

(٥) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٤٠٩ .

(٦) إسماعيل بن بُلْبُلْ : هو أبو الصقر إسماعيل بن بلبل الشيباني . استوزره الموفق لأخيه المعتمد سنة (٢٦٥هـ/٨٧٨م) . وجمع بين السيف والقلم . ثم استكتبه الموفق سنة (٢٧٢هـ/٨٨٥م) ، واقتصر على الكتابة دون غيرها . ولما ولي المعتضد الخلافة قبض عليه سنة (٢٧٨هـ/٨٩١م) وحبسه ، ثم قتله ، واستصفى أمواله . الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٩/٥٤٤) . المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩) . التنوخي : نشوار المحاضرة ، (١/١٥١) .

للشعراء ، الذين كانوا يختلفون إليه ، ومنهم : المُفَضَّل بن سَلَمة ، وابن الرومي [١] ، الذي مدحه بقصيدة نونية طويله [٢] .

وكذلك الوزير **عبد الرحمن بن عيسى بن الجراح** [٣] ، وكان من فضلاء الكتّاب ، وله تصانيف منها : كتاب « سيرة آل الجراح وأخبارهم وأنسابهم في القديم والحديث » ، كتاب « التاريخ » من سنه ٢٧٠هـ إلى أيامه ، كتاب « الخراج » كبير ، ولم يتمه [٤] .

وكان الوزير **أبو القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد** (ت ٣٣٢هـ/٩٤٤م) [٥] ممن يحب مجالسة الأدباء ، ويأنس بهم ، ويكافئهم بالمال ، واتصل به عدد من الأدباء منهم : أبو بكر الصولي ، الذي أهدى إليه أحد مصنفاته ، فأعطاه ابن مخلد ثلاثمائة دينار ، وألحق إسمه بأرزاق الحشم [٦] .

ومن الوزراء العلماء ، **أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح** (٢٩٦هـ/٩٠٩م) . وكان من علماء الكتّاب ، عارفاً بالأخبار ، وأيام الناس ، وأخذ عن العلماء ، والفصحاء ، والشعراء ، وكتب بخطه شيئاً كثيراً [٧] .

---

(١) القفطي : إنباه الرواة ، (٣/٣٠٧) .

(٢) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٢٥٤ .

(٣) عبد الرحمن بن عيسى : أخو الوزير علي بن عيسى ، تولى الوزارة للخليفة الراضي سنة (٣٢٤هـ/٩٣٥م) ، ولما ظهر العجز من قبل عبد الرحمن ، قبض عليه الراضي ، وصادر أمواله في نفس السنة ، ولم تذكر له أخبار غير هذه . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٨/٣١٤ ، ٣١٥) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٢٠٧ .

(٥) سليمان بن الحسن بن مَخْلد : أحد الشخصيات التي تولت الوزارة للمقتدر ، ثم للراضي ، فالمتقي . ولم تحمد سيرته في وزارته . وكان أبوه متولي ديوان الضياع للمتوكل ، ثم وزيراً للمعتمد على دفعات . وتوفي سنة (٣٣٢هـ/٩٤٤م) . القرطبي : صلة تاريخ الطبري ، ص ١٣٠ ، ١٣٨ . الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٢٦٥ ، ٣٠٣ ، ٣٢١ ـ ٣٢٢ ، ٣٤٣ .

(٦) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٩٠ . والحشم : هم المستخدمون في خزائن الكسوة ، والضياع ، والخيّاطين ، والقصّابين ، والحدّادين ، والمطرّزين ، والنجّارين ، والورّاقين ، والعطّارين . الصابىء : الوزراء ، ص ١٩ .

(٧) الزركلي : الأعلام ، (٦/١٢٠) .

ولم يقتصر الاهتمام بالحركة العلمية على الأعيان من العرب فقط ، بل شاركهم في هذا الأمر ، القُوّاد الأتراك أيضاً ، الذين رأوا أنفسهم أمام واقع لابد من معايشته ، والتأقلم معه ، فالحياة العلمية في العراق في ذلك الوقت تطلبت منهم أن يكونوا على مستوى الحدث ، وأن يجاروا غيرهم من الأعيان حتى لا تهتز مكانتهم ، ونفوذهم في الدولة .

ولهذا ، برز من القواد الأتراك من كانت له عناية بالعلم وأهله ، ومن هؤلاء القواد : **بجكم التركي** (ت ٣٢٩هـ/٩٤٠م) (١) . وكان يفهم العربية إذا خوطب ، ويحسن الجواب ، غير أنه لا يتحدث بها ، لخوفه من الخطأ ، فيؤاخذ على ذلك وهو أمير ، إذ نراه يصرِّح بهذا الأمر في قوله : ((أخاف أن أتكلم بالعربية فأخطيء في لفظي ، والخطأ من الرئيس قبيح ، فلذلك أدع الكلام)) (٢) .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن بجكم وإن كان لا يحسن شيئا من العلوم ، كما يقول هو عن نفسه ، إلا أن هذا الأمر لم يثنه عن اصطناع العلماء والأدباء له ، ومحاكاته لكبار أعيان الدولة في هذا الشأن ، لأن بجكم يدرك أن ذلك يكسبه الهيبة والمكانة ، وهذا واضح في قوله : ((أنا إنسان ، وإن كنت لا أحسن العلوم والآداب ، أحب أن لا يكون في الأرض أديب ، ولا عالم ، ولا رأس في صناعة ، إلا كان في جنبتي ، وتحت اصطناعي ، وبين يدي لا يفارقني)) (٣) .

وتجاوز بجكم مسألة تقريبه لأهل العلم والأدب إلى أن اتخذ من يثق به من العلماء موجهين له ، ومقوِّمين لشخصيته ، وتهذيبها ، حتى تكون شخصية اجتماعية إيجابية . فقد طلب بجكم من سنان بن ثابت بن قرَّة الطبيب (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م) أن يدبِّره ، ويتفقد أخلاقه ، وسلوكه ، ومعالجة ذلك كله . وفعلاً ، قام سنان بهذا الأمر . فمازالت أخلاق بجكم

---

(١) بَجْكَم التركي : أحد الغلمان الأتراك ، الذين كانت لهم كلمة في سياسة الدولة ، ووصل إلى منصب أمير الأمراء عام (٣٢٦هـ/٩٣٨م) في عهد الراضي ، وقتل سنة (٣٢٩هـ/٩٤٠م) . مسكويه : تجارب الأمم ، (٣٩٣/١) . ابن كثير : البداية والنهاية ، (٢٠٠/١١ ـ ٢٠١) .

(٢) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ١٩٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

تصلح ، وتتحسن ، وسنان يرشده ، وينبهه على كل ما ينكره من سوءٍ في أفعاله ، وأقواله ، واستمر على ذلك إلى أن حسنت أخلاقه ، ولانت [١] .

ولقد أفرزت مهمة سنان نتائج ملموسة في شخصية بجكم ، فقد قام بجكم بعمل دار ضيافة وقت المجاعة بمدينة واسط ، وبنى بيمارستاناً بإسمه في بغداد . وأصبحت منزلة سنان كبيرة عند بجكم ، الذي أكرمه غاية الإكرام ، ورفع من قدره عنده [٢] .

إن إحساس بجكم بأهمية العلم كان كبيراً ، ولذا أدرك دور العلم في عمران المدن ، فهو قد لمس هذا التطور في نفسه أولاً بواسطة سنان الطبيب ، فعرف تأثير العلم في رفع مستوى فكر المجتمع ، وتهذيبه ، ولهذا السبب نجده يطلب من أبي بكر الصولي أن يجلس لأهل واسط في المسجد الجامع ، فأخبره الصولي بأنه قد جعل لهم مجلسين في مسجد بقرب منزله . فقال له بجكم : ((إني أحب أهل واسط وقد أحبوني ، وأنا حريص على عمران بلدهم ، وتبليغهم جميع ما يحبونه ، فأجلس لهم في الجامع ، فأجاب الصولي لطلبه ، فأكرمه بجكم ، وأخذ له منزلاً بجواره ، وأدخله في جملة ندمائه ، واتخذه مستشاراً له)) [٣] .

ولم تكن العناية بالحركة العلمية من قبل الأعيان قاصرة على الفئات التي ذكرناها فقط ، بل ساهم أثرياء المجتمع في تقدم وازدهار العلوم ، والاهتمام بالعلماء والأدباء ، ومن هؤلاء : **محمد بن جامع** ، وكان من أحسن الناس ، وأكثرهم مالاً ، وكانت تربطه بمحمد بن داود الظاهري الفقيه علاقة قوية ، ولا يعرف أحد كان ينفق الأموال على أحد ، إلا ابن جامع مع ابن داود [٤] .

ومن أثرياء القوم ممن ساهم في دعم الحركة العلمية أيضاً ، **إبراهيم بن أيوب بن ماسي** ، الذي كان ينفذ إلى أبي عمر محمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب ، عالم اللغة الزاهد ، في الوقت بعد الوقت ما ينفقه عليه من المال [٥] .

---

(١) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٩٢ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .

(٢) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٩٣ .

(٣) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ١٩٤ .

(٤) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ١٩٩ . ولم أعثر على ترجمة لابن جامع .

(٥) القفطي : إنباه الرواة ، (٣/١٧١) . ولم أعثر على ترجمة لابن ماسي .

ولقد تعرفنا ، من خلال هذا المبحث ، على جهود أمراء البيت العباسي ، وجهود أعيان الدولة والمجتمع ، وإسهامهم جميعاً في دعم مسيرة الحركة العلمية نحو الرقي ، والهدف المنشود .

ولقد كان لهذا الاهتمام الكبير إنعكاسه الإيجابي على النشاط العلمي في العراق ، خلال تلك الفترة ، من وجهين ، هما :

الأول : إثراء المكتبة الإسلامية في مختلف العلوم ، والفنون ، والمعارف ، عن طريق المصنفات التي قام أصحابها بوضعها لهذه الفئة من طبقات المجتمع ، إما بطلب شخصي منها ، أو أن المصنِّفين كانوا يهدونها لهم نظير ما كانوا يتلقونه منهم من دعم مادي ، ومعنوي .

الثاني : الدور الكبير الذي لعبته الأُسَر الأدبية في دفع مسيرة الحركة العلمية إلى الأمام ، بفضل جهود أبنائها ، الذين قرنوا العلم بالعمل ، من خلال تقلدهم للمناصب العليا في الدولة ، مما أسبغ على هذه المناصب صفة الأهمية ، حتى ليخيل للقارىء أنه عندما يقرأ عن هؤلاء كأنه يقرأ عن علماء ، وليس عن وزراء ، وولاة .

المبحث الثالث

اهتمام العلماء بالحركة العلمية

كان لعلماء العراق وأدبائه أثر فاعل في تنشيط الحركة العلمية ، والمساهمة مع بقية أعيان المجتمع في هذا الأمر . فبالإضافة إلى إسهامهم الكبير في ازدهار العلوم والمعارف ، كان لهم إسهام آخر ، تمثل في مجموعة من المظاهر ، أو الأعمال التي لابد وأن نعرّج عليها ، حتى نتعرف بصورة أكثر دقة عن أثر العلماء في دعم الحركة العلمية ، والاهتمام بجميع أطرافها ، وبكل ما له صلة بذلك .

ولا شك أن حب العلم وتربعه في قلوب أصحابه ، كان الدافع الأول والرئيس في ذلك . فيذكر طاهر بن محمد بن نزار [١] عند حديثه عن الإمام أحمد بن حنبل في تفسيره لآية من القرآن الكريم بقوله : ((حدثنا أحمد بن حنبل في السجن ، والقيد في رجله ، قال : ....)) [٢] . فلم يمنع السجن والقيد الإمام أحمد من أن يؤدي مهمته ، التي يدرك أنها لابد وأن تستمر حتى يقضي الله الأجل .

وورع العلماء ، واحترامهم للعلم جعلهم يتحرزون من سرعة الإجابة فيما لم يتحققوا منه تماماً ، خوفاً من الزلة والخطأ ، فهذا أبو بكر الأنباري ، عالم النحو ، يُسأل عن تفسير رؤيا ، فيعتذر من السائل متعللاً بالمرض ، فلما كان من الغد أتى بالجواب ، وذلك أنه مضى من يومه فدرس كتاب الكرماني [٣] .

ووفق هذه المباديء كان لعلماء العراق وأدبائه مهام أخرى في ازدهار الحركة العلمية ، من خلال مظاهر عدة ، نستعرضها في الصفحات التالية .

---

(١) طاهر بن محمد : هو أبو الطيب طاهر بن محمد بن نزار ، أحد أصحاب الإمام أحمد بن حنبل من الطبقة الأولى ، ممن أخذ عنه العلم ، وروى عنه . ولم تعرف سنة وفاته . ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (١/١٧٩) .

(٢) العليمي : المنهج الأحمد ، (١/٤٠٩) .

(٣) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

١ ـ رعاية العلماء لطلبة العلم :

كان العلماء يدركون أن تلاميذهم ، سواءً كانوا من العراق أو خارجه ، ليسوا على درجةٍ واحدةٍ من حيث توفر سبل العيش ، وطلب العلم . فهذا طالب علم جاء من خراسان ، وآخر من الأندلس ، وثالث من اليمن ، ورابع من إحدى مدن العراق . فجميعهم تحمل المشاق ، والتعب حتى يظفر بحديث ، أو فائدة ، أو أي شيء يزيد في حصيلته العلمية .

ومن هذا المنطلق ، ساهم علماء العراق وأدباؤه في مد يد العون لهؤلاء حباً لهم ، ولما يطلبونه . ولقد اتخذ هذا الدعم صوراً مختلفة ، كلاً بحسب طاقته ، وظروفه .

فقد ورث أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م) ، إمام اللغة والنحو بالبصرة ، عن أبيه وعمه مائة ألف دينار ، فأنفقها في طلب العلم ، وعلى العلماء [١] .

وهذا أبو الحسن علي بن محمد الأسدي المعروف بابن الكوفي (ت ٣٤٨هـ/٩٥٩م) [٢] ، النحوي واللغوي ، ورث عن أبيه ، كما قيل ، أكثر من خمسين ألف دينار فصرف بعضها في طلب العلم وشراء الكتب ، وجزء منها جعله لصالح الفقراء من طلبة العلم ، وكان منزله مغشياً منهم ، ونفقاته عليهم واسعة [٣] .

وكانت لأبي محمد دعلج بن أحمد السِّجْزي (ت ٣٥١هـ/٩٦٢م) [٤] ، عالم الحديث ، صدقات جارية ، وأوقاف محبسة على أهل الحديث في بغداد ، ومكة ، وسجستان [٥] .

---

(١) اليماني : إشارة التعيين ، ص ١٣٧ .

(٢) أبو الحسن ابن الكوفي : نزيل بغداد ، وحدث بها عن جماعة ، وكان منزله بمحلة طاق الحرّاني ، ثقة فيما يرويه . صحب ثعلب . واشتهر أبا الحسن بجودة خطه . وله مصنفات في علوم اللغة العربية منها : كتاب « الهمز » ، كتاب « معاني الشعر » ، كتاب « الفرائد والقلائد في اللغة » . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٨١/١٢) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٥٢/١٤ ـ ١٥٦) .

(٣) القفطي : إنباه الرواة ، (٣٠٥/٢ ـ ٣٠٦) .

(٤) أبو محمد السجزي : أحد كبار المحدثين البغداديين ، من أوعية العلم ، وبحور الرواية ، وله مسند كبير . الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٧٣ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢٧١/٢) . سجستان : أحد أقاليم المشرق الإسلامي ، عاصمتها مدينة بُسْت ، وكانت تضاهي خراسان في الأهمية ، وتوازيها . وهي الآن جزء منها في جنوب دولة أفغانستان ، والقسم الآخر في الجنوب الشرقي من جمهورية إيران . اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨٦ .

ومن العلماء من ساهم في هذا الأمر بصورة أخرى ، فقد جعل بعض العلماء من بيوتهم مساكن لطلبة العلم القادمين من خارج العراق ، لعلمهم بعدم قدرة هؤلاء على تحمل أجرة السكن ، ويقول أبو عبد الله المرزباني عن إسهامه الشخصي في هذا الأمر : ((كان في داري خمسون ما بين لِحاف ودُوَّاجُ معدة لأهل العلم الذين يبيتون عندي)) (١) .

وكان أحمد بن أبي دُؤاد مؤالفاً لأهل الأدب . فقد ضم منهم جماعة يعولهم ، ويَمُونهم . فلما مات ، حضر ببابه بعضهم ، وقالوا : ((يدفن من كان ساقَةَ الكرم ، وتاريخ الأدب ، ولا يتكلم فيه ؟ ـ وكان ابن أبي دُؤاد ممن قالوا بخلق القرآن ـ إن هذا وهن ، وتقصير)) (٢) .

أما أبو بكر بن دُرَيْد ، عالم اللغة ، فله مساهمة في هذا الأمر من نوع آخر ، تمثل في وقفه لكتبه على أحد تلاميذه . فقد أوصى عند وفاته بكتبه لأبي بكر علي بن أحمد الدُّرَيْدي (٣) ، فصارت له (٤) .

وأما الإمام أحمد بن حنبل ، فعلى الرغم من فقره ، فله مع أصحابه مواقف برهن من خلالها على عِظم اهتمامه بأهل العلم ، وخصوصاً أصحاب الحديث . ومنها ، أن الإمام أحمد كان في معسكر المتوكل بسُرَّ مَنْ رأى ، وحضر إليه جماعة من أصحاب الحديث لينهلوا من معين علمه ، فاشترى لهم بما كان عنده من النفقة ، وأطعمهم ، وصبر على مقدار ربع سويق لمدة ثمانية عشر يوماً ، حتى أتته النفقه من أهله في بغداد (٥) .

---

(١) القفطي : إنباه الرواة ، (١٨١/٣). الدُّوَّاج اللحاف الذي يُلبس . الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، ص ٢٤٢ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٩٠/١) .

(٣) أبو بكر الدُّرَيْدي : أصله من فارس ، صحب ابن دريد حتى عرف به ، وكان ابن دريد يحبه ، ويوده . الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٨٥ .

(٤) القفطي : إنباه الرواة ، (٢٢٢/٢) .

(٥) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٢٦٥/١) .

وكان أبو إسحاق الزَّجَّاج النحوي يجري على أبي جعفر الترمذي [١] ، رأس الشافعية في وقته ، مع فقر في معاشه ، أربعة دراهم [٢] . وإن كان هذا الموقف لا يتطرق إلى موضوعنا هذا ، إلا أن فيه من الدلالات الشي الكثير لما كان يربط بين علماء العراق من أخوة في الدين ، فما بالنا برعايتهم لطلاب العلم .

إن رعاية العلماء لطلاب العلم لم تكن بغريبة على بيئة العلماء المسلمين ، والتي امتدت إلى أن بعض العلماء كان يتفقد أحوال أصحابه أيضاً ، فقد كان عالم الحديث أبو الحسن عبد الملك بن عبد الحميد الميموني الرَّقّي [٣] ، في شظف من العيش ، فكان الإمام أحمد بن حنبل يعنى بأحواله ، ويكرمه ، ويسأله باستمرار عن أخباره ، ومعاشه ، ويحثه على إصلاح معيشته [٤] .

٢ ـ المجالس العلمية :

كانت هناك مجالس علمية تجمع العلماء والأدباء ، غير التي يعقدها الخلفاء والأعيان [٥] . فالمجالس المقصودة هنا ، هي تلك المجالس التي كانت بمثابة المجامع العلمية ، فيها يتناقش أرباب العلوم ، كلاً في صناعته . فهذا مجلس أو مجمع لعلماء اللغة ، وآخر لأهل الحديث ، وثالث لأصحاب العلوم التطبيقية ، وغيرها من المجالس العلمية الصرفه .

---

(١) أبو جعفر الترمذي : هو محمد بن أحمد الترمذي . لم يكن للفقهاء الشافعية في وقته أرأس منه . سكن بغداد ، وحدث بها . وكان من التقلل في المطعم على حالةٍ عظيمة . وثقه الدار قطني . وكانت وفاته سنة (٢٩٥هـ/٩٠٧م) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١/٣٦٥ ـ ٣٦٦) .

(٢) الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ١٠٥ .

(٣) المصدر السابق ، (١/٢٥٠) .

(٤) أبو الحسن الميموني : أحد أصحاب أحمد ، الملازمين له . سمع الحديث عن جماعة ، وروي عنه . وكانت بينه وبين الإمام أحمد مودة وألفه . فكان الإمام أحمد يكرمه ، ويفعل معه ما لا يفعله مع أحد غيره . وعند الميموني عن الإمام أحمد مسائل كثيرة ، تقع في ستة عشر جزءاً ، جزءان منها لم يشاركه فيها أحد من أصحاب أحمد . وتوفي الميموني سنة (٢٧٤هـ/٨٨٧م) . العليمي : المنهج الأحمد ، (١/٢٤٩ ـ ٢٥٢) .

ولا نعني بالمجالس العلمية هنا ، مجالس التعليم والدَرْس والإملاء . فهذه لها مكان آخر [١] ، وإن كان في ظاهرها التشابه . ذلك أن الفرق الجوهري بينهما هو : أن المجالس العلمية كانت تجمع عدد من العلماء لمناقشة أصول العلوم ، وقواعدها وما يتعلق بذلك من القضايا . أما مجالس التعليم والتدريس ، فهي واضحة المقصد . وإن كان كلا المجلسين يشتركان في أماكن إنعقادهما : كالجوامع ، والمساجد ، ومنازل العلماء ، وغيرها .

ولم يكن لمجالس العلماء مكان معين ، أو زمان محدد ، بل كانت تعقد في أي مكان اجتمع فيه العلماء مع بعضهم البعض ، وفي أي وقت .

وتميزت المجالس في تلك الفترة بعمق المناقشة ، وقوة المواجهة . ولذلك اشترط العلماء لمن أراد المشاركة في هذه المجالس مجموعة من الصفات ينبغي للمشارك أن يتصف بها ، ويكتسبها ، حتى يكون له وزن في تلك المجالس ، ويخرج نفسه من المآزق التي يمكن أن يوقعه فيها أحد الحاضرين ، رغبة في امتحانه ، أو إحراجه أمام الحاضرين ، ولقد شغلت هذه المواصفات بعض علماء العراق ، حتى جعلوها محاور بعض مصنفاتهم ، ومن هؤلاء ، ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) ، الذي وضع كتابه الموسوم بـ « المعارف » ، رغبةً منه في أن يكون ذخيرةً لمن أراد حضور هذه المجالس ، ويكون على المستوى المطلوب أمام الحاضرين ، ولذا يشير ابن قتيبة إلى مجموعة من الأمور التي يجب أن يأخذ بها قارىء كتابه قبل الدخول في غمار مجالس العلماء ، ويقول : ((هذا كتاب جمعت فيه من المعارف ما يحق على من أنعم عليه بشرف المنزلة ، وأخرج بالتأدب عن طبقة الحشوة ، وفُضِّل بالعلم ، والبيان على العامة أن يأخذ نفسه بتعليمه ، ويروضها على تحفظه ، إذا كان لا يستغني عنه في مجالس الملوك إن جالسهم ، ومحافل الأشراف إن عاشرهم ، وحلق أهل العلم إن ذاكرهم . فإنه قل مجلس عقد على خير ، أو أسس لرشد ، أو سلك فيه سبيل المروءة ، إلا وقد يجري فيه سبب من أسباب المعارف)) [٢] .

(٥) المصدر السابق ، (١/٢٥٠) .

---

(١) انظر مبحث : التربية والتعليم في هذا الفصل .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٣ .

ونستشف من آخر كلام ابن قتيبة ، أن من أراد حضور مجالس العلماء أن يكون على قدر وافٍ من التمكن الثقافي حتى يستطيع أن يضع له قدم في هذه المجالس ، التي لا تخلوا من الإحراج ، والمباغته في السؤال والجواب ، وكل ما من شأنه أن ينتصر به العالم على خصمه ، كما يرى ابن قتيبة في كلامه السابق .

ولكن ينبغي الإشارة إلى أمر مهم ، وهو أن الثقافة العامة مهما كانت جيدة عند من يريد حضور مجالس العلماء فإنها لا تكفي لكي يناظر أصحاب العلوم ، حتى ولو كانت النتيجة لصالحه ، لأن ذلك لا يعني أنه أفضل من خصمه في علمه .

ولقد أحسَّ إسحاق بن إبراهيم الموصلي (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م) ، وكان مليح المحاورة والنادرة ، بهذا الشعور في مجلس القاضي يحيى بن أكثم ، عندما ناظر أهل الكلام ، وأهل الفقه ، والشعر ، واللغة ، كلاً على حده ، ففاقهم جميعاً ، كما يذكر رواة الخبر ، فأقبل إسحاق على القاضي ابن أكثم فقال له : ((أعزَّ الله تعالى القاضي ، أفي شيء مما ناظرت فيه ، وحكيته نقص ، أو مطعن ؟ ، قال : لا . قال إسحاق : فما بالي أقوم بسائر العلوم قيام أهلها ، وأنسب إلى فن واحد ـ يقصد الغناء والموسيقى ـ قد اقتصر الناس عليه . فرد عليه محمد بن عطية الشاعر قائلاً : يا أبا محمد ، أنت كالفرّاء والأخْفَش [١] في النحو ؟ ،

---

(١) الفرَّاء : هو أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي الفرَّاء . وكان أبرع الكوفيين في اللغة والنحو ، ورأس الطبقة الثالثة منهم . وحمل الفرَّاء العربية على الألفاظ والمعاني معاً ، فبرع ، واستحق التقدمة . وله كتب عدة ، منها : كتاب « حدود الإعراب في أصول العربية » ، كتاب « المذكر والمؤنث » ، كتاب « المقصور والممدود » ، كتاب « معاني القرآن » ، وغيرها . وكانت وفاته سنة (٢٠٧هـ/٨٢٢م) . الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٣١ ـ ١٣٣ . البغدادي : هدية العارفين ، (٢/٥١٤) .

والأخفش : هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة . أحد مشاهير نحاة البصرة ، وأحذق أصحاب سيبويه ، وهو أسن منه فيما يروي ، ولقى من لقيه سيبويه من العلماء . والطريق إلى كتاب سيبويه الأخفش . وقال عنه أبو العباس ثعلب ، الكوفي المذهب : ((كان أوسع الناس علماً)) . وللأخفش كتب كثيرة في النحو ، والعروض ، والقوافي ، منها : كتاب « الإشتقاق » ، كتاب « تفسير معاني القرآن » ، كتاب « العروض » ، كتاب « القوافي » ، كتاب « الأصوات » ، وغيرها . وتوفي الأخفش سنة (٢١٥هـ/٨٣٠م) . السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ص ٦٦ ـ ٦٧ . النديم : الفهرست ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .

فقال : لا . ثم قال : وأنت في اللغة كأبي عُبيدة [١] ، والأصمعي ؟ ، قال : لا . قال له : فأنت في الأنساب كالكَلْبي [٢] ؟ ، قال : لا . فقال : فأنت في الكلام كأبي الهُذَيل ، والنَّظَّام [٣]؟ ، قال : لا . فقال محمد : فمن هاهنا نُسبت إلى ما نُسبت إليه . لأنه لا نظير لك فيه ، ولا شبيه ، وأنت في غيره دون أوفى أهله ، فضحك ، وقام منصرفاً من المجلس)) [٤] .

ولكن هذا الأمر لم يمنع العلماء من حضور مجالس علوم غير علومهم ، فالأمر ليس بهذه الدرجة من التعقيد ، إذ أن العلماء تميزوا ، خلال هذه الفترة ، بالموسوعية ، فتجد عالم اللغة متبحراً في رواية الحديث ، والعكس كذلك ، وتجد مؤرخاً له إسهام واضح في العلوم الطبيعية ، وهكذا .

---

(١) أبو عبيدة : هو أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى التيمي البصري . قدم إلى بغداد في زمن الرشيد . أحد أعلام اللغة في زمانه المشار إليهم ، عالماً بالأنساب ، والأيام . وأبو عبيدة أول من صنف غريب الحديث . غير أن مسحة شعوبية كانت غالبة عليه ، وكان يرى رأي الخوارج الإباضية . وترك أبو عبيدة العديد من المصنفات ، منها : كتاب « المجاز في غريب القرآن » ، كتاب « الأمثال في غريب الحديث » ، كتاب « معاني القرآن » ، كتاب « ما تلحن فيه العامة » . السيوطي : بغية الوعاة ، (٢/٢٩٤ ـ ٢٩٦) .

(٢) الكلبي : هو أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي . عالماً بالأخبار ، والأنساب . وكان حافظاً ، علاّمة ، إلا أنه متروك الحديث . ومصنفاته تزيد على مائة وخمسين كتابا ، منها : كتاب « الأصنام » ، كتاب « الجمهرة في النسب » ، كتاب « أنساب الخيل » ، وغيرها. وكانت وفاته سنة (٢٠٤هـ/٨١٩م) . الكلبي : كتاب الأصنام ، ص ١٢ ـ ٢٤ ، (مقدمة المحقق) . الذهبي : العبر ، (١/٢٧١) .

(٣) أبو الهذيل : هو محمد بن الهذيل العبدي المعروف بالعلاّف ، أحد رؤساء المعتزلة المتقدمين . سكن البصرة ، واشتهر بعلم الكلام ، له مقالات في الاعتزال ، ومجالس ، ومناظرات . كُفَّ بصره في آخر عمره . له مصنفات عدة . وقد توفي بسرٍّ مَنْ رأى سنة (٢٣٥هـ/٨٥٠م) . ابن المرتضى : طبقات المعتزلة ، ص ٤٤ ـ ٤٩ .

والنظام : هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام . من كبار المعتزلة ، ورأسها في وقته . من أهل البصرة . وكان يصحب العلاّف ، السابق ذكره ، وله معه مناظرات . تبحر في علوم الفلسفة . وانفرد بآراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت « النَّظّامية » نسبة إليه. وقد أُلفت كتب خاصة للرد عليه ، وفيها تكفير له ، وتضليل ، واتهم بالزندقة . وله كتباً عدة . وكانت وفاته عام (٢٣١هـ/٨٤٥م). ابن المرتضى : طبقات المعتزلة ، ص ٤٩ ـ ٥٢ . ابن حجر : لسان الميزان ، (١/٦٧) الزركلي : الأعلام ، (١/٤٣) .

(٤) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٣٣ ـ ١٣٤ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١/٢٠٢ ـ ٢٠٤) .

ولذا ، نجد أبو إسحاق الحربي ، الفقيه والمحدِّث ، ممن كان يغشى مجالس اللغة ، والنحو ، حتى قال عنه ثعلب : ((ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس نحوٍ ، أو لغة خمسين سنة)) [١] .

لقد كان للمجالس العلمية أهميتها العظيمة في نفوس العلماء ، فهم يعتبرونها بمثابة المحك الحقيقي للتأكد من قدراتهم العلمية ، وهذا ما نلمسه مما حدث بين أبي عثمان المازني ، وعبد الصمد بن المعذل ، ذلك أن عبد الصمد هجا المازني بأبيات قال فيها :

فاطوِ حديثي دونه أن يبلغه ... هممت أعلو رأسها فأدمغه

فبلغ المازني هذه الأبيات ، فقال : ((قولوا له الجاهل : بم نصبت فأدمغه ؟ . لو لزمت مجالسة أهل العلم كان أعْود عليك)) [٢] .

وكان للكثير من العلماء مجالس علم خاصة بهم ، عرفت بأسمائهم ، واشتهرت بأصحابها ، يتم فيها تناول مختلف القضايا العلمية ، الخاصة منها والعامة ، عن طريق المناظرة ، والحوار ، والنقاش بين الحاضرين .

فكان ليحيى بن علي المنجم مجلس عامر يحضره جماعة من المتكلمين [٣] . كما كان ليزيد بن محمد المُهَلّبي مجلس أدب مشهور بسُرَّ مَنْ رأى [٤] . وهناك مجلس المحدِّث أبو جعفر محمد بن منصور الطوسي (ت ٢٥٤هـ/٨٦٨م) [٥] ، وكان يضم أصحاب الحديث ، وجماعة من الزُّهاد ، يوم الخميس من كل أسبوع [٦] .

---

(١) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٨٩/١) .

(٢) السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ص ٩٣ ـ ٩٥ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٩٨/٦) .

(٤) الصولي : أشعار أولاد الخلفاء ، ص ٣٣٠ .

(٥) أبو جعفر الطوسي : أحد علماء الحديث الثقات ، الذين سمعوا الحديث ، وروي عنهم . وسئل عنه الإمام أحمد ، فقال : « لا أعلم عنه إلا خيرا ، صاحب صلاة » . وكانت وفاته ببغداد . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٤٧/٣ ـ ٢٥٠) .

(٦) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٣١٨/١ ـ ٣٢٠) .

أيضاً كانت هناك مجالس علمية تضم أصحاب اختصاصات متنوعة من العلوم . فقد كان لأبي العباس ثعلب ، إمام الكوفيين في اللغة والنحو ، مجلس علم يضم المبرِّزين من علماء العربية ، منهم : محد بن يحيى الصولي ، ومحمد بن داود الظاهري [١] ، وأبو الحسن الأخفش الصغير ، وأبو الحسن محمد بن كَيْسان النحوي ، وأبو عبد الله نَفْطَويَه [٢] ، وأبو الحسن إدريس بن عبد الكريم الحدّاد المقريء ، وكان ثعلب يكرمه [٣] .

كما كان لمنافسه أبا العباس المبرد مجلس علم عامر بأبرز العلماء ، والأدباء [٤] . وكان المبرد يختم مجالسه بأن يملي على الحاضرين طرف الأخبار ، وملح الأشعار [٥] ، رغبةً منه في طرد الملل عن نفوس الحاضرين .

ويبقى مجلس يوحنا بن مَاسَويه الطبيب ، أكثر حيويةً وإمتاعاً ، لأنه جمع أرباب علوم مختلفة ، ويصف هذا المجلس أحد معاصريه ، ويُدعى يوسف بن إبراهيم ، بقوله : ((كان مجلس يوحنا بن ماسويه أعمر مجلس كنت أراه بمدينة السلام لمتطبب ، أو متكلم ، أو متفلسف ، لأنه يجتمع فيه كل صنف من أصناف أهل الأدب)) [٦] .

ولم تكن منازل العلماء المكان الوحيد لعقد المجالس العلمية ، بل كانت الجوامع والمساجد من الأماكن المهمة التي عقدت فيها مجالس العلم ، والنظر [٧] . ومن ذلك ، كان

---

(١) القفطي : المحمدون من الشعراء ، ص ٣١٤ .

(٢) الزجاجي : الأمالي ، ص ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٩ . ويورد فيه المصنف كثيراً من مجالس ثعلب ، وما كان يجري فيها .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٤/٧) . وأبو الحسن الحداد : أحد القراء الثقات ببغداد . صحب كبار علماء الحديث ، والقراءات . وعندما سئل الدار قطني عنه ، قال : « ثقة ، وفوق الثقة بدرجة » . وكانت وفاته سنة (٢٩٢هـ/٩٠٥م) . المصدر نفسه ، (١٤/٧ ـ ١٥) .

(٤) انظر : الزجاجي : الأمالي ، ص ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١٢ ، وغيرها .

(٥) ابن حجة الحموي : ثمرات الأوراق ، ص ٩٣ . وللتوسع ، انظر : الزجاجي : مجالس العلماء ، ص ٩٢ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣٣٢/٤) .

(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٤٧ .

(٧) عن دور المسجد بصورة أكثر وضوحاً ، انظر موضوع : أماكن التعليم في مبحث : التربية والتعليم .

القاضي إسماعيل بن إسحاق الأزدي يحضر عقب صلاة الجمعة مجلس أبي الحسن بن كَيْسان النحوي في جامع المنصور ، ويتبادل الحديث معه في مختلف المواضيع العلمية [١] .

وساهمت الأسواق بدور كبير في هذا الموضوع ، فقد كان سوق الوراقين منتدى العلماء ، ومَجْمَع الظرفاء [٢] . ويبرز في هذا الجانب ، سوق المِرْبَد [٣] ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ، ومجالس الخطباء ، وينسب إليه جماعة من الرواة [٤] . وعندما يذكر المِرْبَد تقفز إلى الأذهان عبارة جعفر بن سليمان المشهورة : ((العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمِرْبَد عين البصرة ، وداري عين المِرْبَد)) [٥] .

وكان المِرْبَد يعمل عمله في بناء الحضارة الإسلامية ، ويؤدي دوره في توجيه الأمزجة ، وتكوين العقول ، وتفتيق الأذهان منذ أن مُصِّرت البصرة بعد الفتوحات الإسلامية ، ومروراً بالعصر الأموي ، وزاد دوره في العصر العباسي ، الذي نضجت فيه الحركة العلمية ، والأدبية نضجاً ينسجم مع ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من ازدهار في مرافقها المختلفة . فخرج من المِرْبَد العديد من النحاة ، والأدباء ، ورواة الشعر البارزين [٦] . وأصبح معها المِرْبَد من الأماكن التي ينبغي ارتيادها لمن أراد أن يتعلم العربية ، وذلك عن طريق اللقاء بالفصحاء الأعراب ، وأَخْذ اللغة مشافهة عنهم . فقد ذكر ياقوت الحموي : أن الجاحظ أخذ اللغة من العرب شفاهاً بالمِرْبَد [٧] .

---

(١) القفطي : إنباه الرواة ، (٥٨/٣) .

(٢) انظر مبحث : الوراقة والوراقون .

(٣) سوق المِرْبَد : المربد ، كل موضع حُبست فيه الإبل ، وهو أحد أشهر محلات البصرة ، ويقع في الجهة الغربية منها . وكان قديماً سوقاً للإبل ، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس . وكان يجتمع فيها العرب من الأقطار ، ويتناشدون الأشعار ، ويبيعون ، ويشترون . ياقوت الحموي : المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣ .

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٩٧/٥ ـ ٩٨) .

(٥) الجاحظ : الرسائل ، (١٣٩/٤/٢) . ابن قتيبة : عيون الأخبار ، (٢٢٢/١/١) .

(٦) أحمد كمال : الحياة الأدبية في البصرة ، ص ٤٨ .

(٧) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٧٥/١٦) .

وكان المِرْبَد ساحة أدبية للإنشاء ، والخطابة ، والرَّجْز . يشارك فيها كل من أراد ، بشرط أن يكون قوياً بقوة رجالات المِرْبَد أمام جمهور الحاضرين من عامة الناس . فكان المِرْبَد بمثابة المنتدى الأدبي ، بل هو كذلك فعلاً .

وأمام هذا الزخم الكبير من النشاط الأدبي الذي يشهده المِرْبَد ، كان كثير من أصحاب المهن فيه قد تأثروا بهذا الأمر ، بحكم إقامتهم فيه ، الأمر الذي أغراهم بأن يشاركوا في الحركة الشعرية المنتعشة ، بل وأصبح بعضهم من أبرز شعراء المِرْبَد ، ومن هؤلاء : أبو القاسم نصر بن أحمد الحميدي المعروف بالخُبْزَأُرْزي (ت ٣٢٧هـ/٩٣٨م) ، وكان يخبز الأُرْز في دكانه بالمِرْبَد ، وهو ينشد أشعاره في الغزل ، والناس مزدحمون عليه ، يستمتعون بشعره ، ويتعجبون من حاله ، وأمره [١] .

كما كان أبو القاسم محط إعجاب أقرانه من كبار الشعراء ، كأبي الحسين محمد بن محمد البصري المعروف بابن لَنْكَكْ [٢] ، وكان ، مع علو قدره ، ينتاب دكان أبي القاسم ، ليسمع شعره ، واعتنى به ، وجمع له ديواناً . وكانت بينهما مكاتبات شعرية [٣] . ومع الأيام أصبح أبو القاسم من شعراء المِرْبَد ، والبصرة البارزين [٤] . وتحتفظ كتب التراث بنماذج من شعره [٥] .

---

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ، (٢/٤٢٨) .

(٢) ابن لَنْكَكْ : أديب ، شاعر مشهور ، من أهل البصرة . وكان معاصراً للمتنبي ، وأبي رياش اليمامي ، الشاعرين ، فكسدت بضاعته مع نفاق سوقهما ، فولع بثلبهما ، وذمهما . فكان أكثر شعره في شكوى الزمان ، وأهله ، وهجاء شعراء عصره . ولابن لنكك « ديوان شعر » ، إطلع عليه الثعالبي . وكانت وفاته نحو (٣٦٠هـ/٩٧٠م) . ولَنْكَكْ : لفظ أعجمي معناه في العربية : أُعيرج ، تصغير أعرج ، لأن كلمة « لنك » معناها : أعرج ، وعادة العجم إذا صغروا اسماً ألحقوا في آخره كافا . الثعالبي : يتيمة الدهر ، (٢/٤٠٧ ـ ٤٢٠) . الزركلي : الأعلام ، (٧/٢٠) .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٥/٣٧٦) .

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٥/٩٨) .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٣/٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩) . الثعالبي : يتيمة الدهر ، (٢/٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢) . ابن عبد البر : بهجة المجالس ، (١/٨٦) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٥/٣٧٦ ـ ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠) .

٣ ـ مناظرات العلماء ومحاوراتهم :

لقد تأثر جملة من علماء العراق وأدبائه ، خلال تلك الفترة ، بنزعة الجدل ، التي ظهرت في وقت مبكر عنها ، مما أدى إلى تفشي هذه النزعة في كثير من العلوم والمعارف ، عند مناقشة أصولها وفروعها بين أصحابها .

فظهرت هذه النزعة بين علماء الشريعة في مناقشاتهم الفكرية ، وخاصة بين أتباع المذاهب الأربعة بوجه عام ، فقد كانوا في مقدمة من تعرض لتيار الجدل ، على اعتبار أنه بدء في العلوم الشرعية أولاً في العصر العباسي الأول ، وما صاحب ذلك من أحداث كانت علامةً بارزةً في عهد المأمون ، ومن بعده المعتصم ، فالواثق ، إذ كانوا من أكبر المؤيدين ، والمشجعين لهذا النهج في مناقشة أمور العقيدة ، والشريعة .

ولقد تأثر بهذا النهج أيضاً ، علماء النحو ، ذلك أن النحو واللغة نشئا في ظل الدين ، ووضعا خدمة للقرآن والسنة . فمن النحاة من كان فقيهاً ، ومنهم من كان محدثاً ، ومنهم من كان منطقياً .

ومما شجع على ظهور هذه النزعة عند علماء اللغة والنحو خصوصاً ، وجود مدرستي : الكوفة ، والبصرة في اللغة والنحو . ثم جاءت مدرسة بغداد بعد ذلك (١) ، كإفراز ونتيجة لما كان بين أصحاب هاتين المدرستين من جدال ، ومناظرة حول مسائل النحو ، سواء في الأصول أو الفروع . وإن كان تأثر نحاة البصرة بنزعة الجدل ، وحب المناظرة ظهر مبكراً عن مدرسة الكوفة ، والسبب واضح ، وهو أن البصرة كانت مصدر هذا المنهج الجدلي في الحوار ، بوجود أصحابه ، ألا وهم : المعتزلة .

فكان الحوار بين أتباع مدرسة البصرة أنفسهم هادئاً ، لعدم وجود منافس لهم ، وإنما كان الهدف منه ، المزيد من الإثراء لعلم النحو ، من خلال مناقشة كافة الموضوعات والمحاور . وعندما نشأت مدرسة الكوفة النحوية ، دخل الحوار بين العلماء مرحلة جديدة ، اتسمت بالشدة ، والمنافسة بينهم ، لتوفر دواعي ذلك الأمر . فكثرت المناظرات بين أتباع

---

(١) سوف نتعرف عن هذا الموضوع في مبحثي : علم اللغة ، وعلم النحو والصرف .

المدرستين ، كلاً يريد الانتصار لمدرسته ، وتعددت ميادين الحوار بينهم ، فكلما اجتمع أنصار المدرستين في مكان نشبت بينهم المناقشات الحادة في كثير من الأحيان . ويقول ابن دريد : ((رأيت رجلاً من الورّاقين [١] بالبصرة يقرأ كتاب « إصلاح المنطق » لابن السِّكِّيت ، ويقدِّم الكوفيين ، فقلت للرِّياشي [٢] ـ وكان قاعداً في سوق الوراقين ـ بما قال ، فقال الرياشي : إنما أخذنا اللغة من حَرَشَةُ الضِّباب [٣] ، وأكَلَةُ اليَرابيع [٤] ، وهؤلاء أخذوا اللغة من أهل السواد ، أَكَلَةُ الكَواميخ ، والشَّوَاريز)) [٥] . يقصد الرِّياشي : أنهم أخذوا اللغة من أصحابها الأعراب الأصليين .

وبعد نشأت مدرسة بغداد ، هدأت الثائرة بين الفريقين ، نتيجة لاندماج المدرستين في مدرسةٍ واحدةٍ على يد علماء مدرسة بغداد ، الذين أخذوا من مدرستي : البصرة ، والكوفة ، ووازنوا بين المذهبين ، فأخذوا الجيِّد من كل مدرسة ، فانتفت دواعي النزاع بين اتباعها .

وكان أسلوب المناظرة هو المحبب عند الكثير من العلماء ، كوسيلة مهمة من وسائل الإقناع بوجهة نظرهم ، والدفاع عنها ، وبالتالي الحكم عليها . وفي هذا الصدد يقول الزَّجَّاجي : ((ومن سمت به نفسه إلى تتبع ما أودعناه إياه وسميناه فيه ـ يعني كتابه الإيضاح ـ وفحصه ، والكشف عن حقائقه ، فحقيق عليه إن مر به ما ينكره ، أن يراجع فكره ، ويثير قريحته ، ويحرك خاطره ، ليقف على ما لعله قد انستر عنه ، ولا يحكم من أول

---

(١) الورّاقين : جمع ورَّاق ، وهو الذي يشتغل بنسخ الكتب . وسيرد إيضاحه في مبحث : الوراقة والوراقون .

(٢) كان الرياشي بصري المذهب في اللغة والنحو .

(٣) حرشة الضباب : « كناية عن الجمع ، ومفردها حرش الضب : أي صيده ، وهو أن يحك الجحر الذي هو فيه ، يتحرش به ، فإذا أحسه الضب حسبه ثعباناً ، فأخرج إليه ذنبه فيصاد حينئذ » . ابن منظور : لسان العرب ، (٦/٢٨٠) .

(٤) اليرابيع : جمع يربوع ، وهو دويبة صحراوية من طائفة الفئران فوق الجرذ ، والأعراب تأكله . الجاحظ : الحيوان (٥/٣٠١) ، (٦/٣٨٦) .

(٥) السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ص ٩٩ . والكواميخ : جمع كامخ ، وهو ما يؤتدم به ، وهو معرّب . الجواليقي : المعّرب ، ص ٢٩٨ . والشواريز : جمع شيراز ، وهو اللبن الرائب ، المستخرج ماؤه . الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، ص ٦٦٠ .

وهلة بخـروج عن الحق ، فـإن هو فـعل ذلك ، وتدبره ؛ ولـم يره ينقـاد في طريقـة القـيـاس مـسـتـمـراً ، أو رأى أنه لاحق إلا في غـيـره ، كـانت حلبة المناظرة ـ باجـتـمـاع ذوي الفـهـم ، والنظر ، والفحص ، والجدال معنا فيها ـ فاصلة بيننا وبينه ، حتى نصير معاً بحق النظر إلى الصواب فنعتقده جميعاً . لأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل)) [١] .

لقد تمكن حب المناظرة والمحاورة من نفوس العلماء في ذلك الوقت ، وهو أمر نابع من حبهم للمعرفة ، والوصول إلى الحقيقة ، والاستمتاع بنتيجة ذلك . ولم يقيدهم عن إشباع هذا النهم مكان أو زمان ، فكلما كانت ظروف المناظرة ، والمناقشة مواتيةً عقدت .

ويذكر أبو طالب مـحـمــد بن أحـمـد بن البـهلول الأنبـاري [٢] : أن والده القـاضـي أحمد [٣] تذاكر مع أبي جعفر الطبري [٤] النحوي ، وهما في جنازة رجل من أهل بغداد . فأخذ القاضي أحمد يعظ صاحب المصيبة ، ويُسلِّيه ، وينشده أشعاراً ، ويروي له أخباراً ، فداخله الطبري في ذلك . قال أبو طالب : ((ثم اتسع الأمر بينهما في المذاكرة ، وخرجا إلى فنون كثـيـرة مـن الأدب والعلـم ، استحسنها الحاضرون ، وأُعجبوا بها ، وتعالى النهار وافترقنا [٥] .

---

(١) الزجاجي : الإيضاح في علل النحو ، ص ٣٩ . وسيرد الحديث عن الزجاجي في مبحث : علم النحو والصرف .

(٢) لم يعثر له على ترجمته .

(٣) أحمد بن البهلول : هو أبو جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي الأنباري . تولى قضاء مدينة المنصور عشرين سنة للخليفة المقتدر ، وأكثر من رواية الحديث ، وكان حنفي المذهب . غلب عليه الأدب ، على الرغم من حسن معرفته باللغة والنحو على مذهب الكوفيين ، واسع الحفظ للأخبار ، والسير ، والتفسير . وكان ثقة فيما يرويه . توفي ببغداد سنة (٣١٨هـ/٩٣٠م) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٤/٣٠ ـ ٣٤) .

(٤) أبو جعفر الطبري : هو أحمد بن محمد الطبري ، أحد نحاة بغداد ، ومن روى الحديث . كان في خلافة المقتدر . وله مصنفات في اللغة ، والنحو ، منها : كتاب « غريب القرآن » ، وكتاب « التصريف » ، وكتاب « المذكر والمؤنث » ، وكتاب « النحو » ، وكتاب « المقصور والممدود » ، وغيرها . وكانت وفاته نحو (٣٠٤هـ/٩١٦م) . البغدادي : هدية العارفين ، (١/٥٦) .

(٥) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

وإذا كانت مناظرات بعض العلماء هادئةً ، في كثير من الأحيان ، وإن كانوا لا ينتمون إلى إتجاه واحد ، أو مدرسة واحدة ، على غرار ما كان يتم بين المبرد ، ومحمد بن كيسان [١] ، وكذلك بين المبرد ، والمازني [٢] . والأمر نفسه في مجالس المناظرة التي تجمع بين ثعلب ، والرِّياشي [٣] ، وكذلك بين ثعلب ، والمازني [٤] .

فإنه في المقابل ، لم يكن الهدوء سمة مجالس المناظرة على الدوام ، وخاصة عندما تجمع بين كبار العلماء الرؤساء ، كالمبرد ، وثعلب . وذلك بسبب التنافس بين مدرستي البصرة ، والكوفة ، باعتبارهما زعماء هاتين المدرستين في وقتهما .

وكان بين المبرد وثعلب من المناظرة ما لا خفاء به [٥] . بل ووصلا في ذلك إلى أنهما كانا ((إذا تلاقيا على ظهر الطريق تساءلا ، وتواقفا)) [٦] .

ويتفق المؤرخون ، وأصحاب كتب الطبقات والتراجم على أن ثعلب لم يكن يحبذ المناظرة مع المبرد ، الذي كان شغوفاً بها . ويعلل أبو عبد الله الدينوري ، خَتَنُ ثعلب ، هذا الأمر ، بأن المبرد ((كان حسن العبارة ، حلو الإشارة ، فصيح اللسان ، ظاهر البيان . أما ثعلب فقد كان مذهبه مذهب المعلمين . فإذا اجتمعا في محفل حكم للمبرد على الظاهر إلى أن يعرف الباطن)) [٧] .

ونستنتج من ذلك ، أن سعة العلم لا تكفي لكي يكون الشخص مؤهلاً للمناظرة ، بل هناك أدوات للمناظرة ينبغي أن يتسلح بها قبل الدخول في غمارها ، كقوة البيان ،

---

(١) الزجاجي : مجالس العلماء ، ص ١٠٤ ـ ١٠٦ ، ١٦٧ ـ ١٧٢ .

(٢) المصدر السابق . ص ١١٢ ـ ١١٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٥) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٦٩ .

(٦) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٤٣ . وأورد الزجاجي في كتابه « مجالس العلماء » (٦مجالس) جمعت ثعلب بالمبرد . انظر المجالس رقم : ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٥٦ .

(٧) المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٢٨٥) .

وفصاحة اللسان ، وحسن العبارة ، وبعد النظر في ظواهر الشواهد ، وسبْر غور الكلام . فامتلاك المبرد لهذه الأدوات ، جعلته يفوق ثعلب في المناظرة .

ولم يكن يشترط لعقد مناظرة بين العلماء أن تكون حول موضوع معين ، أو مسألة علمية معينة ، فقد يكون محور المناظرة كتاب ، يتناظر فيه الأطراف ، ويدور حوله النقاش ، والمحاورة على نحو ما حدث بين الرِّياشي ، والمازني عندما تناظرا في كتاب سيبويه « الكتاب » حتى أتيا على آخره [١] .

وفي بعض الأحيان يتأثر عامة الناس بما يدور بين الأدباء من سجالات شعرية ، وتصبح محور أحاديثهم . ففي إحدى المرات كان علي بن الجهم الشاعر يناضل أبا السمط مروان بن أبي حفصة الأصغر الشاعر ، ويهاجيه أمام جمع من الناس ، فخاض الحضور في أمرهما ، فمنهم من قال : علي أشعر ، والأكثرية منهم قالوا : مروان أشعر [٢] . ولا شك أن هناك علماء كانوا يملكون أدوات المناظرة ، ويستخدمونها بنجاح ، وهذا يؤدي بالطبع إلى قوة المناظرة ، وإثراء للساحة العلمية ، والأدبية بالمفيد .

وكان أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني ، وأبو العباس بن سُرَيْج إذا حضرا مجلس القاضي أبي عمر الأزدي [٣] ((لم يجر بين إثنين فيما يتفاوضانه أحسن مما يجري بينهما)) [٤] .

---

(١) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٩٩ .

(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣ . وفيه تفاصيل تلك المناظرة .

(٣) أبو عمر القاضي : هو محمد بن يوسف الأزدي . أحد علماء الحديث . تولى قضاء مدينة المنصور ، ثم نقل إلى قضاء الجانب الشرقي لبغداد (الكَرْخ) . وفي عام (٣١٧هـ/٩٢٩م) أضيف إليه قضاء الشام ، والحرمين وصنف « مسنداً » كبيراً ، قرأ أكثره على الناس . وكانوا يضربون المثل بعقله ، وحلمه . وكانت وفاته ببغداد سنة (٣٢٠هـ/٩٣٢م) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣/٤٠١ ـ ٤٠٥) .

(٤) القفطي : المحمدون من الشعراء ، ص ٣١٦ .

وفي بعض الأحيان كان التنافس بين العلماء يؤدي إلى نشوب نزاع بين تلاميذهم ، وربما تصعّد الأمر إلى درجة تتطلب تدخل الوزير في فضِّ هذا النزاع فقد روى عالم الحديث ابن صاعد ببغداد حديثاً أخطأ في إسناده ، فأنكر عليه ابن عُقْدة [١] الحافظ ، فخرج عليه أصحاب بن صاعد ، ورفعوا الأمر إلى الوزير علي بن عيسى بن الجرّاح ، وحبس ابن عُقْدة ، فقال الوزير : من نسأل ؟ ، قالوا : ابن أبي حاتم الرازي [٢] . فكتب الوزير إليه يسأله عن ذلك ، فنظر الرازي ، وتأمل ، فإذا الحديث على ما قال ابن عُقْدة ، فكتب إليه بذلك ، فأطلق ابن عُقْدة ، وارتفع شأنه [٣] .

وحدث الأمر نفسه عندما تهاج أبو بكر بن دُرَيْد وأبو العلاء الباهلي [٤] بالبصرة ، فتفاقم الأمر بينهما ، وتنافرا إلى أبي خليفة

---

(١) ابن عُقْدة : هو أبو العباس أحمد بن محمد الكوفي المعروف بابن عقدة . أحد حفاظ الحديث المشاهير ، متهم بالتشيع . كان يقول : « أحفظ مائة ألف حديث بأسانيدها ، وأذاكر بثلاث مائة ألف » . وله خزانة كتب ضخمة ، سيرد الحديث عنها في مبحث : خزائن الكتب . ولابن عقدة مصنفات في الحديث ، والتراجم ، منها : كتاب « التاريخ وذكر من روى الحديث » ، وكتاب « أخبار أبي حنيفة ومسنده » ، وكتاب « الآداب » ، وكتاب « صلح الحسن ومعاوية » ، وكتاب « تفسير القرآن » . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٤/٥ _ ٢٣) . السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٣٥٠ .

(٢) ابن أبي حاتم : هو أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس التميمي الحنظلي الرازي . حافظ الري ، وابن حافظها . وأحد أئمة التفسير ، أخذ عن أبيه ، وخلائق بالحجاز ، والشام ، والعراق ، والجبال ، والجزيرة ، ومصر . وروى عنه خلائق أيضاً . وكان بحراً في العلوم ، ومعرفة الرجال ، واختلاف الصحابة والتابعين ، وعلماء الأمصار . وترك خلفه مصنفات منها : كتاب « التفسير المسند » ، وكتاب « الجرح والتعديل » ، وكتاب « الرد على الجهمية » ، وكتاب « الزهد » ، وكتاب « الكنى » ، وغير ذلك . الأسنوي : طبقات الشافعية ، (٢٠٠/١) . الداودي : طبقات المفسرين ، (٢٨٥/١ _ ٢٨٧) .

(٣) ابن الصلاح : طبقات الفقهاء الشافعية ، (٥٣٤/١) .

(٤) أبو العلاء الباهلي : هو أبو العلاء محمد بن أبي زرعة . أحد نحاة البصرة ، من أصحاب أبو عثمان المازني البارعين . وكان أبو علي الفارسي النحوي يعتبره أحذق من المبرد ، ولكنه توفي مبكراً ، حيث قتل يوم دخول صاحب الزنج البصرة سنة (٢٥٧هـ/٨٧٠م) . وصنف أبو العلاء نكتا على كتاب سيبويه . الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١١٠ . السيوطي : بغية الوعاة ، (١٠٤/١) .

الجمحي [١] ، عالم الحديث وقاضي البصرة ، وكان وافر العلم بالشعر واللغة ، فاجتمع لذلك وجوه أهل البصرة . ثم أنشد كل واحد منهما ما عنده . فحكم لابن دُرَيْد [٢] .

لقد كان الدافع إلى هذه المناظرات ، والحوارات بين العلماء هو الرغبة في الوصول إلى معرفة الصواب ، وحباً للعلم ، والعمل على إعمال العقول ، وتلقيحها بما هو مفيد لها . فقد كانت هذه المساجلات العلمية شريفة في مقصدها ، وإن اختلف أطرافها ، وما كان يجري بين المتناظرين ؛ لا يعدو أن يكون خلافاً فكرياً لا يفسد للود قضية ، سلِمَت معه الصدور مما يورث العداوة ، والبغضاء بين المتناظرين . وحسبنا من ذلك قول المبرد في حق منافسة ثعلب بعد وفاته . فقال : ((أعلم الكوفيين ثعلب ، فذكر له الفرّاء ، فقال : لا يعشره)) [٣] . على الرغم من قيام ثعلب بإرسال تلاميذه : الزّجّاج ، وهارون بن الحَائِكْ [٤] إلى حلقة المبرد بالمسجد الجامع ، وقال لهما : فُضَّا حلقة هذا الرجل . وذلك بمفاتشته في مسائل تشغل المبرد عن تلاميذه ، فتنفضُّ الحلقة [٥] .

وفي المقابل كان ثعلب ينتهز فرصة قدوم الرِّياشي إلى بغداد ، ويأتيه ليكتب عنه [٦] . وكان يحضر مجلس ثعلب حذاق البصريين والكوفيين معاً [٧] . فالعلم شيء ، والاجتهاد في الرأي شيء آخر .

---

(١) أبو خليفة الجمحي : هو أبو خليفة الفضل بن الحباب ، مولى الجمحيين . من أجلاء أصحاب الحديث . تولى قضاء البصرة . وأحد أعلام اللغة ، من رواة الأخبار ، والأنساب ، والشعر . وكان أهل الحديث ، وأهل اللغة يقرأون عليه . وكانت وفاته سنة (٣٠٥هـ/٩١٧م) . وله من الكتب : كتاب « طبقات الشعراء الجاهليين » ، وكتاب « الفرسان » ، وغيرها . النديم : الفهرست ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

(٢) القفطي : إنباه الرواة ، (٣/٥ ـ ٦) .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٥/٢١٠) .

(٤) هارون بن الحَائِكْ : نحوي ، ضرير ، من أصحاب ثعلب ، وكان معدوداً من طبقته . أصله يهودي من الحيرة. وله من المصنفات : كتاب « العلل في النحو » ، وكتاب « الغريب الهاشمي » . ولم تعرف سنة وفاته . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٩/٢٦١ ـ ٢٦٢) .

(٥) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٦) الزجاجي : مجالس العلماء ، ص ٤٨ .

(٧) القفطي : إنباه الرواة ، (٣/٣١٠) .

إن حب العلماء لبعضهم ، والألفة بينهم ، هي الرابطة الوثيقة التي تجمع بينهم ، بعيداً عما يدور بينهم من الناحية الفكرية . فعندما تأخر أبو علي الحاتمي [١] ، في إحدى المرات ، عن مجلس أبي عمر الزاهد المعروف بغلام ثعلب ، سأل عنه أبو عمر ؟ . فقيل له : إنه عليل ، فجائه من الغد يعوده [٢] .

٤ ـــ تنقل العلماء بين مدن العراق :

لا شك في أن انتقال أهل العلم والفكر بين مدن العراق ، وزياراتهم لها بين الفينة والأخرى ، يعد أمراً مهماً ، وحيوياً بالنسبة للحركة العلمية ، لما في ذلك من إنعاش للعلوم في المدن التي شهدت حالة من الركود العام في شتى مناحي الحياة ، ومنها الناحية العلمية ، بسبب ما تعرضت له من مصائب ، ونكبات ، كما حدث للبصرة بعد ثورة الزِّنْج ، وما خلفته من دمار في المدينة ، طال كل شيء فيها .

فكان قدوم العلماء إليها من الوسائل المهمة في إنعاش المدينة من جديد ، لأن وجود العلماء يجعل المدينة مقصد الكثير من طلاب العلم من داخل العراق ، وخارجه ، وبالتالي يؤدي هذا الأمر إلى نشاط في جميع المرافق ، الاقتصادية ، والاجتماعية ، والعلمية ، وهو ما كان يرمي إليه الأمير الموفق عندما طلب من أبي داود السجستاني ، عالم الحديث قائلاً له : ((تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطنا ، ليرحل إليك طلبة العلم من أقطار الأرض ، فتَعْمر بك ، فإنها قد خربت ، وانقطع عنها الناس لِما جرى من محنة الزِّنْج)) [٣] .

---

(١) أبو علي الحاتمي : هو أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر البغدادي المعروف بالحاتمي . أحد علماء اللغة ، والأدب . حسن التصرف في الشعر ، يجمع بين البلاغة في النثر ، والبراعة في النظم . أخذ العلم عن أبي عمر الزاهد المعروف بغلام ثعلب ، وأدرك ابن دريد ، وأخذ عنه . وكانت بينه وبين المتنبي الشاعر وحشة ، حيث صنف « الرسالة الحاتمية » في سرقات المتنبي ، وإبانة عيوب شعره ، كما يقول . وله من المصنفات الأخرى : كتاب « حلية المحاضرة في صناعة الشعر » ، وكتاب « اللغة » ولم يتمه ، وكتاب « منتزع الأخبار ومطبوع الأشعار » ، وغير ذلك . وكانت وفاته عام (٣٨٨هـ/٩٩٨م) . ابن الأثير : اللباب ، (٣٢٦/١) . الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٣٤٣/٢ ــ ٣٤٤) .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣٣٢/٤) .

(٣) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (١٦٢/١) .

كما أن انتقال العلماء بين مدن العراق له نتائجه الإيجابية تعود بالنفع على العلماء أنفسهم ، وعلى أهل المدن في وقت واحد . فالعالم عند زيارته لمدينة معينة ، والتدريس أو التحديث فيها ، يعرِّفه ويطلعه على وجهة نظر أخرى ، ومشارب علمية غير التي كان يعايشها ، سواء في علماء المدينة ، من خلال مناقشتهم ومناظرتهم ، أو في تلاميذه الذين جاءوا إلى دَرْسه لأخذ العلم على يديه .

أما أهل المدينة فتكمن استفادتهم من قدوم العلماء إليهم ، في نشاط مدينتهم ، وسعة الحركة الاقتصادية فيها ، من خلال قدوم طلاب العلم من خارج مدينتهم إلى هذا العالِم ، أو ذاك ، فتنشط حركة البيع ، وكذلك دور السكن للإقامة ، وغيرها من المرافق . وفي المقابل ينقل هؤلاء الطلاب إلى المدن التي ينزلون فيها بعض العادات الاجتماعية ، والمفاهيم العلمية الجديدة عليها .

ولكن الأهم من ذلك كله ، هو عملية التمازج الفكري بين أهل العلم في هذه المدن ، وهذا الأمر يقلل من شحناء متوقع وجودها في نفوس أنصار المذهب ، أو العالِم ضد منافسيهم . ولقد مر معنا العديد من الأمثلة على هذا الأمر ، وخاصة عند نحاة البصرة ، والكوفة . وعند قراءة كتب التراث ، نرى المئات من العلماء الذين اشتهروا على أنهم من سكان مدينة ما ، على الرغم من أن أصولهم من مدن أخرى .

فهناك علماء استوطنوا بغداد ، وعرفوا بها على الرغم من أنهم جاءوا إليها من مدن أخرى في العراق . ومن هؤلاء على سبيل المثال : أبو جعفر محمد بن حسن المَوْصلي (ت ٣٠٣هـ/٩١٥م) الذي سكن بغداد ، وحدث بها عن الإمام أحمد بن حنبل ، وأحمد بن عبدة الضبي ، وغيرهم [١] . وممن استوطن بغداد أيضاً ، عالم الحديث أبو يوسف يعقوب بن شيّبة بن الصَّلْت السدوسي البصري (ت ٢٦٢هـ/٨٧٥م) صاحب « المسند الكبير » ، و « مسند علي » و « مسند أبي هريرة » ، وعرض عليه قضاء بغداد فأبى [٢] .

---

(١) العليمي : المنهج الأحمد ، (٣١٧/١) .

(٢) السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٢٥٨ .

ومن الشعراء الذين اتخذوا من بغداد مكاناً دائماً لهم ، أبو القاسم نصر بن أحمد البصري المعروف بالخُبْزأَرْزي ، شاعر المِرْبَد والبصرة ، الذي نزل بغداد ، وأقام بها دهراً طويلاً ، وقريء عليه ديوانه ، وذكر أحمد بن منصور النوشري أنه سمع منه بباب خراسان [١] سنة (٣٢٥هـ/٩٣٦م) [٢] .

ومن العلماء من كان يقوم بزيارات لمدن العراق بين وقت وآخر ، إما للأخذ عن علمائها ، أو التدريس ، والتحديث فيها مدة بقائه . ومن هؤلاء : أبو العباس المبرد ، الذي كان يأتي من البصرة إلى بغداد للإلتقاء بأبي عثمان المازني ، عالم النحو ، ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، وكان المبرد يتردد كثيراً على بغداد [٣] . وسُئل الإمام أحمد : كم مرة دخلت الكوفة ؟ . فقال : بضعة عشرة دخلة [٤] . أما أبو داود السجستاني ، وكان يسكن البصرة ، فقد قدم بغداد غير مرةٍ ، وحدّث بكتابه السنن فيها [٥] . في حين خرج أبو بكر الخلاّل إلى الرَّقْة ليكتب مسائل أحمد بن حنبل كانت عند عبد الله بن محمد الرَّقى الفقيه [٦] .

وكذلك ، المحدَّث إبراهيم بن عبد الصمد بن موسى ، الذي جاء إلى بغداد قادماً من سُرَّ مَنْ رأى سنة (٣٢٤هـ/٩٣٥م) ، فحدّث بها ، واجتمع إليه خلق كثير ، وكان عنده علو إسناد مفقود في وقته ، ثم رجع بعد ذلك إلى سُرَّ مَنْ رأى [٧] . ومن المحدثين

---

(١) باب خراسان : وهو أحد الأبواب الأربعة الرئيسة لمدينة بغداد عندما قام أبو جعفر المنصور ببنائها على هيئة مدورة . وهو يقع في الجانب الشمالي الشرقي من مدينة المنصور . وتوجد بين هذه الأبواب السكك ، والأرباض والدروب . اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٣٨ ، ٢٤٠ .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٩٦/١٣ ـ ٢٩٧) .

(٣) القفطي : إنباه الرواة ، (٢٤٢/٣ ، ٢٥٢) .

(٤) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٧٧/١) .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، (٥٥/١١) .

(٦) العليمي : المنهج الأحمد ، (٨/٢ ـ ٩) .

(٧) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقى لله ، ص ٧٦ .

أيضاً الذين جاءوا إلى بغـداد وحدّثـوا بها ، أبو الحسـين إسحـاق بن أحمـد الكـاذي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) ، الذي كان يقدم من قريته كاذة [١] إلى بغداد ، ويحدث بها [٢] .

إن ما تمَّ ذكره آنفاً ما هو إلا نماذج قليلة جداً ، تعبر عن أمر طبيعي ، وهام في نفس الوقت ، لتلك الفترة من تاريخ الحركة العلمية في العراق . وكتب التراث تحوي الكثير والكثير من الأمثلة عن هذا الموضوع [٣] .

وبعد :

لا شك أن دور العلماء في ازدهار الحركة العلمية في العراق في تلك الفترة ، من خلال المظاهر الأربع التي تم الحديث عنها في الصفحات الماضية ، كانت لها آثار محمودة انعكست على الحياة العلمية بصفة عامة ، منها :

١) أن لعلماء الفترة وأدبائها مساهمة فعّالة في نشر العلم ، وجعله سهل المنال لطالبيه ، وذلك عن طريق مشاركتهم مع بقية أعيان المجتمع في تذليل الصعوبات التي كانت تحول دون تحقيق ذلك الأمر ، سواء كانت اقتصادية ، أو اجتماعية .

فقد شارك العلماء بجهدهم ، ومالهم ، وبيوتهم في تيسير العلم على طلابه ، إيماناً منهم بأن مهمتهم لا تقتصر على إلقاء الدروس ، والأحاديث عليهم فقط ، وإنما تمتد إلى أبعد من ذلك .

٢) أثر أسلوب المناظرة الواضح على الحركة العلمية ، سواء على الناس عامة ، أو العلماء بشكل خاص .

فقد كانت مجالس المناظرة ، تتم في أغلبها ، على مسمع ومرأى من الناس ، فكانوا يحضرون للمشاهدة ، والفائدة . وربما يشاركون فيها ، كما مر معنا ، فيستفيد

(١) كاذة : قرية من قرى بغداد . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٤٢٨/٤) .

(٢) العليمي : المنهج الأحمد ، (٦٣/٢) .

(٣) انظر على سبيل المثال : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٤٤٦/٨) ، (٣٩/٩ ، ٦١) ، (٢٤/١٠ ، ٣١٤ ، ٣٢٥) . ابن حجر : تقريب التهذيب ، (١٩٥/١ ، ٣٩٤ ، ٤٠٧ ، ٥٣٧) ، (٥١/٢ ، ٥٧ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ١٦٧ ، ٢١٧ ، ٣٥٧) .

الحاضرون مما يحدث أمامهم ، فالمهتم باللغة يسمع ما يدور بين اللغويين ، أو من الأعراب في المِرْبَد مثلاً ، وعشّاق الشعر يلتقون بأهله ، ويسمعون منهم مباشرة ، ويحفظون . وأصحاب الحديث يأخذون ما يريدون من المحدّث ، وأصحاب الفقه كذلك ، وهكذا .

أما أثرها على العلماء ، فإن أسلوب المناظرة كان أحد الوسائل التي اتخذها بعض العلماء لإقناع الآخرين برأيه ، ومنهجه ، وقوة هذا المنهج تؤدي في بعض الأحيان إلى تغيير رأي الطرف الآخر ، وربما مذهبه ، نتيجة لقوة الحجة التي يملكها ، وهذا ما حدث مع أبي إسحاق الزَّجّاج ، عندما أراد مناظرة المبرد . يقول الزَّجّاج : ((لما قدم المبرد بغداد ، جئت لأناظره ، وكنت أقرأ على أبي العباس ثعلب ، فعزمت على إعناته ، فلما فاتحته ألجمني بالحجة ، وطالبني بالعلة ، وألزمني إلزامات لم أهتدِ إليها فتيقنت فضله ، واسترجحت عقله ، وأخذت ملازمته [١])) . فتغيّر مذهب الزَّجّاج في النحو من المنهج الكوفي إلى المنهج البصري ، بل وأصبح من المدافعين عن المبرد أيضاً حتى ولو كان ضد أستاذه ثعلب ، ففي أحد المجالس التي جمعت ثعلب ، وبالزَّجّاج ، وأبا موسى الحامض ، دار النقاش حول إملاء المبرد في تلك الأيام كتاب « المقتضب » ، وكان ثعلب ، وأبو موسى يقللان من شأن الكتاب ، وصاحبه ، واشتد النقاش بينهم ، فقال الزَّجّاج لثعلب : ((استعملت « الفصيح » للمبتديء ، وهو عشرون ورقة ، وقد أخطأت في عشرة مواضع منه)) ، وذكرها له . ثم خرج الزَّجّاج من عنده ، واشتهر الأمر في مجالس أهل العلم ، فما قُرِىء « الفصيح » بعد ذلك على ثعلب . ثم كثر القول في الألفاظ التي ردها الزَّجّاج ، ولهجت بها الألسن إلى أن سئم ثعلب كتابه ، وأنكر أن يكون له [٢] .

فلم يكن أثر أسلوب المناظرة قاصراً على تغيير التوجه عند بعض العلماء ، وإنما قد تحدد أحياناً مصير بعض المصنفات المشهورة أيضاً .

---

(١) الزجاجي : مجالس العلماء ، ص ١٢٥ ـ ١٢٧ ، ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٧١ . الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ . لتفاصيل أوسع انظر المصادر السابقة .

(٢) القفطي : إنباه الرواة ، (٣/١٤١ ـ ١٤٢) .

٣) أما المجالس العلمية ، وما كان يدور فيها من نقاش ، ومناظرة ، وأخذ وردّ بين الحاضرين ، كل ذلك كان له الأثر الإيجابي على سائر العلوم . فاجتماع رؤساء العلم الواحد في مجلس واحد له ثمرة عظيمة ، تعود بالنفع على هذا العلم . ففي هذه المجالس تطرح القضايا المتصلة بالعلم على بساط البحث بين الحاضرين ، وذلك من خلال المناظرات ، فيبرز رأي ، أو يطرح حَلٌّ لموضوع أُشكل على الحاضرين الوصول إليه ، وهو يمس أصول هذا العلم ، أو فروعه . ولأهمية هذا الأمر في تلك الفترة ، وأثره على مسيرة العلوم التي تناقش في تلك المجالس ، فقد قام بعض علماء تلك الفترة ، كلاً في اختصاصه العلمي ، بجمع هذه المجالس في مصنف واحد رغبةً في التوثيق ، وإحساس منهم بأهميتها ، لمعرفة آراء أصحاب تلك المجالس ، في قضايا علمية تخصصية .

فقد وضع أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م) كتاب « مجالس العلماء » [١] ، وضمنه (١٥٦مجلساً) كلها في اللغة ، والنحو ، والصرف فقط .

والبعض الآخر حصر الخلاف في مسائل معينة ، وقام بعرضها على المذاهب وما قال فيها أصحابها ، وهذا ما فعله أبو جعفر محمد بن جرير الطبري عندما وضع كتابه « اختلاف الفقهاء » [٢] . فقد قام بحصر المسائل الفقهية المتنازع فيها ، ثم عرضها على مذاهب الأئمة : مالك ، والشافعي ، وأبي حنيفة ، عدا ابن حنبل ، فقد اعتبره الطبري من المحدثين لا من الفقهاء ، ولذا لم يذكر مذهبه في كتابه .

---

(١) مطبوع بتحقيق : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي : القاهرة . دار الرفاعي: الرياض ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(٢) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (١١٨/٢) .

الفصل الثاني

مظاهر النشاط العلمي في العراق خلال عصر نفوذ الأتراك

المبحث الأول : حركة الترجمة .

المبحث الثاني : الوِراقة والورّاقون .

المبحث الثالث : خزائن الكتب .

المبحث الرابع : العلاقات العلمية بين العراق والمراكز العلمية الأخرى .

المبحث الخامس : التربية والتعليم في العراق .

المبحث الأول

حركة الترجمة

يعد الخليفة أبو جعفر المنصور أول خليفة عباسي اهتم بالترجمة ، وترجمت في عهده بعض المؤلفات الفارسية ككتاب « كليلة ودمنة » ، واليونانية مثل كتاب « المجسطي » وبعض كتب بطليموس ، وإقليدس . وفي عهد الرشيد ، وصلت الترجمة إلى حد التطور الكمي ، الذي لم يسبق له مثيل في العصور السابقة . وعلى يد المأمون بلغت حركة الترجمة أقصى مدى يمكن أن تصل إليه كماً ، وكيفاً . إذ نُقل الكثير من تراث اليونان ، والهنود ، والفرس في مختلف العلوم والمعارف [١] . وكانت لها نتائج إيجابية ، ولا شك ، على العلوم التطبيقية من ناحية ، وسلبية على الفكر الإسلامي في كثير من الأحيان من ناحية أخرى .

إن تشجيع هؤلاء الخلفاء ، لا سيما المأمون ، للنقلة على مواصلة مهمتهم في ميدان الترجمة ، كان أحد العوامل الرئيسة المؤثرة في ازدهار حركة الترجمة ، وتقدمها . غير أن هذا العامل سرعان ما انتفى في عهد الخليفتين : المعتصم ، والواثق ، إذ خيم الركود في دعمها لهذا العمل العلمي المهم على مسيرة حركة الترجمة ظاهرياً ، فقد واصل النقلة جهودهم حتى في عهد هذين الخليفتين . إلا أن المصادر لم تسجل أي جهود لهما في هذا الحقل .

ومع تولي الخليفة المتوكل مقاليد السلطة ، كان ذلك إيذاناً بعودة الحياة من جديد لحركة الترجمة ، وازدهارها .

وثمة عوامل كان لها الأثر الأكبر في بعث حركة الترجمة مرة أخرى ، وتكرار ما حققته من قبل ، خاصة في عهدي : الرشيد والمأمون ، من إنجازات كبيرة في دعم مسيرة الحركة العلمية في العراق خلال تلك الفترة . وهذه العوامل هي :

١ ــ رعاية الخلفاء لحركة الترجمة :

لا شك أن لولاة الأمر الأثر الفاعل على الحركة العلمية عموماً ، وعلى حركة الترجمة بشكل خاص . ذلك أن رعاية الخليفة للترجمة والقائمين عليها ، يكسبها صفة الاحترام ،

---

(١) محمد الهويمل : الحركة العلمية في خلافة المأمون ، ص ١٦٣ ، ١٧٣ (رسالة ماجستير غير منشورة) .

والهيبة ، والأهمية . ثم إن هذا الاهتمام يعد مطلباً ضرورياً لاستكمال مظهر الاهتمام بالحركة العلمية .

ومن هذا المنطلق ، كان للخلفاء العباسيين ، وعلى رأسهم الخليفة المتوكل ، جهوداً كبيرة في تجديد مدرسة الترجمة ، وتهيئة الظروف الباعثة على الإنتاج العلمي . ولهذا قام الخليفة المتوكل باتخاذ أول الخطوات في هذا المجال ، بأن أوكل إلى حنين بن إسحاق العِبادي ، طبيبه الخاص ، تولي مهمة الإشراف على مدرسة الترجمة ، ومكتبتها . وعيّن له صفوة النقلة ، ممن أتقنوا اللغة اليونانية ، والسريانية ، والعربية ، ليكونوا مساعدين له . ومن هؤلاء النقلة : إصطفن بن بُسيل ، وحُبيش بن الحسن الأعْسم ، وموسى بن خالد الترجمان ، ويحيى بن هارون ، وغيرهم [١] .

وبهذه الخطوة جدد المتوكل ((هذه الحركة الثقافية المهمة ، ومهد سبيل البحث العلمي ، وشجع الباحثين ، والعلماء على البحث عن المخطوطات اليونانية ، وحملها إلى بغداد لترجمتها ، فاستأنفت حركة الترجمة نشاطها ، وظلت ترجمة التراث اليوناني ، ودراسته متواصلة بأشد ما يمكن من العزيمة ، والنشاط)) [٢] .

كما كان للخليفة المتوكل أثر على حركة الترجمة في جانب آخر يتعلق بنوعية الكتب المنقولة من التراث اليوناني . وأقصد بذلك كتب الفلسفة ، وخاصة المنطق . ذلك أن الخليفة قد أصدر أمره ، كما مر معنا ، يقضي بمنع الخوض في مسألة خلق القرآن ، والجدل في الدين ، فكان لهذا الأمر أثره على عملية نقل الكتب التي تتعلق بالمنطق ، وعلم الكلام ، وبالتالي توقف النقل في هذا الجانب ، ولو بشكل مؤقت إلى ما بعد عهد الخليفة المتوكل .

ولقد سار الخلفاء ، الذين أعقبوا المتوكل ، على نهجه في رعاية الحركة العلمية ، ورأينا أن هناك تباين بينهم في هذا الأمر [٣] ، وتكرر هذا الأمر في حركة الترجمة أيضاً .

---

(١) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٦٩ .

(٢) أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

(٣) انظر مبحث : اهتمام الخلفاء بالحركة العلمية .

ويظهر أن المصادر التاريخية ، والأدبية ، سكتت عن إيراد نصوصاً تفيدنا في التعرف على إسهام من جاء بعد المتوكل من الخلفاء ، على الرغم من أن العديد من النقلة كانوا على صلات وثيقة بهؤلاء الخلفاء ، وبلغوا في عهودهم مكانة رفيعة ، ولكن لم يعثر على معلومات مباشرة عن اهتمامهم بحركة الترجمة ، والمرجّح ، من خلال القرائن ، دعم هؤلاء الخلفاء لهذه الحركة من خلال اهتمامهم بالحركة العلمية بشكل عام .

٢ ـ اهتمام الوزراء بحركة الترجمة :

لقد سار الوزراء على نهج الخلفاء في دعمهم للحركة العلمية عموماً ، والترجمة على وجه الخصوص . والدوافع التي دفعت بهم إلى دعم الحركة العلمية ، كما مر معنا ، هي نفسها التي أدت إلى اهتمامهم بحركة الترجمة ، والقائمين عليها .

وكانت للوزير محمد بن عبد الملك الزّيّات جهوداً لا تخفى في دفع مسيرة الترجمة إلى الإمام ، بفضل الدعم المادي والمعنوي ، الذي قدمه للنقلة ، والذين تمتعوا في كنفه بالتشجيع والتحفيز من خلال ما خصصه لهم من النفقات الشهرية ، فكان عطاؤه لهم وللنُّسّاخ في كل شهر ألفي دينار [١] .

إن ما اشتهر به ابن الزّيّات من حبه للعلم وأهله ، كان الباعث وراء هذا العمل ، وإدراكه الثاقب لأهمية النقل في تقدم العلوم وإثرائها ، وخاصة التطبيقية منها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى ، فإن ابن الزّيّات كان حريصاً على جمع أكبر عدد ممكن من الكتب المترجمة وضمها إلى خزانة كتبه المشهورة . ونظير هذا الدعم من قبل ابن الزّيّات ، ترجمت العديد من الكتب اليونانية بإسمه على يد جماعة من أكابر الأطباء ، والنقلة في وقته ، أمثال: يوحنا بن ماسويه ، وبختيشوع بن جبرائيل ، وإسرائيل بن زكريا الطيفوري ، وحُبيش بن الحسن الأعْسم ، وحنين بن إسحاق [٢] ، الذي ترجم لابن الزّيّات كتاب " الصوت " لجالينوس إلى العربية [٣] .

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٨٤ .

(٢) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٢٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

وكتب التراث شحيحة في هذا الموضوع ، فلم تمدنا بمعلومات عن مدى اهتمام الوزراء بالترجمة ، وهو أمر لا شك فيه إذا ما علمنا أن اهتمام بعض الوزراء بالحركة العلمية كان كبيراً .

٣ ــ اهتمام العلماء بحركة الترجمة :

للعلماء أثر كبير في تنشيط الحركة العلمية ، والذي اتخذ أوجه عدة ، ومن هذه الأوجه : اهتمامهم ودعمهم لحركة الترجمة ، وإسهامهم الفاعل في هذا الجانب مما يحتم علينا أن نفرد له جزءاً مستقلاً ، نتعرّف من خلاله عن دورهم في هذا المضمار .

إن حب العلم هو الدافع الأول للعلماء في عنايتهم بالترجمة ، وهو نفسه الذي دفعهم إلي الاهتمام بالحركة العلمية ، ولكن هناك دافع آخر ، تمثل في حرصهم على تحصيل كتب الأمم السابقة المنقولة إلى العربية ، كلاً بحسب اختصاصه ، فالأطباء حريصون على تحصيل كتب الطب ، وبذل المال للقائمين على النقل ، وكذا المهندسون ، والفلكيون ، والفلاسفة ، والرياضيون . لما يمثله ذلك من أثر على تحصيلهم العلمي .

ومن أبرز رعاة حركة الترجمة من العلماء ، **أبناء موسى بن شاكر المنجم** ، الذين آمنوا بضرورة تفعيل دورهم كأحد العلماء البارزين في وقتهم ، فكانت حركة الترجمة ميداناً فسيحاً لهم لإبراز دورهم كأسرة علمية ، ولقيت حركة الترجمة على أيديهم كل عناية ، واهتمام [١] .

واتخذ هذا الاهتمام صوراً عدة ، بعضها يتعلق بالمخطوطات اليونانية ، والآخر بالنقلة ، والمترجمين . فأبناء موسى بن شاكر لم يشتهروا بفضل أبحاثهم الخاصة فحسب ، بل بالخدمات الجليلة التي قدموها للعلم أيضاً ، ورعايتهم لحركة الترجمة [٢] .

فقد قاموا بإيفاد الرسل والبعوث إلى بلاد الروم ، لإحضار المخطوطات الطبية ، والهندسية ، والرياضية ، والفلسفية ، وغيرها إلى العراق ، وترجمتها . يقول النديم :

---

(١) صالح العلي : العلوم عند العرب ، ص ١٩٧ .

(٢) بنو موسى بن شاكر : كتاب الحيل ، ص ٢٢ (مقدمة المحقق) . زيجريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ١٢٤ .

((ممن عُني بإخراج الكتب من بلد الروم ، محمد وأحمد والحسن بنو شاكر المنجم ، .... وبذلوا الرغائب ، وأنفذوا حنين بن إسحاق ، وغيره إلى بلد الروم ، فجاءهم بطرائف الكتب ، وغرائب المصنفات في الفلسفة ، والهندسة ، والموسيقى ، والأرثماطيق ، والطب)) <١> . وبعد ذلك قاموا ((فأحضروا النقلة من الأصقاع ، والأماكن بالبذل السني ، فأظهروا عجائب الحكمة)) <٢> .

وقدم أبناء موسى بن شاكر المكافآت المجزية للنقلة ، تشجيعاً ، وتحفيزاً لهم على الإنتاج العلمي الجيد ، فكانوا يبذلون الأرزاق لجماعة من النقلة ، فيهم : حنين بن إسحاق ، وحُبيش بن الحسن الأعْسم ، وثابت بن قُرّة ، وغيرهم ، في الشهر (خمسمائة دينار) ، مقابل النقل ، والترجمة ، والملازمة <٣> .

ولم يكن اهتمام بنو موسى بن شاكر بالترجمة محصوراً في جلب المخطوطات ، وبذل الأموال للنقلة فقط ، بل تجاوزوا هذا الدور إلى تبنيهم للعلماء ، وإحاطتهم بالرعاية والاهتمام رغبةً في صقل المواهب المتفتحة ، وتسخيرها لخدمة العلم .

ومن هؤلاء العلماء الذين كانوا محل اهتمام أبناء موسى بن شاكر : حنين بن إسحاق العبادي ، الذي أخذ بملازمة أبناء موسى بن شاكر بعد عودته من رحلته إلى بلاد الشام ، ورغَّبوه في النقل من اليونانية إلي العربية ، وبذلوا له في ذلك الكثير <٤> ، ولقي حنين من أبناء موسى حسن التقدير والاهتمام ، وخاصة محمد بن موسى ، الذي كان من أبرِّ الناس بحنين ، وأكرمهم له . ونظير ذلك الاهتمام فقد نقل له حنين الكثير من الكتب الطبية <٥> ، وكانت أكثر نقول وترجمات حنين لبني موسى بن شاكر <٦> ، وذلك مقابل العناية الفائقة التي لمسها منهم .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٣٩٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٦١/٥) .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٦٠ .

(٤) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٧٣ .

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٨٣ . ومن الكتب الطبية التي ترجمها حنين لمحمد بن موسى ، وهي لبقراط بتفسير جالينوس : كتاب « الكسر » ، وكتاب « قاصيطرون » . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٩٤ ـ ٩٥ .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٤ .

وإلى جانب حنين ، تفتحت في بيت بني موسى بن شاكر شخصية علمية جديدة ، قامت مع غيرها من الشخصيات ، التي تبناها أبناء موسى بن شاكر ، في ازدهار الحركة العلمية بوجه عام ، والترجمة على وجه الخصوص ، ألا وهو : ثابت بن قُرّة الحرّاني ، الذي كان صيرفياً في مدينته حرّان [١] ، وعندما انصرف محمد بن موسى من بلاد الروم في مهمة علمية رآه ، فأعجب بذكائه ، وفطنته ، وآنس منه النبوغ ، فاستصحبه إلى بغداد ، فتعلم ثابت في داره ، ووصله بالخليفة المعتضد ، وأدخله في جملة المنجمين [٢] .

ونتيجة لهذا التواصل بين أبناء موسى وثابت ، قام ثابت بترجمة العديد من الأعمال الفلكية ، والطبية ، والهندسية لأبناء موسى بن شاكر [٣] ، إضافة إلى قيامه ببحوث علمية مشتركة معهم ، تتعلق بدراسة بعض الظواهر الجوية [٤] .

وعند تتبعنا لمسيرة حركة الترجمة فإننا نجد حساسية الدور الذي قام به أبناء موسى بن شاكر ، والمتمثل في سدهم للثغرة الموجودة في حركة الترجمة عندما أصابها الفتور في عهد كلٍ من المعتصم ، ثم الواثق [٥] . ذلك أن استمرار حركة الترجمة في عهد هذين الخليفتين ، وما تم فيها من إنجازات كان بفضل القائمين ، والمهتمين بالترجمة من العلماء ، وعلى رأسهم أبناء موسى بن شاكر ، وليس بسبب اهتمام المعتصم ، أو الواثق .

وهذا ما يفسر التناقض بين بُعد الخليفتين : المعتصم ، والواثق عن دعم حركة الترجمة ، وبين الإنتاج العلمي للقائمين عليها في فترة حكمهما .

ومن العلماء الذين حظيت حركة الترجمة بدعمهم ، وعنايتهم بها ، الطبيب **يوحنا بن ماسويه** . الذي تميز عن غيره من العلماء الراعين لحركة الترجمة ، بأنه كان مترجماً

---

(١) حرّان : إحدى مدن ديار مُضَر ببلاد الجزيرة الفراتية . وهي اليوم في الجنوب الشرقي من تركيا . ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٢٦ ، ١٢٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣١٣/١) . العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٢٢٣/٩) .

(٣) زيجريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ١٢٥ .

(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٩٩ .

(٥) رشيد الجميلي : حركة الترجمة في المشرق الإسلامي ، ص ١٧٤ ـ ١٥٠ .

أيضاً ، فعندما دخل بغداد مع أبيه ، خدم في بلاط الخلفاء حتى عصر المتوكل . وكان المأمون قد أرسله إلى بلاد الروم لجمع الكتب اليونانية ، وقد ترجم منها وألّف الكثير (١) .

ولقد أضافت ترجمته للأعمال اليونانية شهرة فوق شهرته كمصنف . والكتاب المنسوب إليه في الترجمات العبرية ، واللاتينية والموضوع تحت عنوان : « الحميات » هو عبارة عن مختصر للمعلومات الطبية السريانية ، والعربية (٢) .

كما تمثل دور يوحنا بن ماسوية في دعم حركة الترجمة وازدهارها ، رعايته للعديد من النقلة ، وتذليل الصعوبات التي تواجههم أثناء عملهم ، ونتيجة لهذا الاهتمام فقد ترجمت بإسمه العديد من الكتب الطبية على يد تلاميذه ، ومن أبرزهم : حنين بن إسحاق . الذي لازم يوحنا ، وتتلمذ عليه في صناعة الطب ، وعندما آنس يوحنا من حنين تمكنه من اللغة اليونانية ، طلب منه ترجمة بعض الكتب الطبية له . وفعلاً ، قام حنين بنقل الكتب التي أرادها يوحنا ، وخصوصاً كتب جالينوس ، بعضها إلى السريانية ، وبعضها إلى العربية (٣) .

وتمدنا كتب التراث بأسماء علماء آخرين كانوا رعاة لحركة الترجمة ، وللنقلة أيضاً . فترجمت بأسمائهم الكتب الأجنبية ، ومن هؤلاء : **علي بن يحيى المنجم** ، الأديب والكاتب ، الذي كانت له اهتمامات بكتب الطب المنقولة . فنقلت بإسمه العديد منها (٤) .

وكذلك ، **أحمد بن محمد بن المدبر** ، الذي أسهم في دعم الترجمة ، فكان يصل إلى النقلة من ماله ، وأفضاله الشيء الكثير (٥) .

---

(١) يوسف حبي : أصالة السريانية ومساهمتها في البناء الحضاري ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج٧ ، ١٩٨٣م ، ص ٢٧ .

(٢) زاكية رشدي : تاريخ الأدب السرياني ، حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، مج١٣ ، ١٩٧٣م ، ص ١١٧ . وسوف يأتي الحديث عن هذا الكتاب عند استعراض إسهام يوحنا بن ماسويه في مجال الطب في مبحث : العلوم الطبية .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٥٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٨٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .

ومِمن حرص على نقل كتب اليونانين إلى العربية أيضاً ، **إبراهيم بن محمد بن موسى الكاتب** [١] ، الذي كان شديد الاهتمام بأهل العلم عموماً ، وبالنقلة على وجه الخصوص [٢] . وهناك عدد آخر من العلماء الذين أدركوا أن دورهم في ازدهار الحضارة الإسلامية في الجانب العلمي لا يقتصر على التصنيف ، والتأليف فقط ، وإنما يتجاوز ذلك إلى دعم القائمين على الحركة العلمية أيضاً .

٤ ــ وجود النقلة المتميزين :

إن من أهم ركائز حركة الترجمة في أي زمان ومكان ، هو وجود النقلة المتميزين ، الذين هم حجر الزاوية في هذا الأمر ، وهذا العامل يعد أهم عوامل ازدهار حركة الترجمة ، ذلك أن انتفاء هذا العامل ، يعني انهيار حركة الترجمة ، مهما كان دعم الخلفاء ، والعلماء ، وغيرهم من الأعيان ، ومهما توفر من كنوز الأمم القديمة من الكتب .

ولذا فإن ازدهار حركة الترجمة خلال هذه الفترة مرده الأول ، وجود النقلة المتميزين في اللغات ، والتمكن منها ، وحسن درايتهم بالعلوم التي يقومون بنقلها ، إذ أنهم من علماء عصرهم المشهورين ، كحنين ، وثابت بن قُرّه ، وأبي يوسف الكندي ، ويوحنا بن ماسويه ، وغيرهم كثير . فهؤلاء كانوا علماء قبل أن يكونوا نَقَلَة جيدين .

إن أهمية وجود النقلة في استمرار حركة الترجمة يظهر بجلاء عندما أصابها الركود ظاهرياً في عهد الخليفتين : المعتصم ، والواثق . ولكن في الواقع كانت حركة الترجمة تمضي قدماً بوجود هؤلاء النقلة .

٥ ــ البيئة العلمية :

إن المتتبع للحركة العلمية في العصر العباسي ، يجد أن حركة الترجمة كانت تسير قدماً نحو الازدهار كما هو الحال للحركة العلمية عموماً . فكانت العلوم خلال تلك الفترة مزدهرة ، والأمة بأجمعها تعيش جواً من المناخ العلمي ، الذي ساد العراق في ذلك الوقت . لذا ، كان ذلك مدعاة لنشاط حركة الترجمة ، فهناك توافق بين ترجمة تراث الأمم السابقة

---

(١) لم يعثر له على ترجمة .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .

للإسلام ، وبين نشاط العلوم ، لا سيما اللغة العربية ، التي أمدت حركة الترجمة بالمزيد من الثراء اللغوي الذي ساعد ، وبشكل كبير ، في منهج الترجمة .

أبرز النقلة في حركة الترجمة :

ظهر في العراق خلال عصر نفوذ الأتراك عدد من النقلة الذين حملوا على عاتقهم نقل التراث اليوناني ، والفارسي ، والهندي إلى اللغة العربية .

وكان أكثر هؤلاء النقلة ممن عاصروا الفترة السابقة لذلك العصر ، وبعضهم كان شاهداً على ازدهار هذه الحركة الثقافية المهمة في عصر المأمون ، فواصلوا سيرهم نحو خدمة التراث القديم مع تعاقب الخلفاء على مقاليد السلطة .

ولم يكن هناك فرق في مستوى الترجمة ، من الناحية الفنية ، بين فترة المأمون ، وفترة المتوكل ، فالنقلة الذين كانوا سبب ازدهار هذه الحركة في عصر المأمون ، هم الذين قاموا بالدور نفسه في عهد المتوكل . إضافة إلى ذلك ، فإن عصر المتوكل قد تميز عن عصر المأمون ، بوجود نقلة جدد ، وكثر عددهم مع التقدم العلمي في عصر المتوكل ، ومن أعقبه من الخلفاء .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يجب الالتفات إلى أمر مهم يتعلق بالخطوات المتقدمة التي خطتها حركة الترجمة في عهد المأمون . وما تحقق من إنجازات في هذا الميدان من بعده . إذ أن اهتمام المأمون كان منصباً على جمع الكتب أكثر منه على إنجاز نقلها إلى العربية ، أي أنه لم يقم ، وإنما مهد لقيام حركة النقل الكبرى التي ازدهرت من بعده ، لا سيما في عهد المتوكل [١] .

فقبل خلافة المتوكل مثلاً ، كانت هناك مدرسة [٢] واحدة للترجمة ، وهي مدرسة حنين ، ومنذ خلافة المتوكل ، والفترة التي أعقبته ، ظهرت مدرسة أخرى في الترجمة ، وهي مدرسة أبناء حرّان ، وكان رئيسها ثابت بن قُرّة الحرّاني .

---

(١) صالح العلي : العلوم عند العرب ، ص ١٩٦ .

(٢) لا يقصد بالمدرسة هنا ، المدرسة النظامية ، أو ذات هيكل تنظيمي محدد ، وإنما المقصود هو مجموعة من النقلة يرأسهم أبرزهم في النقل ، ويعملون بروح الفريق .

ومن أبرز النقلة الذين ظهروا في العراق خلال تلك الفترة على سبيل المثال [١] :

١ ــ أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي :

كان أبو يوسف الكندي خائضاً غمرات العلوم : كالطب ، والحساب ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والفلسفة ، والمنطق ، وغيرها من العلوم القديمة ، حتى عرف الكندي في التاريخ بفيلسوف العرب [٢] . وكما كان الكندي بارزاً في العلوم التي أتقنها ، فقد كان أيضاً من النقلة المتميزين ، أصحاب أسلوب مميز في النقل ، فكان الكندي بذلك أحد حذاق الترجمة [٣] . الذين خدموا حركة الترجمة في وقته فترجم ((من كتب الفلسفة الكثير ، وأوضح منها المشكل ، ولخص المستصعب ، وبسط العويص)) [٤] .

ولما كانت الفلسفة محط اهتمام الكندي ، كانت ترجمة كتب الفلسفة اليونانية الميدان الذي شهد إسهام الكندي في هذا العمل الثقافي ، لا سيما كتب أرسطاطاليس ، إذ لقيت عناية الكندي واهتمامه البالغين ، فتناولها بالتفسير ، والتوضيح ، والاختصار .

ومن كتب أرسطاطاليس التي اختصرها الكندي بهدف تعليمي تيسيراً على من أراد قراءة كتب المنطق من تلاميذه ، أو غيرهم : كتاب « قاطيفورياس (المقولات) » ، كتاب « باري أرمينياس (العبارة) » ، كتاب : « أبو طيقا (الشعر) » [٥] .

وتناول بالتفسير والشرح من كتب أرسطاطاليس : كتاب : « أنالوطيقا (تحليل القياس) » ، كتاب : « سوفسطيقا (المغالطين) » ، كتاب « أنالوطيقا الثاني (البرهان) » ، كتاب « أثولوجيا » [٦] .

---

(١) سوف نسير في حديثنا عن أبرز النقلة بحسب سني وفاتهم ، وليس بمكانتهم في الترجمة .

(٢) صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٣٥ .

(٣) قال أبو معشر : ((حذاق الترجمة في الإسلام أربعة : حنين بن إسحاق ، ويعقوب بن إسحاق الكندي ، وثابت بن قره الحراني ، وعمر بن فرخان الطبري)) . صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٠٢ .

(٤) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٧٣ ــ ٧٤ .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٠ .

وعلى الرغم من اهتمام الكندي ، ونشاطه في الترجمة المتركز على كتب المنطق ، إلا أن ذلك لم يكن المجال الوحيد للكندي في هذا المضمار ، إذ قام بنقل كتاب « الكرة المتحركة » في الهندسة لأوطولوقس [١] .

وكان للكندي نقلة ، ونُسَّاخ ، ووراّقون من تلاميذه ، منهم : أحمد بن محمد بن الطيب السَّرَخْسي ، وحسنويه ، ونفطويه ، وسلمويه ، وإبراهيم قويري [٢] ، وأسطاث ، الذي نقل له كتاب " الحروف " لأرسطاطاليس [٣] .

وكان الكندي حريصاً ، ودقيقاً في البحث عند تناوله للكتب المنقولة . وهذا يتضح من رسالته « في أغراض كتاب أقليدس (في أصول الهندسة) » إذ يقول : ((إن هذا الكتاب ألفه رجل يقال له (أيلينس النجار) ، وأنه رسمه بخمس عشرة مقالة ، فلما تقادم عهد هذا الكتاب فأهمل ، تحرك بعض الملوك الأسكندرانيين لطلب علم الهندسة ، كان على عهده أقليدس . فأمره بإصلاح هذا الكتاب ، وتفسيره ، ففعل أقليدس ذلك ، وفسّر منه : ثالثة عشر مقالة ، فنسب إليه . ثم وجد بعد ذلك (إيقلاؤس) تلميذ أقليدس مقالتين ، وهي الرابعة عشرة ، والخامسة عشرة ، فأهداها إلي الملك فأضيفتا إلى الكتاب ، وكل ذلك بالأسكندرية)) [٤] .

٢ ـــ حنين بن إسحاق العبادي :

وكان حنين طبيباً فاضلاً ، فصيحاً باللغة اليونانية ، والعربية ، والسريانية ، عالماً بغريبها ، ومستعملها [٥] ، مما لا يعرفه غيره من النقلة المعاصرين له ، مع دأب منه في إتقان العربية ، والاشتغال بها ، حتى صار من جملة المتميزين فيها [٦] . وهو أول من فسر اللغة اليونانية ونقلها إلى السريانية ، والعربية [٧] .

---

(١) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٧٣ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٢١ ، ٤٢٢ .

(٣) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٤٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(٥) الشهرزوري : نزهة الأرواح ، ص ١ .

(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٥٩ .

(٧) البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام ، ص ١٦ .

ولقد وقع بعض المؤرخين (١) في الوهم عندما ذكروا أن حنيناً تعلم العربية على يد الخليل بن أحمد (٢) . فإذا علمنا أن وفاة الخليل كانت سنة (١٧٠هـ/٧٦٨م) بينما كانت ولادة حنين سنة (١٩٤هـ/٨١٠م) ، فكيف يصح مجرد الافتراض بذلك .

إنَّ مقومات شخصية حنين بن إسحاق جعلت منه أبرز النقلة في تاريخ الترجمة كلها . حتى وصفه ابن كثير بأنه : ((كان بارعاً في فنه جداً)) (٣) .

ولهذا أصبح حنين بن إسحاق مقصد الخلفاء ، وأعيان المجتمع من :أمراء ، ووزراء، وعلماء ، ليكون حنين أحد جلسائهم ، وكذلك رغبة البعض منهم ، وخصوصاً العلماء ، بأن ينقل لهم حنين كتب التراث اليوناني ، كلاً بحسب ميله العلمي ، لثقتهم بحنين ، ونقله .

ولقد تجشَّم حنين التعب ، والنصب في سبيل الحصول على المخطوطات اليونانية . ويذكر بأنه سافر إلى بلاد كثيرة ، ووصل إلى أقصى بلاد الروم لطلب الكتب القديمة التي قصد نقلها (٤) .

إن تجربة عناء الرحلة للبحث حتى عن مخطوطة كتاب نادر كانت من صفات حنين ، رغبةً منه في تحصيل الكتب النافعة مهما كلفه ذلك من جهد ، وعناء . فيحدثنا حنين عن إحدى تجاربه ، وهي عن رحلته التي قام بها للبحث عن كتاب نادر الوجود في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، وهو كتاب : « البرهان » لجالينوس (٥) . فيقول : ((إنني بحثت

---

(١) قال بذلك ابن جلجل في طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٦٩ ، وتبعه في ذلك : صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٠٢ والقفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٧١ ، وابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٦٢ ، وابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٧ ، العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٢٢١/٩) .

(٢) الخليل بن أحمد : هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي . ولد ، ونشأ بالبصرة . اشتغل بعلوم العربية ، وصنف فيها الكتب الكثيرة . وهو أول من وضع علم العَروض . وأول من استخرج المُعَمّى ، وأول من نظر فيه . وكان من العقلاء الزّهاد . وله من المصنفات : كتاب « العين » ولم يتمّه ، كتاب « العروض » ، كتاب « النقط والشكل » ، كتاب « الشواهد » ، وغيرها . وكانت وفاته سنة (١٧٠هـ/٧٨٦م) . ابن نباته : سرح العيون ، ص ٢٦٨ ــ ٢٧١ .

(٣) البداية والنهاية ، (٣٢/١١) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٤ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٦٠ .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٤ .

عنه بحثاً دقيقاً ، وجبت في طلبه أرجاء العراق ، وسوريا ، وفلسطين ، ومصر إلى أن وصلت إلى الأسكندرية ، لكنني لم أظفر إلا بما يقرب من نصفه في دمشق)) [١] . فعلى الرغم من مشقة الرحلة إلا أنه لم يظفر بما أراده كاملاً .

إن أسلوب حنين بن إسحاق في الترجمة ، ومنهجه الذي أكسبه أفراد مدرسته ، كان السبب في شهرة حنين كناقل متمكن .

ويظهر حسن أسلوب حنين في أداء المعنى ، في إلحاحه على البحث عن نسخ عديدة للكتاب المراد ترجمته ، ليستطيع مقارنتها مع بعضها البعض حتى يتوصل إلى الصياغة المقبولة التي يرضاها . ولذا ، كان حنين يعيد ما ترجمه كلما توفرت لديه المزيد من النسخ المقابلة للمخطوط الأصلي . ويصرِّح حنين بهذا النهج في قوله من رسالة إلى علي بن يحيى المنجم عن كتاب « في الفرق » لجالينوس ، ما نصه : ((ترجمته وأنا شاب من نسخة خطِّية يونانية مشوهة ، ثم لما بلغت الأربعين من عمري طلب إليّ تلميذي حُبيش أن أصلحها بعد إذ كنت قد جمعت قدراً من المخطوطات اليونانية ، وعند ذلك رتبت هذه بحيث نسقت منها نسخة صحيحة قارنتها بالنص السرياني ، فما صححتها . وتلك عادتى التي اتبعتها في كل ما ترجمته)) [٢] .

لقد أراد حنين من خلال ما اكتسبه في الأسكندرية ، عندما تعلَّم فيها اليونانية ، وأخذ منهجها في التدريس ، أراد أن يوظف هذا المنهج في ترجمته لكتب جالينوس الطبية ، فقد احتذى في ترجمتها حذو مدرسة الأسكندرية الطبية ، فصنفها على سبيل المسألة والجواب [٣] ، تيسيراً منه على طلاب الطب ، وكل من يقرأ كتب جالينوس .

وكان ميدان الطب ، والكتب الطبية اليونانية ، وخصوصاً كتب جالينوس ، محل اهتمام حنين بن إسحاق في الترجمة ، لدرجة جعلت بعض المؤرخين كابن أبي أصيبعة يقرر بأنه في غالب الأمر ((لا يوجد شيء من كتب جالينوس إلا وهي بنقل حنين ، أو بإصلاحه لما

---

(١) حنين بن إسحاق : العشر مقالات في العين ، ص ٢٩ (مقدمة المحقق) .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٣) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٦٩ .

نقل غيره)) [١] . لقد كانت خدمة حنين للتراث اليوناني في الطب والفلسفة خاصة طاغية عليه ، والسبب في ذلك يعود إلى أمرين هما [٢] :

١ ـ تمكن حنين من اللغة اليونانية تماماً ، وحسن درايته بها .

٢ ـ إن معظم المصنفات المشهورة في هذين الحقلين كانت يونانية .

وفي هذا الصدد يقول ابن خلكان : ((وأكثر كتب الحكماء ، والأطباء فإنها كانت كلها بلغة اليونان فعربت ، وكان حنين المذكور أشد الجماعة إعتناءً بتعريبها)) [٣] .

أما إنجازات حنين في الترجمة فهي لا تقارن بإنجازات غيره من النقلة ، وذلك لضخامة هذا الإنجاز . فهو لم يترك شيئاً من تراث اليونان الطبي والفلسفي إلا ونقله ، أو فسره ، أو أصلحه بنقل غيره .

فقد أوضح معاني كتب بقراط ، وجالينوس ، ولخَّصها أحسن تلخيص ، وكشف الغامض منها [٤] . وفسَّر كتب أرسطو ، وأفلاطون [٥] . وترجم إلى العربية ، والسريانية جميع الشروح التي كتبها جالينوس على آثار بقراط تقريباً [٦] .

وترجم حنين إلى السريانية : (٩٥ كتاباً) من كتب جالينوس . نقل منها (٣٩ كتاباً) إلى العربية . أما إصلاحه لترجمات تلاميذه ، فكانت : (٦ كتب) نقلت إلى السريانية . و(٧٠ كتاباً) منها نقلت إلى العربية ، إضافة إلى مراجعته لمعظم الكتب الخمسين التي كان قد ترجمها إلى السريانية الطبيب سَرْجَس الرأس عيني ، وأيوب

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٦٢ . وفي موضع آخر من الكتاب يذكر ابن أبي أصيبعة ، أنه شاهد كتباً كثيرة لجالينوس بخط كاتب حنين ويدعى « الأزرق » ، وبعضها عليه تَنْكيت بخط حنين باليوناني . المصدر نفسه ، ص ٢٦٠ .

(٢) رشيد الجميلي : حركة الترجمة في المشرق الإسلامي ، ص ٢٣٠ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢١٧/٢) .

(٤) ابن جلجان : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٦٩ .

(٥) البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام . ص ١٧ .

(٦) توماس أرنولد (وآخرون) : تراث الإسلام ، ص ٤٥٥ .

الرهاوي ، وسواهما من الأطباء المتقدمين [١] . ومما نقله حنين ، وفسره ، وأصلحه ، واختصره من الكتب :

فمن كتب **أفلاطون** : « السياسة » ، و« النواميس » ، و« طيماوس » [٢] .

ومن كتب **أرسطاطاليس** : « قاطيفورياس (المقولات) » ، و« باري أرمينياس (العبارة) » ، وجزء من « أنالوطيقا الأول (تحليل القياس) » ، وجزء من « أنالوطيقا الثاني (البرهان) » ، والمقالة الثانية من « السماع الطبيعي » ، و« الكون والفساد » ، و« النفس » ، و« مقالة اللام من كتاب الحروف » [٣] .

ومن الكتب التي أهتم بها كتب **بقراط** ، ومنها : « تقدمة المعرفة (وهو كتاب الأمراض الحادثة) » ، و« عهد بقراط »، و« الفصول »، و« الكسر » ، و« قاطيطيسون » ، و« الماء والهواء » ، و« طبيعة الإنسان » [٤] .

وأما **جالينوس** فكان أكثر من نقل له حنين كتبه ، ومنها : « أصناف الحميات » ، و« الإسطقسات » ، و« الأعضاء الألمه » ، و«أفضل هيئات البدن» ، و« البُحْران » ، و« جوامع كتاب جالينوس في الأدوية المفردة » ، و« خصب البدن » ، و« سوء المزاج المختلف » ، و« الصناعة الصغيرة » ، و« العلل والأعرض » ، و« الفرق » ، و« القوى الطبيعية » ، و« المزاج » ، و« منافع الأعضاء » ، و« النبض الكبير » ، و« النبض الصغير » ، و« تركيب الأدوية » [٥] .

---

(١) انظر مقدمة ماكس ما يرهوف لكتاب حنين « العشر مقالات في العين » ص ٢٨ . ويذكر ما يرهوف ، أن قائمة حنين عن (تراجم كتب جالينوس) ، وما تركه جالينوس في فهرسه ، محفوظ في ثلاثة مخطوطات بمكتبة آياصوفيا بإسطنبول .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٠١ ، ٤٠٢ . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (١١٠/٤) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (١١٠/٤ ـ ١١١) .

(٤) المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ١١٤ . النديم : الفهرست ، ص ٤٥٦ . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (١١٢/٤) .

(٥) جميعها مخطوطات مصورة بمعهد المخطوطات العربية ، القاهرة . تحت الأرقام التالية بحسب ترتيب المصنفات المذكورة آنفا : ٣٢٥ ، ٣١٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ ، ٣٤٧ ، ٤٣٨ ، ٤٥٣ ، ٥٢٦ ، ٥٧٤ ، ٥٩٩ ، ٦١٦ ، ٦٥٢ ، ٧٣٣ ، ٧٧٤ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٣٨٤ . وجميعها تحت تصنيف « الطب » . انظر في نقولات حنين لكتب جالينوس . النديم : الفهرست ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (١١٣/٤ ـ ١١٥) .

كما قام حنين بنقل مقالات « في أسرار الحركات » إلى السريانية ، وهي مقالات جمعها أنقيلاؤس الأسكندري من منثور كلام جالينوس [١] . ونقل كتاب « الكُنَّاش في الطب » لفولس الأجانطي [٢] .

وتناول حنين بالإصلاح نقولات بعض تلاميذه ، ومن ذلك إصلاحه نقل تلميذه إسطاث لكتاب « الحقن » لسورنوس الحكيم [٣] .

٣ ـ ثابت بن قرة الحراني :

كان دخول ثابت إلى بغداد بصحبة محمد بن موسى بن شاكر إيذاناً ببدء مدرسة جديدة في الترجمة تحاكي مدرسة حنين بن إسحاق ، وهي مدرسة أبناء حرّان ، وكان ثابت رئيسها ، وتتلمذ على يديه تلاميذ حملوا على عاتقهم إبراز دور هذه المدرسة في ميدان الترجمة ، ومنهم : سنان بن ثابت بن قرة ، وثابت بن سنان بن ثابت ، وعيسى بن أسيد النصراني ، وغيرهم ، وهو ما جعل النديم يقول في حق ثابت بن قرة : ((وأصل رياسة الصابئة في هذه البلاد ، وبحضرة الخلفاء ، ثابت بن قرة ، ثم تناسبت أحوالهم ، وعلت مراتبهم ، وبرعوا)) [٤] .

وفي بغداد اشتغل ثابت بعلوم الأوائل فمهر فيها ، وأحكم من اللغات : اليونانية ، والسريانية ، والعربية . وصنف في العربية زهاء : (١٥٠ كتاباً) في المنطق ، والرياضة ، والطب ، والفلك . كما صنف بالسريانية : (١٦ كتاباً) ، رأى ابن العبري أغلبها [٥] .

---

(١) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٧١ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٦٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٣٦ .

(٥) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٤٨ . وذكر ابن العبري عدداً من الكتب التي صنفها ثابت بالسريانية ، منها : رسالة « الرسوم والفروض والسنن » ، رسالة « في تكفين الموتى » ، رسالة « في اعتقاد الصابئين » ، رسالة « في الطهارة والنجاسة » ، رسالة « في ترتيب القراءة في الصلاة ، رسالة « في صلوات الابتهال إلى الله عزوجل » ، وغيرها .

ولقد تميز ثابت بن قرة بجودة النقل من السريانية إلي العربية ، وكان حسن العبارة في ترجماته ، ونقولاته [١] . وإضافة إلى النقل ، فقد تناول ثابت العديد من الكتب المنقولة بالإصلاح ، والاختصار بهدف تبسيطها ، لتصبح سهلة في تناولها .

فمن الكتب التي قام بنقلها : كتاب « تفسير كلام أرسطاطاليس في مقالة قوس قزح » لاثافروديطس ، ونقل ثلاث مقالات من كتاب أبلونيوس « في المخروطات » وهو سبع مقالات . كما نقل كتاب « الأرثماطيقي » [٢] . ونالت يد ثابت بعض كتب الهندسة لأقليدس بالإصلاح والتنقيح ، منها : كتاب « في أصول الهندسة » ، وكتاب « القسمة » [٣] .

كما قام بتفسير بعض المصنفات المنقولة بغرض إجلاء غموضها ، أو توضيحها لأمر ما ، رغبةً منه في زيادة الفائدة بهذه الكتب ، ومنها على سبيل المثال : تفسيره للمقالة الأولى من كتاب « السماع الطبيعي » لأرسطاطاليس [٤] .

إضافة إلى النقل ، والإصلاح ، والتفسير ، قام ثابت باختصار بعض الكتب التي يرى أن فائدتها تكون أفضل لو تمَّ اختصارها ، وتقريبها لمن أراد الاستفادة منها . ومن هذه المختصرات : اختصاره لكتاب « باري أرمينياس (العبارة) » . لأرسطاطاليس [٥] . وكذلك بعض كتب جالينوس مثل : كتاب « الاسطقسات » ، و « النبض الصغير » ، و « أيام البُحْران » [٦] .

٤ ـــ إسحاق بن حنين العبادي :

الطبيب المشهور . وكان في منزلة والده في صحة النقل من اللغة اليونانية ، والسريانية إلى العربية . وزاد على أبيه فصاحته باللغة العربية [٧] . وتميز إسحاق في

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٩٦ .

(٢) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ١١٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٤ ــ ٦٥ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣١٣/١) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٤٠٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٠٥ .

(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٧) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٨ .

ترجماته ، بأن كان عذب العبارة ، فصيح الكلام [١] . وكانت نفسه تميل إلى نقل كتب الفلسفة [٢] . ولهذا فإن ما يوجد ((من تعريبه في كتب الحكمة من كلام أرسطاطاليس ، وغيره أكثر مما يوجد من تعريبه لكتب الطب)) [٣] .

ولقد أصاب إسحاق بسهم وافر في حركة الترجمه ، سواءً بالنقل ، أو الاختصار حتى وصل إلى درجة جعلته من أبرز النقلة في عصره .

ومما اضطلع إسحاق بنقله من كتب أرسطاطاليس إلى السرياني: كتاب «طوبيقا» ، وتفسيرا : أمونيوس ، والإسكندر الأفروديسي عليه . وجزء من كتاب « أنالوطيقا الأول » . ونقل إلى العربية : كتاب « الكون والفساد » ، وكتاب « النفس » وشرح ثامسطيوس له ، والجزء الخاص بالألف الصغرى من كتاب « الحروف » [٤] .

وفي الهندسة ، نقل إسحاق « أصول الهندسة » لأقليدس . وفي الفلك ، قام بنقل كتاب « المجسطي » لبطليموس [٥] .

وفي باب المختصرات ، اختصر إسحاق عدداً من كتاب الفلسفة لأرسطاطاليس منها : كتاب « قاطيفورياس (المقولات) » ، وكتاب « باري أرميناياس (العبارة) » [٦] .

٥ ــ حبيش بن الحسن الأعسم :

وهو ابن أخت حنين بن إسحاق ، وأحد تلاميذه الذين حازوا على ثقة رجال عصره ، وعلى رأسهم الخليفة المتوكل عندما اختاره ضمن فريق العمل الذي تولى مدرسة الترجمة برئاسة حنين . وحُبَيْش أحد الناقلين من اليوناني ، والسرياني إلى العربي . وكان

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٧٩ .

(٢) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٦٩ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢٠٥/١) .

(٤) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٣٦ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ .

(٥) المصدر السابق : ص ٦٤ ، ٩٨ .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ٤٠٥ .

يسلك مسلك خاله حنين في منهجية النقل ، ومحاولته تقمص شخصيته ، إلا أنه كان أقل منه [١] .

وكان حنين يقدم حُبيش ، ويعظمه ، ويرضى نقله ، وسجل رأيه فيه قائلاً : ((إن جيشاً ذكي ، مطبوع على الفهم ، غير أنه ليس له اجتهاد بحسب ذكائه ، بل فيه تهاون ، وإن كان ذكائه مفرطاً ، وذهنه ثاقباً)) [٢] .

إن شهرة حُبيش في كثير من الأحيان مردها إنتاجه في حقل الترجمة ، وليس لكونه من أطباء عصره المعروفين . والذي حملنا على ذلك القول ، ضخامة إنتاج حُبَيش في ميدان الترجمة ، وندرته في الطب .

وكان حبيش قد ركز في ترجماته على كتب جالينوس ، وقد يكون ذلك بإيعاز من حنين ، الذي كان ميالاً لنقل كتب جالينوس . وعندما نرجع إلى قوائم كتب جالينوس المنقولة نلاحظ أن معظمها بنقل حبيش ، وخاله حنين . ومنها :

كتاب « التشريح الكبير » ، كتاب «اختلاف التشريح» ، كتاب « تشريح الحيوان الحي » ، كتاب « تشريح الحيوان الميت » ، كتاب « علم بقراط بالتشريح » ، كتاب « الحاجة إلى النبض » ، كتاب « علوم أرسطو » ، كتاب « تشريح الرحم » ، كتاب « آراء بقراط وأفلاطون » ، كتاب « العادات » ، كتاب « خصب البدن » ، كتاب « المني » ، كتاب « منافع الأعضاء » ، كتاب « تركيب الأدوية » ، كتاب « الرياضة بالكرة الصغيرة » ، كتاب « الرياضة بالكرة الكبيرة » ، كتاب « الحث على تعلم الطب » ، كتاب « قوى النفس ومزاج البدن » [٣] .

إضافة إلى ما نقله حُبيش من كتب بقراط بتفسير جالينوس إلى السريانية ، والعربية [٤] . كما نقل حُبيش من كتب بقراط : كتاب « الماء والهواء » إلى العربية [٥] .

---

(١) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٧٧ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٧٦ .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٩ . حسين الحاج : حضارة العرب في العصر العباسي ، ص ٤٩ .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٤٥٦ .

(٥) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٩٥ .

وعلى الرغم من أن حُبيشاً كان يترجم تحت إشـراف خالـه حنـين ، إلا أن هـذا لم يمنعه بنقل ما يراه صالحاً لأقرانه من دارسي الطب السرياني . وفي هذا السبيل قام حُبيش بنقل تسع مقالات من كتاب حنين « العشر مقالات في العين » من العربية التي كتب بها حنين مادة كتابه إلى السريانية (١) . وفي هذا إشارة أيضاً إلى أن النقل لم يكن على الدوام من اللغات الأجنبية إلى العربية فقط ، بل قد يحدث العكس إذا تطلب الأمر .

٦ ــ قسطا بن لوقا البعلبكي :

وكان قُسْطا عالماً قبل أن يكون ناقلاً ، فقد برز في الطب ، والهندسة ، والأعداد ، والفلسفة ، والموسيقى ، ولا مطعن عليه في النقل . فقد كان جيد النقل ، فصيح اللسان اليوناني ، والسرياني ، والعربي ، وقد نقل أشياءً ، وأصلح نقولاً كثيرة (٢) .

ولقسطا دور آخر في ازدهار حركة الترجمة تجاوز دوره كناقل إلى أحد رعاتها ، وذلك بجلبه للمخطوطات اليونانية عند قدومه إلى بغداد من بلاد الروم ، فنقل منها إلى العربية ، ونُقل له أيضاً (٣) .

ومن أبرز نقولات قسطا : النصف الأول من كتاب « السماع الطبيعي » لأرسطاطاليس ، كما نقل شرح الإسكندر الأفروديسي للمقالة الرابعة من الكتاب السابق ، وكتاب « الكون والفساد » لأرسطاطاليس (٤) أيضاً . وفي الحساب ، نقل قسطا كتاب « الرياضة » لفلوطرخس الفيلسوف (٥) .

وبوفاة قسطا سنة (٣٠٠هـ/٩١٢م) انتهت طبقة القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي من النقلة ، وابتدأ عهد جديد لجيل آخر ، وهو جيل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي (٦) .

---

(١) حنين بن إسحاق : العشر مقالات في العين ، ص ١٩٤ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٣٩٩ ، ٤٦٤ . صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ٨٣ .

(٣) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٣١ .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٥) القفطي : تاريخ الحكماء ص ٢٥٧ .

(٦) رشيد الجميلي : حركة الترجمة في المشرق الإسلامي ، ص ٢٩١ .

٧ ـــ متى بن يونس الديرقني :

وهـــو أول مترجمـي طبقـــة القـــرن الرابـــع الهجـــري/العاشـــر الميـــلادي ، (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م) البارزين . وكان مَتّى من المنقطعين إلى نقل كتب المنطق من السريانية إلى العربية ، وإليه انتهت رياسة المنطقيين في عصره . وعلى كتبه ونقولاته يُعوِّل الناس في القراءة ⟨١⟩ ، وذلك لقرب مأخذها ، وكثرة شرحها ⟨٢⟩ .

وترجم مَتّى من السـريانيـة إلى اللغـة العـربيـة كـتب أرسطاطاليس في المنطق ، والطبيعيـات ، منهـا : كتاب « أنالوطيقـا الثانـــي (البرهـان) » ، وكتـاب « سوفسطيقا (المغالطة) » .

وهي : كتاب « قـاطيفورياس (المقولات) » ، وكتاب « أنالوطيقا الأول (التحليل) » ، وكتاب « طوبيقا (الجدل) » ، وكتاب « إيساغوجي » ، وهو المدخل إلى المنطق ⟨٣⟩ .

٨ ـــ سنان بن ثابت بن قرة الحراني :

يعد سنان من أبرز أطباء عصره ، وتقلـد رئاسـة الأطبـاء فـي خلافـة المقتـدر (٢٩٥ـ٣٢٠هـ/٩٠٨ـ٩٣٢م) ⟨٤⟩ . ومن المسـاهمين في حركة الترجمة بالنقل إلى العربية . وهو أحد أفراد مدرسة ثابت بن قرة .

ومما اضطلع سنان بنقله من الكتب : كتاب « النواميس » لهرمس ، وكتاب « السور والصلوات التي يصلي بها الصابئون » ، وهو بالسريانية صنَّفه والده ثابت ⟨٥⟩ . كما قام سنان بإصلاح بعض الكتب المنقولة ، منها : كتاب « أصول الهندسة » لأفلاطون ، وزاد فيه شيئاً كثيراً . وإصلاحه ، وتهذيبه لما نقله مـن كتـاب يوسف القُسْ من كتاب أرشميدس في « المثلثات » ⟨٦⟩ .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٤٢٤ .

(٢) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ . الشهرزوري : نزهة الأرواح ، ص ١٢ .

(٣) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٣٢٣ . أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٢٨٥ .

(٤) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ١٤٧ .

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٠٤ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٣٠٤ .

٩ ـ إصطفن بن بسيل :

وهو أحد الكتّاب النَّحارير [١] ، العالمين بالترجمة ، الذين وقع عليهم الاختيار ليكونوا بمعية حنين بن إسحاق في حمل عبء الترجمة بأمر الخليفة المتوكل [٢] .

وكان إصطفن عالماً باليونانية ، متمكناً ، فصيحاً بالعربية ، وكان يُقارب حنين في النقل ، إلا أن أسلوب حنين أكثر سلاسةً ، ووضوحاً [٣] .

وقام إصطفن بنقل العديد من كتب الطب ، والصيدلة ، والفلسفة من اللسان اليوناني إلى العربي . ومنها : كتاب « الأدوية المستعملة » لأوريباسيوس ، كما نقل تفسير فرفورويوس للمقالات الثلاث الأولى من كتاب « السماع الطبيعي » لأرسطاطاليس [٤] .

ويبقى نقل إصطفن لكتاب دياسقوريدس « الحشائش » من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي ، إنجازاً كبيراً بحد ذاته يُحسب لإصطفن ، وحركة الترجمة عموماً . وكان ذلك في مدينة بغداد أيام الخيفة المتوكل (٢٣٢ـ٢٤٧هـ/٨٤٧ـ٨٦١م) ، وقام بإصلاحه ، وتصحيحه حنين بن إسحاق [٥] .

ولم يهتم الأطباء ، والصيادلة العرب بكتاب من الكتب المترجمة في علم النبات أكثر من اهتمامهم بكتاب دياسقوريدس المذكور ، فقد كان هذا الكتاب مصدراً مهماً من مصادر العقاقير الطبية ، والأدوية في ذلك الوقت [٦] .

ولقد كان لترجمة إصطفن لهذا الكتاب ، ودخوله الأندلس الأثر الكبير على علم الصيدلة في الأندلس بعد اطلاع الأندلسيين عليه ، فأحدث تحوّلاً كبيراً في ازدهار الدراسات

---

(١) النَّحارير : جمع نِحْرير : وهو الرجل الحاذق ، الماهر ، العاقل ، المُجَرِّب ، البصير في كل شيء . ابن منظور: لسان العرب ، (١٩٧/٥) .

(٢) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٦٩ .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٨١ .

(٤) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٣٩ ، ٧٤ .

(٥) ابن جلجل ، طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٢٢ .

(٦) احمد عيسى : تاريخ النبات عند العرب ، ص ٨٧ .

الصيدلانية ، وتوسيع دائرة البحث العلمي في النباتات الطبية ، وما يتعلق بها من تركيب الأدوية [١] . إذ ورد الكتاب إلى الأندلس وهو على ترجمة إصطفن بن بُسَيْل ، فانتفع به الأندلسيون إلى أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر [٢] .

وإضافة إلى ما سبق ، فقد قام إصطفن بترجمة العديد من كتب جالينوس الطبية من اليونانية إلى العربية منها : كتاب « حركات الصدر والرئة » ، وكتاب « علل النفس » ، وكتاب « حركات العقل » ، وكتاب « الحاجة إلى النفَس » ، وكتاب « الإمتلاء » ، وكتاب « المرة السوداء » ، وكتاب « الفصد » بالاشتراك مع عيسى بن يحيى ، وكتاب « عدد المقاييس » بالاشتراك مع إسحاق بن حنين [٣] .

إن ما تم ذكره من أسماء قامت بدورها في حركة الترجمة ، ونقل تراث الأمم السابقة للإسلام إلى اللغة العربية ، لا يعني انحسار هذا الدور في تلك الأسماء فقط . بل هناك العشرات من الأسماء ، نُشير إليها بسرعة ، أسهمت في حركة الترجمة بدرجة لا تقل عن الشخصيات التي تحدثنا عنها ، ومن هذه الأسماء : عيسى بن يحيى بن إبراهيم ، تلميذ حنين بن إسحاق [٤] ، وأبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي [٥] ، وعيسى بن أُسيد النصراني [٦] ، وموسى بن خالد الترجمان [٧] .

---

(١) سعد البشري : الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس ، ص ٤٥٧ .

(٢) ابن جلجل ، طبقات الأطباء ، ص ٢٢ . وعبد الرحمن الناصر : هو أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأموي الملقب بالناصر لدين الله ، أحد خلفاء المسلمين المعمِّرين في الخلافة ، حكم بلاد الأندلس خمسين سنة ، وستة أشهر . وهي مدة لم يبلُغها خليفة قبله . عاشت بلاد الأندلس في عهده تحت ظل الاستقرار ، والرخاء . ونشطت العلوم في عهده . وكان يرتاح للشعر ، وينبسط إلى أهله . واستطاع ابنه الحكم المستنصر أن يجعل من دولته مركزاً ثقافياً مزدهراً إلى درجة نالت الإعجاب ، وكانت وفاة الناصر عام (٣٥٠هـ/٩٦١م) . ابن الأبار : الحلة السيراء ، (١/١٩٧ ـ ٢٠٠) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ .

(٤) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٩٤ ـ ٩٥ ـ ٢٤٧ .

(٥) الشهرزوري : نزهة الأرواح ، ص ٦ .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ٤٣٦ .

(٧) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٦٢ ، ٢٨١ .

ومن النقلة من اللسان الفارسي إلى العربي : أحمد بن يحيى البَلاذُري [١] .

فعلى أيدي هذه الشخصيات تم الانتقال من مرحلة الأخْذ ، والدَرْس إلى مرحلة التأصيل ، والتصنيف ، والإبداع ، وإبراز التراث الإسلامي في العلوم والمعارف .

منهج الترجمة :

من الصعب القول بأن هناك منهج ، أو إطار محدد سارت عليه حركة الترجمة في ذلك الوقت . لأن هذا الأمر لم يوجد إطلاقاً بالصورة التي في مُخَيِّلتنا .

إن المنهج المقصود هنا ، الصور ، أو الأساليب التي نستطيع من خلالاها أن نستشفَّ ، على الأقل ، ما يمكن أن نسميه خطوطاً عريضةً لمنهج لم تكن معالمه واضحة .

والسبب في ذلك يَكْمُن في أن عملية الترجمة ، في أكثر الأحيان ، كانت تتم بجهود فردية أكثر منها جماعية ، لعدم وجود الأداة المنظمة لهذه العملية . وإذا اعتبرنا مدرسة حنين ابن إسحاق مثال للعمل الجماعي ، فإن هذا الأمر يظل رهين الظروف التي نشأت فيها ، ولا نستطيع أن نعمم هذا الأمر على حركة الترجمة برُمَّتِها .

ولكن في المقابل لابد من التأكيد على أن مدرسة حنين بن إسحاق ، أو قُلْ فريق حنين ، كان له الدور الكبير في إثراء المكتبة العلمية ، بفضل ما قاموا به من نقل تراث اليونان في الطب ، والفلسفة ، والهندسة ، والفلك ، والرياضة ، وسائر علوم اليونان ، عدا الأدب والتاريخ ، إلى اللغة العربية ، الأمر الذي انعكس بدوره على سير نشاط العلوم التطبيقية في العراق في تلك الفترة بوجه عام . وذلك كله بفضل التنسيق الشخصي من قِبَل حنين لعملية النقل .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت هناك نقولات ، وإصلاحات ، وشروحات للعديد من تلاميذ حنين لما ينقلونه إلى العربية دون أن يكون لرئيسهم حنين علاقة بذلك ، فالأمر من وجهة نظرهم ، هو العمل على نقل المَكْنز الثقافي اليوناني ، والفارسي ، والهندي ، بأي وسيلة ممكنة . ولهذا السبب نجد في كثير من الأحيان أن الكتاب الواحد من كتب اليونانيين ، يُنقَل أكثر من مرة ، أو يُفسَّر ، أو يُنقَّح مرات عدة .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ١٨١ ، ٤٠٠ .

وما هذا الأمر إلا شاهد على حرص هؤلاء النقلة على حسن إخراج تلك المصنفات بصورة مرضية ، هذا من جانب . ومن جانب آخر ، الأمر فيه إشارة واضحة إلى انعدام التنسيق في عمليات النقل والترجمة ، مما يؤدي إلى ضياع الجهود في تكرار مالا طائل منه .

ومن خلال البحث ، والنظر في كتب التراث يمكن أن نرسم صورة ، وإن كانت غير واضحةٍ تماماً ، عن أساليب عامة أُتُّبعت في حركة الترجمة ، نضعها في النقاط التالية :

١ ـ أن الكتاب الواحد قد يتعاون عليه أكثر من شخص في انجاز ترجمته ، سواء كان معاصراً له ، أو جاء بعده . وقد يختلف نصيب كل واحد من المشتركين في ترجمة الكتاب في مقدار الترجمة . فعندما يتوقف الأول عند نقطة معينة ، يأتي الثاني ويُكمل ما تركه الأول . ومن ذلك ، أن هلال الحِمْصي قام بترجمة أربع مقالات من كتاب « المخروطات » لأبلونيوس ، ثم جاء ثابت بن قُرَّة ، وترجم المقالات الثلاث الأخرى من الكتاب ، وكان سبع مقالات [١] .

وهناك صورة أخرى لهذا النوع من الأساليب ، وهو دائم التكرار ، وهي أن يقوم شخص ناقل بنقل الكتاب من اللغة اليونانية إلى السريانية ، ثم يأتي ناقل آخر وينقله بدوره إلى العربية . ومثال ذلك : أن إسحاق بن حنين ترجم كتاب « طوبيقا (الجدل) » لأرسطاليس من اليونانية إلى السريانية ، ثم نقله يحيى بن عَدي من السريانية إلى العربية [٢] .

وفي بعض الأحيان ، يكون الكتاب المراد نقله إلى العربية كبير الحجم ، فيُجزَّأ الكتاب إلى أجزاء ، كل ناقل يتولى نقل جزء منه حتى يكتمل نقله كاملاً . ومثال ذلك كتاب « الحروف » لأرسطاطاليس ، وكان مرتباً على الحروف اليونانية ، وحجمه كبير . فتناوله النقلة بالترجمة ، حيث تولى كل واحد منهم نقل حرف منه ، دون أن يكون هناك تنسيق مسبق ، ولكن من أراد أن ينقل جزء منه نظر إلى الأجزاء التي لم ينقلها أحد من

---

(١) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٦٢ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٠٦ .

التراجمة فيقوم بنقلها . فتولى إسحاق بن حنين نقل حرف (الألف الصغرى) ، ونقل يحيى بن عدي حرف (مو) ، أما أسطاث فتولى نقل حرف (نو) ، في حين تولى مَتَّي بن يونس نقل حرف (اللام) ، وهكذا [١] .

٢ ـ وهناك منهج آخر نستطيع أن نطلق عليه : منهج مدرسة حنين ، عندما تولى زمامها بأمر المتوكل ، وأصبح له مساعدين ينقلون بأمره ، ويقوم هو بتصفح نقولاتهم ، وينقحها ، ويصححها ، فيخرج الكتاب المترجم بالصورة المقبولة . لقد أراد حنين من تلاميذه أن يكونوا على مستوى المسؤلية ، ولهذا كان حنين يهتم كثيراً بهذا الأمر ، فنراه يضع كتابه « أحكام الإعراب على مذهب اليونانيين » [٢] ، ليُنير طريق الترجمة أمام تلاميذه ، وذلك من خلال بعض قواعد الترجمة التي ضمنها هذا الكتاب . فهو ، على سبيل المثال ، يحبذ إعادة الترجمة في حال عدم صلاحيتها ، أو استقامتها ، أو اكتشاف أصل جديد أوضح وأتم . ولهذا كان حنين يود على الدوام لو يشتغل بالترجمة على ثلاث نسخ ، على الأقل ، من الكتاب المنقول ، ليتسنى له المقابلة بينها ، واستخراج الأصل الصحيح منها [٣] .

ولكن لا يعني تصفح حنين لنقولات تلاميذه خلوها من النواقص ، والاستدراكات في النهاية . بل قد يخرج الكتاب بعد إصلاح حنين ، وهو لم يُنقل تماماً إلي العربية . فكتاب دياسقوريدس ، الذي نقله إصطفن بن بُسَيْل ، وصحَّحه حنين ، كما مر معنا ، خرج وكثير من مصطلحات الكتاب اليونانية باقية فيه لعدم وجود ما يناسبها في اللغة العربية ، فتركت كما هي ، وانتقل الكتاب إلى الأندلس على هذه الصورة [٤] .

وكان الغالب في مدرسة حنين ، أن يقوم حنين بترجمة الكتب من اليونانية إلى السريانية، ثم يقوم تلاميذه بنقلها من السريانية إلى العربية. فمثلاً : نقل حنين كُتب

---

(١) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٤٢ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٧٣ .

(٣) توماس أرنولد (وآخرون) : تراث الإسلام ، ص ٤٥٧ . ويعلّق مايرهوف على ذلك بقوله : « إنه وأيم الحق لإدراك حديث عصري لواجب الكاتب المترجم » . (المصدر نفسه) .

(٤) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٢٢ .

أرسطاطاليس : « الكون والفساد » ، و« النفس » ، من اليونانية إلى السريانية ، ثم قام ابنه ، إسحاق بنقلها من السريانية إلى العربية .

وإذا كان الكتاب المراد نقله مُفسراً ، تولى حنين في الغالب نقل فَصِّ الكتاب (متنه) ، وتولى أحد تلاميذه نقل التفسير . ومن ذلك ، أن حنين تولى نقل متن كتاب بقراط « طبيعة الإنسان » ، في حين تولى تلميذه عيسى بن يحيى نقل تفسير جالينوس لهذا الكتاب إلى العربية [١] .

وكانت ضريبة هذه العشوائية في تنظيم الكتب المنقولة ، أن حدث خلط عند النسّاخين في نسبة الكتب المترجمة على يد تلاميذ حنين ، ونسبتها إلى حنين ، إما بسبب التشابه في رسم اسمه واسم تلميذه « حبيش » ، فينسبون الكتاب إلى حنين لشهرته [٢] . وإما لكتابة تلاميذ حنين لإسمه على ما يقومون بنقله باعتبار أنه رئيسهم ، واحتراماً منهم لمكانته .

وفي كلا الحالتين ضاعت جهود تلاميذ حنين بسبب ذلك الأمر ، مما يعطينا تفسيراً لندرة المعلومات عن تلاميذ حنين الآخرين ، والذين كانوا من النقلة البارزين في عصرهم .

ويبقى أسلوب مدرسة حنين الأبرز في النقل والترجمة ، بفضل معايير وضعها حنين لرفاقه عند نقلهم، فأصبحت لهم طريقتهم الخاصة في الترجمة ، والتي تميزت بما يلي :

أ ـ اعتمادهم منهجاً علمياً ، بجمع عدة مخطوطات لكتاب واحد ، ومقارنتها مع بعضها ، وتحقيقها ، ومن ثم نقلها .

ب ـ العمل الجماعي في حقل الترجمة .

---

(١) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) وهذا ما قصده ابن العبري عندما قال : ((ومن حسن حظ حنين أن أغلب ما نقله حبيش لما كان يطالعه بعض الجهال كانوا يتوهمون أنه بقلم حنين ، وأن الناسخ صحَّف الإسم ، فكانوا يَكْشِطون لفظ « حبيش » ويكتبون بدلاً منه لفظ « حنين » ، ولهذا أمست تآليف حبيش قليلة ، وأصبح أغلبها مكتوباً بإسم حنين)) . تاريخ الزمان ، ص ٤٣ .

جـ ـ مراجعتهم لترجمات من سبقوهم وتصحيحها ، أو مراجعة المعلم الأقدم لترجمات تلاميذه [١] .

د ـ عدم التقيد بالنص الحرفي على حساب المعنى في الترجمة ، كما كان يفعل ابن البطريق [٢] .

٣ ـ ومن المناهج التي ظهرت في حركة الترجمة ، عملية إصلاح النقولات السابقة ، بهدف إكمال ما بها من نواقص ، أو إصلاح الخلل في الترجمة بإعادتها ، أو جزء منها ، وقد تكون رغبة من الناقل في إعادة ما ترجمه في السابق ، وإصلاحه بعد فترة من الزمن ، يكون قد ازداد فيها علماً ودراية . فأراد أن يغير في ترجماته السابقة . وإن كانت عملية الإصلاح تدخل ضمن إعادة الترجمات .

٤ ـ ألحق بعض المترجمين النقول المباشرة التامة أو الجزئية بأخرى غير مباشرة ، كالمختصرات ، والملخصات ، فتعددت وتنوعت حسب الأغراض العلمية ، حصراً للموضوع ، وتيسيراً للفهم والحفظ . فمثلاً قام محمد بن جابر البتَّاني بعمل مختصر لكتاب بطليموس « المجسطي » [٣] . وفي بعض الأحيان يكون للكتاب الواحد عدة مختصرات ، قام بها عدد من العلماء ، لكل واحد منهم مبررات لقيامه بهذا الاختصار . ومن ذلك ، كتاب « باري أرمينياس (العبارة) » لأرسطاطاليس في المنطق . اختصره كلاً من : حنين بن إسحاق ، ويعقوب بن إسحاق الكندي ، وثابت بن قُرَّة الحرَّاني ، وأحمد بن الطيِّب السَّرَخْسي [٤] .

---

(١) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٢٣ .

(٢) السيوطي : صون المنطق ، ص ٩ ، ١٠ . وابن البطريق : هو يوحنا بن البطريق . أحد النقلة الذين ساهموا في عملية ازدهار حركة الترجمة أيام الخليفة المأمون . وكان أميناً على الترجمة ، جيد التأدية للمعاني . ترجم كثيراً من كتب الأوائل من اليونانية إلى العربية ، ومنها : كتاب « السياسة في تدبير الرياسة » لأرسطاطاليس ، وغيره . ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٣) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٩٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٦ .

٥ ـ عندما تقدمت حركة الترجمة ، أحسَّ النقله بما كانوا قد وقعوا فيه من أخطاء ، فأخذوا يعيدون النظر فيما نُقل ، ويتناولونه بالترجمة من جديد ، أو يصلحون ما لمسو فيه من أخطاء ، وذلك لأهداف هي [١] :

أ ـ زيادة التحري ، ومحاولة استيفاء المعنى البليغ بلغة سليمة .

ب ـ إضافة الإسقاطات التي أخطأ فيها الكثير من النُّسَّاخ ، والناقلين ، أو عند ضياع أجزاء الكتاب الأصلي .

جـ ـ إصلاح سوء الفهم ، أو التحريف الذي كان يُعاب على مترجمي المراحل الأولى ، لقلة تضلع بعضهم في المعارف ، أو اللغات .

ولذا ، فغالباً ما نجد نقولاً متعددة للكتاب الواحد ، أو أحياناً للناقل نفسه ، أو في الفترة ذاتها ، ومن ذلك ، كتاب « النواميس » لأفلاطون ، نقله حنين بن إسحاق ، ثم نقله يحيى بن عدي مرة أخرى [٢] .

وهذا إسحاق بن حنين قام بنقل كتاب « النفس » لأرسطاليس إلى العربية من نسخة رديئة ، وبعد ثلاثين سنة أعاد ترجمة الكتاب بعدما تحصَّل على نسخة جيدة منه ، فقابلها على الأصل [٣] .

٦ ـ ويقابل عملية المختصرات والملخصات للكتب المنقولة ، الشروح والتفاسير ، لحل الغوامض فيها ، وفهم ما استصعب منها . ومثال ذلك : شرح الفضل بن حاتم النَّيْرِيزي لكتاب بطليموس « المجسطي » [٤] . وكذلك قيام قُدَامة بن جعفر بتفيسر بعض المقالة الأولى من كتاب « السماع الطبيعي » لأرسطاليس [٥] . وغيرها من الأمثلة .

---

(١) كمال عمران (وآخرون) : الترجمة ونظرياتها ، ص ٢٠٧ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٠١ . وهو غني بالأمثلة في هذا الباب عند تصفح الكتاب .

(٣) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٤١ .

(٤) صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٤٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٠٨ .

وهناك أمر يتعلق بإعادة الترجمات ، لابد من الإشارة إليه ، وهو : أن كثرة الترجمة للكتاب الواحد ، قد تسبب في وجود الريبة حول الكتب المنقولة ، ولم يعد الناس يطمئنون إليها . والسبب في ذلك هو تفاوت النقلة في المعرفة باللغات المُترجم منها وإليها ، وفي تمكنهم من المادة العلمية التي تعالجها موضوعات الكتب التي يترجمونها [١] . ولقد أثار هذا الأمر حفيظة العديد من مفكري العصر ، وعلى رأسهم الجاحظ ، الذي كانت له آراء في الترجمة ، والقائمين عليها من النقلة ، وما قاموا به من ترجمات . ويسجل رأيه في عملية تصحيح الكتب ، وإصلاحها بقوله : ((ولا يزال الكتاب تتداولة الأيدي الجانية ، والأغراض المفسدة ، حتى يصير غلطاً صرفاً ، وكذباً مصمتاً ، فما ظنكم بكتاب تتعاقبه المترجمون بالإفساد ، وتتعاوره الخُطَّاط بشرٍ من ذلك ، أو بمثله ، كتابٍ متقادمِ الميلاد ، دُهْرِيّ الصنعة !)) [٢] . فالجاحظ يرى هنا أن تصحيح الكتب على يد أصحابها أمر صعب وشاق ، فكيف بآخر يريد القيام بهذا العمل .

ولقد وضع الجاحظ شرائط يجب أن تتوفر في الناقل ، أو المترجم ، فلابد ((من أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه ، في نفس المعرفة ، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها ، حتى يكون فيهما سواء ، وغاية)) [٣] . ويرى بعض الباحثين [٤] ، أن من الأسباب العامة التي أدت إلى ضياع بعض المعاني أثناء الترجمة ، أن النقل تم مراراً على درجتين أو أكثر ، من اليونانية إلى السريانية على يد أحد المترجمين ، ومنها إلى العربية على يد مترجم آخر .

وعلى الرغم من كل السلبيات التي صاحبت حركة الترجمة ، وهو أمر طبيعي إزاء عمل ضخم كهذا ، يبقى هذا العمل الثقافي علامة مضيئة في تاريخ الحضارة الإسلامية في جوانب معينة . فمن خلاله قامت حركة إنقاذ وتجديد لتراث الأمم السابقة للإسلام ، نقلاً ، وإصلاحاً ، وتنقيحاً ، وتفسيراً على يد رجال خدموا العلم ، وبدوافع مختلفة ، من خلال

---

(١) الشحات زغلول : السريان والحضارة الإسلامية ، ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

(٢) الجاحظ : الحيوان ، (٧٩/١) .

(٣) المصدر السابق ، (٧٦/١) .

(٤) كامل حمود : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٢٢ .

دورهم الكبير في الحفاظ على تراث تلك الأمم [١] . ولذا ، فإن ما قاموا به لم يكن حركة نقل وترجمة فقط ، إنما هو بعث جديد لتراث كاد أن يموت .

---

(١) الجاحظ : الحيوان ، (١/٧٥) .

المبحث الثاني

الوِراقة والورّاقون

ظهرت صناعة « الوِراقة » <١> مع ازدهار حركة التأليف والترجمة ، وبعدانتشار صناعة الورق في بغداد في الربع الأخير من القرن الثاني الهجري/أواخر القرن الثامن الميلادي <٢> .

ولقد استدعى اختراع الورق من قبل الصينيين ، وانتشار صناعته ، واستعماله في الديار الإسلامية ، ظهور طائفة من الناس يشتغلون بالورق ، والكتابة ، والكتب ، أطلقت عليهم كتب التراث اسم « الورّاقين » ، ووظيفة هذه الطائفة تنحصر بأنهم كانوا ((المُعانين للانتساخ ، والتصحيح ، والتجليد ، وسائر الأمور الكُتُبِيَّة ، والدواوين)) <٣> .

وكان العراق عموماً في ذلك الوقت يتمتع بثراء فكري منقطع النظير ، كثرة معه حركة التأليف بشتى صورها ، مما أدى إلى انتشار الوِراقة ، وكثرة الورّاقين المعنيين بإخراج هذه المصنفات ، وما يترتب عليها من أمور الكتابة ، والنسخ ، والتجليد ، مما أدى إلى بروز ظاهرة تميزهم في المدن العراقية ، من حيث وجودهم غالباً في مكان واحد من المدينة يعرف بسوق الورّاقين <٤> .

وانتشرت دكاكين الورّاقين في مدن العراق ، وأصبحت لها أماكن معروفة منها : سوق الورّاقين ببغداد في ربض وضّاح <٥> ، وكان يضم أكثر من (مائة حانوت) للورّاقين أصحاب الكتب على زمن اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) <٦> .

---

(١) عرّف السمعاني لفظ الوِراقة بقوله : ((الوَرّاق ، بفتح الواو وتشديد الراء في آخرها القاف : هذا اسم لمن يكتب المصاحف ، والكتب ، وكتب الحديث ، وغيرها . وقد يقال لمن يبيع الورق (وهو الكاغد ببغداد) الورّاق أيضاً)) . (١٢/٦٠) .

(٢) أيمن فؤاد : الكتاب العربي المخطوط ، (١/١٤٧) .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٣٤ .

(٤) علي النملة : الوِراقة وأشهر أعلام الورّاقين ، ص ٢٠ .

(٥) ربض وضّاح : الربض ، هو ما حول المدينة ، أي الضواحي . وربض وضاح ، أحد ضواحي مدينة بغداد في الجانب الغربي ، وهي منسوبة إلى وضّاح ، مولي الخليفة المنصور ، وصاحب خزانة السلاح . اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٤٥ . ابن الداية : المكافأة ، ص ١٦ ـ ١٧ . الرازي : مختار الصحاح ، ص ٢٠١ .

(٦) اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٤٥ .

ويُذكر طاق الحرّاني [١] في بغداد مكاناً لبيع الكتب ، فعندما توفي أبو العباس جعفر بن أحمد المروزي [٢] بالأهواز ، حملت كتبه إلى بغداد ، وبيعت في طاق الحرّاني سنة (٢٧٤هـ/٨٨٧م) [٣]. كما يعد طاق الزبل [٤] أحد أماكن وجود حوانيت الورّاقين [٥] .

وكانت سوق الورّاقين بالكوفة مرتاداً لأهل الأدب ، والشعر [٦] . ومن محلات واسط المشهورة ، محلة الورّاقين ، ومحلة الكتبيين ، في الجانب الغربي منها [٧] .

ومع كثرة الورق بأنواعه ، وانتشار استعماله بصورة كبيرة ، أصبحت له أحياء ، ودروب اختصت ببيعه فقط . وكان بالكَرْخ [٨] سوقاً لبيع الكَاغَدْ [٩] ، بل وكان لهم بالكَرْخ

---

(١) طاق الحرّاني : الطاق هو : عقد البناء حيث كان ، والجمع أطواق ، وطيقان . والطاق : ما عطف من الأبنية ، والجمع طاقات ، وطيقان . وهو فارسي معّرب . وطاق الحرّاني : محلة في الجانب الغربي من بغداد ، منسوبة إلى إبراهيم بن ذكوان بن الفضل الحرّاني ، من موالي الخليفة العباسي الهادي . الجواليقي : المعرّب ، ص ٢٢٩ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٥/٤ ـ ٦) . ابن منظور : لسان العرب ، (٢٣٣/١٠) .

(٢) أبو العباس المروزي : هو جعفر بن أحمد المروزي ، أحد المؤلفين للكتب في سائر العلوم ، وهو أول من صنف في المسالك والممالك . وكتبه عزيزة جداً . ومنها : كتاب « المسالك والممالك » ولم يتمه ، وكتاب « الآداب الكبير » ، وكتاب « البلاغة والخطابة » ، وكتاب « الناجم » . النديم : الفهرست ، ص ٢٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .

(٤) لم يعثر على معلومات تفيد في تحديد موقعه من مدينة بغداد .

(٥) وبه كان حانوت سِنْدي بن علي الوراق . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٥٧/٦) .

(٦) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ٢٢٠ .

(٧) التنوخي : الفرج بعد الشدة ، (٢٤٦/٤ ، ٣١٨) . القرشي : الجواهر المضية ، (١٥٥/٢) .

(٨) الكَرْخ : الكرخ في الأصل ، كلمة دخيلة من الآرامية ، ومعناها « المدينة المحصنة » ، أو « المدينة » . وقد ارتبطت الكلمة في العصور الإسلامية بعدة مدن كانت في مناطق الثقافة الآرامية قبل الفتح الإسلامي . وتُميّز هذه المدن بعضها عن بعض ، في العصر الإسلامي ، بإضافة إسم مكانها الجغرافي ، مثل : كرخ بغداد ، وكرخ البصرة ، وكرخ سُرَّمَنْ رأي ، وكرخ خوزستان ، وكرخ الرَّقة ، ونحو ذلك . أما في بغداد ، فإن كلمة الكرخ تطلق على منطقة خاصة ، ويعمم استعمالها أحياناً على الجانب الغربي كله أسفل مدينة المنصور المدورة . وبه كانت أسواق بغداد . ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٢٤١ . ياقوت الحموي : المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠ . يعقوب ليسنر : خطط بغداد ، ص ١٥٧ .

(٩) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٢٦١ . ويذكر الصولي : أنه شب حريق بالكرخ في ذي القعدة سنة (٣٣٢هـ/٩٤٤م) شمل العديد من الحوانيت ، ومن ضمنها حوانيت أصحاب الكاغد .

حيٌّ يعرف « بدرب القراطيس » ، أو « درب أصحاب القراطيس » [١] . ولم تبين المصادر هل كانت القراطيس تصنع في هذا الدرب ، أم كانت تباع فيه وحسب [٢] . ولقد أورد الخطيب البغدادي تراجم سبعة رجال عرف كل منهم بـ « القراطيسي » [٣] .

وفي بغداد كانت هناك أماكن اختصت بصناعة الكَاغَدْ عُرف منها : « جِهَارسُوج » [٤] ، و « دار القَزّ » [٥] . وفي واسط كانت محلة القراطيسيين في الجانب الغربي منها أحد الأماكن التي اختصت ببيع القراطيس [٦] .

وكانت دكاكين الورّاقين مكاناً لالتقاء الأدباء ، والعلماء ، والفضلاء ، ومنتدى يتذاكرون فيه مختلف القضايا العلمية ، والأدبية [٧] ، حتى أضحى سوق الورّاقين مركزاً للنشاط العقلي ، ومظهراً جميلاً من مظاهر الحياة الثقافية في العراق في ذلك الوقت . وكانت حوانيت الورّاقين مستودعاً لكل ما أنتجته القريحة العربية في شتى فروع المعرفة .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٥٤٤/٨) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٨٦/٩) . والقراطيس : جمع قرطاس ، ويطلق على ورق البردي . السيوطي : حسن المحاضرة ، (٣٢/٢) . يحيى الجبوري : الخط والكتابة في الحضارة العربية ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

(٢) ذكر السمعاني في كلمة « القراطيسي » : ((هذه النسبة إلى عمل القراطيس ، وبيعها)) . الأنساب ، (٨٤/١٠) . وقد يكون في قول السمعاني ما يفيد أن هذا الدرب كانت تصنع فيه القراطيس ، وبيعها كذلك .

(٣) تاريخ بغداد ، (٩١/٢) ، (٤٣٠/٤) ، (٢٣٣/١١) ، (٣/١٢ ، ١٥١) ، (٤٥/١٣) . وكذلك فعل السمعاني ، انظر : الأنساب ، (٨٤/٢ ـ ٨٥) .

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (١٩٣/٢ ـ ١٩٤) . وجِهَارسُوج : يعرف بجهارسوج الهيثم بن معاوية ، من القواد الخراسانية ، وهي كلمة فارسية ، وهي من محال بغداد في قطيعة الحربية ، في الجانب الغربي منها . ابن حبيب : المحبر ، ص ٣١٥ . الزبيدي : تاج العروس ، (٤٩٦/١٠) .

(٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٤٢٢/٢) . ودار القَزّ : محلة كبيرة في طرف الصحراء ، غرب بغداد . (المصدر نفسه) .

(٦) عبد القادر المعاضيدي : واسط في العصر العباسي ، ص ١١١ .

(٧) محمد حمادة : المكتبات في الإسلام ، ص ٧٩ .

وغالباً ما يشهد سوق الورّاقين الحوارات ، والمناقشات الجادة بين روادة من العلماء ، فهذا أبو بكر بن دريد عالم اللغة والأدب ، كان يتردد على سوق الورّاقين بالبصرة ، فرأى رجلاً يقرأ كتاب « إصلاح المنطق » لابن السكيت ، ويقدم الكوفيين ، وكان أبو الفضل الرِّياشي ، إمام اللغة والنحو على مذهب البصريين جالساً . فسأل ابن دريد ، رغبة منه في إشعال فتيل المحاورة ، الرِّياشي عن قول ذلك الرجل ، فكان جوابه أن قال : ((إنما أخذنا اللغة من حَرَشَةُ الضِّباب ، وأَكَلَةُ اليرابيع ، وهؤلاء أخذوا اللغة من أهل السّواد ، أكلة الكواميخ ، والشّواريز)) [١] .

وكان العلماء يترددون على سوق الورّاقين بغية الاطلاع على نفائس الكتب ، ونوادرها، فقد كان أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٧م) يتردد على سوق الورّاقين ، وهي عامرة بالكتب ، فيشتري منها الكثير من الكتب ويحملها إلى بيته [٢] .

ولم يكن ارتياد سوق الورّاقين من قِبل الأدباء قاصراً على الاطلاع ، والمحاورة فقط ، وإنما كان بغرض الفائدة العلمية من الورّاقين أيضاً ، لأن منهم أصحاب العلم والفكر الذين يُؤخذ عنهم . وكان أبو الطيب المتنبي (ت ٣٥٤هـ / ٩٦٥م) [٣] في صباه يكثر من ملازمة الورّاقين في سوقهم بالكوفة ، رغبة منه في العلم ، والاستزادة منه ، وأخذه عن أهله [٤] .

---

(١) السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ص ٩٩ . وقد سبق شرح الألفاظ الواردة في النص في مبحث : اهتمام العلماء بالحركة العلمية ، ص ١٢٤ .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (٣٩٩/١١) . أيمن فؤاد : الكتاب العربي المخطوط ، (١٥٧/١) .

(٣) أبو الطيب المتنبي : هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي الكوفي . ولد بالكوفة ، وأكثر مقامه بالبادية ، وعاش شطراً كبيراً من حياته بالشام . تعاطى قول الشعر من حداثته حتى بلغ فيه الغاية التي فاق أهل عصره ، وعلا شعراء وقته . واتصل بسيف الدولة الحمداني ، وأكثر من مديحه . كما اتصل بكافور الإخشيدي ، وابن العميد الوزير البويهي ، وكذلك عضد الدولة . وقد لقي المتنبي حتفه على يد قطاع الطريق في طريق عودته إلى العراق من الشام . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٠٢/٤ ـ ١٠٥) . الذهبي : العبر ، (٩٤/٢) .

(٤) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ٢٢٠ .

ولما كانت دكاكين الورّاقين تضم بين جنباتها المئات من الكتب والمصنفات ، عامرة بها في شتى العلوم والفنون ، مما هو ليس بمتيسر على كثير من العلماء في ذلك الوقت ، فقد كان البعض منهم حريص على تتبع كل إصدار جديد من الكتب ، أو النادر منها ، أو غير موجود في خزانة كتبه الشخصية ، الأمر الذي دفع علم بارز كأبي عثمان الجاحظ إلى أن ((يكتري دكاكين الورّاقين ، ويبيت فيها للنظر)) [١] .

وفي بعض الأحيان كان بعض العلماء يرتاد سوق الورّاقين ليستعير الكتاب بعد الكتاب ، ويقوم بنسخه في المنزل ، كما كان يفعل إسحاق بن نصير العبادي ، عندما كان يقصد ورّاقاً بربض وضّاح ، ويستعير منه الكتاب بعد الكتاب ، وينسخه بنفسه في منزله بأجرة يدفعها إلى صاحب الدكان ، مقابل استعارة الكتب [٢] .

ومهنة الوراقة بمعناها الشامل ، كانت تعني أموراً أربعة ، هي [٣] :

١ ـ النسخ ، وما يتبعه من تزويق ، وتصوير ، وتذهيب .

٢ ـ بيع الورق ، وسائر أدوات الكتابة ، كالأقلام ، والحبر ، وغير ذلك .

٣ ـ تجليد الكتب .

٤ ـ بيع الكتب .

ولم تعط كتب التراث الاهتمام الخاص بالوِراقة والورّاقين في ذلك الوقت ، فكانت أخبارهم مبثوثة في ثنايا كتب التراجم ، والطبقات ، فكان من الصعوبة بمكان التمييز بين الورّاق والعالم ، أو الأيب ، ذلك أن من ذكرتهم تلك المصادر من الورّاقين ، ذكرتهم على أنهم علماء ، وأدباء . وإذا كان الواحد منهم مارس هذه المهنة أشار المصنف إلى أنه كان « ورّاقاً » ، أو « يُورِّق بالأجر » ، وغيرها من الإشارات . ولهذا فإن كثير ممن سيرد ذكرهم

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ١٨٧ .

(٢) ابن الداية : المكافاة ، ص ١٧ . ولم يعثر على ترجمة لإسحاق العبادي .

(٣) كوركيس عواد : خزائن الكتب القديمة ، ص ٨ ـ ٩ .

لم يشتهروا بالوِراقة ، بقدر شهرتهم على أنهم من العلماء أو الأدباء المبرِّزين في عصرهم . وهذا لا يعني عدم وجود ورّاقين محترفين لهذه المهنة ، بل هم كثر في هذا الأمر .

وتعد مهنة النسخ ، من مهام الوراقة الرئيسة ، وفي عمومها لا تخرج عن ثلاث حالات هي [١] :

١ ـ ناسخ يعمل في خدمة ورّاق معين .

٢ ـ ناسخ يعمل في خدمة مؤلف معين .

٣ ـ ناسخ مستقل يعمل لحسابه الشخصي .

وعندما اتسعت حركة التأليف ، وكثرة مجالس الإملاء ، وبالتالي كتب « الأمالي » ، أصبح هناك طلب قوي من قبل المنتفعين بها ، الأمر الذي أدى إلى حدوث نوع من الضغط على الورّاقين ، الذين يقومون بدورهم بتأجير أكثر من ناسخ لإنجاز الأعمال المنوطة بهم ، سواء من حيث سرعة إنجاز كتاب معين ، أو أن هناك طلب لِنُسَخٍ عديدة من كتاب واحد . وقد يكون الاتفاق على الأجرة باليوم ، وليس بالورقة ، أو الملزمة . يقول محمد بن خلف المرزباني (ت ٣٠٩هـ / ٩٢١م) : ((مضيت إلى الحارث بن أبي أسامة [٢] ، فوجدت في دهليز بيته قوماً من الورّاقين ، وهو يكتب أسماءهم على كل واحد درهمين ، فقلت له : أكتب اسمي ، فكتب)) [٣] .

---

(١) شعبان خليفة : الكتب والمكتبات في العصور الوسطى ، ص ١٥٣ . وسوف تتضح هذه الحالات في ثنايا الحديث عن النسخ ، والمشتغلين فيه في السطور القادمة .

(٢) الحارث ابن أبي أسامة : هو أبو محمد الحارث بن محمد ابن أبي أسامة التميمي البغدادي . صاحب المسند. وكان ثقةً ، حافظاً ، عارفاً بالحديث ، عالي الإسناد ، راوية للأخبار . وثقه أبو إسحاق الحربي ، وقال عنه الدار قطني : « هو عندي صدوق » . وكانت وفاته سنة (٢٨٢هـ/٨٩٥م) . الذهبي : تذكرة الحافظ (٢/٦١٩ ـ ٦٢٠) .

(٣) ابن حجر : لسان الميزان ، (٢/١٥٨) . شعبان خليفة : الكتب والمكتبات في العصور الوسطى ، ص ١٥٤ .

وكان لبعض العلماء والأدباء ، لانشغالهم بالتأليف ، وراقون ينسخون لهم . وكان لدى البعض منهم وراق واحد ، ومنهم من له أكثر من وراق .

فكان لأبي يوسف الكندي وراقون يعملون في خدمته ، منهم : حسنويه ، ونفطويه ، وسلمويه ، ورحمويه <١> . وكان لحنين بن إسحاق العبادي وراقون خاصون به ، منهم : أبو العباس محمد بن الحسن بن دينار الأحْوَل <٢> ، ووراّق آخر يعرف « بالأزرق » <٣> . واشتغل بالتوريق عند الجاحظ : أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى (ت ٣١٩هـ/٩٣١م) <٤>، وكذلك أبو يحيى زكريا بن يحيى <٥> . وكان أحمد بن أحمد بن أخي الشافعي وراّقاً لأبي عبد الله الجهشياري الكاتب (ت ٣٣١هـ / ٩٤٣م) <٦> . وكما كان لأبي العباس المبرد وراّقين ، منهم : إسماعيل بن أحمد الزجاجي ، وإبراهيم بن محمد الشاشي <٧> . وأيضاً كان لأبي بكر بن دُرَيْد وراّقين من تلاميذه يعملون عنده ، منهم : إسحاق بن الجنيد البزّار <٨> ، وأبو الحسن الدُّرَيْدي ، الذي صارت إليه كتب بن دريد بعد وفاته <٩> . وكان أبو علي الحسين بن عبد الله السمرقندي (ت ٢٨٣هـ / ٨٩٦م) وراّقاً لداود بن علي الظاهري <١٠> .

وكان بعض الوراّقين ينسخ لحسابه الخاص ، إما بنسخ مصنفاته بنفسه ، وإما ينسخ لغيره بأجر معين يُتفَقُ عليه ، أي تكون مهنةً له يرتزق منها .

---

(١) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٣٧٩ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٣٦/١٨) .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٧٠ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٨/١١) .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٢٩٣ .

(٦) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٣٧/٢) .

(٧) النديم : الفهرست ، ص ٩٤ .

(٨) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٨٥ .

(٩) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٢٣/١٢) . القفطي : إنباه الرواة ، (٢٢٢/٢) .

(١٠) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٥٩/٨) .

وتمدنا المصادر بأسماء عديدة لهذه الفئة ، من بينهم ، بل وأكثرهم ، من العلماء والأدباء ، يدفع بعضهم إلى ذلك العمل الإحتراز من أخطاء الورّاقين وتصحيفاتهم ، ولذا يقومون بنسخ مؤلفاتهم بأنفسهم ، وهو أمر صعب وشاق في الوقت نفسه . وبعضهم أصبح هذا الأمر بالنسبة لهم أمراً طبيعياً ، فكان النسخ أحد الأعمال التي يقومون بها في كل يوم . فهذا أبو زكريا يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ / ٨٤٨م) ، إمام وقته في الحديث ، سُئل عن عدد الأحاديث التي كتبها بيده فقال : ((كتبت بيدي هذه ستمائة ألف حديث)) [١] .

أما عالم الحديث أبو إسحاق الحربي فقد جعل له في مكتبته في دهليز داره مكاناً للنسخ ، واستمر على ذلك مدة حياته ، وقد ظهر جهده في النسخ عندما قال لإبنته ، في علة أصابته ، حتى لا تخشى الفقر بعد وفاته : ((هناك إثنا عشر ألف جزء لغة ، وغريب ، كتبته بخطي ، إذا مِتُّ فوجِّهي في كل يوم بجزء تبيعينه بدرهم ، فمن كان عنده إثنا عشر ألف درهم ليس هو فقير)) [٢] .

واشتهر محمد بن جرير الطبري المفسِّر والمؤرخ ، بالمثابرة على نسخ كتبه ، إذ مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة [٣] .

وكان أبو بكر الرازي الطبيب لا يفارق النسخ ، فيذكر عنه محمد بن الحسن الورّاق ، بقوله : ((ما دخلت عليه قط إلا رأيته ينسخ ، إما يُسوِّد أو يُبَيِّض)) [٤] .

وشغف أبو علي ابن مقلة الوزير (ت ٣٢٨هـ / ٩٤٠م) المشهور بجودة الخط ، بالكتابة ، فكان يَشدُّ القلم على ساعده الأيمن ويكتب به ، بعد أن قُطعت يده في عهد الخليفة الراضي سنة (٣٢٦هـ / ٩٣٨م) [٥] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٦/١٣٩ ـ ١٤٠) .

(٢) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (١/٨٨) .

(٣) ابن الصلاح : طبقات الفقهاء الشافعية ، (١/١٠٩) .

(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤١٦ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٥/١١٥ ـ ١١٦) .

أمـا أبو زكريا يحيى بن عدي المنطقي [١] ، فقد كـان ملازماً للنسخ بيده لدرجة جعلت بعض أصحابه يعاتبونه على كثرة نسخة ، فقـال يحيى لأحدهم : ((من أي شيء تعجب ؟ ، مـن صبري ، لـقد نسخـت بخطـي نسخـتين مـن التفسير للطبري ... وقد كتبت مـن كتـب المتكلمـين مـا لا يحصى ، ولعـهدي بنفسي وأنا أكتـب فـي الـيوم والليلة مـائة ورقة وأقل)) [٢] .

أمـا جَلَد أبو نصـر الفـتح بـن شُخْرُف المروزي فـي النسـخ ، ومثـابرته عليه فـإنه يمثل صـورة رائعة في بابه . يقول أبو محمد الجريـري على لسـان أبو نصر عن هـذا الأمر : ((من إعـجابي بكل شيء جيد عندي ، قَلَم كتبت به أربعين سنة ، كنت أكتب به بالنهـار ، وأكتـب بـه بالليل ، وكـانـت دارنـا واسعـةً ، فكنت أكتب في القمر حتى يرتفع ، وأقـعد على سلم في دارنا ، أرتقـي عليـه مـرقـاة مـرقـاة حـتى ينتـهي السلم ، فـإذا تشـعث رأس القلم قططته ، يقـول الجريـري : فـأخـرج لـي أنبوبـة صِفْر ، وأخـرج القلم منها ، فـأرانيه)) [٣] . كمـا أن في هذا النص إشـارة واضحـة لمدى عناية أهـل العراق بأدوات الكتابة ، والمحـافظة عليها من التلف .

وفي بعض الأحيان يبذل العالـم جهداً عظيمـاً فـي النسـخ ليحصل على نتيجة قد لا توازي الجهد المبذول ، فيذكر أبو عبد الله محمد بن عمران المَرْزُبَاني في بعض مصنفاته بقوله : ((سَوَّدت عشرة آلاف ورقة ، فَصَحَّ لي مُبَيَّضاً منها ثلاثة آلاف ورقة)) [٤] .

وكمـا مارس بعض العلماء والأدباء النسخ لأنفسهم ، كـانت طائفة منهم قد قعد بها الحـال ، ولم تجد مـا يفي بأمـور المعيشـة ، فعـمـدت إلى الوِراقـة ، واتخـذتهـا مـهنة لهـا .

---

(١) أبو زكريا المنطقي : وإليه انتهت الرئاسة ، ومعرفة العلوم الحكمية في وقته ببغداد ، وكان من أفضل تلاميذه أبو نصر الفارابي ، ولخّص مصنفاته ، وشرح كتب أرسطـو . ولـه مصنـفات كثـيرة . وكانت وفاته سنة (٣٦٣هـ/٩٧٣م) . الشهرزوري : نزهة الأرواح ، (٣٨/٢) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٢٤ .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٨٥/١٢ ـ ٣٨٦) .

(٤) القفطي : إنباه الرواة ، (١٨١/٣) .

وبعضهم اتخذها لعفَّة في النفس ، وكرامة لها عن السؤال . ومن الملاحظ أن الوراقة كحرفة لم تكن تغري الناس ، ولذا ، لم يقبل عليها إلا المشتغلون بالعلم ، أساتذةً وطلاباً . لذلك ، اعتمد كثير من الفقهاء ، والمحدثين ، واللغويين ، وغيرهم على الوِراقة في كسب عيشهم [١] .

فهذا أبو عيسى محمد بن هارون (ت ٣٤٧هـ / ٨٦١م) الفقيه ، الأديب ، ممن احترف مهنة الوراقة [٢] . ومثله ، أبو القاسم جعفر بن محمد البلخي (ت ٢٨٣هـ/٨٩٦م) . عالم الحديث ، الذي كان يشتغل بالوِراقة ، والتأديب [٣] . ومن العلماء الذين اشتغلوا بالنسخ أيضاً ، عالم النحو أبو موسى سليمان بن محمد الحامض (ت ٣٠٥هـ / ٩١٧م [٤] . وكذلك ، أبو القاسم ابن بنت مَنيع البغوي (٣١٧هـ/ ٩٢٩م) ، الذي حدّث عن تجربته في هذه المهنة بقوله : ((كنت أُوَرِّق ، فسألت جدي أحمد بن منيع أن يمضي معي إلى سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي ، يسأله أن يعطيني الجزء الأول من المغازي عن أبيه عن ابن إسحاق حتى أُورقه عليه ، فجاء معي ، وسأله ، فأعطاني الجزء الأول ، فأخذته وطفت به ، فأول ما بدأت بأبي عبد الله بن مُغْلِس ، وأريته الكتاب ، وأعلمته أني أريد أن أقرأ المغازي علي سعيد الأموي ، فدفع إليّ عشرين ديناراً ، وقال : اكتب لي منه نسخة ، ثم طفت بعده بقية يومي . فلم أزل آخذ من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير ، وأكثر وأقل ، إلى أن حصل معي في ذلك اليوم مائتا دينار ، فكتبت نسخاً لأصحابها بشيء يسير من ذلك ، وقرأتها لهم ، واستفضلت الباقي)) [٥] . وكان أبو الحسين عبد الله بن محمد الخزَّاز النحوي (ت ٣٢٥هـ / ٩٣٧م) ورّاقاً لإسماعيل

---

(١) أيمن فؤاد : الكتاب العربي المخطوط ، ص ١٥٠ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ، (١٠٥/٤) . وأبو عيسى من أهل بغداد ، وله مصنفات حسان في الأدب ، منها : كتاب « المجالس » ، وغيره . (المصدر نفسه) .

(٣) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة (١٢٦/١) . وأبو القاسم البلخي : أحد أصحاب أحمد بن حنبل ، سكن بغداد ، وحدث بها عن جماعة . وروي عنه أيضاً . العليمي : المنهج الأحمد ، (٢٨٠/٢) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ١٢٦ .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١١٣/١٠ ـ ١١٤) .

القاضي ، وقد كتب بخطه كتاب « شعر أبي تمام » [١] . وكان أبو عبد الله محمد بن عبد الله الكِرْماني (ت ٣٢٩هـ / ٩٤١م) ، عالم اللغة والنحو ، ينسخ للناس بالأجرة [٢] .

أما أبو سعيد الحسن بن عبد الله السِّيرافي [٣] (ت ٣٦٨هـ / ٩٧٨م) ، قاضي بغداد ، فكان ((لا يخرج إلى مجلس الحكم حتى ينسخ بيده عشر ورقات ، ويأخذ أجرتها عشرة دراهم)) [٤] .

ولقد ظهر من بين هؤلاء النساخ مجموعة اشتهرت بحضور الذهن ، وخفة اليد ، وسرعتها في الكتابة ، ومن هؤلاء : أبو بكر أحمد بن محمد الأَثْرَم الإسْكافي الحافظ أن رجلاً قال : ((أريد رجلاً يكتب لي من كتاب الصلاة ما ليس في كتب ابن أبي شَيْبة . قال أبو القاسم : فقلنا له : ليس لك إلا أبو بكر الأثرم . قال : فوجَّهوا إليه ورقاً ، فكتب ستمائة ورقةٍ من كتاب الصلاة . قال أبو القاسم : فنظرنا فإذا ليس في كتاب ابن أبي شيبة منه شيء)) [٥] .

ومما يضرب به المثل في سرعة يد أبي بكر الأثرم مع سرعة بديهته، أن قَدِمَ شيخان من خراسان للحج ، فدخلا بغداد ، وحدّثا بها . فلما خرجا ، طلب قوم من أصحاب الحديث أن يحدثوهم، مخرجا إلى الصحراء، فقعد أحد هذين الشيخين في ناحية، والآخر في ناحية ، وأصحاب الحديث معهما ، وقعد الأثرم بينهما ، يكتب ما أملاه هذا ، وما أملاه هذا [٦] .

---

(١) القفطي : إنباه الرواة ، (٢/١٣١ ـ ١٣٥) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ١٢٧ . وكان الكرماني قد قرأ على ثعلب ، وله مؤلفات منها : كتاب « الموجز » ، وكتاب « الجامع » في اللغة . وكانت بينه وبين ابن دريد مناقضة . الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٣/٣٢٩) .

(٣) أبو سعيد السيرافي : سكن بغداد ، وحدث بها عن جماعة ، تولى قضاء بغداد . وكان من أعلم الناس بنحو البصريين ، وقرأ القرآن على ابن مجاهد . وكان أبو سعيد زاهداً ، لا يأكل إلا من كسب يده . وخلّف أبو سعيد العديد من المصنفات ، أغلبها في النحو ، ومنها : كتاب « شرح كتاب سيبويه » ، كتاب « الإقناع في النحو » ، كتاب « شرح مقصورة ابن دريد » ، كتاب « أخبار النحويين البصريين » ، وغير ذلك . الخطيب البغدادي : : تاريخ بغداد ، (٧/٣٤١ ـ ٣٤٢) . البغدادي : هدية العارفين ، (١/٢٧١) .

(٤) اليماني : إشارة التعيين ، ص ٩٣ .

(٥) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (١/٧٣) . وكان يحيى بن معين ، لشدة تعجبه من تيقظ الأثرم ، يقول : « كان أحد أبويّ الأثرم جنِّيّاً » . (المصدر نفسه) .

(٦) المصدر السابق ، (١/٧٣) .

وقد استغل بعض النسّاخين مهنة النسخ في طلب العلم ، فكانوا يستفيدون من العلماء الذين يقومون بالنسخ لهم . فيخبر أبو أحمد عبد السلام البصري ، أن أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبّاد العراقي النحوي (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٦م) ⟨١⟩ ، استكتبه كتابه « الوقف والابتداء » . فكتب له ، مع غيره من المصنفات ، ثم يُعقِّب أبو أحمد بقوله : ((وسمعت أكثرها ، وأجاز لي جميعها)) ⟨٢⟩ .

وكانت هناك شروطاً مهمة لمن أراد النجاح في صناعة الوِراقة ، تتمثل في جودة الخط ، ودقة الضبط ، وصحة النقل .

وقد بدأت عملية تطوير الخط مع نشأة حركة التأليف والترجمة ، ومع إنشاء خزائن الكتب الكبرى ، وظهرت مجموعة من النسَّاخين ، ممن توفرت فيهم صفات الخطاط الجيد ، وتفوقوا في كتابة الخط الورّاقي ، والذي خُصِّصَ لنسخ الكتب في القرنين : الثالث ، والرابع الهجريين ⟨٣⟩ . ومن أبرزهم ، أبو سعيد الحسن بن الحسين السُّكّري النحوي (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م)،الذي ((كتب بخطه ما لم يكتب أحد ، ومرغوباً في خطه لصحته)) ⟨٤⟩. ووصِفَ أبو الحسن الخزّاز بأنه مليح الخط ⟨٥⟩. كما اشتهر أبو سليمان الحامض ، بصحة الخط ، وحسن الضبط ⟨٦⟩ . أما أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم التميمي المعروف بالأَحْوَل ، وكان أستاذ ابن مُقْلَة في الخط ، فلم يُرَ في زمانه أحسن خطاً منه ، ولا أعرف بالكتابة ⟨٧⟩ .

وفي رأس الثلاثمائة الهجرية ، انتهت رئاسة الخط إلى الوزير ابن مُقْلَة ، وأخيه أبي عبد الله الحسن بن مُقْلَة (ت ٣٣٨هـ / ٩٤٩م) . وكان الكمال لأبي محمد ، وهو أول من

---

(١) أبو عبد الله العراقي : أحد نحاة العراق على مذهب البصريين . قرأ على أبي سعيد السيرافي . وله كتاب « الوقف والابتداء » ، جوده ، وحدّث به ، وسمعه منه جماعة . السيوطي : بغية الوعاة ، (١/٢٢٤) .

(٢) القفطي : إنباه الرواة ، (٣/٢١٣) .

(٣) أيمن فؤاد : الكتاب العربي المخطوط ، ص ١٦٧ .

(٤) القفطي : إنباه الرواة (١/١٨٣ ــ ٣٢٧) .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ١٣١ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

(٧) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٦/٦٠ ــ ٦١) .

هندس الحروف ، وقدّر مقاييسها ، وأبعادها بالنقط ، وضبطها ضبطاً محكماً ، ومنه انتشر الخط في مشارق الأرض ومغاربها [١] . ولقد كتب ابن مقلة بخط يده المصحف الشريف مرتين [٢] . وكتب أيضاً كتاب هدنة بين المسلمين والروم بخطه ، ((فوضعوه في كنيسة القسطنطينية ، فكانوا يبرزونه ، لحسن خطه ، في الأعياد ، ويجعلونه في جملة زينتهم في أخص بيوت العبادة ، ويعجبون من فرط حسنه ، كونه غاية في فنه)) [٣] .

ولابن مقلة آراء في تجويد الكتابة والخط ، بحسن التشكيل والوضع ، لتكون منهجاً للمتعلمين في تجويد الكتابة ، وتحسين الخط [٤] .

وممن اشتهر بحسن الخط ، وضبطه أيضاً ، أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الطبري النحوي (ت ٣٥٥هـ / ٩٦٦م) [٥] ، وكان صحيح النقل ، جيد الخط والضبط ، وعلى النسخة التي كتبها من كتاب أبي عمر الزاهد « الياقوته » الاعتماد [٦] .

وكان بيع الكتب والاتجار بها ، من وجوه صنعة الوِراقة ، ومارسها العديد من العلماء في هذه الفترة ، ومن أبرزهم : أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م) ، رأس اللغة ، والنحو بالبصرة ، الذي كان يبيع الكتب ، جمّاعاً لها [٧] .

ومن العلماء من اضطرته ظروف الحياة على بيع كتبه ليعيش من ريْعِها ، فهذا أبو بكر الصولي ، أحد أعيان عصره ممن خدم الخلفاء بالأدب ، نُهِبَت داره على يد الدَّيالمة سنة (٣٢٩هـ / ٩٤١م) فنهبوا كل شيءٍ فيها ، وقد قدَّره الصولي بثلاثة آلاف دينار .

---

(١) يحيى الجبوري : الخط والكتابة في الحضارة العربية ، ص ١١٥ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٥/١١٥ ـ ١١٦) .

(٣) الثعالبي : ثمار القلوب ، ص ١٦٧ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، (٣/١٣٩) .

(٥) أبو إسحاق الطبري : من أهل الفضل والأدب ببغداد . وقام بجمع شعر أبي نواس . وصحب أبا عمر الزاهد ، وأخذ عنه ، وعن غيره علماً كثيراً . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٦/١٧) .

(٦) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١/١٠٩ ـ ١١٠) .

(٧) السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ص ١٠٣ . الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (١/٢٢٠) .

ويصف حاله بعد هذه الحادثة بقوله : ((... وإني لفقير من ذاك الوقت ، لا رزق لي ، ولا اتصال بمن يصلني وينفعني ، أتقوت أثمان دفاتري ، وثمن بستان لي كان عيشي وجنتي)) [١] .

وكان بسوق الورّاقين دلالون ينادون على الكتب ، ويُقوِّمونها ، ومن هؤلاء الدلالين : خَيْران الورَّاق ، فبعد وفاة أبي العباس ثعلب سنة (٢٩١هـ / ٩٠٤م) ، أقنع أبو إسحاق الزَّجَّاج ، الوزير القاسم بن عبيد الله بأن يشتري خزانة كتب ثعلب ، ويضمها إلى خزانة كتبه ، فأمر القاسم علي بن عبد الله المعروف برأس البَغْل أن يُقوِّم الكتب ، ويأخذها له ، فأحضر خَيْران الورَّاق فقوّم ما يساوي عشر دنانير بثلاثة دنانير ، فبلغت أقل من ثلاثمائة دينار ، فأخذها القاسم بها [٢] .

وكانت بعض مكتبات الأشخاص تضم فريق من الورّاقين : من نسّاخين ، ومجلدين ، ومصنفي كتب . فكان في خزانة الخليفة الراضي ، جماعة من الورّاقين ، يقومون بنسخ ، وتجليد كل كتاب جديد يدخل إلى المكتبة [٣] .

ومما يلحق بصناعة الوِراقة ، عملية التجليد والتذهيب للكتب المنسوخة ، وما وصل إليه القوم في هذا المضمار . ولم تمدنا كتب التراث بمعلومات وافية عن هذا الأمر خلال تلك الفترة ، وإنما هناك إشارات مبثوثة في تلك الكتب يمكن الاستنتاج منها بعض ملامح هذه الصنعة .

ولقد تطورت صناعة تجليد الكتب حتى بلغ من جودتها أن أُدخلت عليها الزخرفة ، والتزويق ، والتذهيب بأساليب مختلفة [٤] . ففي سنة (٣٠٩هـ / ٩٢١م) جَدَّ الوزير حامد

---

(١) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٢١٠ ـ ٢١١ .

(٢) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٤٩ ـ ١٥٠ .

(٣) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٤٠ .

(٤) كوركيس عواد : خزائن الكتب القديمة ، ص ٢١ .

بن العباس [١] في طلب أصحاب الحلاّج [٢] ، ومنهم : ابن حماد ، والقُنّائي ، فكبست دار ابن حماد ، فأخذت منه كتباً كثيرة . كما صودرت كتب القنائي ، وكانت ((مكتوبة في ورق صيني ، وبعضها مكتوب بماء الذهب ، مبطنة بالديباج ، والحرير ، مجلدة بالأدم الجيد)) [٣] .

ولقد كانت صناعة الورق في العالم الإسلامي من العوامل المباشرة والمهمة لانتشار الكتب ، وظهور المكتبات ، وشيوعها من جهة ، وظهور الوِراقة والورّاقون على نطاق واسع ، نظراً للحاجة إليهم ، من جهة أخرى [٤] .

وأدرك بعض الميسورين والأعيان في العراق ، في ذلك الوقت ، أهمية الورق كعامل مؤثر في ازدهار الحركة العلمية عموماً ، وعلى حركة التأليف بشكل خاص . فكان الورق أحد الوسائل التي استخدمها الكثير من الوزراء والأعيان في تشجيع العلماء على التأليف ، وتذليل الصعوبات التي تواجههم ، والمتمثلة في حاجتهم الدائمة للورق . ولذا ، قام الوزير علي ابن الفرات بتخصيص حجرة في داره تعرف « بحجرة الكَاغَد » ، يدخل إليها كل من احتاج إليه فيأخذ منه كفايته [٥] .

---

(١) الوزير حامد بن العباس : اتصف بالحدة ، والقسوة ، مع الكرم . كان يتولى أعمال السواد ، واستوزره الخليفة المقتدر سنة (٣٠٦هـ/٩١٨م) . وكان قليل الخبرة . وقتل سنة (٣١١هـ/٩٢٣م) . الصابيء : رسوم دار الخلافة ، ص ٧٧ ـ ٧٨ . الوزراء ، ص ١٢٦ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢٠٤ . ابن الأثير : الكامل ، (١٣٩/٨ ـ ١٤٢) .

(٢) الحلاّج : هو أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج . أصله من فارس ، ونشأ بواسط في العراق ، وتنقل بين بغداد والبصرة ، يعد في زمرة الملاحدة ، وظهر أمره سنة (٢٩٩هـ/٩١١م) ، واتبعه جماعة . ثم فشى أمره ، وأمر الخليفة المقتدر بالقبض عليه سنة (٣٠٩هـ/٩٢٢م) ، فسجن ، وعذب ، وقطعت أطرافه الأربعة ، ثم حُزَّ رأسه ، وأحرقت جثته ، ونصب رأسه على جسر بغداد . ابن كثير : البداية والنهاية ، (١٣٢/١١ ـ ١٤٤) . ابن حجر : لسان الميزان ، (٣١٤/٢ ـ ٣١٥) .

(٣) القرطبي : صلة تاريخ الطبري ، ص ٨١ .

(٤) مريزن عسيري : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، ص ١٨٣ .

(٥) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٢٦٦ .

وتجاوز الأمر فوق ذلك ، إذ أن بعض ميسوري الحال في الأمصار الإسلامية ، كانوا يرسلون ، بين الفينة والأخرى ، الورق إلى العلماء في بغداد ، تقديراً وإحساناً إليهم . وفي ذلك دلالة واضحة لاستشعار المسلمين بأهمية الورق في نشاط العلوم حتى أضحى من الهدايا الثمينة التي تُهدى . ففي أحد الأيام كان أبو إسحاق الحربي جالساً على باب داره ، فإذا رجل يقود جملين عليهما حَمْلان من الورق ، فحط الجملين عند أبي إسحاق وقال : ((هذان الحملان أنفذهما لك رجل من خراسان ، واستحلفني ألا أذكر اسمه ، فذهب الرجل)) (١) .

وكان لطبيعة الحروف العربية الأثر الكبير في ازدهار الخط العربي ، وشهرته ، وجمال رسمه ، وفي هذا الصدد يقول أبو يوسف الكندي : ((لا أعلم كتابة تحتمل من تجليل حروفها ، وتدقيقها ، ما تحتمل الكتابة العربية ، ويمكن فيها من السرعة ما لا يمكن في غيرها من الكتابات)) (٢) .

ولقد كانت أدوات الكتابة من قلم ، وورق ، وحبر ، ونحو ذلك محط اهتمام علماء العصر وأدبائه ، وتناولوها بأقوال مأثورة ، شعراً ونثراً ، فقال ابن أبي دُؤَاد في أهمية القلم : ((القلم سفير العقل ، ورسوله ، ولسانه الأطول ، وترجمانه الأفضل)) (٣) . أما ابن المعتز فإنه يتتبع أحوال القلم بتصوير نثري جميل في قوله : ((القلم مُجَهِّز لجيوش الكلام ، تخدمه الإرادة ، ولا يمل من الاستزادة ، ويسكت واقفاً ، وينطق سائراً على أرض بياضها مظلم ، وسوادها مضيء ، وكأنه يقبِّل بساط سلطان ، أو يفتح نُوار بستان)) (٤) .

---

(١) ابن أبي يعلي : طبقات الحنابلة ، (١/٨٨)

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٢٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(٤) الحصري : زهر الآداب ، (١/٢/٤٧٩) . القلقشندي : صبح الأعشى ، (٢/٤٤٦) .

وهذا ابن الرومي الشاعر يصف حبر أبي حفص الورّاق بأبيات قائلاً [١] :

كأنه ألـوانُ دُهـم الخيـلِ	حِبْر أبي حفصٍ لعاب الليلِ
يسيلُ للإخـوانِ أيُّ سيـلِ	بغيرِ ميزانٍ وغير كيـلِ

ولأهمية صناعة الوِراقة ، كانت آدابها ، والمواد المستخدمة فيها من أقلام ، ومحابر ، وورق وغيرها ، محاور للعديد من المصنفات التي قام بوضعها علماء العراق وأدبائه في تلك الفترة ، إيماناً منهم بأهمية الوِراقة والورّاقون الكبيرة على حركة التأليف في ذلك الوقت . فصنف أبو سعيد محمد بن هبيرة الأسدي الكوفي المعروف بصَعُودا [٢] رسالة « الخط وما يستعمل في البري والقط » ، وكتاب « فيما يستعمله الكاتب » [٣] . ووضع أبو بكر ابن السَّرَّاج رسالة سماها : « كتاب القلم » [٤] ، وله أيضاً ، كتاب « الخط » [٥] . وشارك أبو طالب المُفَضَّل بن سَلَمة ، الذي اشتهر بملاحة خطه ، في هذا الميدان بكتابين : الأول : « آلة الكاتب » ، والآخر : « الخط والقلم » [٦] . ولم يكتف الوزير ابن مقلة بالإسهام في رقي الخط العربي فحسب ، بل ساهم في باب التأليف أيضاً ، فصنف رسائل في الكتابة والخط ، منها : رسالة « في علم الخط والقلم » ، ورسالة « في ميزان الخط » [٧] ،

---

(١) الصولي : أدب الكاتب ، ص ٩٢ .

(٢) أبو سعيد الكوفي : أحد نحاة الكوفة المعروفين . عارفاً بالنحو ، واللغة ، وفنون الأدب . قدم بغداد ، واختص بعبد الله بن المعتز ، وصنف له رسالة « فيما أنكرته العرب على أبي عبيد القاسم بن سلام ووافقته فيه » . وكانت وفاته سنة (٢٩٥هـ/٩٠٨م) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٠٥/١٩) . السيوطي : بغية الوعاة ، (٢٥٦/١) .

(٣) البغدادي : هدية العارفين ، (٢٢/٢) .

(٤) وهي عبارة عن رسالة من صفحة واحدة ، نشرها : عبد العزيز الساوري ، مجلة عالم الكتب ، مج ١٠ ، ع١ ، ١٤١٤هـ ، ص ٧١ ـ ٧٣ .

(٥) منشور بتحقيق : عبد الحسين الفتلي ، مجلة المورد ، مج ٥ ، ع٣ ، ١٩٧٦م .

(٦) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

(٧) الأولى محفوظة بدار الكتب المصرية في القاهرة ، والثانية محفوظة بمكتبة العطّارين بتونس .

ورسـالة « أصناف الكتّاب » [١] ، وفي هذه الرسـالة تناول ابن مـقلة الحـديث عن أصناف الكتّاب ، وجعلهم خمسة أصناف ، ثم أخذ باستعراض كل صنف بشيء من التفصيل . وبعد ذلك عرّج ابن مقلة في الحديث عن آلات الكتابة التي لا غنى عن معرفتها بالنسبة للكتّاب ، وأهميتها في العمل . ثم تتبع ابن مقلة مراحل إخراج الكتاب بدءاً من كتابته وحتى الانتهاء منه ، والخطوات ، والأمـور التي يجب أن يضـمنها الكاتب للكتـاب عند نسـخـه في صـورته النهائية : كالعنوان ، والبراءة من الكتاب إذا حدث فيها تغيير أو تبديل على من جاء من بعد مؤلفه ، والتوقيع ، وغير ذلك من الأمور المستكملة لشخصية الكتاب النموذجي في تأليفه من وجهة نظر ابن مقلة .

---

(٨) مخطوط مصور بمعهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، برقم (٢٦٧ أدب) .

المبحث الثالث

خزائــن الكتــب

كان حب المسلمين للكتاب عموماً حباً جما ، لِما غرسه الإسلام في نفوسهم من حب العلم ، والحث على تحصيله من مظانه المختلفة . وكانت أداة العلم هي الكتاب . ولذلك أقبل المجتمع في العراق ، بشكل عام ، على اقتناء الكتب ، وتكوين المكتبات الشخصية ، يدفعهم في ذلك حب خالص للكتب ، وتقديراً لمكانتها [١] .

وأضحى الكتاب مادةً خصبة نسج البعض منظوم الكلام ومنثوره في مدحه ، وبيان مكانته في نفوسهم . ويقول الأمير عبد الله بن المعتز عن الكتاب : ((الكتاب والج الأبواب ، جريء على الحجّاب ، مُفهم لا يَفهم ، وناطق لا يتكلم ، به يشخص المشتاق إذا أقعده الفراق)) [٢] .

أما الجاحظ ، فيسجل مكانة الكتاب في نظره ، وأهميته كمصدر للتثقيف بقوله : ((ونعم الذخر والعقدة هو ، ونعم الجليس والعُدَّة ، ونعم النشرة النزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس لساعة الوحدة ، ونعم المعرفةُ ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل ، ونعم الوزير والنزيل)) [٣] .

ويقول في موضع آخر : ((والكتاب هو الجليس الذي لا يُطْريك ، والصديق الذي لا يُغْريك ، والرفيق الذي لا يَمَلُّك ، والمستميح الذي لا يَسْتريثُك ..)) [٤] .

---

(١) شعبان خليفة : الكتب والمكتبات في العصور الوسطى ، ص ٢٦١ .

(٢) الحصري : زهر الآداب ، (٤٧٩/٢/١) .

(٣) الجاحظ : الحيوان ، (٣٨/١) . وقد عقد الجاحظ في صدر هذا الجزء من كتابه موضوعاً بعنوان : (نعت الكتاب) ، ص ٣٨ ـ ٤٢ . موضحاً فيه منزلة الكتاب ، وأهميته في حياة الإنسان . وموضوعاً آخر بعنوان : (فضل الكتاب) ، ص ٥٠ ـ ٥٤ . موضحاً فيه منزلة الكتاب ، وفضله أيضاً ، ومستشهداً في هذا الباب بأقوال العديد من العلماء ، وشخصيات عصره البارزة . البيهقي : المحاسن والمساوىء ، ص ١٣ .

(٤) المصدر السابق ، (٥٠/١ ـ ٥١) .

أما علي بن الجهم الشاعر ، فقد صاغ أهمية الكتاب ، وقيمته في حياة الإنسان ، في أبيات شعرية ، مطلعها [١] :

سميرٌ إذا جالسته كـان مسلياً　　　　فؤادك مما فيه من ألمِ الوجدِ

ولذا ، لم يكن غريباً أن يوجد في العصر أناس أُشربوا حب الكتاب ، ولزومه ، ولا فرق عندهم في الزمان والمكان ، فالغرض نبيل ، والهدف مرسوم ، والهمة متوقدة .

ويكفي أن نبرهن على ذلك بما أورده الخطيب البغدادي عن المبرّد عند حديثه عن ثلاث شخصيات بارزة في المجتمع العراقي في ذلك الوقت . إذ يقول : ((ثلاثة لم أر قط ، ولا سمعت أحب إليهم من الكتب ، والعلوم : الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، وإسماعيل بن إسحاق القاضي)) [٢] .

ولاستغلال أوقات الفراغ بكل ما هو مفيد ، كان لبعض العلماء طرائق عدة لحمل الكتب معهم أثناء حياتهم اليومية ، فقد خصص بعضهم مكاناً في ملبسه يحمل فيه الكتب عند خروجه من بيته ، حتى يكون سلوته في أي زمان ومكان ، حرصاً منهم على استثمار أوقاتهم في إعمال العقول ، وتغذيتها بالمفيد من خلال القراءة الدائمة . فكان لجبة أبي داود السجستاني كم واسع ، وآخر ضيق ، فقيل له : ما هذا يرحمك الله ؟ . فقال أبو داود : ((هذا الواسع للكتب ، والآخر لا أحتاج إليه)) [٣] . وهذا الأمر قد فعله أبو محمد سلَمه بن عاصم النحوي (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) في عباءته ، إذا جعل أحد أكمامها أوسع من الآخر ، ليحمل فيه الكتب [٤] . ولذا ، فقد أخذ بعض المصنفين بعين الاعتبار هذا الأمر ، فأخرجوا كتباً صغيرة الحجم ، ليسهل حملها . وعندما نقرأ عن بعض المصنفات نجد أن المؤلف يلحقها بعبارة : وهو مما يُحْمَلُ في الكُم [٥] .

---

(١) ابن الجهم : الديوان ، ص ١١١ . الطرطوشي : سراج الملوك ، (٧٨٣/٢) .

(٢) الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، ص ١٣٩ . الكتبي : فوات الوفيات ، (١٧٧/٣ ـ ١٧٨) .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، (٥٥/١١) .

(٤) القفطي : إنباه الرواة ، (٥٧/٢) .

(٥) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٥٤ .

وكان العلماء في العراق يبذلون المال في تحصيل الكتب النادرة ، فقد أراد يحيى بن عدي الفيلسوف شراء شرح الأسكندر الأفروديسي لكتابي:« السماع الطبيعي » و« البرهان » لأرسطاطاليس من تركة إبراهيم بن عبد الله الناقد ، وكان مبلغ الشرحين مائة وعشرين ديناراً . يقول يحيى : ((فمضيت لأحتال الدنانير ، وعدت وأصبت القوم قد باعوا الشرحين في جملة كتب على رجل خراساني بثلاثة آلاف دينار . وعرض يحيى على إبراهيم الناقد في حياته شراء ثلاثة كتب لأرسطاطاليس بخميس ديناراً فلم يبعها)) [١] .

ويعلق القفطي على ما سبق بقوله : ((فانظر إلى همة الناس في تحصيل العلوم ، والاجتهاد في حفظها ، والله لو أُحضرت هذه الكتب المشار إليها في زماننا هذا ، وعُرضت على مدعي علمها ، ما أدوا فيها عشر مِعْشار ما ذكر)) [٢] .

ولذ تزايد عدد المكتبات ، وتنوعت أغراضها ، فهناك مكتبات خاصة بأصحابها ، ومعينهم في نشاطهم العلمي ، وأخرى كانت مفتوحة لكل من أراد الاستفادة منها من أفراد المجتمع [٣] . وتبارى أفراد المجتمع ، بمختلف فئاته ، في إنشاء خزائن الكتب ، تعبيراً عن حبهم وتقديرهم للعلم وأدواته ، وإدراكهم العميق لأهمية خزائن الكتب الثقافية ، والحضارية .

أ ــ خزائن الخلفاء :

كان معظم خلفاء بني العباس ، من المشجعين للعلم والعلماء ، وكان لبعضهم اهتمام شخصي بجمع الكتب في خزانة خاصة في قصره ، لتكون مرجعية لمجلس العلم الذي كان يعقده في القصر ، أو للاطلاع الشخصي .

١ــ خزانة الحكمة :

ومن أبرز هذه الخزائن « خزانة الحكمة » ببغداد ، وكانت من أعظم خزائن الكتب في مملكة الإسلام ، لأنها حوت على رفوفها كتباً متنوعة الثقافات ، والمشارب ، في العربية ، والفارسية ، واليونانية ، والسريانية ، وغيرها [٤] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(٣) ربحي عليان : الكتب والمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية ، ص ٧١ .

(٤) كوركيس عواد : خزائن الكتب القديمة ، ص ١٠٥ .

ويصف القلقشندي هذه الخزانة ، بقوله : ((إن أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن : إحداها ، خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد ، فكان فيها من الكتب ما لا يحصى كثرة ، ولا يقوم عليه نفاسة ، ولم تزل على ذلك إلى أن دَهَمت التَّتَرْ بغداد ، وقتل ملكهم (هولاكو) المستعصم آخر خلفائهم ببغداد . فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب ، وذهبت معالمها ، وأعفت آثارها)) [١] .

وكان الخلفاء المتعاقبون عليها ، منذ تأسيسها في عهد هارون الرشيد ، يقومون بتزويدها بنوادر الكتب ، إما تأليفاً على يد العلماء ، أو من خلال عملية النقل والترجمة ، التي أفرزت عشرات المؤلفات المنقولة إلى اللغة العربية ، وشروحها ، وكل ما أسفرت عنه جهود النقلة في إثراء هذه الخزانة ، خاصة وأن « بيت الحكمة » يعد المركز الرئيسي للترجمة ، وبالتالي لابد أن يكون الكثير من النقولات قد أودعت خزانة بيت الحكمة ، أو نسخة منها على الأقل .

وكانت هذه الخزانة ، وما حوته من نوادر المصنفات ، مقصد بعض الخلفاء للاطلاع ، والقراءة ، رغبة في الثقافة والفائدة . وكان بعض الخلفاء ، الذين كانت لهم اهتمامات علمية ، يطالعون هذه الخزانة وقد يسجل ، في بعض الأحيان ، رأياً أو تعليقاً على وجه الكتاب أو ظهره . فقد عُرض على الخليفة المهتدي (٢٥٥ـ٢٥٦هـ/٨٦٩ـ٨٧٠م) دفاتر خزائن الكتب ، فإذا على ظهر كتاب منها أبيات قالها الخليفة المعتز ، وكتبها بخطه [٢] .

٢ ـــ خزانة الخليفة المعتضد (ت ٢٨٩هـ / ٩٠٢م) :

ومن خزائن الخلفاء الأخرى ، خزانة المعتضد ، التي أشارت إليها بعض المصادر التاريخية عرضاً . وقد ضمت هذه الخزانة المصنفات التي قام أصحابها بعملها باسم الخليفة المعتضد ، ولا توجد إلا نسخة واحدة منها ، تكون في خزانة المعتضد فقط . فعلى سبيل المثال عندما انتهى أبو إسحاق الزَّجّاج النحوي من بشرح كتاب « جامع المنطق » لأبي جعفر محمد بن يحيى المعروف (بمحبرة النديم) ، حمله إلى الوزير القاسم بن عبيد الله ،

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، (١/٥٣٧) .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ، (٤/١٩٢ ـ ١٩٣) .

والذي قام بدوره بحمل الكتاب إلى الخليفة ، فاستحسنه ، وأمر للزجاج بثلاثمائة دينار . يقول النديم راوي الخبر : « ولم يخرج لِما عمله الزَّجَّاج نسخة إلى أحد إلا إلى خزانة المعتضد)) [١] .

٣ ـ خزانة الخليفة الراضي (ت ٣٢٩هـ / ٩٤٠م) :

ومن الخزائن التي قام بإنشائها خلفاء بني العباس في ذلك الوقت ، خزانة الراضي ، ولقد قام الخليفة الراضي بإنشاء هذه الخزانة قبل أن يتولى الخلافة بسنين ، وقد عملها له مؤدبه ، ونديمه فيما بعد ، أبو بكر الصولي ، الذي تقدم لخدمة الراضي وأخاه هارون ، وتأديبهما . ويقول عن دوره في ذلك الأمر : ((فَحبَّبْتُ العلم إليهما ، واشتريت لهما من كتب الفقه ، والشعر ، واللغة ، والأخبار قطعة حسنة ، فتتنافسا في ذلك ، وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه ، وقرئا عليّ الأخبار ، والأشعار)) [٢] .

ولا شك أن الراضي قد أخذ في توسيع هذه الخزانة ، وتزويدها بالجديد من الكتب في مراحل حياته المختلفة حتى وصلت إلى الدرجة التي كانت عليها في خلافته .

ومما يدلنا على سعة خزانة الراضي ، أنه كان يوجد فيها فريق من النسّاخين ، والمجلدين ، وفي ذلك إشارة إلى عظم هذه الخزانة ، وإلا لما كان فيها النساخون، والمجلدون، إذ كان صميم عملهم هو نسخ الكتب المطلوبة ، وتجليدها ، ووضعها في الخزانة ، وهذا الأمر نستنتجه من الحوار الذي دار بين الخليفة الراضي ونديمه أبو بكر الصولي ، واختلافهم حول تصحيف وقع في بيت شعر لنَهْشَلْ بن حَري النَّهْشَلي [٣] فوجّه الراضي في طلب ديوان نَهْشَل من الخزانة فلم يجده . يقول الصولي : ((فقلت له : وهذا أيضاً عجب ، يتحدث الناس بأن سيدنا ، مع جلالة علمه ، وعلو نعمته ، عمل خزانة كتب كما عمل متقدموا الخلفاء ،

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٩٥ . القفطي : إنباه الرواة ، (٣/٢٣٢) .

(٢) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٢٥ .

(٣) نهشل النهشلي : هو نهشل بن حري الدارمي . شاعر مخضرم . أدرك الجاهلية ، وعاش في الإسلام . أسلم ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم ، وصحب علي ابن أبي طالب رضي الله عنه في حروبه ، وبقي إلى أيام معاوية . وكان أحد مشاهير الشعراء في وقته . وكانت وفاته نحو (٤٥هـ/٦٦٥م) . الجمحي : طبقات الشعراء ، ص ١٣٠ . ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ص ٤٢٩ .

طلب فيها شعر هذا الشاعر المشهور فلم يوجد . قال الراضي : فما الحيلة ، وقد شُغلنا بغيرها ؟ ، قلت : كُتب عبيدك لك ، فتبتديء في عمل الأشعار من الخزانة ، تبدأ بمضر ، ثم ربيعة ، ثم اليمن ، فما لم يكن فيها حمله عبيدك من كتبهم ، وما كان سماعاً لعبيدك ، أو شيئاً لا يعتاضون منه ، نسخه ورّاقوك ، الذين تجري عليهم ، وجلّده مجلدوا الخزانة)) (١) . ومن خلال ما سبق يمكن القول : إذا كان ديوان نهشل النهشلي مستغرباً من عدم وجوده ، ففي ذلك إشارة غير مباشرة إلى وجود أغلب دواوين الشعراء المشهورين ، سواء في الجاهلية أو الإسلام .

ومما يدلنا كذلك على عِظم هذه الخزانة . أن الراضي قد زادت عليه الأعمال الخاصة بالدولة ، فلم يكن هناك متسع من الوقت عند الراضي للنظر ، والاطلاع في هذه الخزانة الكبيرة ، فأشار عليه الصولي بأن يبقي على الكتب التي يريد النظر فيها ، ويقسِّم الباقي بين ولديه . فأمر الراضي بإخراج الكتب ، فأخذ ما أراد ، وقسم الباقي بين ولديه . يقول الصولي بعد إيراده لهذا الخبر : ((ووهب لنا (أي جلسائه) الباقي فاقتسمناه . وكان أكثره ما يباع وزناً)) (٢) . وإذا صَحَّ هذا الخبر ، فإن في هذا القول دلالة على ضخامة خزانة الراضي من جهة ، ومن جهة أخرى ، أن هناك نوعاً من الاستغراب من جراء تصرف الراضي ، وهو الأديب ، الذي صرف وقتاً ، وجهداً لعمل هذه الخزانة ، ثم يتنازل عنها بهذه السهولة .

ب ـ خزائن الوزراء :

كان قيام بعض الوزراء بتأسيس خزائن كتب خاصة بهم ، امتداداً لاهتمامهم بالعلم والأدب ، خاصة وأن بعضهم كان يُعد من أدباء عصره البارزين . فكان الواحد منهم بحاجة إلى خزانة كتب تعينه على ممارسة نشاطه العلمي . ومن خزائن الوزراء المشهورة :

١ ـ خزانة محمد بن عبد الملك الزيات (ت ٢٣٣هـ / ٨٤٧م) .

وكان ابن الزَّيَّات ممن أولى العلم والعلماء جُل عنايته واهتمامه ، ونقلت بإسمه العديد من الكتب اليونانية إلى العربية .

---

(١) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٣٨ ـ ٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

ولابن الزَّيّات خزانة كتب ازدانت بنفائس الكتب ، وهو ما نلمسه في رد ابن الزَّيّات على الجاحظ ، عندما جاءه الأخير بهدية عبارة عن نسخة من « الكتاب » لسيبويه ، فلما وصل إليه قال له : ((لم أجد شيئاً أهديه لك مثل هذا الكتاب . فقال ابن الزَّيّات : أو ظننت أن خزانتنا خالية من هذا الكتاب ؟ ، فقال الجاحظ : ما ظننت ذلك ، ولكنها بخط الفرّاء ، ومقابلة الكِسائي ، وتهذيب عمرو بن بَحْر الجاحظ (يعني نفسه) . فقال ابن الزَّيّات : هذه أجلُّ نسخة توجد ، وأعزُّها)) [١] .

ومن غير المستبعد أن تكون الكتب التي ترجمة إلى العربية باسم ابن الزَّيّات قد أودعت في هذه الخزانة .

٢ـ خزانة الفتح بن خاقان (ت ٢٤٧هـ / ٨٦١م) .

ومن خزائن الوزراء أيضاً ، خزانة الفتح بن خاقان . وحب الفتح للكتب لا يحتاج إلى مزيد برهان فوق ما قاله أبو هفّان فيما سبق ذكره [٢] . ولذا ، كان من الطبيعي أن تكون له خزانة ((لم يُرَ أعظم منها كثرة ، وحسناً)) [٣] . وقد تولى أمر إنشاء هذه الخزانة لابن خاقان ، نديمه علي بن يحيى المنجم ، فنقل إلهيا من كتبه ، وما استكتبه شيئاً عظيماً ، يزيد على ما كان في خزانته هو ، وأكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط ، وأن جُل كتب خزانة الفتح في الحكمة [٤] . وكان يحضر لهذه المكتبة فصحاء الأعراب ، وعلماء البصرة ، والكوفة للقراءة ، والاطلاع [٥] .

كما أضيف إلى هذه الخزانة ، الكتب التي قام بتصنيفها بعض العلماء والأدباء للفتح بن خاقان ، كالجاحظ ، ومحمد بن الحارث الثعلبي ، ومحمد بن حبيب ، وغيرهم [٦] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤٦٣/٣) .

(٢) انظر مبحث : اهتمام الأمراء والأعيان بالحركة العلمية ، ص ٨٧ .

(٣) الكتبي : فوات الوفيات ، (١٧٧/٣) .

(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٧٤/١٦) .

(٥) الكتبي : فوات الوفيات ، (١٧٧/٣) .

(٦) انظر مبحث : اهتمام الأمراء والأعيان بالحركة العلمية ص .

٣ ـ خزانة القاسم بن عبيد الله (ت ٢٩١هـ / ٩٠٤م) .

ومن خزائن الوزراء أيضاً ، خزانة القاسم بن عبيد الله ، وقد ذكرنا فيما مضى ، أن القاسم قد اشترى خزانة ثعلب بمشورة من أبي إسحاق الزَّجَّاج . ولا شك أن ذلك يعد مكسباً كبيراً للقاسم ، إذا ضم إليه خزانة عالم كأبي العابس ثعلب ، والتي كانت تحوي بلا شك ، نفائس الكتب ، ونادرها [١] .

جـ ـ خزائن العلماء والأدباء :

من الطبيعي أن يكون للعلماء والأدباء خزائن كتب خاصة ، ولكن هناك خزائن للعلماء والأدباء اشتهرت في كتب التراث نظراً لحجمها ، أو اشتمالها على نفائس الكتب ، أو غير ذلك من الأمور التي لفتت انتباه مصنفي كتب التاريخ ، والتراجم ، والأدب . غير أن ما ذكرته تلك المصادر لا يتناسب مع ما هو واقع في العراق ، من حيث انتشار خزائن الكتب ، إذ أن حجم التأليف يوحي بصورة أكثر بوجود العشرات من خزائن الكتب التي لم يرد لها ذكر في تلك المصادر . ومن تلك الخزائن :

١ ـ خزانة يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ / ٨٤٨م) .

ومن خزائن العلماء المشهورة ، خزانة يحيى بن معين ، ولقد اشتهر ابن معين بأنه كان ينسخ بنفسه ، وعندما سُئل عن مقدار ما كتبه من الحديث ؟ ، أجاب بقوله : ((كتبت بيدي هذه ستمائة ألف حديث)) [٢] .

وكانت ليحيى بن معين خزانة كتب عظيمة بلغت : مائة وأربعة عشر قِمَطْراً [٣] ، وأربعة حِبَابُ شرابية [٤] مملوءة كتباً [٥] .

---

(١) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٣٩/٦ ـ ١٤٠) .

(٣) القمطر : ما تصان فيه الكتب . ابن منظور : لسان العرب ، (١١٧/٥) .

(٤) الحباب الشرابية : الحباب ، جمع حب ، والحب : الجرة الضخمة . المصدر السابق ، (٢٩٥/١) .

(٥) النووي : تهذيب الأسماء واللغات ، (٤٥٢/٢) . العليمي : المنهج الأحمد ، (١٥٧/١) .

٢ ــ خزانة إسحاق بن إبراهيم الموصلي (ت ٢٣٥هـ / ٨٤٩م) .

ومن خزائن كتب الأدباء التي ذاعت شهرتها ، خزانة إسحاق الموصلي . وكان إسحاق من أدباء عصره المكثرين في التأليف . وقد أعان إسحاق على إنجاز مصنفاته خزانة كتبه الجليلة ، والتي كانت تضم مئات الكتب ، وفق معطيات ما دار بين الأصمعي وإسحاق ، عندما أراد الأخير الذهاب إلى الرَّقة .

ونترك الأصمعي يخبرنا بما دار بينهما ، ويقول : ((فقلت له (أي إسحاق) : هل حملت شيئاً من كتبك ؟ . فقال : حملت ما خف ، فقلت : كم مقداره ؟ . فقال : ثمانية عشر صندوقاً ، فعجبت ، وقلت : إذا كان هذا ما خف ، فكم يكون ما ثقل ؟ . فقال : أضعاف ذلك)) [١] .

ويقول أبو العباس ثعلب عن مقدار كتب اللغة في خزانة الموصلي : ((رأيت لإسحاق الموصلي ألف جزء من لغات العرب ، كلها بسماعه . وما رأيت في اللغة في منزل أحد قط أكثر منها في منزل إسحاق ، ثم منزل ابن الأعرابي)) [٢] .

ولقد حدد إسحاق حجم خزانته ، وذلك عندما سأله عمر بن شَبَّة عن مقدار ما عنده من الكتب ، فقال إسحاق : ((عندي مائة قِمَطْر)) [٣] .

٣ ــ خزانة عبد الله بن محمد النيسابوري اللغوي (ت ٢٣٦هـ / ٨٥٠م) .

وكانت خزانة أبو عبد الرحمن النيسابوري [٤] ، من خزائن الكتب التي تميزت بحسنها ، وعِظَمها ، وكان أبو عبد الرحمن ((جمّاعة للكتب ، كثير الحفظ لها ، إلى أن صارت جملة عظيمة ، وبيعت بأربعمائة ألف درهم)) [٥] .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء (٦/٨) .

(٢) القفطي : إنباه الرواة ، (١/٢٥٢) .

(٣) المصدر السابق ، (١/٢٥٢) .

(٤) أبو عبد الرحمن النيسابوري : أحد علماء اللغة العارفين بعلم الأدب ، بصيراً بالنحو . سكن بغداد ، وحدّث بها ، وروى عنه خلق كثير . وأخذ عن الأخفش في اللغة ، والنحو . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٠/٧٢ ـ ٧٣) .

(٥) القفطي : إنباه الرواة ، (٢/١٢٧) .

وقام أبو عبد الرحمن بتهيئة خزانته للمستفيدين منها من عامة الناس ، وذلك بتوفير ما يلزمهم ويعينهم على إنجاز ما هدفوا إليه من ترددهم إلى خزانته . فقد أعد داراً لكل من يقدم من المستفيدين ، ويأمر بإنزاله فيها ، ويوفر ما يحتاج إليه في النسخ من الورق ، ونحوه ، ويوسع فوق ذلك النفقة عليه (١) .

٤ ـ خزانة أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م) .

أيضاً كانت خزانة أحمد بن حنبل من خزائن الكتب العامرة . وقال أبو زرعة عنها : ((حزرت كتب أحمد يوم مات فبلغت إثنى عشر حملاً وعِدْلاً (٢) ، ما كان على ظهر كتاب منها : حديث فلان ، ولا : حدثنا فلان . وكل ذلك كان يحفظه عن ظهر قلب)) (٣) .

٥ ـ خزانة يعقوب بن إسحاق الكندي (ت ٢٥٢هـ / ٨٦٦م) .

ومن خزائن الكتب المشهورة ، خزانة الكندي . والكندي من علماء الفترة الموسوعيين ، ويعد من أبرز علماء عصره في كثرة التأليف . ولهذا كانت خزانة كتبه من الخزائن الغنية والزاخرة بالمصنفات في شتى العلوم والمعارف . ولقد تعرّضت خزانة الكندي ، على حد قول ابن أبي أصيبعة ، للاعتداء من قبل أبناء موسى بن شاكر في عهد الخليفة المتوكل . وذلك بأن دبّروا على الكندي مكيدة أوغرت صدر المتوكل عليه ، فأمر بضربه ، واستغل محمد وأحمد أبناء موسى بن شاكر هذا الموقف ، ووجها إلى دار الكندي ، فأخذا كتبه بأسرها ، وأفرداها في خزانة سميت « الكندية » (٤) . وعندما علم المتوكل بحقيقة الأمر ، أطلق الكندي ، وغضب على ابني موسى بن شاكر ، وأوكل أمرهما إلى سند

---

(١) المصدر السابق ، (١٢٧/٢) .

(٢) حملا وعدلا : الحمل : ما حمل على ظهر ، أو رأس . والعدل : نصف الحمل على أحد جنبي البعير ، وهو معدل بحمل : أي مستوى به . والمعنى : إثني عشر بعيراً ، كل بعير مُحمَّلٌ من الجانبين . ابن منظور : لسان العرب ، (١٧٦/١١ ـ ٤٣٢) .

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٢٤١ ـ ٢٥٠هـ) ، ص ٦٧ .

(٤) ابن الداية : المكافأة ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

بن علي [١] ، للتحقيق في الخطأ الفادح الذي وقع فيه أبناء موسى بن شاكر في حفر « نهر الجعفري » [٢] ، وتوليتهم لهذه المهمة المهندس أحمد بن كثير الفَرْغَاني . واستغل سند بن علي هذا الموقف ، وأخذ يهدد أبناء موسى بن شاكر إن لم يردوا كتب الكندي عليه بأن يذكرهم بسوء عند الخليفة المتوكل ، فتقدم محمد بن موسى وحمل الكتب إلي الكندي ، وأخذ خطه باستيفائها [٣] . وكانت فهرسة كتب الكندي تزيد على دَسْت كَاغَد [٤] .

٦ ـ خزانة عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م) .

أما خزانة الجاحظ ، فلم تذكرها المصادر التاريخية والأدبية صراحةً ، وهو أمر يبعث على الاستغراب ، فشخصية مثل الجاحظ ، اشتهرت بحب الكتب ، وكثرة التآليف ، وغزارته ، فلا نجد إشارة مباشرة ، أو وصفاً ، أو حتى خبراً عن أمر خزانته . ولكن جاء ذكر كتب الجاحظ الخاصة عندما تعرض أحد المؤرخين لسبب وفاته ، وهو أبو الفداء ، وتبعه كل من قال بهذا الخبر ، بأنه كان من عادة الجاحظ أن يصفف كتبه قائمة كالحائط محيطة به ، وهو جالس بينها ، فسقطت عليه ذات مرة ، وكان مريضاً ، فتسببت في وفاته [٥] .

٧ ـ خزانة سهل بن محمد السجستاني (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م) .

من خزائن العلماء الجليلة ، خزانة أبي حاتم السجستاني . وكان أبو حاتم جمَّاعةً للكتب ، ويَتَّجِر فيها ، واشتهر بكثرة التآليف في اللغة [٦] . وكانت له بالبصرة خزانة كتب

---

(١) سند بن علي : أحد منجمي الخليفة المأمون ، وكان يهودياً ثم أسلم على يديه . وعمل في جملة الراصدين ، بل كان رئيساً لهم . ترك العديد من المصنفات ، منها : كتاب « المنفصلات والمتوسطات » ، وكتاب « الحساب الهندي » ، وكتاب « الجمع والتفريق » ، وكتاب « الجبر والمقابلة » ، وغيرها . النديم : الفهرست ، ص ٤٣٩ .

(٢) نهر الجعفري : أحد أنهار مدينة بغداد الواقعة في الجهة الشمالية من الجانب الشرقي للمدينة . وهو متفرع من نهر الفضل الخارج من نهر دجلة . وسمي بهذا الإسم ، نسبة إلى قصر الخليفة المتوكل المقام على ضفافه ، ويعرف بـ « الجعفري » ، ويسمى أيضاً بنهر الجعفرية . سهراب : عجائب الأقاليم السبعة ، ص ١٢٧ ـ ١٣٠ ـ ١٣١ .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

(٤) الشهرزوري : نزهة الأرواح ، ص ٣٠٦ .

(٥) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، (٢/٥٠) . ولم يذكر أبو الفداء مصدره في هذا الخبر ، وهو أول من قال بذلك .

(٦) السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ص ١٠٢ .

عظيمة وكان مصيرها أن آلت إلى يعقوب بن الليث بن الصفّار [١] في سجستان ، وقد سمع بوفاة أبي حاتم فسيَّر إلى البصرة من اشتراها له من ورثته ، ووقف أهل البصرة عن المزايدة فيها ، خشيةً من ابن الصفّار ، ومصانعة له ، فبيعت بأربعة عشر ألف دينار ، ونقلت إلى يعقوب ، ولم يترك منها شيئاً [٢] .

٨ ــ خزانة حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠هـ / ٨٧٤م) .

ولقد تميزت خزانة حنين بن إسحاق عن غيرها من الخزائن الأخرى ، أن صاحبها كان أبرز مترجمي عصره وكما مر معنا ، فقد نقل حنين العديد من كتب التراث اليوناني في مختلف الفنون والمعارف ، لا سيما الطب والفلسفة ، ونقل لنفسه أيضاً . ومن المؤكد أن لهذه النقولات ، على الأقل ، نسخاً مودعة في خزانة حنين . وهذا يعطينا صورة مبدئية عن هذه الخزانة ، وما زخرت به عن غيرها ، باحتوائها على كتب التراث اليوناني في علوم مختلفة . وقد وصلت يد الضياع إلى هذ الخزانة في آخر حياة حنين ، إذ تعرض حنين لمحن عديدة في زمن المتوكل ، وتدبير المؤامرات من قِبَلِ أقرانه الأطباء ، حسداً على المكانة التي وصل إليها عند المتوكل [٣] . وفي هذا الصدد يقول حنين : ((ثم أن أمير المؤمنين ...

(١) يعقوب بن الصفار : أحد الأمراء الدهاة . وكان في أول أمره قائداً لعسكر درهم بن الحسين ، أحد الثوار على الدولة العباسية في سجستان ، ثم تغلّب يعقوب على الأمر ، واجتمع أصحاب درهم حوله ، لما رأوا من حسن سياسته . وضبط البلاد ، وقويت شوكته ، وأخذ في توسيع نفوذه ، فامتلك خراسان ، وكرمان ، وشيراز ، وفارس ، ثم طمع في بغداد ، وزحف إليها ، فخرج جيش الخليفة المعتمد ، ونشبت بينهما حرب طاحنه سنة (٢٦٢هـ/٨٧٥م) ، لم يظفر الصفار بشيء أمام الأمير الموفق قائد جيوش الخليفة . وتوفي بمدينة جنديسابور من إقليم خوزستان سنة (٢٦٥هـ/٨٧٩م) . وكان يعقوب عاقلاً ، حازماً ، يظهر الزهد ، والتقشف . وآل أمر الدولة الصفارية إلي أخيه عمرو ، الذي كتب إلى الخليفة المعتمد بطاعته ، فولاه الموفق ، القائم بأمور الدولة عن أخيه المعتمد ، على خراسان . وفارس ، وسجستان ، والسند ، وكرمان ، والشرطة ببغداد . الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٢٥٥/٩ ، ٣٨٢ ــ ٣٨٦ ، ٤٠٩ ، ٤٧٦ ، ٥٠٢ ، ٥٠٧ ، ٥١٢ ، ٥١٤، ٥٢٠ ، ٥٢٧ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٣ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤) . ابن الأثير : الكامل ، (٦٤/٧ ، ١٢٠ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣١٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٣٢) .

(٢) القفطي : إنباه الرواة ، (٦٤/٢) .

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٧ ــ ١٢٨ .

أمر باعتقالي ، والتضييق عليّ . ووجه فحمل جميع ما كان لي من رحل ، وأثاث ، وكتب ، وما شاكل ذلك)) [١] . ويصرح حنين بمصير خزانته في آخر حياته بأن ((جميع ما قد كان يملكه من الكتب ذهب ، حتى لم يبق عنده منها ولا كتاب واحد)) [٢] .

٩ ــ خزانة علي بن يحيى المنجم (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م) .

ومن الخزائن التي جمعت في وظيفتها بني الخزائن الخاصة والعامة ، خزانة علي بن يحيى المنجم . وكان علي ممن اشتهر بحب الكتب وجمعها . ونقلت بإسمه العديد من الكتب إلي العربية ، كما جاء في موضعه . كما أُلفت بإسمه أيضاً ، العديد من المصنفات على أيدي العلماء والأدباء ، كرد فعل من قبلهم على اهتمامه بهم ، وتشجيعهم على العطاء العلمي . ومما زاد في شهرة شخصية ابن المنجم خزانة كتبه ، فقد خصص لهذه الخزانة مكان في قصره الذي بناه في ضيعته بكَرْكَرْ [٣] ، وكان يسميها (خزانة الحكمة) ، تشبيهاً لها بخزانة بيت الحكمة ببغداد . وكان الناس يقصدونها من كل بلد ، فيقيمون فيها للاطلاع والتعلم ، والاستفادة من كتبها في شتى العلوم والفنون ، وهم مع ذلك مشمولين برعاية صاحبها ابن المنجم ، والنفقة عليهم من ماله الخاص [٤] .

ولا أدل على قوة تأثير هذه الخزانة ، وما فيها من الكتب على مرتاديها ، أنها كانت محط إعجاب أبو مَعْشر البَلْخي الفلكي (ت ٢٧٢هـ / ٨٨٥م) . وذلك عندما قدم من خراسان يريد الحج ، فمال عليها ، ودخلها ، وهاله أمرها ، فلزمها للاطلاع والثقافة ، وترك الحج ، وأخذ في دراسة علم النجوم فيها [٥] .

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .

(٣) كركر : إحدى نواحي بغداد الشمالية ، بين بغداد وعُكْبرا . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٣٨٢/٤ ـ ٤٥٣) .

(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٥٧/١٥) .

(٥) المصدر السابق ، (١٥٧/١٥) .

١٠ ــ خزانة إبراهيم بن إسحاق الحربي (ت ٢٨٥هـ / ٨٩٨م) .

وكانت للحربي خزانة كتب جليلة . وكان ينسخ كتبه بنفسه ، كما سلف بنا الحديث . ويدلنا على جلالة هذه الخزانة ، ما قاله إبراهيم لابنته في مرض ألم به ، حتى لا تخشى الفقر ، ((انظري إلى تلك الزاوية ، فنظرت ، فإذا كتب . فقال : هناك إثنا عشر ألف جزء لغة وغريب ، كتبته بخطي ، إذا مِتُّ فوجهي في كل يوم بجزء تبيعينه بدرهم . فمن كان عنده إثنا عشر ألف درهم ليس هو فقير)) (١) .

ويفهم من قول أبي إسحاق الحربي هذا ، أن معظم كتب خزانته ، إن لم تكن جميعها ، في غريب الحديث ، واللغة . وربما قصد من ذلك ما كتبه ، وليس ما تحويه كل خزانته ، ذلك أن عالماً مثل أبي إسحاق من غير المعقول أن تخلوا خزانة كتبه من مصنفات الفقه ، والعقيدة ، والرجال ، والمسانيد ، وهو من أئمة الحديث في وقته .

١١ ــ خزانة محمد بن الحسن البصري المعروف بابن دريد (ت ٣٢١هـ / ٩٣٣م) .

ومن خزائن علماء اللغة ، خزانة ابن دريد البصري ، وكانت خزانة كتب حسنه ، وقد خاف من ضياعها بعد موته ، فأوصى بها إلى تلميذه علي بن أحمد الدُّرَيْدي (٢) .

١٢ــ خزانة محمد بن القاسم الأنباري النحوي (ت ٣٢٨هـ / ٩٤٠م) .

ويعد أبو بكر الأنباري من أبرز حفاظ عصره ، الذين يضرب بهم المثل في قوة الحفظ ، وسعته ، فقد سأل أبو الحسن العَروضي ذات مرة أبا بكر ، وقال له : ((قد أكثر الناس في حفظك ، فكم تحفظ ؟ . فقال أبو بكر : أحفظ ثلاثة عشر صندوقاً)) (٣) . وقال أبو العباس يونس : ((كان أبو بكر آية من آيات الله تعالى في الحفظ)) (٤) .

---

(١) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة (٨٨/١) .

(٢) الزبيدي : طبقات النحوين واللغوين ، ص ١٨٥ .

(٣) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٩٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

وكانت لأبي بكر خزانة كتب عامرة . فقد حدث أن مرض أبو بكر ، فدخل عليه من يعوده ، فرأوا انزعاج والده عليه . فطيّبوا نفسه ، ودعوا لأبي بكر ، فقال والده : ((كيف لا أنزعج ، وأقلق لعلة من يحفظ جميع ما ترون ، وأشار إلى خزانة مملوءة كتبا)) [١] .

١٣ ــ خزانة أحمد بن محمد الكوفي المعروف بابن عقدة (ت ٣٣٢هـ / ٩٤٤م) .

وتعد خزانة ابن عقدة أكبر خزانة كتب في العراق ، في ذلك الوقت ، وصلت إلينا أخبارها [٢] . فعندما أراد ابن عقدة الانتقال من موضعه الحالي إلى موضع آخر ، استأجر حمّالين لحمل الكتب ، واتفق معهم أن يدفع لكل واحد منهم دانقاً [٣] لكل كَرّة . فوزن لهم أجورهم ، فبلغت مائة درهم ، وكانت كتبه ستمائة حمل)) [٤] .

١٤ ــ خزانة محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٥هـ / ٩٤٦م) .

وتبقى خزانة الصولي أكثر تميزاً من بين خزائن الكتب الموجودة في ذلك الوقت ، نظراً لحسن تنظيمها وترتيبها . وكان الصولي من الجمّاعين للكتب [٥] ، حاذقاً بتصنيفها ، ووضع الأشياء منها مواضعها [٦] . وقد نالت هذه الخزانة إعجاب من رآها . يقول أبو بكر بن شاذان : ((رأيت للصولي بيتاً عظيماً مملوءاً بالكتب ، وهي مصفوفة ، وجلودها مختلفة الألوان ، كل صف من الكتب لون . فصف أحمر ، وآخر أخضر ، وآخر أصفر ، ونحو ذلك ، فكان الصولي يقول : هذه الكتب كلها سماعي)) [٧] .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء (٣٠٧/١٨) . السيوطي : بغية الوعاة (٢١٢/١) .

(٢) شعبان خليفة : الكتب والمكتبات في العصور الوسطى ، ص ٢٧٠ .

(٣) الدانق : سدس الدراهم . فالترهنتس : المكاييل والأوزان الإسلامية ، ص ٢٩ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٨/٥) . علّق كوركيس عواد على هذا الخبر بقوله : ((فإذا قلنا أنه لم يكن في الحمل الواحد إلا عشرة مجلدات لا غير ــ وهذا على أقل تقدير ــ بلغ ما احتوته الخزانة ستة آلاف مجلد !)) . خزائن الكتب القديمة ، ص ٢١٨ .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٢٤٢ .

(٦) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ٣٨٣ .

(٧) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٤٣١/٣) . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ٢٠٥ .

١٥ ـ خزانة محمد بن يوسف الأزدي القاضي (ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢م) .

ومن خزائن القضاة الحسنة ، خزانة أبو عمر القاضي ، وكان محباً للشعر والأدب . ولذا ، كانت خزانته تحفل بالعديد من دواوين قدماء الشعراء [١] .

١٦ ـ خزانة الحسن بن عثمان الزيادي (ت ٢٤٣هـ / ٨٥٧م) .

وكان الزيادي من فضلاء القضاة ، أديباً ، ناسباً ، كريماً ، صنف الكتب ، وصنفت له . وكانت له خزانة كتب عامرة [٢] .

١٧ ـ خزانة الحسن بن الحسين السكري (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م) .

وكان أبو سعيد السكري ، من أبرز أدباء عصره ، وكان ((كثير الكتب جداً ، وكتب بخطه ما لم يكتبه أحد ، وكان إذا لقى الرجال لا يفارقه كتاب)) [٣] .

١٨ ـ خزانة إسماعيل بن إسحاق الأزدي (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م) .

وكان الأزدي ممن اشتهر بحب الكتب ، والنظر فيها ، وكانت له خزانة كتب يُمضي بها أكثر وقتـــه . يقـول أبو هفّان ((... وأما إسمـاعيـل بن إسحـاق ، فإني ما دخلت عليه إلا رأيته ينظر في كتاب ، أو يقلب كتباً ، أو ينفضها)) [٤] .

١٩ ـ خزانة محمد بن الحسن النقاش (ت ٣٥١هـ/٩٦٢م) .

ويعد النقاش أحد أعلام القراءات ، والتفسير ، وكان له بيت ملآن كتباً [٥] .

ولم يقتـصر حـب الكتب ، وجـمـعـهـا على الفـئـات التي مـرَّ ذكرها في الصـفـحـات السابقة ، من خلفاء ، ووزراء ، وعلماء . ولكن شاركهم فـــي هــذا العمـل الحجّاب أيضاً .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣٣٢/٤) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ١٧٦ .

(٣) القفطي : إنباه الرواة ، (١٨٣/١) .

(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٧٤/١٦) .

(٥) الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (٢٩٨/١) .

يقول أبو بكر الصولي عن محمد بن نصر الحاجب (ت ٣١٢هـ / ٩٢٤م) [١] : ((عرفته والله فتى كريماً ، عالي الهمة ، جميل الأمر ، سريّ الآلة ، كثير المحاسن . قد اشتهى جمع العلم ، وكتب الحديث ، وتخلّف كتباً بأكثر من ألفي دينار)) [٢] .

ولقد أُبتليت الكتب ، خلال تلك الفترة ، بآفات مختلفة ، من حريق ، وسرقه ، ودفن ، وغير ذلك ، مما أدى إلى ضياع جزءٍ لا يستهان به من التراث الثقافي لعلماء العراق في ذلك الوقت . وكانت حوادث الحريق من الأمور الطبيعية التي تحدث في أي مكان وزمان . ولكن هذا الأمر قد أودى بمصير بعض كتب علماء الفترة إلى الضياع ، ومن هؤلاء : إبراهيم بن مُنْقِذ العُصْفُري (ت ٢٦٩هـ / ٨٨٢م) ، الذي احترقت كتبه ، ولم يبق منها شيء [٣] .

وكذلك خزانة الفقيه والمحدث أبو القاسم عمر بن الحسين الخِرَقِي (ت ٣٣٤هـ/٩٤٦م) . الذي أودع كتبه أمانة عند أحد الأشخاص في درب سليمان [٤] ، عندما خرج من بغداد لما ظهر سبُّ الصحابة ، فاحترقت الدار التي كانت فيها الكتب . ولم يبق من تراث الخرقي سوى كتابه « المختصر في الفقه » [٥] .

أيضاً كانت السرقة من عوامل ضياع مصنفات علماء الفترة ، فقد وقع النهب في خزانة الفقيه أبو بكر أحمد بن عمر الخَصَّاف (ت ٢٦١هـ / ٨٧٥م) . ويذكر الخصاف نفسه ، أن بعض كتبه ذهبت ، وفي جملتها كتاب عمله في « المناسك » لم يكن خرج إلى الناس بعد [٦] .

---

(١) محمد بن نصر : أحد حجاب الخليفة المقتدر . استعمله على الموصل ، ولإخماد ثورة الخارجين من الأكراد فيها ، ونجح في ذلك . وكان على الموصل حتى وفاته . ابن الأثير : الكامل ، (١٢٩/٨ ، ١٣٨ ، ١٥٧) .

(٢) القرطبي : صلة تاريخ الطبري ، ص ١٠٥ .

(٣) السمعاني : الأنساب ، (٤٦٨/٨) .

(٤) درب سليمان : درب كان ببغداد ، يقابل الجسر : وهو نسبة إلى سليمان بن جعفر بن أبي جعفر المنصور (ت ١٩٩هـ/٨١٥م) ، وفيه كانت داره . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٤٤٨/٢) .

(٥) العليمي : المنهج الأحمد ، (٦١/٢ ـ ٦٢) .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٨ .

وفـي سنـة (٣٢٩هـ / ٩٤١م) هجـم الدَّيالمـة علـى منزل أبـي بكر الصـولي ، ولم يتركوا ، على حد قول الصولي ، شيئاً من ذخائر وغيرها ، إلا أتوا عليها ، ومن بينها دفاتره [١] .

ومن الآفات التي أدت إلى ضياع جزء من المكتبة الإسلامية ، هو قيام بعض العلماء في العراق بدفن كتبهم ، إما قبل وفاتهم ، أو يوصي بأن تدفن معه ، كما حـدث لخزانـة أبي كُرَيْب مـحـمـد بن العـلاء الهـمـذاني الكوفي (ت ٢٤٣هـ/٨٥٧م) [٢] . وكـان من أئمـة الحديث بالكوفة ، فقد أوصى عند وفاته بأن تدفن معه خزانة كتبه ، فدفنت [٣] .

---

(١) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٢١٠ .

(٢) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، (٤٩٧/٢) .

(٣) أبو كريب الكوفي : أحد حفاظ الكوفة ، سمع الحديث بالكوفة على جماعة . وروى عنه جماعة أيضاً . وكان ابن عقدة يقدِّمه على جميع مشايخ الكوفة في الحفظ والكثرة ، فيقول : ((ظهر لابن كريب بالكوفة ثلثمائة ألف حديث . وكان ثقة ، مُجمعاً عليه)) . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٤٩٣/٤ ـ ٤٩٤) .

المبحث الرابع

العلاقات العلمية بين العراق والمراكز العلمية الأخرى

لقد كان العالم الإسلامي بمراكزه الحضارية في القرنين : الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين ، يمثل وحدة فكرية واحدة . على الرغم من أوضاعه السياسية التي لا توحي بذلك . ولكن المتتبع لتاريخ الحركة العلمية في العالم الإسلامي في قرونه الأولى سوف يلحظ ، وبجلاء ، ذلك الأمر .

لقد ظل التيار العلمي في أي قطر من الأقطار الإسلامية ، خلال تلك الفترة ، يسير جنباً إلى جنب مع التيار السياسي دون التأثر به ، وإنما كان السير من ناحية الزمن . فتنشأ دولة وتسقط أخرى ، وتقوم ثالثة على أنقاضها ، وقطار العلم ماضٍ في سيره نحو بلوغ الهدف . وهذا ما نلحظه لو أردنا أن نتّبع سير الحركة العلمية في العراق مثلاً ، خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين . فإننا نجد أن هناك ثلاثة عصور مرّت بهذا القطر خلال تلك الفترة ، ونجد في المقابل أن هناك من العلماء من عاصر فترتين وهو لا يزال في نشاطه العلمي دون أن ينتهي جهده مع انتهاء زمن العصر الذي شهد نشأته العلمية .

ومن هذا المنطلق ، ومكة ، والمدينة ، كانت مدن بخارى ، ونيسابور ، ومرو ، والري ، وأصفهان، وبغداد ، والبصرة ، والكوفة ، وصنعاء ، ودمشق ، والقاهرة ، والقيروان ، وفاس ، ومراكش ، وقرطبة ، وإشبيليه ، وغرناطة ، وغيرها ، جميعها كانت مقصد طلاب العلم ، ومحطات يتوقفون فيها لأخذ العلم من علمائها وسط جو من الطمأنينة والحرية .

والرحلات العلمية كانت من مؤهلات المحدثين ، ولوازم طريقتهم ، ومنهجهم في تحصيل الأحاديث ، وجمع طرقها ، وأسانيدها (١) ، وطلباً لعلو الإسناد (٢) .

---

(١) أمين القضاة : مدرسة الحديث في البصرة ، ص ٤١٤ .

(٢) يعد الإسناد خصيصة فاضلة لهذه الأمة ، وليست لغيرها من الأمم السابقة ، وهو سنة بالغة مؤكدة ، فعلى المسلم أن يعتمد عليه في نقل الحديث ، والأخبار . قال ابن المبارك : ((الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء)) . كما أن طلب العلو فيه سنة أيضاً ، قال الإمام أحمد بن حنبل : ((طلب الإسناد العالي سنة عمن سلف)) . ولذلك استحبت الرحلة في طلب الحديث . ولقد رحل غير واحد من الصحابة =

ولهذا نرى الإمام أحمد بن حنبل يشدِّد على الرحلة في طلب العلم ، وأن لا يكتفي طالب العلم بالأخذ عن علماء بلده . فعندما سأله ابنه عبد الله عن وجوب الرحلة في طلب العلم ، أم لا ؟ . فقال له الإمام مجيباً : ((يرحل ، يكتب عن الكوفيين ، والبصريين ، وأهل المدينة ، ومكة ، يُشَامُّ الناس (١) ، يسمع منهم)) (٢) .

إن التشديد على هذا الأمر مبعثه المردود العلمي العظيم الذي سوف يكتسبه طالب العلم من رحلاته العلمية . فالمباشرة بلقاء العلماء ، والشيوخ يكون أكثر رسوخاً للعلم في صدر المتلقي مما لو تحصل عليه عن طريق السماع ، فتحصل بذلك الملكات بفضل هذه المباشرة .

ومن جهة أخرى فإن بعض العلوم كالحديث ، والفقه ، واللغة ، والنحو ، وغيرها ، قد نشأت لها مدارس ، ومذاهب مختلفة ، ظهرت معها مفاهيم ، واصطلاحات يتوجب على دارس هذه العلوم الإلمام بها حتى يستطيع أن يمتلك أدوات العلم الذي يبحث فيه . ولا سبيل

= رضوان الله عليهم أجمعين في طلب علو الإسناد . والإسناد العالي : هو الذي قل عدد رجاله بالنسبة إلى سند آخر يرد به ذلك الحديث بعدد أكثر . وينقسم العلو في الإسناد إلى خمسة أقسام ، الأول منها علو مطلق ، والباقي علو نسبي ، وهي :

أ ـ القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح نظيف .

ب ـ القرب من إمام من أئمة الحديث .

جـ ـ القرب بالنسبة إلى رواية أحد الكتب الستة ، أو غيرها من الكتب المعتمدة .

د ـ العلو بتقدم وفاة الراوي .

هـ ـ العلو بتقدم السماع .

وللعلو في الإسناد فائدة عظيمة ، لأنه يبعد الإسناد من الخلل ، فإذا قلت الوسائط تقل جهات الاحتمال للخلل ، فيكون علو السند قوة للحديث .

انظر : الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث ، ص ٢٠ ـ ٢١ . ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ، ص ١٥٥ ـ ١٦١ . محمود الطحان : تيسير مصطلح الحديث ، ص ١٨١ ـ ١٨٤ . حسين الجمل وزميله : معجم مصطلحات الحديث ، ص ٣٤ .

(١) يشام الناس : يتطلع إلى ما عندهم ، ويتطلعون إلى ما عنده . المعجم الوسيط ، ص ٥٢١ .

(٢) الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث ، ص ٨٨ .

لفهم هذه الأمور إلا عن طريق أخذها من أفواه مشائخ هذه العلوم ، المتفرقين في الأمصار الإسلامية .

فعن طريق هذه الرحلات يستطيع طالب العلم أن يكوِّن تصوراً واضحاً يعينه على تحديد اتجاهاته ، ومفاهيمه العلمية بقناعة تامة ، ويرسم لنفسه نهجاً يسير عليه في حياته العلمية (١) .

ونتيجة لذلك ، فقد نشأت علاقات علمية بين مراكز العلم في أقطار العالم الإسلامي في ذلك الوقت ، أضحت هذه العلاقة فيما بعد ، وبمرور الوقت ، مظهراً مهماً من مظاهر الحضارة الإسلامية ، وأحد عوامل ازدهار الحركة العلمية في أرجاء العالم الإسلامي بشكل عام ، والعراق على وجه الخصوص .

ولما كان العراق بمدنه الزاهرة ، بغداد ، والبصرة ، والكوفة ، وسُرَّ مَنْ رأى ، وواسط ، وغيرها ، أنشط مراكز العلم في العالم الإسلامي في ذلك الوقت ، بفضل ازدهار الحركة العلمية فيه في كافة العلوم ، والفنون ، والمعارف .

الأمر الذي أصبح معه العراق مقصد أبناء العالم الإسلامي في طلب العلم . لدرجة أنه قلما تجد أحداً منهم رحل في طلب العلم لم يدخل مدينة من مدن العراق ، ولقي علمائه .

ولقد آمن العراقيون بأهمية الرحلة في طلب العلم لمن أراد أن يضع لبنة مهمة في بناء شخصيته العلمية . وبهذا الدافع شدَّ الكثير منهم رحاله يطوف مراكز العلم في العالم الإسلامي .

ولم تكن الرحلة في طلب العلم خاصة بفئة دون أخرى ، وإنما رحل كل من رغب في الهدف من وراء الرحلات العلمية ، من أهل الشريعة ، واللغة ، والنحو ، والأدب ، والمؤرخين ، والجغرافيين ، والأطباء ، والكيميائيين ، والفيزيائيين ، والرياضيين ، وسائر العلوم الأخرى .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٦٤ . ولأهمية هذا الموضوع وحيويته يعقد ابن خلدون فصلاً خاصاً في مقدمته وسمه بعنوان يبين فضل الرحلة في طلب العلم وهو : « الفصل الحادي والأربعون : في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم » .

ولقد اتخذت العلاقات العلمية بين العراق والمراكز العلمية الأخرى أوجه عدة يمكن أن نحددها بما يلي :

١ ـ ذهاب العلماء إلى إحدى المدن خارج العراق لفترة معينة ، قد تطول وقد تقصر ، ثم العودة .

٢ ـ استقرار بعض علماء العراق في الأمصار التي رحلوا إليها ، إما بقصد ، أو الوفاة .

٣ ـ قدوم علماء الأمصار إلى العراق لفترة معينة ، قد تطول وقد تقصر ، ثم الرجوع إلى بلدانهم .

٤ ـ استقرار بعض علماء الأمصار في العراق إمام بقصد ، أو أدركته الوفاة فيه .

٥ ـ الأثر العلمي الإيجابي لمصنفات علماء العراق وأدبائه على بعض الدراسات في بعض الأمصار .

وينبغي علينا الإشارة إلى العوائق والظروف الصعبة التي واجهها طلاب العلم أثناء رحلاتهم العلمية . وهو أمر يتعلق بسببين :

١ ـ الظروف المعيشية الصعبة التي كان عليها أغلب طلاب العلم .

٢ ـ طبيعة تضاريس البلاد الإسلامية . فقد تميزت جغرافية بلاد الإسلام بوجود جميع أنواع التضاريس والمناخ ، مما جعل رحلة بعض طلاب العلم أشبه بالعذاب ، لما فيها من المواقف الصعبة والمخاطر المحدقة بهم أثناء سيرهم ، وهو أمر لا يحتاج إلى مزيد بيان .

فهذا الإمام أحمد بن حنبل منعته قلة النفقة من أن يحقق إحدى أمنياته ، وهي الذهاب إلى المحدِّث أبو زكريا يحيى بن يحيى التميمي الحنظلي [١] ، في نيسابور . وبعد

---

(١) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (١٥٢/١) . وأبو زكريا التميمي : أحد حفاظ الحديث وأعلامه بنيسابور. وكان يسمى بيحيى الشكّاك ، لكثرة ما كان يشك في الحديث . وأخرج له الشيخان في صحيحهما ، والترمذي ، والنسائي . وتوفي أبو زكريا سنة (٢٢٦هـ/٨٤١م) . ابن شاهين : تاريخ أسماء الثقات ، ص ٣٥٥ . ابن حجر : تهذيب التهذيب ، (٢٩٦/١١ ـ ٢٩٩) .

فراغـهه من رحلته إلى عبد الرزاق [١] في اليمن قال : ((لو كان عندي تسعون درهماً كنت رحلت إلى جريـر بن عبد الحميد [٢] بالريّ ، خرج بعض أصحابنا ، ولم يمكني الخروج ، لأنه لم يكن عندي شيء)) [٣] .

---

(١) عبد الرزاق : هو أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني الحميري . أحد أعلام الحديث الثقات ، والحافظ الكبير ، عالم اليمن . روى الحديث عن أبيه ، وسفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة ، وابن جريج ، ومالك بن أنس ، وسواهم . وروى عنه شيخاه : معمر بن سليمان ، وسفيان بن عيينة . أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وخلقاً سواهم . وعُمي عبد الرزاق في آخر عمره . قال أبو عبد الرحمن النسائي : ((عبد الرزاق بن همام ، من لم يكتب عنه من كتاب ففيه نظر ، ومن كتب عنه بأخرة ، حدّث عنـه بأحاديث مناكير)) . ولعبد الرزاق من المصنفات : كتاب « الجامع الكبير » في الحديث ، قال الذهبي : « وهو خزانة علم » . كتاب « تفسير القرآن » ، كتاب « المصنف في الحديث » . وكانت وفاته سنـة (٢١١هـ/٨٢٧م) . ابن معين : التاريخ ، (٢/٣٦٢ ـ ٣٦٤) . خليفة بن خياط : التاريخ ، ص ٣١٤ . مسلم : الكنى والأسماء ، (١/١٢٦ ـ ١٢٧) . العجلي : تاريخ الثقات ، ص ٣٠٢ . ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢٨٩ . الذهبي : ميزان الإعتدال ، (٢/٦٠٩ ـ ٦١٤) . الصفدي : نكت الهميان ، ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

(٢) جرير بن عبد الحميد : هو أبو عبد الله جرير بن عبد الحميد الضبي الرازي . ولد بقرية « آبة » بأصفهان ، ونشـأ بالكوفة ، سمع الحديث من جماعة فيهم : أيوب السختياني بمكة ، ومغيرة بن مقسم ، وهشام بن عروة ، وغيرهم . وروى عنه : عبد الله بن المبارك ، وأبو داود الطيالسي ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وعلـي بن المديـني ، وأبو خيثمة زهير بن حرب . قدم بغداد ، وحدث بها . وكان زاهداً ، ورعاً . وكان فيه تيقظ ، حتى قال عنه إبراهيم بن هشام عندما قـدم جرير بـغداد ، وحدّث بها : ((فكان ربما نعس فنام ، ثم ينتبه فيقرأ من الموضع الذي انتهى إليه)) . وفي آخر حياتـه ، نـزل جريـر بالـري بعد أن قضى معظمها في الكوفة ، وكانت وفاته بالري سنة (١٨٨هـ/٨٠٤م) . ابن سعد : الطبقات الكبرى (٧/١٠) . ابن معين : التاريـخ ، (٢/٨١ ـ ٨٢) . البخاري : التاريخ الكبيـر ، (٢/٢١٤) . العجلي : تاريـخ الثقـات ، ص ٩٦ . ابن حبان : طبقات المحدثين بأصفهان ، (١/١٣٥) .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، (١٠/٣٢٦) .

ولقد بلغ الفقر بأبي محمد حجاج بن يوسف الثقفي المعروف بابن الشاعر (ت ٢٥٩هـ / ٨٧٣م) <١> ، أن كان الخبز زاده الوحيد في رحلته إلى المدائن للسماع من أبي عمرو شَبَابة بن سوار الفزاري <٢> ، فيخبر ابن الشاعر عن نفسه ويقول : ((جمعت لي أمي مائة رغيف فجعلتها في جراب ، وانحدرت إلى شبابة بالمدائن ، فأقمت ببابه مائة يوم ، وكل يوم أجيء برغيف فأغمسه في دَجلة أكله ، فلما نفذت خرجْت)) <٣> .

غير أن ضيق ذات اليد لم يثن أيضاً عالم الحديث أبا بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٣١٦هـ / ٩٢٨م) عن الذهاب إلى أبي سعيد الأشَجّ <٤> بالكوفة ، والسماع منه ، ولم يكن معه إلا درهم واحد ، هو مؤنته في رحلته هذه . فعندما وصل إلى الكوفة اشترى بالدرهم ثلاثين مداً باقِلاء <٥> ، فجعلها معيشته في رحلته ، وهو يكتب عن

---

(١) ابن الشاعر : أحد حفّاظ بغداد الأثبات . سمع عبد الرزاق ، وطبقته . ووثقه أبو داود السجستاني ، وابن أبي حاتم . وروى عنه جماعة ، منهم : محمد بن إسحاق الصاغاني ، وأبو داود السجستاني ، ومسلم بن الحجاج ، وجماعة آخرهم : الحسين المحاملي . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٨/٢٤٠ ـ ٢٤١) . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (٢/١٣٩ ـ ١٤٠) .

(٢) أبو عمرو الفزاري : أصله من خراسان ، نزل المدائن ، وحدث بها ، وببغداد عن : شعبة ، وحريز بن عثمان ، ويونس بن أبي إسحاق ، والمغيرة بن مسلم ، وسواهم . وروى عنه جماعة ، منهم : أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وأبو خيثمة ، والحسن الزعفراني ، وخلقاً سواهم . قال ابن شاهين : ((شبابة ، صدوق ، حسن العقل ، ثقة)) . وقال يحيى بن معين : ((شبابة بن سوار صدوق)) . أما زكريا الساجي فقد ذكره بقوله : ((شبابة بن سوار صدوق ، يدعوا إلى الإرجاء)) . وفي سنة (٢٠٦هـ/ ٨٢١م) توفي شبابة بمكة . العجلي : تاريخ الثقات ، ص ٢١٤ . ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢٩٣ . ابن شاهين : تاريخ أسماء الثقات ، ص ١٧٠ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٩/٢٩٥ ـ ٢٩٩) . ابن حجر : تهذيب التهذيب ، (٤/٣٠٠ ـ ٣٠٢) .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٨/٢٤٠) ، (٩/٢٩٥) .

(٤) لم يعثر له على ترجمة .

(٥) المد : صنف من المكاييل كان يساوي في صدر الدولة الإسلامية = ربع صاع . وهو يعادل في نظام الكيل الحديث = ٨١٢,٥ غم قمح . وهو يعادل = ١,٠٥ لتر . الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ٢٥ ـ ٢٦ . فالترهنتس : المكاييل والأوزان الإسلامية ، ص ٧٤ . والباقلاء : نوع من البقوليات يشبه الفول . وله استطبابات عدة . ابن البيطار : تفسير كتاب دياسقوريدس ، ص ١٧٩ . المظفر الغساني : المعتمد في الأدوية المفردة ، ص ١٤ ـ ١٥ .

الأشج . ويقول أبو بكر بعد ذلك : ((فما فرغت الباقــلاء حتى كتبت عنه ثلاثين ألف حديث ، ما بين مقطوع ، ومرسل)) [١] .

فهذه لمحات عن الصعاب والشدائد التي واجهها طلاب العلم العراقيين في رحلاتهم العلمية . والأمر يتكرر أيضاً مع القادمين إلى العراق من أبناء العالم الإسلامي لينهلوا من معين العلم ، والمعرفة .

فهذا طالب علم من خراسان يأتي إلى الإمام أحمد ليسأله فقط عن مسألة فحواها: ((يا أبا عبد الله متى يجد العبد طعم الراحة ؟ . فقال له الإمام أحمد : عند أول قدم يضعها في الجنة . ثم قام الإمام بعد ذلك إلى سلَّة له ، فأخرج للخراساني رغيفين ، فدفعهما إليه ، فقال الخراساني : أما منك يا أبا عبد الله فنعم ، أما وأنهما زادي إلى الرَّقة [٢] .

ولقد جعل بعض المؤرخين ما وجدوه من عناء ونصب أثناء رحلاتهم لجمع معلومات كتبهم ، مبرراً يضعونه أمام القارئ ، لما قد يلحظه من أخطاء وهنّات أثناء القراءة في مصنفاتهم تلك ، ويتضح ذلك من قول أبي الحسن المسعودي (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) في مقدمة كتابه « مروج الذهب ومعان الجوهر » ، ما نصه : ((على أنَّا نعتذر من تقصير إن كان ، وتنصل من إغفال إن عرض ، لما قد شاب خواطرنا ، وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار ، وقطع القفار ، تارة على متن البحر ، وتارة على ظهر البر ، مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة ، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة ، كقطعنا بلاد السند ، والزنج ، والصين ، وتقحمنا الشرق والغرب ، فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بأواسط أرمينية ، وأذربيجان ، والران ، والبيلقان ، وطوراً بالعراق ، وطوراً بالشام . فسيري في الآفاق سُرى الشمس في الإشراق)) [٣] .

وفي بعض الأحيان كان بعض علماء العراق يبذلون المال في سبيل تلقي العلم في بعض الأمصار. فعندما رحل أبو بكر محمد بن عبد الرحيم الأصفهاني (ت ٢٩٦هـ/٩٠٩م) ،

---

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، (٦٦٨/٢) .

(٢) المصدر السابق ، (٢٩٣/١) .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ، (١٠/١) .

من أعلام القرّاء ببغداد في زمانه ، إلى مصر ، كان معه ثمانون ألف درهم ، فأنفقها على ثمانين ختمة [١] .

وكان لوقوع إقليم العراق على طريق الحاج القادم من بلاد ما وراء النهر ، وخراسان ، وفارس ، أن جعل منه محطة دائمة تحط فيها الرحال لمن أراد الحج ، سواء في ذهابه إلى مكة أو عودته منها . فأتاح هذا الأمر وجود نوع من التبادل الثقافي بين أبناء العراق وأهل تلك النواحي . فمنهم من يأتي قبل موسم الحج بوقت كاف يمكنه من المقام في العراق فترة من الزمن يأخذ فيها بغيته من العلم عن علماء العراق ، حتى إذا ما حل موسم الحج ذهب إلي الديار المقدسة . والبعض الآخر يطيب له المقام ببغداد في طريق عودته إلى بلده بعد نهاية موسم الحج ، فيمكث فيها فترةً من الوقت ثم يكمل سيره إلى بلده .

ولكن هذا لا يعني أن موسم الحج هو العامل الأول لقدوم أبناء تلك النواحي إلي العراق ، بل كان الحج فرصة لبعضهم ، أما البعض الآخر فيرحل من بلد قاصداً العراق بالذات ، فينزل بإحدى مدنه ، إما لفترة محدودة ، أو طاب له المقام بها ، فيقيم بها حتى وفاته .

وفي المقابل كان علماء العراق يرحلون إلى تلك النواحي طلباً للعلم ، لا سيما الحديث . أما مدن الشام ، واليمن ، والحجاز ، ومصر ، والمغرب ، والأندلس ، فإن القادم منها إلي العراق يقصد بمجيئه إليه طلب العلم ، والبعض منهم يكمل سيره إلى ما وراء العراق لملاقاة شيوخ تلك الأمصار .

وممن ارتحل في طلب العلم من العراق ، الإمام **أحمد بن حنبل** (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م) ، الذي طاف البلاد ، فذهب إلى خراسان ، وفارس ، والجبال [٢] ،

---

(١) الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (٢٣٣/١) .

(٢) الجبال : وهو أحد أقاليم الدولة الإسلامية الواسعة ، ويقع إلى الشرق من إقليمي : العراق ، والجزيرة . وفتحه المسلمون أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ومنذ أيام السلاجقة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، أصبح يعرف هذا الإقليم بـ« عراق العجم » تمييزاً له عن عراق العرب ، وهو إقليم العراق . وسماه البلدانيون المسلمون « بلاد الجبل » في كثير من الأحيان . ويضم هذا الإقليم من المدن المهمة: همذان ، والدينور ، ونهاوند ، والصيمرة ، وقرماسين ، وحلوان . وجميع مدن هذا الإقليم تقع اليوم =

ومكة ، والمدينة ، واليمن ، والشام ، وغيرها من مراكز العلم . كل ذلك طلباً للعلم ، والسماع من مشايخ تلك الأمصار حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطلباً لعلو الإسناد [١] .

ومرَّ معنا ، أن **حنين بن إسحاق العبادي** (ت ٢٦٠هـ/٨٧٤م) ، الطبيب والمترجم ، قد رحل إلى بلاد الروم لتحصيل الكتب الطبية ، والفلسفية ، والطبيعية إلى بغداد ، ونقلها إلى العربية ، وكان من نتائج رحلته أيضاً أن تعلم اليونانية هناك [٢] .

ورحل في طلب العلم ، عالم الحديث ، **أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني** (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م) ، الذي تجوَّل في العالم الإسلامي ، فكتب عن الخراسانيين ، والعراقيين ، والشاميين ، والجزريين [٣] ، والمصريين ، وسمع من علماء هذه الأنحاء [٤] .

أما **محمد بن جرير الطبري** (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) ، فقد اشتهر بتطوافه في الآفاق طلباً للعلم ، وجمعاً لمادة تاريخيه ، وتفسيرة ، وكافة مصنفاته . وكان مستوطناً بغداد ، ثم أخذ في الرحلة من أجل تحصيل العلم ، فسمع بطبرستان ، وبلاد الأعاجم ، والشام ، ومصر ، والحجاز ، والعراق ، الجم الغفير من الفقهاء والمحدثين ، وأدرك في رحلاته الأسانيد العالية [٥] .

= ضمن حدود جمهورية إيران . البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٩٩ـ٣١٢ . ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٣٢ . ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٩٣ . كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٢٠ وما بعدها .

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٤/٤١٢) .

(٢) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٧٣ .

(٣) الجزريين : نسبة إلى إقليم الجزيرة ، وخاصة جزيرة ابن عمر ، وهي بلدة من إقليم الجزيرة فوق الموصل ، وأول من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب الثعلبي ، فنسبت إليه . والنسبة إليها : الجزري . وهناك العديد من الأعلام الذين نسبوا إليها . وهي اليوم تقع في أقصى الجنوب الشرقي لجمهورية تركيا على الحدود العراقية . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٢/١٣٨) . حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٤١٢ . كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢/٤٠٤) .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٣٨٥ . القفطي : إنباه الرواة ، (٣/٨٩) .

ومن علماء العراق أيضاً الذين نشطوا في تحصيل العلم ، **أبو الحسن علي بن سليمان المعروف بالأخفش الصغير** (ت ٣١٥هـ / ٩٢٧م) ، أحد علماء النحو البارزين ، فقد رحل إلى مصر ، ودخلها سنة (٢٨٧هـ/٩٠٠م) ، وأقام بها حتى سنة (٣٠٠هـ/٩١٢م) ، حيث خرج منها إلى حلب ، ومكث بها مدة ، عاد بعدها إلى موطنه بغداد [١] .

وأما **أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني** (ت ٣١٦هـ / ٩٢٨م) ، المحدِّث وابن المحدِّث ، فقد طوَّف في البلاد شرقاً وغرباً ، سعياً في تحصيل العلم ، فرحل إلى الشام ، ومصر ، وخراسان ، وسجستان ، وشيراز ، وأصفهان [٢] . وفي سجستان حدث لأبي بكر موقف مع أهلها ، وإن لم يكن ذا صلة بموضوعنا ، إلا أن فيه برهان على ما كان يتمتع به علماء المسلمين في تلك العهود ، وعلماء العراق بشكل خاص من قوة الحفظ . فعندما وصل إليها ، سأله أهلها أن يحدثهم ، فاعتذر أبو بكر قائلاً : ما معي أصل ! . فاستغرب القوم ، وقالوا : ابن أبي داود وأصل ؟ . فأملى عليهم من حفظه ثلاثين ألف حديث مدة إقامته . فلما رجع إلى بغداد في نهاية رحلته ، شكَّ البغداديون في صدق ذلك الأمر ، فأرسلوا رسولاً اكتروه (بستة دنانير) إلى أصفهان ليكتب النسخة التي حدَّث بها أبو بكر ، فكتبها وجاء بها ، وعرضت على الحفاظ . فلم يخطئوه إلا في ستة أحاديث ، ثلاثة منها أخطأ فيها ، وثلاثة في أصول كتبه كما سمعها [٣] .

وأجبرت الظروف السياسية التي مر بها العراق ، والمتمثلة في ثورة الزِّنْج ، أن يرحل **أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد البصري** (ت ٣٢١هـ / ٩٣٣م) ، أحد أعلام عصره البارزين في اللغة، عن بلده البصرة عندما دخلها الزنج وعاثوا فيها فساداً ، فكان هذا الأمر سبباً في رحلة ابن دريد العلمية إلى عمان ، وسكنها مدة ، تنقل بعدها في الجزائر

---

(١) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١١٥ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٣/٢٥٥ ــ ٢٥٦) .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢/٤٠٥) .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٩/٤٦٦) . السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٣٢٥ .

البحرية ما بين البصرة وفارس ، وأملى فيها كتابه « الجمهرة في اللغة » ، فذهب إلى جزيرة ابن عمر ، ومنها توجه إلى نواحي فارس ، ثم انتقل إلى بغداد سنة (٣٠٨هـ / ٩٢٠م) ، وسكنها حتى توفي بها [١] .

وإلى الشام رحل **أبو بكر أحمد بن عثمان الربعي البغدادي** (ت ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م) ، عالم القراءات ، للأخذ عن شيوخ القراءات فيها ، وأيضاً جلوسه لمن أراد أن يقرأ عليه . فقرأ عليه بدمشق جماعة فيهم : تمام الرازي ، وعلي بن داود الداراني ، وعبد القاهر الجوهري ، وعبد الرحمن بن أبي نصر ، وغيرهم [٢] .

ولكن هناك فئة ممن رحل في طلب العلم من العراقيين قد استقر في البلاد التي رحل إليها ، إما قاصداً ذلك ، أو أنه توفي بها ، المهم أنه لم يعد إلى العراق مرة أخرى . فالبعض منهم استقر بخراسان ، وآخرون بالشام ، وفئة بمصر ، ورابعة بالمغرب ، وخامسة بالأندلس ، وهكذا .

فمن علماء العراق الذين استقروا ببلاد ما وراء النهر ، **أبو علي صالح بن محمد الأسدي البغدادي المعروف بجزرة** (ت ٢٩٣هـ / ٩٠٦م) ، علاّمة الحديث ، وأحد حفاظه البارزين ، رحل كثيراً ، ولقي المشايخ بالشام ، ومصر ، وخراسان ، وانتقل من بغداد إلى بخارى . وحدَّث بها ، وحديثه عند البخاريين ، وأقام بها حتى وفاته . وكان ممن يرجع إليه في علم الآثار ، ومعرفة نقلة الأخبار . وعندما دخل بخارى لم يكن معه كتاب ، وإنما كان يحدِّث فيها من حفظه [٣] .

---

(١) القفطي : إنباه الرواة ، (٣/٩٣ ، ٩٨) . الداوودي : طبقات المفسرين ، (٢/١٢٤) . ابن الأثير : اللباب ، (١/٤٩٩ ـ ٤٥٠) .

(٢) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (٢/٣٦٩) . وهناك العديد من الأسماء الأخرى التي رحلت في طلب العلم خارج العراق في شتى العلوم . لمزيد من المعلومات ، انظر : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢/٢٠١) .ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (١/٢٢) ، (٢/١٤٤) . القفطي : إنباه الرواة ، (١/٢٠٥) . ابن الصلاح : طبقات الفقهاء الشافعية ، (١/١٤٠) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/٢٩٨) . الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (١/٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٥١) . ابن حجر : تقريب التهذيب ، ص ٣٨٢ ، ٥٦٣ ، ٧٦٣ .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٩/٣٢٢ ـ ٣٢٨) . الذهبي : الأمصار ذوات الآثار ، ص ٩١ .

وممن استقر بمكة من علماء العراق ، **أبو بكر محمد بن الحسين الآجري** (ت ٣٦٠هـ / ٩٧١م) ، من أبرز محدثي عصره وفقهائه . حدث ببغداد قبل سنة (٣٣٠هـ/ ٩٤١م) ، ثم انتقل إلى مكة ، واستطابها ، فأقام بها حتى وفاته [١] .

وهناك طائفة كبيرة من علماء العراق ممن استقر بالشام حتى وفاته ، ومن هؤلاء : **أبو الحسن أحمد بن عبد الله الغطفاني المعروف بابن الحواري** (ت ٢٤٦هـ / ٨٦٠م) ، أحد أعلام الحديث الزُّهّاد . أصله من الكوفة ، ورحل فيما بعد إلى دمشق ، واستقر بها حتى وفاته . وكان لمقامه بدمشق أكبر الأثر في بروز مدرسة الحديث الشامية ، ويجعل لها مكانة عالية ، نلحظها من ثناء أئمة الإسلام عليه ، فقال عنه يحيى بن معين : ((إني لأظن أن الله يسقي أهل الشام به)) . وقال عنه الجنيد بن محمد : ((هو ريحانة الشام)) [٢] .

وكذلك ، **أبو محمد زهير بن محمد بن نمير المروزي** (ت ٢٥٨هـ / ٨٧٢م) ، من علماء الحديث المجاهدين ، الذي انتقل من بغداد إلى طَرَسُوس [٣] ، ورابط بها حتى وفاته . وكان من رواة الحديث عن أئمة الحديث ، كأحمد ، وغيره . وروى عنه جماعة أيضاً [٤] .

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٤٣/٢) . الذهبي : العبر ، (١٠٧/٢) . وأبو بكر الآجري : أحد الصالحين العباد ، وكان على مذهب الشافعي . وله مصنفات عدة ، منها : كتاب « مختصر الفقه » ، كتاب « أحكام النساء » ، كتاب « أخلاق العلماء » ، كتاب « النصيحة » ، وغيرها . النديم : الفهرست ، ص ٣٦٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، (٣٤٨/١٠) .

(٣) طرسوس : أحد الثغور الشامية على ساحل البحر الأبيض المتوسط . مصرت زمن الخليفة هارون الرشيد سنة (١٧٢هـ/٧٨٨م) . ويشق طرسوس نهر البردان . وبها توفي الخليفة المأمون . وإليها نسب جماعة من أهل العلم والفضل . وهي اليوم إحدى مدن الجنوب في جمهورية تركيا الجنوبية . البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ . ياقوت الحموي : معجم البلدان : (٢٨/٤ ـ ٢٩) . شيخ الربوة : نخبة الدهر ، ص ٢٨٢ . حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٣٤٣ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٤٨٤/٨) . وأبو محمد المروزي : أحد الثقات العباد . سمع الحديث عن جماعة منهم : روح بن عبادة ، وعبد الرزاق بن همام ، وسنيد بن داود ، وخلقاً سواهم . وعنه روى : أحمد بن عمرو البزار ، وابن صاعد ، وعمر بن بحير ، والحسين بن يحيى القطان ، وآخرون غيرهم .

=

وممن استقر بالشام أيضاً من علماء العراق ، عالم الحديث البصري ، **أبو بكر أحمد بن عمرو البزار** (ت ٢٩٢هـ / ٩٠٥م) [١] ، صاحب المسند الكبير المسمّى بـ « **البحر الزاخر** » ، وخبره أشهر من أن يستقصى . ارتحل من أجل نشر الحديث ، وتحصيله أيضاً ، فرحل إلى أصفهان ، والشام ، ثم نزل الرَّملة [٢] ، وتوفي بها [٣] .

وهناك **أبو بكر يموت بن المزرع العبدي البصري** (ت ٣٠٣هـ/٩١٥م) [٤] ، أحد رواة اللغة ، وابن أخت الجاحظ . روى عن أئمة اللغة، كالجاحظ ، والمازني ، والرياشي ، وأبي حاتم السجستاني ، وغيرهم ، عندما قدم بغداد سنة (٣٠١هـ / ٩١٣م) ورحل إلى

= قال أبو القاسم البغوي : ((ما رأيت بعد أحمد بن حنبل أفضل بن زهير بن قُمير ، سمعته يقول : أشتهي لحماً من أربعين سنة، ولا آكله حتى أدخل الروم فآكله من مغانم الروم)) . ابن ماكولا : الإكمال ، (١٢٧/٧) . اليافعي : مرآة الجنان ، (١٦٩/٢) . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (١٣٦/٢) .

(١) أبو بكر البزار : أحد حفاظ الحديث الثقات بالبصرة . وتكلم على الأحاديث ، وبين عللها . سمع جماعة ، منهم : هدبة بن خالد ، وعمر بن موسى الحادي ، وعبد الرحمن بن الفضل ، والحسن بن علي الواسطي ، ونحوهم . وحدث ببغداد ، فروى عنه من أهلها : أبو الحسن علي المصري ، ومحمد بن العباس بن نُجيح ، وعبد الباقي بن قانع ، ونحوهم . وقال عنه الدارقطني : ((ثقة ، يخطيء كثيراً ، ويتكل على حفظه)) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٣٤/٤ ـ ٣٣٥) . ابن الأثير : اللباب ، (١٤٦/١) . الذهبي : العبر ، (٤٢٢/١) . الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٦٨ .

(٢) الرملة : مدينة كبيرة ، وأهم مدن جند فلسطين ، الذي هو أحد أجناد الشام الخمسة . وأول من اختطها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ/٧١٥ ـ ٧١٧م) . وسكنها جماعة من أهل العلم ، فنسبوا إليها . وهي اليوم إحدى مدن فلسطين المحتلة في الجزء الشمالي الأوسط ، وتتبع إدارياً ما يعرف بـ « الضفة الغربية » . ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٧١ . ياقوت الحموي : المشترك وضعا ، ص ٢١٠ . حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٤١٥ .

(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، (٦٥٤/٢) .

(٤) أبو بكر العبدي : نحوي ، أديب ، راوية للغة . وكان من العارفين بالأخبار . أخذ العلم عن أبي عثمان المازني ، وأبي حاتم السجستاني ، ونصر بن علي الجهضمي ، وسواهم . وقال ابن حزم : ((واسم يموت محمد ، وإنما يموت لقب)) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٥٧/٢٠ ـ ٥٨) . ابن الجوزي : المنتظم ، (١٤٣/٦) . وفيه أن وفاة أبي بكر سنة (٣٠٤هـ/٩١٦م) .

مصر مراراً . ثم رحل إلى الشام ، ونزل بطبريِّة [١] ، وروى فيها الكثير من اللغة ، وما زال بها حتى وفاته . وكانت له أخبار حسان ، وشعر جيد [٢] .

ومن علماء اللغة والنحو العراقيين الذين استقروا بالشام أيضاً ، **أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي** (ت ٣٣٧هـ / ٩٤٨م) ، أحد أبرز نحاة مدرسة البصرة ، إذ رحل إلى مكة ، ويقال أنه صنف بها كتابه « الجمل الكبرى » ، وكان إذا فرغ من باب من أبواب الكتاب طاف بالبيت ، ودعا الله تعالى أن ينفع به قارئه . وكان آخر رحلاته إلى الشام ، وجلس لتدريس اللغة بجامع دمشق ، وانتفع الناس به ، وتخرّجوا عليه ، ثم انتقل إلى طبريِّة ، وبها توفي [٣] .

ويبقى الشاعر **أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفي المعروف بالمتنبي** (ت ٣٥٤هـ / ٩٦٥م) من أشهر أدباء العراق الشعراء الذين استقروا ببلاد الشام . وكان يتردد على سوق الوراقين بالكوفة لملازمة أدباء الورَّاقين ، ومجالسة رواد السوق من أهل اللغة والأدب . وبلغ خبره سيف الدولة الحَمْداني [٤] . ورحل إليه ، واختص به ، ومدحه

---

(١) طبرية : إحدى مدن جند الأردن على ضفاف بحيرة طبرية ، نسبة إليها . ومن هذه البحيرة يخرج نهر الأردن المشهور . وغالبية أهلها يتبعون المذهب الأشعري . وتقع طبرية في الوقت الحالي ، في شمال شرق فلسطين . اليعقوبي : البلدان ، ص ٣٢٧ . شوقي أبو خليل : أطلس التاريخ العربي ، ص ٣٤ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ، (١٩٦/٤) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٥٨/١٤ ـ ٣٦٠) . ابن الجوزي : المنتظم ، (١٤٣/٦) .

(٣) اليماني : إشارة التعيين ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

(٤) سيف الدولة الحمداني : هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان الثعلبي الملقب بسيف الدولة . الأمير ، والشاعر . انتهى إليه أمر الدولة الحمدانية في الموصل ، وحلب . واستطاع أن يخضع مدينة واسط لصالحه ، وامتلك دمشق ، واستطاع الاستيلاء على حلب من الإخشيديين . وامتاز عهد سيف الدولة بكثرة حروبه مع البيزنطيين ، حتى قيل أنه غزا بلادهم المجاورة لبلاده أربعين غزوة . وكان سيف الدولة شجاعاً ، كريماً ، وأخباره مشهورة في ذلك . وكان مقرباً لأهل العلم والأدب . ويقال : ((إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ، ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر)) . وكانت تربطه علاقة وثيقة بالشاعر الشهير أبو الطيب المتنبي ، وله معه أخبار حوتها بطون كتب التاريخ والأدب . وكانت وفاة سيف الدولة سنة (٣٥٦هـ/٩٦٧م). الثعالبي: يتيمة الدهر ، (٣٧/١ ـ ٥٦) . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٥٨٠/٨ـ٥٨١) ، وكذلك أخباره في (٣٨٢/٨ وما بعدها) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤٠١/٣ ـ ٤٠٦) . العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (٢٠/٣ ـ ٢١) . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، (١٢٧/٣ ـ ١٣٠) .

بقصائد كثيرة . ثم رحل إلى مصر ، واتصل بكافور الإخشيدي [١] . ثم توجَّه إلى بغداد ، وجالس بها أهل الأدب ، وقُرِىء عليه ديوانه . ثم رجع إلى مهجره الشام ، وأمضى بقية حياته فيها حتى قتل سنة (٣٥٤هـ / ٩٦٥م) على يد قطَّاع الطريق [٢] .

وكما كانت بلاد الشام بمدنها الحضارية مستقراً لبعض علماء العراق ، فقد كانت مصر أيضاً إحدى الأقطار الإسلامية التي رحل إليها مجموعة من علماء العراق ، واتخذوها موطناً جديداً لهم حتى وفاتهم بها .

ومن أبرز هؤلاء العلماء ، **أبو علي أحمد بن جعفر الدينوري** (٢٨٩هـ / ٩٠٢م) ، عالم النحو ، وختن أبي العباس ثعلب ، الذي نزل مصر ، وصنف بها كتاباً في النحو سماه « المهذب » . وأخذ عنه النحو العديد من دارسي العربية بمصر ، ومن أبرز هؤلاء أبو الحسين محمد بن الوليد المعروف بولادٍ [٣] .

وأيضاً ، **أبو العباس عبد الله بن محمد الأنباري الناشيء الأكبر المعروف بابن شرشير** (ت ٢٩٣هـ / ٩٠٦م) [٤] ، وكان من الشعراء المجيدين ، وأصله

---

(١) كافور الإخشيدي : هو أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدي . الأمير المشهور . كان عبداً حبشياً ، اشتراه الإخشيد ملك مصر سنة (٣١٢هـ/٩٢٤م) ، فنسب إليه ، ثم أعتقه فترقى عنده . وما زالت همته تصعد به ، حتى ملك مصر سنة (٣٥٥هـ/٩٦٦م) . وكان فطناً ، ذكياً ، حسن السياسة . ودام ملكه لمصر : سنتان وأربعة أشهر . وكان يدعى له على منابر مكة ، ومصر ، والشام حتى وفاته بالقاهرة سنة (٣٥٧هـ/٩٦٨م) . الذهبي : دول الإسلام ، ص ١٩٧ . مسكويه : تجارب الأمم ، (١٠٤/٢) . الزركلي : الأعلام ، (٢١٦/٥) .

(٢) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

(٣) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢١٥ . القفطي : إنباه الرواة ، (٦٨/١ ـ ٦٩) .

(٤) الناشيء الأكبر : شاعر مجيد ، يعد في طبقة ابن الرومي ، والبحتري . وكان أحد العالمين بالمنطق . له قصيدة على روي واحد وقافية واحدة ، في أربعة آلاف بيت ، في فنون من العلم . وكان فيه هوس . وله مصنفات ينقض بها كتاب المنطق ، وأشعار في ذلك . وكان يقول في خلاف كل معنى قالت فيه الشعراء . وأكثر أشعاره في جوارح الصيد ، وآلاته ، وما يتعلق بها . وقد استشهد كُشاجم بشعره في كتابه « المصايد والمطارد » في مواضع . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٩١/٣ ـ ٩٣) . ابن المرتضى : طبقات المعتزلة ، ص ٩٢ ـ ٩٣ . السيوطي : حسن المحاضرة ، (٥٥٩/١) .

من الأنبار ، وأقام ببغداد فترة طويلة من حياته ، توجه بعدها إلى مصر ، وأقام بها حتى وفاته [١] .

وممن سكن مصر من علماء البصرة ، **محمد بن هشام بن أبي خيرة** (ت ٢٥١هـ / ٨٦٥م) ، **وأبو خالد يزيد بن سنان القزاز** (ت ٢٦٤هـ / ٨٧٧م) ، **وإبراهيم بن مرزوق الأموي** (ت ٢٧٠هـ / ٨٨٣م) [٢] .

ومن علماء الحديث العراقيين الذين استقروا بمصر أيضاً ، **أبو علي أحمد بن محمد الروذباري** (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) ، أحد أئمة الحديث والفقه البغداديين ، وشيخ الصوفية في وقته ، الذي رحل إلى مصر ، واتخذها مستقراً له حتى آخر حياته [٣] .

غير أن بعض علماء العراق قد أوغلوا في المغرب الإسلامي ، فاستقر البعض منهم في إفريقية (تونس) ، والبعض منهم تجاوزها ، متخذاً من الأندلس موطناً جديداً له .

فممن استقر بإفريقية من أبناء العراق ، **أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني** (٢٩٨هـ/٩١٠م) [٤]، عالم اللغة والنحو ، الذي ساح في البلاد ، فدخل خراسان، والحجاز ، والجزيرة ، واليمن ، والثغور ، ومصر . وأتبع ذلك بالأندلس ، والمغرب ، واستقر أخيراً بالقيروان، واستوطنها أيام إبراهيم الثاني بن الأغلب (٢٦١-٢٨٩هـ/٨٧٥-٩٠٢م) [٥]،

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/٩١ - ٩٣) .

(٢) ابن حجر : تقريب التهذيب ، ص ٩٠٣ ، ١٠٧٦ ، ١١٥ (على التوالى) .

(٣) ابن الصلاح : طبقات الفقهاء الشافعية ، (١/٣٩٤) .

(٤) أبو اليسر الشيباني : ويعرف بالرياضي . أديب ، من الكتاب العلماء . أصله من بغداد . لقي الجاحظ ، والمبرد ، وثعلب ، وابن قتيبة الدينوري . ومن الشعراء : دعبل بن علي الخزاعي ، وعلي بن الجهم ، والبحتري . ولأبي اليسر مؤلفات ، منها : كتاب « لفظ المرجان » ، « سراج الهدى » في معاني القرآن ، وكتاب « قطب الأدب » ، ونحوها . البغدادي : هدية العارفين ، (١/٤) .

(٥) إبراهيم الثاني بن الأغلب : هو إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب التميمي . من أمراء الأغالبة أصحاب إفريقية . وكان عاقلاً ، محسناً ، حازماً . وحدثت في أيامه عدة ثورات استطاع القضاء عليها . وأمن الناس في عهده . وغزا بلاد الإفرنج ، فافتتح كثيراً من حصونهم ، وقلاعهم . قال ابن خلدون : ((بني الحصون ، والمحارس بسواحل البحر ، حتى كانت النار توقد في ساحل سبتة ، إنذاراً بالعدو ، فيصل إيقادها بالأسكندرية ، في الليلة الواحدة)) . وأصيب في آخر عمره بداء المالنخوليا (الجنون) ، فقتل كثيراً من

وتولى أبو اليسر الإشراف على بيت الحكمة فيها أيام زيادة الله الثالث بن الأغلب (٢٩٠ ــ ٢٩٦هـ / ٩٠٣ ــ ٩٠٨م) [١] ، آخر أمراء الأغالبة . وهو أول من أدخل أدب المُحْدَثين إفريقية . وعن طريقه يروي أهل الأندلس « ديوان حبيب » [٢] .

وفي القيروان أيضاً ، استقر طبيب العراق ، **إسحاق بن عمران البغدادي المعروف بـ « سم ساعة »** ، (ت ٢٩٤هـ / ٩٠٦م) ، وهو من أطباء بغداد ، دخل القيروان في دولة إبراهيم الثاني بن الأغلب ، بعد أن تقدم الأخير بطلب القدوم إليه بإفريقية . وبإسحاق ، كما يذكر ابن جلجل ، ظهر الطب بالمغرب ، وعرف الفلسفة به أيضاً [٣] .

وإلى الأندلس انطلق أحد علماء العراق البارزين في اللغة والأدب ، وهو : **أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي** (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٧م) ، الذي طاف بالعراق أولاً . ثم قدم بعد سنة (٣٠٣هـ / ٩١٥م) إلى الموصل ، لسماع الحديث من أبي يعلى الموصلي . ثم توجه إلى بغداد مرة أخرى ، ودخلها سنة (٣٠٥هـ / ٩١٧م) ، ومكث بها ما يقرب من

= أصحابه ، وكتّابه ، وحجّابه ، ونسائه . فشكاه أهل إفريقية إلى الخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ/٨٩٢ ـ ٩٠٢م) ، فعزله سنة (٢٨٩هـ/٩٠٢م) ، فرحل إلى صقلية ، وتوفي بها في نفس السنة ، وحمل إلى القيروان ، ودفن بها . وإليه الفضل في بناء مدينة رَقّادة بإفريقية . ابن الأبار : الحلة السيراء ، (١٧١/١ ـ ١٧٤) . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٣٢١/٧ ـ ٥٢٠) ، ابن عذاري : البيان المغرب ، (/١) . ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، (/٤) .

(١) زيادة الله الثالث بن الأغلب : هو أبو مضر زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم الثاني بن الأغلب التميمي . آخر الأمراء الأغالبة ، بعد خروجه من رَقّادة في أعقاب هزيمته من قبل أبو عبد الله الشيعي ، داعي الفاطميين ببلاد المغرب على إفريقية . قدم على مصر ، ثم دمشق في طريق ذهابه إلى بغداد سنة (٣٠٢هـ/٩١٤م) ، وتوفي بالرملة سنة (٣٠٤هـ/٩١٦م) ، ودفن بها . وكان ميالاً إلى اللهو ، وانشغل بملازمة الندماء عن شؤون الدولة . وانقرضت به دولة الأغالبة في إفريقية . ابن الأبار : الحلة السراء ، (١٧٥/١ ـ ١٧٨) . الزركلي : الأعلام ، (٥٦/٣) .

(٢) اليماني : إشارة التعيين ، ص ١١ . ولم يعثر على خبر عن بيت الحكمة ، سوى ما ذكره اليماني في كتابه ، وهو ما ذكر في الأعلى .

(٣) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٨٤ ـ ٨٥ . صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٥١ . العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٣٠٧/٩) .

(٢٥ سنة) يكتب الحديث ، ويسمع الأخبار ، وعلوم العربية ، وأخذ علم القراءات على يد ابن مجاهد . وفي سنة (٣٢٨هـ / ٩٤٠م) خرج أبو علي القالي من بغداد يريد الأندلس ، وتوقف في طريقه بمصر فترة من الزمن . توجه بعدها إلى الأندلس ، ودخل قرطبة في شهر شعبان من عام (٣٣٠هـ / ٩٤٢م) ، وذلك على أيام عبد الرحمن الناصر ، فأكرمه ، وقدّمه . وصنَّف له القالي ، ولولده الحكم المستنصر المصنفات ، وبثَّ علومه هناك . وأملي كتابه « الأمالي » بقرطبة ، وبها وضع أكثر مصنفاته . وظل أبو علي القالي بقرطبة طوال حياته ، فاستفاد الناس منه ، وقرأوا عليه كتب اللغة ، والأخبار ، والأمالي ، وعولوا عليه ، وعظمت الاستفادة منه ، حتى اتخذوه حجة فيما نقله (١) .

وفي المقابل كان العراق بمدنه المزدهرة بالعلم ، والمعرفة ، مقصد أبناء العالم الإسلامي بأسره ، وذلك بفضل التقدم العلمي في العراق ، ونشاطه بشكل فاق بقية الأقطار الإسلامية في ذلك الوقت .

ولذا ، كانت مراكز العراق العلمية ، بغداد ، وواسط ، والبصرة ، والكوفة ، وسُرَّمَنْ رأى ، وغيرها ، مأوى أفئدة طلاب العلم من أبناء العالم الإسلامي ، لكسب العلم والمعرفة . فشملت الرحلات العلمية إلى العراق ، في مقصدها ، جميع العلوم .

وكان بعض هؤلاء القادمين إلى العراق قد استهواه نشاط العلوم فيه ، فيقرر البقاء في إحدى مدنه حتى وفاته ، في حين أن البعض منهم كان يمكث في العراق فترة زمنية معينة ، يعود بعدها إلى بلده .

وللتعرف على هذا الموضوع بصورة أكثر وضوحاً ، سوف يكون استعراض رحلات طلاب العلم من الأمصار الإسلامية إلى العراق ، من المشرق الإسلامي إلى مغربه .

---

(١) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٦٧ . الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ١٥٤ ـ ١٥٨ . الضبي : بغية الملتمس ، ص ١٩٧ ـ ٩٩ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢٢٦/١ ـ ٢٢٨) . المقري : نفح الطيب ، (١٩٠/٣) .

ا ـ القادمين إلى العراق من بلاد ما وراء النهر ، وخراسان :

كان العراق مقصد أبناء هذه البقاع رغبةً منهم في تحصيل العلم والفائدة من علمائه ، ولا يعني ذلك أنهم جاءوا للأخذ فقط ، وإنما كان لمجيء البعض منهم ، وجلوسه لإملاء حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس أكبر الأثر في اثراء الساحة العلمية ، جنباً إلى جنب مع علماء العراق ، كما سيأتي تبيانه في السطور القادمة .

فمن أشهر العلماء الذين وفدوا على العراق من بلاد ما وراء النهر ، **أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري** (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م) ، إمام الحديث في وقته . وخبره أشهر من أن يستقصى . تنقل في مدن العراق ، يأخذ العلم من علمائها ، وينشر ما لديه على الناس في تلك المدن .

وورد البخاري بغداد دفعات ، وحدَّث بها ، وروى عنه جماعة ، منهم : إبراهيم الحربي ، وعبد الله بن محمد بن ناجية ، ومحمد بن محمد الباغندي ، وغيرهم ، وآخر من حدث عنه ببغداد : أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي القاضي (ت ٣٣٠هـ/٩٤٢م) . وسمع البخاري الحديث من مشايخ بغداد ، فيهم : محمد بن عيسى الطباع ، وأحمد بن حنبل ، ومحمد بن سائق ، وسريج بن النعمان ، وغيرهم [١] . إلا أنه كان ملازماً للإمام أحمد بن حنبل في الفترات الأخيرة . يقول الإمام البخاري : ((دخلت بغداد آخر ثمان مرات ، كل ذلك أجالس أحمد بن حنبل)) [٢] .

وكان الإمام البخاري أثناء مقامه بالعراق يعمل على نشر ما لديه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الناس ، وذلك من خلال جلوسه للإملاء عليهم . فكان له مجلس حديث ببغداد يجتمع فيه أكثر من عشرين ألفاً من الناس ، وكان له ثلاثة مستملين [٣] في هذا المجلس لعظِمه [٤] .

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٥/٢) . النووي : تهذيب الأسماء واللغات ، (٩٠/١) .

(٢) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٢٧٧/١) .

(٣) المستملين : جمع مستملي ، وهو الشخص الذي يتخذه العالم الذي يملي ليبلغ عنه إلى من بَعُدَ في الحلقة . السمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ، (٣٨٢/٢) .

(٤) النووي : تهذيب الأسماء واللغات ، (٨٨/١) .

وكانت البصرة إحدى المحطات التي توقف فيها البخاري فترات مهمة من حياته . وكان يختلف إلى مشايخ البصرة لسماع الحديث [١] . ومنهم : أبو عاصم الشيباني ، وصفوان بن عيسى ، وحرمي بن عمارة ، وعفان بن مسلم ، وسليمان بن حرب ، وسواهم[٢]. ويتحدث البخاري عن مقامة بالبصرة ، فيقول : ((أقمت بالبصرة خمس سنين مع كتبي ، أصنف ، وأحج في كل سنة ، وأرجع من مكة إلى البصرة)) . حتى أنه صنف جزء من كتابه « الجامع » بالبصرة [٣] .

وكما سمع البخاري ببغداد ، والبصرة ، فقد سمع أيضاً بواسط ، والكوفة . فبواسط سمع من : حسان بن حسان ، وسعيد بن عبد الله بن سليمان ، وحسان بن عبد الله ، وأقرانهم . وبالكوفة ، سمع : عبد الله بن موسى ، وأحمد بن يعقوب ، وإسماعيل بن أبان ، والحسن بن الربيع ، وآخرين [٤] .

ومن سمرقند قدم إلى بغداد ، **أبو بكر محمد بن أحمد بن منصور الخياط النحوي** (ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢م) [٥] ، واجتمع مع علماء النحو البغداديين ، ومنهم : أبو إسحاق الزجاج ، وجرت بينهما مناظرة ، وكذلك أبو علي الفارسي النحوي ، الذي قرأ عليه ، وكتب عنه شيئاً من علم العربية . وأخذ عنه أيضاً ، أبو القاسم الزجاجي . وكان أبو بكر يخلط بين مذهب الكوفيين والبصريين في النحو [٦] .

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٤/٢) .

(٢) المصدر السابق ، (٤/٢ ـ ٥) .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٦/٢ ـ ١٧) .

(٤) الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٢٥١ ـ ٢٦٠هـ) ، ص ٢٤٠ .

(٥) أبو بكر الخياط : وهو من أهل سمرقند ، وانحدر من بغداد إلى البصرة في قدومه إلى العراق ، وتوفي بها . وكان أبو بكر جميل الأخلاق ، طيب العشرة. وله من المصنفات: كتاب « معاني القرآن » ، وكتاب « النحو الكبير » ، وكتاب « الموجز في النحو » ، وكتاب « المقنع في النحو ». ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٨٥ . الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٨٨/٢) .

(٦) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٤١/١٧ ـ ١٤٢) . الداوودي : طبقات المفسرين ، (٨٧/٢ ـ ٨٨) .

ومن أعلام بلاد ما وراء النهر الذين زاروا العراق ، **أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي** (ت ٣٣٩هـ / ٩٥٠م) [١] ، أحد أعلام الفلسفة في تاريخها . وخرج من بلدته فاراب [٢] ، وأخذ يتنقل هنا وهناك حتى وصل إلى بغداد . وفيها شرع في تعلم اللسان العربي ، فتعلمه وأتقنه . وتعلم صناعة النحو على يد أبي بكر ابن السرّاج (ت ٣١٦هـ / ٩٢٨م) ببغداد . ثم اشتغل بعلوم الفلسفة والمنطق عند يوحنا بن حيلان ، أيام الخليفة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ / ٩٠٨ ـ ٩٣٢م) . وكان أبو نصر يحضر حلقة أبو بشر متَّى بن يونس المنطقي في بغداد . وذاعت شهرة أبي نصر في العراق ، التي رحل منها متوجهاً إلى دمشق في آخر سنة (٣٣٠هـ / ٩٤٢م) ، وظل بها حتى وفاته . وكان أبو نصر قد بدأ في بغداد بتصنيف كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » ، ثم حمله معه عند خروجه إلى الشام ، وأتمه بدمشق [٣] .

أما إقليم خراسان ، فكان عدد القادمين منه إلى العراق ربما فاق عدد القادمين من أي بلد إسلامي آخر ، تبعاً للمعلومات المتوفرة في هذا الأمر .

---

(١) أبو نصر الفارابي : أكبر فلاسفة المسلمين ، وسيرته مشهورة . مكث فترة من الزمن في بغداد ، ثم انتقل إلى دمشق ، واتصل بسيف الدولة الحمداني . وكان يحسن اليونانية ، وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره . وعرف بالمعلم الثاني ، لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول) . وله نحو مائة كتاب ، جلها في الفلسفة والمنطق . من أهمها وأشهرها : كتاب « الفصوص » ، كتاب « إحصاء العلوم » ، كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » ، كتاب « إبطال أحكام النجوم » ، وغيرها . النديم : الفهرست ، ص ٤٢٣ . البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام ، ص ٣٠ ـ ٣٥ . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٤٩٣/٨) . ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ١٤٨ـ١٤٩ . العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٢٠/٩ ـ ٢٥) .

(٢) فاراب : إحدى مدن بلاد ما وراء النهر ، وهي ضمن كورة إسبيجاب ، على الضفة الشرقية لنهر سيحون ، وتقع مدينة فاراب (أو باراب) على النقطة التي يتفرع منها نهر جمكنت عن نهر سيحون . وهي مدينة ليست بالكبيرة ، ومحصنة . وبها جامع ، وعمارات ، وأسواق . وهي اليوم إحدى مدن جمهورية كازاخستان ، إحدى الجمهوريات الإسلامية المستقلة عن روسيا . المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ، ٢١٩ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٢٢٥/٤) . سيد رضوان : فتوح البلدان للبلاذري ، مجلة عالم الكتب ، مج٦ ، ع٣ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ، ص ٣٩٦ .

(٣) صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٣٧ ـ ١٤٠ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٦٠٥ ـ ٦٠٦ ، ٦٠٨ . ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، (٢٧٤/١ ـ ٢٧٥) .

فمن علماء خراسان القادمين إلى العراق ، **أبو علي الحسن بن شجاع البلخي** (ت ٢٤٤هـ / ٨٥٨م) . وهو أحد أئمة الحديث وحفاظه ، وكان محل إعجاب أحمد بن جنبل . فعندما سأله ابنه عبد الله عن أبرز حفاظ خراسان ؟ ، ذكر له الإمام أحمد أربعة أسماء : محمد بن إسماعيل البخاري ، وأبو زرعة الرازي ، وعبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي ، والحسن بن شجاع البلخي . وعندما سأله عبد الله عن أحفظهم ؟ ، قال الإمام أحمد : ((أما أبو زرعة فاسردهم ، وأما محمد بن إسماعيل فأعرضهم ، وأما عبد الله بن عبد الرحمن فأتقنهم ، وأما الحسن بن شجاع فأجمعهم للأبواب)) [١] .

أما **أبو يعقوب إسحاق بن منصور المروزي المعروف بالكوسج** (ت ٢٥١هـ/٨٦٥م) ، أحد أبرز فقهاء خراسان ومحدثيها ، فقد ورد بغداد وحدَّث بها ، وروى عنه جماعة ، منهم : إبراهيم بن إسحاق الحربي ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل ، وغيرهم . وهو الذي دوّن عن الإمام أحمد المسائل في الفقه . ولقد بلغه أن الإمام أحمد رجع عن تلك المسائل التي علّقها عنه ، فجمع أبو يعقوب تلك المسائل في جِراب ، وحملها على ظهره ، وخرج راجلاً إلى بغداد وهي على ظهره . فعندما وصل إلى الإمام أحمد ، عرض خطوطه عليه في كل مسألة استفتاه فيها . فأقر له بها ثانية ، وأعجب أحمد بذلك [٢] .

وممن رحل من أبناء خراسان أيضاً إلى العراق ، **أبو عمرو شمر بن حمدويه الهروي** (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م) أحد فضلاء اللغة والأدب ، الذي دخل العراق وكتب الحديث ، ولقي علماء اللغة والنحو ، وأخذ عنهم ، كالرياشي ، وأبو حاتم السجستاني ، وسلمة بن عاصم ، وغيرهم . وسمع دواوين الشعر من وجوه شتى [٣] .

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢/٢١) . الذهبي : تذكرة الحفاظ ، (٢/٥٤٢) . السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٢٤٢ .

(٢) مسلم : الكنى والأسماء ، (٢/٩١٩) . ابن شاهين : تاريخ أسماء الثقات ، ص ٦٢ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٦/٣٦٢ ـ ٣٦٤) . العليمي : المنهج الأحمد ، (١/١٩١ ـ ١٩٢) .

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١١/٢٧٤ ـ ٢٧٥) . اليماني : إشارة التعيين ، ص ١٤١ .

ومن أبرز علماء خراسان الذين رحلوا إلى العراق أيضاً ، **أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري** (ت ٢٦١هـ / ٨٧٥م) ، إمام الحديث ، وخبره أشهر من أن يستقصى . دخل بغداد غير مرة ، واجتمع بعلماء الحديث فيها ، وسمع منهم ، ومن هؤلاء : أحمد بن حنبل ، وقتيبة بن سعيد البغلاني ، وعثمان بن أبي شيبة ، وإسماعيل بن أبي أويس ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، وخلائق غيرهم . كما روى عنه من أهل بغداد : محمد بن مخلد الدوري ، ويحيى بن صاعد ، وحاتم بن أحمد الكندي ، وأحمد بن سلمة ، وأبو بكر الجارودي ، وأبو العباس ابن السراج ، وغيرهم . وآخر قدوم للإمام مسلم إلى بغداد كان سنة (٢٥٩هـ / ٨٧٣م) (١) .

ومن خراسان كذلك رحل إلى العراق ، **أبو نصر الفتح بن شخرف بن داود المروزي** (ت ٢٧٣هـ / ٨٨٦م) ، أحد المحدثين الزهاد . سكن بغداد ، وحدَّث بها ، وصحب الإمام أحمد وجالسه ، وسأله عن أشياء كثيرة . وفي حقه قال الإمام أحمد : ((ما أخرجت خراسان مثل الفتح بن شخرف)) . وكانت لأبي نصر مكانة عظيمة عند أهل بغداد ، فعندما توفي ببغداد صُلي عليه ثلاث وثلاثون مرة ، لعظم الخلق الذين يُصلون عليه (٢) .

كما قدم إلى العراق من الخراسانيين أيضاً ، **أبو بكر محمد بن إسحاق الصاغاني** (ت ٢٧٠هـ / ٨٨٣م) ، وهو من علماء الحديث الأثبات ، فقد تجول في العالم الإسلامي طلباً للعلم ، واستقر به القرار ببغداد فسكنها ، وسمع فيها الحديث عن : عبد الله بن أحمد بن حنبل ، وغيره . وحدَّث عنه خلق كثير ، فيهم : موسى بن هارون ، وأبو بكر الأصفهاني ، وأبو بكر ابن أبي الدنيا ، وأحمد بن هارون البرديجي ، وأبو الحسين بن المنادي ، وغيرهم (٣) .

وممن ساهم من علماء خراسان في نشر العلم أثناء مقامه بالعراق ، **أبو بكر جعفر بن محمد الفريابي** (ت ٣٠٢هـ / ٩١٤م) ، عالم الحديث ، وقاضي

---

(١) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٣٣٧/١) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٩٤/٥ ـ ١٩٥) .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٨٤/١٢ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨) .

(٣) ابن أبي حاتم : الجرح والتعديل ، (٣/ ٧٥) . السمعاني : الأنساب ، (١٥/٨) .

الدِّيْنَوَر [١] ، نـزل بغداد واحتفى بـه أهلها ، واستقبلـوه بالطيارات والزبازب [٢] . وأملى الحديث عليهم بشارع المنارة [٣] ، وحضر مجلسه ، كما يذكر الهمذاني ، الآلاف ، وكان المستملين بالمئات [٤] .

٢ــ القادمين إلى العراق من فارس ، والجبال :

كان إقليمي : فارس ، والجبال ، أحد الأقاليم الإسلامية التي كان يتوافد أبناؤها على مدن العراق ، لينهلوا من معين العلم فيه .

فمن فارس قدم ، **أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي** (ت ٢٧٧هـ/٨٩٠م) ، أحد أئمة الحديث في وقته ، وقد رحل في طلب العلم إلى شتى الأنحاء ، وتغرّب عن بلده نحو ثلاثين سنة ، وكان قد دخل العراق ، واستقر بالبصرة بها حتى توفي بها . وقد روى عنه : عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي ، وغيره [٥] .

وهناك أسماء من إقليم الجبال رحلت إلى العراق ، بعضها استقر فيه ، والبعض الآخر مكث فيه لفترة معينة ثم خرج منه .

---

(١) الدينور : إحدى مدن إقليم الجبال ، فتحها أبو موسى الأشعري في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين . وهي مدينة جليلة القدر ، وأهلها أخلاط من الناس ، من العرب ، والعجم . والدينور اليوم ، تقع في الجزء الغربي من جمهورية إيران . البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٣٠٤ . اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٧٠ ــ ٢٧١ . الذهبي : الأمصار ذوات الآثار ، ص ٦٠ ــ ٦١ . حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٤٣٠ .

(٢) الطيارات ، والزبازب : أنواع من السفن النهرية المتخذة للركوب . ابن منظور : لسان العرب ، (١/٤٤٦) ، (٤/٥١٠) .

(٣) شارع المنارة : هو أحد الشوارع الواقعة بين باب الكوفة وباب الشام ببغداد . وسمي بذلك ، نسبة لمنارة مسجد الحسين بن زهير الضبي ، صاحب الشرطة على عهد الخليفة أبو جعفر المنصور ، الذي يقع في هذا الشارع ، وكانت طويلة . اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٤١ ، ٢٤٣ .

(٤) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، (١١/٥٩ ــ ٦٠) . السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٢٦٢ ــ ٢٦٣ .

ومن هؤلاء ، **أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي** (ت ٢٦٤هـ / ٨٧٨م) ، من أبرز علماء الحديث في زمانه ، قدم بغداد دفعات ، وجالس الإمام أحمد ، واستفاد منه أشياء ، وكانا يتناظران في الحديث والمسائل . وكان الإمام أحمد حريص على مجالسة أبي زرعة ، لفضله وعلمه ، حتى قال لابنه عبد الله عندما نزل عنده أبو زرعة مرة : ((يا بني قد اعتضت عن نوافلي بمذاكرة هذا الشيخ)) ، يقصد أبو زرعة . وقال الإمام أحمد أيضاً في حقه : ((ما جاوز الجسر أحفظ من أبي زرعة الرازي)) [١] .

وكذلك ، **أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني** (ت ٢٧٣هـ / ٨٨٧م) ، صاحب السنن المشهورة ، الذي قدم إلى العراق ، ونزل الكوفة ، والبصرة لسماع الحديث وإملائه أيضاً ، وقد روى عنه خلق كثير [٢] .

ومن حفاظ الحديث وأئمته في إقليم الجبال ممن رحل إلى العراق ، **أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي** (ت ٢٧٧هـ / ٨٩٠م) ، أحد الحفاظ الأثبات العارفين بعلل الحديث ، والجرح والتعديل ، وقد اشتهر أبو حاتم برحلاته العلمية من أجل الحديث ، حتى قال لابنه عبد الرحمن : ((يا بني ، مشيت على قدمي في طلب الحديث أكثر من ألف فرسخ)) [٣] . وقدم أبو حاتم بغداد ، وحدَّث بها ، وروى عنه من أهلها : أحمد بن منصور الرمادي ، وإبراهيم الحربي ، وأبو بكر ابن أبي الدنيا ، وقاسم بن زكريا المطرز ، والحسين بن إسماعيل المحاملي ، ومحمد بن مخلد الدوري ، وخلقاً سواهم [٤] .

٣ـ القادمين إلى العراق من الحجاز واليمن :

لم يكن إقبال أهل المعرفة من اليمن والحجاز على العراق يقارن بما كان عليه أبناء الأقاليم السابقة ، ولا حتى بما كان عليه أبناء الشام ، ومصر ، والمغرب ، والأندلس في

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، (١٣/٦٥ ـ ٨٥) . العليمي : المنهج الأحمد ، (١/٢٢٣ ـ ٢٢٦) .

(٢) ابن حجر : تهذيب التهذيب ، (٩/٥٣٠ ـ ٥٣٢) . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (٢/١٦٤) .

(٣) الفرسخ : طول الفرسخ حوالي (٦ كيلو متر) . فالترهنتس : المكاييل والأوزان الإسلامية ، ص ٩٤ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢/٧٣) . ابن كثير : البداية والنهاية ، (١١/٥٩) .

اندفاعهم نحو العراق طلباً للعلم . وإن كان لأهل الحجاز ما يبرر موقفهم ، والمتمثل في قدوم علماء العالم الإسلامي إلى مكة والمدينة خلال موسم الحج ، مما يجعل لقاءهم بعلماء الأمصار الإسلامية أمراً يسيراً ، قد لا يحتاجون معه إلى الارتحال إليهم في أوطانهم .

ولكن هذا لا يعني أنه لم تكن هناك صلات علمية بين العراق واليمن ، وإنما القصد هنا عدم ذهاب أبناء اليمن إلى العراق بما يوازي قدوم العراقيين إلى اليمن ، لأخذ الحديث عن علمائه ، وسماعه منهم .

ومن أبناء اليمن الذين وفدوا على العراق ، **الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني المعروف بابن الحائك وبذي الدمينة** (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م) ، من نوادر عصره في اللغة والأدب ، وكان يتردد بين صنعاء وبغداد . وكانت علاقته حميمة بعلماء العراق اللغويين والنحاة ، كأبي بكر الأنباري ، وأبي عمر النحوي ، وأبي عبد الله بن خالويه ، وغيرهم . واجتمع بعلماء العراق ، وجالسهم [١] .

ومن علماء مكة الذين رحلوا إلى العراق ، **الزبير بن بكار القرشي الزبيري** (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م) ، عالم الحديث والفقه ، وقاضي مكة . نزل بغداد ، وحدَّث بها ، وجالس صاحب الشرطة ، على أيام المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ / ٨٤٧ ـ ٨٦١م) ، محمد بن عبد الله بن طاهر (ت ٢٥٣هـ / ٨٦٧م) ، ودارت بينهم أحاديث ومناقشات طريفة [٢] . وكان الزبير من آدب الناس ، وأعلمهم في زمانه [٣] .

٤ ـ القادمين إلى العراق من الشام ومصر :

يعتبر الشام ومصر من الأقاليم التي كانت على اتصال علمي دائم بالعراق ، فرحلات طلاب العلم من هذين البلدين إلى العراق لم تنقطع ، وكذلك ذهاب علماء العراق إلى هذين البلدين كان بشكل دائم وملوحظ ، على نحو ما مرَّ في الصفحات السابقة .

---

(١) صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٤٧ ـ ١٤٩ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٢٣٠/٧ ـ ٢٣١) .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٤٦٧/٨ ، ٤٦٩) .

(٣) وكيع : أخبار القضاة ، (٢٦٩/١) .

فممن دخل العراق من علماء الشام ، **الطبيب قسطا بن لوقا البعلبكي** (ت ٣٠٠هـ / ٩١٢م) ، أحد أبرز الأطباء في عصره . وخدم قسطاً ، عند قدومه بغداد ، حركة النقل والترجمة التي كانت قائمة آنذاك ، بأن ساهم في تعريب العديد من الكتب اليونانية . وكان معاصراً لأبي يوسف الكندي . واستقر قسطاً ببغداد ، وسكنها حتى خروجه منها إلى أرمينية (١) قبيل وفاته ، فتوفي بها (٢) .

ومن مصر ، قدم **أبو جعفر أحمد بن صالح المصري** (ت ٢٤٨هـ / ٨٦٢م) ، من أبرز علماء علل الحديث واختلافه . دخل بغداد ، وجالس بها الحفاظ ، وكتب عن الإمام أحمد . ويذكر أبو زرعة الدمشقي ، أن الإمام أحمد سأله : من بمصر ؟ . فقال له : بها أحمد بن صالح ، فَسُرَّ بذلك ، ودعا له (٣) .

ومن فقهاء مصر الذين قصدوا العراق ، **أبو عثمان محمد بن محمد بن إدريس الشافعي** (ت ٢٨١هـ / ٨٩٤م) ، ابن إمام المذهب ، وأحد أعلام الفقه في وقته . دخل العراق ، وقدم إلى أحمد بن حنبل سنة (٢٣٣هـ / ٨٤٨م) ، وسأله عن مسائل في الحديث والفقه ، وتناقشا فيها (٤) .

٥ ــ القادمين إلى العراق من الأندلس :

لقد كان للمشرق عموماً ، والعراق خصوصاً ، موقعاً خاصاً في نفوس الأندلسيين ، وهذه المكانة مرتبطة ببداية النشاط العلمي في الأندلس بشكل واضح ، وذلك إبان عصر الإمارة (١٣٨ ــ ٣١٦هـ / ٧٥٦ ــ ٩٢٨م) في الأندلس .

---

(١) أرمينية : إحدى الولايات الإسلامية الواقعة في الجهة الشمالية . افتتحت في خلافة عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، على يد سليمان بن ربيعة الباهلي سنة (٢٤هـ/٦٤٥م) . وهي مما يضرب المثل في طيب هوائها ، وخيراتها . والأراضي الأرمينية مقسمة الآن ، فجزء يضم جمهورية إرمينية ، والبقية ضمن أراضي عدة دول ، وهي : جمهورية إيران ، وأذربيجان ، وجورجيا ، وتركيا . اليعقوبي : البلدان ، ص ٣٦٤. ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٦٣ ــ ٢٧٤ .كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ، ص٢١٦ ــ٢١٩ .

(٢) صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ٨٣ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٦٢ ــ ٢٦٣ . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٣١ .

(٣) ابن حجر : تهذيب التهذيب ، (٣٩/١ ــ ٤٢) . الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ، ص ٧ .

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٢٢٨/٢) . العليمي : المنهج الأحمد ، (٢٧٤/١ ــ ٢٧٦) .

فالأندلسيون كانوا في بداية نشاطهم العلمي بعد استقرارهم السياسي . فاحتاجوا إلى أنموذج يحتذون به في سيرهم العلمي . وكانت لهم مواصفات معينة في هذا الأنموذج حتى تكون انطلاقتهم قوية عند محاكاته .

ويمم الأندلسيون نحو المشرق، الذي سبقهم في ميدان الحضارة بمراحل . لا سيما العراق ، الذي كان يمثل في نظرهم ، وهو الواقع ، المكان الوحيد في المشرق الذي يمكن اقتباس تجربته الحضارية العلمية . إذ كان العراق في نظرهم يمثل نور العلم . ومصدره .

ولا أدل على صدق إحساس أهل الأندلس ، وإعجابهم بالعراق ، من أبيات قالها الإمام ابن حزم ، سجَّل فيها إعجابه بالمشرق ، وشوقه إلى العراق وعلمائه . ومن هذه الأبيات قوله (١) :

أنا الشمسُ في جو العلومِ منيرةٌ ... ولكنَّ عيبي أن مَطْلَعِي الغربُ

ولو أنني من جانب الشرقِ طالعٌ ... لجدَّ على ما ضَاعَ من ذكرىَ النهبُ

ولي نحو أكناف العراقِ صبابةٌ ... ولا غُروَ أن يستوحشَ الكلِفُ الصَّبُّ

فلم يثن الإمام ابن حزم ، مكانته العلمية الرفيعة ، من البوح بمشاعره الجياشة نحوالمشرق ، وتطلعه إلى العراق ، وعلمائه الكبار (٢) .

ولنظرة أهل الأندلس لبلاد الرافدين ، رحل طلاب العلم إليها لينهلوا من معين العلم ، ويتسلَّحوا به في تكوين شخصيتهم العلمية ، والمساهمة مع إخوانهم في وطنهم لبناء الكيان العلمي للأندلس عن طريق نقل العلوم والمعارف من العراق إليه .

ومن علماء الأندلس الذين قدموا العراق ، **أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد** (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) ، أحد حفاظ الحديث الأعلام ، وصاحب المسند المشهور . ورحل أبوعبد الرحمن إلى العراق ، وسمع من أئمة الحديث فيه ، فسمع ببغداد من أحمد بن حنبل ، وبالكوفة أخذ عن جماعة فيهم : يحيى بن عبد الحميد ، وأبو بكر بن أبي شيبة ،

---

(١) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٢٩٢ .

(٢) سعد البشري : الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس ، ص ١٠٠ .

وآخرين سواهم [١] . وبالغ أبو عبد الرحمن في جمع الحديث وروايته ، من نتيجته ، أن ((رجع إلى الأندلس فملأها علماً جماً ، وألّف كتباً حساناً ، تدل على احتفاله ، واستكثاره)) [٢] .

وعلى العراق وفد أيضاً ، **أبو محمد قاسم بن ثابت السرقسطي** (ت ٣٠٢هـ / ٩١٤م) ، أحد علماء الحديث واللغة والأدب البارزين ، الذي رحل طلباً للعلم ، وكانت من نتائج رحلته ، أن جلب معه كتاب « العين » للخليل بن أحمد [٣] .

ومن أطباء الأندلس الذين قصدوا العراق ، **أحمد بن يونس الحراني وأخيه عمر** ، وذلك سنة (٣٣٠هـ / ٩٤٢م) . حيث دخلا بغداد ، ودرسا بها الطب على يد كبار الأطباء العراقيين . وعلى الرؤساء فيه ، ومنهم : ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الحراني (ت ٣٦٥هـ / ٩٧٥م) ، وقرأ عليه كتب جالينوس عرضاً . وأخذا عن وصيف الكحّال شيئاً في أمراض العيون ، وخدماه في عمل مصنفه « علل العين » . ثم رجعا إلى الأندلس سنة (٣٥١هـ / ٩٦٢م) [٤] .

وما الأسماء التي وردت في الصفحات السابقة إلا نماذج قليلة عن رحلة الأندلسيين إلى العراق ، وإلا فهناك العشرات من الأسماء التي قصدت أرض الرافدين قد حوتها بطون كتب التاريخ ، والتراجم ، والطبقات .

لقد كان فضل العراق وعلمائه على الأندلس ، من الناحية العلمية لا ينكر . والذي تمثل في النتائج العلمية التي حققها علماء الأندلس القادمين من العراق ، وما جلبوه معهم من الفكر ، والمعرفة ، وكتب في مختلف العلوم . فأخذوا يبثون كل ذلك في مراكز

---

(١) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٨٢ ـ ٨٤ . الضبي : بغية الملتمس ، ص ٢٠٩ ـ ٢١١ . السيوطي: طبقات المفسرين ، ص ٣٠ ـ ٣١ . المقري : نفح الطيب ، (٤٧/٢ ، ٥١٨ ـ ٥٢٠) .

(٢) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ١٦٧ .

(٣) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٢٨٣ . الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٣١٢ .

(٤) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ١١٢ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٣٩٥ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٨٧ .

الأندلس الحضارية في بداية نشوئها العلمي في عصر الإمارة . وما أن جاء عصر الخلافة (٣١٦ ـ ٤٢٢هـ / ٩٢٨ ـ ١٠٣٠م) حتى أصبح للأندلس وجهاً جديداً في العلم ، والفكر . فأخذت الرحلات العلمية إلى المشرق تخف وتهدأ عمّا كانت عليه في عصر الإمارة ، بعد أن تحقق الهدف المنشود من هذه الرحلات [١] .

ولقد أسهمت العلاقات العلمية ، بين العراق ومراكز العلم في العالم الإسلامي ، إسهاماً كبيراً في نقل النشاط العلمي من يد إلى يد . فتاريخ الطبري مثلاً ، الذي أُلف في بغداد في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، انتشر خلال القرن نفسه في أرجاء العالم الإسلامي . فأُلف في قرطبة للحكم المستنصر ، خليفة الأندلس ، كتاب تاريخي مقتبس من كتاب الطبري المذكور ، مع زيادات خاصة بتاريخ الأندلس . كما كُتب في بخارى ملخص للكتاب نفسه باللغة الفارسية للأمير منصور الأول الساماني [٢] .

والقائمة زاخرة بعشرات الأسماء لمن قدم العراق من أنحاء العالم الإسلامي ، طلباً للعلم والمعرفة . ولكن ، وكما يقولون : يكفي من العقد ما أحاط بالجيد [٣] .

---

(١) سعد البشري : الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس ، ص ٩٦ ـ ٩٩ .

(٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٣) للتوسع : انظر : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٤٤/١ ، ٢٤٥) ، (١٦٥/٤ ـ ١٦٦) ، (٣٠٨/١٤) . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ٢١٣ . القفطي : إنباه الرواة ، (٣٥٩/١) ، (٢١٦/٣ ، ٢٢٤ ـ ٢٢٥) ، (١٠٠/٤ ـ ١٠١ ، ١٧٨) . ابن الصلاح : طبقات الفقهاء الشافعية ، (٩٩/١ ، ١٥٩ ـ ١٦٠ ، ١٧٩ ، ١٩٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٦٢) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢٧١/٢) ، (٢٠٢/٤ ، ٢٠٨ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥) . اليماني : إشارة التعيين ، ص ٢٧ ، ١٠١ ، ٢١٥ ، ٢٧٥ ، ٢٩٤ ، ٣٣٩ . السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٢٢٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٣٠٥ ، ٣٦٩ .

المبحث الخامس

التربية والتعليم في العراق

أولاً : نظام التعليم :

إن اهتمام الإسلام بالتعليم والحث عليه أمر واضح وجلي ، لا يحتاج إلى مزيد بيان ، فهو دين العلم . وجاءت نصوص مصادره ، القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، داعية إلى طلب العلم ، ومُبيِّنة لفضله ، وثوابه في الدنيا والآخرة .

وكان لاهتمام أهل العراق ، في تلك الفترة ، بالتعليم والتعلم أن مكّنها من صدارة العالم الإسلامي من ناحية التقدم العلمي ، بفضل الإقبال على التعليم ، واتخاذ كل الوسائل المعينة لذلك .

وعندما نتحدث عن نظام التعليم هنا ، فإننا لا نقصد به التعليم النظامي الرسمي ، الذي تشرف عليه الدولة من خلال قوانين وأنظمة تحكمه . فهذا التنظيم لم يكن موجوداً قبل ظهور المدرسة النظامية ببغداد سنة (٤٥٧هـ/١٠٦٤م) [١] . وإنما المقصود بالنظام هنا ، هو كيفية تعليم فئات المجتمع ، وما هي المناهج المتبعة في ذلك ، وهذا الأمر توضحه النصوص التي بين أيدينا ، والتي تعطينا إشارةً واضحة أن هناك اختلافاً في تعليم فئات المجتمع ، إبان تلك الفترة تفرضه الأوضاع العامة في العراق في ذلك الحين .

أ) تعليم أولاد الخلفاء والأمراء :

حرص خلفاء بني العباس وأمراؤهم على تعليم أولادهم تعليماً جيداً ، يجعلهم مؤهلين فيما بعد لتولي المناصب الهامة في الدولة ، وحرص بعض الخلفاء على إعداد أولادهم ليكونوا خلفاء المستقبل .

---

(١) يعتبر العصر السلجوقي بداية ظهور المدارس الرسمية أو النظامية في العراق ، عندما قام الوزير السلجوقي نظام الملك (ت ٤٨٥هـ/١٠٩٢م) ببناء المدرسة النظامية ببغداد سنة (٤٥٧هـ/١٠٦٤م) ، وافتتحت للدراسة عام (٤٥٩هـ/١٠٦٦م) . ثم توالى ظهور النظاميات في بقية مدن العراق والمشرق الإسلامي بعد إنشاء نظامية بغداد ، كالبصرة ، والموصل ، وأصفهان ، ونيسابور ، وبلخ ، وهراة ، وغيرها . ويقال : أن لنظام الملك في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة . ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص ١٧٦ . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، (٤/٣١٣ـ٣١٤) . مريزن عسيري : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، ص ١٧٨ ، ٢٤٥ ـ ٢٥٦ .

فما أن يبلغ ابن الخليفة أو الأمير سن التعليم حتى يعهد لأحد العلماء أو الأدباء ليتولى تعليمه وتأديبه [١] ، حريصاً في كل ذلك على أن يكسبه من كل علم وفن ما لابد منه ، فتحصل بذلك الملكات التي تجعل الواحد منهم قد أُعِد إعداداً جيداً لما ينتظره من مهام يقوم بها فيما بعد [٢] .

وفي كثير من الأحيان كان بعض الخلفاء يعهد لمن يثق به ، ليتولى اختيار مؤدب أولاده ، كما فعل الخليفة المتوكل عندما عهد بذلك الأمر إلى حاجبه « إيتاخ التركي » [٣] ، الذي أمر بدوره كاتبه ، باستدعاء مجموعة من أهل اللغة والأدب ، ويجري بينهم مناقشة حول موضوع معين ، وعلى ضوء هذه المناقشة ، يتم اختيار المؤدبين لأولاد الخليفة . فحضر جماعة ، وقال لهم الكاتب : لو تذاكرتم وقفنا على موضعكم من العلم . فطرح بيت شعر ليكون موضوع النقاش ، وأخذ الحاضرون يدلون بدلوهم ، ثم تم اختيار كلاً من : محمد بن عبد الله بن قادم النحوي (ت ٢٥١هـ/٨٦٥م) ، وأحمد بن عبيد بن ناصح النحوي (ت ٢٧٣هـ/٨٨٦م) ، لتولي مهمة تأديب ولدي المتوكل ، المنتصر والمعتز [٤] .

---

(١) التأديب : العمل الذي يقوم به المؤدب . وكلمة « مؤدب » ، من الفعل أدب ، والأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس . وسمي أدباً ، لأنه يؤدب إلى الأمور الحميدة ، وينهاهم عن الأمور القبيحة . وفي وصية عبد الملك بن صالح (ت ١٩٦هـ/٨١١م) ، لمؤدب ولده ، قال : ((إني جعلتك مؤدباً بعد أن كنت معلماً)) . ابن قتيبة : عيون الأخبار ، (٢١/١/١) . ابن منظور : لسان العرب ، (٢٠٦/١) . طالب الضمور : التربية والتعليم في العراق ، ص ٨٥ . (رسالة ماجستير غير منشورة) .

ويفرِّق الجاحظ بين التعليم والتأديب ، وبالتالي بين المعلم والمؤدب . بقوله : ((إنما اشتق اسم المعلم من العلم . واسم المؤدب من الأدب . العلم هو الأصل ، والأدب هو الفرع . والأدب إما خلق ، وإما رواية . وقد أطلقوا له اسم المؤدب على العموم . والعلم أصل لكل خير ، وبه ينفصل الكرم من اللؤم ، والحلال من الحرام)) . الرسائل ، (٣٤/٣/٢ ـ ٣٥) .

(٢) الثعالبي : آداب الملوك ، ص ٢٠٢ .

(٣) إيتاخ التركي : يكني بأبي منصور . من مماليك الخليفة المعتصم المتقدمين عنده . وتقدم عند الخليفة المتوكل ، وارتفعت مكانته ، فقلده الحجابة ، والبريد ، والجيش ، والأموال . وكل من أراد المتوكل قتله ، وتعذيبه ، يجري ذلك على يد إيتاخ . وبعد أن حج إيتاخ ، أمر المتوكل أمير بغداد ، إسحاق بن إبراهيم ، باعتقاله ثم قتله ، وذلك سنة (٢٣٥هـ/٨٤٩م) ، بعد أن قطع عنه الماء ، فمات عطشا . الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (١٦٦/٩ ـ ١٦٧ ، ١٦٨ ـ ١٧٠) .

(٤) الزجاجي : مجالس العلماء ، ص ٤٩ ـ ٥٠ .

وكان الخلفاء والأمراء يتحرون الدقة في اختيار مؤدبي أولادهم ، فلا يقلدون هذه المهمة إلا لمن ارتفع عندهم حسن سيرته ، وفضله ، وعلمه [١] .

وبلغ من دقة الخليفة المتوكل في اختيار مؤدب أولاده ، أن يكون من يتولى هذه المهمة حسن الشكل والمنظر . ولهذا عندما ذُكر الجاحظ عند المتوكل ليكون مؤدباً لأودلاه ، رأه المتوكل ، واستبشع منظره (وكان الجاحظ ذميم الخِلقة) ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وصرفه [٢] .

ولا شك أن من يتولى هذه المهمة من العلماء والأدباء سوف يحظى بمكانة مرموقة ، إضافة إلى المكاسب المالية التي سوف يحققها من وراء ذلك ، والتي لن يحققها فيما لو كان مؤدباً لصبيان العامة [٣] . ولهذا كان هناك تنافس بين بعضهم البعض للظفر بهذه الوظيفة المرموقة . وتصل في بعض الأحيان إلى أن يتوسط أحدهم لكي يشارك في تأديب أولاد الخليفة ، كما فعل أحمد بن يحيى البَلاذُري (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) ، المؤرخ والجغرافي المشهور ، عندما استعان بوسطاء ليقنعوا أم عبد الله بن المعتز بأن تأذن له أن يشارك في تأديب عبد الله ، وذلك ساعة من نهار ، الأمر الذي أغضب الطبيب أحمد بن سعيد الدمشقي ، الذي كان ملازماً لعبد الله ، ومؤدبه [٤] .

ويقابل هذا الحرص على هذه الوظيفة من البعض ، الرفض من البعض الآخر ، وهو أمر يرجع إلى قناعات تحكم سلوكهم ، ومواقفهم من بعض الأمور . ومن هؤلاء الإمام أحمد بن حنبل ، الذي رفض طلب الخليفة المتوكل له بأن يعلم ولده المعتز ، ويجعله في كنفه [٥] .

لقد تضمنت قائمة مؤدبي أولاد الخلفاء والأعيان أسماء لامعة في ميادين العلم من أهل العراق .

---

(١) الجاحظ : الرسائل ، (٢/٣/٣٠ ـ ٣١) .

(٢) الوشاء : الظرف والظرفاء ، ص ١٤٥ . المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٩٩ ـ ١٠٠) .

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ، (١/٢٤٢) .

(٤) الحصري : زهر الآداب ، (٢/٦٠٠) .

(٥) ابن الجوزي : مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، ص ٣٦٩ .

فأوكل الخليفة المتوكل مهمة تأديب أولاده إلى : يعقوب بن إسحاق السِّكِّيت ، عالم اللغة والنحو [١] ، إضافة إلى أحمد بن عبيد ، ومحمد بن قادم ، كما مر معنا .

أما الخليفة المعتز ، فقد عهد بهذا الأمر إلى أبو جعفر محمد بن عمران الضُّبي النحوي [٢] ، وأحمد بن سعيد الدمشقي [٣] ، لكي يتولوا تأديب ولده عبد الله .

وجعل الخليفة المعتضد مهمة تأديب أولاده على عاتق كلاً من : أبي بكر ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ/٨٩٤م) [٤] ، وأبي إسحاق الزَّجَّاج النحوي [٥] .

وتولي تأديب أولاد الخليفة المقتدر مجموعة من العلماء والأدباء ، وهم : محمد بن العباس اليزيدي (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) [٦] ، وأبو إسحاق الزَّجَّاج [٧] ، وأبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٥هـ/٩٤٦م) [٨] . في حين ألقى الخليفة الراضي بمهمة تأديب أولاده على عاتق محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م) ، عالم النحو والقراءات [٩] ، وعالم العَروض ، أبو الحسن أحمد بن محمد العَروضي (٣٤٢هـ/٩٥٣م) [١٠] .

أما الأمير الموفق فقد اتخذ أحمد بن الطيِّب السَّرَخْسي (ت ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م) مؤدباً لولده المعتضد . وكان أحمد عظيم المنزلة عند الموفق ، لدرجة أنه كان يُفضي إليه بأسراره ، ويستشيره في أمور الدولة [١١] ، وكان الموفق هو المتصرف الحقيقي في سياستها ، ولم يكن لأخيه الخليفة المعتمد إلا لقب الخلافة فقط ، كما سلف الحديث عن ذلك في فصل التمهيد .

---

(١) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٣٨ .

(٢) ابن قاضي شهبة : طبقات النحاة واللغويين ، ص ٦٠ .

(٣) الصولي : أشعار أولاد الخلفاء ، ص ١٠٧ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ، (٢٧٢/٤) .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٩٥ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣٣٨/٤) .

(٧) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٢٠٦ .

(٨) النديم : الفهرست ، ص ٢٤٢ .

(٩) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٣٢١ . الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (٢٨١/١) .

(١٠) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٣٣/٤) .

(١١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٣٥ .

ولم تمدنا المصادر التاريخية والأدبية بنصوص تتعلق بالمنهج الدراسي المتبع في تعليم أولاد الخلفاء والأمراء . غير أن هناك نصاً يتعلق بأسلوب أبي بكر الصولي في تأديب أولاد المقتدر ، يمكن اعتباره نموذجاً في هذا الإطار . فقد خصص لهما يومين في الأسبوع لتعليمهم ، واشترى لهما من كتب الفقه ، واللغة ، والشعر ، والأخبار ، مجموعة حسنة . وعمل لكل واحد منهما خزانة كتب خاصة به . فأصبحا بذلك مهيئان لبداية التعليم ، بتوفر المصادر المهمة والمعينة لهما على ذلك .

فابتدأ الصولي معهما بالحديث ، فجاءهما بأبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي المعروف ابن بنت منيع (١) ، وكان أعلى من بقي في زمانه إسناداً . واختلف اليهما أكثر من مرة ، ونسخ الصولي إليهما الأسانيد العالية لأبي القاسم ومشايخه . ثم قرئا عليه الأخبار ، والأشعار ، واللغة ، قطعاً من كل فن . وكان الصولي يقوم ، بين الحين والآخر ، باستقطاب كبار العلماء لهما ، كابن الجواليقي ، والحسين بن إسماعيل المحاملي ، وأبي بكر الخرقي ، ليذاكروهم ، ويأخذوا عنهم العلم والفائدة (٢) .

واستمر أبو بكر الصولي على ذلك حتى أصبح الراضي ، كما يقول المحاملي ، ((يقول : حدثنا ، وأخبرنا ، وينشد ، ويُعْرِب)) (٣) .

ولم يكن التعليم في قصور الخلفاء مقتصراً فقط على أبناء الخلفاء ، بل شمل أيضاً ، في بعض الأحيان ، أفراد القصر من الخدم ، والجواري ، وغيرهم . فكان أبو الطيب محمد بن إسحاق النحوي المعروف بالوشّاء (ت ٣٢٥هـ/٩٣٧م) يُعلِّم في دار الخلافة كل من أراد التعلم من أفرادها . وكان من نتيجة ذلك ، أصبح بعض الجواري يروين عنه ، مثل : « منية الكاتبة » جارية خلاّقة أم ولد المعتمد (٤) .

---

(١) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٥ ، ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (٢٥٣/١) .

غير أن تعليم أولاد الخلفاء تأثر بالأوضاع السياسية بشكل سلبي ، في فترات الضعف السياسي لبعض الخلفاء . فقد رأينا ، عند الحديث عن الأوضاع العامة ، مدى الضعف الذي كان عليه الخليفة المقتدر ، وسيطرة العنصر النسائي ، والمتمثل في والدته « السيدة شغب » وجواريها ، على مقاليد الأمور في الدولة .

هذا المناخ السيء الذي تم فيه تعليم أولاد المقتدر على يد أبي بكر الصولي ، أحدث بما يشبه الصراع بين أبي بكر الصولي ونصر الحاجب من جهة ، والسيدة شغب أم المقتدر ، وقهرمانتها « رَيْدان » ومن معها من الجواري من جهة أخرى . فالفريق الأول همه تعليم أولاد المقتدر العلوم النافعة التي تجعلهم مهيئين للخلافة ، متسلحين بالعلم . أما الفريق الثاني فلم يكن من صالحه أن يكون تعليم أولاد المقتدر بالصورة التي رسمها الصولي ، ولذا كانوا لا يريدون أن يتعلموا هذه العلوم النافعة ، وإنما أرادوا أن يكونوا خاوين من العلم النافع ، وهذا واضح في قول « رَيْدان » للصولي : ((ياهذا ، ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ، ولا علماء . وهذا أبوهم ، قد رأينا كل ما نحب فيه ، وليس بعالم ، فاعمل على ذلك)) [١] . وعندما طلب الصولي من أم المقتدر بعض المال لمكافئة أبا القاسم ابن بنت منيع ، قالت له : ((والله ما عندنا دنانير لهذا المحدِّث ، ولا بنا حاجة إلى مجيئه)) [٢] .

لقد كان مطلب نساء القصر أن يكون تعليم أولاد المقتدر هشّاً ، يربي فيهم الدعة ، والخمول ، والاشتغال بالأمور التافهة التي لا تعود عليهم بالنفع . وكان هذا الأمر واضحاً حتى للراضي ، عندما كان في مجلس التعليم مع الصولي ، فجاء بعض الخدم ، وصادروا الكتب التي كانت بحوزتهم ، بناءً على أوامر السيدة أم المقتدر ، فقال الراضي للخدم : ((قولوا لمن أمركم بهذا قد رأيتم هذه الكتب ، وإنما هي حديث ، وفقه ، وشعر ، ولغة ،

---

(١) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٢٦ . بطبيعة الحال ، هذا الوضع هو الذي تريده ريدان . الوضع الذي يجعل أولاد المقتدر كأبيهم ، يلتهون بملذاتهم عن تصريف أمور الدولة ، وترك النساء يمسكون بزمام مصالح الأمة . ذلك أن التعليم الجيد يجعل من أولاد المقتدر مصدر خطر على العنصر النسائي ، وهو ما حدث فعلاً عندما تولى الراضي الخلافة ، واختفت معه سيطرة النساء على الحكم .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

وأخبار ، وكتب العلماء ، ومن كمله الله بالنظر في مثلها ، وينفعه بها ، وليست من كتبكم التي تبالغون فيها مثل : عجائب البحر ، وحديث سندباد ، والسنور ، والفأر)) [١] .

وكانت لدى بعض الأمراء نظرة ، بالنسبة لتعليم أولادهم ، تقوم على أن أولاد الخلفاء لا يتعلمون مع أولاد العامة في مكان واحد لاعتبارات طبقية وتربوية . فقد طلب الأمير الموفق من عالم الحديث أبي داود السجستاني أن يفرد لأولاده مجلساً للرواية بحجة ((أن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة)) [٢] . فالموفق كان يرغب في أن يتعلم أولاده على يد عالم كأبي داود ، وفي الوقت نفسه ، لا يريدهم أن يختلطوا بأولاد العامة مخافة أن يكتسبوا ، من وجهة نظره ، بعض السلوكيات الخاطئة . ولكن هذا الطلب قوبل بالرفض من جهة أبي داود ، قائلاً له : ((أما هذه فلا سبيل إليها . لأن الناس ، شريفهم ووضيعهم ، في العلم سواء)) [٣] . وأمام رفض أبي داود ، كان الموفق يريد أن يأخذ أولاده العلم من أبي داود ، لفضله وعلمه . الأمر الذي جعل الموفق يقبل بشرط أبي داود ، فكان أولاده يحضرون مجلس أبي داود ، ويُضرب بينهم وبين الناس ستار ، فيسمعون مع العامة [٤] .

وأشار الهمذاني إلى وجود مكتب يتعلم فيه أولاد الخلفاء ، فيذكر في حوادث سنة (٣٠٢هـ/٩١٤م) ، أن أولاد الخليفة المقتدر أُدخلوا المكتب ، وكان مؤدبهم أبا إسحاق الزَّجَّاج [٥] . وإن كان هذا الأمر لا يعطينا صورة واضحة عن ماهية هذا المكتب ، أو اختصاصه بأولاد الخلفاء ، أم أنه عام .

ولو فرضنا أنه مكتب عام ، فإن مبدأ تعليم أولاد الخلفاء مع أبناء العامة مرفوض من وجهة نظر بعض الخلفاء ، وفي ذلك يبدو التناقض ، فكيف يرفضون هذا المبدأ ، وفي الوقت نفسه يتعلمون في مكتب عام .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦ .

(٢) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (١/١٦٢) .

(٣) المصدر السابق ، (١/١٦٢) .

(٤) المصدر السابق ، (١/١٦٢) .

(٥) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٢٠٦ .

ويمكن الجمع بين هذا التناقض ، بأن الأصل في تعليم أولاد الخلفاء كان يتم في قصورهم . وفي بعض الأحيان ، وتحت ظروف معينة ، يذهب أبناء الخلفاء إلى مسجد معين ، أو مكتب خاص . كما يمكن القول أن هناك مكاتب خاصة بأولاد الخلفاء يتلقون فيها المباديء المهمة للتعليم ، بدليل ذكر الزَّجَّاج كمؤدب لأولاد المقتدر في المكتب . ومرٌّ معنا أن هناك خمسة مؤدبين لأولاد المقتدر ، من بينهم أبو إسحاق الزجاج ، ويمكن القول ، أن أبا إسحاق كان يتولى التأديب في المكتب ، في حين يتولى بقية المؤدبين استكمال تعليمهم في القصر بعد اجتياز أولاد المقتدر لمرحلة الكتَّاب .

ب) تعليم أولاد الخاصة :

كان في محاكاة خاصة القوم ، من وزراء وكتّاب وقضاة ونحوهم ، للخلفاء والأمراء أكبر الأثر في اتخاذهم المؤدبين لأولادهم ، من أهل العلم والأدب .

فقد كان أبو الحسن علي بن سليمان النحوي المعروف بالأخفش (ت ٣١٥هـ/٩٢٧م) مؤدباً لولد الوزير إبراهيم بن المُدْبِر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) [١] .

أما الوزير عبيد الله بن سليمان (ت ٢٨٨هـ/٩٠١م) ، فقد اتخذ أبا إسحاق الزَّجَّاج مؤدباً لولده القاسم ، بتزكية من أبي العباس المبِّرد [٢] .

ومن الوزراء من اتخذ عالماً يكون معلماً في داره ، كما فعل الوزير علي بن عيسى الجراح (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م) عندما جعل أبا الحسين عبد الله بن محمد الخزَّاز النحوي (ت ٣٢٥هـ/٩٣٧م) معلماً في داره [٣] ، وروى عنه ابنه عيسى بن علي [٤] .

أما صاحب شرطة بغداد ، محمد بن عبد الله بن طاهر (ت ٢٥٣هـ/٨٦٧م) ، فقد استقطب مجموعة من العلماء ليكونوا مؤدبين لولده طاهر ، وهم : أبو العباس ثعلب ،

---

(١) اليافعي : مرآة الجنان ، (٢/٢٦٧ ـ ٢٦٨) .

(٢) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٨٥ .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (١٠/١٢٣) .

إمام نحو الكوفيين ، واستمر معه لمدة ثلاث عشرة سنة [١] . وإبراهيم بن إسحاق المصعبي ، ويعقوب بن إسحاق السكّيت [٢] .

وهذا القاضي أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م) ، اتخذ أبي عمر محمد بن عبد الواحد اللغوي الزاهد المعروف بغلام ثعلب مؤدباً لأولاده ، فأملى أبو عمر عليهم مسائل كثيرة في اللغة [٣] .

أما محمد بن نصر بن ميمون الكاتب [٤] ، فقد أوكل بمهمة تأديب ولده علي إلى أبي العباس الفضل بن محمد اليزيدي النحوي (ت ٢٧٨هـ/٨٩١م) ، فكان أبو العباس يختلف إلى علي هذا ليقرأ عليه الأشعار ، وغيرها ، حتى اكتسى بالأدب ، والفهم [٥] .

ج) تعليم أولاد العامة :

كان هناك اختلاف بين تعليم الفئات السابقة وتعليم أولاد العامة من حيث النظام المتبع في ذلك ، فقد كان أولاد العامة يذهبون بأنفسهم إلى أهل العلم ليتتلمذوا عليهم ، وهذه الفئة تمثل الشريحة الكبرى من أبناء العراق في ذلك الوقت . والصفحات التالية تقدم لنا صورة لهذا التعليم ، من حيث المكان ، والوسائل المتبعة في التعليم .

وليس المقصود من هذا التقسيم تحديد مستويات التعليم التي يتلقاها أبناء الطبقة الثرية جداً ، وتلك يتلقاها غيرهم من أبناء العامة . ذلك أن هناك العديد من أبناء الطبقة الثرية ممن تعلم في أماكن تعليم العامة [٦] . والسبب في ذلك يعود إلى الفرق بين الذين يُعلِّمون أولاد الخلفاء ، والخاصة ، وبين الذين يُعلِّمون أولاد العامة .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٥/١٠٦) .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٦/٣٩٨) .

(٣) ابن قاضي شهبه : طبقات النحاة واللغويين ، ص ٨٦ .

(٤) لم يعثر له على ترجمة . وهو ولد الشاعر علي بن محمد المعروف بابن بسّام .

(٥) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٨٦ .

(٦) يذكر إبراهيم بن جابر ، أحد أفراد حلقة عالم الحديث أبو إسحاق الحربي بقوله : ((وكان يجلس إلينا غلامان في نهاية الحسن ، والجمال ، والبزّة من أبناء التجار من الكَرْخيين)) . المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٢٦٢) .

وكان أغلب المؤدبين في قصور الطبقة الثرية من أهل اللغة والأدب . أما من كان يعلم أولاد عامة النـاس فكانوا من علماء الشريعة ، حيث حلقات الحديث ، والفقه ، والتفسير ، وعلماء العربية ، بوجود حلقات اللغة ، والنحو ، والأدب الراقي .

غير أن التعليم العام كان يحقق لمنسوبيه التنوّع في المادة العلمية التي تتلقفها عقولهم ، والأهم من ذلك وجود أئمة العلم ، الأمر الذي كان له تأثيره القوي في قوة الطلاب العلمية ، بعكس التأديب في قصور عِلْيَة القوم ، والتي تخرج الطالب في كل الأحوال ، وإن برز ، فيكون في اللغة أو الأدب ، أو كلاهما . أما النواحي الشرعية ، والمعلومات الخاصة بالعلوم التطبيقية فليس لها في مفردات المنهج التعليمي الذي يدرسونه نصيب .

ومن هذا المنطلق ، يمكن تقسيم المعلمين في ذلك الوقت إلى ثلاثة أقسام [١] :

١ ـ معلمي أولاد الخلفاء . سواء المرشحين للخلافة ، أولا .

٢ ـ معلمي أولاد الخاصة من الأمراء ، والوزراء ، وغيرهم .

٣ ـ معلمي أولاد العامة .

ولا شك أن تقسيم الجاحظ السابق للمعلمين كانت تحكمه ظروف ، وواقع هؤلاء المعلمين فمنهم من كان يسعى وراء تولي التأديب في قصور الخلفاء ، كما رأينا ، ومنهم من رفض هذه الوظيفة المرموقة مادياً .

والمؤدبون عموماً الذين كانوا يؤدبون في بيوت الأثرياء أحسن حالاً من الذين يؤدبون أولاد العامة . ولهذا يقول الجاحظ : ((يكون الرجل نحوياً ، عروضياً ... وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهماً ولو أن رجلاً كان حسن البيان ، حسن التخريج للمعاني ، ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم)) [٢] . وفي ذلك دلالة على أن أهل الأدب أكثر

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ، (١/٢٤٢) . وإن كان الجاحظ يجعلهم على ضربين : الأول : من ارتفع عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة . الثاني : من ارتفع من تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة . ولكن كان المقصود من التقسيم الأعلى تبيان طبقة لم ير الجاحظ ذكرها ، وهي الأخيرة .

(٢) المصدر السابق ، (١/١٥١) .

رغبة عند الأثرياء لتأديب أولادهم . وأيضاً لبيان مقدار الأجور التي كان يتقاضاها المعلمون ، سواء أولئك الذين اختصوا بتعليم أولاد الخاصة ، أو الفئة التي كانت تتولى تعليم أولاد العامة .

د) سن التعليم :

ليس بين أيدينا نص قاطع بتعيين سن ابتداء التعليم في الكتّاب ، أو مدته ، وهو أمر مرتبط بنضج الصبي ، وتقدمه في الفهم ، واستعداده الذهني لتقبل ما يرد إلى عقله وقلبه من المفاهيم المختلفة [١] .

غير أن هناك نصوصاً مختلفة تظهر سن بعض العلماء عندما ابتدأوا في تلقي العلوم على يد المشايخ ، أو إتمامهم حفظ القرآن الكريم . فعندما سئل أحمد بن حنبل : متى يجوز سماع الصبي في الحديث ؟ ، قال : ((إذا عقل ، وضبط)) [٢] . أي إذا بلغ العاشرة من عمره تقريباً . وقال ابن جرير الطبري : ((حفظت القرآن ولي سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثماني سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين)) [٣] . أما أبو العباس ثعلب فيقول : ((طلبت العربية ، واللغة في سنة ٢١٦هـ (وكان مولده سنة ٢٠٠هـ) ، وابتدأت بالنظر في « حدود الفرّاء » وسني ثماني عشرة سنة ، وبلغت خمساً وعشرين سنة وما بقي على مسألة للفرّاء إلا وأنا أحفظها)) [٤] . في حين يتحدث أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد (ت ٣١٨هـ/٩٣٠م) عن سن تعليمه ، إذ يقول : ((ولدت سنة ثمان وعشرين ومائتين ، وكتبت الحديث سنة تسع وثلاثين ومائتين ، ولي أحد عشرة سنة)) [٥] . وكان لأبي إسحاق الحربي ابناً ، حفَّظه القرآن ، ولقَّنه شيء من الفقه ، وعمره إحدى عشرة سنة [٦] . وسمع أبو عبد الله عبيد الله بن محمد العكبري المعروف بابن بطَّة

---

(١) مسكويه : تهذيب الأخلاق ، ص ٦٩ .

(٢) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (١٨٣/١) .

(٣) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، (٤٩/١٨) .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٠٢/١) .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٣١/١٤ ـ ٢٣٢) .

(٦) المصدر السابق ، (٣٧/٦) .

(ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م) الحديث من ابن منيع في بغداد سنة خمس عشرة ، أو ست عشرة وثلثمائة ، وقرأ عليه معجمه ، وكان عمره إحدى عشرة سنة تقريباً [١] . ويذكر الخطيب البغدادي في ترجمته لأبي عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي (ت ٣٣٠هـ/٩٤١م) بأن أول سماعه للحديث كان في سنة أربع وأربعين ومائتين ، وله عشر سنين [٢] . أما أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٣١٦هـ/٩٢٨م) فيذكر أنه كان بالكتّاب وعمره ثماني سنوات . وكتب عن ابن أسلم الطوسي وعمره إحدى عشرة سنة [٣] .

ومن خلال النصوص السابقة المتعددة ، يمكن استنتاج ما يلي :

١ ـ أن سن دخول الصبيان للكتاب كان من بلوغه السادسة من عمره ، على الوجه العام ، إذ أن هناك من تميز بقوة الحفظ فيدخل قبل هذا السن .

٢ ـ أن الصبي كان يدرس بالكتّاب حتى بلوغه العاشرة تقريباً ، وبعد ذلك ينتقل إلى مجالس العلماء ، ويأخذ منهم ، ويقرأ عليهم . إلا أن ذلك ليس بقاعدة على الإطلاق ، كالطبري مثلاً ، الذي حفظ القرآن وعمره سبع سنين ، وكتب الحديث وهو ابن تسع سنين .

ويمكن القول ، من خلال ما سبق ، أن مدة الدراسة بالكتاتيب كانت تتراوح ما بين خمس إلى ست سنين .

ثانياً : أماكن التعليم :

كان للتعليم في العراق ، خلال فترة نفوذ الأتراك ، أماكن عدة . بعضها عام ، والبعض الآخر خاص . وهو ما سيرد توضيحه في موضعه .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم (١٩٦/٧) .

(٢) تاريخ بغداد ، (٢٠/٨) .

(٣) المصدر السابق ، (٤٦٥/٩) .

أ ـ الكتاب :

عرفت الكتاتيب [١] في الإسلام منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم [٢] . كما عرفت في العصرين : الراشدي ، والأموي [٣] . ومع تطور العلوم والمعارف في العصر العباسي زاد عدد الكتاتيب في العراق ، وأصبحت مدنه تضم العديد منها ، بشكل يتناسب مع الرقي الذي وصل إليه العراق في العلوم والمعارف .

ولقد قام الكتَّاب بدور هام ومؤثر في التعليم خلال التاريخ الإسلامي ، لأنه اختص بتعليم الصبيان الكتابة ، والحساب ، ومباديء الدين ، لا سيما القرآن الكريم ، ولأن تعليم هؤلاء الناشئة للقرآن ، بصفة خاصة ، يعد أمراً عظيماً في منهج التربية الإسلامية [٤] .

وانتشرت الكتاتيب في العراق ، كغيره من الأمصار الإسلامية ، وقامت بدورها التعليمي في تهيئة الصبيان لدخول المرحلة القادمة من التعليم لما بعد الكُتَّاب ، ألا وهو المسجد . ونظراً لأهمية الكُتَّاب على عملية التعليم ، فقد أخضعت مناهجه ، وطرق التدريس فيه تحت إشراف المحتسب . الذي كان يتوجب عليه ، مراقبة مؤدبي الصبيان في المكتب العام ، ومراقبة مدى التزامهم بالمنهج الصحيح في تعليمهم [٥] .

وكان للدولة إسهام في نشر التعليم الابتدائي ، والمتمثل في الكُتَّاب ، وذلك بإنشاء الكتاتيب في أنحاء الدولة .

---

(١) الكتاتيب ، والمكاتب : جمع كتّاب ، ومكتب : وهو موضع تعليم الصبيان . ابن منظور : لسان العرب (٦٩٩/١) . المرتضى : تاج العروس ، (١٠٤/٤) .

(٢) ابن حبيب : المحبر ، ص ٤٧٥ . الجاحظ : البيان والتبيان ، (٢٤٣/١ ، ٢٤٤) . ابن قتيبة : المعارف ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

(٣) عبد الله عبد الدائم : التربية عبر التاريخ ، ص ١٤٦ . أحمد عبد الرزاق : الحضارة الإسلامية ، ص ١٨ .

(٤) تحدثت كتب الحسبة عن الحسبة على مؤدبي الصبيان في الكتّاب ، وعن ماهية المنهج الذي ينبغي للمؤدب السير عليه ، وما هي الأمور التي ينبغي للمؤدب أن يتجنبها ، ونحو ذلك . انظر : الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١٠٣ ـ ١٠٥ . ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص ١٧٠ ـ ١٧٢ .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

فقد أوردت بعض المصادر أن هناك من العلماء من كان يعمل مؤدباً للصبيان في مكتب العامة ، ومن هؤلاء : أبو الفضل أحمد بن طيفور (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) ، المؤرخ والأديب [١] . وكذلك ، الفلكي أبو زيد أحمد بن سهل البلخي (ت ٣٢٢هـ/٩٣٤م) [٢] . وأيضاً ، أبو الطيب محمد بن أحمد المعروف بالوشّاء (ت ٣٢٥هـ/٩٣٧م) [٣] .

ويعطينا الجاحظ إشارة واضحة إلى وجود الكتاتيب في القرى أيضاً . وفي ذلك دلالة على سعة انتشار الكتاتيب في كافة أنحاء الدولة ، مما يجعل ذلك مؤشراً لمدى الوعي الفكري لدى أهل العراق في ذلك الوقت ، وإدراكهم لأهمية العلم .

وكما كانت هناك مكاتب عامة في المدن والقرى ، ظهرت أيضاً المكاتب الخاصة . أي التي يكون التعليم فيها بالأجر . والسبب في وجودها ، أن بعض العلماء الذين كانوا يؤدبون في المكاتب العامة ، قد احتاجوا إلى زيادة في دخلهم ، لأن الأجر الذي كان يتقاضونه مقابل تأديبهم في الكتّاب العام لم يكن يفي بالغرض . ولهذا اختص البعض منهم بتعليم الصبيان مع التركيز على علم معين ، لا سيما النحو ، الذي يبدوا أن سوقه كانت رائجة في ذلك الوقت ، وذلك لأهميته كأحد العلوم المساعدة على فهم نصوص القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة .

فقد كان يعقوب بن إسحاق السكِّيت اللغوي (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م) يؤدِّب مع أبيه صبيان العامة في درب القنطرة [٤] في بغداد ، ((حتى احتاج إلى الكسب فجعل يتعلم النحو)) [٥] . أي أنه تعلم العلم الذي يدر عليه المال في ذلك الوقت ، وهو النحو .

كما كان لأبي جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م) مكتب خاص يعلم فيه الصبيان ، ومن بينهم أبناء العباس بن محمد الهاشمي [٦] .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٣/٦٥) .

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٢/٣٢ ـ ٣٣) .

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ، (١/٢٤٣) .

(٤) لم يعثر على معلومات تفيد بتحديد مكانه .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٤/٢٧٣) .

(٦) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٨/١١٢) .

ويشير النديم إلى مكتب خاص في ترجمته لأبي الفضل أحمد بن طيفور ، بقوله : ((كان مؤدب كُتّاب عام ، ثم تخصص ، وجلس في سوق الوراقين في الجانب الشرقي)) [١] . إذ انشأ ابن طيفور كُتّاب خاص في ذلك الموقع ، وجعل يعلم فناً واحداً من العلوم بأجر معين .

أما المنهج المتبع في تعليم الصبيان في الكُتّاب عند أهل المشرق ، ومنه العراق ، فإنه يختلف عن منهج أهل المغرب والأندلس [٢] .

فكان المنهج يقوم ، بوجه عام ، على تعليم الصبي شيء من القرآن ، بحفظ قصار السور ، وشيء من الحديث ، وبعض شرائع الدين الإسلامي بما يتوافق وسن الصبي . وقواعد النحو المهمة ، التي لا ((تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام ، في كتاب إن كتبه ، وشعر إن أنشده ، وشيء إن وصفه)) [٣] . وكذلك إعطائه مباديء في الحساب ، مع بعض القوانين في الخط مما لا يسعه جهله [٤] . كما كان الصبيان يتعلمون في الكتاتيب : السباحة ، والرمي ، والفروسية ، وما بالسماء من نجوم الإهتداء ، والأنواء ، وأسماء الأيام ، والشهور ، وكيفية الصلاة ، وحفظ بعض الأشعار الحسنة ، ورواية الأخبار المناسبة لأعمارهم [٥] . ولكنهم لا يخلطون بين تلك الدروس وبين تعليم الخط . ذلك أن لتعليم الخط قواعد ، ومعلمون له على انفراد ، كأحد الصنائع . وإذا أرادوا تعليم الصبيان شيء من الخط في الكتّاب فإنه يكون قاصراً عن الإجادة ، ومن أراد أن يتعلم جمال الخط ودقته فعليه أن يقصد المتخصصين فيه [٦] . إذ كان هناك معلمون قد اتخذوا تعليم الخط مهنة لهم ، يلتحق بهم من أراد بأجر

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٦١ .

(٣) الجاحظ : الرسائل ، (٣٨/٣) .

(٤) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١٠٣ . محمد الأبراشي : التربية الإسلامية وفلاسفتها ، ص ٧٣ .

(٥) الجاحظ : الرسائل ، (٣٢/٣ ، ٣٥) . ابن قتيبة : عيون الأخبار ، (١٦٦/٢/١ ـ ١٦٧) .

(٦) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٦٢ .

معين ، كما فعل النحويون . ومن المعلمين الذين تخصصوا في تعليم الخط ، إسحاق بن إبراهيم اليزيدي ، وأخيه علي [١] .

وكان الصبي يختتم دراسته في الكُتَّاب عادة بختم القرآن الكريم . وكانت تعد هذه المناسبة لأهل الصبي مناسبة سعيدة ، يقيمون لها احتفالاً بسيطاً [٢] .

وبهذا يكون الصبي مهيئاً لدخلو المسجد ، وحضور مجالس العلم ، والأخذ عن العلماء ، ومجالستهم [٣] .

ولمعلم الكتَّاب شروط يجب أن تتوافر فيه ، وصفات لابد من أن يتصف بها ، إذ أن الصبيان لم يُكوِّنوا في هذا السن استقلالهم ، فهم ينظرون إلى معلمهم على أنه هو القدوة الصالحة ، وعلى المعلم أن يدرك ذلك ، ((فأعين التلاميذ إليه ناظرة ، وآذانم إليه مصغية ، فما استحسنه فهو عندهم الحسن ، وما استقبحه فهو عندهم القبيح)) [٤] . كما ينبغي علي معلم الكُتَّاب أن يحافظ على مظهره الخارجي ، فيكون نظيفاً ، طيب الرائحة [٥] .

وقد كان الآباء يتحرون الدقة في اختيار المعلم الملائم لكي يتولى تعليم أبناءهم . فلا يختارون إلا من كان حافظاً للقرآن ، عالماً بأمور الدين ، عارفاً بالقراءة ، والكتابة ، والنحو ، وحسن الخط ، ذا معرفة بالحساب [٦] .

وينبغي للمعلم أن التأدب بآداب القرآن [٧] ، والتحلي بحسن الأخلاق التي حثَّ عليها الإسلام [٨] . ويبذل الوسع ما استطاع في تطهير نفسه من الرذائل التي تقلل من

---

(١) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٨ .

(٢) سعيد الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ، ص ٤١ .

(٣) أحمد شلبي : التربية الإسلامية ، ص ٥٦ .

(٤) الغزالي : الأدب في الدين ، ص ٤٨ . الغمراوي : جامع جوامع الاختصار ، ص ٣٩ .

(٥) ابن سحنون : آداب المعلمين ، ص ٤٧ . ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص ٢٦١ .

(٦) الغزالي : أيها الولد ، ص ٤٨ .

(٧) الآجري : أخلاق حملة القرآن ، الورقة : (٦ أ) . سعيد الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ، ص ٥٠ .

(٨) ابن سحنون : آداب المعلمين ، ص ٤٧ . الماوردي : أدب الدنيا والدين ، ص ١١٩ .

قيمة المعلم ، كاظماً لغيظه ، وقوراً ، رفيقاً بطلابه [١]، طليق الوجه، حليماً ، صابراً ، نزيهاً ، ملازماً للخشوع ، والسكينة ، متجنباً الضحك الكثير ، فإنه يميت القلب ، ويقلل الهيبة [٢] . كما لا ينبغي للمعلم أن يُكلِّف الصبيان فوق أجرته شيئاً ، من هدية ، وغير ذلك [٣] .

ب ـ الجوامع والمساجد :

لم يكن المسجد في الإسلام مكان ترهب وانعزال عن ركب الحياة ، وإنما كان مصدراً للتنوير الفكري ، وذلك بدراسة كل علم يتواءم مع طبيعة الإسلام [٤] . فكانت المساجد والجوامع ، على السواء ، معاهد لتعليم العلوم الإسلامية ، والعلوم المساعدة ، كالنحو ، واللغة ، وعلم البيان ، والشعر المحافظ ، واستمر على ذلك حتى ظهرت المدارس النظامية في العراق سنة (٤٥٩هـ/١٠٦٦م) [٥] .

وكانت ببغداد على زمن الخليفة المتقي سنة (٣٢٩هـ/٩٤١م) أربع جوامع تقام فيها صلاة الجمعة ، هي : جامع مدينة المنصور ، وجامع الرُّصافة ، وجامع دار الخلافة ، وجامع براَثا . إضافة إلى مئات المساجد [٦] . وأيضاً جوامع المدن العراقية الأخرى ، كالبصرة ، والكوفة ، وواسط ، وسُرَّمَنْ رأى . وكانت الجوامع والمساجد تموج بحلقات العلم المختلفة ، فهذه حلقة أهل الحديث ، وتلك لأهل الفقه ، وثالثة لأصحاب النحو ، وهكذا .

وكان حجم الحلقة يختلف تبعاً للفن الذي يدرس فيها ، فحلقة الحديث كانت بصفة عامة أكبر من حلقة الفقه ، أو النحو مثلاً . وعموماً كانت حلقات العلوم الشرعية أكبر من

---

(١) الغزالي : أيها الولد ، ص ٤٨ .

(٢) الآجري : أخلاق حملة القرآن ، الورقة : (٦ أ) . الطوسي : آداب المتعلمين ، ص ١٥١ . سعيد الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ، ص ٥١ .

(٣) ابن سحنون : آداب المعلمين ، ص ٩٥ ـ ٩٦ الماوردي : أدب الدنيا والدين ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٤) منصور عبيد : مكانة المسجد ورسالته ، ص ٥٠ .

(٥) جورج المقدسي : نشأة الكليات ، ص ٢٨ . سعيد الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ، ص ٦٠ .

(٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٠٨/١ ـ ١١٠) . وسيرد الحديث عن هذه الجوامع في الصفحات القادمة من هذا المبحث . أما جامع براثا : فيقع في الجانب الغربي من مدينة بغداد في الموضع المعروف ببراثا في منطقة الكرخ ، أسفل نهر كرخايا . اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٤٤ .

حلقات العلوم الأخرى . وذلك يعود إلى الإقبال الكبير من أهل العراق على العلوم الشرعية ، والاهتمام بها ، لإدراكهم أهمتيها في فلاح الإنسان في الدنيا والآخرة ، ووصل الأمر إلى أن بعض كبار النحاة ، كأبي العباس ثعلب يشعر بالأسى ويتحسف على ضياع عمره ، من وجهة نظره ، بالاشتغال في النحو ، ولم يفز كما فاز أصحاب العلوم الشرعية [١] .

وكان يحضر حلقات العلم في الجوامع والمساجد الجمع الغفير من طلاب العلم ، وعامة الناس . ولعظم الحاضرين في بعض الحلقات ، كانت تجري الاستعانة ببعض الملازمين لهذه الحلقات في إيصال صوت الشيخ إلى الصفوف الخلفية ، وهؤلاء يسمون « المستملين » . ويزداد عدد هؤلاء المستملين كلما ازداد عدد حضور الحلقة [٢] .

وجرت العادة أن يستند الشيخ صاحب الحلقة أثناء القائه للدروس إلى اسطوانة (عامود) ، يصبح هذا الموضع وقفاً عليه ما دام قائماً بالتدريس فيه ، وعرف به . وهو من باب الاستحسان وليس حق مشروع ، كما ذهب جمهور الفقهاء ، إذا تركه زال حقه منه ، وكان من يأتي بعده أحق [٣] . فقد جلس أبو بكر بن أبي شيبة إلى اسطوانة بجامع الكوفة تعاقب عليها ستة علماء بعد الصحابي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [٤] .

فكان بعض العلماء يجلس فترة طويلة من الزمن إلى اسطوانة معينة فتشتهر بإسمه . ومن ذلك أن إبراهيم بن محمد المعروف بنَفْطَوَيه (ت ٣٢٣هـ/٩٣٥م) ، رأس الظاهرية في وقته ، جلس إلى اسطوانة بجامع المنصور ببغداد خمسين سنة ، لم يغير محله منها ، كما يقول هو بنفسه [٥] .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٣٩/٥) . فقد قال ثعلب لأبي بكر بن مجاهد المقريء : ((يا أبا بكر : اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا ، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا ، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا ، واشتغلت أنا بزيد وعمرو ، فليت شعري ما يكون حالي في الآخرة ؟)) . المصدر نفسه .

(٢) السمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ، (٣٨٢/٢) . وخصص السمعاني في كتابه فصلاً خاصاً بالمستملي ، تناول فيه شروط المستملي ، والواجبات المنوطة به . المصدر السابق ، (٣٨٢/٢ ـ ٤٤١) .

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ . آدم متز : الحضارة الإسلامية ، (٣٣٢/١) .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٦٩/١٠ ـ ٧٠) .

(٥) القفطي : إنباه الرواة ، (٢١٦/١) .

ولم يكن الجلوس للتدريس في الجامع بالأمر الهين لكل من كان لديه علم بأن يعقد حلقة له . فعندما طلب « بجكم التركي » من أبي بكر الصولي أن يجلس بجامع واسط ليلقي فيه دروسه على أهلها ، وكان الصولي يعقد مجلسه بمسجد بجوار داره ، قال له الصولي معتذراً : ((وأنا ما جلست ببغداد ، وهي بلدي ومولدي ، بَعدُ في المسجد الجامع !)) [١] .

ولم تكن الدروس العلمية التي تعقد في الجوامع والمساجد مقصورة على الطلاب الذين يحضرون بانتظام ، بل كانت متاحة لجميع من يبتغي الاستفادة [٢] .

وهناك إشارة بسيطة عن تعليم الصبيان في المسجد ، إذ ورد على لسان الجاحظ : ((أن المعلمين في القرنين : الثاني والثالث ، كانوا على طوائف شتى ، أولاهما : طبقة صغار المعلمين ، الذين كانوا يتولون تعليم الصبيان القراءة والكتابة ، يتخذون لذلك مكاتب خاصة ، أو يجعلون من المساجد مدارس لهم)) [٣] .

أما أشهر حلقات العلم التي كان يعقدها علماء العراق في الجوامع والمساجد ، فسوف يرد تبيانها في الصحفات القادمة ، من خلال استعراض جوامع مدن العراق ، وبعض مساجدها ، وما كان فيها من حلق العلم والمعرفة .

١ ــ جامع مدينة المنصور [٤] .

كان لهذا الجامع ، منذ نشأته ، أكبر الأثر في حركة التعليم في العراق ، والعالم الإسلامي أيضاً . فقد كان يؤمه الطلاب من كل حدب وصوب ليأخذوا العلم ، من خلال ترددهم على حلقات العلماء في هذا الجامع ، الذي كان لا يتجرأ أحد بالجلوس فيه من العلماء ما لم يكن متمكناً وراسخاً في العلم . ولهذا ، كان أبرز العلماء يعقدون حلقاتهم العلمية فيه .

---

(١) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ١٩٤ .

(٢) أحمد شلبي : الفكر الإسلامي ، ص ٥٧ .

(٣) عبد السلام هارون : الجاحظ والمعلمون ، ص ٥٦٤ .

(٤) وكان هذا الجامع ملاصق لقصر أبي جعفر المنصور في وسط مدينة بغداد المدورة ، والتي تسمى مدينة المنصور أيضاً . اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٤٠ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١/١٠٧ ــ ١٠٨) .

ومن هؤلاء العلماء ، أبو حمزة محمد بن إبراهيم الصوفي (ت ٢٦٩هـ/٨٨٢م) ، عالم القراءات ، الذي كان يلقي دروسه في البداية بجامع الرُّصافة ، ثم انتقل إلى جامع المنصور [١] .

كما كان لعالم الحديث والفقه ، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي (ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م) مجلس حديث يوم الجمعة بهذا الجامع [٢] .

وهناك حلقة عامرة بهذا الجامع لأبي العباس ثعلب ، إمام الكوفيين في النحو ، وكان موعدها يوم الجمعة ، يملي فيها مجالس في اللغة ، والنحو ، والأخبار ، ومعاني القرآن ، والشعر [٣] . ويصف أبو جعفر أحمد بن إسحاق القاضي الأنباري حلقة ثعلب في جامع المنصور سنة (٢٥٥هـ/٨٦٩م) ، وكان معه أخيه ، بقوله : ((فدرنا على الحلق يوم الجمعة ، فوقفنا على حلقة فيها رجل يتلهب ذكاءً ، ويجيب عن كل ما يسأل عنه من مسائل القرآن ، والنحو ، والغريب ، وأبيات المعاني . فقلنا : من هذا ؟ ، فقالوا : أحمد بن يحيى ثعلب)) [٤] .

وأما أبو بكر أحمد بن محمد الأدمي المعروف بالحمزي (ت ٣٢٧هـ/٩٣٩م) ، أحد القراء المبرِّزين ، فكان يُقرِيء الناس في حلقة عقدها للإقراء في جامع المنصور [٥] .

ولأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م) ، عالم اللغة والنحو ، حلقة إملاء يوم الجمعة بهذا الجامع ، وكان يملي من حفظه دون كتاب . وكان يملي في ناحية ، وأبوه في ناحية أخرى [٦] .

---

(١) القفطي : المحمدون من الشعراء ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ، (٢٦٢/٤) .

(٣) الصولي : أدب الكتّاب ، ص ٦٧ . النديم : الفهرست ، ص ١١٨ .

(٤) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٣٨ .

(٥) الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (٢٧٥/١) .

(٦) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٩٧ ، ٢٠٢ .

وممن درّس بجامع المنصور من فقهاء الشافعية ، أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المروزي (ت ٣٤٠هـ/٩٥١م) ، رأس الشافعية في وقته ، وكان يعقد حلقته العلمية يوم الجمعة . وكان يحضرها العديد من العلماء البارزين ، كأبي الحسن الأشعري ، حامل لواء الدفاع عن السنة أمام المعتزلة [١] ، وغيره . وكان لمجلس أبي إسحاق هذا شأن في المسيرة العلمية ، قال الأسنوي ، نقلاً عن العبادي : ((وخرج من مجلسه إلى البلاد سبعون إماماً)) [٢] .

وفي جامع المنصور أيضاً ، أملى أبو عمر محمد بن عبد الواحد اللغوي المعروف بغلام ثعلب دروسه ومؤلفاته في اللغة على الناس في حلقة عقدها لهذا الأمر . حيث أملى في هذا الجامع كتاب « الياقوت » في اللغة ، ارتجالاً من غير كتاب إلى أن انتهى إلى آخره ، مجلساً مجلساً ، وكان قد ابتدأ في إملائه بالمحرم سنة (٣٢٦هـ/٩٣٨م) [٣] .

وكان الشعراء يجتمعون في كل يوم جمعة تحت القبة المعروفة بهم بجامع بغداد ، ينشدون الشعر ، ويعرض كل واحد منهم على أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم في الجمعة التي قبلها . ومن الأسماء التي كانت تجتمع في هذا الجامع من الشعراء : علي بن الجهم ، ودِعْبل بن علي الخزاعي ، وابن أبي فَنَن [٤] .

٢ ــ جامع الرصافة [٥] .

ويعرف بجامع المهدي أيضاً ، وهذا الجامع أحد جوامع بغداد المؤثرة في مسيرة التعليم آنذاك ، ففي رحابه عقدت حلقات العلم والمعرفة ، مما كان له الأثر الكبير في إظهار العراق عموماً ، وبغداد خصوصاً ، كأحد مراكز العلم المقصودة من قبل طلاب العلم .

---

(١) ابن الصلاح : طبقات الفقهاء الشافعية ، (٢/٦٠٤) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/٢٨٤) .

(٢) طبقات الشافعية ، (٢/١٩٧) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ١٢٠ .

(٤) ابن نباته : سرح العيون ، ص ٣٢٥ .

(٥) وكان هذا الجامع يقع في محله الرصافة ، في الجهة الشمالية من الجانب الشرقي لمدينة بغداد . وقد بناه الخليفة المهدي سنة (١٥٩هـ/٧٧٦م) عندما أنشأ الرصافة . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (١/١٠٨ ـ ١٠٩) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٣/٤٦ ـ ٤٧) .

وقد جلس في هذا الجامع العديد من العلماء ، الذين عقدوا فيه مجالسهم العلمية ، ومن هؤلاء : أبو بكر بن أبي شيبة ، وكان يجتمع عليه المئات من طلاب العلم والراغبين في الفائدة [١] .

ومن علماء القراءات الذين عقدوا مجالسهم العلمية بجامع الرصافة ، أبو حمزة محمد بن إبراهيم الصوفي [٢] . وكذلك ، أبو بكر يوسف بن يعقوب الأزرق (ت ٣٢٩هـ/٩٤٠م) ، أحد حفاظ الحديث ، إذ كان له مجلس إملاء بهذا الجامع يوم الجمعة [٣] .

ومن أبرز حفّاظ الحديث ورواته أيضاً ، الذين أملوا بجامع الرصافة ، أبو العباس أحمد بن محمد الكوفي المعروف بابن عُقْدَة (ت ٣٣٢هـ/٩٤٣م) ، الذي كان له مجلس يوم الجمعة بهذا الجامع يملي فيه الحديث [٤] .

وأيضاً كانت هناك حلقة المحدِّث ، أبو عمر حمزة بن القاسم الهاشمي (ت ٣٣٥هـ/٩٤٦م) ، يوم الجمعة لإملاء الحديث بهذا الجامع [٥] .

٣ ــ مسجد الأنباريين [٦] :

وهو أحد مساجد بغداد المشهورة بحلقات العلم التي كانت تعقد فيه . فكان أحد روافد الفكر والعلم التي دعمت الحركة العلمية بشكل عام ، والتعليم بشكل خاص .

ومن أبرز العلماء الذين كانت لهم مجالس علمية في هذا الجامع ، عالم اللغة والنحو ، أبو عبد الله إبراهيم بن محمد المعروف بنَفْطَوَيه ، فقد كان له مجلس علم بالغدوات في هذا المسجد [٧] .

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٠/٦٧) .

(٢) القفطي : المحمدون من الشعراء ، ص ٩٣ ــ ٩٤ .

(٣) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي ، (٢/٥٧) .

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٧/٣٩٥) . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (٢/٣٣٢) .

(٥) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي ، (٢/٥٧) .

(٦) ويقع هذا المسجد في الجانب الغربي من مدينة بغداد ، في الطريق المؤدي إلى القنطرة العتيقة على نهر الصراة السفلى ، جنوب مدينة المنصور من جهة باب الكوفة . اليعقوبي : البلدان ، ص ٤٤ ــ ٢٤٥ .

(٧) النديم : الفهرست ، ص ١٣٠ .

٤ ـــ جامع الكوفة :

يعتبر جامع الكوفة من أقدم جوامع العراق ، وبالتالي أسبقها في احتضان مجالس العلم منذ بدايتها ، وظل هذا الجامع يؤدي دوره التعليمي مع بقية جوامع العراق خلال تلك الفترة . وكانت تعقد في رحابه مجالس الحديث ، واللغة ، والنحو ، والأدب الجاد ، وغيرها . فكان أبو الحسن علي بن عبد الله المعروف بالناشيء الأصغر (ت ٣٦٦هـ/٩٧٦م) ، أحد أدباء عصره المشهورين ، قد أملى شعره في هذا الجامع سنة (٣٢٥هـ/٩٣٧م) ، وكان من بين الحضور الشاعر المعروف أبو الطيب المتنبي ، وكان إذاك صبياً (١) .

٥ ـــ جامع البصرة :

لا يقل جامع البصرة أهمية عن جامع الكوفة ، على اعتبار أن البصرة مُصِّرت بعدها مباشرة ، ولذا كان جامعها من الجوامع التي أسهمت في العملية التعليمية مبكراً .

ومن أبرز علماء اللغة والنحو الذين جلسوا للتدريس بهذا الجامع ، أبو حاتم السِّجِسْتَاني (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م) ، الذي كان يدرِّس فيه القراءات ، والتفسير ، والعَروض (٢) .

ومن أبرز من جلس في هذا الجامع أيضاً، إمام الحديث ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م) ، الذي جلس لإملاء الحديث بهذا الجامع ، وكان الجمع غفير ممن حضر المجلس (٣) .

ومن الأدباء الذين جلسوا بهذا الجامع ، أبو عبد الله محمد بن أحمد البصري المروف بالمُفَجَّع (ت ٣٢٧هـ/٩٣٩م) ، شاعر البصرة وأديبها ، وكان أبو عبد الله يجلس بهذا الجامع ، فيُكتب عنه ، ويُقرأ عليه الشعر واللغة (٤) .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/٣٦٩) .

(٢) اليغموري : نور القبس ، ص ٢٢٥ .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢/١٥) .

(٤) القفطي : المحمدون من الشعراء ، ص ٣٣ .

٦ ـــ جامع واسط :

وكان جامع واسـط من جوامـع العراق المشهـورة فـي تاريخ الحركة العلمية ، لأنه الجامع الوحيد بواسط في تلك الفترة . ولهذا كان هذا الجامع مركزاً لتعليم العلوم الشرعيـة والعربية على حدٍ سواء . وفيه عقدت المجالس العلمية ، الأمر الذي أدى إلى ازدهار ونشاط التعليم بواسط في تلك الفترة .

ومن أبرز من جلس للناس فيه : أبو بكر الصولي ، حيث كان له فيه مجلساً موعده يوم الجمعة من كل أسبوع [١] .

وقبل أن نختتم الحديث عن المساجد والجوامع ، كأماكن للتعليم ، ينبغي التعريج على أمر مهم كثر النقاش حوله .

إذ يذكـر بعض البـاحثين [٢] ، أن هناك مـوقفاً عدائياً من قبل المسلمين لعلوم الأوائل أو العلوم الدخيلة ، كالفلسفة ، والطب ، ولاهندسة ، والفلك ، والرياضيات ، وغيرها ، أي جميع العلوم الدخيلة القادمة من الأمم والحضارات السابقة للإسلام ، ولذا لم تكن هذه العلوم تُدَرَّس في مساجد المسلمين وجوامعهم ، ولهذا السبب لم توجد حلقات لتدريس هذه العلوم في مساجد العراق وجوامعه . وإنما اقتصرت فقط على العلوم الشرعية ، والعلوم المساعدة ، وهي علوم العربية . إضافة إلى أن علوم الأوائل تلك ، كانت تحظى باحترام صامت ، وغير معلن ، وكانت تُدَرَّس سراً .

فقام بعض الباحثين [٣] ، أمام هذا الرأي ، وحاول إظهار المسجد بصورة مغايرة لواقعه ، وذلك بإقحامه أدواراً لم يكـن للمسجـد إسهـام فيها على الإطلاق ، كالترجمة . ولكن الرغبة في الانتصار للمسجد ، جعلت البعض يسيء إليه من حيث لا يقصد .

وللرد على ما سبق يقتضي الأمر تناول أمرين رئيسيين ، الأول : يتعلق بموقف المسلمين من علوم الأوائل في ذلك الوقت ، والثاني : يتعلق بطبيعة تلك العلوم من حيث الدراسة ، والتطبيق .

---

(١) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ١٩٤ .

(٢) جورج المقدسي : نشأة الكليات ، ص ٨٧ ـ ٨٨ ، ٩١ ـ ٩٢ .

(٣) حسين الحاج : حضارة العرب في العصر العباسي ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

فبالنسبة للأمر الأول : وهو موقف المسلمين ، والمتمثل في أهل العراق المسلمين ، من علوم الأوائل أو العلوم الدخيلة . فنقول :

إن موقف أهل العراق المسلمين من هذه العلوم يندرج تحت موقف الإسلام منها ، ومدى قبوله لبعضها ، ورفضه للبعض الآخر . فالعلوم التي رأى الإسلام أنها تفسد عقيدة المسلم ، كالفلسفة ، والمنطق ، وما وراء الطبيعة ، والإلهيات ، وغيرها ، أمر العلماء بتركها وعدم الخوض فيها . أما العلوم النافعة للمسلم في حياته ومعاشه ، كالطب ، والفلك ، والرياضيات ، والكيمياء ، والفيزياء ، وغيرها من العلوم النافعة ، فقد جاء الإسلام مشجعاً لها ، وداعياً إلى تعلمها ، وذلك إعمالاً للعقول ، وترك المجال أمام الإنسان ليكتشف بنفسه عظمة الخالق سبحانه وتعالى في هذا الكون .

وأمام هذه النظرة ، كان موقف أهل العراق ، الرسمي والشعبي ، خلال تلك الفترة، واضحاً في هذا الأمر . فقد اختفت العلوم الفلسفية والمنطقية ورجالها في تلك الفترة على الأقل ظاهرياً ، إضافة إلى أن رموز هذه العلوم ، أو قل بعضهم ، لا زال موجوداً . ولكن موقف الدولة الرسمي ، والمتمثل في الخلفاء ، كان يقف بشدة أمام هذه العلوم .

أما بقية العلوم ، فإننا نجد أنها كانت منتشرة بين الناس ، وتعاطاها العديد منهم ، بدليل الأسماء العديدة لعلماء الفترة في هذه العلوم ..ولولا الدعم الكبير الذي لقيته هذه العلوم من قبل الخلفاء ، والمتمثل في الحوافز المادية والمعنوية لأرباب هذه العلوم ، لما أصبح العراق علامة بارزة بين أقطار العالم الإسلامي ، بل والعالم أجمع في ذلك الوقت في العلوم التطبيقية .

أما الأمر الثاني في معرض الرد على ذلك الزعم ، والذي يتعلق بطبيعة تلك العلوم من حيث الدراسة ، والتطبيق ، فنقول : عندما نمعن النظر في تلك العلوم ، التي كانت مباحة ، نجد أنها علوم تطبيقية ، عملية ، تجريبية . وعلوم كهذه تحتاج إلى مكان ذا مواصفات معينة تتوائم مع طبيعتها ، وأعني بها المعامل ، والمختبرات . فهذه العلوم تقوم على تنفيذ تجارب ، وإعداد مراصد فلكية ، وتحضير مواداً كيميائية ، وغير ذلك ، الأمر الذي جعل تدريس مثل هذه العلوم في المساجد يعد ضرباً من المستحيل . ولهذا السبب فقط ، لم تكن هناك حلقات لتدريس هذه العلوم في المساجد .

جـ ـ منازل العلماء :

لم يكن العلماء المسلمين يعدون المنازل مكاناً صالحاً للتعليم ، لافتقارها إلى السكون والراحة . غير أن الظروف الخاصة لبعض العلماء ، وأهداف البعض الآخر ، جعلت منازل بعضهم ملتقى للطلاب ، وأحد أماكن التعليم في ذلك الوقت [١] .

فقد خصص الإمام أحمد بن حنبل في دهليز داره مكاناً يستقبل فيه من يقصده للسؤال [٢] .

وكان للطبيب يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣هـ/٨٥٧م) مجلس علم عامر بمنزله في بغداد ، يغشاه أصحاب العلوم والمعارف المختلفة [٣] .

وكان الشاعر أبو العباس أحمد بن محمد الهاشمي المعروف بأبي العِبَر (ت ٢٥٠هـ/٨٦٤م) قد جعل داره مكاناً يُملي فيه على طلابه [٤] .

أما أبو خليفة الفَضل بن الحُبَاب البصري (ت ٣٠٥هـ/٩١٧م) ، أحد رواة الأخبار والأشعار النسّابين ، فقد جعل منزله مقصداً لهاشمي البصرة ، ليقرأوا عليه كتابه « طبقات الشعراء » ، وغيره من مصنفاته ، وكان أبو خليفة يكرمهم ، ويقدم لهم الطعام [٥].

وعندما استعفى القاضي أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المَحَاملي (ت ٣٣٠هـ/٩٤١م) من قضاء الكوفة وفارس سنة (٢٧٠هـ/٨٨٣م) ، جعل داره مجلساً للنظر في علم الفقه ، وما زال الفقهاء يترددون عليه حتى وفاته [٦] .

---

(١) عبد الله عبد الدائم : التربية عبر التاريخ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (١٨٦/١) .

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١١٦ .

(٤) ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص ٣٤٣ . النديم : الفهرست ، ص ٢٤٥ .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ . القفطي : إنباه الرواة ، (٢٣٤/٣) .

(٦) ابن الجوزي : المنتظم ، (٣٢٧/٦) .

وكان منزل أبي عبد الله محمد بن مخلد الدُّوري العطّار المحدِّث (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م)، في الجانب الشرقي من بغداد ، مقصد طلاب العلم لسماع الحديث منه [١] .

وفي منزله ، كان أبو بكر الصولي يستقبل أصحاب الحديث والأدب ، طلباً للحديث ، وأخذ الأدب منه [٢] .

وكان بعض العلماء يفتخر بداره ويحتفي بها أيما احتفاء ، ويرى أنها أفضل الدور في بلده لما كان فيها من حركة دائبة ، وتردد طلاب العلم عليها . ومن هؤلاء : أبو محمد دِعْلِج بن أحمد السجزى البغدادي (ت ٣٥١هـ/٩٦٢م) ، أحد شيوخ الحديث في وقته ، الذي كان يقول : ((ليس في الدنيا مثل داري ، وذاك أنه ليس في الدنيا مثل بغداد ، ولا ببغداد مثل القطيعة [٣] ، ولا في القطيعة مثل درب أبي خلف [٤] ، وليس في الدَّرب مثل داري)) [٥] .

د ــ الأماكن العامة :

لم يكن مكان العلم يقف حجر عثرة أمام أهل العراق في تحصيل العلم ، فالمهم هو وجود العالم الذي يثري ويشبع رغباتهم العلمية .

---

(١) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٧٤/٢) .

(٢) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٢١٠ .

(٣) القطيعة : يقال : استقطع فلان الخليفة أو الإمام قطيعة من عَفْو البلاد فأقطعه إياها ، إذا سأله أن يقطعها له مفرزة محدودة يملّكه إياها ، فإذا أعطاه إياها كذلك ، فقد أقطعه إياها . وقد أقطع الخليفة المنصور لما عمّر بغداد قواده ومواليه قطائع ، وكذلك غيره من الخلفاء . وقد أضيفت كل قطيعة إلى واحد من رجل أو امرأة . وكانت بغداد تضم العديد من القطائع المنسوبة لأصحابها ، والتي بلغت نحو (٥٤ قطيعة) . ولذا فإن القطيعة لم تكن موضع بعينه ، وإنما هو إطلاق عام على تلك الصفة التي ذكرت . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٣٧٦/٤) . يعقوب ليسنر : خطط بغداد ، ص ٣٩٠ ــ ٣٩١ .

(٤) لم تتوفر المعلومات حول هذا الموضع ، لعدم ورود ما يفيد باسم القطيعة التي كان يقع فيها هذا الدرب .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٨٩/٨) .

ولهذا ، كانت هناك أماكن عامة ، كالشوارع ، والساحات ، ومضارب الأعراب ، والسكك ، وغيرها ، جميعها شهدت مجالس يجتمع فيها عشاق العلم والمعرفة حول عالم يحدثهم ، أو يملي عليهم .

فعندما قدم الإمام البخاري إلى البصرة ، أخذ أهلها يَعْدون خلفه في طلب الحديث حتى غلبوه على نفسه ، وأجلسوه في بعض الطريق ، فاجتمع عليه خلق كثير يكتبون عنه (١) .

وخرج المحدِّث أبو علي حنبل بن إسحاق بن حنبل الشيباني (ت ٢٧٣هـ/٨٨٦م) ، ابن عم الإمام أحمد ، إلى « عُكْبرا » (٢) ليقرأ على أهلها مسائله في الحديث ، وكان ينزل في غرفة مكتراه . فلما اجتمع إليه أصحاب الحديث قال : ((اكترينا هذه الغرفة لنسكنها ، فإذا كثر الناس خشينا أن نُضَر ، فإذا اجتمعتم خرجنا إلى المسجد)) (٣) .

وكانت الساحات العامة من الأماكن التي عقدت فيها مجالس إملاء الحديث . فهذا أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله الكِجِّي البصري (ت ٢٩٢هـ/٩٠٥م) ، الحافظ ، المسند ، عندما قدم بغداد أملى في « رحبة غسَّان » (٤) ، وكان في هذا المجلس سبعة مستملين ، كل واحد يبلغ الآخر ، وكتب الناس عنه قياماً ، ثم مسحت الرحبة ، وحسب من حضر بالمحبرة ، فبلغ ذلك آلاف المحابر ، سوى المستمعين (٥) . مما يعني أن الجمع غفير ، والساحة واسعة .

وكانت الشوارع أيضاً ، إحدى الأماكن التي جرى فيها إملاء الحديث . فقد أملى عالم الحديث أبو بكر جعفر بن محمد الغرّياني (ت ٣٠٢هـ/٩١٤م) بشارع المنارة في بغداد . فحزر في مجلسه ثلاثون ألفاً ، يكتب منهم عشرة آلاف ، وكان في مجلسه هذا ثلثمائة وستة عشر يستملون (٦) .

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٥/٢) . النووي : تهذيب الأسماء واللغات ، (٨٨/١) .

(٢) عكبرا : مدينة بين بغداد وسُر مَنْ رأى في الجهة الشمالية من العراق . ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٠ ، ٨٥ الإصطخري : مسالك الممالك ، ص ٨٧ .

(٣) ابن أبي يعلي : طبقات الحنابلة ، (١٤٣/١ ـ ١٤٤) . العليمي : المنهج الأحمد ، (٢٤٥/١) .

(٤) لم تتوفر معلومات حول موقعها في بغداد .

(٥) السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٢٧٧ .

(٦) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

أيضاً ، أضحت السِّكَكْ [١] ، في ذلك الوقت ، من أماكن تلقي العلم . ففي سِكَّة عبد الصمد بن علي ببغداد [٢] ، كان أبو طاهر عبد الواحد بن عمر المقريء النحوي (ت ٣٤٤هـ/٩٥٥م) يُقريء الناس القراءات ، والنحو على مذهب الكوفيين [٣] .

وكانت منازل الأعراب في الصحراء من الأماكن التي تردد عليها علماء العراق ، لأخذ اللغة الصحيحة السليمة من أفواه الأعراب ، الذين سلموا من اللحن في اللسان ، لابتعادهم عن الاختلاط بالأعاجم ، الذين أفسدوا لسان القوم من أهل المدن نتيجة اختلاطهم بهم ، وذلك تبعاً للواقع الاجتماعي الذي كان يعيش فيه العراق خلال تلك الفترة .

فاعتبرت مضارب الأعراب أفضل مكان لمن أراد تعلم اللغة على أصولها ، وهذا الواقع نلمسه في إجابة أبي الفضل العباس بن الفرج النحوي البصري المعروف بالرِّياشي (ت ٢٥٧هـ/٨٧١م) على رجل في سوق الوراقين بالبصرة ، وكان الرجل يقدِّم الكوفيين على البصريين ، فقال الرِّياشي مجيباً ، وكان ابن دُرَيْد ، عالم اللغة والنحو ، حاضراً : ((إنما أخذنا نحن اللغة عن حَرَشَةُ الضِّباب وأكَلَةُ اليرابيع . وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد أصحاب الكواميخ وأكَلَة الشَّوَاريز)) [٤] .

يريد الرياشي أن البصريين أخذوا اللغة عن الأعراب الأصليين الخشنين ، أما الكوفيين فقد أخذوا اللغة من أهل السواد المتمدنين والمترفين في عيشهم .

---

(١) السكك : جمع سكة ، وهي الطريقة المستوية المصطفة من النخل ، وبذلك سميت الأزقة سككا ، لاصطفاف الدور فيها كطريق النخل . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٣/٢٣١) .

(٢) سكة عبد الصمد : وكانت تقع في الجانب الشرقي من بغداد ، وهي نسبة إلى عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي . وكان أقعد الهاشميين في النسب . واسند الحديث عن أبيه . روى عنه الخليفة المهدي ، وغيره . وكانت وفاته سنة (١٨٥هـ/ ٨٠١م) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١١/٣٧ ـ ٣٨) .

(٣) الجزري : طبقات القرّاء ، (١/٤٧٥ ـ ٤٧٧) .

(٤) السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ص ٩٩ .

ولقد ذهب العديد من علماء العراق وأدبائه إلى الأعراب في موطنهم ، أو محاولة البعض منهم الالتقاء بهم عندما يأتون إلى المدن ، فكان أبو مَحْلم محمد بن هشام الشيباني اللغوي (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م) ، يقصد البادية لطلب العربية ، وأقام بها مدة [١] .

وكان الأمير عبد الله بن المعتز ، حريصاً على الالتقاء بالأعراب ليصحح لغته على أيديهم ، سواء بالذهاب لهم [٢] ، أو مقابلتهم عندما يأتون إلى سُرَّمَنْ رأى [٣] .

وكان سوق المِرْبَد بالبصرة مقصد العديد من علماء العراق لتقويم ألسنتهم ، واكتساب المزيد من الفائدة اللغوية بمقابلة الأعراب فيه . وقد سلف الحديث عن دور هذا السوق . ولم تورد المصادر نصوصاً صريحة عن الكيفية التي كانت تتم بها عملية التعليم فيما يخص العلوم التطبيقية ، لا سيما الطب . غير أن هناك ثلاث مراحل ينبغي على الطالب أن يمر بها قبل أن يتعرض للامتحانات اللازمة لمزاولة مهنة الطب . وهي [٤] :

١ ـ مرحلة الدراسة النظرية لكتب الأطباء الأقدمين التي تبحث في العلوم الأساسية ، والعلوم السريرية .

٢ ـ مرحلة التدريب العملي في البيمارستان ، تدعمها الدراسة النظرية والمذاكرة .

٣ ـ مرحلة الخبرة التي يكتسبها الطبيب من طول التَّمَرُّس والمران ، وملازمة الأطباء .

ثالثاً : أساليب التعليم :

هناك وسائل وطرائق عدة استعان بها العلماء ، خلال تلك الفترة ، في مجالسهم العلمية ، لإيصال المعلومة إلى طلابهم . ومنها :

---

(١) السيوطي : بغية الوعاة ، (٢٥٧/١) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ١٨٦ .

(٣) الصولي : أشعار أولاد الخلفاء ، ص ١٠٧ .

(٤) ابن ربن الطبري : فردوس الحكمة ، ص ٥٥٧ ـ ٥٦٠ . أبو بكر الرازي : المرشد أو الفصول ، ص ١١٩ ، ١٢٤ ـ ١٢٥ . عبد المنعم صفو : تعليم الطب عند العرب ، أبحاث المؤتمر السنوي الثالث للجمعية السورية لتاريخ العلوم ، ١٩٧٨م ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ . مريزن عسيري : تعليم الطب في المشرق الإسلامي ، ص ٢٦ ـ ٢٧ ، ٣٩ ـ ٤٠ ، ٤٩ ، ٦٥ ـ ٦٨ .

١ ـــ الإملاء :

كان الإملاء [١] هو الأسلوب الأكثر شيوعاً في ذلك الوقت ، كأحد الوسائل التعليمية ، لا سيما في علم الحديث ، الذي كان أكثر العلوم انتشاراً . فكان عقد المجالس لإملاء الحديث أمر مستحب عند طلبة العلم ((لأن ذلك أعلى مراتب الراوين ، ومن أحسن مذاهب المحدثين ، مع ما فيه من جمال الدين ، والإقتداء بسنن السلف الصالح)) [٢] .

بالإضافة إلى أن أسلوب الإملاء ، وما يتبعه من تدوين المعلومة من قبل المتعلمين يؤدي بلاشك إلي حفظ المكتوب ، حتى يسهل الرجوع إليه وقت الحاجة دون عناء .

ولقد اتبع طريقة الإملاء ، في إلقاء الدروس ، العديد من العلماء والأدباء ، منهم : الإمام أحمد بن حنبل [٣] ، وأبي العباس ثعلب [٤] ، وأبو بكر عبد الله بن سليمان السجستاني [٥] ، وأبو بكر محمد بن القاسم الأنباري [٦] ، وأبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي القاضي [٧] ، وغيرهم من العلماء والأدباء مما لا يتسع المجال لذكرهم .

ويقابل الإملاء من قبل العلماء ، الكتابة والتقييد من قبل المتعلمين . وقد قيل : ((من حفظ فر ، ومن كتب قر)) [٨] . ولقد حث الأئمة الأعلام على وجوب الكتابة لحفظ

---

(١) تقوم طريقة الإملاء على أن يقوم العالم بالقاء ما لديه على الحاضرين ، وفي المقابل ، يقوم الطلبة بكتابة ما يمليه العالم فيما يحملون من أوراق . وحينما ينتهي العالم من إملاء النص ، يقوم بشرحه ، وتوضيحه ، وتفسيره ، وفي كل ذلك يقوم الطلاب بتدوين تلك الشروح على هامش أوراقهم التي كتبوا فيها الأصول . وعندما يكمل العالم أماليه ، تعرض عليه ، أو يقوم الطلاب بقراءتها عليه ليصحح ما قد يكون بها من أخطاء . سعيد إسماعيل : معاهد التربية الإسلامية ، ص ٢٢٥ . طالب الضمور : التربية والتعليم في العراق ، ص ١٨٢ . (رسالة ماجستير غير منشورة) .

(٢) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي (٢/٥٥) .

(٣) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (١/٤١٠) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ١١٨ . وقد جمع أماليه في كتابه « مجالس ثعلب » .

(٥) السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .

(٦) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٣٢١ .

(٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، (١٥/٢٥٨ ـ ٢٦٣) .

(٨) الزرنوجي : تعليم المتعلم ، ص ١٢٣ .

العلم من الضياع . يقول الفضل بن أحمد الزبيدي : ((سمعت أحمد بن حنبل ـ وقد أقبل أصحاب الحديث بأيديهم المحابر ـ فأومأ إليها ، وقال : هذه سُرُج الإسلام ، يعني المحابر)) [١] .

واتخذ بعض العلماء المستملين ، ليبلغوا عنهم ما يقولون ليصل إلى من كان بعيداً عن الشيخ . وللمستملي صفات ، وواجبات ، ينبغي الالتزام بها [٢] .

٢ ـ المذاكرة والمعارضة :

ويعد أسلوب المذاكرة والمعارضة ، أحد الوسائل التي كانت مستخدمة في ذلك الوقت . والهدف منها ، هو تصحيح المعلومات بين المتذاكرين ، بتصحيح ما قد يوجد عند كل واحد منهم من خطأ ، أو سوء فهم لمسألة معينة .

ولهذا ، كان لزاماً على الطالب أن يتذاكر مع المعلم ، أو الشيخ ليصحح ما قد يوجد عنه من أخطاء أثناء الكتابة ، أو الاستماع وقت التدوين ، حتى يكون ما يحفظه الطالب بعد المذاكرة صحيحاً منقحاً [٣] .

وكان الإمام أحمد حريصاً على مذاكرة أقرانه العلماء ، على ما بلغه من العلم . يقول الإمام أحمد : ((ما صليت غير الفرض ، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة (الرازي) على نوافلي)) [٤] .

---

(١) الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي ، (١/٢٥٢) .

(٢) انظر عنها : الخطيب البغدادي : الجامع في أخلاق الراوي ، (٢/٦٥ ـ ٧٢) . السمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ، (٢/٣٨٢ ـ ٤٤١) .

(٣) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ١٢١ ـ ١٢٣ .

(٤) العليمي : المنهج الأحمد ، (١/٢٢٤) .

٣ ـ الإجازة :

تعتبر الإجازة [١] طريقة من طرق نقل الحديث ، وتحمله . وهي تقليد تعليمي إسلامي عام ، ليس له علاقة بمؤسسة تعليمية معينة ، وإنما هي بين الشيخ والطالب [٢] .

ومن منافع الإجازة ، وأهميتها في حفظ العلم [٣] :

أ ـ أن الإجازة مُعنية على حفظ مصنفات العلماء الذين ماتوا ، وبقيت مصنفاتهم متسلسلة ، ومتصلة السماع على قديم الدهر ، ولا ينقطع منه شيء عندما يتم الوصول إلى روايته بالإجازة . وفي ذلك حفظ للتراث .

ب ـ أن هناك بعض طلاب العلم ممن لم تسمح ظروفهم بالذهاب إلى العلماء ، فتصبح الإجازة بذلك معينة على أخذ الطالب من العالم سواءً كان في مشرق الإسلام ، أو مغربه .

ويمنح الشيخ الإجازة لطالبها إما بالمشافهة ، أو بالكتابة [٤] . والأولى أقدم من الثانية [٥] . ومن الإجازات الشفوية ، أن رجلاً مصرياً ناول الإمام أحمد بن حنبل كتاباً ، وقال له : ((يا أبا عبد الله ، هذه أحاديثك أرويها عنك ؟ ، فنظر في الكتاب ، وقال له :

---

(١) الإجازة لغة : اعطاء الإذن ، وأجاز له : سوغ له . الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، ص ٦٥١ . ويقول ابن منظور : إذن وتسويغ . وعلى هذا نقول : أجزت له رواية كذا . أو : أذنت له وسوغت له . ابن منظور : لسان العرب ، (٤٣٦/٨) . وفي الإصطلاح : أن يأذن ثقة من الثقات لغيره ، رواية حديث ، أو كتاب . سواء كان ذلك الكتاب من تصنيفه ، أم كان يرويه عن شيوخه بالإسناد . ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ، ص ١٠٦ ، ١١٠ .

(٢) عبد الله فياض : الإجازات العلمية ، ص ٣٥ ـ ٣٦ . وهناك ثمانية طرق لنقل الحديث ، وتحمله . انظر : ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ، ص ٩٨ ـ ١١٧ .

(٣) الأصفهاني : الوجيز ، ص ٥٤ ـ ٥٥ ، ٥٧ .

(٤) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية ، ص ٣٦٣ ، ٣٧١ .

(٥) عبد الله فياض : الإجازات العلمية ، ص ٢١ .

إن كان عني فاروه)) [١] . كما أجاز أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبّاد النحوي (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م) كاتبه ، أبو أحمد عبد السلام البصري جميع مصنفاته [٢] .

وللإجازة أنواع ذكرها ، ووضّحها ابن الصلاح في مقدمته لعلوم الحديث ، مما ليس له مبرر إعادتها هنا [٣] .

ونظراً لقيمة الإجازة العلمية ، وأهميتها ، فلم تكن تعطى لكل من أرادها ، إذ لا تجوز ((إلا لماهر بالصناعة ، حاذق بها ، يعرف كيف يتناولها ، ويكون في شيء معين معروف ، لا يُشْكَل إسناده)) [٤] .

وعلى الرغم من أهمية الإجازة كوسيلة من وسائل حفظ الحديث ، إلا أنها في نظر أكثر علماء الحديث ، لا تقوم مقام الرحلة ، ومقابلة الشيوخ ، وبلوغ الإسناد العالي في رواية الحديث . فعندما سأل أبو حامد الإسفرائيني ، أبو الحسن محمد بن أحمد المعروف بابن سمعون (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م) يوماً : أن يجيز له شيئاً قد فاته . قال له ابن سمعون : ((يا أبا حامد : لو قنعنا بالإجازة ما سافرنا الأسفار البعيدة)) [٥] .

٤ ــ تصنيف الكتب التعليمية :

ومن الوسائل المعينة على العملية التعليمية ، تصنيف العلماء للكتب التعليمية لطلابهم حتى تكون معينةً لهم في حياتهم العلمية ، حتى بعد رحيل مشائخهم وأساتذتهم .

فكانت هناك حركة واسعة اختصت بتأليف الكتب التعليمية ، وظهور المختصرات ، والشروحات ، في شتّى العلوم والمعارف ، وكذلك المصنفات المترجمة ، والتي يحتاج قارئها إلى ما يعينه على فهمها ، واستذكارها .

---

(١) العليمي : المنهج الأحمد ، (٣٦٠/١) .

(٢) القفطي : إنباه الرواة ، (٢١٣/٣) .

(٣) ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ، ص ٧٣ ــ ٧٤ .

(٤) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، (١٨٠/٢) .

(٥) العليمي : المنهج الأحمد ، (١٢/٢) .

ولهذا نرى ، ونحن نقرأ في مصنفات العديد من العلماء ، أنه صنف الكتاب الفلاني على سبيل « السؤال والجواب » ، أو يذكر أنه للمتعلمين ، أو مسبوق بكلمة : شرح ، أو مختصر ، أو اختصار ، أو المدخل ، وهكذا [١] . وفي ذلك تبسيطاً من هؤلاء العلماء للعلم فيسهل تناول هذا العلم ، أو ذاك .

وقد انتشرت هذه النوعية من المصنفات في العلوم التطبيقية على وجه الخصوص ، نظراً لطبيعة هذه العلوم .

ونقرأ في المقدمة التي وضعها أبو بكر الرازي الطبيب لكتابه التعليمي الطبي الموسوم « بالمرشد أو الفصول » . إذ يقول ، مبرراً سبب تصنيفه لهذا الكتاب ، : ((دعاني ما وجدت عليه فصول أبقراط من الاختلاط ، وعدم النظام، والغموض ، والتقصير عن ذكر جوامع الصناعة كلها ، أو جلها . وما أعلمه من سهولة حفظ الفصول ، وعلقها بالنفوس ، إلى أن أذكر جوامع الصناعة الطبية ، وجُمَلها على طريق الفصول ـ وأتحرى في ذلك الإيضاح والتمثيل ، وترك الإغراق ، والوغول في الغوامض ، وما يقع فيه الخلاف ، ويحتاج إلى البحث ، والنظر ، ليكون مدخلاً إلى الصناعة ، وطريقاً للمتعلمين ، والله الموفق للصواب)) [٢] .

---

(١) وسيرد معنا اثناء الحديث عن النتاج العلمي لعلماء العراق في العلوم المختلفة في الباب الثاني ، العديد من النماذج لهذا الأسلوب التعليمي في التأليف .

(٢) أبو بكر الرارزي : المرشد أو الفصول ، ص ١٧ .

الباب الثاني

النتاج العلمي لعلماء العراق خلال عصر نفوذ الأتراك

الفصل الأول : العلوم الشرعية .

الفصل الثاني : العلوم اللغوية والأدبية .

الفصل الثالث : العلوم الاجتماعية .

الفصل الرابع : العلوم التطبيقية .

الفصل الأول

العلـــوم الشرعيـــة

المبحث الأول : علــوم القـــرآن .

المبحث الثاني : علــوم الحديــث .

المبحث الثالث : علم الفقه وأصوله .

المبحث الأول

علــوم القـــرآن

تعتبر « علوم القرآن » [١] من أهم ، وأقدم العلوم التـي اهـتم بهـا المسلمـون ، إن لم تكن أهمها على الإطلاق ، عبر عصور الحضارة الإسلامية . وتأتي هذه المكانة الجليلية لهذه العلوم ، لكونها تتعلق بدستور المسلمين ، ومصدر تشريع حياتهم . ونتيجة لهذا الاهتمام ، قامت على يد العلماء المسلمين دراسات محورها القرآن الكريم ، أطلق على هذه الدراسات اصطلاحاً : (علوم القرآن) .

ويرى بعض الباحثين [٢] ، أن هذا المصطلح لم يُعرف إلا في القـرن الخـامس الهـجري/الحـادي عشـر الميلادي ، كعلم جُمع في مصنف واحد ، وذلك على يد علي بن إبراهيم بن سعيد المعروف بالحوفي (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م) ، عندما وضع كتاب « البرهان في علوم القرآن » [٣] .

ويذكر الزرقاني ، مكتشف الكتاب [٤] ، أن الحوفي في منهج تأليفه لهذا الكتاب ، قد جمع مباحث علوم القرآن دون تبويب لها ، أو وَضعِها تحت عناوين محددة ، ولهذا فهو أشبه بالتفسير ، كما يري الحوفي نفسه .

إذاً ، لـم يكن مـصنَّف الحـوفي يتـحـدث عن مـبـاحث علوم القـرآن بشكل منظم ومفصل ، على ضوء المقصود بعلوم القرآن .

---

(١) علوم القرآن : هي كل علم يخدم القرآن الكريم ، أو يستند إليه . كعلوم التفسير ، والقراءات ، ورسم القرآن ، وإعجاز القرآن ، ومعاني القرآن ، وأسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، وإعراب القرآن ، وغريب القرآن ، والمكي والمدني ، ومشكل القرآن ، ونحو ذلك . محمد الزرقاني : مناهل العرفان ، (٢٣/١) .

(٢) المرجع السابق ، (٣٤/١ ـ ٣٥) . مناع القطان : مباحث في علوم القرآن ، ص ٩ ـ ١٠ .

(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ، (٢٤١/١) .

(٤) يذكر الزرقاني أنه عثر في دار الكتب المصرية على نسخة هذا الكتاب ، وهـي تقـع فـي : ثلاثين مجلداً ، ولم يوجد منها سوى خمسة عشر مجلداً ، غير مرتبة ، ولا متعاقبة . مناهل العرفان : (٣٥/١) .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن الحوفي لم يكن أول من صنف في (علوم القرآن) بإسمها الصريح على الأقل ، كما يذكر البعض . وإنما سبقه أحد علماء الفترة ، وهو : أبو عبد الله محمد بن خلف بن المَرْزُبان (ت ٣٠٩هـ/٩٢١م) ، الإخباري الأديب ، الذي صنَّف كتاباً يعالج الدراسات القرآنية بإسمها الصريح تحت عنوان : « الحاوي في علوم القرآن » [١] . وهو كتاب كبير ، يقع في سبعة وعشرون جزءاً [٢] . ولكن للأسف لم يعثر عليه .

ومن خلال التتبع لما أُلف في علوم القرآن كعلم قائم بذاته ، بتفريعاته وتقسيماته الواضحة ، نجد أن بدر الدين محمد بن بهادر الزَّرْكشي (ت ٧٩٤هـ/١٣٩١م) يُعد أول من وضع كتاباً وافياً في هذا المضمار ، ألا وهو كتاب « البرهان في علوم القرآن » [٣] .

ولقد شهدت فترة نفوذ الأتراك ، نشاطاً كبيراً في حقل الدراسات القرآنية ، والتي لم تكن قد جمعت بعد في إطار واحد تحت مسمى « علوم القرآن » ، وإنما كانت دراسات في المجالات التي تندرج تحت هذا المصطلح .

فقامت إلى جانب علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم التجويد ، دراسات أخري تتعلق بأحكام القرآن ، وفضائله ، وإعجازه ، ونظمه . وشارك علماء اللغة والنحو بعلمهم في ميدان الدراسات القرآنية ، وذلك عن طريق القيام بدراسات لغوية للنص القرآني . فظهرت المصنفات التي تحمل عناوين تتعلق بهذا الأمر : كغريب القرآن ، ومجاز القرآن ، ومُشْكل القرآن ، ومعاني القرآن ، ونحو ذلك [٤] .

وعلى يد أكثر علماء الحديث ، ظهرت بواكير علوم القرآن في تلك الفترة بإخراجهم لكتب التفسير ، باعتباره أُمُّ علوم القرآن ، لملازمته القرآن الكريم منذ نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث كان عليه الصلاة والسلام ، يوضِّح ، ويفسِّر لأصحابه ما عَسُرَ عليهم فهمه من الآيات المنزلة .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٢٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

(٣) مطبوع بتحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .

(٤) أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ص ١٧٤ .

فمنذ النصف الأول من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، ظهرت كتب التفسير على يد هؤلاء العلماء من أصحاب الحديث ، إلى جانب مؤلفاتهم في علم الحديث [١]، أغلبها من الصنف الذي يلتزم بالموروث ، والذي رُسِّخت أسسه وآدابه في هذا القرن [٢] . ومن أشهر من صنف في التفسير تحت مسمى « كتاب التفسير » : أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م) [٣] ، وأبو الحسن عثمان بن محمد بن أبي شيبة (ت ٢٣٧هـ/٨٥١م) [٤] . وأبو حذيفة موسى بن مسعود البصري المعروف بالنهدي (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) ، وقد أفاد من تفسيره كلاً من : الطبري في تاريخه وتفسيره ، والثعلبي في كتابه « الكشف والبيان » [٥] . وممن وضع كتاباً في التفسير أيضاً ، الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م) [٦] ، ومحدِّث الكوفة ، أبو سعيد عبد الله بن سعيد الكندي (ت ٢٥٧هـ/٨٧١م) [٧] ، وأبو حنيفة أحمد بن داود الدِّيْنَوَري (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) [٨] . وكذلك المحدِّث أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشْعث السجستاني (ت ٣١٦هـ/٩٢٨م) [٩] .

ومن أبرز المفسِّرين الذين شاركوا في تفسير القرآن بمصنفاتهم : أبو بكر محمد ابن الحسن المقريء المعروف بالنَّقَّاش (ت ٣٥١هـ/٩٦٢م) ، الذي كان أحد الأعلام بالقرآن وتفسيره ، وممن عُني بالقرءات من صغره ، وكانت مشاركته في علم التفسير من خلال تفسيره الموسوم بـ « شفاء الصدور » [١٠] ، وقد أتى فيه بالعجائب والموضوعات [١١] .

---

(١) فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١/١/٨٣ ـ ٨٤) .

(٢) أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ١٦٠ .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٣٧٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٨ .

(٥) البغدادي : هدية العارفين ، (٢/٤٧٧) . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١/١/٩٥) .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ٣٧٨ .

(٧) حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١/٤٤٢) .

(٨) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١/٣٢) .

(٩) النديم : الفهرست ، ص ٣٨٣ .

(١٠) ابن الصلاح : طبقات الفقهاء الشافعية ، (١/١٤٠) . وللكتاب نسخ مخطوطة في أماكن متعددة من مكتبات العالم . انظر في ذلك : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١/١/١٠٤) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٤/١٧) .

(١١) الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (١/٢٩٥) .

ويظل **أبو جعفر محمد بن جرير الطبري** (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) أبرز ، وأشهر مُفسِّر في ذلك الوقت . وتأتي هذه الأفضلية للطبري بفضل مصنَّفه في التفسير « جامع البيان في تفسير القرآن » [١] ، وما أحدثه هذا الكتاب من تأثير في الدراسات المتعلقة بتفسير القرآن الكريم ، وذلك بفضل المنهج الذي سار عليه في تصنيفه لهذا الكتاب الضخم . فعندما عزم أبو جعفر على إملاء هذا الكتاب قال لأصحابه :((أتنشطون لتفسير القرآن. قالوا : كم يكون قدره ؟ ، فقال : ثلاثون ألف ورقة . فقالوا : هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه ، فاختصره في نحو ثلاثة الاف ورقة)) [٢] . وقال القفطي عن هذا الكتاب : ((لم يُرَ أكبر منه ، ولا أكثر فوائد)) [٣]. ووصفه الخطيب البغدادي بأنه :((لم يصنف أحد مثله)) [٤] . وثمَّن أبو حامد أحمد بن أبي طاهر الإسفرائيني الفقيه هذا الكتاب ، بقوله : ((لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً)) [٥].

ويُعلل السيوطي تميّز تفسير الطبري عن غيره من التفاسير ، لأنه ((جمع فيه بين الرواية والدراية ، ولم يشاركه في ذلك أحد ، لا قبله ولا بعده)) [٦] .

والسبب في قبول تفسير الطبري بكل هذه الحفاوة ، أن هذا التفسير قد انطوى على صفات ، وخصائص جعلته حقيقاً أن ينزل هذه المنزلة بين التفاسير الأخرى ، والتي يمكن أن نُجملِها فيما يلي :

١ ـ طبيعة المنهج الذي ارتضاه الطبري لتفسيره ، والخاص بقبول الروايات الخاصة بالتفسير . فهو منهج يعتمد على تفسير القرآن بالقرآن ، وعلى تفسيرالآيات بالأحاديث ، مع حرص شديد على إيراد الأسانيد ، وطرق الرواية مهما اختلفت ، وعلى ما روي عن

---

(١) مطبوع بتحقيق : محمود شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٦٣/٢) .

(٣) القفطي : إنباه الرواة ، (٨٩/٣) . والجدير بالذكر ، أن القفطي قد جمع أخبار الطبري في كتاب سماه : « التحرير في أخبار محمد بن جرير » . (المصدر نفسه) .

(٤) تاريخ بغداد ، (١٦٣/٢) .

(٥) المصدر السابق ، (١٦٣/٢) .

(٦) السيوطي : طبقات المفسرين ، ص ٨٢ .

الصحابة ، والتابعين من الأقوال ، مع المفاضلة بين هذه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض [١] . أي أن عماد قبوله لما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم ونُقل عن الصحابة ، والتابعين ، يقوم على مبدأ الترجيح بين الروايات عند القبول ، وليس مجرد الأخذ فقط ، وفي هذا العمل مشقة تجعل الطبري يتجاوز عمله كمفسر .

٢ ـ إن الغالب على التفاسير التي سبقت تفسير الطبري لم تكن تلتزم بمبدأ الترجيح ، الذي ذكر آنفاً ، أو الموازنة بين الروايات عند الأخذ بالمأثور . أما الطبري فقد استعان بثقافته ، وتحصيله العالي للعلوم العربية والشرعية [٢] ، ووظَّفها أثناء تصنيفه لهذا السفر ، كأدوات استعان بها في ترجيح الروايات ، والموازنة بينها . فهو يستخدم أساليب ومُرجِّحات متنوعة . كإجماع المفسرين ، وطرائق العرب ، وأساليبهم في الكلام ، والحقائق الدينية الثابتة بالدليل القاطع .

فالطبري حينما يقوم بذلك على أُسس من دلالات آيات القرآن الكريم في السياق ، أو في المواضع الأخرى من القرآن ، فإنه يتخذ من القرآن وسيلة لتفسير القرآن ، وفي ذلك الأمر ، ولا شك ، إنتعاش للمدرسة القرآنية في التفسير [٣] .

٣ ـ إن استخدام الطبري لمنهج الترجيح ، والموازنة بين الروايات عند القبول والرد ، جعل من أساليب الترجيح عنده ، وهو ما استخدمه بشكل كبير ، الاستعانة بعلوم اللغة العربية في ذلك ، وخاصة عندما يريد ترجيح المعاني ، وتقليبها لِفَهم الروايات ، فيستعين باللغة ، والنحو ، والصرف ، والأدب لعرضها عليها في محاولة للفهم .

والطبري قد انتهى من تأليفه لهذا الكتاب سنة (٢٧٠هـ/٨٨٣م) ، أي في زمن ثعلب والمبرد : ولهذا ، فإن للمسائل الخلافية التي ينقلها في كتابه عن البصريين ، والكوفيين ، قيمتها الكبرى في تصوُّر المذاهب النحوية وتاريخها . فهو يُكثر من القواعد النحوية ، والأحكام ، وخلافات المذاهب النحوية . ولهذا ((عُدَّ تفسير الطبري أحد المصادر المعتمدة في دراسة تاريخ النحو)) [٤] .

---

(١) عمر الأسعد : الطبري المفسر ، مجلة الدارة ، ع٣ ، ١٤١١هـ ، ص ١٧٣ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٨/٤٥) .

(٣) كاصد الزيدي : تفسير القرآن بالقرآن ، مجلة آداب الرافدين ، ع١٢ ، ١٩٨٠م ، ص ٣٠٦ .

(٤) أحمد العمر : من مصادر الدراسات النحوية ، مجلة آداب الرافدين ، ع١٢ ، ١٩٨٠م ، ص ٢٠ ـ ٢١ .

٤ ـ إن كتاب الطبري هذا ، وإن كان خاصاً بتفسير القرآن ، فهو يشتمل على كثيرٍ من العلوم ، ومنها علوم العربية من لغة ، ونحوه ، وصرف . كما أن الطبري تفرَّد عن غيره من المفسِّرين بأنه كان يُورِد الآية فيذكر ما فيها من تفسير ، فإذا اقتضى الأمر نَبَّه على ما فيها من إعراب ، واختلاف ، استقرأ آراء النحويين ، بصريين وكوفيين ، وعِلَلِهم ، ثم صوَّب ، ورجَّح ، مع ميله للكوفيين . ولذا، فهو سِجل مهم لآرائهم ، ومصدراً لكثير من المسائل الخلافية [١] ، لأنه تقدَّم زمناً على غيره ، إضافة إلى أن كتب الخلاف التي ألفّها العلماء في زمانه ، لم يصل إلينا منها شيء ، مما يجعل لهذا الكتاب قيمة كبيرة في دراسة تاريخ تلك الخلافات ، كما يكشف عن كثير من الأُسس التي بُني عليها المذهب الكوفي [٢] .

علم القراءات :

وعلم القراءات [٣] ، أحد العلوم المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتفسير ، ذلك أن علم القراءات أحد العلوم التي يستند إليها علم التفسيرفي فَهم كتاب الله (عزَّ وجل) ، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه ، وحِكمه [٤] .

وكان مبدأ « الاختيار » الذي أدخله أبو عبيد القاسم بن سلاَّم (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م) ، ومعاصره أبو حاتم السجستاني (ت ٢٤٨هـ/٨٦٢م) في القراءات ، لا يكون على عدد القراءات المحلية المختلفة ، وعدد القُرَّاء فقط . وإنما يتم بصفة أكثر ، بناءً على قيمة هذه القراءات ، ومكانة قُرَّائها .

---

(١) أورد الطبري منها ما يزيد على (مائتي مسألة) . المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٢) أحمد العمر : الطبري النحوي ، مجلة آداب الرافدين ، ع٩ ، ١٩٧٨م ، ص ٢٣٨ .

(٣) علم القراءات : هو علم يُبحث فيه عن صور نَظْم كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلافات المتواترة ، وله ارتباط باللغة العربية . والغرض منه : تحصيل مَلَكة ضبط الاختلافات المتواترة . وفائدته : صون كلام الله تعالى من أن يتطرق إليه التحريف ، والتغيير . ومعرفة ما يَقرأ به كل من أئمة القراءة . الأنصاري : اللؤلؤ النظيم ، الورقة : (٢ أ) . حاجي خليفة : كشف الظنون ، (٢/١٣١٧) .

(٤) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، (١/١٣) .

ولكن تطبيق هذا المبدأ ، ومحاولة الجمع بين قراءات مختلفة ، قد أوقفهما في أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، نزعة إلى إيجاد مرجعية للمسلمين في القراءات دون العبث ، والاضطراب في قراءة كِتاب الله (عزَّ وجل) . فجاء أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ/٩٣٥م) ، وأوجد هذه المرجعية الشرعية في القراءات ، بأن جمع الأمة على سبعة قُرَّاء [١] ، أثبتهم في كتاب واحد بعنوان : « كتاب السَّبعة » [٢] .

وعبارة « القراءات السبع » لم تكن قد عُرفت في الأمصار الإسلامية . حيث بدأ العلماء يؤلفون في القراءات . وذكر السابقون منهم ، كابن سلاَّم ، والطبري ، وأبو حاتم السجستاني ، في مصنفاتهم أضعاف تلك القراءات ، وإنما بدأت هذه العبارة تَشتهر على رأس المائتين الهجرية ، باقبال الناس في الأمصار الإسلامية على قرءاة بعض الأئمة دون بعض [٣] .

وعلى رأس الثلثمائة الهجرية ، قام ابن مجاهد بجمع سبع قراءات لسبعة من أئمة الحرمين ، والعراقين [٤] ، والشام ، اشتهروا بالثقة ، والأمانة ، والضّبط ، وملازمة القراءة ، مع وجود المئات من القرّاء الثقات غير الذين اختارهم ابن مجاهد [٥] .

ومما يجب ملاحظته ، أن هذه القراءات السبع التي جمعها ابن مجاهد ، لا تمثل الأحرف السبعة التي وردت في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : ((إن هذا القرآن أنزل على سَبعة أَحْرُف)) [٦] . وإنما هي محض مصادفة ليس إلا .

---

(١) هم : ١ـ أبو عمرو بن العلاء البصري (ت ١٥٤هـ) ، ٢ـ عبد الله بن كثير المكي (ت ١٢٠هـ) ، ٣ـ نافع الليثي المدني (ت ١٦٩هـ) ، ٤ـ عبد الله بن عامر الدمشقي (ت ١١٨هـ) ، ٥ـ عاصم بن أبي النجود الكوفي (ت ١٢٨هـ) ، ٦ـ حمزة بن حبيب الكوفي (ت ١٥٦هـ) ، ٧ـ علي بن حمزة الكسائي الكوفي (ت ١٨٩هـ) . ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ . وقد ترجم ابن قتيبة لكل واحد منهم ترجمة قصيرة .

(٢) فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٢٩/١/١ ـ ٣٠) . وكتاب « السبعة » مطبوع بتحقيق : شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

(٣) صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ، ص ٢٤٧ .

(٤) العراقين : هما الكوفة ، والبصرة .

(٥) صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ، ص ٢٤٩ .

(٦) البخاري : الجامع الصحيح ، (٨٥١/٢ ـ ٨٥٢) ، برقم (٢٢٨٧) . مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي ، (٥٦٠/١) ، برقم (٨١٨) .

وتناول شيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه الله تعالى ، هذه المسألة فأجاب عليها **بقوله:** **((لا نزاع بين العلماء المعتبرين أن « الأحرف السبعة » التي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن القرآن أُنزل عليها ليست هي « قراءات القرّاء السبعة المشهورة » ، بل أول من جمع قراءات هؤلاء ، هو الإمام أبو بكر بن مجاهد ، وكان على رأس المائة الثالثة ببغداد ، فإنه أحب أن يَجمع المشهور من قراءات الحرمين ، والعراقين ، والشام ، إذ هذه الأمصار الخمسة ، هي التي خرج منها عِلم النبوة من القرآن ، وتفسيره ، والحديث ، والفقه ... لا لإعتقاده ، واعتقاد غيره من العلماء أن القراءات السبعة هي الحروف السبعة ، أو أن هؤلاء السبعة هم الذين لا يجوز أن يُقرأ بغير قراءتهم))** (١) .

ولقد برز خلال تلك الفترة العديد من العلماء ، الذين أسهموا في هذا العلم ، كأحد القرّاء المشهورين ، أو بما وضعوه من مصنفات في هذا العلم .

ومن أبرز هؤلاء القرّاء ، **أبو عمر حفص بن عمر الدوري المقرىء** (ت ٢٤٦هـ/٨٦٠م) ، نزيل سُرَّمَنْ رأى ، وإمام القرّاء ، وشيخ العراق في زمانه . ثقة ، ثبت ، ضابط ، وأول من جمع القراءات (٢) . ورحل الدُّوري في طلب القراءات ، وقرأ بسائر الحروف السبعة ، وبالشَّواذ (٣) ، وسمع من ذلك شيئاً كثيراً ، وقد قرأ على جماعة من أكابر العلماء ، منهم : إسماعيل بن جعفر المدني ، وشجاع بن أبي نصر الخراساني ، وعلي بن حمزة الكسائي الكوفي ، ومال إلى الأخير من بينهم ، فكان يُقرىء بقراءته ، واشتهر بها (٤) .

---

(١) ابن تيمية : الفتاوى ، (١٣/٣٩٠) .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٠/٢١٧) . ابن الجزري : غاية النهاية ، (١/٢٥٥) .

(٣) يقصد بالقراءات الشاذة : القراءات التي تأتي بعد قراءات السبعة في عدد من يقرأون بها في الأمصار . وهي قراءات متواترة ، أصحابها ثقات . ولكنها تأتي بعد مرتبة قراءات السبعة . ابن مجاهد : السبعة ، ص ٢٠ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٨/٢٠٣) . الصفدي : نكت الهميان ، ص ١٤٦ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، (٢/٣٢٣) .

واشتهر الدُّوري على وقته ، حتى أصبح مقصد الآفاق ، وازدحم عليه الحُذَّاق لعلو سنده ، وسعة علمه ، وقد قرأ عليه العشرات من القرّاء ، منهم : أحمد بن يزيد الحلواني ، وأبو الزعراء عبد الرحمن بن عبدوس ، وعمر بن محمد الكاغدي ، والقاسم بن زكريا المطرز ، والحسن بن عبد الوهاب الورّاق ، وغيرهم (١) .

ولم تكن مساهمة الدوري في القراءات بالإقراء فقط ، بل تجاوزها إلى التصنيف فيها ، ومن مصنفاته في ذلك : كتاب « ما اتفقت ألفاظه ومعانيه من القرآن » ، كتاب « أجزاء القرآن » (٢) ، كتاب « قراءات النبي صلى الله عليه وسلم » (٣) .

ومن القراء أيضاً ، **أبو هشام محمد بن يزيد الرفاعي الكوفي** (ت ٢٤٨هـ/٨٦٢م) ، وُلِّيَ القضاء ببغداد ، وكان عالماً بالأحكام ، وحافظاً للقراءات . روى عنه جماعة فيهم : محمد بن إسماعيل البخاري ، ومسلم بن الحجاج ، وأبو بكر بن أبي خيثمة ، وأحمد بن علي الأبار ، وغيرهم (٤) . وسمع أبو هشام القراءات من : حسين الجعفي ، ويحيى بن آدم ، وأبي يوسف الأعشى ، وعلي بن حمزة الكسائي . وضبط حروفاً ، أو قراءات عن أبي بكر بن عياش ، وسمع عليه خَتْمة بقراءة أبي يوسف الأعشى (٥) . وروى عنه القراءة : موسى بن إسحاق القاضي ، وعلي بن الحسن القطيعي ، وأحمد بن سعيد المروزي ، والقاسم بن داود ، وعثمان بن خرزاد ، وغيرهم (٦) .

ولأبي هشام من المصنفات : كتاب « في القراءات » (٧) .

---

(١) الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (١/١٩١ ـ ١٩٢) . ابن حجر : تهذيب التهذيب ، (٢/٤٠٨) . الداوودي : طبقات المفسرين ، (١/١٦٥ ـ ١٦٦) .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٠/٢١٧) .

(٣) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٢٤٨ حديث) . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١/١/٤١) .

(٤) الخطيب : تاريخ بغداد ، (٣/٣٧٥) . الذهبي : العبر ، (١/٣٥٧) .

(٥) الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (١/٢٢٥) . الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٤/٢١٦) .

(٦) ابن الأثير : اللباب ، (٢/٣٢) . الجزري : غاية النهاية ، (٢/٢٨٠ ـ ٢٨١) .

(٧) البغدادي : هدية العارفين ، (٢/١٥) .

وكان **أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني** (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) ، أحد أئمة القراءات ، ومُقرِيء البصرة في زمانه . ومن أوائل من صنَّف في القراءات .

قرأ على : يعقوب الحضرمي ، وسلام الطويل ، وأيوب بن المتوكل . وروى الحروف عن : إسماعيل بن أبي أويس ، والأصمعي ، ومحمد بن يحيى القطعي ، وسعيد بن أوس . وكانت لأبي حاتم قراءة خاصة به قد اختارها [١] .

ولقد تميّز أبو حاتم بقوة الحفظ ، والتمكُّن في القراءة ، فيذكر الحسين بن تميم البزار : ((أن أبا حاتم صلّى بالبصرة ستين سنة بالتراويح ، وغيرها ، فما أخطأ يوماً ، ولا لحن يوماً ، ولا أسقط حرفاً ، ولا وقف إلا على حرفٍ تام)) [٢] .

ولأبي حاتم مصنفات في القراءات ، منها : كتاب « اختلاف المصاحف » ، كتاب « القراءات » [٣] ، وهذا الكتاب الأخير أحد الكتب الأربعة التي كان يفاخر بها أهل البصرة بقية مدن العراق [٤] .

ومن أشهر القرّاء أيضاً ، **أبو بكر شعيب بن أيوب الصريفيني** (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م) ، أحد القرّاء الضابطين ، الموثوق بعلمهم . أخذ القراءة عرضاً ، وسماعاً عن : يحيى بن آدم ، وحماد بن أسامة ، ومعاوية بن هشام ، وغيرهم . وقرأ عليه جماعة ، فيهم : يوسف بن يعقوب القاضي الواسطي ، وأحمد بن يوسف القافلاني ، وأحمد بن سعيد الضرير ، ومحمد بن عمرو بن عون . وسمع منه الحروف : إبراهيم بن عرفة المعروف بنفطويه .

---

(١) الجزري : غاية النهاية ، (٣٢٠/١) .

(٢) المصدر السابق ، (٣٢٠/١) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٩٢ .

(٤) اليماني : إشارة التعيين ، ص ١٣٧ . والكتب الثلاثة الأخرى ، هي : كتاب « العين » للخليل بن أحمد ، وكتاب سيبويه ، وكتاب « الحيوان » للجاحظ . (المصدر نفسه) .

إضافة إلى ذلك ، كان أبو بكر رأساً في قراءة عاصم [١] . ووثّقه الدارقطني ، وغيره ، وتوقّف في قبول روايته أبو داود السجستاني [٢] .

ومن القرّاء الذين ظهروا في تلك الفترة ، **أبو بكر محمد بن حماد المقرىء** (ت ٢٦٧هـ/٨٨٠م) ، وكان أحد القرّاء المجوِّدين ، وصحب الإمام أحمد ، وسليمان بن حرب ، وخلف بن هشام ، وغيرهم . ووصفه أبو بكر الخَلاّلُ : بأنه ((عالماً بالقرآن وأسبابه)) [٣] ، كما وصفه أبو الحسين بن المنادي : بأنه كان ((أحد القرّاء الصالحين ، الذين لَزِموا الإستقامة على الخير ، وضَبَط الحروف أيضاً)) [٤] .

كما برز في القراءة ، **أبو جعفر أحمد بن علي الخزاز البغدادي** (ت ٢٨٦هـ/٨٩٩م)، من القرّاء الماهرين ، الثقات . سمع حروف القرآن من : محمد بن يحيى القطعي ، وأبو هشام الرفاعي . وعرض على : محمد بن عمر القصبي . وأخذ القراءة عنه : ابن مجاهد ، وابن شنبوذ ، وعلي بن الحسين الرقي ، وأحمد بن عجلان ، ومحمد بن يعقوب المعدل ، وغيرهم [٥] . ووثقه الخطيب البغدادي ، والدارقطني [٦] .

ومن علماء القراءات الذين برزوا في ذلك الوقت أيضاً ، **أبو محمد القاسم بن أحمد الخياط الكوفي المقرىء** (ت ٢٩١هـ/٩٠٤م)، وكان راوية لحروف القرآن السبعة ، وأحد الحذّاق بها . قرأ على محمد بن حبيب . واقرأ الناس دهراً ، وقرأ عليه : الحسن بن داود النقار ، وسعيد بن أحمد الإسكافي ، وأبو الحسن بن شنبوذ ، وأبو بكر النقاش ،

---

(١) هو : عاصم بن أبي النجود الكوفي ، أحد التابعين ، توفي سنة (١٢٨هـ/٧٤٥م) . وهو أحد القرّاء السبعة . الداني : التيسير في القراءات السبع ، ص ١٩ .

(٢) ابن أبي حاتم : الجرح والتعديل ، (٣٤٢/٤) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٤٤/٩ ـ ٢٤٥) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٢٨/٥) . الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ، ص ١٦٦ .

(٣) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٢٩١/١ ـ ٢٩٢) .

(٤) العليمي : المنهج الأحمد ، (٢٦٤/١ ـ ٢٦٥) .

(٥) الجزري : غاية النهاية ، (٨٦/١ ـ ٨٧) .

(٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٠٣/٤) .

وغيرهم [١] . وقال النّقّار : ((قرأت عليه أربعين ختمة ، وسمعت إجماع الناس على تفضيل القاسم في قراءة عاصم)) [٢] .

ومن مشاهير القرّاء كذلك ، **أبو الحسن إدريس بن عبد الكريم الحداد المقرئ** (ت ٢٩٢هـ/٩٠٥م) . أحد الثقات . سمع خلف بن هشام، وعاصم بن علي ، وداود بن عمرو الضبي ، ومصعب بن عبد الله الزبيري ، وأحمد بن سلمان النجاد ، وإسماعيل بن علي الخطبي، ومحمد بن الحسن المقرئ ، وغيرهم . واقرأ الناس . ورحل إليه من البلاد ، لإتقانه وعلوِّ إسناده. وسُئل عنه الدارقطني فقال : « ثقة ، وفوق الثقة بدرجة » . وكتب الناس عنه لثقته ، وصلاحه[٣]. وقد روى القراءة عنه سماعاً :ابن مجاهد ، وعرضاً: محمد بن أحمد بن شنبوذ ، وموسى بن عبيد الله الخاقاني ، ومحمد بن إسحاق البخاري ، وأبو بكر النقاش ، والحسن بن سعيد المطوعي ، وعلي بن الحسين الرقي ، وجماعة آخرون [٤] .

كما برز من القرّاء في العراق في تلك الفترة ، **أبو بكر القاسم بن زكريا البغدادي المعروف بالمطرز** (ت ٣٠٥هـ/٩١٧م) . وكان ثقةً ، حافظاً ، ثبتاً . من أهل الحديث المكثرين في تصنيف المسند ، والأبواب ، والرجال [٥]. وقد أثنى عليه الدارقطني . وقرأ أبو بكر على : أبي عمر الدوري ، وأبي حمدون . وسمع من : سويد بن سعيد ، ومحمد بن الصباح الجرجرائي ، وعباد بن يعقوب الأسدي ، وطبقتهم . وقرأ عليه : أحمد ابن عبد الرحمن بن الفضل ، وعلي بن الحسين الغضائري . وأخذ عنه الحروف :ابن مجاهد، وابن أبي هاشم . وقد برع أبو بكر في الأداء ، والمعرفة [٦] .

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٤٣٨/١٢) . الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (٢٥١/١) .

(٢) الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (٢٥٢/١) .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٤/٧ ـ ١٥) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٥٢/٦) . اليافعي : مرآة الجنان ، (٢٢٠/٢) .

(٤) الجزري : غاية النهاية ، (١٥٤/١) . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، (١٥٧/٣) . ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب (٢١٠/٢) .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم ، (١٤٦/٦) . السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٣١١ ـ ٣١٢ .

(٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٤٤١/١٢) . ابن حجر : تهذيب التهذيب ، (٣١٤/٨ ـ ٣١٥) . الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ، ص ٣١٢ .

ولعل أبرز قرّاء العراق في وقته ، وأشهرهم بعد ابن مجاهد ، **أبو جعفر محمد بن جرير الطبري** (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) ، أبرز المفسِّرين في وقته ، وكما كان للطبري بصمة واضحة ، ومهمة في علم التفسير ، فقد امتد هذا الأثر الى علم القراءات أيضاً .

فقد كان الطبري ((حافظاً لكتاب الله ، عارفاً بالقراءات ، بصيراً بالمعاني ، فقيهاً في أحكام القرآن ، عالماً بالسنن وطرقها ، وصحيحها وسقيمها ، وناسخها ومنسوخها)) [١] . وقد قرأ الطبري القرآن على : سليمان بن عبد الرحمن الطلحي . وسمع قراءة نافع بن يونس ، أحد القرَّاء السبعة . في حين أخذ القراءة عنه : ابن مجاهد ، ومحمد بن أحمد الداجواني ، وأبو طاهر بن أبي هاشم ، وغيرهم [٢] .

ولقد تميَّز الطبري بإجادة القراءة ، وجمال الصوت في الأداء ، حتى أصبح مقصد الناس للصلاة خلفه ، يسمعون قراءته ، وتجويده [٣] . وامتد الإعجاب بقراءة الطبري إلى كبار القرّاء ، كابن مجاهد ، إلى درجة أنه كان يذهب إلى مسجد ابن جرير بسوق العَطَش [٤] في بغداد ، ليستمع إلى قراءته في صلاة التراويح ، وعندما وقف بباب المسجد أطال في استماعه لابن جرير وهو يقرأ سورة الرحمن ، ثم انصرف . فقال له أبو علي الطُّوماري ، وكان يحمل القِنْديل لابن مجاهد : ((يا أستاذ : تركت الناس ينتظرونك ، وجئت تسمع قراءة هذا ؟ ، فقال له ابن مجاهد : يا أبا علي دَعْ هذا عنك ، ما ظننت أن الله تعالى خلق بشراً يحسن يقرأ هذه القراءة)) [٥] .

ولقد كان للطبري دور في إثراء الدراسات القرآنية بشكل عام ، وعلم القراءات على وجه الخصوص ، وذلك بتصنيفه عدة مصنفات في هذا العلم ، منها : كتاب

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٦٣/٢) . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (١٣٥/٨) . ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، (٢٤٩/١) .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ، (١٧٠/٦ ، ١٧١) . الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٢٨٤/٢ ـ ٢٨٧) .

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٦٦/١٨) .

(٤) سوق العطش : أحد محلات بغداد الكبيرة بالجانب الشرقي ، بين الرصافة ونهر المُعلَّى ، على القناة المتفرعة من نهر موسى . وقد بنى هذا السوق : سعيد الحرشي ، صاحب شرطة بغداد في عهد الخليفة المهدي . سهراب : عجائب الأقاليم السبعة ، ص ١٣٠ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٢٨٤/٣) .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٦٤/٢) .

« القراءات » [١] ، كتاب « الفصل بين القراءة » ، وقد ذكر فيه اختلاف القرّاء في حروف القرآن ، وفصَّل فيه أسماء القرّاء بالمدينة ، ومكة ، والكوفة ، والبصرة ، والشام ، وغيرها . وفيه من الفَصْلِ بين كل قِراءة ، فيذكر وجهَها ، وتأويلها ، والدلالة على ما ذهب إليه كُلُّ قارئٍ لها ، واختياره الصواب منها ، والبرهان على صحة ما اختاره ، مستظهراً في ذلك بِقوَّتهِ على التفسير ، والإعراب [٢] .

وهذا ، **أبو بكر يوسف بن يعقوب الواسطي المعروف بالأصم** (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م) ، إمام جامع واسط ، ومُقرئها ، ومن انتهى إليه عُلو رواية عاصم . ورحل القرّاء من الأمصار للأخذ عنه . وقرأ القرآن على جماعة ، منهم : يحيى بن محمد العليمي ، وحماد بن شعيب عن عاصم ، وشعيب بن أيوب الصريفيني . وسمع من محمد بن خالد الطحان ، وغيره . وقرأ عليه : علي بن محمد القلانسي ، ويوسف بن محمد الضرير ، وعثمان بن أحمد المجاشي ، وأبو بكر النقاش ، وإبراهيم بن عبد الرحمن البغدادي ، وآخرون [٣] .

ويعد **أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد البغدادي المقرئ** (ت ٣٢٤هـ/٩٣٦م) ، إمام القرّاء في زمانه ، والمُقدَّم في علوم القرآن ، ومعارفه [٤] ، حتى قال أبو العباس ثعلب في حَقه : ((ما بقي في عصرنا أحد أعلم بكتاب الله منه)) [٥] .

وكان لظهور ابن مجاهد الأثر الكبير في تحديد كيان القراءات بعد أن جمع القراءات السبع ، وأعلنها قراءات صحيحة ، فأصبحت الروايات التي كانت مستخدمة قبل أن يجمع الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله) عنه الناس على مصحف واحد ، كرواية عبد الله بن مسعود ، وأبيٍّ بن كعب ، وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه أجمعين) ، ممنوع القراءة

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٣٨٦ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٦٦/١٨) .

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات سنة ٣١١ ـ ٣٢٠هـ) ، ص ٤٧١ . الجزري : غاية النهاية ، (٤٠٤/٢ ـ ٤٠٥) .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ، (٢٨٢/٦) . اليافعي : مرآة الجنان ، (٢٨٨/٢) .

(٥) الأسنوي : طبقات الشافعية ، (٢٠٩/٢) .

بها، بل ويُحاكم من يَقرأ بها ، ويُعاقب ، كما حدث لابن شَنَبوذ كما سنرى ، أو التحريف في قراءة النَّص العثماني للقرآن الكريم ، كما حدث لابن مقسم العطار [١] .

وكان للدعم السياسي الذي يلقاه ابن مجاهد من قِبل الوزير علي بن عيسى ، ومن ابن مقلة من بعده ، إضافة إلى رسوخه في هذا العلم ، أثر في قوة نفوذه ، والسيطرة على نظام القراءات الذي أحدثه [٢] . وقرأ ابن مجاهد القرآن على طائفة ، منها : عبد الرحمن بن عبدوس ، وقنبل المكي ، وعبد الله بن كثير المؤدب . وروى الحروف سماعاً عن : إسحاق بن أحمد الخزاعي ، ومحمد بن عبد الرحيم الأصفهاني ، ومحمد بن يحيى الكسائي الصغير ، وأبو العباس ثعلب ، وموسى بن إسحاق الأنصاري ، ومحمد بن فرج الغساني ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل ، وعبد الله بن أبي داود السجستاني ، ومحمد بن حمدون ، وأحمد بن علي الخزاز ، وخلق سواهم [٣] .

وقرأ على ابن مجاهد ، وروى عنه الحروف مالا يحصى عددهم ، ومنهم : إبراهيم ابن أحمد الخطاب ، وأحمد بن محمد الشارب ، والحسين بن خالويه النحوي ، والحسين بن عثمان المجاهدي ، وزاهر بن أحمد السرخسي ، وعبد الله بن اليسع الأنطاكي ، وعلي بن سعيد القزاز [٤] ، وغيرهم . فقد كان ابن مجاهد مقصد القرّاء ، حتى قال الجزري : ((ولا أعلم أحداً من شيوخ القراءات أكثر تلاميذاً منه ، ولا بلغنا ازدحام الطلبة على أحد كازدحامهم عليه)) [٥] .

وعلى الرغم من المكانة الكبيرة التي وصل إليها ابن مجاهد ، إلا أنه كان متواضعاً للعلم ، مخلصاً له ، فلم يكن هدفه من حصر القراءات في سبعة تحقيق أغراض شخصية ،

---

(١) فقد حوكم محمد بن مقسم العطار (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م) ، بأن يرجع عمّا كان يفعله ، وذلك سنة (٣٢٢هـ/٩٣٤م) . وكان ابن مقسم يُعلِّم قراءة النص العثماني للقرآن طبقاً لقواعد نحوية يختارها كما يريد . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٢٩٦/٨) .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٣/٤ ـ ٤) .

(٣) الجزري : غاية النهاية ، (١٣٩/١ ـ ١٤٠) .

(٤) الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (٢٧٠/١) .

(٥) الجزري : غاية النهاية ، (١٤٢/١) .

أو مكاسب أخرى في موقفه من علماء القراءات . ومما يدل على صدق الهدف ، ونُبْله عند ابن مجاهد نراه في جوابه على سؤال ألقاه عليه أحد أصحابه فحواه : ((لم لا يختار الشيخ لنفسه حرفاً (قراءة) يُحمل عنه ؟ ، فأجابه ابن مجاهد قائلاً : نحن أحوج إلى أن نُعمل أنفسنا في حفظ ما مضى عليه أئمتنا ، أَحوج منَّا إلى اختيار حرفٍ يُقرأ به من بعدنا)) [١] .

ولقد كان لابن مجاهد الإسهام الأكبر بين علماء القراءات ، في تلك الفترة ، في تصنيف الكتب المتعلقة بعلم القراءات . فمن مصنفاته : كتاب « القراءات الكبير » وهو في القراءات الشاذة ، كتاب « القراءات الصغير » ، كتاب « الياءات » ، وكتاب « قراءة أبي عمرو » ، كتاب « قراءة ابن كثير » ، كتاب « قراءة عاصم » ، كتاب « قراءة نافع » ، كتاب « قراءة حمزة » ، كتاب « قراءة الكسائي » ، كتاب « قراءة ابن عامر » ، كتاب « قراءة النبي عليه السلام » [٢] ، كتاب « السبعة » ، كتاب « الهاءات » ، كتاب « انفردات القراء السبعة » ، كتاب « قراءة علي بن أبي طالب » [٣] .

ومن مشاهير القراء في العراق ، خلال فترة نفوذ الأتراك ، **أبو مزاحم موسى ابن عبيد الله بن يحيى بن خاقان** (ت ٣٢٥هـ/٩٣٧م) ، المُقرِيء ، المحدِّث . سمع من : عباس الدوري ، وأبي بكر المروزي ، وأبي قلابة الرقاشي ، وغيرهم . وجوَّد القرآن على الحسن بن عبد الوهاب ، صاحب الدوري . وبرع أبو مزاحم في قراءة الكسائي . وكان يُقريء الناس ، وقرأ عليه قوم ، منهم : أحمد بن نصر الشذائي ، وأبو الفرج الشنبوذي ، وغيرهم [٤] . ووثقه الخطيب البغدادي بقوله : ((كان ثقة ، من أهل السنة)) [٥] . وكان لأبي مزاحم عناية بالتجويد ترجمها في قصيدة نَظَمها في حُسن أداء القرآن وفضل ذلك [٦].

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، (٢٧٢/١٥ ـ ٢٧٤) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٩ .

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٧٠/٥) .

(٤) الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (٢٧٤/١ ـ ٢٧٥) .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٥٩/١٣) .

(٦) والقصيدة مخطوطة ، وتوجد نُسخ منها متفرقة في مكتبات : برلين ، والجزائر ، والفاتيكان ، والظاهرية . انظر عن ذلك : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٤٥/١/١) .

وتقع القصيدة في واحد وخمسين بيتاً [١] ، ولقد نصَّ أبو مزاحم على هذا العدد في أحد أبيات قصيدته قائلاً [٢] :

وأبياتها خمسون بيتاً وواحداً　　تنظم بيتاً بعد بيت على الأثري

ومن خلال استقراء القصيدة ، نجد أن أبا مزاحم قد قسَّمها إلى قسمين رئيسيين :

القسم الأول : وهو يقع في عشرين بيتاً [٣] ، وهو بمثابة المقدّمة لقصيدته . وقد استعرض في هذا القسم ، أهمية إخلاص النِّية لله سبحانه وتعالى في طلب العلم ، وخاصة قراءة القرآن ، لعظيم الأجر في الدنيا والآخرة ، وأن ليس كل من يقرأ القرآن يُعد مقرئاً ما لم يحسن القراءة . ثم يُعرِّج أبو مزاحم إلى ذكر القرّاء السبعة ، وذِكر فضلهم ، وأنه من السنُّة أخذ القراءة عن القرّاء الموثوق بعلمهم ، وأن هؤلاء السبعة هم المَرجع في أخذ القراءة . ثم يستعرض أسمائهم ، ومدنهم التي يُنسبون إليها . ثم يتبع ذلك حث القاريء على الإمعان في القصيدة لكي تحصل الفائدة منها . ففي مَطلع القصيدة ، يتعوّذ بالله تعالى من الفخر ، والكِبر ، ويسأله التوفيق وإخلاص النِّية . ومنها [٤] :

أقول مقالاً معجباً لأولي الحجر　　ولا فخر ، إن الفخرَ يدعو إلى الكِبرِ

وفي موضع آخر من هذا القسم ، يَنصح أبو مزاحم قاريء القرآن قائلاً [٥] :

أيا قاريء القرآن أَحسن أداه　　يُضاعف لك اللهُ الجزيلَ من الأجرِ

فما كلُّ من يتلو الكتابَ يُقِمْهُ　　وما كُلُّ من في الناس يُقريهم مُقريءِ

---

(١) الخاقاني : قصيدة في التجويد . مخطوط مصور بقسم المخطوطات ، الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، برقم (٧٠٥٩ علوم القرآن) .

(٢) المصدر السابق ، الورقة : (٣ ب) .

(٣) المصدر السابق ، الورقة : (٢ ـ ٤أ) ، من البيت الأول إلى البيت العشرين .

(٤) المصدر السابق ، الورقة : (٣أ) .

(٥) المصدر السابق ، الورقة : (٣ب) .

القسم الثاني : وهو يقع في واحد وثلاثين بيتاً [١] . وقد خصَّصهُ أبو مزاحم للحديث عن الموضوع الذي من أجله نَظَم هذه القصيدة . فهو يوجِّه نصيحة لقاريء القرآن ، بأن اتقان الحفظ ، والسلامة من اللحن ، هو المعين لفهم القرآن ، ومعرفة ما يرغب معرفته . فهو المسؤول عن اللحن إذا وقع ، وليس له عذر في ذلك ، فيقول [٢] :

ألا أعلم أخي ، أن الفصاحة زينت ... تلاوة تالٍ أدمن الدرسَ للذكرِ

إذا ما تلى التالي أرقَّ لسنَهُ ... وأذهب بالإدمانِ عنه أذى الصدرِ

فأول علم الذكرِ اتقان حفظه ... ومعرفة باللحن فيه إذا يجري

فكن عارفاً باللحنِ كيما تزيله ... وما للذي لا يعرف اللحن من عذري

ثم يتناول أبو مزاحم في بقية الأبيات أحكام التجويد ، والإعراب التي ينبغي لقاريء القرآن الإلمام بها ، فهي بمثابة قواعد عامة له . ومن ذلك قوله [٣] :

زن الحرفَ لا تخرجْهُ عن حدِ وزنه ... فوزن حروف الذكرِ من أفضلِ البرِ

وقوله في موضع آخر [٤] :

فبينْ إذاً ما ينبغي أن تبينَهُ ... وأدغمْ وأخف الحرفَ في غيرِ ما عسرِ

وقوله أيضاً [٥] :

وما المدُ إلا في ثلاثةِ أحرفٍ ... تسمى حروف اللين باح بها ذكرىِ

وقوله في موضع آخر [٦] :

وإن يك قبلَ الياءِ والواو فتحة ... وبعدهما همز همزت على قدرِ

---

(١) المصدر السابق ، الورقة : (٤أ ـ ٤ب) ، من البيت الواحد والعشرون إلى آخر القصيدة .

(٢) المصدر السابق ، الورقة : (٤أ) .

(٣) المصدر السابق ، الورقة : (٤أ) .

(٤) المصدر السابق ، الورقة : (٤أ) .

(٥) المصدر السابق ، الورقة : (٤أ) .

(٦) المصدر السابق ، الورقة : (٤ب) .

ولأهمية هذه القصيدة ، فقد أصبحت موضع اهتمام علماء القراءات ، والتفسير ، إذ قام العالم الأندلسي ، أبو عمرو عثمان بن سعيد الدَّاني (ت ٤٤٤هـ/١٠٥٢م) ، بشرحها في كتاب وسمه بـ « شرح القصيدة الخاقانية » (١) .

وقد قام أبو عمرو في كتابه هذا ، بتلخيص الأصول التي ذكرها أبو مزاحم ، وتفسيرها ، والتدليل على ما جاء به ، والبرهان .

ويذكر أبو عمرو : أن الدافع وراء شرحه لهذه القصيدة ، هو أهميتها لقرّاء القرآن ، واستحسان الناس ، خواصهم وعوامهم ، لها . وشدة إقبال قرّاء القرآن عليها ، وأخذهم أنفسهم لحفظها ، والعمل بها (٢) .

كما برز من قراء العراق في تلك الفترة ، **أبو الحسن محمد بن أحمد بن شنبود البغدادي** (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م) ، أحد مشايخ القرّاء بالعراق مع ابن مجاهد . وقد روى قراءات كثيرة . ورحل إلى الأمصار ، وقرأ على علمائها ، ومنهم : قنبل المكي ، وإسحاق الخزاعي ، وإسماعيل بن عبد الله المصري ، وإبراهيم بن إسحاق الحربي ، وأحمد بن بشار الأنباري ، وخلقاً آخرون . ولقد تهيأ له من لقاء الكبار ما لم يتهيأ لابن مجاهد ، غير أنه كان كثير اللحن ، وكان يناوىء ابن مجاهد .

وقد قرأ على ابن شَنَّبوذ : أحمد بن نصر الشذائي ، ومحمد بن أحمد الشنبوذي ، تلميذه ، وعلي بن الحسين الغضائري ، وعبد الله بن أحمد السامري ، والمعافى بن زكريا الجريري ، وغيرهم (٣) .

وكانت له آراء جرّت عليه المصائب فيما بعد ، منها : جواز الصلاة بقراءة ماجاء في مصحف عبد الله بن مسعود ، ومصحف أُبي بن كعب ، وبما صح في الأحاديث ـ مع أن الاختلاف في جوازه معروف بين العلماء قديماً ، وحديثاً ـ ويعمل به . وكانت له قراءات

---

(١) مخطوط مصور بقسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، برقم (١/١٤٦٩ قراءات) .

(٢) الداني : شرح القصيدة الخاقانية ، الورقة : (٢أ) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٤٩ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢٩٩/٤ ـ ٣٠١) . الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٣٧/٢ ـ ٣٨) . اليافعي : مرآة الجنان ، (٢٩٩/٢ ـ ٣٠١) .

شاذة . وأمام هذا المذهب الذي ارتضاه ابن شَنَبوذ في القراءة ، والتي أصبح يُقرِيء الناس بها ، ويقرأ بها في صلاته بالناس ، أن عَظم أمره وفَحش ، فأنكر الناس عليه ذلك ، فوجّه الوزير ابن مقلة سنة (٣٢٣هـ/٩٣٥م) بالقبض على ابن شَنَبوذ وإحضاره إلى دار الوزير . واستدعى القضاة ، والفقهاء ، والقرّاء ، فيهم : عمر بن محمد القاضي ، وابن مجاهد المقريء ، ومحمد بن موسى الهاشمي ، وغيرهم . فوجّه الوزير إلى ابن شنبوذ تهمة مخالفة القرآن الكريم في القراءة ، وأمره أن يتراجع عن ذلك ، وأنكر عليه من كان بالمجلس ، ولكنه أبى الرجوع ، فضُرب بالدرة ، فأذعن بالرجوع ، واستُتيب ، وكتب عليه إقراراً بذلك ، وتوبته مما كان يقرأ به [١] .

ولابن شَنَبوذ إسهام تأليفي في علم القراءات ، بوضعه عدة مصنفات في ذلك ، منها : كتاب « اختلاف القراء » ، كتاب « ما خالف فيه ابن كثير أبا عمرو » ، كتاب « قراءات علي رضي الله عنه » ، كتاب « شواذ القراءات » ، كتاب « انفراداته » ، أي ما انفرد به من القراءات ، وخالف فيه القرّاء [٢] .

ومن أبرز القرّاء أيضاً ، **أبو الحسن أحمد بن جعفر المعروف بابن المنادي** (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م) ، وكان ثقةً ، أميناً ، ثبتاً ، صدوقاً ، حجةً فيما يرويه ، وجمع علوماً جمة ، وإن لم يُرو عنه بما يتناسب مع مكانته العلمية . يقول أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الصيرفي : ((كان أبو الحسين بن المنادي صلب الدين ، خشناً ، شرس الأخلاق ، فلذلك لم تنشر الرواية عنه)) [٣] .

وكان عالماً بالقراءات ، وغيرها . وله مائة ونيف وعشرون كتاباً في علوم متفرقة ، والغالب عليه علوم القرآن . ونظراً لأسلوبه القائم على التغريب في ألقاب كتبه ، وتعاطيه للفصاحة في تآليفه ، فقد اتصفت مؤلفاته بالاستثقال في التلقي [٤] .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٤٩ ـ ٥٠ ، فيه نماذج من القراءات الشاذة التي كان يقرأ بها ابن شَنَبوذ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٨٠/١ ـ ٢٨١) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٦٨/١٧ ـ ١٦٩) . وفيه محضر محاكمة ابن شَنَبوذ ، وتعهده ، وتوبته مما ذهب إليه . ابن الجوزي : المنتظم ، (٣٠٧/٦ ـ ٣٠٨) .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء (١٧٠/١٧) .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٦٩/٤) .

(٤) الداوودي : طبقات المفسرين ، (٣٥/١) .

ومن أهم مصنفات أبو الحسين : كتاب « اختلاف العدد » كتاب « دعاء أنواع الاستعاذات من سائر الآفات والعاهات » [١] ، كتاب « متشابه القرآن » [٢] .

وهناك من علماء العراق من صنَّف في « القراءات » ، ولم يكونوا من طبقة القرّاء ، ولكن كانت لهم مشاركة في هذا الجانب من علوم القرآن . ومن هؤلاء العلماء : القاضي أبو إسحاق الأزدي [٣] ، وأبو العباس المبرد [٤] ، وأبو العباس ثعلب [٥] ، ونَفْطَويه ، وكتابه بعنوان : « الاستثناء والشروط في القراءات » [٦] . أما خليفة بن خياط العُصْفُري (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) فقد صنَّف كتاب « أجزاء القرآن وأعشاره وأسباعه وآياته » [٧] .

الدراسات القرآنية الأخرى :

وإلى جانب علمي : التفسير ، والقراءات ، قامت دراسات أخرى وثيقة الصلة بهذين العلمين ، تتعلق بأحكام القرآن ، وفضائله ، ونظمه ، ومعانيه ، وغريبه ، ومُشْكَله ، وإعجازه ، وغيرها من المباحث .

ومن أشهر من صنف في « **معاني القرآن** » من العلماء : أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد (ت ٢٨٦هـ/٨٩٩م) ، وكذلك ، أبو طالب المُفضَّل بن سلمة الكوفي (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) ، وأيضاً ، أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب (ت ٢٩١هـ/٩٠٤م) ، وأبو الحسن محمد بن أحمد بن كَيْسان (ت ٢٩٩هـ/٩١٢م) ، وأبو إسحاق إبراهيم بن السَّريّ المعروف بالزَّجّاج (ت ٣١١هـ/٩٢٣م) ، وكذلك ، أبو بكر

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٦٠ .

(٢) مخطوط في مكتبة البلدية بالأسكندرية ، برقم (١٩٩٣ د) . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١٠٣/١/١) .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٨٦/٦) .

(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٢١/١٩) . وكتابه بعنوان « احتجاج القرّاء » .

(٥) القفطي : إنباه الرواة ، (١٨٥/١) .

(٦) البغدادي : هدية العارفين ، (٥/١) .

(٧) النديم : الفهرست ، ص ٣٨٢ .

محمد بن أحمد النحوي المعروف بابن الخياط (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م) ، وأبو الحسين عبد الله بن محمد الخزَّاز النحوي (ت ٣٢٥هـ/٩٣٧م) ، وغيرهم [١] .

أما أشهر من صنف في « **غريب القرآن** » من علماء تلك الفترة : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قُتيبة الدِّيْنَوَري (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) ، وأبو زيد أحمد بن سهل البَلْخي (ت ٣٢٥هـ/٩٣٣م) ، وأبو عبد الله إبراهيم بن محمد المعروف بنفطويه (ت ٣٢٣هـ/٩٣٥م) ، وأبو بكر محمد بن عزيز السجستاني (ت ٣٣٠هـ/٩٤١م) وآخرون غيرهم [٢] .

وفي « **فضائل القرآن** » ، ساهم العديد من علماء العراق في هذا الجانب من علوم القرآن ، وأشهر من صنف فيه : المُقرىء أبو عمر حفص بن عمر الدُّوري (ت ٢٤٦هـ/٨٦٠م) [٣]، وأبو داود سليمان بن الأشْعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م) [٤]، وأبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة الكوفي (ت ٢٩٧هـ/٩٠٩م) [٥] .

وفي موضوع « **أحكام القرآن** » ، كان لعلماء العراق جهوداً واضحةً في هذا المضمار ، ومنهم : أبو ثور إبراهيم بن خالد الكَلْبي البغدادي (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) [٦] ، وأبو سليمان داود بن علي الأصفهاني الظاهري (ت ٢٧٠هـ/٨٨٣م) [٧] ، والقاضي أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق الأزدي البصري (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) [٨] .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٥٤ . السيوطي : بغية الوعاة ، (٢٧٠/١) . حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١٧٣٠/٢) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٥٤ ــ ٥٥ ، ١٣١ . حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١٢٠٧/٢ ــ ١٢٠٨) .

(٣) الداوودي : طبقات المفسرين ، (١٦٦/١) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٣٨٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(٦) البغدادي : هدية العارفين ، (٢/١) .

(٧) القرشي : الجواهر المضية ، (٤١٩/٢) .

(٨) ابن خير : فهرسة ابن خير ، ص ٤٧ .

كما كان لبعض العلماء دراسات خاصة بموضوع « **الناسخ والمنسوخ** » ، ومنهم : أبو محمد جعفر بن مبشر الثقفي (ت ٢٣٤هـ/٨٤٨م) ⟨١⟩ ، وأبو ثور الكلبي ⟨٢⟩ ، والإمام أحمد بن حنبل ⟨٣⟩ ، وأبو داود السجستاني ⟨٤⟩ ، وأبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي ⟨٥⟩ ، وأبو الحسين أحمد بن جعفر البغدادي المعروف بابن المنادي ⟨٦⟩ .

وأبرز من صنف من علماء العراق ، خلال تلك الفترة ، في موضوع « **إعراب القرآن** » : أبو حاتم سهل بن محمد السِّجِسْتاني (ت ٢٤٨هـ/٨٦٢م) ⟨٧⟩ ، ابن قتيبة الدِّيْنَوَري ⟨٨⟩ ، وأبو العباس المبرد ⟨٩⟩ ، وأبو العباس ثعلب ⟨١٠⟩ ، وأبو بكر الأنباري ⟨١١⟩ .

وأما في موضوع « **متشابه القرآن** » ، فقد صنف فيه العديد من علماء العراق ، ومن أبرزهم : أبو الفضل جعفر بن حرب الهمذاني (ت ٢٣٦هـ/٨٥٠م) ، وأبو علي محمد بن عبد الوهاب الجُبَّائي (ت ٣٠٣هـ/٩١٥م) ⟨١٢⟩ ، وأبو محمد الحسن بن موسى النُّوبُختي (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) ⟨١٣⟩ .

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٦٢/٧) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٥٩ .

(٣) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٨/١) .

(٤) ابن خير : فهرسة ابن خير ، ص ٤٣ .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٥٩ .

(٦) البغدادي : إيضاح المكنون ، (٦١٤/٢) .

(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤٣٢/٢) .

(٨) البغدادي : هدية العارفين ، (٤٤١/١) .

(٩) السيوطي : بغية الوعاة ، (٢٧٠/١) .

(١٠) البغدادي : هدية العارفين ، (٥٤/١) .

(١١) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٩٧ .

(١٢) النديم : الفهرست ، ص ٥٧ .

(١٣) البغدادي : هدية العارفين ، (٢٦٨/١) . الزركلي : الأعلام ، (٢٢٤/٢) .

وفي الدراسات المتعلقة بـ « **اختلاف المصاحف** » ، ظهرت المصنفات في ذلك الوقت التي تتناول هذا الموضوع ، ومن العلماء الذين أسهموا في ذلك : أبو حاتم السِّجِسْتاني [١] ، وأبو بكر عبد الله بن سليمان السِّجِسْتاني (ت ٣١٦هـ/٩٢٨م) [٢] .

كما كان لبعض العلماء دور في إثراء الدراسات القرآنية من خلال ما صنفوه من كتب في موضوع « **النقط والشكل للقرآن** » ، ومن هؤلاء العلماء : أبو حاتم السِّجِسْتاني [٣]، وأبو إسحاق إبراهيم بن سفيان الزِّيادي (ت ٢٤٩هـ/٨٦٣م) [٤] ، وأبو حنيفة أحمد بن داود الدِّيْنَوري (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) [٥] . وأبو بكر الأنباري ، وقد بلغ في كتابه هذا إلى سورة طه ، ولم يتمه [٦] .

كما كان لموضوع « **الوقف والابتداء** » اهتمام جيد من قِبل العلماء ، فألفوا فيه الكتب ، ومن هؤلاء : أبو عمر الدُّوري ، وأبو الحسن بن كَيْسان ، وأبو العباس ثعلب ، وأبو إسحاق الزَّجّاج [٧] ، وكذلك أبو بكر الأنباري [٨] .

إضافة إلى أن هناك كتباً صنَّفها أصحابها من العلماء تشترك جميعها في المحور الذي تقوم عليه ، وهو القرآن الكريم ، وتختلف في الجوانب التي يتعرّض لها كل كتاب بما يتعلق بالقرآن الكريم .

فصنَّف أبو الحسن علي بن عبد الله المعروف بابن المديني (ت ٢٣٤هـ/٨٤٨م) كتاب « أسباب النزول » ، ذكر حاجي خليفة أنه : أول من صنَّف في هذا الموضوع [٩] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤٣٣/٢) .

(٢) الجزري : غاية النهاية ، (٤٢٠/١) . والكتاب مخطوط ، نصفه الثاني بالقاهرة . وقد نشره المستشرق جفري Jeffery . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٥/٤) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٥٥ .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١٤٦٧/٢) .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٥٥ .

(٦) ابن خير : فهرسة ابن خير ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٧) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٣٩/١٧) . حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١٤٧٠/٢ ـ ١٤٧١) .

(٨) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٩٧ .

(٩) حاجي خليفة : كشف الظنون ، (٧٦/١) .

وكان للجاحظ مشاركة في مجال الدراسات القرآنية بمجموعة كتب منها : كتاب « مسائل القرآن » ، وكتاب « نظم القرآن » (١) . كما عمل أبو العباس المبرد ، إضافة إلى كتبه السابقة في علوم القرآن ، كتاب « ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه في القرآن » (٢) . وصنَّف أبو بكر محمد بن خلف المعروف بوكيع (ت ٣٠٦هـ/٩١٨م) كتاب « عدد آي القرآن والاختلاف فيه » (٣) . كما صنَّف أبو عبد الله محمد بن زيد الواسطي (ت ٣٠٧هـ/٩١٩م) كتاب « إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه » (٤) . في حين ألَّف أبو إسحاق الزجاج كتاب « تفسير أسماء الله الحسنى » (٥) .

لا يقصد من الصفحات السابقة ، حصر نشاط علوم القرآن فيما ذكر فقط ، بل هناك العشرات من العلماء والكتب ، التي لم يرد ذكرها في هذا المقام ، وإنما هي إلماحة فقط عن سير علوم القرآن ، خلال عصر نفوذ الأتراك ، وإسهام علماء العراق بشكل كبير في هذا الحقل من العلوم الشرعية .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٦/١٠٧) .

(٢) مطبوع بتحقيق : عبد العزيز الميمني ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م .

(٣) القفطي : إنباه الرواة ، (٣/١٢٤) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٦٠ .

(٥) مطبوع بتحقيق : أحمد الدقاق ، دار الثقافة العربية ، دمشق ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

المبحث الثاني

علوم الحديث

لقد حظيت « علوم الحديث » [١] باهتمام المسلمين وعنايتهم . وتتابعت جهود أئمة الحديث في تتبع الأحاديث النبوية ، والتقاطها من أفواه الرواة ، وذلك خدمةً لسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والحفاظ عليها ، وصيانتها من عبث العابثين ، وقطع الطريق أمام أعداء الدين ، الذين لا يكفُّون عن النيل منها ، باعتبارها المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم .

ولقد تركّزت جهود علماء الحديث في دراسة حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سنداً ومتناً ، وأصبحت الدراسات المتعلقة بحديث المصطفى (صلى الله عليه وسلم) ، وما صُنِّف من مؤلفات في ذلك ، تتمحور حول موضوعين رئيسيين يُكوِّنان علم الحديث . وهما : علم الحديث رِواية [٢] ، وعلم الحديث دِراية [٣] .

وحول هذين الموضوعين ، ظهرت مصنفات العلماء ، وإسهاماتهم العلمية منذ صدر الإسلام ، والتي تتناول بالبحث والدراسة كل ما يتعلق بسند الحديث ، ومتنه . إضافة إلى الدراسات الأخرى ذات الصلة بعلوم الحديث ، كدراسات مُعِينة لها .

---

(١) علوم الحديث : هي تلك العلوم التي يعرف بها أقوال النبي صلى الله عليه وسلم ، وأفعاله ، وأحواله . وهي كثيرة ، ومتنوعة . منها ما ينظر في ناسخ الحديث ومنسوخة ، وتعديل رواته وتجريحهم ، والنظر في متون الحديث ، من غريب ، أو مُشْكل ، أو تصحيف ، أو مفترقاً منها ، أو مختلف ، وما يناسب ذلك . أما غايتها ، فهي الفوز بسعادة الدارين . ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ . حاجي خليفة : كشف الظنون ، (٦٣٥/١) .

(٢) علم الحديث رِواية : هو علم يشتمل على أقوال النبي صلى الله عليه وسلم ، وأفعاله ، وتقريراته ، وصفاته ، وروايتها ، وضبطها ، وتحرير ألفاظها . وفائدته : الاحتراز عن الخطأ في نقل ذلك . الأنصاري : اللؤلؤ النظيم ، الورقة : (اب) . حسين الجمل وزميله : معجم مصطلحات الحديث ، ص ٣٤ .

(٣) علم الحديث دِراية : هو علم يعرف منه حقيقة الرواية ، وشروطها ، وأنواعها ، وأحكامها ، وحال الرواة ، وشروطهم ، وأصناف المرويات ، وما يتعلق بها . ويطلق عليه : مصطلح الحديث ، أو أصول الحديث ، أو علم الحديث : وفائدته : معرفة ما يقبل وما يرد من ذلك . الأنصاري : اللؤلؤ النظيم ، الورقة :(اب) . محمد الخطيب : المختصر الوجيز في علوم الحديث ، ص ٧ ـ ٨ .

فظهرت أعداد كبيرة جداً من المصنفات ، لا تساميها ، من حيث العدد ، مصنفات أيٍّ من العلوم الأخرى عند المسلمين .

وأصبح لعلم الحديث أصول ، وأحكام ، وقواعد ، واصطلاحات ذكرها العلماء في مصنفاتهم المتعلقة بذلك ، ووضعوا معاييراً ، وشروطاً لقبول الحديث ، يجب أن تتوفر في رواة الحديث ، ونَقَلَتِه [١] . وكذلك طرق نقل الحديث ، وتَحمُّله [٢] . كما أن هناك آداب في إملاء الحديث ، وكتابته ، يجب على المُحدِّث ، وطالب الحديث مراعاتها [٣] .

إن مجموعة هذه الأصول ، والضوابط الدقيقة التي وضعها علماء الحديث نابعة من حرصهم الشديد في كتابة حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، مع لزوم الأدب في ذلك.

واعتبر طلب الحديث عند المسلمين متعة عظيمة ، يعيشون فيها في كل مراحل كتابته ، كما عبَّر عن ذلك أبو سعد إسماعيل بن علي البصري المعروف بزَنْجويه (ت ٤٤٥هـ/١٠٥٣م) عن ذلك بقوله : ((مَنْ لم يكتب الحديث لم يتغرغر بحلاوة الإسلام)) [٤] .

ولقد حدث في أواخر عصر التابعين تدوين آثار الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وتبويب الأخبار ، عندما انتشر العلماء في الأمصار ، وكثر الابتداع من الخوارج ، والرَّوافض ، ومنكري القدر ، وكاد أن يلتبس الحق بالباطل ، وكانوا في عملهم هذا ، يُصنِّفون كل باب على حده ، إلى أن قام كبار العلماء في منتصف القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي ، فَدوَّنوا الأحكام ، ومزجوا الحديث بأقوال الصحابة ، وفتاوى التابعين ، ومن بعدهم . ثم تلاهم فئة أفردت حديث رسول الله (صلى الله وسلم) خاصة ، وذلك على رأس المائتين الهجرية .

---

(١) الخطيب البغدادي : الكفاية في علم الرواية ، ص ١١٦ ـ ١١٧ .

(٢) ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(٣) انظر : الخطيب البغدادي : الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع . والكتاب شامل جامع لذلك كله . السمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ، (١٨٣/١) ، (٤٤٢/٢) . ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، وقد خصص البابين : الثاني ، والثالث ، ص ١٥ ـ ١٦٣ ، للحديث عن هذا الأمر .

(٤) الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٥٩ .

ومنذ أوائل القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، أصبح علماء الحديث يفردونه بالجمع والتأليف ، بعد أن كانوا يجمعونه ممزوجاً بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين خلال القرنين : الأول ، والثاني الهجريين . مع وجود بعض الأئمة ممن جمع في كتابه كل ما روي عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) من غير تمييز بين صحيح وسقيم ، كمصنف أبو بكر بن أبي شيبه (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م) ، والذي كان يهدف إلي جمع ما وجده من الحديث فقط ، دون تلخيصه ، وتهذيبه .

ثم ظهرت طبقة من علماء الحديث ، أفردت الصحيح بالجمع ، وفق ضوابط دقيقة في قبول الحديث أو رده ، وذلك على يد الإمام البخاري (ت ٢٥١هـ/٨٦٥م) ، ثم تبعه الإمام مسلم (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م) ، ثم ارتسم طريقتهما الكثيرون من بعدهم . ويعتبر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، عموماً ، أجلَّ عصور الحديث ، وأسعدها بخدمة السنة . ففيه ظهر كبار المحدِّثين ، وخرجت الكتب الستة ، والتي كادت لا تغادر من صحيح الحديث إلا النزر اليسير .

وكما كانت العناية موجهة ، في هذا القرن ، إلى كتابة الحديث وتدوينه ، فقد تعدت أيضاً أوجه دراسة الحديث ، والتصنيف فيه . فظهرت المصنفات في شرح غريبه ، وبيان ناسخه ومنسوخه ، وإظهار حال رجاله ، والكشف عن علومه ومصطلحاته ، وغيرها من الأغراض المختلفة ، والمُعِينة لفهم آثار المصطفى (صلى الله عليه وسلم) ، والتثبت من صدورها عنه صلى الله عليه وسلم .

ولقد أسهم العراق ، بعلمائه وأئمته ، في الحديث ، واللغة ، والتاريخ ، والسير بنصيب كبير في خدمة سنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، منذ أن بدأ التدوين وحتى رسخت معالم الحديث في نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، كما سيتضح عند استعراض علماء الحديث في الصفحات القادمة .

وشملت مشاركة علماء العراق جميع علوم الحديث ، والدراسات المساعدة لها .

وعُدَّ رأس الثلثمائة الهجرية ، الحد الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين من رواة الحديث وحملته . فالقرن الثالث يعد أسعد القرون بخدمة السنة ، وتمحيصها ، ونقد رواتها

. وكل من أتى بعد ذلك عيال على المتقدمين ـ إلا قليلاً ـ يجمع ما جمعوا ، ويعتمد في نقده على ما نقدوا . لذلك ، كانت كتب السُّنَّة في القرنين : الثاني والثالث الهجريين ، تمتاز في الأكثر بأولوية الجمع فيها ، دون الأخذ عن غيرها .

وبنهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي اتخذ تصنيف كتب الحديث طرقاً عدة ، منها :

١ ـ التصنيف على المسانيد :

وهو أن يجمع مُصنِّف الكتاب مرويات كل صحابي على حده ، بغض النظر عن الموضوع الذي يتعلق به الحديث [١] ، ومن أشهر هذه المسانيد في تلك الفترة : « مسند الإمام أحمد بن حنبل » ، و« مسند سعد بن أبي وقاص » [٢] لأبي عبد الله أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقي البغدادي (ت ٢٤٦هـ/٨٦٠م) ، و« مسند بلال بن رباح » [٣] لأبي علي الحسن بن محمد الصبَّاح الزَّعْفَراني الشافعي (ت ٢٦٠هـ/٨٧٤م) ، و« مسند عابس الغِفَاري وجماعة من الصحابة » [٤] لأبي عمرو أحمد بن حازم الغِفَاري الكوفي (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م) ، و« المسند » [٥] لأبي بكر أحمد بن عمرو البزَّار البصري (ت ٢٩١هـ/٩٠٤م) ، و« مسند أسامة بن زيد » [٦] لأبي القاسم يزيد بن أحمد البغوي (ت ٣١٧هـ/٩٢٩م) . وغيرها من كتب المسانيد التي سوف ترد عند الحديث عن أبرز علماء الحديث في ذلك الوقت .

---

(١) حسين الجمل وزميله : معجم مصطلحات الحديث ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٢) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٣٧ مجاميع) ، الأوراق : [١١٧أ ـ ١٣٨ب] ، ٥٢٥هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٢١٤/١/١) .

(٣) مخطوط بدار الكتب المصرية في القاهرة ، برقم (١٥٥٨ حديث/ مجاميع) ، الأوراق : [٤٦٧ أ ـ ٤٧٢ ب] ، القرن ٨هـ . المرجع السابق ، (١٩٤/٣/١) .

(٤) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (١٤/٨٠ مجاميع) ، الأوراق : [١٦٢ أ ـ ١٧١ ب] ، القرن ٦هـ . المرجع السابق ، (٢٩٠/١/١) .

(٥) مخطوط بمكتبة مراد ملا في إسطنبول ، برقم (٥٧٢) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (١٥٨/٣) .

(٦) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٣٤٤) ، حوالي سنة ٣٨٥هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٣٤٦/١/١) .

٢ ـــ التصنيف على الأبواب :

وهــو تصنيــف الأحاديــث علــى أبواب الفقه ، بحيث يجمع ما ورد في كل حكم ، أو نوع في باب مستقل ، مثـل : بـاب الصلاة ، باب الصيام ، باب الجُمَع ، باب الصلاة على الميت ، ... إلخ [١] . واتخـذت المصنفـات الـتي وضعت وفق هذا التصنيف أسماء عـدة ، مثـل : المُصَنَّف ، والسُّنَنْ ، والجامع [٢] . مثل : « المُصَنَّف » لأبي الربيع سليمان بن داود الزهرانـي البصري (ت ٢٣٤هـ/٨٤٨م) ، ومثلـه لأبـي بكـر بن أبـي شيبـة (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م) [٣] . وكتـاب « السُّنَنْ » لأبـي علـي الحـسن بـن علـي الخَـلاَّل (ت ٢٤٢هـ/٨٥٦م) [٤] ، ومثلـه لأبـي داود السجستـاني (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م) . وكتاب « الجامع » لأبي بكر أحد بن محمد الخَلاَّل (ت ٣١١هـ/٩٢٣م) ، وغيرها ، مما سيرد عند الحديث عن أبرز علماء الحديث في العراق في ذلك الوقت .

٣ ـــ التصنيف المعلل :

وهــو أن يجمــع المُصَنـِّف فــي كــل حديــث طُرقــه ، واختــلاف الــرواة فيــه [٥] .

---

(١) محمد الخولي : تاريخ فنون الحديث ، ص ٥٦ .

(٢) « المُصَنَّف » ، و« الجامع » يقصد بهما : كل كتاب يجمع فيه مؤلفه من الحديث في جميع الأبواب : من العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والأحكام ، وآداب الأكل والشرب ، والسفر ، والتفسير ، والتاريخ ، والسير ، الفتن ، والمناقب ، والمثالب ، وغير ذلك . أما « السُّنَنْ » فيقصد بها : الكتب المصنفة على أبواب الفقه فقط ، وتكون مقصورة على أحاديث الأحكام ، ومبوبة على أبواب الفقه ، ولا يوجد فيها ما يتعلق بالعقائد ، والعبادات ، وما إلى ذلك ، كما هو موجود في « المُصَنَّفات » و« الجوامع » . وجميعها يطلق عليها السُّنَنْ . الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٣٢ ، ٤١ ـ ٤٢ . حسين الجمل وزميله : معجم مصطلحات الحديث ، ص ١٩ ، ٢٧ .

(٣) الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٤٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٥ .

(٥) محمد الخولي : تاريخ فنون الحديث ، ص ٥٨ .

وهو أعلى المراتب في تصنيف الحديث . ذلك أن معرفة عِلل الحديث [١] أجلّ أنواع علم الحديث ، وأدقها ، وأشرفها ، ولا يقف عليها إلا من رزقه الله فهماً ثاقباً ، ومعرفة تامة بمراتب الرُّواة ، وملَكة قوية بالأسانيد ، والمتون . ولهذا لم يتكلم فيه إلا القليل من أهل هذا الشأن. وهو فن خُفي على كثير من علماء الحديث ، حتى قال بعض الحفّاظ : ((معرفتنا بهذا كهانة عند الجاهل)) [٢] .

ومثال ذلك : كتاب « العِلل » لأبي الحسن علي بن عبد الله البصري المعروف بابن المديني (ت ٢٣٤هـ/٨٤٨م) ، وكتاب « العِلل » لأحمد بن حنبل [٣] ، و« عِلل الحديث » لأبي يحيى زكريا بن يحيى الضّبيّ البصري (ت ٣٠٧هـ/٩١٩م) ، وكتاب « العِلل » لأبي بكر الخَلال [٤] .

وبانسلاخ القرن الثالث الهجري وبداية الرابع ، يكاد جمع الحديث وتدوينه قد تَمَّ ، ويبتدىء عصر ترتيبه ، وتهذيبه ، وتسهيله ، وتقريبه لطالبيه ، والذي استمر طوال القرن الرابع الهجري . على أن جمع السُّنَنْ من أفواه الرواة ، والنظر في رجال الأسانيد ، وإنزالهم منازلهم . وبيان عليل الحديث من صحيحه يكاد ينتهي بانتهاء القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، حيث انطفأت جذوة الاجتهاد ، وتناقص الحفظ ، وقلّ الاعتناء بالآثار ، وركن العلماء إلى التقليد ، أو جمع الشتيت ، وبيان الغريب ، أو الميل إلى الاختصار ، وجُلّ من تكلم في الأسانيد بعد المائة الرابعة ، كانو عيالاً على من قبلهم من أئمة الحديث في القرون السالفة ، فإن وجد خلاف ذلك فهو في حكم الحالة الفردية .

---

(١) علم عِلل الحديث : هو العلم الذي يبحث عن الأسباب الخفية الغامضة من جهة قدحها في الحديث ، كوصل منقطع ، ورفع موقوف ، وإدخال حديث في غيره ، ونحو ذلك . محمد الخطيب : المختصر الوجيز في علوم الحديث ، ص ١٢١ . والحديث المعلل : هو الحديث الذي أُطُّلِعَ فيه على علة تقدح في صحته مع أن الظاهر السلامة منها . ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح ، ص ٧١ . محمود الطحان : تيسير مصطلح الحديث ، ص ٩٩ .

(٢) ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح ، ص ٧١ .

(٣) أحمد شاكر : الباعث الحثيث ، ص ٦٣ .

(٤) البغدادي : هدية العارفين ، (٢٧٣/١) .

ولقد صاحب هذا الفتور في تصنيف الحديث وعلومه ، ظهور التَّشَيُّع والاعتزال ، وشيوعهما في العراق مع قدوم بنو بويه إلى سُدَّة الحكم في العراق في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي [١] .

ولقد كان لعلماء العراق إسهام وافر في جميع علوم الحديث ، وفروعه ، وكان لهم النصيب الأكبر في غزارة الإنتاج العلمي مقارنة بالأقاليم والأمصار الإسلامية الأخرى . ذلك أن معظم علماء الحديث البارزين كانوا يستوطنون مدن العراق ، وكان عددهم كبيراً جداً . ومَنْ ذُكر من علماء الإسلام الذين ينتمون إلى بلدان إسلامية أخرى كانوا بدرجة أقل في عددهم مقارنة بعدد علماء العراق .

ولهذا كان علماء العراق مقصد أقرانهم من أبناء العالم الإسلامي ، وحظوا بالمكانة المرموقة في هذا الفن ، حازوا معها على ثقة كبار أئمة الإسلام ، حتى قال الإمام الشافعي للإمام أحمد بن حنبل : ((يا أبا عبد الله ، إذا صحّ الحديث عندكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرونا نَرْجِعُ إليه)) .

ولقد برز خلال فترة نفوذ الأتراك العشرات من علماء الحديث ، الذين أسهموا في جميع أبواب هذا الفن ، وليس المقام هنا ليسمح باستقصائهم جميعاً ، ولكن نذكر أبرزهم .

فمن أبرز هؤلاء العلماء ، **أبو الحسن علي بن عبد الله البصري المعروف بابن المديني** (ت ٢٣٤هـ/٨٤٨م) ، الحافظ ، الثقة . أحد أئمة الحديث المقدَّمين في عصره . سمع الحديث عن : والده ، وحماد بن زيد ، وسفيان بن عُيينه ، ويحيى بن سعيد القطّان ، وأحمد بن حنبل ، وعبد العزيز الدَّاوَرْدي ، ومعتمر بن سليمان ، وهشيم بن

---

(١) فيما سبق ذكره في الصفحات الماضية عن تاريخ تدوين الحديث النبوي الشريف ، انظر : الذهبي : ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل ، ص ١٧١ ، ١٩٥ . ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٣ . السخاوي : الإعلان بالتوبيخ ، ص ١٦٣ ـ ١٦٨ . الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٤ ـ ١٠ . محمد الخولي : تاريخ فنون الحديث ، ص ٥٤ ـ ٦٥ . محمد الخطيب : المختصر الوجيز في علوم الحديث ، ص ٧٨ ـ ٨٠ . أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ١٧٨ ـ ١٨١ . أمين القضاة : مدرسة الحديث في البصرة ، ص ٤٨٩ ـ ٤٩٧ . أحمد أمين : ظهر الإسلام ، (٢/٤٦ ـ ٤٩) .

بشير ، وخلقاً سواهم . وروى عنه : يحيى بن معين ، وأحمد بن حنبل ، وأبو داود السجستاني ، وإبراهيم الحربي ، وصالح بن أحمد بن حنبل ، والحسن بن محمد الزَّعْفراني ، وأحمد بن منصور الرَّمادي ، وإسماعيل بن إسحاق القاضي ، وغيرهم .

ولقد حاز ابن المديني على ثناء العلماء الكبار ، نظير مكانته العلمية ، وتمكنه في علم الحديث ، وخاصة في أصعب أبوابه ، الحديث المعلل . فقال عنه أبو حاتم : ((كان عَلَماً في الناس في معرفة الحديث ، والعِلل . وكان أحمد بن حنبل لا يُسمِّيه ، وإنما يُكنِّيه ، تبجيلاً له)) . أما تلميذه الإمام البخاري فكان يقول : ((ما استصغرت نفسي عند أحدٍ إلا عند علي بن المديني)) . وهذا التواضع من البخاري لأستاذه لم يكن بمستغرب إذا قرأنا قول سفيان بن عُيينه ، شيخ ابن المديني ، الذي أثنى عليه بقوله : ((والله ، والله لقد كنت أتعلم منه أكثر مما يتعلم مني)) . وكان سفيان يسميه : حَيَّة الوادي ، فإذا سُئل عن شيء يحتاج إلى جهد في الإجابة عليه يقول : لو كان حَيَّة الوادي ، أي ليت ابن المديني موجوداً حتى يجيب . ولقد كانت شهرة ابن المديني في علم الحديث ، جليّة في تمكنه من الحديث المُعَلَّلْ ، وفي ذلك يُصرِّح صالح بن محمد بقوله : ((أعلم من أدركت بالحديث وعِلله ، علي بن المديني)) (١) .

ولابن المديني مصنفات بلغت نحو مائتي مؤلَّف ، توضح لنا بجلاء مدى إسهام ابن المديني في الحركة العلمية عامة ، وعلم الحديث بشكل خاص . ومن أبرز مصنفاته : كتاب « المسند » ، كتاب « المدلسين » ، كتاب « الضعفاء » ، كتاب « الأسماء والكنى » ، كتاب « الأشربة » ، كتاب « التنزيل » ، كتاب « معرفة الصحابة » ، كتاب « معرفة من نزل من الصحابة سائر البلدان » ، ويقع في خمسة أجزاء (٢) ، كتاب « آراؤه في علماء البصرة

---

(١) انظر ترجمة ابن المديني في : مسلم : الكنى والأسماء ، (٢٢٨/١) . العجلي : تاريخ الثقات ، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ . النديم : الفهرست ، ص ٣٨١ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٤٥٨/١١ ، ٤٥٩ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥) . ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٢٢٥/١ ـ ٢٢٨) .ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٤٥/٧) . الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ، ص ٢٣٣ . العليمي : المنهج الأحمد ، (١٥٩/١ ـ ١٦٢) . السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ١٨٧ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٣٨١ . الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ١٢٧ .

الذين وصفهم يحيى بن معين بالقدَرية » (١) ، كتاب « علِل الحديث » (٢) ، كتاب « تسمية من روي عنه من أولاد العشرة وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣) .

وهذا **أبو خيثمة زهير بن حرب النسائي** (ت ٢٣٤هـ/٨٤٨م) ، أحد أئمة الحديث في عصره . روى الحديث عن : إسماعيل بن عُلَيَّة ، وبِشر بن السَّري ، وجرير بن عبد الحميد ، وحفص بن غيَّاث ، ورَوْح بن عبادة ، وسفيان بن عيينة ، وهيثم بن بشير ، وخلقاً سواهم. وقد روى عنه جماعة فيهم : البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجة ، وإبراهيم الحربي ، وولده أبو بكر بن زهير ، والحارث بن أبي أسامه ، وبَقِيّ بن مَخْلد القرطبي ، وأبو بكر بن أبي الدُّنيا ، وأبو زُرْعة الرّازي ، وأبو حاتم الرّازي ، ويعقوب بن شيبة ، وغيرهم . وكان ثقةً ، ثبتاً ، حافظاً ، متقناً . وسأل أبو بكر الآجري أبا داود السجستاني : أبو خيثمة حُجَّة في الرجال ، فقال : ((ما كان أحسن علمه)) (٤) .

ولقد أسهم أبو خيثمة في ميدان التأليف ، من خلال مصنفاته التي وضعها في علم الحديث ، ومنها : كتاب « العلِم » (٥) ، كتاب « المسند » (٦) ، كتاب « من روى عن أبيه عن جده » (٧) .

---

(١) مخطوط بمكتبة أحمد الثالث في إسطنبول ، برقم (٦٢٤/١١١/مجاميع) ، الأوراق : [٢٢٠ أ ـ ٢٢٦ أ] ، ٦٢٨هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١/١/٢٠٥) .

(٢) مطبوع بتحقيق : محمد الأعظمي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٧٢م .

(٣) مطبوع بتحقيق : علي جماز ، دار القلم ، الكويت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

(٤) انظر ترجمة أبي خيثمة في : البخاري : التاريخ الصغير ، (٢/٣٣٢ ـ ٣٣٣) . وينقل البخاري في كتابه هذا الكثير من الأخبار برواية أبي خيثمة . التاريخ الكبير ، (٣/٤٢٦) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٨/٤٨٢ ـ ٤٨٤) . الذهبي : سير أعلام النبلاء ، (١١/٤٨٩) . العبر : (١/٣٢٧ ـ ٣٢٨) . ابن كثير : البداية والنهاية ، (١٠/٣١٢) . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (٢/٨٠) .

(٥) مطبوع بتحقيق : ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م .

(٦) البغدادي : هدية العارفين ، (١/٣٧٥) .

(٧) الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ١٦٣ .

ومن المحدِّثين الذين اشتهروا خلال فترة نفوذ الأتراك ، **أبو بكر عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي شيبة** (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م) ، أحد المتقنين الحفَّاظ ، المكثرين من رواية الحديث . وكان يسكن الكوفة ، وقد سمع الحديث من جماعة فيهم : شُريك بن عبد الله ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن المبارك ، وحفص بن غيّاث ، وعبد الله بن إدريس ، وحسين بن علي الجعفي ، ووكيع بن الجراح ، وغيرهم . في حين روى الحديث عنه : أحمد بن حنبل ، وابنه عبد الله ، وعباس بن محمد الدوري ، ويعقوب بن شيبة ، ومحمد بن عبيد الله بن المُنادى ، وأبو إسحاق الحربي ، في آخرين سواهم . وهو أخو عثمان والقاسم ، ابني أبي شيبة ، من أهل الحديث . وأحد الجماعة الذين انتدبهم الخليفة المتوكل سنة (٢٣٤هـ/٨٤٨م) ليجلسوا للناس ، ويحدثوهم بالأحاديث التي يُدحضوا فيها آراء المعتزلة ، والجَهْمية ، وكذلك الأحاديث التي جاءت في الرؤية .

وكان أبو بكر محل ثناء علماء عصره ، فقد عَدَّهُ أبو عبيد القاسم بن سلاَّم أحد الأئمة الأربعة الذين انتهي إليهم علم الحديث ، إضافة إلى أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وعلي بن المديني . أما أحمد بن حنبل فقد قال عنه : ((أبو بكر بن أبي شيبة صدوق)) . في حين أثنى عليه أبو زُرعة الرّازي بقوله : ((ما رأيت أحفظ من أبي بكر بن أبي شيبة)) (١) .

ولأبي بكر مصنفات في الحديث . من أشهرها : كتاب « المُصَنَّف » (٢) في الحديث ، ويعد أحد أشهر كتب الحديث المُصنَّفة على أبواب مختلفة . كتاب « الإيمان » (٣) ، كتاب « الأدب » (٤) .

---

(١) انظر ترجمة ابن أبي شيبة في : العجلي : تاريخ الثقات ، ص ٢٧٦ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٠/٦٦ ـ ٧١) . الذهبي : ميزان الإعتدال ، (٢/٤٩٠) . ابن كثير : البداية والنهاية ، (١٠/٣١٥) . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (٢/٨٥) .

(٢) مخطوط . انظر : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١/١/٢٠٦) .

(٣) مطبوع في دمشق سنة ١٩٦٦م . المرجع السابق : (١/١/٢٠٧) .

(٤) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٧٨/٧/ مجاميع) ، الأوراق : [١٣٧ أ ـ ١٨٣ ب] ، القرن ٧هـ . المرجع السابق ، (١/١/٢٠٧) .

ومن أشهر علماء الحديث في العراق ، أيضاً ، **أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري البصري** (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) ، كان حافظاً ، عارفاً بالتواريخ ، وأيام الناس ، وطبقات الرجال [١] . وقد سمع الحديث عن جماعة ، منهم : إسماعيل بن عُلَيَّة ، وبِشر بن المُفَضَّل ، وأبي داود الطّيالسي ، وسفيان بن عيينة ، ويزيد بن زُرَيع ، وغيرهم .

في حين روى عنه خلق كثير ، فيهم : البخاري ، وقد روى عنه في صحيحه ، وتاريخه . وعبد الله بن أحمد بن حنبل ، والحسن بن سفيان النَّسوي ، وبَقِيّ بن مَخْلد ، وحرب بن إسماعيل الكَرْماني ، وأبو زُرْعة الرازي ، وأبو محمد الدَّارمي ، وآخرين غيرهم . وأثنى عليه يحيى بن عدي قائلاً : ((مستقيم الحديث ، صدوق ، من متيقضي رواة الحديث)) [٢] .

ولقد كان لخليفة بن خياط مشاركة فاعلة في علم الرجال وطبقاتهم ، من خلال مصنفه كتاب « الطبقات » [٣] ، وله أيضاً ، كتاب « المسند » في الحديث [٤] .

أما اشهر علماء الحديث في العراق على وقته فهو . **أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني البغدادي** (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م) ، إمام أهل السنة ، وصاحب المذهب ، وخبره أشهر من أن يُستقصى . وبيّن الإمام الشافعي مكانة أحمد بن حنبل ، وتميُّزه عندما قال : ((أحمد إمام في ثمان خصال : إمام في الحديث ، إمام في الفقة ، إمام في اللغة ، إمام في القرآن ، إمام في الفقر ، إمام في الزُّهد ، إمام في الوَرَع ، إمام في السنة)) [٥] .

---

(١) سوف يرد الحديث عن جهود خليفة بن خياط في حقل التاريخ في مبحث علم التاريخ .

(٢) انظر ترجمة ابن خياط في : ابن شاهين : تاريخ أسماء الثقات ، ص ١١٨ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢/٢٤٣) . الذهبي : ميزان الإعتدال ، (١/٦٦٥) . العبر ، (١/٣٣٩ ـ ٣٤٠) . الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ، ص ٩٠ . السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .

(٣) مطبوع بتحقيق : أكرم ضياء العمري ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٧م .

(٤) البغدادي : هدية العارفين ، (١/٣٥٠) .

(٥) العليمي : المنهج الأحمد ، (١/٥٥) .

طاف الإمام أحمد البلاد ، ودخل الكوفة ، والبصرة ، والحجاز ، واليمن ، والشام ، والجزيرة في طلب العلم ، ونَشْره أيضاً ، وكتب عن علماء تلك الأمصار .

سمع الحديث عن خلق كثير ، وروى عنهم ، منهم : إسماعيل بن عُلَيَّة ، وهشيم بن بشير ، وحماد بن خالد الخياط ، ومنصور بن سلمة الخزاعي ، والمظفر بن مُدْرِك ، وعثمان ابن عمر بن فارس ، ويزيد بن هارون الواسطي ، ومحمد بن يزيد الواسطي ، وعبد الرزاق ابن همام ، وأبو بكر الشافعي ، ويحيى بن سعيد القطّان ، وسفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجرّاح ، وخلق سوى هؤلاء يطول ذكرهم .

وحدّث عنه الجمع الغفير ، فيهم : ابناه ، صالح وعبد الله ، والحسن بن الصبَّاح البزَّار ، وابن عمه حنبل بن إسحاق ، ومحمد بن إسحاق الصَّاغاني ، وعباس بن محمد الدُّوري ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو زُرْعة الرازي ، ويعقوب بن شيبة ، وأبو داود السجستاني ، وإبراهيم الحربي ، وموسى بن هارون ، وعبد الله بن محمد البغوي ، وغيرهم [١] .

ولقد برهن أحمد بن جنبل على إخلاصه للإسلام ، ونصرته لسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في موقفه من محنة القول بخلق القرآن ،وما لقيه من تعذيب ، وهو راسخ على مبدئه ، وإيمانه . فكانت العزة للإسلام بلا ريب ، وثمَّن علماء الأمة موقف ابن حنبل في هذا الأمر ، فقال علي بن المديني : ((إن الله أعزَّ هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث : أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يوم الردة ، وأحمد بن حنبل يوم المحنة)) [٢] . أما إسحاق بن رَاَهَوْيه فقد قال : ((لولا أحمد بن حنبل ، وبَذْل نفسه لِما بذلها لذهب الإسلام)) [٣] .

ويذكر الإمام أحمد منهج المحدِّثين في العراق ، في ذلك الوقت ، في رواية حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ورواته ، ومدى قبول روايتهم ، وموطنها ، بقوله :

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٤/٤١٢ ــ ٤١٣) .

(٢) المصدر السابق ، (٤/٤١٨) .

(٣) ابن أبي يعلي : طبقات الحنابلة ، (١/١٣) .

((إذا روينا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الحلال والحرام شدَّدنا في الأسانيد ، وإذا روينا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) في فضائل الأعمال ، وما لا يضع حكماً ، ولا يرفعه ، تساهلنا في الأسانيد)) [١] .

إن التميُّز العلمي الذي اتصف به أحمد بن حنبل ، جعل علماء عصره يثنون عليه، ويبدون إعجابهم بشخصيته ، وأول هؤلاء : الإمام الشافعي ، الذي قال عنه : ((خرجت من بغداد فما خلَّفت بها أفقه ، ولا أزهد ، ولا أورع ، ولا أعلم من ابن حنبل)) [٢] . أما يحيى بن معين فقد صوّر مكانة أحمد بن حنبل العلمية وتمكُّنه ، عندما قال : ((أراد الناس منَّا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله ، لا نقدر على أحمد ، ولا على طريق أحمد)) [٣] . ويذكر إدريس بن عبد الكريم المُقرِيء ، أن كبار علماء العراق ، وذكر أسماء بعضهم ، كانوا ((يُعظمون أحمد بن حنبل ، ويُجلُّونه ، ويُوقِّرونه ، ويُبجِّلونه ، ويقصدونه بالسلام عليه)) [٤]. ويشيد أحمد بن سعيد الدَّارمي بعلم أحمد بن حنبل ، ويقول: ((ما رأيت أسود الرأس أحفظ لحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولا أعلم بفقهه ، ومعانيه ، من أبي عبد الله أحمد بن حنبل)) [٥] .

ولقد رمى أحمد بن حنبل بسهم وافر في الدراسات المتعلقة بالحديث ، وعلومه ، كانت وما زالت مصادر مهمة في هذا الفن . فمن أبرز مؤلفاته :

كتاب « المسند » [٦] ، وهو أحد الكتب الأوائل التي صنفت بطريقة المسانيد ، وهو يشتمل على (ثمانية عشر مسنداً) ، أولها مسند العشرة ، ويحتوي على ثلاثين ألف حديث ،

---

(١) المصدر السابق ، (٤٢٥/١) .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٦٤/١) .

(٣) العليمي : المنهج الأحمد ، (٦٦/١) .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٤١٦/٤) .

(٥) الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٢٤١ ـ ٢٥٠) ، ص ٦٩ .

(٦) طبع الكتاب بتحقيق : أحمد محمد شاكر ، في (١٦ جزءاً) ، ثم أكمل الحسيني عبد المجيد هاشم الأجزاء من ١٧ ـ ١٩ ، وبالاشتراك بينه وبين أحمد عمر هاشم ، خرجت الأجزاء : من ٢٠ ـ ٢٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

كما ذكر ابن المنادي [١] . وله أيضاً ، كتاب « الأسماء والكُنى » [٢] ، وكتاب « السنة » [٣]، وكتاب « العِلل ومعرفة الرجال » [٤] ، وكتاب « فضائل الصحابة » [٥] ، وكتاب « مسائل أحمد بن حنبل (برواية ابنه عبد الله) » ، وكتاب « مسائل أحمد بن حنبل (برواية إسحاق بن هانىء النيسابوري) » [٦] .

ومن علماء الحديث الذين برزوا في تلك الفترة ، **أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد الجوهري البغدادي** (ت ٢٤٧هـ/٨٦١م) ، أحد المكثرين من رواية الحديث الثقات ، سمع الحديث من : سفيان بن عيينة ، وأبو معاوية الضرير ، ومحمد بن فضيل بن غزوان ، ورَوْح ابن عبادة ، وزيد بن الحباب ، وسعد بن عبد الحميد بن جعفر ، وخلف بن تميم ، ومحمد بن القاسم الأسدي ، وغيرهم . وروى عنه : أبو حاتم الرازي ، وأبو بكر بن أبي الدُنيا ، وموسى ابن هارون الحافظ ، وإدريس بن عبد الكريم المقرىء ، ويحيى بن محمد بن صاعد ، وآخرون غيرهم .

وكان محترزاً في كتابة الحديث من حيث تعداد طرقه ، فيذكر عبد الله بن جعفر المَرْوَزي ، أنه سأل الجوهري عن حديث لأبي بكر الصديق ، فقال الجوهري لجاريته : ((أخرجي إليَّ الجزء الثالث والعشرين من مسند أبي بكر الصديق ، فقال له المَرْوَزي : لا يصح لأبي بكر خمسون حديثاً ، من أين ثلاثة وعشرين جزءاً ؟ . فقال الجوهري : كل حديث لا يكون عندي من مائة وَجْه فأنا فيه يتيم)) .

---

(١) الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ١٨ .

(٢) مطبوع بتحقيق : عبد الله بن يوسف الجديع ، مكتبة دار الأقصى ، الكويت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(٣) مطبوع بتحقيق : أحمد حامد الفقي ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م .

(٤) مخطوط بمسجد آيا صوفيا في إسطنبول ، برقم (٣٣٨٠) ، قبل ٣٤٣هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١/٣/٢٢٣) .

(٥) مطبوع بتحقيق : وصي الله بن عباس ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

(٦) كلا الكتابين طُبعا بتحقيق : زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، الأول عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، والثاني عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

وللجوهري في الحديث كتاب « المسند » [١] .

ومن المحدِّثين البارزين أيضاً ، **أبو يوسف يعقوب بن شيبة السدوسي البصري** (ت ٢٦٢هـ/٨٧٦م) ، نزل بغداد ، وحدّث بها، وبسُرَّمَنْ رأى ، وكان ثقة ،حافظاً ، وأحد كبار علماء الحديث في زمانه . سمع الحديث من : زيد بن هارون ، ورَوْح بن عبادة ، وعفان بن مسلم ، ويعلى بن عبيد ، ومحمد بن عبد الله الأنصاري ، وقُبيصة بن عتبة ، ومسلم بن إبراهيم ، وغيرهم . في حين روى الحديث عنه : حفيده ، محمد بن أحمد بن يعقوب ، ويوسف بن يعقوب بن البهلول ، وآخرون سواهم .

وكان أبو يوسف من فقهاء المالكية البغدادين ، وكان كثير الرواية والتصنيف في الحديث [٢] . ولم يصل إلينا منها سوى كتابه « المسند » [٣] ، وهو مسند مُعَلَّل ، ووصف بأنه : ما صُنِّف مسند أحسن منه ، ولا أطول ، ولكنه لم يتمه . وقد ظهر منه ، كما يذكر الخطيب البغدادي ، الذي رآه بنفسه : مسند العشرة ، وعبد الله بن مسعود ، وعمَّار ، والعباس ، وعتبة بن غزوان ، وبعض الموالي . ويقال : أن « مسند علي » منه يقع في (٥ مجلدات) ، ولو تَمَّ هذا المسند لكان في نحو مائتي مجلد ، كما يذكر الذهبي [٤] .

ومما يؤكد على ضخامة هذا الكتاب ، الجهد الشخصي والمادي ، الذي بُذل لإخراج هذا الكتاب إلى حيِّز الوجود ، فيقول الأزهري : ((وبلغني أن يعقوب كان في منزله أربعون

---

(١) انظر ترجمة الجوهري في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٩٣/٦ ، ٩٤) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٤٣/٥) . الذهبي : تذكرة الحفاظ ، (٥١٥/٢) . ابن حجر : تهذيب التهذيب ، (١٢٣/١) السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٢٢٩ . البغدادي : هدية العارفين ، (٣/١) .

(٢) انظر ترجمة ابن شيبة في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٨١/١٤) . القاضي عياض : ترتيب المدارك ، (٥٦/٣) . الذهبي : سير أعلام النبلاء ، (٢٥٥/٨) . ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، (٣٧/٣) . البغدادي : إيضاح المكنون ،(٤٨٢/٢) .

(٣) لم يصل إلينا منه إلا الجزء العاشر بعنوان : « مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » ، وهو مخطوط بمكتبة سامي حداد الخاصة في بيروت ، ويقع في (٢٥ ورقة) . ونسخة مصورة بدار الكتب المصرية ، (ملحق ٦٠/٣/٦١) ، برقم (١٩٠٦ ب) . وطبع في بيروت سنة (١٩٤٠م) . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٢٧٩/١/١) .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٨١/١٤) . الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٦٩ .

لِحافـاً ، أعدها لمن كان يبيت عنده من الورّاقين لتبيض المسند ، ونقله . ولَزمه على ما خرج من المسند عشرة آلاف دينار)) [١] .

وهذا **أبو بكـر أحمد بن محمـــد البغـدادي الإسكافي المعـروف بالأثرم** (ت ٢٧٠هـ/٨٨٣م) ، صاحب أحمد بن حنبل ، وكان جليل القدر ، حافظاً ، ونقل عن أحمد مسائل كثيرة ، صنَّفها ، ورتَّبها أبواباً . وكان أبو بكر قد سمع الحديث من جماعة ، فيهم : حَرَمي بن حفص ، وأحمد بن حنبل ، وعثمان بن مسلم ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، وعبد الله بن مسلم القَعَنْبي ، والفضل بن دُكين ، ونعيم بن حماد ، وغيرهم . وحدّث عنه : النسائي ، ويحيى بن صاعد ، وموسى بن هارون ، ومحمد بن جعفر الراشدي ، وآخرون غيرهم [٢] .

وقـد أثنـى عليـه أبو بكر الخَلاَّل بقـوله : ((كـان يعـرف الحـديث ، ويحـفظه ، ويعلم الأبواب ، والمسند)) [٣] . وكان مع الأثرم تَيَقُّظ عجيب ، حتى تعجب يحيى بن معين من ذلك الأمر ، فقال : ((كان أحد أبَويِّ الأثرم جِنِّياً)) [٤] ، وذلك لفرط ذكاء الأثرم ، وقوة حفظه .

وللأثرم مصنفات مهمة في الحديث وعلومه ، منها : كتاب « العِلل في الحديث » ، وكتاب « الناسخ والمنسوخ في الحديث » [٥] .

وممن اشتهر من علماء الحديث أيضاً ، **أبو علي حنبل بن إسحاق بن حنبل الشيباني** (ت ٢٧٣هـ/٨٨٦م) ، ابن عم أحمد بن حنبل ، أحد الرواة المكثرين عنه .

حدَّث عن : الفضل بن دُكين ، وسليمان بن حرب ، ومحمد بن كثير العبدي ، ومالك بن إسماعيل ، وعفان بن مسلم ، وسعيد بن سليمان ، وعلي بن المديني ، وعارم بن الفضل

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٨١/١٤) .

(٢) المصدر السابق ، (١١٠/٥) . ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٦٦/١) . الذهبي : العبر ، (٢٢/٢) . الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ، ص ١١ ، العليمي : المنهج الأحمد ، (٢١٨/١ ـ ٢٢٠) .

(٣) السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٢٦٠ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١١٠/٥) .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٢٧٩ . البغدادي : هدية العارفين ، (٥٠/١) .

بن دكين ، وجماعة غيرهم . وروى عنه : عبد الله بن محمد البَغَوي ، ويحيى بن صاعد ، وأبو بكر الخَلاَّل ، ومحمد بن مَخْلد ، وحمزة بن القاسم الهاشمي ، وآخرون سواهم .

وذكره الخطيب البغدادي فقال : ((كان ثقةً ، ثبتاً)) . وسُئل الدارقطني عنه فقال : ((كان صدوقاً)) . أما أبو بكر الخَلاَّل فقد قرَّظه بقوله : ((قد جاء حنبل عن أحمد بمسائل شَبَّهْتُها في حُسنها ، وإشباعها ، وجَوْدتها بمسائل الأثْرم)) [١] .

ومن مصنفات حنبل في الحديث : كتاب « السنة » [٢] ، و « جزء فيه حديث » [٣] .

ومن علماء العراق الذين أسهموا بقوة في علم الحديث ، **أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني** (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م) ، أحد حفَّاظ الحديث العالمين به .

رحل في طلب الحديث ، وكتب عن العراقيين ، والخراسانيين ، والجزريين ، والشاميين ، والمصريين . وكان يسكن البصرة .

سمع الحديث من الجلة ، فيهم : سليمان بن حرب ، وأبو عمر الحوضي ، وأبو الوليد الطَّيالسي ، وأحمد بن حنبل ، وعلي بن المديني ، ومسلم بن إبراهيم ، ويحيى بن معين ، وعثمان بن أبي شيبة ، والربيع بن نافع الحلبي ، ويزيد بن موهب الرَّملي ، وجماعة سواهم . وروى الحديث عنه : الترمذي ، وابنه أبو بكر عبد الله بن سليمان ، والنسائي ، وحرب الكَرْماني ، وزكريا السَّاجي ، وأبو بِشر الدُّولابي ، وأبو بكر الخَلاَّل ، وأبو بكر النَّجّاد ، وإسماعيل بن محمد الصَّفّار ، ومحمد بن مَخْلد الدُّوري ، وغيرهم .

وقال أبو بكر الخَلاَّل ، مُثْنياً على أبي داود : ((أبو داود الإمام المُقَدَّم في زمانه ، رجل لم يسبقه إلى معرفته بتخريج العلوم ، وبصره بمواضعها أحد في زمانه ، رجل وَرِع

---

(١) انظر ترجمة حنبل في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٨٦/٨ ـ ٢٨٧) ابن الجوزي : المنتظم (٨٩/٥) . ابن كثير : البداية والنهاية ، (٥٢/١١) . العليمي : المنهج الأحمد ، (٢٤٥/١ ـ ٢٤٧) .

(٢) الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٣٧ .

(٣) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٣٤/مجاميع) ، الأوراق : [١٩٤ أ ـ ٢١٦ ب] ، القرن ٨هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٢٣١/٣/١) .

مُقَدَّم)) . وقال عنه ابن حبَّان في كتابه (الثقات) : ((أبو داود أحد أئمة الدنيا فقهاً ، وعلماً ، وحفظاً ، ونسكاً ، وورعاً ، وإتقاناً ، وجمع ، وصنَّف ، وذَبَّ عن السُّنَنْ)) [١] .

ولقد جاء أثر أبي داود في علم الحديث بوضعه لكتاب : « السُّنَنْ » [٢] ، الذي نال من المكانة والقبول عند الأمة ، أن جعل أحد الكتب الستة المعتمدة في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . هذه المكانة التي حققها كتاب أبي داود لم تكن لتتأتى لولا قدرة مُصنفه في حسن إخراجه لهذا الكتاب ، ومنهجه الذي سار عليه ، حتى قال إبراهيم الحربي ، عندما صنف أبو داود هذا الكتاب ، : ((أُلين لأبي داود الحديث كما أُلين لداود الحديد)) [٣] .

وثمَّن أبو حامد الغزالي كتاب « السُّنَنْ » بقوله : ((يكفي المجتهد معرفتها من الأحاديث النبوية)) [٤] . ويذكر أبو داود كتابه هذا ، ويقول : ((جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث ، ذكرت الصحيح ، وما يشبهه ، ويقاربه)) [٥] . ولقد ضمَّن أبو داود منهجه في تأليف السُّنَنْ في رسالة بهذا الخصوص تحت عنوان : « رسالة أبي داود إلى أهل مكة في وصف سُنَنِهِ » [٦] .

ولأبي داود من الكتب غير السنن : كتاب « المسائل التي خالف عليها الإمام أحمد بن حنبل » [٧] ، كتاب « إجابته على سؤالات أبي عبيد محمد بن علي بن عثمان

---

(١) انظر ترجمة أبي داود في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٩/٥٥ ـ ٥٦) .ابن الجوزي : المنتظم ، (٥/٩٧ ـ ٩٨) . ابن الأثير : اللباب ، (١/٥٣٣) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢/٤٠٤ ـ ٤٠٥) . الذهبي : تذكرة الحفاظ ، (٢/٥٩١) .السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، (٢/٢٩٣) . اليافعي : مرآة الجنان ، (٢/١٨٩) . الداوودي : طبقات المفسرين ، (١/٢٠٧) .

(٢) مطبوع بتحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبري ، القاهرة ، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢/٤٠٤) .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، (١١/٥٥) .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٩/٥٧) .

(٦) مطبوعة بتحقيق : محمد الصباغ ، دار العربية ، القاهرة ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م .

(٧) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٣٢٤ حديث) ، ٢٦٦ هـ . قال فؤاد سزكين : « وأغلب الظن أن هذا المخطوط منقول عن نسخة أبي داود » . تاريخ التراث العربي ، (١/١/٢٩٥) .

الآجـري »[١] ، كتـاب « تسميـة الإخـوة الذيـن روي عنهـم الحديـث »[٢] ، كتـاب « المراسيـل »[٣] ، كتاب « مسند عائشـة رضي الله عنها »[٤] ، كتاب « مسائل الإمام أحمد »[٥] ، كتاب « السنة » ، كتاب « فضائل الأنصار » ، كتاب « الناسخ والمنسوخ » في الحديث[٦] .

ومن العلماء المبرزين في الحديث خلال تلك الفترة ، **أبو بكر أحمد بن زهير بن حرب** (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) ، ابن المحدِّث أبو خيثمة ، الذي مرَّ ذكره ، وأحد حفَّاظ الحديث ، ورواته ، وممن كانت له عناية بتاريخ الرواة ، وطبقاتهم .

أخذ الحديث عن : أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين . وسمع : منصور بن سلمة الخزاعي ، وموسى بن إسماعيل التَّبوذكي ، ومحمد بن سابق ، والفضل بن دُكَيْن ، وأحمد ابن يونس اليَرْبوعي ، وغيرهم . أما من روى عنه ، فمنهم : عبد الله بن أحمد البَغوي ، ويحيى بن صاعد ، وأبو بكر بن أبي داود السجستاني ، والحسين بن أحمد بن صدقه ، والحسين بن إسماعيل المحَاملي ، ومحمد بن مَخْلد الدُّوري ، وخلق سواهم .

قال الخطيب البغدادي عنه : ((ثقة ، علم ، متقن ، حافظ ، بصير بأيام الناس ، راوية للأدب)) . وقال عنه الدارقطني : ((ثقة مأمون))[٧] .

ولأبي بكر من المصنفات في الحديث ، كتاب « تاريخ رواة الحديث »[٨] .

---

(١) مخطوط بمكتبة كوبريلي في إسطنبول ، برقم (٢٩٢) ، القرن ٦هـ . المرجع السابق ، (٣٢٣/١/١) . وقد طبع الجزء الثالث بتحقيق : محمد علي العمري ، الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

(٢) مطبوع بتحقيق : باسم الجوابرة ، دار الراية ، الرياض ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

(٣) مطبوع بتحقيق : يوسف المرعشلي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

(٤) مطبوع بتحقيق : محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م .

(٥) الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٣٧ ، ٥٩ ، ٨٠ .

(٦) مطبوع بتحقيق : عبد الغفور عبد الحق حسين ، مكتبة دار الأقصى ، الكويت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(٧) انظر ترجمة أبو بكر في : النديم : الفهرست ، ص ٣٧٩ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٦٢/٤ ، ١٦٣) . ابن الجوزي : المنتظم ، (١٣٩/٥) .

(٨) مخطوط بمكتبة القرويين في فاس ، برقم (٦٥٥) . وهو يتحدث عن تعديل الرواة ، وتجريحهم . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٣٢/٣) .

ومن أعلام الحديث البغداديين ، **أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي البغدادي** (ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م) ، الذي كان أحد حفاظ الحديث ، مميزاً لعلله ، رأساً في الزهد ، عارفاً بالفقه ، بصيراً بالأحكام ، قَيِّماً للأدب ، جَمّاعاً للغة .

روى الحديث عن : عبد الله بن صالح العجلي ، والفضل بن دُكين ، وعفان بن مسلم ، وأحمد بن حنبل ، وموسى بن إسماعيل التَّبوذَكي ، وسعيد بن سليمان الواسطي ، وعلي بن الجَعْد ، وخلف بن هشام ، وعثمان بن أبي شيبة ، ومحمد بن بكّار ، وقوم سواهم . وروى عنه الحديث : يحيى بن صاعد ، وأبو بكر النَّجّاد ، وأبو بكر الشافعي ، وعبد الله بن سليمان السجستاني ، وأبو بكر الأنباري ، وأبو عمر الزاهد ، وموسى بن هارون الحافظ ، وإبراهيم بن حبيش بن دينار ، ومحمد بن علوان المقريء ، وغيرهم [١] .

ولقد حاز أبو إسحاق على إعجاب معاصريه من العلماء ، فأثنى عليه غير واحد ، فقال عنه محمد بن صالح : ((لا نعلم أن بغداد أخرجت مثل إبراهيم الحربي في الأدب ، والفقه ، والحديث ، والزهد)) [٢] . أما أبو الحسن الدارقطني فقد قال في حقه : ((كان إماماً ، وكان يقاس بالإمام ابن حنبل في زهده ، وعلمه ، وورعه)). وقال عنه أيضاً : ((أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي ، إمام مُصنِّف ، عالم بكل شيء ، برع في كل علم ، صدوق)) [٣] .

وأخذ أبو إسحاق اللغة والنحو على أبي العباس ثعلب ، رأس العربية بالكوفة ، وكان ثعلب يقول: ((ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس نحو أو لغة خمسين سنة)) [٤].

وكان لأبي إسحاق في دهليز داره مكاناً لكتبه ، ويجلس فيه للنسخ ، والنظر ، إذ كان يُورِّق بنفسه [٥] .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٣٨١ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٧/٦ ـ ٢٨) . القفطي : إنباه الرواة ، (١٩٠/١) .

(٢) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٦٢ .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٤٠/٦) .

(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١١٨/١) .

(٥) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٨٧/١) .

أمـا زهده ، فكان مَضــرب المثل في بابه ، ومن ترجم له ، ذكـر نماذج عـديدة ، وعظيمة في دلالتها على زهد هذا الرجل ، ويخبرنا هو بنفسه فيقول : « ... ولي عشر سنين أبصـر بفرد عين مـا أخبـرت بهـا أحداً قط ، وأفنيت من عـمري ثلاثين سنة برَغيـفين ، إن جاءتني بهما أمي أو أختي أكلت ، وإلا بقيت جائعاً عطشاناً إلى الليلة الثانية)) [١] .

إن التواضع للعلم ، وهو ما كان يُغلف شخصية أبي إسحاق ، هو الذي أهله ليتبوأ المكانة المرموقة بين علماء الحديث ، فهو يقول : ((إن العالم بجلالته ما دام خارجاً عن المسجد ، فإذا دخل المسجد صار غلاماً متعلماً)) [٢] . ولهذا لم يكن أبو إسحاق يأخذ أجراً على التعليم . وأمام هذه النظرة ، كان ثقه أقرانه حتى نرى الامام أحمد بن حنبل يقول لابنه عبد الله : ((إمض إلى إبراهيم الحربي حتى يلقي عليك الفرائض)) [٣] .

ولأبي إسحاق مصنفات ، لم يصل إلينا منها سوى كتابه « غريب الحديث » [٤] . ذكر أبو إسحاق أن في كتابه هذا (مائة وخمسة وعشرون حديثاً) ليس لها أصل ، قد علَّم عليها في كتابه [٥] . والذي خرج منه : واحد وعشرون مسنداً ، آخرها مسند الموالي [٦] . ويُقيِّم الكتَّاني هذا الكتاب بقوله : ((وهو كتاب حافل ، أطاله بالأسانيد ، وسياق المتون بتمامها ، ولو لم يكن في المتن من الغريب إلا كلمة واحدة ، فَهُجِر لذلك كتابه مع كثرة فوائده ، وجلالة مؤلفه)) [٧] .

ومن المحدِّثين الذين اشتهروا خلال فترة نفوذ الأتراك ، **أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني** (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) ، ابن الإمام أحمد ، وكان أحد حفَّاظ الحديث المشهود لهم ، ثقة ، ثبتاً . سمع الحديث ، ورواه عن قوم ، منهم : والده ، وعبد الأعلى بن حماد ، وكامل بن طلحة ، ويحيى بن معين ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، وعثمان

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣١/٦) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١١٤/١) .

(٢) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٩٢/١) .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٥/٦) .

(٤) مطبوع بتحقيق : سليمان العايد ، دار المدني ، جده ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(٥) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ .

(٧) الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

ابن أبي شيبة ، وشيبان بن فروخ ، ومحمد بن جعفر الوركاني ، وعباس بن الوليد النرسي ، وزهير بن حرب ، وسويد بن سعيد ، وغيرهم . وحدّث عنه : النسائي ، وأبو القاسم البغوي ، وعبد الله بن إسحاق المدائني ، وأبو بكر النَّجاد ، ويحيى بن صاعد ، وأبو بكر الخَلاَّل ، وأبو الحسين بن المنادي ، والحسن بن إسماعيل المحاملي القاضي ، وأحمد بن كامل القاضي ، وإسماعيل بن علي الخُطَبي ، وإسحاق بن أحمد الكاذي ، وجماعة سواهم .

وأخذ عبد الله عن أبيه مسائل جياد كثيرة ، يغرب منها بأشياء كثيرة في الأحكام . وأما العِلل ، فقد أخذ عن والده ، وجاء عنه بما لم يجيء به غيره . ويقول ابن المنادي : ((أما عبد الله ، فلم يكن في الدنيا أحد روى عن أبيه أكثر منه ، لأنه سمع المسند ، ... والتفسير ، ... والناسخ والمنسوخ ، والتاريخ ، وحديث شعبة ، والمقدَّم والمؤخر في كتاب الله تعالى ، وجوابات القرآن ، والمناسك ، الكبير والصغير ، وغير ذلك من التصانيف ، وحديث الشيوخ)) . وكان لا يكتب عن أحد إلا من أمره أبوه أن يكتب عنه [١] .

ولهذا حاز عبد الله على ثقة الأكابر من شيوخ الحديث في عصره ، الذين لا يزالون ((يشهدون له بمعرفة الرجال ، وعِلل الحديث ، والأسماء والكُنى ، والمواظبة على طلب الحديث ، ويذكرون عن أسلافهم الإقرار له بذلك)) [٢] .

وكان عبد الله قد تولى القضاء بطريق خراسان في خلافة المكتفي (٢٨٩ـ٢٩٥هـ/٩٠٢ـ٩٠٨م) [٣] .

ولأبي عبد الرحمن مصنفات عدة ، كانت وما زالت تشكل أهمية في المكتبة الإسلامية ، إذ هو الذي استأثر أكثر من غيره بعلم الإمام أحمد ، فعرف منه ما لم يعرفه

---

(١) انظر ترجمة عبد الله بن أحمد في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٧٥/٩) . ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (١٨٠/١ ـ ١٨٨) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٣٩/٦ ـ ٤٠) . الذهبي : تذكرة الحفاظ ، (٦٦٥/٢) .الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ، ص ١٦١ . العليمي : المنهج الأحمد ، (٢٩٤/١ ـ ٢٩٨) . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (٢٠٣/٢) . السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٢٩٣ .

(٢) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (١٨٣/١) .

(٣) المصدر السابق : (١٨٨/١) .

غيره . على أن مؤلفات عبد الله منها ما كان زيادات ، ونَقْلٌ لعلم أبيه ، ومصنفاته . ومنها ما كان من تصنيفه هو [١] .

فمن مُصنَّفاته التي أكمل بها ما بدأه والده ، أو ما جمعها عن والده : كتاب « زيادات المسند » [٢] ، كتاب « زيادات كتاب الزهد » [٣] ، كتاب « العلل » [٤] .

أما الكتب التي صنفها عبد الله فهي : كتاب « السُّنة » [٥] ، كتاب « مسائل الإمام أحمد برواية عبد الله » [٦] ، كتاب « مسند الأنصار » [٧] ، كتاب « فضائل عثمان بن عفان » [٨] ، كتاب « الجمل » ، كتاب « المناسك الصغير » [٩] .

واشتهر من المحدِّثين في ذلك الوقت ، **أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله البصري المعروف بالكجي** (ت ٢٩٢هـ/٩٠٥م) ، أحد المحدِّثين الثقات ، أخذ الحديث عن جماعة ، منهم : محمد بن عبد الله الأنصاري ، وعبد الرحمن بن حماد الشعبي ، وحجاج بن نصير الفَسَاطيطي ، وعبد الله بن مسلمة القَعْنبي ، وغيرهم . وروى عنه الحديث : أبو القاسم البغوي ، وإسماعيل بن محمد الصَّفّار ، وأبو عمرو بن السمّاك ، وأبو بكر النَّجاد ، وعبد الباقي بن قانع ، وإسماعيل الخطيب ، وغيرهم .

وقال عنه الدارقطني : ((كان ثقة ، سريًّا ، نبيلاً ، عالماً بالحديث)) . وقد مدحه البُحْتري الشاعر . وقيل : أنه لما حدَّث أبو مسلم تصدَّق بعشرة آلاف . وكان يحتفي بطلابه

---

(١) مقدمة محقق كتاب « السُّنة » لعبد الله بن أحمد بن حنبل ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٢) مطبوع .

(٣) مطبوع .

(٤) طبع الجزء الأول من هذا الكتاب بتحقيق : طلعت قوج ، وإسماعيل جراج ، د . د ، أنقرة ، ١٩٦٣م .

(٥) مطبوع بتحقيق : محمد سعيد القحطاني ، دار ابن القيم ، الدمام ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

(٦) سبق ذكره في هذا المبحث عند الحديث عن الإمام أحمد ، ص ٣٠٩ .

(٧) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٣٣٦ حديث/ مجاميع) ، الأوراق : [٢٤ أ ـ ١٣٠ أ] ، القرن ٧هـ .

(٨) مخطوط بمكتبة الأمبروزيانا في ميلانو (إيطاليا) ، برقم (٦٧) . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٣١٥/١/١) .

(٩) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٦٦/١٠) . الذهبي : سير أعلام النبلاء ، (٥٢٣/١٣) .

بعد أن ينتهوا من سماع السُّنَنَ منه ، ويعمل لهم مأدبة قد تُكلِّف مئات الدنانير ، كما يذكر ذلك أحد تلاميذه ، وهو الفاروقي الخطابي .

ولمكانة أبي مسلم العلمية ، كان مجلسه يَغصُّ بالحاضرين : كاتبين ، ومستمعين . فعندما أملى في رحبة غسَّان ببغداد ، كان في مجلسه سبعة مُسْتملين ، ثم مُسِحَت الرَّحْبة بعدد المحابر ، فبلغ ذلك الآلاف ، سوى النّظَّارة من الناس (١) .

ولأبي مسلم من المصنفات في الحديث : كتاب « السُّنَنْ » ، كتاب « المسند » (٢) ، « جزء فيه حديث أبي مسلم » (٣) .

وهناك ، **أبو عمران موسى بن هارون البغدادي البزاز** (ت ٢٩٤هـ/٩٠٧م) ، مُحدِّث العراق ، الحُجَّة ، الجامع . ووالده أبو موسى الحمّال ، المحدِّث المشهور ، وكان أبو عمران أحد العارفين بالرجال . وسمع الحديث ، وأخذه عن جماعة ، منهم : والده ، وداود بن عمرو الضُّبي ، ومحمد بن جعفر الوَرْكاني ، ويحيى بن الحماني ، وإبراهيم بن زياد ، وحاجب بن الوليد ، وخلف بن هشام ، وعلي بن الجعد ، ومحرز بن عون ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وغيرهم . وروى عنه : جعفر الخلدي ، وإسماعيل الخطبي ، وأحمد بن عيسى التمار ، وعبد العزيز بن محمد بن الواثق ، والقاضي محمد بن أحمد الذهلي ، ودعلج بن أحمد ، وعلي بن هارون السمسار ، وغيرهم .

وقد أثنى عليه العلماء والمؤرخون ، فقال الصبغي في حقه : ((ما رأينا في حفَّاظ الحديث أهْيب ، ولا أورع منه)) . أما عبد الغني بن سعيد فذكره بقوله : ((أحسن الناس كلاماً على حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثلاثة : علي بن المديني في وقته ، وموسى

---

(١) انظر ترجمة الكَجّي في : النديم : الفهرست ، ص ٣٨٢ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٦/١٢٠ ـ ١٢١) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٦/٥٠ ـ ٥٢) . ابن الأثير : اللباب ، (٣/٢٩) . اليافعي : مرآة الجنان ، (٢/٢٢٠) . الداوودي : طبقات المفسرين ، (١/١٣) . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (٢/٢١٠) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٣٨٢ .

(٣) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٤٥٦) ، ٦٤٢هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي (١/١/٣١٦) .

بن هارون في وقته ، وعلي بن عمر الدارقطني في وقته)) . ولذلك ، اكتسب موسى بن هارون مكانة رفيعة ، ومنزلة عالية عند مشايخة ، جعلت إسماعيل بن إسحاق القاضي إذا قعد في مجلسه لا يُحدِّث حتى يحضر موسى بن هارون . وقيل : أن أبا عمران هو الذي خرَّج لإسماعيل المذكور مسنده [١] .

ولم يصل إلينا من مصنفات أبي عمران سوى « جزء حديث » [٢] .

ومن علماء الحديث المشهورين في ذلك الوقت أيضاً ، **أبو بكر أحمد بن محمد الخلال** (ت ٣١١هـ/٩٢٣م) ، أحد المبرِّزين في هذا العلم . أخذ الحديث عن : الحسن بن عرفة ، وسعدان بن نصر ، ومحمد بن عوف الحمصي ، وغيرهم . وسمع مسائل أحمد على جماعة ، منهم : صالح وعبد الله ، أبناء أحمد بن حنبل ، وإبراهيم الحربي ، وبدر المغازلي ، وحرب الكرماني ، وأبو زرعة الدمشقي ، وإسماعيل بن إسحاق الثقفي ، وأبو داود السجستاني ، وأحمد بن هاشم الأنطاكي ، وسواهم . وروى عنه الحديث : عبد العزيز بن جعفر ، والحسن بن يوسف الصيرفي ، ومحمد بن المظفر ، وآخرون غريهم .

وكان الخَلاَّل قد صرف عنايته إلى جمع مسائل أحمد بن حنبل ، وسماعها ممن سمعها من أحمد ، وكتبها ، وصنَّفها كتباً ، وطاف البلاد في سبيل ذلك ، فنال منها ، وسبق إلى ما لم يسبقه إليه أحد ، وشهد له شيوخ المذهب بالفضل والتقدُّم في ذلك ، حتى قال محمد بن الحسين بن شهريار : ((كلنا تُبَّع للخَلاَّل ، لأنه لم يسبق إلى جمعه وعلمه أحد)) [٣] .

---

(١) انظر ترجمة البزَّاز في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٣/٥٠ ـ ٥١) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٦/٦٦) . الذهبي : دول الإسلام ، ص ١٦٢ . السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٢٩٦ .

(٢) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٤٠/ مجاميع) ، الأوراق : [٥٥ أ ـ ٦٦ ب] ، القرن ٥هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي (١/١/٣١٩) .

(٣) انظر ترجمة الخَلاَّل في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٥/١١٢ ـ ١١٣) . الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ١٧١ . ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٢/١٢ ـ ١٣) . الذهبي : العبر ، (١/٤٦١) . ابن كثير : البداية والنهاية ، (١١/١٤٨) .

ولأبي بكر الخَلال من المصنفات : كتاب « المسند من مسائل أبي عبد الله أحمد بن حنبل » (١) ، كتاب « طبقات أصحاب ابن حنبل » (٢) ، كتاب « العلل » ، كتاب « السُّنة » (٣) .

وممن اشتهر في العراق من علماء الحديث أيضاً ، **أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني** (ت ٣١٦هـ/٩٢٨م) ، ابن أبي داود صاحب السُّنَنْ . فهو عالم ابن عالم ، وكان من جِلَّة المحدِّثين وفقهائهم ، ثقة ، من أكابر حفَّاظ بغداد .

ساح في البلاد طلباً للحديث ، فسمع وبرع ، وساد الأقران ، وشارك أباه في شيوخه بمكة ، والمدينة ، ومصر ، والشام ، والعراق ، والجزيرة ، وأصفهان ، وسجستان ، وشيراز ، والجبال . فحدَّث عن : علي بن خشرم المروزي ، وسليمان بن معبد السنجي ، وسلمة بن شبيب ، ومحمد بن يحيى الذهلي ، وأحمد بن الأزهر النيسابوري ، وإسحاق بن منصور الكوسج ، ومحمد بن بشار ، وإسحاق بن إبراهيم النهشلي ، وغيرهم . وروى عنه الحديث : أبو بكر بن مجاهد المقرىء ، وعبد الباقي بن قانع ، ودعلج بن أحمد ، ومحمد بن إسماعيل الوراق ، وأبو حفص بن شاهين ، وأبو الحسن الدارقطني ، وأبو بكر بن شاذان ، وأبو أحمد الحاكم ، وأبو علي النيسابوري الحافظ ، وعلي بن حمزة الأصفهاني ، وخلق سواهم (٤) .

وأصبح لأبي بكر مكانة رفيعة ، أصبح معها محل ثناء علماء عصره . فقال صالح بن أحمد الحافظ : ((أبو بكر عبد الله بن سليمان ، إمام العراق ، وعلم العلم في الأمصار ،

---

(١) مطبوع بتحقيق : ضياء الدين أحمد ، الجمعية الآسيوية ، بنغلاديش ، ١٩٨٠م .

(٢) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (١٠٦/ مجاميع) ، الأوراق : [٢٨ أ ـ ٥٢ أ] ، القرن ٥هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٢٣٤/٣/١) .

(٣) الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٣٧ ، ١٤٨ .

(٤) انظر ترجمة أبي بكر السجستاني في : النديم : الفهرست ، ص ٣٨٣ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٤٦٤/٩ ـ ٤٦٥) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٢١٨/٦ ـ ٢١٩) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤٠٥/٢) . الذهبي : ميزان الإعتدال ، (٤٣٣/٢) .

نصب له السلطان المنبر ، فحدّث عليه ، لفضله ومعرفته)) [١] . وقال أبو بكر الخَلَّال عنه : ((كان إمام أهل العراق ، وكان في وقته مشايخ أسند منه ، ولم يبلغوا في الآلة والإتقان ما بلغ)) [٢] . وسُئل الدارقطني عنه ، فأجاب بقوله : ((ثقة ، إلا أنه كثير الخطأ في الكلام على الحديث)) [٣] .

ولأبي بكر السجستاني مصنفات ساهم بها في الدراسات المتعلقة بالحديث ، منها : كتاب « المصابيح » ، كتاب « الطهور » ، كتاب « البعث والنشور » [٤] ، كتاب « فضائل القرآن » ، كتاب « السنن » ، كتاب « الناسخ والمنسوخ » ، كتاب « المسند » [٥] ، كتاب « مسند عائشة » [٦] .

ويعد **أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي البغدادي المعروف بابن بنت منيع** (ت ٣١٧هـ/٩٢٩م) ، أحد حفَّاظ الحديث الثقات ، والمؤرخ ، والمفسر . ولقد اشتهر أبو القاسم وتميز بين المحدِّثين بقِدم السماع . وقال الحسن بن عبد الرحمن الخَلَّاد عن أبي القاسم : ((وسمعناه يقول : حدَّثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني في سنة خمس وعشرين ومائتين)) .

سمع الحديث على يد العديد من العلماء ، من أشهرهم : علي بن الجعد ، وخلف بن هشام البزار ، ومحمد بن عبد الوهاب الحارثي ، ومحمد بن حيان البغوي ، وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني ، وزهير بن حرب ، وحاجب بن الوليد ، وجماعة غيرهم .

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٩/٤٦٥) .

(٢) السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٣٢٥ .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٩/٤٦٨) .

(٤) مخطوط بدار الكتب المصرية في القاهرة ، برقم (٢٣٧٤٠) ، القرن ٤هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١/١/٣٤٤) .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٣٨٣ . الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٨ . البغدادي : هدية العارفين ، (١/٤٤٤) .

(٦) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٨١ / مجموع) ، الأوراق : [٥٣ أ – ٦١ أ] ، القرن ٧هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١/١/٣٤٥) .

أما من روى عنه الحديث ، فمنهم : يحيى بن صاعد ، وعلي بن إسحاق المادراني ، وعبد الباقي بن قانع ، وحبيب بن الحسن القزاز ، ومحمد بن عمر الجعابي ، وأبو بكر ابن شاذان ، وأبو الحسن الدراقطني ، وعمر بن شاهين ، وخلق سوى هؤلاء .

وقال عنه الدراقطني : ((كان أبو القاسم بن منيع قلَّما يتكلم على الحديث ، فإذا تكلم ، كان كلامه كالمسمار في السَّاج)) . ووثَّقة الخطيب بقوله : ((وكان ثقة ، ثبتاً ، مُكثراً)) (١) .

وكان لأبي القاسم مصنفات عدة في علوم الحديث عموماً ، منها : كتاب « معجم الصحابة » (٢) ، كتاب « حديث أبي سلمة » (٣) ، كتاب « مسائل أحمد بن حنبل » (٤) ، كتاب « ثلاثة وثلاثون حديثاً من حديث أبي القاسم .... الخ » تخريج أبو طالب محمد بن علي العشاري (ت ٤٣١هـ/١٠٤٠م) (٥) ، كتاب « المسند » ، كتاب « السنن » على مذهب الفقهاء ، كتاب « معرفةالصحابة » (٦) .

وأما **أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد الهاشمي البغدادي** (ت ٣١٨هـ/٩٣٠م) ، فهو أحد رواة الحديث المبرِّزين ، وممن عُني به ، ورحل في طلبه ، وسمع : الحسن بن عيسى بن ماسرجس ، ومحمد بن سليمان ، ويحيى بن سليمان

---

(١) انظر ترجمة أبي القاسم في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٠/١١١ ـ ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٦) ابن الجوزي : المنتظم ، (٦/٢٢٧ ـ ٢٣١) . الذهبي : ميزان الاعتدال ، (٢/٤٩٢) . السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٣١٥ . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (٢/٢٧٥) .

(٢) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٩٤/١١/ مجاميع) ، الأوراق : [١٢٨ أ ـ ١٣٩ أ] ، ٩٤٨هـ. فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١/١/٣٤٥) .

(٣) مخطوط بمكتبة تشستربتي في دبلن (أيرلنده) ، برقم (٣٥٢٤/٢) ، الأوراق : [١٦ ـ ٢٥] ، القرن ٧هـ . المرجع السابق ، (١/١/٣٤٦) .

(٤) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٨٣/٧) . المرجع السابق ، (١/١/٣٤٦) .

(٥) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٥١/ مجاميع) ، الأوراق : [٥٦ أ ـ ٧٣ أ] ، القرن ٧هـ . المرجع السابق ، (١/١/٣٤٦) .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ٣٨٤ . الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٣٨٤ . البغدادي : هدية العارفين ، (١/٤٤٤) .

الخزاعي ، وسوار بن عبد الله العنبري ، وأحمد بن منيع البغوي ، ومحمد بن يزيد الأدمي ، والحسين بن الحسن المروزي ، ويوسف بن موسى القطان ، والحسن بن الصباح البزار ، ومحمد بن إسماعيل البخاري ، وسواهم من البصريين ، والكوفيين ، والشاميين ، والمصريين . وروى عنه : عبد الله بن محمد البغوي ، ومحمد بن عمر الجعابي ، وأبو عمر بن حيويه ، وأبو الحسن الدارقطني ، وأبو حفص بن شاهين ، وأبو القاسم بن حبابة ، وخلق سواهم .

وكان لأبي محمد مجلس إملاء بمسجده على نهر طابق [١] . إضافة إلى تَبحُّره في الرجال ، والعِلل ، وله كلام متين في ذلك ، يدل على بروزه في هذا الفن .

ولمكانته العلمية الرفيعة ، حَظي أبو محمد بقبول رجال عصره ، ومن جاء بعدهم . فقد قال عنه إبراهيم الحربي : ((بنو صاعد ثلاثة ، أوثقهم يحيى)) . وقال الدراقطني : ((بنو صاعد ثلاثة ، ... ويحيى أصغرهم ، وأعلمهم ، وأثبتهم)) . أما أبو بكر بن عبدان فقد وصف أبا محمد بأنه : ((لا يتقدمه أحد في الدراية ، وعندما سُئل ابن عبدان عن : الفرق بين الدراية ، والحفظ . قال : الدراية فوق الحفظ)) [٢] .

ولأبي محمد مصنفات في السُّنَن وترتيبها على الأحكام . تدل ، من وقف عليها وتأملها ، على فقهه [٣] . ومن هذه المصنفات : كتاب « السنن » ، كتاب « المسند » [٤] ،

---

(١) نهر طابق : محلة في الجانب الغربي من بغداد . ويخرج نهر طابق من نهر كرخايا ، ويصب في نهر عيسى في أقصى الجنوب من جانب بغداد الغربي ، عند دار البطيخ . سهراب : عجائب الأقاليم السبعة ، ص ١٣٣ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٥/٣٢١) .

(٢) انظر ترجمة ابن صاعد في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٤/٢٣١) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٦/٢٣٥ ـ ٢٣٦) . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٨/٢٢٣) . الذهبي : سير أعلام النبلاء ، (١٤/٥٠١ ـ ٥٠٧) . اليافعي : مرآة الجنان ، (٢/٢٧٧) . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، (٣/٢٨٨) .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٤/٢٣٢ ، ٢٢٣) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٣٨٣ . البغدادي : هدية العارفين ، (٢/٥١٧) .

كتاب « الأمالي » مجلس منه [١] ، كتاب « الحديث » [٢] ، كتاب « حديث عبد الله بن مسعود » [٣] ، كتاب « مسند أبي بكر الصديق » [٤] .

من العلماء الذين أسهموا في علم الحديث بشكل واضح ، **أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل الضبي المحاملي** (ت ٣٣٠هـ/٩٤١م) ، وكان فاضلاً ، صادقاً ، ديِّناً . تولَّى قضاء الكوفة ستين سنة . وكان ذو إسناد عال في رواية الحديث ، حتى قال ابن جميع : ((كان عند المحاملي سبعون رجلاً من أصحاب ابن عيينة)) . ولذلك أصبح مجلس إملاء المَحَاملي مقصد الجِلَّة من أصحاب الحديث ، منهم : أبو حفص بن شاهين ، ومحمد بن المظفر ، وعبد الله الكاتب ، وخلق كثير غيرهم . ذكر أبو بكر الداودي : بأن عدد الحاضرين لهذا المجلس بالآلاف .

وكانت دار المَحَاملي منذ سنة (٢٧٠هـ/٨٨٣م) ، مَغشى أهل العلم والنظر ، يتناقشون ويتناظرون بحضرة أبي عبد الله يوم الأربعاء من كل إسبوع إلى أن توفى .

وذكره النديم في الفهرست قائلاً : ((ونودي عليه في شوارع بغداد عند وفاته . ولم يكن بقي على الأرض محدِّث أسند منه ، مع صدقه ، وثقته ، وستره)) [٥] .

---

(١) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٨٧/ مجاميع) ، الأوراق : [٨٢ أ ـ ٨٩ أ] ، القرن ٦هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٣٤٧/١/١) .

(٢) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٣٢ / مجاميع) ، الأوراق : [٣٥ أ ـ ٤٠ أ] . المرجع السابق ، (٣٤٧/١/١) .

(٣) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٣٨٧ / حديث) ، الأوراق : [٦٧ ـ ١٠٢] . المرجع السابق ، (٣٤٧/١/١) .

(٤) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (١٠٤ / مجاميع) ، الأوراق : [٥٨ ـ ٦٥] . المرجع السابق ، (٣٤٧/١/١) .

(٥) انظر ترجمة المحاملي في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٩/٨ ـ ٢٠) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٣٢٧/٦) . ابن الأثير : اللباب ، (١٧١/٣) . أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، (٨٩/٢) . الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٣٤١/١٢) . الأسنوي : طبقات الشافعية ، (٢٠٤/٢) .

ولأبي عبد الله من المصنفات : كتاب « الأمالي » [١] ، كتاب « حديث » [٢] ، كتاب « السنن » على أبواب الفقه [٣] .

وكان **أبو عبد الله محمد بن مخلد الدوري العطار** (ت ٣٣١هـ/٩٤٣م) ، أحد المحدِّثين الثقات . صحب جماعة من أصحاب أحمد بن حنبل ، وحدَّث عنهم ، ومنهم: صالح بن أحمد بن حنبل ، وأبو داود السجستاني ، وأبو بكر المروزي ، وزكريا بن يحيى الناقد ، وسلم بن جنادة ، ويعقوب بن إبراهيم الدورقي ، والفضل بن يعقوب الرخامي ، والزبير بن بكار ، والفضل بن سهل الأعرج ، ومحمد بن حسان الأزرق ، والحسن بن عرفة ، ومسلم بن الحجاج ، وآخرين سواهم .

وروى الحديث عنه جماعة ، منهم : أبو العباس بن عقدة ، ومحمد بن الحسين الآجري ، وأبو بكر بن الجعابي ، وأبو الحسن الدارقطني ، وأبو عبد الله بن بطة ، وأبو حفص بن شاهين ، وأبو عمر بن حيويه ، وأبو عبيد الله المرزباني ، ومن في طبقتهم ، وبعدهم .

وكان أبو عبد الله أحد الموصوفين بالأمانة ، والعبادة ، وسعة الرواية ، وأحد أهل الفهم ، الموثوق في علمهم . وكان يقطن محلة الدُّور [٤] ، فشكا إليه بعض تلاميذه وعورة الطريق إلى منزلة ومشقَّتِه ، وطلبوا منه أن يجعل لمجلس حديثه مكان آخر غير منزله ، فأبى عليهم ذلك ، وقال : ((من هذا المَوْضِعِ كنت أمضي إلى المحدِّثين فأسمع منهم)) [٥] .

---

(١) مخطوط بمكتبة تشستربتي في دبلن (أيرلنده) ، برقم (٣٤٩٥) ، القسم الخامس ، الأوراق : [٥٧ ـ ٦٨] ، ٧٣٨هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٣٥٨/١/١) .

(٢) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (١١٥) ، الأوراق : [٢٢٤ أ ـ ٢٣١ أ] ، القرن ٦هـ . المرجع السابق ، (٣٥٨/١/١) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٣٨٣ .

(٤) محلة الدُّور : أحد محال بغداد في الجانب الشرقي منها . وينسب إليها العديد من رواة الحديث . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٤٨١/٢) .

(٥) انظر ترجمة الدُّوري في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣١٠/٣) . ابن القيسراني : المؤتلف والمختلف ، ص ٦٤ ـ ٦٥ . ابن الجوزي : المنتظم ، (٣٣٤/٦) . ابن كثير : البداية والنهاية ، (٢٠٧/١١) . العليمي : المنهج الأحمد ، (٤٣/٢ ـ ٤٤) . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (٣٣١/٢) .

ومن مصنفات أبو عبد الله الدُّوري في الحديث : كتاب « الحديث » [١] ، كتاب « الأمالي » [٢] ، كتاب « ما رواه الأكابر عن مالك بن أنس » [٣] . كتاب « المسند الكبير » [٤] .

وممن ساهم في نشاط علوم الحديث في العراق في ذلك الوقت ، **أبو بكر أحمد بن سليمان النجاد** (ت ٣٤٨هـ/٩٥٩م) ، العالم ، الناسك ، الوَرِع ، وأحد أئمة الحنابلة المعروفين .

أخذ الحديث عن جماعة ، منهم : الحسن بن مكرم ، ويحيى بن أبي طالب ، وأحمد بن ملاعب ، وأبو داود السجستاني ، وأبو بكر الباغندي ، وإبراهيم الحربي ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل ، وبشر بن موسى ، وأبو بكر بن أبي الدنيا ، وآخرين غيرهم .

وحدَّث عنه : أبو حفص بن شاهين ، وأبو عبد الله بن بطة ، وأبو حفص العكبري ، وأبو الفضل التميمي ، وأبو الحسن الدارقطني ، وأبو بكر بن مالك القطيعي ، وآخرين سواهم .

وكان لأبي بكر حَلَقتان يوم الجمعة بجامع المنصور في بغداد ، واحدة للفقه ، والأخرى لإملاء الحديث . وأقبل عليه أهل الحديث ، لا تساع روايته ، وانتشار أحاديثه ، ومصنفاته . ووصل الأمر ، من شدة إقبال أهل الحديث على مجلسه ، إلى درجة أنه كان إذا أملى الحديث ، أخذ الناس يتكاثرون حتى يغلق بابان من أبواب جامع المنصور مما يليان الحَلْقة .

---

(١) مخطوط بمكتبة كوبريلي في إسطنبول ، برقم (١٥٨٤) ، الأوراق : [٩٥ أ ـ ١٠٢ ب] ، القرن ٧هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٣٥٩/١/١) .

(٢) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٥١ / مجاميع) ، الأوراق : [٩٧ أ ـ ١٠٢ أ] ، القرن ٦هـ . المرجع السابق ، (٣٥٩/١/١) .

(٣) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٩٧ / مجاميع) ، الأوراق : [٢٠٢ أ ـ ٢٠٩ أ] ، القرن ٦هـ . المرجع السابق ، (٣٦٠/١/١) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٣٨٣ .

واتصف أبو بكر بالأدب في طلب العلم ، واحترامه له ، وتواضعه في طلبه ، فيذكر صاحبه ، أبو علي بن الصواف ، أنه كان يأتي معهم إلى علماء الحديث ونعله في يده ، فقيل له : لم لا تلبس نعلك ؟ . فقال أبو بكر : ((أحب أن أمشي في طلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا حافٍ)) [١] .

ولأبى بكر من المصنفات : كتاب « السنن » ، كتاب « الفوائد في الحديث » [٢] ، كتاب « الأمالي » [٣] ، كتاب « مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » [٤] .

ولقد كان للنساء مشاركة حسنة في رواية الحديث وكتابته ، وإن لم تكن مثل الرجال بالطبع . ولكن وجود أسماء ، ولو قليلة ، توحي إلينا بأن المجتمع كان يملك من الوعي الفكري ما جعله يخرج مئات العلماء في مختلف الفنون والمعارف . الأمر الذي أكسب العراق ، في ذلك الوقت ، مكانة مرموقة بين الأمصار الإسلامية .

ومن النساء اللاتي سمعن الحديث ، **ريحانة** ، زوجة الإمام أحمد بن حنبل ، وكذلك جاريته ، **حسن** ، فقد سمعن من الإمام أحمد أشياء في الحديث [٥] .

وممن جمع بين الزهد والعلم ، **ميمونة بنت الأقرع** ، المتعبدة ، وإحدى النساء الزاهدات ، الوَرِعات . فقد أرادت أن تبيع غَزْلها ، فقالت للبائع : ((إذا بِعْت هذا الغَزْل فَقلِ

---

(١) انظر ترجمة النَّجّاد في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٨٩/٤ ـ ١٩٠) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٣٩٠/٦) . ابن الأثير : اللباب ، (٢٩٧/٣) . الذهبي : العبر ، (٢٧٨/٢) . الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٤٠٠/٦) . ابن كثير : البداية والنهاية ، (٢٣٤/١١) . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (٣٧٦/٢) .

(٢) البغدادي : هدية العارفين ، (٦٣/١) . الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٣٦ .

(٣) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٦١/ مجاميع) ، الأوراق : [٤٤ أ ـ ٥٣ أ] ، ٤٩٩هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٢٣٧/٣/١) .

(٤) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٩٤ / مجاميع) ، الأوراق : [١١٨ أ ـ ١٢٧ أ] ، القرن ٦هـ . المرجع السابق ، (٢٣٧/٣/١) .

(٥) ابن أبي يعلي : طبقات الحنابلة ، (٤٢٩/١) . العليمي : المنهج الأحمد ، (٤٧٤/١ ـ ٤٧٥) . عمر كحالة : أعلام النساء ، (٢٥٨/١) .

(أي أنزل في قيمته) ، إنِّي ربما كنت صائمة فأُرخي يدي فيه ، فذهبت . ثم رجعت للبائع ، فقالت : رد عليَّ الغَزْل ، أخاف أن لا يُبيِّن الغَزَّال هذا)) . فترحَّم الإمام أحمد عليها ، عندما سمع ذلك ، وقال : ((قد جائتني ، وكتبت لها شيئاً في غسل الميت)) [١] .

---

(١) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٤٢٦/١) . العليمي : المنهج الأحمد ، (٤٧١/١) . عمر كحالة : أعلام النساء ، (١٣٨/٥) .

المبحث الثالث

علم الفقه وأصوله

يمثل التشريع الإسلامي الجانب العملي المهم للإسلام في تحقيق غايته الكبرى ، ألا وهي تزكية النفس الإنسانية وتطهيرها ، عن طريق معرفة الله سبحانه وتعالى ، وتوثيق صلة الإنسان بربه عزَّ وجَلْ ، باتباع أوامره وترك نواهيه ، لتتحقق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنهُم يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [١] ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ ﴾ [٢] .

ويتجسد هذا الجانب من رسالة الإسلام في « علم الفقه » [٣] ، الذي غايته ((تطبيق الأحكام الشرعية على أفعال المُكَلَّفين من العباد ، لبيان الحلال منها والحرام)) [٤]، من خلال ما يسمى « بأصول الفقه » [٥] . وبالنظر إلى أن الفقه ينصرف مدلوله العام إلى القضايا التفصيلية ، والأحكام المتعلقة بالشريعة الإسلامية ، فإنه كان موجوداً منذ عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ودخل في طور جديد منذ عصر الخلفاء الراشدين ، ثم عهد التابعين من بعدهم ، تَمثَّل في ظهور مصدرين جديدين من مصادر الفقه ، إضافةً إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وهما : أقوال الصحابة ، وفتاوى التابعين . ومنذ أوائل القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، ظهرت الملامح الأولى للمذاهب الفقهية في التشريع الإسلامي ، أُطلق عليها « المدارس الفقهية » ، وكان لكل مدرسة طُرقها التي تَتَّبِعُها

---

(١) سورة الجمعة ، آية <٢> .

(٢) سورة الأنبياء ، آية < ١٠٧ > .

(٣) علم الفقه : هو علم يبحث في الأحكام الشرعية الفرعية العلمية ، من حيث استنباطها من الأدلة التفصيلية ، بالوقوف على المعنى الخفي الذي يتعلق به الحكم . وهو علم مُستنبط بالرأي والإجتهاد . اللامشي : بيان كشف الألفاظ ، ص ٢٥٣ . الأنصاري : اللؤلؤ النظيم ، الورقة : (١ ب) . الجرجاني : التعريفات ، ص ١٦٨.

(٤) وهبه الزحيلي : الوجيز في أصول الفقه ، ص ١٥ .

(٥) أصول الفقه :وهي القواعد التي يتوصل بها المُجتهد إلى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية . الجرجاني : التعريفات ، ص ٢٨ .

في تفريع المسائل ، واستخراج الأحكام لها ، خاصةً بعد ظهور مصادر أخرى ، كأقوال الصحابة ، والقياس [١] ، وغيرها ، منذ عهد التابعين وتابعيهم ، فتَبلْور علم أصول الفقه في مدرستين ، هما :

١ ـ مدرسة أهل الحديث :

والتزم أصحاب هذه المدرسة بمنطوق النصوص إلى حد كبير ، ولا يجيزون لأنفسهم الاجتهاد في توسيع مدلولها إلا في نطاق ضيق جداً . وقد وجدت هذه المدرسة في إقليم الحجاز ، لاسيَّما المدينة ، وقد تمسَّك بمبادىء هذه المدرسة : المالكية ، والشافعية ، والحنابلة ، مع تفاوت فيما بينهم في درجة الالتزام التام بذلك . وانتهت رياسة هذه المدرسة إلى الإمام مالك .

٢ ـ مدرسة أهل الرأي :

ومنهج هذه المدرسة يقوم على الالتزام بالنصوص ، مع قناعة بفائدة التَوسُّع في مدلولها ، وتفريع المسائل عنها . وكانت بيئة هذه المدرسة في الأمصار الأخرى التي هي خارج إقليم الحجاز وكان العراق يمثل القاعدة الرئيسة لأصحاب هذه المدرسة . وقد تمسَّك بمبادىء هذه المدرسة الأحناف ، ومركزهم مدينة الكوفة [٢] .

والملاحظ في منهج هاتين المدرستين ، أن هناك ثمة تأثير للبيئة المحيطة في نشأتهما . فلا عجب أن تنشأ مدرسة الحديث في الحجاز ، والمدينة بالذات ، فهي دار الهجرة، وموطن نزول التشريع ، وقضى فيها الخلفاء الراشدون الشطر الأكبر من خلافتهم ، الأمر الذي أدَّى إلى شيوع سماع الحديث وحفظه ، أكثر من الأمصار الإسلامية الأخرى

---

(١) القياس : عبارة عن المعنى المستنبط من النص لتَعدية الحكم من المنصوص عليه إلى غيره ، وهو الجمع بين الأصل والفرع في الحكم ، . اللامشي : بيان كشف الألفاظ ، ص ٢٦١ .

(٢) عمر الأشقر : تاريخ الفقه الإسلامي ، ص ٨٤ ـ ٨٧ . عبد القادر زبادية : نشأة المدارس الفقهية في الإسلام ، مجلة الدراسات الإسلامية ، مج١ ، ع٤٤ ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .

بكثير ، إضافة إلى أن أصحاب هذه المدرسة إذا لم يجدوا في المسألة نصاً سكتوا ، ولم يفتوا [١] . والحجاز بيئة لم توجد فيها تلك الرواسب الفكرية ، التي قد تختلط بالمفاهيم الإسلامية في عقول أبناء الأمة ، الذين كانت مدنهم في احتكاك مستمر بالشعوب الأخرى ، لا سيما العراق ، الأمر الذي أفرز موضوعات وقضايا كان لابد لعلماء المسلمين وفقهائهم من إيجاد الحلول لها .

وفي المقابل ، كان العراق بيئة خصبة لوجود أهل الرأي ، فالعراق ملتقى الحضارات القديمة ، واحتكاكه بالشعوب المجاورة لم ينقطع ، إضافة إلى أنه موطن كثير من الفرق المجابهة لأهل السنة ، كالخوارج ، والشيعة ، والمعتزلة ، وغيرهم ، والإكثار من وضع الحديث ، مع قِلَّة ما وصل لأهله من حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، لِتنائي ديارهم عن موطن الوحي .

وتُمثِّل الفترة الواقعة ما بين أوائل القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي ، ومنتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، دور النُّضْج للفقه الإسلامي ، واتساع دائرته ، لا سيما أنه واكب نشاط الحركة/العلمية في شتَّى العلوم ، خلال تلك الفترة . حيث استفاد الفقه من تدوين السُّنة المطهرة في ذلك الوقت ، والتي تُعد المصدر الثاني له بعد القرآن الكريم [٢] ، وكذلك ازدهار التأليف في العلوم الأخرى ذات الصلة به ، كاللغة ، والنحو ، والحساب ، وغيرها ، كعلوم مساعدة ومعينة للفقيه في كثير من القضايا والمسائل الفقهية .

وخلال هذا الدور ، كان هناك حواراً مُحتدماً بين أنصار المذاهب ، نتيجة لاختلاف مؤسِّسِيها في كثير من فروع الدين ، فكان أنصار كل مذهب يريدون الانتصار له [٣] .

ولقد شهد العراق ، خلال فترة الدراسة والتي تقع ضمن هذا الدور ، معارك علمية لا تنتهي بين المنتمين للمذاهب الفقهية ، لا سيما وأن العراق قد وُجِدت فيه كِلا المدرستين ،

---

(١) عبد القادر زبادية : نشأة المدارس الفقهية ، ص ٦٨ .

(٢) بدران أبو العينين : تاريخ الفقه الإسلامي ، ص ٨١ .

(٣) الحجوي : الفكر السامي ، (٧/٢) .

فهو مركز مدرسة الرأي ، وفي الوقت نفسه ، كانت المالكية والشافعية يمثّلون مدرسة الحديث . الأمر الذي خلق مناخاً مناسباً لقيام المواجهات العلمية ، والنزاعات المذهبية ، والجدل بين أنصار المدرستين ، بل وبين المنتمين لمدرسة واحدة ، كما حدث بين الحنابلة وأبو جعفر الطبري ، وكذلك موقف الحنابلة من داود الظاهري في موقفه من قضية القول بخلق القرآن .

ولعل ما يميز هذه الفترة ، في الدراسات الفقهية ، أنها شهدت آخر الأئمة المجتهدين ، الذين لم يرتضوا لأنفسهم أن يُقلّدوا أحد الأئمة الأربعة ، وإنما انتهج كل واحد منهم لنفسه فقهاً خاصاً به ، يقوم على الكتاب والسنة ، إضافة إلى اجتهاده الشخصي ، ونقصد بذلك ، داود بن علي الأصفهاني (ت ٢٧٠هـ/٨٨٣م) ، صاحب المذهب الظاهري . وكذلك ، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) ، صاحب المذهب الجريري .

وفي ذلك دلالة واضحة على أن باب الاجتهاد ، في ذلك الوقت ، كان لا يزال مفتوحاً ، وأن علماء العراق كانوا يتمتعون بعقلية إبداعية لم تَركن إلى التقليد وإغلاق الفكر ، على الرغم من وجود أحد أصحاب هذه المذاهب وهو الإمام أحمد بن حنبل ، بل وحدثت مواجهات بين أنصاره وبين الظاهري ، والطبري أيضاً .

ولقد برز خلال تلك الفترة العديد من الفقهاء الذين أثْروا ميدان الفقه بمصنفات تُعتبر مصادر رئيسة لدراسة الفقه وأصوله .

ومن أبرزهم ، **أبو عبد الله محمد بن سماعة التميمي البغدادي الحنفي** (ت ٢٣٣هـ/٨٤٧م) ، أحد الحفّاظ الثقات ، وكان متولي القضاء بالجانب الغربي من بغداد على عهد الخليفة المأمون سنة (١٩٢هـ/٨٠٨م) . وهو أحد أصحاب الرأي ، كتب النوادر عن : أبي يوسف القاضي ، ومحمد بن الحسن الشيباني . وتميَّز أبو عبد الله بالدقة فيما يرويه ، وصدق المبدأ في علمه ، ولهذا نال ثقة أقرانه ، سواء من الأحناف أو المذاهب الأخرى ، فقال يحيى بن معين في حقه : ((لو كان أصحاب الحديث يَصْدقون في الحديث كما يَصْدق محمد بن سَمَاعَة في الرأي ، لكانوا فيه على نهاية)) . وعند وفاته قال يحيى أيضاً : ((اليوم مات رَيْحانه أهل الرأي)) .

ومما يدل على إيمان أبي عبد الله وخوفه من الله عزَّ وجَلْ وتَعلُّقِه به ، ما رواه محمد بن عمران الضُّبِّيّ عن أبي عبد الله حيث يقول : ((مكثت أربعين سنة لم تَفُتْني التكبيرة الأولى إلا يوماً واحداً ماتت فيه أُمي ، ففاتتني صلاة واحدة في جماعة)) [١] .

ولأبي عبد الله كتب مصنَّفة ، وأصول في الفقه ، منها : كتاب « أدب القاضي » ، كتاب « المحاضر والسجلات » [٢] ، كتاب « الاكتساب في الرزق المستطاب » [٣] ، وهو مختصر لكتاب « الكَسْب » لمحمد بن الحسن الشيباني [٤] .

ومن الفقهاء الشافعية الأعلام ، **أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي** (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) صاحب الإمام الشافعي وروى عنه ، وأخذ العلم منه وخالفه في أشياء ، فكان له منهج خاص به اشتقه من مذهب الشافعي ، وأكثر أهل أذربيجان وأرمينية يتفقَّهون على مذهبه . وممن أخذ عنه وتبعه على مذهبه جماعة ، منهم : عبيد بن خلف البزار ، وأبو جعفر أحمد بن محمد العيالي ، ومنصور بن إسماعيل المصري .

وكان أبو ثَوْر يتبع مذهب أهل الرأي في البداية ، حتى قدم الشافعي العراق ، فاختلف إليه واتبعه ورفض مذهبه الأول ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي .

---

(١) انظر ترجمة ابن سماعة في : وكيع : أخبار القضاة ، (٢٨٢/٣) . النديم : الفهرست ، ص ٣٤٧ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٤١/٥ ـ ٣٤٢) . الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ١٣٨ . القرشي : الجواهر المضية ، (١٦٨/٣ ـ ١٧٠) . ابن قطلوبغا : تاج التراجم ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ . اللكنوي : الفوائد البهية ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

(٢) البغدادي : هدية العارفين ، (١٢/٢) .

(٣) مخطوط بخزانة الكتبخانة الخديوية المصرية في القاهرة ، برقم (١٤ علوم المعاش) ، القرن ٩هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٨٢/٣/١) .

(٤) البغدادي : إيضاح المكنون ، (١١٥/١) .

ويُعد أبو ثَوْر أحد الفقهاء الأعلام ، الثقات ، المأمونين في الدين . ولذلك ، كان محل قبول لدى علماء العراق من مختلف المذاهب الفقهية ، وعندما سُئل أحمد بن حنبل عن أبي ثَوْر ، قال : ((أعرفه بالسُّنة منذ خمسين سنة ، وهو عندي في مِسْلاخ [١] سفيان الثَّوري)) . ولعل أبرز دلالة على نظرة أحمد بن حنبل لأبي ثور الكبيرة في العلم ، أن رجلاً استفتاه في مسألة ، فقال له أحمد : ((سَلْ عافاك الله غيرنا ، سَلْ الفقهاء ، سَلْ أبا ثَوْر)) . وقرّظه ابن حبان بقوله : ((أحد أئمة الدنيا فقهاً ، وعلماً ، وفضلاً ، وورعاً ، وديانةً . صنَّف وفرَّع على السُّنَن ، وذَبَّ عنها ، وقَمَعَ مخالفيها)) . أما أبو عبد الله الحاكم فقد أثنى عليه قائلاً : ((كان فقيه أهل بغداد ، ومُفتيهم في عصره ، وأحد أعيان المحدِّثين المتقنين)) .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان لبعض العلماء وجهة نظر في آراء أبي ثَوْر الفقيه ، فالإمام أحمد ، على الرغم من ثنائه عليه ، إلا أن له رأياً في بعض ما ذهب إليه أبو ثَوْر ، فقد قال في ذلك : ((ما بلغني إلا خيراً ، إلا أنه لا يُعجبني الكلام الذي يُصيِّرونه في كُتبهم)) . ولعل ابن حنبل قال هذا عندما كان أبو ثور ينهج مذهب الأحناف ، وهناك إشارة إلى أن أحمد يقصد جماعة من ضمنهم أبو ثور . أما ابن عبد البر ، فقد انتقد آراء أبي ثور في بعض المسائل الفقهية ، والتي خرج بها عن جمهور العلماء ، كما يدعي، فيقول : ((كان حَسن النظر ، ثقة فيما يروي من الأثر ، إلا أن له شذوذاً فارق فيه الجمهور ، وقد عدُّوه أحد أئمة الفقهاء)) [٢] . وعلّق السُّبْكي على انتقاد ابن عبد البر لأبي ثور ، قائلاً : ((لا يعني شذوذاً في الحديث ، بل في مسائل الفقه التي أُعرب بها)) [٣] .

ولأبي ثور كتب مصنفة في الأحكام ، جمع فيها بين الحديث والفقه ، منها : كتاب « الطهارة » ، كتاب « الصلاة » ، كتاب « الصيام » ، كتاب « المناسك » [٤] .

---

(١) المِسْلاخ : هو الجلد . الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، ص ٣٢٣ .

(٢) انظر ترجمة أبي ثور في : النديم : الفهرست ، ص ٣٥٥ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٦/٦٥-٦٩) . الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ٩٢ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١/٢٦) . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، (٢/٧٤ – ٧٥) .

(٣) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، (٢/٧٦) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٥ .

أما أبرز فقهاء العراق في تلك الفترة على الإطلاق فهو ، **أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني** (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م) ، وقد سبق التعرُّض لسيرته . أما إسهامه في مجال الفقه ، فيكفينا القول أنه صاحب المذهب الرابع من المذاهب الفقهية الأربعة ، والتي عليها مدار الفقه الإسلامي عند الأمة .

إن ما يُميِّز أحمد بن حنبل عن بقية الأئمة الآخرين ، أنه شديد التمسُّك بالنصوص، وآثار الصحابة ، وأقوال التابعين في الحكم على المسائل ، دون الرجوع إلى أقوال الفقهاء السابقين له . وسُئل ابن حنبل عن الرجل يفتي بقول مالك وغيره من أئمة الفقه ؟ ، فقال : ((لا ، إلا بسُنَّة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وآثاره ، وما رُويَ عن أصحابه ، فإن لم يكن رُويَ عن أصحابه شيء ، فعن التابعين)) [١] . ويحدد ابن حنبل السبيل الواجب اتباعَه في الحكم على المسائل ، والمصادر التي ينبغي الرجوع إليها ، في قوله : ((إنما على الناس اتباع الآثار عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ومعرفة صحيحها من سقيمها . ثم يَتَّبعها إذا لم يكن لها مخالف ، ثم بعد ذلك قول أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأكابر ، وأئمة الهدى يتبعون على ما قالوا . وأصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) كذلك لا يخالفون ، إذا لم يكن قول بعضهم لبعض مخالفاً . فإذا اختلفوا نُظر في الكتاب ، بأي قولهم كان أشبه بالكتاب أُخذ به . فإن لم يأت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ولا عن أحد من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) نظر في قول التابعين . فأي قولهم كان أشبه بالكتاب والسُّنة أُخذ به ، وترك ماأحدث الناس بعدهم)) [٢] . ولا يعني رفض الإمام أحمد لأقوال الأئمة في المسائل الفقهية ، رفضه لهم أو لمناهجهم ، ونحن نعلم انتمائه لمدرسة الحديث التي ينتمي إليها المالكية ، والشافعية . ولكن المبدأ الذي رسمه ابن حنبل لنفسه ، وبالتالي لمذهبه ، يجعله يجتهد في المسائل كما اجتهد غيره من الأئمة ، لا أن ينقل آرائهم . وهذا أمر يوضِّح لنا بجلاء روح الاجتهاد السائدة بين العلماء في ذلك الوقت ، ولم يَركِنوا إلى الجمود ، والتقليد .

---

(١) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٢/١٥) .

(٢) المصدر السابق ، (٢/١٥ ـ ١٦) .

وعلى الرغم من مخالفة ابن حنبل لأئمة الفقه الثلاثة السابقين له ، إلا أن هذا الاختلاف كان في المنهج فقط ، أما تقديره لأساتذته منهم ، لا سيما الشافعي ، كان من سمات شخصية أحمد بن حنبل ، الذي لم يكن يفارق الشافعي في مقامه ببغداد ، طلباً للعلم . فيروي الحسن بن محمد الزَّعْفراني خبراً عن هذا الأمر ، ويقول : ((ما قرأت على الشافعي حرفاً إلا وأحمد حاضر ، وما ذهبت إلى الشافعي مجلساً إلا وجدت أحمد فيه)) (١) . كما كان أبو عبد الله شديد الاحترام للشافعي ، فيذكر صالح بن أحمد بن حنبل عن والده : ((مشى أبي مع بَغْلة الشافعي ، فبعث إليه يحيى بن معين قائلاً : أما رضيت إلا أن تمشي مع بَغْلته ؟ ، فقال : يا أبا زكريا ، ولو مَشيت إلى الجانب الآخر كان أنفعُ لك)) (٢) .

ولقد كان لوجود ابن حنبل في ذلك الوقت ، وهو رأس المذهب الحنبلي ، قد أعطى نوعاً من الثِّقل لأتباعه ، وبروزاً واضحاً بين اتباع المذاهب الفقهية الأخرى ، لا سيما في الفترات الأولى من هذه الحقبة التاريخية للدولة العباسية ، وخصوصاً في عصر الخليفة المتوكل ، لدرجة تجعل القاريء لتاريخ تلك الفترة يخرج بتصور مفاده ، غَلَبة المذهب الحنبلي على بقية المذاهب .

إن ما يميِّز فقه ابن حنبل ، وبالتالي مذهبه ، أن الإمام أحمد فتح عينيه على مشارب علمية عدة ، وثروات فقهية عديدة ، تمثَّلت في قراءته لكتب الفقهاء الذين سبقوه ولم يلتق بهم ، وهم الأئمة الثلاثة غير الشافعي ، الذي لزمه ابن حنبل وتتلمذ على يديه ، ذلك أن الشافعي ، تتلمذ هو الآخر على الإمام مالك ، ودرس على تلاميذ أبي حنيفة ، فكانت آرائه وسطاً بين المدرستين . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن ابن حنبل قد عايش أهل الرأي ، باعتبار أن العراق مركزهم ، وأخذ من هذه المدرسة ما الجأتْهُ إليه الضرورة . فاستقى ابن حنبل بذلك ((من عدة ثروات فقهية ناضجة في ذلك العصر ، والتقى بغيره من علماء السنة ، فكانت بمثابة غذاء عقلي صالح انتفع به ، وهَضمه ، وأَيَّده بعناصر علمية تمثَّلت في نفسه ، فكان منها المزيج العلمي ، الذي كان سُنَّةً وفقهاً)) (٣) .

---

(١) الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ١٠٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

(٣) محمد محمود : الحنابلة في بغداد ، ص ٥٣ .

أما تصنيف أحمد بن حنبل لكتب الفقه ، فقد كان له تحفظاً على هذا الأمر ، فلم يكن يُحبِّذ تصنيف الكتب ، وتبريره لهذا الأمر واضحاً في معرض إجابته لسؤال وجَّهه إليه ابنه عبد الله : ((لم كَرِهت وضع الكتب ، وقد عملت المُسْند ؟ ، فقال أحمد : عملت هذا الكتاب إماماً ، إذا اختلف الناس في سُنَّةِ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رجعوا إليه)) [١] .

أما ما وصل إلينا من تراث ابن حنبل الفقهي ، فيرجع الفضل فيه بالدرجة الأولى إلى تلاميذه ، الذين كان لهم دور كبير في ذيوع مذهبه وانتشاره .

فقد كان ابن حنبل مُوفقاً في تلامذته إلى حد كبير ، ذلك أن فضل ذيوع المذهب الحنبلي وانتشاره ، راجعاً بدرجة كبيرة إلى تلامذته ومحبيه ، كما أسلفنا . وحتى جمع مسائل أحمد والأصول الفقهية لمذهبه وارتكاز المسائل على الأصول المعتمدة لدى الإمام أحمد واستنباطها منها ، حتى هذه المرحلة الأساسية في بناء المذهب الحنبلي ، يعود الفضل فيها بدرجة كبيرة إلى هؤلاء التلاميذ المخلصين ، والذين امتدوا عبر القرون ، فكانوا من نوابغ الفقه الإسلامي كُلِّه ، أمثال : شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم الجوزية ، وغيرهم .

وانتشرت مسائل الإمام أحمد وفتاويه في الآفاق حتى جاء أبو بكر أحمد بن محمد الخَلاَّل (ت ٣١١هـ/٩٢٣م) ، وقام بجمعها من الآفاق وتَتَبَّع ما رُوِي عن أحمد بالإسناد ، وضمَّن ذلك كله في كتابه « الجامع » [٢] ، الذي أصبح هو الأصل في الروايات المنقولة عن أحمد بن حنبل ، حيث تناوله المجتهدون من أصحابه بالترجيح والاختيار لِما نُقل من الروايات [٣] .

---

(١) العليمي : المنهج الأحمد ، ص (١/٢٩٦ ـ ٢٩٧) .

(٢) ويضم مجموعة من كتب ورسائل ومسائل أحمد بن حنبل ، التي تتكوّن من : (٢٠ جزءاً) . وتوجد نسخة مخطوطة بالمتحف البريطاني ، اللحق (١٦٨) ، [مخطوطات شرقية ٢٦٧٥] ٥٧٧هـ . وبحوزة محمد بن عبد الرزاق حمزة بمكة المكرمة (جزء آخر) ، (٢١٢ ورقة) ، ٥٨٣هـ . وقسم آخر بعنوان : « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مسائل أحمد بن حنبل » ، مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (١/٢٤٥ حديث) ، الأوراق : [١ ـ ٣١] ، ٥٧٦هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١/٣/٢٣٣ ـ ٢٣٤) .

(٣) عبد الله التركي : المذهب الحنبلي ، مجلة الدراسات الإسلامية ، ع٤ ، ص ٢٦ .

ومن مصنفات أبي عبد الله في الفقه : كتاب « مسائل أحمد بن حنبل برواية ابنه عبد الله » (١) ، كتاب « مسائل أحمد بن حنبل برواية إسحاق بن هاني النيسابوري » (٢) ، كتاب « مسائل أحمد بن حنبل برواية أبي داود السجستاني » (٣) ، كتاب « مسائل أحمد بن حنبل برواية ابنه صالح » (٤) ، كتاب « مسائل أحمد بن حنبل برواية البغوي » (٥) ، كتاب « الحث على التجارة » (٦) جمعه أبو بكر الخلال ، كتاب « أحكام النساء » (٧) جمعه أبو بكر الخلال ، كتاب « الأشربة الصغير » (٨) برواية البغوي ، كتاب « الصلاة وما يلزم فيها » (٩) ، كتاب « الترجُّل » (١٠) جمعه أبو بكر الخلال ، كتاب « الفرائض » (١١) ، كتاب «المناسك الصغير» (١٢)، كتاب «المناسك الكبير» (١٣)، كتاب «الوقف والوصايا» (١٤) جمعه أبو بكر الخلال ، كتاب « المسائل برواية إسحاق بن منصور الكوسج » (١٥) ، كتاب

---

(١) مطبوع بتحقيق : زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

(٢) مطبوع بتحقيق : زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

(٣) مطبوع بتحقيق : محمد رشيد رضا .

(٤) مطبوع بتحقيق : فضل الرحمن دين محمد .

(٥) مطبوع بتحقيق : محمود الحداد ، ١٤٠٧هـ .

(٦) مطبوع .

(٧) مطبوع بتحقيق : عبد القادر أحمد عطا .

(٨) مطبوع بتحقيق : صبحي جاسم البدري ، وزارة الأوقاف ، بغداد ، ١٩٧٧م .

(٩) مطبوع بتحقيق : محمد عبد الرزاق حمزة ، مكتبة محمد علي صبيح ، القاهرة ، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م .

(١٠) مخطوط بمكتبة محمد حمزة ، مكة المكرمة ، (٢٧ ورقة) ، ٥٨٣هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٢٢٥/٣/١) .

(١١) البغدادي : هدية العارفين ، (٤٨/١) .

(١٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٧٥/٩) .

(١٣) المصدر السابق ، (٣٧٥/٩) .

(١٤) مخطوط بمكتبة محمد حمزة ، مكة المكرمة ، ضمن مجموعة في حوالي (٧٠ ورقة) ، ٥٨٣هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٢٢٥/٣/١) .

(١٥) تم تحقيق الكتاب بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، في رسالة دكتوراه ، وأربع رسائل ماجستير . ابن حنبل : سؤالات أبي داود للإمام أحمد ، ص ٣٤ . (مقدمة المحقق) .

« المسائل برواية حرب بن إسماعيل الكرماني » [١] ، كتاب « الفروع » [٢] ، وغيرها من المصنفات .

ومن فقهاء العراق القضاة ، **أبو محمد يحيى بن أكثم التميمي المروزي القاضي** (ت ٢٤٢هـ/٨٥٦م) ، وكان عالماً بالفقه ، بصيراً بالأحكام ، تولى القضاء بالبصرة ، وقاضي القضاة ببغداد فيما بعد ، على عهد الخليفة المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/٨١٣ ـ ٨٣٣م) . وكان يحيى ، كما يذكر الخطيب البغدادي ، سليماً من البدعة ، ينتحل مذهب أهل السنة ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد وُجِّه النقد إليه من قِبل العلماء في ذلك الوقت . فاتهمه إسحاق بن رَاَهَويه بالدَّجَل ، أما يحيى بن معين فاتهمه بالكذب ، وقال : ((يحيى بن أكثم كذّاب ، جاء مصر وأنا بها مقيم سنتين وأشهراً ، فبعث يحيى بن أكثم فاشترى كتب الورّاقين وأصولهم ، وقال : أَجِيزوها لي)) .

غير أن ابن أكثم في المقابل ، كان محل ثناء علماء كبار ، ويذكر عبد الله بن أحمد ابن حنبل : بأن جاء ذكر ابن أكثم عند والده ، فقال : ((ما عَرفتُ فيه بدعة ، وذكر له ما يرميه الناس به ، فقال : سبحان الله ، ومن يقول هذا ؟ ، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً)) . وأثنى عليه طلحة بن محمد بن جعفر بقوله : ((يحيى بن أكثم أحد أعلام الدنيا ، ومن قد اشتهر أمره ، وعُرف خبره ، ... واسع العلم بالفقه ، كثير الأدب ، حسن العارضة ، قائم بكل معضلة)) . أما أبو الفتح محمد بن الحسين الأزدي فقد دافع عن يحيى قائلاً : ((يحيى بن أكثم قاضي القضاة يتكلمون فيه ، وروى عن الثقات عجائب لا يُتابع عليها)) . في حين ذكره القاضي إسماعيل بن إسحاق مُشيداً به قائلاً : ((كان له يوم في الإسلام ، لم يكن لأحد مثله)) ، فذكر قصته مع المأمون في تحليله للمتعة ، ووقوفه في وجه الخليفة ، وإقامته للبيِّنة على تحريمها ، فرجع المأمون عن أمره ، وأمر بالنداء بتحريمها .

---

(١) مخطوط بمكتبة : زهير الشاويش في دمشق . المصدر السابق ، ص ٣٤ .

(٢) نشر بدون تحقيق : مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٤٠هـ/١٩٢١م .

وكانت كتب يحيى المصنَّفة في الفقه أجلَّ كتبٍ ، لكن تركها الناس لطولها . وله كتب في الأصول ، وله كتاب « التَّنْبيه » [١] ، الذي قال عنه الحافظ محمد بن عبد الله النيسابوري : ((من نظر له في كتاب التَّنْبيه عرف تقدمه في العلوم)) .

والجدير بالذكر ، أن لابن أكثم موقف إيجابي وواضح من قضية خلق القرآن ، ونص رأيه : ((القرآن كلام الله ، فمن قال إنه مخلوق يُستتاب ، فإن تاب ، وإلا ضُربت عنقه)) [٢] .

ومن الفقهاء المبرِّزين ، **أبو بكر هلال بن يحيى البصري المعروف بهلال الرأي** (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م) ، نزيل البصرة وبها توفي . وكان على مذاهب أهل العراق ، روى الحديث ، ونُقل عنه أيضاً . ولُقِّب بالرأي لسعة علمه وكثرة فهمه . وبذلك لُقِّب ربيعة ، شيخ الإمام مالك ، وعُرف بربيعة الرأي [٣] .

ولأبي بكر مصنفات في الفقه ، منها : كتاب « أحكام الوقف » [٤] ، كتاب « الشروط » ، كتاب « الحدود » [٥] .

ويذهب حاجي خليفة إلى : أن هلال الرأي هو أول من صنَّف في « علم الشروط والسِّجلاّت » [٦] . ولقد جانب حاجي الصواب في ذلك ، إذ أن أبا عبد الله محمد بن سَمَاعَه قد سبق هلال في هذا المضمار بتأليفه لكتاب « المحاضر والسِّجلاّت » [٧] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٥١/٦) .

(٢) انظر ترجمة ابن أكثم في : وكيع : أخبار القضاة ، (١٦١/٢ ـ ١٦٧) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٩١/١٤ ، ١٩٧ ـ ٢٠٢) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٤٧/٦ ـ ١٥١) . القرشي : الجواهر المضية ، (٥٨٢/٣ ـ ٥٨٣) . اللكنوي : الفوائد البهية ، ص ٢٢٤ .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٦ . القرشي : الجواهر المضية ، (٥٧٢/٣ ـ ٥٧٣) . ابن قطلوبغا : تاج التراجم ، ص ٣١٢ ـ ٣١٣ .

(٤) مطبوع بتحقيق : هاشم الندوي وآخرون ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد ، الدكن ، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٦ . حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١٠٤٦/٢) .

(٦) علم الشروط والسِّجلات : وهو علم باحث عن كيفية ثبت الأحكام الثابتة عند القاضي في الكتب والسجلات على وجه يَصحُّ الاحتجاج به عند انقضاء شهود الحال . وموضوعه : تلك الأحكام من حيث الكتابة ، وبعض مبادئه مأخوذة من الفقه ، وبعضها من علم الإنشاء ، وبعضها من الرسوم والعادات والأمور الاستحسانية. وهو من فروع الفقه من حيث كون ترتيب معانيه موافقاً لقوانين الشَّرع ، وقد يجعل من فروع الأدب باعتبار تحسين الألفاظ . حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١٠٤٥/٢ ـ ١٠٤٦) . وانظر رأيه في : ص ١٠٤٦ .

(٧) انظر : ص ٣٣٤ من هذا المبحث .

ويُعد **أبو علي الحسين بن علي الكرابيسي البغدادي** (ت ٢٤٨هـ/٨٦٢م) ، صاحب الإمام الشافعي ، ممن تميزّ بالعلم ، والفقه ، والحفظ لمذهب الشافعي .

وكان الكرابيسي في البداية على مذهب أهل الرأي ، ثم تفقَّه للشافعي ، كما كان أحد علماء الكلام وأساتذته ، وخاض في مسألة خلق القرآن ، مُنجرفاً مع آرائه الكلامية ولهذا ، كان موقفه سلبياً في هذا الأمر ، فعندما سأله رجل قائلاً : ما تقول في القرآن ؟ ، فأجابه الكرابيسي بقوله : ((كلام الله غير مخلوق)) ، فقال له الرجل : فما تقول في لفظي بالقرآن ؟ ، فأجابه : ((لفظك بالقرآن مخلوق)) . وضمَّن الكرابيسي آرائه في كتاب « المقالات » (١) ، فأصبح مُعول المتكلِّمين في معرفة مذاهب الخوارج ، وسائر أهل الأهواء ، كما ذكر الخطيب البغدادي .

هذا الأمر ، جعل الكرابيسي موضع انتقاد العلماء ومؤاخذتهم عليه فيما ذهب إليه في مسألة اللفظ ، ومن أبرزهم : أحمد بن حنبل ، الذي كان يتكلم فيه بسبب هذا الأمر ، بل وقال يحيى بن معين : ((ما أحوَجهُ إلى الضرب)) . فكان ذلك سبباً في تَجنُّب الناس الأخذ عنه ، على الرغم من علمه وفضله (٢) .

وتذكر المصادر أن للكرابيسي مصنفات عدة في أصول الفقه وفروعه ، ومن هذه المؤلفات : كتاب « أسماء المُدَلِّسين من رجال الحديث » ، كتاب « الإمامة » (٣) .

وكان **أبو عبد الله محمد بن شجاع المعروف بابن الثلجي** (ت ٢٥٧هـ/٨٧١م) ، أحد الفقهاء الأحناف المبرّزين على وقته ، وَرِعاً ، شديد الثبات على رأيه ، والمُقدَّم في الفقه والحديث . وهو الذي شرح فقه أبي حنيفة ، واحتجَّ له ، وأظهر عِلله ، وقوّاه بالحديث .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٣٢/٢) .

(٢) انظر ترجمة الكرابيسي في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٦٤/٨ ـ ٦٦) . الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ١٠٢ . النووي : تهذيب الأسماء واللغات ، (٥٥٧/٢ ـ ٥٥٨) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٣٢/٢ ـ ١٣٣) . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، (١١٧/٢ ـ ١١٨) . الأسنوي : طبقات الشافعية ، (٢٦/١) . الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٤٣٠/١٢ ـ ٤٣١) .

(٣) البغدادي : هدية العارفين ، (٣٠٤/١) .

وكان لأبي عبد الله ميلٌ إلى مذهب المعتزلة ، وكان من الواقفة في القرآن ، إلا أنه يأخذ بقول أهل السنة . وربما جرَّ عليه هذا الأمر انتقاد علماء عصره ، فقد وصفه أحمد بن حنبل بأنه : ((مُبتدع ، صاحب هوى)) . أما زكريا بن يحيى السَّاجي فاتهمه بالكذب ، مبرراً قوله هذا بأن الثلجي ((احتال في إبطال الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وردَّهُ ، نُصرة لأبي حنيفة ورأيه)) ، في حين وصفه أبو الفتح محمد بن الحسين الأزدي الحافظ بالكذب ، وأنه لا تجوز الرواية عنه ((لسوء مذهبه ، وزَيْغه عن الدين)) [١] .

ولابن الثلجي مصنفات عدة ، منها : كتاب « المناسك » ، ذكر الحاكم : أنه رآه ، ويقع في (٦٢ جزءاً) كباراً ، دِقاقاً . كتاب « المضاربة » ، كتاب « النوادر » ، كتاب « تصحيح الآثار » كبير [٢] .

أما ، **أبو بكر أحمد بن عمرو الشيباني المعروف بالخصاف** (ت ٢٦١هـ/٨٧٥م) ، فكان على رأس الطبقة الثالثة من فقهاء الحنفية ، وكان فقيهاً ، فارضاً ، حاسباً ، عالماً بمذاهب أصحابه ، ومُقدماً عند الخليفة المهتدي ، وحَظِيَ عنده بمكانةٍ رفيعة .

وكان الخَصَّاف محل ثناء العلماء ، فقال الحَلْواني في حقه : ((الخَصَّاف رجل كبير في العلم ، وهو ممن يَصِحُّ الاقتداء به)) . وذكر ابن النَّجّار : أن بعض الأئمة ذكروا الخَصَّاف ، ووصفوه بأنه كان زاهداً ، وَرِعاً ، يأكل من كسب يده .

وللخَصَّاف مصنفات كثيرة ، ذهب معظمها عندما نُهِبَ داره بعد مقتل الخليفة المهتدي [٣] . فذهبت أكثر كُتبه ، ولم يبق منهاإلا القليل ، ولم يصلنا منها إلا النزر اليسير ،

---

(١) انظر ترجمة ابن الثلجي في : النديم : الفهرست ، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٥/٣٥٠ ـ ٣٥١) . الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ١٤٠ . القرشي : الجواهر المضية ، (٣/١٧٤) . ابن قطلوبغا : تاج التراجم ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ . اللكنوي : الفوائد البهية ، ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٩ . القرشي : الجواهر المضية ، (٣/١٧٤) .

(٣) انظر ترجمة الخَصَّاف في : النديم: الفهرست ، ص ٣٤٨ . الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ١٤٠ . الذهبي: سير أعلام النبلاء ، (١٣/١٢٣ ـ ١٢٤) . الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٧/٢٦٦ ـ ٢٦٧) . القرشي : الجواهر المضية ، (١/٢٣٠ ـ ٢٣٢) . ابن قطلوبغا : تاج التراجم ، ص ٩٧ .

ومنها : كتاب « أحكام الوقف » [١] ، كتاب « النفقات » [٢] ، كتاب « المحاضر والسجلات » [٣] ، كتاب « الرضاع » [٤] ، كتاب « أدب القاضي » [٥] ، كتاب « الحيل » [٦] ، كتاب « الوصايا » ، كتاب « الشروط الصغير » ، كتاب « الخراج » عمله للخليفة المهتدي ، كتاب « الشروط الكبير » ، كتاب « الإقالة » ، كتاب « العصير وأحكامه » ، كتاب « إقرار الورثة بعضهم لبعض » ، كتاب « ذَرْع الكعبة والمسجد الحرام والقبر » ، كتاب « النفقات على الأقارب » [٧] .

ومن فقهاء العراق الذين اشتهروا في ذلك الوقت ، **أبو سليمان داود بن علي الأصفهاني الظاهري** (ت ٢٧٠هـ/٨٨٣م) ، وهو أول من أخذ بظاهر الكتاب والسنة [٨] وألغى ما سوى ذلك من المصادر الفقهية الأخرى ، كالرأي ، والقياس ، مما أدى إلى مقابلته لكثير من العقبات في الفقه [٩] . يقول ابن كثير : ((وكان من الفقهاء المشهورين ، ولكن حصر نفسه بنفيه للقياس الصحيح ، فضاق بذلك ذرعه في أماكن كثيرة في الفقه ، فلزمه القول بأشياء قطعية صار إليها بسبب اتباعه الظاهر المجرَّد من غير تفهُّم لمعنى النَّص . وقد اختلف الفقهاء القياسيون بعده في الاعتداد بخلافه ، هل ينعقد الإجماع بدونه مع خلافه أم لا ؟ ، على أقوال ليس هذا موضع بسطها)) [١٠] .

---

(١) مطبوع : ديوان عموم الأوقاف المصرية ، مطبعة الديوان ، القاهرة ، ١٣٢٣هـ/١٩٠٤م .

(٢) مطبوع : دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد ، الدكن ، ١٣٤٩هـ .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٨ .

(٤) مخطوط بمكتبة مراد ملا في إسطنبول ، برقم (٤/٧٣١ مجاميع) ، الأوراق : [٩٤ ب ـ ٢٠ أ] ، القرن ٨هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٨٩/٣/١) .

(٥) مطبوع بتحقيق : فرحات زيادة ، الجامعة الأمريكية ، القاهرة . مؤسسة عيسى الباتح ، نيويورك ، ١٩٧٩م .

(٦) مطبوع بتحقيق : يوسف شخت ، د . ن ، هانوفر (ألمانيا الإتحادية) ، ١٩٢٣م .

(٧) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٨ . الشيرازي: طبقات الفقهاء ، ص ١٤٠. البغدادي : هدية العارفين ، (٤٩/١).

(٨) تُفهم الظاهرية ـ من مدلولها العابر ـ على أنها : « فهم النصوص وفق دلالتها التي تدل عليها ألفاظ اللغة ، دون تأويل أو مجاز » . عبد الحليم عويس : المذهب الظاهري ، مجلة الدراسات الإسلامية ، ع٤ ، ص ٥ .

(٩) النديم : الفهرست ، ص ٣٦٢ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (٣٧٠/٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٤) . السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

(١٠) ابن كثير : البداية والنهاية ، (٤٨/١١) .

وكان أبو سليمان فاضلاً ، صادقاً ، ورعاً . وكانَ يَؤُم مجلسه خلق كثير ، ذكر بعض المؤرخين أنه كان يحضره أربعمائه صاحب طَيْلسان .

أخذ أبو سليمان العلم عن إسحاق بن راهويه ، وأبي ثور الكلبي . وكان يميل إلى الشافعي ويتعصَّب له ، وصنَّف كتابين في فضائله والثناء عليه .

غير أن أبا سليمان زعم أن القرآن مُحْدث . وسُئل عن القرآن فأجاب : ((أما الذي في اللوح المحفوظ فغير مخلوق ، وأما الذي هو بين الناس فمخلوق)) . الأمر الذي جعل الإمام أحمد بن حنبل يأخذ موقفاً ضده بسبب هذا القول ، لدرجة أن ابن حنبل رفض أن يستقبله في داره عندما حضر إليه داود بصحبة ابنه صالح بن أحمد بن حنبل ، فاستأذنه صالح بدخول داود إليه فرفض ذلك [١] .

ولعل ما يميز داود الظاهري عن معظم فقهاء عصره ، هو غزارة انتاجه الفكري بشكل كبير ، فقد ذكر له النديم في « الفهرست » ما يقارب من (١٥٤ كتاباً) ، لكن للأسف ، لم يصل إلينا أيًّا من هذه الكتب لفقدها ، لسبب لا يعلمه إلا الله (عزَّ وجل) . ومن هذه المصنفات : كتاب « الطهارة » ، كتاب « الصلاة » ، كتاب « القبلة » ، كتاب « الاستسقاء » ، كتاب « الأصول » ، كتاب « الجنائز » ، كتاب « غسل الميت » ، كتاب « الزكاة » ، كتاب « صدقه الفطر » ، كتاب « الرضاع » ، كتاب « النكاح » ألف ورقة ، كتاب « الظهار » ، كتاب « الطلاق » ، كتاب « البيوع » ، كتاب « الشركة » ، كتاب « الوديعة » ، كتاب « الحوالة والضمان » ، كتاب « الرهن » ، كتاب « الإجازات » ، كتاب « الحدود » ، كتاب « تحريم المسكر » ، كتاب « الصيد » ، كتاب « الأضاحي » ، كتاب « الجهاد » ، كتاب « الخراج » ، وغيرها من المصنفات [٢] .

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٧١/٨ ، ٣٧٤) . الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ٩٢ . ابن كثير : البداية والنهاية ، (٤٧/١١) .

(٢) انظر بقية المصنفات في : النديم : الفهرست ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤ . البغدادي : هداية العارفين ، (٣٥٩/١) .

ومن أشهر فقهاء المالكية الذين برزوا في تلك الفترة ، **أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق الأزدي القاضي** (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) ، أحد العلماء الفضلاء ، متقناً ، فقيهاً ، شيخ المالكية بالعراق وعالمهم ، وهو الذي شرح مذهب مالك ، وبسطه ، ولخَّصه ، واحتجَّ له ، ونشره ، ودعا الناس إليه ، ورَغَّبهم فيه ، وصنَّف فيه الكتب . وتولَّى القضاء ببغداد في عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ـ٢٨٩هـ/٨٩٢ـ٩٠٢م) ، وظل فيه حتى وفاته . وأخذ الفقه على مذهب مالك عن أحمد بن المعدل ، وتقدَّم في هذا العلم حتى صار علماً فيه . وفي هذا الصدد يقول طلحة بن محمد الشاهد : ((ونشر من مذهب مالك وفضله ما لم يكن بالعراق في وقت من الأوقات ، وصنَّف في الاحتجاج لمذهب مالك ، والشرح له ، وما صار لأهل هذا المذهب مثالاً يحتذونه ، وطريقاً يسلكونه)) .

وكان لأبي إسحاق مجلس علمٍ ، يجتمع فيه كبار العلماء من مختلف العلوم والصنائع ، كأبي العباس ثعلب ، وأبي العباس المبرد ، وغيرهما [١] .

ولأبي إسحاق مصنفات في مجال الفقه ، منها : كتاب « فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم »[٢] ، كتاب « أحكام القرآن » ، كتاب « المبسوط » ، كتاب « حجاج القرآن » ، كتاب « الأموال » ، كتاب « الشفاعة » ، كتاب « الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » [٣] .

ويعد **أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي** (ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م) أحد فقهاء الحنابلة ، الذين حملوا على عاتقهم نشر المذهب الحنبلي عن الإمام أحمد ، وقد مرَّ

---

(١) انظر ترجمة أبي إسحاق في : المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ٣٢١ . النديم : الفهرست ، ص ٣٤٠ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٦/٢٨٤ ـ ٢٨٥ ـ ٢٨٩) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٥/١٥١ ـ ١٥٣) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٦/١٣١ ـ ١٣٢) . ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٥١ ـ ١٥٥ .

(٢) مخطوط بمكتبة كوبريلي في إسطنبول ، برقم (٣/٤٢٨ مجاميع) ، الأوراق : [١١٧ ب ـ ١٣٥ ب] ، ٨٥٥هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١/٣/١٦٢) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٠ . ابن خير : فهرسة ابن خير ، ص ٤٧ ، ٢١٤ ، ٢٧١ . الداوودي : طبقات المفسرين ، (١/١٠٧ ـ ١٠٨) .

معنا طرفاً من سيرته . وكان شيخ البغداديين الحنابلة في زمانه ومسندهم في الحديث ، وكان يتفقه لأهل العراق ، وله مجلس فقه ، وإفتاء بجامع المنصور في بغداد يوم الجمعة من كل أسبوع ، وكان من المُبصرين بالأحكام .

وأصبح أبو إسحاق وعلمه محل ثقة كبار العلماء ، فقد قال الإمام أحمد لولده عبد الله : ((إمض إلى إبراهيم الحربي حتى يُلقي عليك الفرائض)) ، ثقةً من ابن حنبل في أبي إسحاق ، واعترافاً منه بتَبحُّره في هذا العلم [١] .

ولأبي إسحاق مصنفات أسهم بها في الدراسات الفقهية ، منها :

كتاب « سجود القرآن » ، كتاب « النهي عن الكذب » ، كتاب « ذم الغيبة » ، كتاب «التيمم » ، كتاب « إتباع الأموات » ، كتاب « القضاة والشهود » ، كتاب « الحمَّام وآدابه » ، كتاب « الهدايا والسُّنة فيها » [٢] .

وممن برز من فقهاء العراق في تلك الفترة ، **أبو خازم عبد الحميد بن عبد العزيز القاضي** (ت ٢٩٢هـ/٩٠٥م) ، من أهل البصرة . أخذ العلم عن بكر العمي ، وتفقَّه عليه أبو جعفر الطحاوي . وكان عالماً ، ورعاً ، متمكناً من مذهب أبي حنيفة ، وبالفرائض ، والحساب ، والذَّرْع ، والقِسمة ، والجبر ، والمقابلة ، وحساب الدُّور ، وغامض الوصايا ، والمُناسخات .

وكان أبو خازم يتولى قضاء الشام ، ثم تولى قضاء الكوفة ، واستقضاه الخليفة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ/٩٠٨ ـ ٩٣٢م) على الشرقية (الكَرْخ) أيضاً ، وذلك سنة (٢٨٣هـ/٨٩٦م) حتى وفاته ، لتمتعه بصفات القاضي المتمكِّن ، فكان قدوة في العلم بصناعة الحكم ومباشرة الخصوم ، ومن الحُذَّاق في عمل المحاضر والسجلات والإقرارات . ولهذه الصفات قال عنه عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير : ((ما رأيت رجلاً أعقل من

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، (٢٦٢/٤) . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٦٢ . ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٨٩/١) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٣٨٢ . البغدادي : هدية العارفين ، (٤/١) .

المُوفَّق ، وأبي خازم القاضي)) ، ويصف أبو بَرْزة الحاسب أبا خازم وتمكنُّه في الحساب ، بقوله : ((لا أعرف في الدنيا أَحْسب من أبي خازم)) (١) .

وكانت لأبي خازم القاضي مصنفات في علم الفقه ، منها : كتاب « المحاضر والسجلات » ، كتاب « الفرائض » ، كتاب « آداب القاضي » (٢) .

كما برز من فقهاء العراق ، **أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني الظاهري** (ت ٢٩٧هـ/٩٠٩م) ، وكان عالماً ، أديباً ، متميزاً بالظرف والتصرُّف في اللغة ، وتَفنن في موارد المذاهب ، وإحاطة بالأخبار .

واشتهر أبو بكر بمناظراته الساخنة مع أبي العباس بن سُرَيج ، وكانا إذا حضرا مجلس القاضي أبي عمر محمد بن يوسف ، لم يَجْرِ بين إثنين فيما يتفاوضانه أحسن مما يجري بينهما .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان الود والاحترام يُغلِّف هذه العلاقة ، كما هي حال علماء العصر فيما بينهم ، فعندما وصل نبأ وفاة أبي بكر الظاهري إلى مسامع ابن سُرَيج ، نحى مخاده ومتكأه ، وجلس للتعزية ، وقال : ((مات من كنت أُحدِّث نفسي وأجهدها على الإشتغال لمناظرته ، ومقاومته)) (٣) .

ومما يدل على اهتمام أبو بكر البالغ بالأدب ، تصنيفه لكتاب « الزُّهرة » (٤) ، وهو مجموع أدب ، أتى فيه أبو بكر بكل غريبة ونادرة وشعر

---

(١) انظر ترجمة أبي خازم في : وكيع : أخبار القضاة ، (٣/١٩٨ ـ ١٩٩) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١١/٦٢ ـ ٦٥) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٦/٥٢ ـ ٥٦) . ابن قطلوبغا : تاج التراجم ، ص ١٨٢ . اللكنوي : الفوائد البهية ، ص ٨٦ . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، (٢/٢١٠) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٠ .

(٣) انظر ترجمة أبي بكر الظاهري في : المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٢٩٦) . النديم : الفهرست ، ص ٣٦٤ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٥/٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦١) . الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ١٧٥ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤/٢٥٩ ـ ٢٦١) . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، (٣/٢٤ ـ ٢٦) .

(٤) مطبوع : حقق « الجزء الأول » لويس البوهيمي ، وإبراهيم طوقان ، جامعة شيكاغو والمعهد الشرقي ، بيروت ، ١٣٥١هـ/١٩٥١م . وحقق « الجزء الثاني » إبراهيم السامرائي ، مكتبة المنار ، الزرقاء (الأردن) ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .

رائـــق [١] . وكـذلك نشـر أحـد البـاحـثين : « أوراق من ديوان أبي بكر مـحـمـد بن داود الأصفهاني » [٢] .

أما مصنَّفات أبي بكر في مجال الفقه ، فهي عديدة ، منها : كتاب « الوصول إلى معرفة الأصول » ، كتاب « الإعذار والإيجاز » ، كتاب « الإنذار » ، كتاب « الانتصار على محمد بن جرير ، وعبد الله بن شرشير ، وعيسى بن إبراهيم الضرير » [٣] .

أما **أبو الحسن علي بن موسى القمي** (ت ٣٠٥هـ/٩١٧م) ، فقد كان أحد الفقهاء الأحناف المبرِّزين في مذهبه ، وكانت له ردود على أصحاب الشافعي ، وقد تولى كتب الشافعي ونقضها . سمع العلم وأخذه عن محمد بن شجاع الثلجي . وروى عنه جماعة ، منهم : أبو بكر أحمد بن سعد بن نصر ، وأحمد بن أحيد الكاغدي ، وآخرون [٤] .

وأسهم أبو الحسن بمصنفات في الدراسات الفقهية ، منها : كتاب « إثبات القياس والاجتهاد وخبر الواحد » ، كتاب « أحكام القرآن » ، كتاب « بعض ما خالف فيه الشافعي العراقيين في أحكام القرآن » [٥] .

كما برز من فقهاء العراق خلال عصر نفوذ الأتراك ، **أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج القاضي** (ت ٣٠٦هـ/٩١٨م) ، أحد كبار فقهاء الشافعية . أخـذ الفقـه عـن أبي القاسم الأنماطي ، وعنه أخذ فقهاء الإسلام ، ومنه انتشر مذهب الشافعي في أكثر الآفاق .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢٦٠/٤) .

(٢) حققها : نوري القيسي ، وزارة الأعلام ، بغداد ١٩٧٢م .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٣٦٤ . البغدادي : هدية العارفين ، (٢٢/٢ ـ ٢٣) .

(٤) انظر ترجمة القمي في : الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ١٤١ . ابن الأثير : اللباب ، (٥٦/٣) . ابن قطلوبغا : تاج التراجم ، ص ٢٠٦ . القرشي : الجواهر المضية ، (٦١٨/٢ ـ ٦١٩) . السيوطي : طبقات المفسرين ، ص ٧٤ .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٠ . الداوودي : طبقات المفسرين ، (٤٤٠/١) .

وعلى وقتـه كان أبو العباس إمام الشافعية ، وكانت جهوده كبيرة في خدمة مذهبه . فشرح المذهب ، وعمل المسائل في الفروع ، وصنَّف الكتب في الرد على المخالفين من أهل الرأي ، كما سنرى ، بل وكانـت بينه وبين محمد بن داود الظاهـري مناظـرات ، ومحاورات لا تنتـهي ، ومن قَبلهِ والده داود . فـاطلق الشـافعيـون على أبي العبـاس « البـاز الأشْهب » . وكان له موقف ضد علم الكلام ، إذ يقول : ((قَلَّ مـا رأيت من المُتفقـهة من اشـتغل فـأفلح ، يفوته الفقه ولا يصل إلى معرفة الكلام)) .

وقال أبو حامد الإسفراييني في حق أبي العباس : ((نحن نَجري مع أبي العباس في ظواهر الفقه دون دقائقه)) [١] .

ولأبي العباس اليد الطولى في تصنيف الكتب الفقـهية ، والتي يتناول فيـهـا الفقه وأصـوله ، والرد عـلـى المخالفين . ويذكـر أبو الحسن الشّيْرجي الفرضـي ، أن فـهرسـت كتب أبي العـبـاس يشـتـمـل على أربعـمـائة مُصنَّف ، ومن هذه المصنفـات : كـتـاب « الأقـسـام والخصـال » [٢] ، كتـاب « مختـصـر في الفقه » ، كـتاب « جـواب القاشاني » ، كتـاب « الرد على عيسى بن أبان » ، كتاب « التقريب بين المزني والشافعي » ، كتاب « الرد على محمد بن داود في القياس » ، كتـاب « الرد على محمد بن داود في مسائل اعترض بها الشافعي » ، كتاب « الرد على محمد بن الحسن » [٣] ، وغيرها من المصنفات .

وهذا **أبو بكر محمد بن خلف الضبي المعروف بوكيع** (ت ٣٠٦هـ/٩١٨م) ، أحد المتفننين في الآداب ، عارفاً بأخبار النـاس وأيامهم وسيَرهـم ، وخـاصـة أخبار القضـاة ، وله في ذلك كتاب مشهور ، وكان أحد العلماء الفضـلاء .

---

(١) انظر ترجمـة ابن سريج في : الخطيـب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٤/٢٨٧ ـ ٢٩٠) . الشيـرازي : طبقات الفقهاء ، ص ١٠٩ . ابن خلكان : وفيـات الأعيان (١/٦٦) . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، (٣/٢١ ـ ٢٥) . السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٣٤٠ .

(٢) مخطوط بمكتبة تشستربتي في دبلن (أيرلندا) ، برقم (٥١١٥) ، ٦٦٠هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١/٣/١٩٩) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٧ . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، (٣/٢٣) .

تولى القضاء ببعض النواحي ، وكان يتقلد القضاء عند وفاته على كُوَر الأهواز كلها [١] .

ومن مصنفات وكيع القاضي : كتاب « أخبار القضاة » [٢] ، كتاب « المكاييل والموازين » ، كتاب « الطريق » ، كتاب « الأنواء » ، كتاب « الصرف والنقد والسكة » ، كتاب « الشريف » ، ويجري مجرى كتاب « المعارف » لابن قتيبة ، كتاب « البحث » [٣] ، كتاب « الرمي والنضال » [٤] .

ومن أبرز فقهاء العراق المجتهدين ، **أبو جعفر محمد بن جرير الطبري** (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) ، وكان يُمثل مع داود الظاهري نزعات الاجتهاد التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، ويُعد ابن جرير آخر الأئمة المجتهدين .

أخذ ابن جرير الطبري فقه الشافعي عن الربيع بن سليمان المُرادي بمصر ، والحسن بن محمد الزعفراني ببغداد . ويقول عن نفسه : ((أظهرت فقه الشافعي ، وأفتَيت به ببغداد عشر سنين)) . وكان ابن جرير عالماً بالسُّنَن وطرقها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، إضافة إلى ضلوعه في الأحكام ومسائل الحلال والحرام .

كما درس الطبري فقه الإمام مالك على يد علماء المذهب ، منهم : يونس بن عبد الأعلى ، وبني عبد الحكم : محمد ، وعبد الرحمن ، وسعد . وأخذ فقه أهل العراق (الرأي) عن أبي مُقاتل بالريّ .

---

(١) انظر ترجمة وكيع في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٣٦/٥ ـ ٢٣٧) . ابن الجوزي : المنتظم ، (١٥٢/٦) . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (١١٥/٨) . القفطي : إنباه الرواة ، (١٢٤/٣) . ابن حجر : لسان الميزان ، (١٥٦/٥ ـ ١٥٧) .

(٢) مطبوع بتحقيق : عبد العزيز المراغي ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ . البغدادي : هدية العارفين ، (٢٥/٢) .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٣٧/٥) . حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١٤٢١/٢) .

وكان ابن جرير مُتفنناً في أغلب العلوم ، لا سيما الشرعيـة والعربية . واستحوذ على إعجاب أقرانه الفقهاء ، حتى قال فيه أبو العباس بن سُرَيْج : ((محمد بن جرير فقيه العالم)) [١] .

ولابن جرير في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة ، واختيار من أقاويل الفقهاء ، وتفرَّد بمسائل حُفظت عنه . ومـن هـذه المؤلفات : كتاب « اختـلاف الفقهـاء » [٢] ، كتاب « الخفيف » وهو مختصر في الفقه عمله للوزير العباس بن الحسن ، كتاب « أحكام شرائع الإسلام » ، كتاب « التبصير في أصول الدين » ، كتاب « المسترشد » ، كتاب « البسيط » ، كتاب « المحاضر والسجلات » ، كتاب « الرد على الحَرْقوصية » [٣] ، كتاب « اللطيف من البيان عن أحكام شرائع الإسلام » ، كتاب « الرسالة في بيان أصول الأحكام » [٤] .

كما برز من الفقهاء في تلك الفترة ، **أبو عبد الله الزبير بن أحمد الزبيري البصري** (ت قبل ٣٢٠هـ/٩٣٢م) ، إمام أهل البصرة في عصره ، وأحد حُفَّاظ المذهب الشافعي . عارفاً بالأدب ، خبيراً بالأنساب ، وكان ضريراً . قدم بغداد وحدّث بها ، وكان ثقة فيما يرويه . وله في المذهب وجوه غريبة [٥] .

ولأبي عبد الله كتب مصنَّفة في الفقه ، منها : كتاب « الكافي » مختصر في الفقه ، كتاب « الجامع » ، كتـاب « النيـَّة » ، كتـاب « سـتر العـورة » ، كتـاب « الهداية » ، كتاب « الإمارة » ، كتاب « الاستشارة والاستخارة » ، كتاب « رياضة المتعلم » ، كتاب « المسكت

---

(١) انظر عن الطبري : النديم : الفهرست ، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٦٣/٢) . ابن الصلاح : طبقات الفقهاء الشافعية ، (١٠٧/١ ـ ١٠٨) ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، (١٢١/٣ ـ ١٢٣) .

(٢) مطبوع بتحقيق : يوسف شخت ، مطبعة بريل ، ليدن (هولندا) ، ١٩٣٣م .

(٣) الحَرْقوصية : يعني الطبري بهم الحنابلة ، الذين سُمُوا بذلك لأن الإمام أحمد من أولاد زهير بن حرقوص .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٣٨٦ . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، (١٢١/٣ ـ ١٢٢) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (٥٠/٣) .

(٥) انظر ترجمة الزبيري في : الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ١٠٨ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣١٣/٢) . الصفدي : نكت الهميان ، ص ١٥٣ . اليافعي : مرآة الجنان ، (٢٧٨/٢) . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، (٢٩٦/٣) .

في الألغاز » [١] ، كتاب « وصف الإيمان وحقائقه ، والإسلام وشرائعه ، والإحسان ومنازله ، وتبيين ما اختلف فيه الفقهاء من شرحه » [٢] .

ويُعد **أبو الحسن عبد الله بن أحمد بن المغلس** (ت ٣٢٤هـ/٩٣٦م) ، أحد الفقهاء الذين اتصفوا بالعلم ، والصدق ، والثقة في قوله . وكان مقدَّماً عند جميع الناس ، يقصده طلاب العلم من سائر البلدان في منزله ، الواقع على نهر المهدي [٣] ببغداد ، لفضله وسعة علمه . أخذ أبو الحسن العلم عن محمد بن داود الظاهري ، فكان إماماً فيه ، وعنه انتشرت آرائه في البلاد [٤] .

ولأبي الحسن مصنفات عدة ، منها : كتاب « الموضح » ، كتاب « المفصح » ، كتاب « أحكام القرآن » ، كتاب « الطلاق » ، كتاب « الولاء » [٥] .

كما برز خلال تلك الحقبة ، **أبو سعيد الحسن بن أحمد الإصطخري** (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م) ، وكان رأساً في المذهب الشافعي ، ورِعاً ، زاهداً . وكان هو وابن سريج شيخي الشافعية ببغداد ، بصيراً بكتب الشافعي .

وقد أثنى عليه غير واحد من علماء عصره ، فقد قال عنه صالح بن أحمد الحافظ : ((كان أحد الفقهاء ، مع ما رُزق من الديانة والورع)) . أما أبو الحسن المروزي فقرَّظه

---

(١) البغدادي : هدية العارفين ، (٣٧٣/١) .

(٢) مخطوط بمكتبة صائب في أنقرة ، برقم (٢٧١٦) ، الأوراق : [١ أ – ١٧ ب] ، ٥٩٣هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٢٠٠/٣/١) .

(٣) نهر المهدي : وهو أحد أنهار بغداد الواقعة بالجانب الشرقي منها . وهو نسبة إلى الخليفة المهدي ، الذي أمر بحفره . وهو يخرج من نهر الفضل المتفرع من نهر دجلة . وهناك يقع قصر الرصافة وسوق يحيى . اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٥١ . سهراب : عجائب الأقاليم السبعة ، ص ١٣١ .

(٤) انظر ترجمة ابن المغلس : النديم : الفهرست ، ص ٣٦٤ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٨٥/٩) . الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ١٧٧ . ابن الجوزي : المنتظم ، (٢٨٦/٦) . ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، (٢٦٠/١) . ابن كثير : البداية والنهاية ، (١٨٦/١١) .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٣٦٤ . البغدادي : إيضاح المكنون ، (٦٠٦/٢) .

بقولـه : ((لما دخلت بغداد لم يكن بها من يستحق أن أدرس عليه إلا أبو العباس بن سريج، وأبو سعيد الإصطخري)) ، وهو بالطبع يقصد فقهاء الشافعية ، دون غيرهم من فقهاء المذاهب الأخرى .

ولمكانتـه العلمية ، فقد تولى أبو سعيد الحُسبة ببغداد ، واستقضاه الخليفة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ/٩٠٨ ـ ٩٣٢م) على سَجُسْتان [١] .

وكان لأبي سعيد إسهام في الدراسات الفقهية ، فصنَّف العديد من الكتب فيها ، ومنها : كتاب « الأقضية » ، كتـاب « أدب القضـاء » ، كتـاب « الفرائـض » كبـير ، كتاب « الجامع فـي الحسـاب » ، كتـاب « الشـروط والوثائـق والسجلات » ، كتاب « شرح الجبر والمقابـلة لأبي كامـل شجـاع » ، كتـاب « شـرح المستعمـل لأبي الحسن الضرير في الفروع » [٢] .

وكان **أبو بكر محمد بن عبد الله الصيرفي البغدادي** (ت ٣٣٠هـ/٩٤٢م) ، إماماً فـي الفقــه وأصوله ، أخذ العلم على يد ابن سـريج القاضـي ، واشـتهر بالحذق في النظر والقياس ، حتى أصبح أحد أركان المذهب بشهادة أقرانه من الشافعية ، فقد أثنى عليه أبو بكر القَفَّال الشاشي بقوله : ((إن أبا بكر الصَّيْرفي كان أعلم الناس بالأصول بعد الشافعي)) . وكذلك المتأخرين من فقهاء الشافعية ومؤرخي المذهب ، وقال السُّبْكي في طبقاته مثل قول القَفَّال [٣] .

ولأبي بكر مصنفات في الفقه وأصوله ، منها : كتاب « شرح رسالة الشافعي » ، كتاب « البيان في دلائل الأعـلام علــى أصــول الأحكــام » ، كتاب « حساب الدور » ، كتاب

---

(١) انظر ترجمة الإصطخري في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٦٩/٧) . النووي : تهذيب الأسماء واللغات ، (٥١٩/٢ ـ ٥٢٠) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٧٤/٢ ـ ٧٥) . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، (٢٣٠/٣ ـ ٢٣١) . الأسنوي : طبقات الشافعية ، (٣٤/١) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٨ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٧٤/٢) .

(٣) الخطيب البغـدادي : تاريخ بغداد ، (٤٤٩/٥) . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، (١٨٦/٣) . الأسنوي : طبقات الشافعية ، (٣٣/٢) .

« الفرائض » ، كتاب في « الشروط » ، كتاب في « الإجماع » ، كتاب « نقض كتاب عبيد الله ابن طالب الكاتب لرسالة الشافعي » (١) .

ومن أعيان الفقه الحنبلي ، **أبو القاسم عمر بن الحسين الخرقي** (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م) ، أحد الفقهاء العلماء بالمذهب ، أخذ العلم عن : أبي بكر المروزي ، وحرب الكرماني ، وصالح وعبد الله ابني أحمد بن حنبل ، وخلق سواهم . وقرأ عليه جماعة من شيوخ المذهب فيهم : أبو عبد الله بن بطة ، وأبو الحسن التميمي ، وأبو الحسين بن شمعون ، وغيرهم . وكانت لأبي القاسم مصنفات كثيرة ، وتخريجات على المذهب لم يكتب لها الخلود ، ذلك لأن أبا القاسم خرج من بغداد ، لما ظهر فيها سبُّ الصحابة ، فأودع كُتبه في دار بدرب سليمان في بغداد ، فاحترقت الدَّار ، واحترقت معه كُتبه كلها (٢) .

ولم يبق من مصنفاته سوى كتابه الموسوم بـ« المختصر في الفقه » (٣) في فروع الحنبلية . وبلغت مسائل الكتاب (٢٣٠٠ مسألة) ، وهو كتاب كان يشتغل به أكثر المبتدئين الحنابلة (٤) . وفي القرن السابع الهجري / الثاني عشر الميلادي ، قام موفق الدين عبد الله بن قُدَامة الحنبلي (ت ٦٢٠هـ/١٢٢٣م) بشرح مختصر الخِرَقي ، وسمَّاه كتاب « المُغني » (٥) ، وهو كتاب مشهور ، ومصدر مهم للفقه الحنبلي حتى العصر الحاضر .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٣٥٨ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٩٩/٤) .

(٢) انظر مبحث خزائن الكتب ، ص ٢٠٢ .

(٣) مطبوع بتحقيق : محمد زهير الشاويش ، دار السلام ، دمشق ، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م .

(٤) انظر ترجمة الخرقي في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٣٤/١١) . الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ١٧٢ . ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٧٥/٢ ـ ٧٦) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤٤١/٣) .

(٥) مطبوع عدة طبعات .

الفصل الثاني

علـــــوم العربيـــــة

المبحث الأول : علم اللغة .

المبحث الثاني : علم النحو والصرف .

المبحث الثالث : علم الأدب .

المبحث الأول

علـــم اللـغـــة

عندما نستقرىء عن تاريخ علم اللغة في العراق ،خلال فترة نفوذ الأتراك ، نجد ثمة خطوطاً عريضة تَمَحْورت حولها الدراسات اللغوية ، أو نتج عنها موضوعات جديدة في الدَّرْس اللغوي بفعل دوافع دينية ، ومتغيرات اجتماعية ، وطبيعة جغرافية ، جميعها تظافرت في تشكيل مرحلة جديدة ومزدهرة في ميدان علم اللغة . هذه الخطوط العريضة يمكن أن نسوقها مفصلةً فيما يلي :

أولاً : لقد كانت خدمة القرآن الكريم ، والسنة النبوية تُمثل الدافع الأول لقيام الدراسات اللغوية ، كعلوم مساعدة لمصدري التشريع الإسلامي .

وعلى ضوء القرآن والسنة ، نشأت علوم تتعلق بها ، كعلوم القرآن ، وعلوم الحديث ، والفقه . وكان لهذا الأمر أثره في تنوُّع فروع علم اللغة ، كمطلب حتمي يحتاجه القائمين على هذه العلوم .

فقد استمد الفقهاء الكثير من قواعد الاستنباط الفقهية من اللغة العربية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة المطهرة . فباللغة نعرف ((مقاصد الشريعة ، وبها يتمكَّن المجتهد أو الفقيه من معرفة الحقيقة ، والمجاز ، والإطلاق ، والتقييد ، والمنطوق ، والمفهوم ، والاشتراك اللفظي ، والعموم ، والخصوص ، .. إلخ ، وهذه كلها من مباحث علم اللغة)) [١] . واللغة عِماد المُفسِّر ، وعُدَّته التي يفزع إليها في تناوله لآيات القرآن الكريم بالشرح ، وتوضيح المُعمَّى من الألفاظ الغريبة .

وإذا كان تركيز علماء الشريعة قد انصب على الجانب التطبيقي فيما بين اللفظ والمعنى من علاقات مع تركيز واضح على مدلولات العبارات ، لاستخراج الأحكام الشرعية وتطبيقها . فإن اللغويين قد ركَّزوا على الألفاظ من زوايا متعددة بشكل يتناسب مع أهميتها ودورها في خدمة لغة القرآن الكريم ، فكانت عنايتهم شديدة في بيان أصول

---

(١) وهبه الزحيلي : الوجيز في أصول الفقه ، ص ١٥ ـ ١٦ .

الألفاظ ودلالتها بالنسبة للمعنى ، فميّزوا بين اللفظ الذي تعددت معانيه ، والمعنى الذي تعددت ألفاظه <١> .

فعلماء اللغة يبحثون في التعرُّف على العلاقة الدلالية بين اللفظ والمعنى ، وعلماء الشريعة يأخذون هذه الألفاظ ومعانيها في دراساتهم الشرعية .

ومن جهة أخرى ، فقد كان القرآن الكريم يُمثل مادةً غزيرة لعلماء اللغة والنحو والصرف والبيان بشكل مهم ، ينشدون فيه ضالتهم ، ويلتمسون جوانب اختصاصهم فيه ، الأمر الذي أسبغ على العلوم الشرعية ، لا سيما التفسير ، بلون هذه الدراسات <٢> .

وأمام هذا الأمر ظهرت ، خلال فترة نفوذ الأتراك ، دراسات لغوية ومباحث شتَّى ، تبحث في مختلف جوانب القرآن الكريم والسنة النبوية وبشكل كبير ، يُبرهن عليه ضخامة عدد المؤلفات التي وضعها علماء اللغة في هذا المضمار ، وهي تحمل عناوين مختلفة ، توحي في ظاهرها بمضمونها ، مثل : « غريب القرآن » ، « معاني القرآن » و « مُشْكل القرآن » ، و « مجاز القرآن » . ومن العلماء من جمع بين التفسير وهذه الفنون ، ومازجوا بينها ، كما فعل محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) في تفسيره .

ولم يكن الإسهام في هذه الدراسات يقتصر على علماء اللغة فقط ، بل كان لعلماء آخرين في فنون مختلفةٍ جهوداً ملموسة في هذا الأمر <٣> ، ذلك أن الهدف عند الجميع ، خدمة القرآن الكريم أحكاماً ، ولغةً ، وإعجازاً .

---

(١) عبد الكريم مجاهد : الدلالة اللغوية عند العرب ، ص ٩١ .

(٢) محي السرحان : التفاسير اللغوية والنحوية للقرآن الكريم ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج ٣٢ ، ج٣ ، ص ٥٥١ ـ ٥٦٣ .

(٣) فمثلاً ، في موضوع « غريب القرآن » ، وكذلك « غريب الحديث » كانت هناك مصنفات لعلماء لا ينتمون إلى علماء العربية في هذين الفرعين ، أو أحدهما ، ومن هؤلاء العلماء : المؤرخ محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م) ، ومحمد بن قادم النحوي (ت ٢٥١هـ/٨٦٥م) ، وعالم الحديث إبراهيم بن إسحاق الحربي (ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م) ، ومحمد بن أحمد بن كيسان النحوي (ت ٢٩٩هـ/٩١١م) ، وأحمد بن سهل البلخي (ت ٣٢٢هـ/٩٣٤م) ، أحد العلماء بعلوم الأوائل والأدب ، والمحدِّث محمد بن عزيز السجستاني (ت ٣٣٠هـ/٩٤١م) . حاجي خليفة : كشف الظنون ، (٢/١٢٠٣ ـ ١٢٠٨) . البغدادي : هدية العارفين ، (٢/٣٦) . عمر كحالة : اللغة العربية وعلومها ، ص ٢١ ـ ٢٢ ، ٢٤ ـ ٢٥ . وسار هذا الأمر في الفروع الأخرى على غرار ما ذكر .

ومُجمل القول ، أن جميع الدراسات اللغوية التي قامت على يد علماء اللغة وغيرهم ، كان الهدف منها ((ضَبْط لغة القرآن الكريم ، حتى يظل القرآن يُقرأ كما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم)) [١] .

ثانياً : كان المجتمع العراقي ، خلال تلك الفترة ، يضم عناصر أعْجمية من فُرس ، وزُنوج ، ورُوميين ، وأتراك ، ونَبط ، والعرب أهل البلاد الأصليين فهو مزيج من العرب والعجم . وبمرور الوقت ، انصهرت هذه العناصر مجتمعة مع بعضها البعض ، واختلطت اللغات فيما بينها ، فأصبح العرب يستخدمون ألفاظاً اجتماعية ، كمصطلحات ، وأسماء أشياء ، يُدخلونها في كلامهم ، مما ليس هو من الفصحى في شيء ، فَدبَّ اللحن إلى سليقة أهل العراق العربية ، وظهرت لغة تخلَّصت من الإعراب ، وخالفت العربية الفصحى في كثير من المفردات ، فأصبحت هناك مشكلة خطيرة تعرف بـ « لحن العامة » [٢] . فوجد علماء اللغة أنفسهم أمام هذا الأمر ، يتجهون إلى تأليف الكتب التي تهدف إلى تجنيب الفصحى شَرَّ الألفاظ الدخيلة عليها ، وبيان الألفاظ الأعجمية المُعرَّبة .

فألفوا الكتب في « لحن العامة » تبحث في تصويب الاستعمال غير الصحيح من الألفاظ الدخيلة والتنبيه عليها . وانبرى بعض العلماء بالتصنيف في الحلول أو الطرق التي تجعل القوم يتمسكون بلغتهم ، مع تصحيحها مما شابها من اللحن ، فظهرت كتب وُسِمت بـ « تقويم اللسان » ، و« إصلاح المنطق » ، و« جامع النطق » ، و« التصحيح » . وكذلك ظهرت كتب أخرى تبحث في هذا الموضوع ، وإن اختلفت في عناوينها ، ومادتها ، ومنهجها ، إلا أنها تشترك في موضوعها وهدفها [٣] . فبالإضافة إلى الأسماء السابقة لعناوين الكتب ،

---

(١) عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، (٤٧/٢) .

(٢) يقصد بـ « لحن العامة » . الخطأ الذي عُرض لكلام الناس ، وهذا الخطأ في الأبنية واشتقاقها ، وحرف دلالة الكلمة إلى مدلول جديد غير الذي عُرف في العربية الفصيحة ، ثم الخطأ في تركيب الجملة وبنائها . إبراهيم السامرائي : التصحيح اللغوي ، مجلة عالم الكتب ، مج١٠ ، ع١ ، ص ١٣ـ١٦ .

(٣) محمد آل ياسين : الدراسات اللغوية عند العرب ، ص ١٦٩ـ١٧٠ . إبراهيم السامرائي : التصحيح اللغوي ، ص ١٣ .

هناك عناوين أخرى سنعرض لها عند الحديث عن إنتاج علماء اللغة ، خلال تلك الفترة ، في هذا الموضوع في الصفحات المقبلة من هذا المبحث .

ثالثاً : كانت الدراسات اللغوية المتعلقة بالقرآن الكريم والحديث الشريف من جهة ، وصيانة اللغة ذاتها من اللحن من جهة أخرى ، هي الدافع الرئيسي لعلماء اللغة لكي يبحثوا عن مَعين نظيف من التأثيرات الأعجمية ، ينهلون منه اللغة العربية على أصولها . فوجدوا أن الأعراب الذين يعيشون في بوادي قلب الجزيرة العربية ، خير من يؤخذ عنهم العربية الفصحى وهو ما يعرف بـ « الرواية اللغوية » (١) . حيث ظلت سليقتهم العربية بعيدة عن لَوْثة العُجْمى ، سليمة منها . لا سيما قبائل : قيس ، وتميم ، وأسد ، وهذيل ، وكنانه ، وطي . فعلى هذه القبائل كان اعتماد علماء اللغة في الغريب ، والإعراب ، والتصريف ، ولم يُؤخذ عن غيرهم من سائر القبائل ، خاصة المتاخم منها للبلاد الأعجمية المجاورة لشبه جزيرة العرب ، كلخم ، وجذام ، وقضاعة ، وإياد ، وتغلب ، وبكر ، وغسان ، وعبد القيس ، والأزد ، وبني حنيفة ، وغيرهم (٢) .

وكان علماء البصرة والكوفة أول من قام بنقل اللغة عن هؤلاء واثباتها في كتب ، وجَعْل هذا الأمر علماً وصناعة في العالم الإسلامي (٣) .

ولقد مرَّت « الرواية اللغوية » بمراحل أربعة هي :

المرحلة الأولى : رحلة اللغويين إلى البادية وسماعهم من الأعراب ، واقامتهم بين ظهرانيهم مدة ، قد تطول أو تقصر ، ثم العودة إلى مواطنهم لعرض ما جمعوه في مجالسهم وحلقاتهم العلمية وإملائها على الطلاب ، وإشاعتها بين الناس .

---

(١) الرواية اللغوية : عملية جمع المادة اللغوية من أفواه العرب الفصحاء ، بالذهاب إليهم في بواديهم ، أو بلقائهم في الحواضر . محمد آل ياسين : الدراسات اللغوية عند العرب ، ص ٦٥ .

(٢) السيوطي : المزهر ، (١/٢١١ـ٢١٢) . عمر كحالة : اللغة العربية وعلومها ، ص ١٠ .

(٣) السيوطي : المزهر ، (١/٢١٢) .

المرحلة الثانية : قدوم الأعراب من مواطنهم في البادية إلى حواضر العلم ، وعلى رأسها البصرة ، والكوفة ، ومنها إلى بغداد . فيسمع العلماء منهم في أماكن اجتماعهم بهم ، كمِرْبد البصرة ، وكُنَاسة الكوفة [١] .

المرحلة الثالثة : الرواية عمن شافه الأعراب . ذلك أن العلماء وجدوا في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي أن الأعراب قد دخل ألسنتهم الفساد لطول مقامهم في الحواضر ، وعَيشهم في مجتمعاتها التي اختلطت فيها العناصر الأجنبية ، واندمجت فيها اللغات الوافدة ، فقلت ثقتهم فيهم ، وتركوا الأخذ عنهم . وأصبحوا يروون عمن روى عن الأعراب الفصحاء مباشرة . كما فعل المبرِّد ، وثعلب ، وأصحابهما ، وهذا لا ينفي أنهم شافهوا نفراً من الأعراب ممن لم تفسد سلائقهم في حاضرة العلم بغداد .

واختلفت كلاً من : البصرة ، والكوفة في « الرواية اللغوية » . فقد كان لعلماء كل مدينة منهج خاص بهم ، فأصبح هناك مذهبين في اللغة ، ثم النحو فيما بعد ، أُطلق عليهما اصطلاحاً : « مدرسة البصرة » ، و« مدرسة الكوفة » .

ويرى بعض الباحثين [٢] ، أن هذا الاختلاف بين المدرستين إنما هو تمسُّك كل فريق بما سمع في بيئته ، وأن هذا الفرق بين آراء البصريين وآراء الكوفيين في طرق اشتقاق الألفاظ وفي الدفاع عن بعض أوجه الإعراب وفي إقامة الأدلة على رأي ، إنما هو من عمل علماء هاتين المدرستين المتأخرين في الأغلب ، بدأ مع المبِّرد البصري المذهب ، وثعلب رأس المذهب الكوفي .

غير أن هناك اختلاف بين المدرستين في درجة قبول النَّص المُروى ، فالبصريون يتمسكون بالنَّص كما سُمع من البدو من غير تحكيم لقاعدة أو تذليل لمنطق . من أجل ذلك تبقى اللغة بألفاظها وتراكيبها وإعرابها عند البصريين أمثلة مفردة ، كل لفظة صحيحة بنفسها . لأن العرب قد جاءوا بها على ذلك الوجه المخصوص . ولم يُجوِّز البصريون أن تُجمع كل كلمة إلاَّ على ما سُمع في جمعها عن الأعراب .

---

(١) الكُنَاسة : بالضم . محلة مشهورة بالكوفة . وكانت محط اجتماع أهل اللغة والأدب . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٤٨١/٤) .

(٢) عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، (٤٨/٢) .

أما الكوفيون ، فقد جَوَّزوا جمع الكلمات عن طريق القياس ، ما دام هناك تشابه في صيغة كلمة وأخرى مما لم تجمعه العرب . ثم إن الكوفيين احتفظوا باللفظ الواصل إليهم من الأعراب ، بغض النظر عمَّا إذا كان هذا اللفظ سُمِع من الأعراب أكثر من مرة ، أو سُمِع من أعرابي واحد مرة واحدة . فهم يرون أن الأعراب يتكلمون سليقة فلا يخطئون . فكانوا يَقْبلون كل ما وصل إليهم عنهم على مستوى واحد من الصحة والأصالة . بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فَعدُّوا ذلك الذي سُمِع من أعرابي واحد لمرة واحدة أساساً للقياس عليه (١) .

ولكن هذا التمسك بالآراء من قِبَل أتباع كل مدرسة ، لا يعني امتناعهم عن المرونة في سبيل الرواية اللغوية . بل أخذوا بمناهج بعضهم البعض كلما استدعى الأمر ذلك ، وخاصة المتأخرين منهم ، عندما انتقل الكثير منهم منذ أواسط القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي إلى بغداد ، وظهر فيها جيل خلط بين المذهبين ، فظهرت ما يسمى بـ « مدرسة بغداد » ، التي كانت تدمج بين آراء كلٍ من : مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة ، مما يعني أن المرونة كانت صفة أكثر علماء اللغة في تلك الفترة .

ولم يكن الاختلاف بين مدرستي : البصرة والكوفة ، ثم بغداد فيما بعد ، قاصراً على اللغة ، بل دخل النحو المعترك مباشرة ، فالصرف من بعده ، وخاصة على يد العلماء المتأخرين منهم .

ولقد كان الاختلاف بين المدارس الثلاث ، لا سيما مدرستي : البصرة والكوفة ، له أثره الكبير على حركة التأليف ، فظهرت كتب تناقش أوجه الخلاف بينهما . وأخذ اتباع كل مدرسة يضعون الكتب حول مختلف الموضوعات معتمدين على منهج مذهبهم . الأمر الذي أثرى الدراسات اللغوية ، فتجد كتابين في موضوع واحد مثلاً ، يناقش كل مؤلف هذا الموضوع من الزاوية التي تتناغم مع مذهبه اللغوي .

رابعاً : إذا كانت اللغة تُعد مطلباً مهماً للعلوم الشرعية ، كما مرَّ معنا ، كعلم مساعد لها ، فإن لها الأهمية ذاتها بالنسبة لبقية العلوم كمصدر معجمي لها .

---

(١) المرجع السابق ، (٢/٤٨ـ٤٩) .

فقد قام اللغويون بتثبيت المعلومات الخاصة بالبلدان ، والمواضع ، والأنهار ، وغير ذلك من المعلومات الجغرافية ، كأحد الآداب التي كان يُفترض في العالم أن يكون ملماً بها ، بحيث يكون قد أخذ من كل فن بطرف ، وكذلك الكاتب . ولذلك ، فقد دوَّنوا تلك المعلومات الجغرافية ، ونَسَّقوها ، وبَوَّبوها . فكانت جهود علماء اللغة في الحقل الجغرافي ملموسة وظاهرة . نجدها في كتب : « الأنواء » ، « والبلدان » ، و« وصف المطر » ، و« النوادر » ، وفصول في كتب « أدب الكتَّاب » ، وغيرها . ويوضِّح ابن قتيبة الدِّيْنَوَري ، عالم اللغة والأديب الجغرافي ، دور اللغة كأحد مصادر المؤلفات الجغرافية في قوله : ((وقد سمعت من يذكر أن الأفلاك أطواق تجري فيها النجوم ، والشمس ، والقمر ، والسماء فوقها . ولست أدري كيف هذا ، ولا وجدت عليه من الكتاب ، ولا من الحديث ، ولا من قول العرب)) [١] . وعموماً ، كانت بداية تدوين المعلومات الجغرافية لدى العرب عندما بدأ اللغويون يجمعون ما يمكن جمعه من الشعر ، والنوادر ، ومفردات اللغة من الأعراب ، ثم يقومون بتبويبها ، ويفردون لكل منها موضوعاً خاصاً . فنجد كُتباً تعالج موضوعات : البروج ، والرياح ، والكواكب ، واشتقاقاتها اللغوية . كما عالجوا موضوعات : السحاب ، والبرق ، والمطر ، ودلالتها من حيث : الاتجاه ، واللون ، والصوت ، والصورة ، والحمرة التي تدل على الجدب ، والغيث ، وهكذا .

كما تناولوا مفردات اللغة الدالة على الزمان مثل : سَحر ، وغدوة ، وبكرة ، وأمس ، وغداً ، والسَّنة ، وأقسام اليوم . وقام علماء اللغة أيضاً ، بتحديد المترادفات الكثيرة في أسماء السُّحب ، والكثبان ، والجبال ، والرمال ، وغيرها .

كما حفلت كتب الأدب والنوادر ، بموروث كبير للمعلومات الجغرافية المتعلقة بمنازل القبائل ، وأسماء المواضع ، والمياه ، والجبال . وكذلك توزيع أنواع الحيوانات في أقطار الأرض [٢] .

---

(١) ابن قتيبة : الأنواء ، ص ١٥ . حبيب الراوي : المصادر اللغوية للجغرافية عند العرب ، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، مج ٨ ، ص ٣٥ـ ٦٨ .

(٢) حبيب الراوي : المصادر اللغوية للجغرافية عند العرب ، ص ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٦٢ ـ ٦٣ .

ويمكن أن نُعمِّم أهمية اللغة بالنسبة للجغرافيا على علم التاريخ وكتابته ، فالعلاقة وثيقة بين التاريخ والجغرافيا . كما وجدت اللغة مفردات للعلوم التطبيقية ففي الطب ،استعان الأطباء بالمعاجم اللغوية التي وضِعت في الإنسان وفَصلَّت أسماء أعضائه ، وبَيَّنوا أحواله ، وصفات كل عضو من أعضائه ، وكذلك تطرقوا إلى النواحي الأخلاقية والاجتماعية له .

وحاول علماء اللغة إيجاد صيَغ جديدة للمعاني المُعرَّبة التي دخلت على مصطلحات العلوم التطبيقية بعد حركة التعريب . ففي الكيمياء ، ذكروا أسماء المواد الكيميائية ، وصفاتها ، وأسماء آلات الكيمياء المستخدمة من قبل العلماء في تجاربهم ، والظواهر المصاحبة لها . فوجد الكيميائيون مكنزاً لغوياً يستطيعون الاستعانة به في وضع مصَّنفاتهم ، وكذا الأمر في علم الحِيَل ، والحساب ، والفلك ، وعلم النبات ، وغيرها من العلوم التطبيقية .

لقد كان هناك تفاعل قوي بين العرب وبيئتهم بعناصرها المختلفة ، كما ارتبطت حياتهم بظواهر الطبيعة ارتباطاً وثيقاً . ولذا ، وجد علماء اللغة في عناصر البيئة المحيطة بهم ، من إنسان ، وحيوان ، ونبات ، وجبال ، وغيرها مجالاً خصباً للتأليف ، فوضعوا الكتب التي تتحدث عن الإنسان ، وأعضائه ، وحالاته الوجدانية ، ومراحل عمره ، وغيرها من الموضوعات . كما تناولوا الحيوان ، فألَّفوا في أصناف الحيوانات ، لا سيما التي تعيش في بيئتهم ، خاصة الإبل والخيل ، فتطرقوا إلى أسمائها ، وصفاتها ، وأسماء أعضائها ، ومراحل عمرها ، وغير ذلك . وبحثوا في النبات ، أسمائه ، وأماكن وجوده ، وفَصلُّوا في تقسيمه إلى طوائف وعائلات . وما مؤلفات علماء الفترة ، كما سيَمرُّ معنا ، إلا دليل على هذا التفاعل الايجابي بين علماء اللغة وبيئتهم .

خامساً : استغلال علماء اللغة لأسرار اللغة العربية وتراثها في توليد الموضوعات المستقلة . ويقصد بذلك أن اللغة العربية لغة غنيَّة ومَرنة ، وتتميَّز بشيء من الخصوصية عن بقية اللغات ، تجعل منها زاخرة بالأسرار التي تحتاج إلى اكتشافها ، أو محاولة التعرُّف عليها .

ولذا وجد علماء اللغة أنفسهم أمام كنزٍ ثقافيٍ عظيمٍ جداً . فأخذوا يضعون المؤلفات في كل جانب يتوصلون إليه من جوانب اللغة بالجد والمثابرة ، حتى يصلوا إلى ذلك الشيء المكنون الذي يُبرز جمال العربية .

فمنهم من صنَّف في موضوع « الملاَحِن » [١] . وهو لون من التأليف الطريف ، الذي يَدل على مبلغ عناية العلماء باللغة وتصرفهم فيها ، منتفعين ببعض خصائص العربية . فنجد كُتباً تحمل عنوان « الملاَحِن » ، وتدخل من ضمنها كتب الألغاز ، والأحاجي ، والتَّعْمية .

وصنَّفوا في موضوع « الفَرْق » [٢] . وهو من الموضوعات الحيوية التي لفتت علماء اللغة ، كأبي حاتم السِّجِسْتاني ، وابن السِّكِّيت ، وأبو إسحاق الزَّجَّاج ، وأبو الطيب الوشَّاء ، وأبو بكر الجَعْد ، وغيرهم ، كما سنرى .

كما حاول بعض علماء اللغة الربط بين بعض الآيات القرآنية وأمثال العرب ، وحِكَمِهِم ، فَخرَّجوا بعض ما قالت العرب وسار على ألسنتها من القرآن الكريم ، فوضعوا الكُتب التي تتحدث عن هذا الموضوع ، ووُسِمت بـ « الأمثال في القرآن والسنة » ، و « الأمثال الكامنة في القرآن » ، و « أمثال القرآن » ، ... إلخ .

ولقد أسهم علماء العراق ، خلال تلك الفترة ، في هذا المضمار ، كمحمد بن علي التِّرمِذي ، ونَفْطَوَيه ، ومحمد بن الجُنَيْد ، والحسين بن الفضل ، وغيرهم ، كما سنرى فيما بعد .

---

(١) اللحْن : « أن تريد الشيء فتوري عنه بقول آخر » . ابن دريد : الملاحن ، ص ٦٥ . ولقد استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب ، كقوله عليه الصلاة والسلام لعجوز : ((إن الجنة لا يدخلها عجوز)) ، يريد : أنهن يَعُدْن شباباً . ويورد ابن دريد في كتابه السابق (١٨٥ مثالاً) للحن .

(٢) الفَرْق : هو « علم يهتم باختلاف تسمية الأعضاء ، وأسماء الأولاد ، والجماعات ، والأحداث ، وغيره من الصفات بين الإنسان والحيوان » . أبو حاتم السجستاني : كتاب الفرق ، ص ١ .

وكانت ظواهر الترادف ، والاشتراك اللفظي ، والتضاد [١] في العربية محل اهتمام علماء اللغة [٢] .

فـأخـذ العلمـاء ، خـــلال تلك الفـتـرة ، بتـصنيف الكتب التي تبـحث في الظواهر السابقة ، والتي جاءت تحت عناوين منها : «ما اتفق لفظه واختلف معناه» ، و« الأضداد » ، و« المترادف » ، و« ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه » ، ... ونحو ذلك .

كمـا كان مـوضـوع « الإشْتِقَاق » [٣] محل اهـتمـام وعناية علماء اللغة في العراق خلال تلك الفترة . والاشتقاق مَزِيَّةُ اللغة العربية ، فهناك أشياء كثيرة تَجِدُّ ، وأحوال تَنْشأ ، وأفعال تُسْتحدث ، ومعانٍ تتولّد ، وجميعها تحتاج لألفاظ وأسماء لكي تظهر ، ويتم ذلك من طرق عدة ، أهمها « الإشتقاق » . فعن طريقه وُجِدَت مفردات كثيرة في اللغة العربية .

ويخضع الإشتقاق ، كأية ظاهرة لغوية ، لتأثير البيئة ، فهي التي تحدد دواعيه ، وتُقرر ـ إلى حد كبير ـ النشاطات الخاصة المتصلة به [٤] .

وصنَّف علماء العربية ، خلال تلك الفترة ، كُتب « الإشتقاق » إسهاماً منهم لهذا الموضوع الحيوي . كالمُفَضَّل بن سلَمة ، والمبرِّد ، وابن دُرَيْد ، والزَّجَّاج ، وابن دَرَسْتَوَيْه ، وأبو القاسم الزَّجَّاجي ، وأبو الفضل طَيْفور ، وغيرهم كما سيتضح فيما بعد .

---

(١) الترادف : هو « الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد » . السيوطي : المزهر ، (١/٤٠٢) .
والاشتراك اللفظي : هو « وجود كلمة واحدة تدل على معانٍ عدة على سبيل الحقيقة والمجاز » مثل : العين ، تُطلق على العين الباصرة وعين الماء وعين الشيء ، أي حقيقته ونفسه ، والعين التي تطلق على الجاسوس . وحينما نقول كلمة واحدة ، أي أنها بلفظها ، وصورتها ، وأصواتها ، تؤدي أكثر من معنى . السيوطي : المزهر ، (١/٣٦٩) . عبد الكريم مجاهد : الدلالة اللغوية عند العرب ، ص ١١٢ .
والتضاد : « هو كل لفظ يدل على معنيين متضادين أو متقابلين ، أي اللفظ يدل على النقيضين . مثل : الجلل، يطلق على الأمرين : الكبير والصغير » . عبد الكريم مجاهد : الدلالة اللغوية عند العرب ، ص ١٢٢ .

(٢) رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ، ص ٣٠٩ .

(٣) الإشتقاق : « أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معناً ، ومادة أصلية ، وهيئة تركيب لها ، ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة ، لأجلها اختلفا حروفاً ، أو هيئة » . السيوطي : المزهر ، (١/٣٤٦) .

(٤) محمد بلاسي : مسيرة الفكر الاشتقائي ، مجلة آفاق الثقافة والتراث ، ع١٥ ، ص ٢٠ ـ ٣٣ .

وفي هذا العصر تحوَّلت « معاجم اللغة » إلى مسارٍ جديد ، تميّز بالتضخم في المادة العلمية لأسباب مختلفة ، مع صعوبةٍ في الكشف عن الكلمات [١] . وكان دافع اللغويين في وضع المعاجم هو خدمة نصوص التشريع ، وذلك بجمع مفردات اللغة ، ومحاولة إحصائها ، وشرحها ، والنصُّ على معانيها ، والاستشهاد لها بمختلف الشواهد الشعرية والنثرية . كل ذلك بغرض فهم القرآن الكريم ، وتَجْلِية مُبهمِ ألفاظه [٢] .

ولقد تنوَّع التأليف في المعاجم ، خلال تلك الفترة ، فظهر نمطين في تأليفها ، هما [٣] :

١ ـ معاجم جُمعت موادها حسب الألفاظ مرتبة .إما ترتيباً هجائياً أو على مخارج الحروف .

٢ ـ معاجم جُمعت المواد فيها حسب الموضوعات ، مُبوباً لها بحسب المعاني ، وإيراد الألفاظ الخاصة بالموضوع المعقود له الباب .

وعلى ضوء المرتكزات الخمسة السابقة ، سارت الدراسات اللغوية ، خلال عصر نفوذ الأتراك ، نحو الارتقاء بلغة القرآن ، وخدمتها بشكل فاق الفترات السابقة واللاحقة لها ، وذلك بفضل جهود علماء اللغة الذين ظهروا في ذلك الوقت ، وكان أكثرهم يُعتبر من العلامات البارزة في تاريخ اللغة العربية ، ووضع قواعدها الأساسية ، وعلى أيديهم أصبح لعلم اللغة شأن آخر ، بفضل العدد الضخم من المصنَّفات التي تركوها ، مما لا يوازيها في العدد أيّاً من فترات التاريخ الإسلامي .

واستقصاء أسماء علماء اللغة في العراق ، خلال تلك الفترة ، يُعتبر ضرباً من المستحيل ، وذلك لكثرة عددهم . والمقام لا يسمح إلا بذكر البارزين منهم .

ومن أبرز هؤلاء العلماء ، **أبو يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت** (٢٤٤هـ/٨٥٨م) . أحد أكابر أهل اللغة ، ولم يكن بعد ابن الأعْرابي مثله ، وممن

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ، (٢/٨٥ـ٨٧) . عمر كحالة : اللغة العربية وعلومها ، ص ٩ ، ١١ .

(٢) محمد آل ياسين : الدراسات اللغوية عند العرب ، ص ٢٢٦ . رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ، ص ٢٢٩ .

(٣) محمد آل ياسين : الدراسات اللغوية عند العرب ، ص ٢٢٦ .

أسهم في علوم القرآن ورواية الشعر . أخذ العلم عن علماء عصره ، كأبي عمرو الشيباني ، والفرّاء ، وابن الأعرابي ، وغيرهم . وأخذ عنه جماعة ، منهم : أبو سعيد السُّكّري ، وأبو عكرمة الضُّبّيّ ، وميمون بن هارون الكاتب ، وآخرين غيرهم .

ومما زاد في تمكُّن ابن السِّكّيت في اللغة ، لقائه بفصحاء الأعراب وأخذ اللغة عنهم مباشرةً . وكان يمتهن تأديب صبيان العامة في دَرْب القَنْطَرة ببغداد [١] .

ورمى ابن السِّكّيت بسهم وافر في الدراسات اللغوية ، بوضعه للعديد من المصنفات فيها ، ومنها : كتاب « إصلاح المنطق » [٢] ، ولقد حاز هذا الكتاب على إعجاب بعض علماء اللغة ، فقرَّظه المبرِّد بقوله : ((ما رأيت للبغداديين كتاباً أحسن من كتاب يعقوب بن السِّكّيت في المنطق)) . أما ابن خِلّكان فقال : ((ولا شك أنه من الكتب النافعة ، الممتعة ، الجامعة لكثير من اللغة ، ولا نعرف في حجمه مثله في بابه)) [٣] .

ومن المصنفات الأخرى لابن السِّكّيت : كتاب « الحروف التي يتكلم بها في غير موضعها » [٤] ، وهو في باب لحن العامة ، كتاب « الألفاظ » [٥] ، كتاب « القلب والإبدال » [٦] ، كتاب « الأضداد » [٧] ، كتاب « الإبل » ، كتاب « الأصوات » ، كتاب

---

(١) انظر ترجمة ابن السِّكّيت في : النديم : الفهرست ، ص ١١٤ . الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٧٣/١٤ ـ ٢٧٤) . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٣٨ ـ ١٤٠ . القفطي : إنباه الرواة ، (٥٦/٤ ـ ٦٣) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٥٠/٢٠) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣٩٥/٦ ـ ٤٠١) . اليماني : إشارة التعيين ، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ .

(٢) مطبوع بتحقيق : أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٩م . ويذكر المحققان (ص ١٢) : بأن غرض ابن السكيت من تأليف هذا الكتاب هو : إصلاح أخطاء النطق التي كانت شائعة في عصره بعد أن استشرى داء اللحن في لغة العرب .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤٠٠/٦) .

(٤) مطبوع بتحقيق : رمضان عبد التواب ، حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، مج٢ ، ص ١٢٩ ـ ١٩٢ .

(٥) مخطوط بمكتبة القرويين بفاس ، برقم (١٢٤٤) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٢٠٧/٢) .

(٦) مطبوع بتحقيق : أوغست هفنر ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٠٣م .

(٧) مطبوع بتحقيق : أوغست هفنر ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩١٢م .

«الأمثال» ، كتاب «الأيام والليالي» ، كتاب « التوسعة في كلام العرب » ، كتاب « خلق الإنسان » ، كتاب « الحشرات » ، كتاب « السرج واللجام » ، كتاب « الزبرج » ، كتاب « غريب القرآن » ، كتاب « النوادر » ، كتاب « النبات والشجر » ، كتاب « الوحوش » ، كتاب « الفرق » ، كتاب « منطق الطير » [١] ، وغيرها من المصنَّفات .

ويعد **أبو محلم محمد بن سعد بن عوف السعدي** (ت ٢٤٨هـ/٨٦٢م) من أعلم الناس باللغة والشعر . وكان أعرابياً ، تميّز بقوة الحفظ . وكان يُفخِّم كلامه ويُغلظ طبعه ، ويُغرِّب منطقه [٢] .

ولأبي مُحَلِّم مصنفات في اللغة ، منها : كتاب « الأنواء » ، كتاب « الخيل » ، كتاب « خلق الإنسان » [٣] .

كما كان **أبو العباس محمد بن الحسن بن دينار المعروف بالأحول** (ت بعد ٢٥٠هـ/٨٦٤م) ، ورّاق حنين بن إسحاق الطبيب في منقولاته لعلوم الأوائل ، وأحد المبرِّزين في اللغة والشعر . غزير العلم ، جيد الرواية . وجعله الزبيدي في طبقة المبرِّد وثعلب [٤] .

ومن المصنفات التي وضعها أبو العباس الأحْول في ميدان اللغة : كتاب « ما اتفق لفظه واختلف معناه » ، كتاب « الدواهي » ، كتاب « السلاح » ، كتاب « الأشباه » ، كتاب « الأمثال » [٥] .

ومن علماء اللغة الذين أثَّروا في الدراسات اللغوية ، **أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني** (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) ، نزيل البصرة وعالمها ، وإمام جامعها ومُقرئها .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٥٠/٢٠) . ابن خير : فهرسة ابن خير ، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ .

(٢) انظر ترجمة أبي مُحَلِّم في : النديم : الفهرست ، ص ٧٢ ـ ٧٣ . القفطي : إنباه الرواة ، (١٧٣/٤) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٧٣ .

(٤) انظر ترجمة الأحْول في : الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٠٨ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ،(١٨٥/٢) . القفطي : إنباه الرواة ، (٩١/٣ ـ ٩٢) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٢٥/١٨ ـ ١٢٦) .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ١٢٦ . السيوطي : بغية الوعاة ، (٨٢/١) .

وأحد الذين أكثروا من الرواية عن علماء اللغة ، كأبي زيد الأنصاري ، وأبي عبيدة التميمي ، والأصمعي ، وغيرهم . وكان ثقة فيما يرويه ، وعليه اعتمد ابن دريد والمبرد في اللغة . وكان الأخير يحضر حلقته ، ويلازم القراءة عليه .

وكان أبو حاتم قد سمع الأعراب وأخذ عنهم اللغة ، كأبي مجيب ، ومحمد بن عبد الملك الأسدي ، وأم الهيثم الأعرابية ، وآخرين سواهم .

وبلغ من حُب أبي حاتم للعلم أنه انفق ما ورثه عن أبيه وعمِّه ، وكانت مائة ألف دينار ، في طلب العلم وعلى العلماء .

واشتهر أبو حاتم بكثرة الكتب وجمعها ، حتى أصبحت له خزانة كتب مشهورة ، وقد آلت بعد وفاته إلى يعقوب بن الليث الصفّار ، صاحب سِجِسْتان ، الذي اشتراها بأربعة عشر ألف دينار ، وهو مبلغ كبير . وعلى الرغم من ذلك فإن رُواة الخبر يرَون بأنه أقل من ثمن المكتبة الحقيقي ، مما يعطينا دلالة على ضخامة خزانة أبي حاتم [١] .

وكان أبو حاتم غزير التصنيف في اللغة ، فلم يترك موضوعاً من مباحث علم اللغة إلا وصنَّف فيه . ومن هذه المصنفات : كتاب « الأضداد » [٢] ، كتاب « الفرق » [٣] ، كتاب « النخلة » [٤] ، كتاب « ما تلحن فيه العامة » ، كتاب « النبات » ، كتاب « الطير » ، كتاب « الوحوش » ، كتاب « المذكر والمؤنث » ، كتاب « الإبل » ، كتاب « خلق الإنسان » ، كتاب « السيوف والرماح » ، كتاب « الفصاحة » ، كتاب « المقصور والممدود » ، كتاب « النوادر » [٥] ، ومصنفات أخرى غيرها .

---

(١) انظر ترجمة أبي حاتم في : السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ص ١٠٢ ـ ١٠٤ . ابن الأنباري : نزهة الألباء : ص ١٤٥ ـ ١٤٨ . القفطي : إنباه الرواة (٥٨/٢ ـ ٦٤) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٦٣/١١ ـ ٢٦٥) . ابن خلكان : وفيات الأعيان (٤٣٠/٢ ـ ٤٣٣) . اليماني : إشارة التعيين ، ص ١٣٧ـ١٣٨. الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (٢١٩/١ ـ ٢٢٠) . ابن كثير : البداية والنهاية ، (٣/١١) .

(٢) مطبوع بتحقيق : أوغست هفنر ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩١٢م .

(٣) نشر بتحقيق : حاتم الضامن ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، مج ٣٧ ، ج١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ص ٢٠٦ ـ ٢٦٠ .

(٤) مطبوع بتحقيق : إبراهيم السامرائي ، دار اللواء ، الرياض . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٦٥/١١) . البغدادي : هدية العارفين ، (٤١١/١ ـ ٤١٢) .

ويعد **أبو الفضل العباس بن الفرج الهاشمي المعروف بالرياشي** (ت ٢٥٧هـ/٨٧١م) ممن برز من علماء العراق في اللغة والنحو والشعر . كثير الرواية عن الأصمعي ، وكان يحفظ كتبه ، وكُتب أبي زيد الأنصاري . وقرأ أبو الفضل « الكتاب » لسيبويه على المازني ، الذي قال : ((قرأ عليَّ الرِّياشي كتاب سيبويه وهو أعلم بهِ مني)) ، أراد المازني القول : بأنه أفادني لغته وشعره ، وأفدته النحو . وكان أبو الفضل موثوقاً بعلمه ، فأخذ عنه الأكابر ، منهم : ابن دريد ، والمبرد (١) .

وأسهم أبو الفضل في ميدان الدراسات اللغوية بعدد من المصنفات ، أغلبها في المعاجم المرتبة على الموضوعات ، ومنها : كتاب « الخيل » ، كتاب « الإبل » ، كتاب « ما اختلفت أسماؤه من كلام العرب » (٢) .

وممن برز أيضاً من علماء اللغة ، خلال فترة نفوذ الأتراك ، **أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري** (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) ، سكن بغداد وحدّث بها . وسُمِّيَ بالدِّيْنَوري لأنه كان قاضياً على الدِّيْنَور . وكان أحد المتفننين في علوم مختلفة ، صادقاً فيما يرويه ، ثقة . أحد علماء اللغة والنحو والفقه والشعر ، كثير التصنيف فيها . أخذ العلم عن كبار علماء عصره ، كإسحاق بن راهويه ، ومحمد بن زياد الزيادي ، وأبو حاتم السجستاني . في حين روى عنه : ابنه أحمد ، وعبد الله السكري ، وإبراهيم الصائغ ، وعبيد الله التميمي ، وابن درستويه (٣) .

ويُعد ابن قتيبة أحد رُوَّاد مدرسة بغداد في اللغة والنحو ، فهو أول ممثل لها في ميدان اللغة والنحو (٤) .

---

(١) انظر ترجمة الرِّياشي في : السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ص ٩٨ ـ ١٠٢ . النديم : الفهرست ، ص ٩١ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٢/١٣٩) . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٥٢ ـ ١٥٤ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٢/٤٤ـ٤٦) . الصفدي : الوافي بالوفيات ، (١٦/٦٥٢ـ٦٥٤) . السيوطي : بغية الوعاة ، (٢/٢٧) .

(٢) البغدادي : إيضاح المكنون ، (٢/٢٦١ ، ٢٩٤ ، ٣٢٦) .

(٣) انظر ترجمة ابن قُتَيبة في : النديم : الفهرست ، ص ١٢٣ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٠/١٧٠ ـ ١٧١) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٥/١٠٢) . القفطي : إنباه الرواة ، (٢/١٤٣ ـ ١٤٧) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/٤٢ ـ ٤٣) . اليماني : إشارة التعيين ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

(٤) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٢/٢٢١) .

ولابن قتيبة مصنفات في اللغة ، منها : كتاب « المعاني الكبير » [١] ، ويحتوي على إثني عشر كتاباً ، كتاب « غريب الحديث » [٢] ، كتاب « الخيل » [٣] ، كتاب « تأويل مختلف الحديث » [٤] ، كتاب « الأنواء » [٥] ، كتاب « إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث » [٦]، كتاب « خلق الإنسان » ،كتاب « تقويم اللسان » [٧] ،كتاب « الأشربة » [٨]، كتاب « تفسير غريب القرآن » [٩] ، كتاب « تأويل مشكل القرآن » [١٠] .

كما برز في ميدان علم اللغة ، **أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري** (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) ، أخذ اللغة عن البصريين والكوفيين ، ممن خلط بين المذهبين . وأكثر من أخذ عنه العلم : ابن السِّكِّيت ، وابنه يعقوب . وكان متفنناً في علوم كثيرة : كاللغة ، والنحو ، والهندسة ، والحساب ، وغيرها . وله مصنفات فيها . وكان ثقة فيما يرويه ، صادقاً [١١] .

ومن أبرز مصنفات أبي حنيفة اللغوية : كتاب « الفصاحة » ، كتاب « ما يلحن فيه العامة » ، كتاب « الأنواء » ، كتاب « إصلاح المنطق » [١٢] ، كتاب « النبات » [١٣] .

---

(١) مطبوع بتحقيق : عبد الرحمن المعلمي وكرنكو ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ــ الدكن ، ١٣٦٨هـ .

(٢) مطبوع بتحقيق : عبد الله الجبوري ، وزارة الأوقاف العراقية ، بغداد ، ١٩٧٧م .

(٣) اليافعي : مرآة الجنان ، (١٩١/٢) .

(٤) مطبوع بتحقيق : محمد النجار ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .

(٥) مطبوع بتحقيق : شارل بلا ومحمد حميد الله ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدآباد ــ الدكن ، ١٩٦٦م .

(٦) نشر بتحقيق : جيرارد لوكونت ، مجلة كلية القديس يوسف ، مج١٧ ، بيروت ، ١٩٦٨م .

(٧) اليافعي : مرآة الجنان ، (١٩١/٢) .

(٨) مطبوع بتحقيق : محمد كرد علي ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م .

(٩) مطبوع بتحقيق : السيد صقر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م .

(١٠) مطبوع بتحقيق : السيد صقر ، دار التراث ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

(١١) انظر ترجمة أبي حنيفة في : النديم : الفهرست ، ص ١٢٤ ــ ١٢٥ . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٨٠ ــ ١٨١ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٦/٣ ــ ٣٢) . أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، (٥٧/٢) . الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٣٧٧/٦ ــ ٣٧٩) .

(١٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٣٢/٣) . البغدادي : هدية العارفين ، (٥٢/١) .

(١٣) نشر الجزء الثالث والنصف الأول من الجزء الخامس بتحقيق : برنهارد لفين ، النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمان ، فيسبادن (ألمانيا الإتحادية) ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م . كما نشرت قطعة من الجزء الخامس ، بتحقيق : ب . لوين ، مطبعة بريل ، ليدن (هولندا) ، ١٩٥٣م .

ومن رؤساء علم اللغة ، في تلك الفترة ، **أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي البصري المعروف بالمبرد** (ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م) . سكن بغداد . وكان رأس المدرسة البصرية في اللغة والنحو ، وأحد أئمة اللغة في وقته ، وإليه انتهى علم اللغة والنحو بعد طبقة الجرمي وأبو عثمان المازني . وروى عن الأخير ، وعن أبي حاتم السجستاني ، وغيرهما . وأخذ العلم على يديه قوم ، منهم : نفطويه ، ومحمد بن أبي الأزهر ، وأبو بكر الصولي ، وأبو علي الطوماري ، وغيرهم .

واتصف المبرِّد بغزارة علمه ، وفصاحة لسانه ، وبراعة بيانه ، وقوة منطقة . ولهذا ، كان المبرِّد متفوقاً في المناظرة على غريمه أبي العباس ثعلب ، إمام مدرسة الكوفة في اللغة والنحو ، كما ذكر ذلك أبو عبد الله الدينوري ، خَتَنَ ثعلب . فقد كانت المناظرات بينهما لا تهدأ ، حتى قال محمد بن خلف القاضي المعروف بوكيع : ((كان بين أبي العباس المبرِّد وأبي العباس ثعلب من المناظرة ما لا خفاء به)) .

وكان المبرِّد يتمتع بقوة الحافظة. ولِعِظَم حفظه للغة واتساعه فيها ، أُتهم بالوضع .

ولقد أثنى أبو بكر بن مجاهد المقرىء على براعة المبرِّد في اللغة ، وخاصة في المعاني ، بقوله : ((ما رأيت أحسن جواباً من المبرِّد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم)) [١] .

وللمبرِّد إسهام واضح جلي في ميدان علم اللغة ، فهو أحد الراسخين فيه ، والمُقَعِّدين له ، وترك خلفه تراثاً كبيراً ، ومن كتبه في اللغة : كتاب « الكامل » [٢] ، وهو من أشهر المصنفات اللغوية التي وضعها علماء العربية في بابه . كتاب « الفاضل في اللغة والأدب » [٣] ، كتاب « ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد » [٤] . كتاب

---

(١) انظر ترجمة المبرِّد في : السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ص ١٠٥ ــ ١١٣ . الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٠١ ــ ١١٠ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣/٣٨٠ ــ ٣٨٧) . ابن الأنباري: نزهة الألباء ، ص ١٦٤ ــ ١٧٣ . القفطي : إنباه الرواة (٣/٢٤١ ــ ٢٥٣) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤/٣١٣ ــ ٣٢٢) . ابن قاضي شهبة : طبقات النحاة واللغويين ، ص ٢٨٠ ــ ٢٨٥ .

(٢) مطبوع بتحقيق : أحمد شاكر ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م .

(٣) مطبوع بتحقيق : عبد العزيز الميمني ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م .

(٤) مطبوع بتحقيق : أحمد أبو رعد ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

« الاشتقاق » ، كتاب « الأنواء والأزمنة » ، كتاب « معاني القرآن » ، كتاب «الحروف في معاني القرآن» وصل به إلى سورة طَه ، كتاب « معاني صفات الله جلَّ وعلا » ، كتاب « أسماء الدواهي عند العرب » ، كتاب « الناطق » ، كتاب « شرح كلام العرب وتلخيص ألفاظها ، ومزاوجة كلامها ، وتقريب معانيها » ، كتاب « العبارة عن أسماء الله تعالى » ، كتاب « الحروف » [١] ، وغيرها من المصنفات .

ومن علماء العربية البارزين أيضاً ، **أبو بكر محمد بن عثمان الشيباني المعروف بالجعد** (ت ٢٨٨هـ/٩٠١م) ، أحد علماء بغداد ، وكان من أعلم الناس بعلوم القرآن ، واللغة ، والنحو ، والشعر ، وممن خلط بين مذهب البصريين والكوفيين ، وكان صاحب ابن كَيْسان النحوي [٢] .

وللجَعْد إسهامات في ميدان اللغة وعلومها من خلال عدد من المؤلفات في هذا المضمار ، ومنها : كتاب « غريب القرآن » ، كتاب « الهجاء » ، كتاب « خلق الإنسان » ، كتاب « الفرق » ، كتاب « معاني القرآن » [٣] .

وكان **أبو طالب المفضل بن سلمة الضبي الكوفي** (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) ، أحد علماء اللغة على مذهب الكوفيين . سكن بغداد . وتميّز بكثرة الرواية ، ونَقْل اللغة ، ولقاء علمائها والأخذ عنهم ، ومنهم : أبيه ، وأبي عبد الله بن الأعرابي ، وثعلب ، وابن السكيت ، وغيرهم . وكان فهماً ، فاضلاً ، له دراية بعلوم القرآن ، والأدب ، مع مُلاحة في الخط ، وكان أحد المنقطعين إلى الوزير الفتح بن خقان [٤] .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٩٣ ـ ٩٤ . البغدادي : هدية العارفين ، (٢/ ٢٠ ـ ٢١) .

(٢) انظر ترجمة الجَعْد في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣/ ٤٧) . القفطي : إنباه الرواة ، (٣/ ١٨٤). ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٨/ ٢٥٠ ـ ٢٥١) . السيوطي : بغية الوعاة ، (١/ ١٧١) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ١٣١ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣/ ٤٧) .

(٤) انظر ترجمة ابن سَلَمَة في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٣/ ١٢٤ ـ ١٢٥) . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ . القفطي : إنباه الرواة ، (٣/ ٣٠٥ ـ ٣١١) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦) .

وشهدت الدراسات اللغوية إسهاماً كبيراً من قبل أبو طالب من خلال مجموعة من المؤلفات ، منها : كتاب « الفاخر » [١] ، وهو فيما تلحن فيه العامة ، كتاب « غاية الأرب في معاني ما يجري على ألسن العامة في أمثالهم ، ومحاوراتهم من كلام العرب » [٢] ، كتاب « مختصر المذكر والمؤنث » [٣] ، كتاب « الملاحن » [٤] ، كتاب « البارع في علم اللغة » ، كتاب « الاشتقاق » ، كتاب « الرد على الخليل وإصلاح ما في كتاب العين من الغلط والمحال والتصحيف » ، كتاب « الأنواء والبوارح » ، كتاب « معاني القرآن » ، كتاب « البلاد والزرع والنبات » ، كتاب « خلق الإنسان » ، كتاب « المقصور والممدود » [٥] .

ومن رؤساء اللغة في تلك الفترة ، **أبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني المعروف بثعلب** (ت ٢٩١هـ/٩٠٤م) . إمام أهل الكوفة في اللغة والنحو ، والمنافح عن مذهب الكوفيين . أخذ العلم عن أكابر العلماء ، منهم : محمد بن زياد الأعرابي ، وعلي بن المغيرة الأثرم ، وسلمة بن عاصم ، ومحمد بن سلام الجمحي ، والزبير بن بكار . وجدَّ في العلم وطلبه ، وفي هذا الصدد يُخبر ثعلب عن نفسه قائلاً : ((وبلغت خمساً وعشرين سنة وما بقي عليَّ مسألة للفرَّاء إلا وأنا أحفظها ، وأحفظ موضعها من الكتاب ، ولم يبق شيء من كتب الفرَّاء في هذا الوقت إلا وقد حفظته)) . وأخذ العلم عن ثعلب العديد من علماء اللغة ، كعلي بن سليمان الأخفش ، ونفطويه ، وأبو بكر الأنباري ، وأبو عمر الزاهد ، وأبو موسى الحامض ، وإبراهيم الحربي ، وخلق سواهم .

وكان ثعلب ثقة ، مشهوراً بصدق روايته ، والمعرفة بالغريب ، ورواية الشعر ، وبلغ من المكانة العلمية إلى أن جعلته شيخ العربية مع المبرِّد على وقتهما . ولقد أثنى عليه العديد

---

(١) مطبوع بتحقيق : عبد العليم الطحاوي ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

(٢) مطبوع . مطبعة الجوانب ، إسطنبول ، ١٣٠١هـ/١٨٨٣م .

(٣) مطبوع بتحقيق : رمضان عبد التواب ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، مج ١٧ ، ج٢ ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م .

(٤) نشر بعناية : جيمس روبنسون ، جلاسكو ، ١٩٣٨م .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ١١٦ . البغدادي : هدية العارفين ، (٤٦٨/١) . إيضاح المكنون : (١٥/١) ، (٢٧٢/٢ ، ٣٣٣) .

من العلماء والمؤرخين ، فيقول عنه غريمه ومنافسه المبرِّد : ((أعلم الكوفيين ثعلب ، فَذُكر له الفرَّاء ، فقال : ولا يَعْشُرُه)) ، على الرغم من المعارك العلمية المذكورة التي كانت تنشب بينهما ، إلا أن العلم وأدبه جعلت المبرِّد يقول هذا . وقال عنه أبو بكر التاريخي : ((أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، فاروق النحويين ، والمُعاير على اللغويين من الكوفيين والبصريين ، أصدق أهل العربية لساناً ، وأعظمهم شأناً ، وأبعدهم ذكراً ، وأوضحهم علماً ، وأرفعهم قدراً ، وأثبتهم حفظاً ، وأوفرهم حظاً في الدين والدنيا)) .

ولأبي العباس ثعلب خزانة كتب جليلة اشتراها ، بعد وفاته ، الوزير القاسم بن عبيد الله بإيعاز من أبي إسحاق الزَّجَّاج [١] .

أما إسهام ثعلب التأليفي في اللغة ، فهو أمر واضح وجلي ، إذ وضع ثعلب مصنفات عديدة في فروع علم اللغة دون استثناء ، منها : كتاب « الفصيح » [٢] ، كتاب « معاني القرآن » ، كتاب « ما تلحن فيه العامة » ، كتاب « الشواذ » ، كتاب « الأمثال » ، كتاب « استخراج الألفاظ من الأخبار » ، كتاب « الهجاء » [٣] .

كما برز من علماء اللغة في العراق ، في تلك الفترة ، **أبو محمد القاسم بن محمد الأنباري** (٣٠٥هـ/٩١٧م) . أصله من الأنبار ، وسكن بغداد . وكان أحد العارفين باللغة

---

(١) انظر ترجمة ثعلب في : المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٢٨٤ ـ ٢٨٥) . النديم : الفهرست ، ص ١١٧ ـ ١١٨ . الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٤١ـ١٥٠ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٥/٢٠٤ـ٢١٢) . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٧٣ ـ ١٧٦ . ابن الجوزي : المنتظم ، (٦/٤٤ ـ ٤٥) . القفطي : إنباه الرواة ، ((١/١٧٣ ـ ١٨٦)) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٥/١٠٢ ـ ١٤٦) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١/١٠٣ ـ ١٠٤) . السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٢٩٤ .

(٢) مطبوع بتحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة التوحيد ، القاهرة ، ١٩٤٩م . وفي هذا الكتاب ، يَضبط ثعلب صِيَغ ألفاظ مشكوك فيها مع تفسيرها ، وقد اشتد الطلب على هذا الكتاب في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس ، حتى كان يحيى بن أحمد الأَرْزني الورّاق (ت ٤١٥هـ/١٠٢٤م) ينسخه كل يوم ، ويبيعه بنصف دينار . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٠/٣٤) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ١١٨ . البغدادي : هدية العارفين ، (١/٥٤) .

والأخبار ، صدوقاً ، عالماً . روى الحديث وأُخذ عنه ، موثوقاً فيما يرويه . ولقي أبو محمد جماعة من اللغويين والنحويين ، وأخذ عنهم العلم [١] .

وساهم أبو محمد في نشاط علم اللغة ، فصنَّف العديد من الكتب ، منها : كتاب « خلق الإنسان » ، كتاب «المقصور والممدود» ، كتاب « الأمثال » ، كتاب « المذكر والمؤنث » ، كتاب « غريب الحديث » ، كتاب « خلق الفرس » [٢] .

وهناك **أبو موسى سليمان بن محمد البغدادي المعروف بالحامض** (ت ٣٠٥هـ/٩١٨م) ، الذي برع في اللغة والنحو ، لا سيما اللغة ، وكان على مذهب الكوفيين ، غير أنه أخذ عن البصريين وخلط بين المذهبين .

أخذ أبو موسى العلم عن ثعلب وصحبه أربعين سنة ، وكذلك عمن جاء بعد ثعلب ، وجلس مجلسه . وأخذ عنه العلم العديد من علماء اللغة ، كأبي عمر الزاهد المعروف بغلام ثعلب ، وأبي جعفر الأصفهاني المعروف بغلام نفطويه ، وأبي علي النقار ، وغيرهم .

وبالإضافة إلى اشتهار أبو موسى في علم اللغة ، فقد كان حسن الأدب أيضاً ، وله فيه كتباً وُصِفت بالحسان . ويجمع محمد بن جعفر التميمي الجوانب التي برز فيها أبو موسى ، بقوله : ((وأما أبو موسى الحامض ، فكان أوحد الناس في البيان ، والمعرفة بالعربية ، واللغة ، والشعر)) . كما اشتهر أبو موسى بحسن الوِراقة ، والضَّبط فيها .

وعلى الرغم من هذه الصفات الدالة على مكانة علمية مرموقة ، إلا أن أبا موسى ، كما يذكر المؤرخون ، كان شرس الأخلاق جافاً في تعامله ، ولذا قيل له الحامض [٣] .

---

(١) انظر ترجمة الأنباري في : الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٠٨ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢/٤٤٠ ـ ٤٤١) . القفطي : إنباه الرواة ، (٣/٢٨) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٦/٣١٦ ـ ٣١٩) . الجزري : غاية النهاية ، (٢/٢٤) . السيوطي : بغية الوعاة ، (٢/٢٦١ ـ ٢٦٢) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ١١٩ .

(٣) انظر ترجمة الحامض في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٩/٦١) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٦/١٤٥) . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٨/١٠٦) . القفطي : إنباه الرواة ، (٢/٢١ ـ ٢٢) ، (٣/١٤١ ـ ١٤٢) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١١/٢٥٣ ـ ٢٥٥) . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، (٣/١٩٣) .

ولأبي موسى مصنفات في علم اللغة بفروعه المختلفة ، ومن هذه المصنفات :

كتاب « ما يذكر وما يؤنث من الإنسان واللباس » [١] ، كتاب « خلق الإنسان » ، كتاب « النبات » ، كتاب « الوحوش » ، كتاب « غريب الحديث » [٢] .

أما **أبو إسحاق إبراهيم بن السري المعروف بالزجاج** (ت ٣١١هـ/٩٢٣م) ، فقد كان أحد أشهر علماء اللغة في زمانه ، وممن يشار إليه بالبنان في حقل العربية وعلومها . وكان من أهل الفضل والدين . حسن الاعتقاد ، جميل المذهب ، وأحد المدافعين عن آراء البصريين ، مع نزاهة وقبول الحق .

أخذ العلم عن المبرِّد مقابل درهم واحد يدفعه له كل يوم ، لأن المبرِّد كان لا يعلم إلا بأجر . وكان لأبي إسحاق مكانة رفيعة عند المبرِّد ، فكان أصحاب المبرِّد إذا اجتمعوا واستأذنوا، يخرج خادمه فيقول لهم :((إن كان فيكم أبو إسحاق الزَّجَّاج ، وإلا انصرفوا)) .

ومما زاد في شهرة الزَّجَّاج ورفع منزلته عند الخليفة المعتضد ، هو قيامه بتفسير كتاب « جامع المنطق » لأبي جعفر محمد بن يحيى العَسْكري المعروف بمَحْبَرة النديم بأمر الخليفة ، بعد أن اعتذر عن هذا العمل كبار علماء اللغة ، كالمبرِّد ، وثعلب . فقام الزَّجَّاج بهذا العمل ، وأخرج نسخة وحيدة لهذا الكتاب ازدانت بها مكتبة الخليفة المعتضد فقط ، إذ لم تخرج نسخة غيرها ، فكافأه الخليفة بأن جعل له رزقاً في الجلساء ورزقاً في الفقهاء ورزقاً في العلماء ، فكانت نحو ثلاثمائة دينار في الشهر [٣] .

---

(١) مطبوع بتحقيق : إبراهيم السامرائي ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٤م .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ١٢٦ . البغدادي : هدية العارفين ، (٣٩٦/١) .

(٣) انظر ترجمة الزَّجَّاج في : الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١١١ ـ ١١٢ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٨٦/٦ ـ ٩٣) . الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ . ابن الجوزي : المنتظم ، (١٧٦/٦ ـ ١٨٠) . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٨٣ ـ ١٨٥ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٣٠/١ ـ ١٥١) . اليماني : إشارة التعيين ، ص ١٢ . الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٣٤٧/٥ ـ ٣٥٠) . ابن كثير : البداية والنهاية ، (١٤٨/١١ ـ ١٤٩) .

ووضع أبو إسحاق العديد من المؤلفات في حقل اللغة ، منها : كتاب « معاني القرآن » [١] ، كتاب « خلق الإنسان » [٢] ، كتاب « تفسير أسماء الله الحسنى » [٣] ، كتاب « ما فسر من جامع المنطق لحبرة النديم » ، كتاب « الإشتقاق » ، كتاب « خلق الفرس » ، كتاب « النوادر » ، كتاب « الأنواء » ، كتاب « الفرق » [٤] .

وفي هذه الفترة ظهر **أبو بكر محمد بن السري المعروف بابن السراج** (ت ٣١٦هـ/٩٢٨م) ، من علماء اللغة المذكورين بالتَمكُّن فيها ، وحسن معرفة بالأدب . وكان ثقة فيما يرويه . ولهذا ، كان المبرد يَجله ويأنس به ، وعنه أخذ أبو بكر العلم وصاحَبه مدة طويلة ، وإليه انتهت رياسة اللغة بعد وفاة الزَّجَّاج .

روى العلم عن أبي بكر السَّرّاج جماعة ، منهم : أبو القاسم الزجاجي ، وأبو سعيد السيرافي ، وعلى بن عيسى الرُّمْاني [٥] .

وساهم أبو بكر بمجموعة من المؤلفات التي صنَّفها في ميدان اللغة ، منها : كتاب « الإشتقاق » [٦] ، كتاب « الجمل » ، كتاب « الرياح والهواء والنار » ، كتاب « احتجاج القراء » [٧] .

وهذا **أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري** (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م) ، أحد علماء اللغة المشهورين بالعراق ، خلال فترة نفوذ الأتراك . سكن

---

(١) مطبوع بتحقيق : عبد الجليل شلبي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٧٨م .

(٢) مطبوع بتحقيق : إبراهيم السامرائي ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٢م .

(٣) مطبوع بتحقيق : أحمد الدقاق ، دار المأمون ، دمشق ، ١٩٧٥م .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٩٦ . ابن خير : فهرسة ابن خير ، ص ٣١٧ ، ٣٢٥ . البغدادي : هدية العارفين ، (٥/١) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (١٧١/٢-١٧٣) .

(٥) انظر ترجمة ابن السَّرّاج في : الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١١٢-١١٤ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣١٩/٥) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٩٧/١٨ - ٢٠١) . القفطي : المحمدون من الشعراء ، ص ٣٤٣ - ٣٤٦ . ابن خلكان : وفيات الأعيان : (٣٣٩/٤ - ٣٤٠) . الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٣١١-٣٢٠هـ) ، ص ٥٢٣-٥٢٤ ، اليغموري : نور القبس ، ص ٣٤٢ .

(٦) مطبوع بتحقيق : محمد التكريتي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٧٣م .

(٧) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٠٠/١٨) . القفطي : إنباه الرواة ، (١٤٩/٣) .

بغداد في آخر عمره . وكانت نشأته بالبصرة ، وبها أخذ علم العربية على يد علمائها ، كأبي حاتم السجستاني ، وأبو الفضل الرياشي ، وإبراهيم الزيادي ، وعبد الله التوزي . وكان مُعلِّمه أبو عثمان الأشْنَانْداني . وأصبح ابن دريد ممن انتهت إليه لغة البصريين ، وتَصدَّر للعلم ستين سنة .

وكان ابن دريد المُقدَّم في حفظ اللغة ، فقد أورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المُتقدِّمين . كما تميَّز بحفظه لأشعار العرب وأنسابهم ، وله شعر كثير ، ساعده في ذلك قوة حفظ كان يتمتع بها واشتُهِرَ بها [١] .

ولابن دريد وفرة في الإنتاج العلمي في اللغة وعلومها ، ومن هذه المصنفات : كتاب « الجمهرة » [٢] ، كتاب « الاشتقاق » [٣] ، كتاب « الملاحن » [٤] ، كتاب « صفة السرج واللجام » [٥] ، كتاب « وصف المطر والسحاب » [٦] ، كتاب « الأنواء » ، كتاب « تقويم اللسان » ، كتاب « الخيل الصغير » ، كتاب « الخيل الكبير » ، كتاب « السلاح » ، كتاب « غريب القرآن » ، لم يتمه ، كتاب « اللغات في القرآن » ، كتاب « المتناهي في اللغة » [٧] .

---

(١) انظر ترجمة ابن دُرَيْد في : المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٣٢٠ـ٣٢١) . النديم : الفهرست ، ص ٩٦ـ٩٨. المرزباني : معجم الشعراء ، ص ٣٧٧ـ٣٧٨ . الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٢٧٨ـ٢٧٩ . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٩١ـ١٩٤ . ابن قاضي شهبة : طبقات النحاة واللغويين ، ص ٨٣ـ٨٦ .

(٢) مطبوع بتحقيق : زين العابدين الموسوي وعبد الدين أحمد ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدآباد ـ الدكن ، ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م .

(٣) مطبوع بتحقيق : عبد السلام هارون ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة . المكتب التجاري ، بيروت ، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م .

(٤) مطبوع بتحقيق : عبد الإله نبهان ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٢م .

(٥) مطبوع بتحقيق : مناف مهدي ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

(٦) مطبوع بتحقيق : عز الدين التنوخي ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م .

(٧) ابن دريد : صفة السرج واللجام ، ص ٢٧ـ٣٠ (مقدمة المحقق) . القفطي : إنباه الرواة ، (٣/٩٦ـ٩٧) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤/٣٢٣ـ٣٢٩) .

كما برز من علماء اللغة في العراق في ذلك الوقت ، **أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة الواسطي المعروف بنفطويه** (ت ٣٢٣هـ/٩٣٥م) ، سكن بغداد ، وأخذ اللغة عن ثعلب ، والمبرِّد . وأخذ عنه العلم ورواه : أبو عبد الله المرزباني ، وأبو الفرج الأصفهاني ، وغيرهم .

وكان نَفْطَوَيْه يَتفقَّه على المذهب الظاهري ، عالماً به ، وأحد رواة الحديث ، أدبياً ، متفنناً في الأدب ، حافظاً للأخبار والسِّيَر ووفاة العلماء [١] .

وهناك مصنفات عديدة وضعها نَفْطَوَيْه في حقل علم اللغة ، منها : كتاب « غريب القرآن » ، كتاب « الأمثال » ، كتاب « القوافي والرد على من زعم أن العرب يشتق كلامها بعضه من بعض » ، كتاب « في أن العرب تتكلم طبعاً لا تعلماً » [٢] .

ومن العلماء الذين برزوا في ميدان اللغة أيضاً ، **أبو الطيب محمد بن أحمد الأعرابي المعروف بالوشاء** (ت ٣٢٥هـ/٩٣٧م) ، وكان من أهل العربية والأدب والأخبار . روى عن أئمة اللغة والنحو ، كالمبرِّد ، وثعلب ، وعبد الله بن أبي سعد الوراق ، وأحمد بن عبيد بن ناصح ، ومحمد بن أحمد الكديمي [٣] .

وخلَّف الوشَّاء مصنفات لغوية عدة ، منها : كتاب « الفرق » ، كتاب « خلق الإنسان » ، كتاب « خلق الفرس » [٤] .

---

(١) انظر ترجمة نَفْطَوَيْه في : النديم : الفهرست ، ص ١٣٠ ــ ١٣١ . الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٥٤ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٥٩/٦ ــ ١٦٢) . القفطي : إنباه الرواة ، (٢١١/١ــ٢١٧) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٥٤/١ــ٢٧٢) . اليماني : إشارة التعيين ، ص ١٥ــ١٦ . الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (٢٧٣/١ــ٢٧٤) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ١٣١ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٧١/١ــ٢٧٢) . البغدادي : هدية العارفين ، (٥/١ــ٦) .

(٣) انظر ترجمة الوشَّاء في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٥٣/١ ــ ٢٥٤) . القفطي : إنباه الرواة ، (٦١/٣ــ٦٢) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٣٢/١٧ــ١٣٣) . السيوطي : بغية الوعاة ، (١٨/١) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ١٣٦ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٣٣/١٧) .

ويعد **أبو بكر محمد بن القاسم بن الأنباري** (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م) ممن اشتهر بقوة الحفظ في ذلك الوقت . وتذكر المصادر أن أكثر ما كان يُمْليه من غير دفتر ولا كتاب . وكان من أعلم الناس وأكثرهم حفظاً للغة . وكان ثقة ، صدوق فيما يرويه ، من أهل السنة ، مع سلامة الطريقة وتواضعاً للعلم .

وعلى الرغم من مكانة أبي بكر العلمية الرفيعة ، إلا أن ما وصل من كتبه إنما هي إملاء على تلاميذه ، ذلك أنه كان يعتمد في مجلس إملائه على حفظه دون كتاب [١] .

ومن أبرز مصنفاته في اللغة : كتاب « الأضداد » [٢] ، كتاب « المذكر والمؤنث » [٣] ، كتاب « الزاهر في معاني كلمات الناس » [٤] ، كتاب « المشكل في معاني القرآن » ، وبلغ فيه إلى سورة طه ، ولم يتمه . كتاب « المقصور والممدود » ، كتاب « غريب الحديث » ، كتاب « رسالة المشكل » في الرد على ابن قتيبة وابن حاتم ، ونقضاً لقولهما [٥] .

كما اشتهر من علماء اللغة ، **أبو عمر محمد بن عبد الواحد الباوردي الزاهد المعروف بغلام ثعلب** (ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م) ، صحب ثعلب ولزمه ، فنسب إليه . من أكابر أهل اللغة وأحفظهم لها ، حتى يذكر ابن الأنباري : أن أبا عمر أملى من حفظه ثلاثين ألف ورقة لغة . ولذا ، كانت قدرته على الحفظ والإكثار منه في دروسه ، أن جعله مصدر شك لمن كان يأخذ عنه من أهل اللغة والأدب ، ولا يثقون فيه . وذلك لما قد يحصل عنده ، على حد زعمهم ، من خلط لكثرة ما يحفظ .

---

(١) انظر ترجمة ابن الأنْباري في: النديم : الفهرست ، ص١١٩ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣/١٨١ـ١٨٦) . ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٢/٦٩ـ٧٣) . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٩٧ـ٢٠٤ . القفطي : إنباه الرواة ، (٣/٢٠١ـ٢٠٨) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٨/٣٠٦ـ٣١٣) . الذهبي : معرفة القراء الكبار ، (١/٢٨٠ـ٢٨٢) .

(٢) مطبوع بتحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دائرة المطبوعات والنشر ، الكويت ، د.ت .

(٣) مطبوع بتحقيق : طارق الجنابي ، وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٧٨م .

(٤) مطبوع بتحقيق : حاتم الضامن ، وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

(٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٨/٣١٢ـ٣١٣) . البغدادي : هدية العارفين ، (٢/٣٥) .

غير أن هذا الأمر ، لم يمنع أبو عمر من أن يكون محل ثقة أهل الحديث ، الذين كانوا يُوتقونه ، ويُصدِّقونه فيما يَنقل . وفي ذلك يقول الخطيب البغدادي : ((رأيت جميع شيوخنا يُوتقونه ، ويُصدِّقونه)) .

وكان أبو عمر ، كالعديد من علماء عصره ، يمتهن التأديب ، فقد كان مؤدباً لولد أبي عمر محمد بن يوسف القاضي .

ولقد أثنى على غلام ثعلب غير واحد من العلماء . سواء في علمه ، أو مكانة مجلسه ، فيقول عبد الواحد بن برهان الأسدي : ((لم يتكلم في علم اللغة من الأولين والآخرين أحسن من كلام أبي عمر الزاهد)) . في حين يذكر ابن أبي يعلى : أن أبا عمر الزاهد عندما ذهب إلى دمشق ، كان يحضر مجلسه الأشراف ، وأهل الأدب ، ليسمعوا منه كُتب ثعلب ، وغيره .

أما مصنفاته في اللغة ، فقد قيل : أن جميع كتبه التي عُرفت في أيدي الناس ، إنما أملاها بغير تصنيف [١] . ومن هذه الكتب : كتاب « المدخل في اللغة » [٢] ، كتاب « فائت الفصيح » [٣] ، كتاب « المقصور والممدود » [٤] ، كتاب « غريب الحديث » ، كتاب « القبائل » ، كتاب « الياقوت » ، كتاب « الشرح الفصيح لثعلب » ، كتاب « النوادر » ، كتاب « فائت الجمهرة والرد على ابن دريد » ، كتاب « يوم وليلة » ، كتاب « تفسير أسماء الشعراء » ، كتاب « ما أنكرته الأعراب على أبي عبيد فيما رواه أو صنفه » ، وغيرها من المصنفات [٥] .

---

(١) انظر ترجمة غُلَام ثَعلب في : النديم : الفهرست ، ص ١٢٠ـ١٢١ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (٣٥٦/٢ـ٣٥٩) . ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة (٦٧/٢ـ٦٩) . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ٢٠٦ـ٢١١ . القفطي : إنباه الرواة ، (١٧١/٣ـ١٧٩) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٢٦/١٨ـ٢٣٤) . ابن الصلاح : طبقات الفقهاء الشافعية ، (٢٢٠/١ـ٢٢٢) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣٢٩/٤ـ٣٣٣) . اليماني : إشارة التعيين ، ص ٣٢٦ـ٣٢٧ .

(٢) مطبوع بتحقيق : محمد عبد الجواد ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م .

(٣) نشر بتحقيق : محمد المعيبد ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، مج ١٩ ، ج٢٠ ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ، ص ٣٠٧ـ٣٦٢ .

(٤) نشر بتحقيق : محمد المعيبد ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، مج٢٠ ، ج٢ ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ، ص ١٧ـ٤٧ .

(٥) النديم : الفهرست ١٢١ـ١٢٢ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣٣٠/٤) . البغدادي : هدية العارفين ، (٤٢/٢) .

المبحث الثاني

علم النحو والصرف

إن الحديث عن علمي : النحو ، والصرف ، هو امتداد للحديث عن اللغة . فقد سارت الدراسات النحوية والصرفية ، خلال فترة نفوذ الأتراك ، صعوداً ، والدخول إلى مرحلة جديدة أو طور جديد من أطوار الدَّرْس النحوي والصرفي أعقبت طور التأسيس خلال العصر العباسي الأول .

والامتداد المقصود هنا ، هو تبعية علمي : النحو ، والصرف لعلم اللغة بالنسبة للمناهج التي اتخذتها مدرستا : البصرة ، والكوفة في رسمهما لملامح علم اللغة ، ووضع قواعده بشكل علمي . ذلك أن هذا المنهج في باب اللغة قد أثَّر ، فيما بعد ، في تحديد اتجاهات دراسة النحو والصرف في العراق ، خلال تلك الفترة ، وبمعنى أدق ، قبيل تلك الفترة بقليل . فكانت مرجعية نحاة العراق ، بصريين وكوفيين ، وفيما بعد بغداديين ، ترتكز على المعايير التي تعارف عليها أنصار كل مدرسة في الرواية اللغوية ، من حيث اعتماد السماع ، والأخذ بالشَّوَّاذ في الرواية بالنسبة للبصريين ، وبعكس ذلك عند الكوفيين ، حيث أخذهم بالقياس ، وتأثرهم ببعض الأفكار المنطقية والفلسفية ، وقيامهم بإكساب علم النحو شيء من المنهج الإغريقي ، كتقسيمهم للكلمة إلى : اسم ، وفعل ، وحرف [١] .

هذه المعايير المعتمدة في علم اللغة عند كل مدرسة ، هي نفسها التي شكَّلت اتجاهات الدَّرْس النحوي والصرفي في العراق ، عند القيام بترجيح رأي من الآراء في قضية نحوية ، أو صرفية ، من حيث حُجية هذا القول أو ذاك ، بالاستناد إلى كلام العرب الفصيح .

ولذا ، فإن مدارس العراق لم تكن لغوية خالصة ، أو نحوية خالصة ، أو صرفية خالصة ، بل كان كل منها يمثل مزيجاً من هذه العلوم ، يجمعها

---

(١) انظر تفاصيل هذه القضية في : علي أبو المكارم : تقويم الفكر النحوي ، ص ٧٨ـ٩٢ .

اتجاه واحد يوجه مباحث القائمين عليها ، وتؤطرها أسس وقواعد تعارف عليها أتباع كل مدرسة [١] .

إن التداخل بين علوم العربية ، لا سيما في تلك الفترة ، وارتباط بعضها ببعض ، يجعل الفصل بينها أمر فيه شيء من الصعوبة ، ليس لأن الأمر معقداً ، بل لأن الدراسات في ذلك الوقت لم تكن تفرض هذا التقسيم . ولذا ، فإن كتاباً في الأدب مثلاً ، نجد أنه لا يخلو من قضايا لغوية ، وآراء نحوية ، وأخرى صرفية ، وفوائد بيانية ، ونحو ذلك .

وما كُتب : « الحيوان » للجاحظ ، و« الكامل » للمبرد ، و« مجالس ثعلب » لثعلب ، و« الأمالي » ، و« مجالس العلماء » للزجاجي ، وجمهرة من الكتب غيرها ، إلا مصداقاً لهذا الأمر .

ويمكن أن يتضح هذا التداخل بصورة أخرى ، وذلك عند استعراض مصنفات علماء الفترة ، حيث نجد أن عالماً لغوياً مثلاً ، يُصنِّف إلى جانب اللغة ، مؤلفات في النحو ، أو الشعر ، أو النقد ، مما يجعل الأمر يزداد صعوبة في تصنيف علماء كل فن من فنون العربية .

وفي المقابل ، فإن هذا الأمر لا ينفي وجود التخصص في أحد فروع علوم العربية دون غيرها عند علماء الفترة . فبعضهم اشتهر كأحد المبرِّزين في النحو ، وله إسهام في اللغة ، وهكذا في بقية العلوم العربية .

---

(١) وحتى هذه الأسس والقواعد ، لم تكن تشفع لكي نطلق على هذه الاتجاهات مدارس ، بل « التجمعات النحوية » ، ذلك انطلاقاً من أن أهم العوامل المؤثرة في تكوين مدرسة علمية ثلاثة ، هي : ١ ـ تحديد الإطارات الفكرية والأسس المنهجية للمدرسة العلمية . ٢ ـ تمايز هذه الإطارات والأسس عمَّا هو موجود ـ في الواقع أو في التاريخ ـ للمدارس الأخرى . ٣ ـ الانتشار والاستمرار النسبيين .
أما الفروق المأثورة عن النحاة في البصرة ، والكوفة ، وبغداد ، مجرَّد فروق محصورة في إطار التفاصيل ، أي في نطاق التطبيق الخاص أو الجزئي للمنهج الواحد الكلي ، ومن ثَمَّ تفقد كل منها الأساسين الأولين في العوامل ، وتبقى جميعاً مدرسة واحدة . علي أبو المكارم : المدخل إلى دراسة النحو العربي ص ١١٢ ـ ١١٣ .

ويمكن أن نأخذ أبو إسحاق الزَّجَّاج (ت ٣١١هـ/٩٢٣م) مثالاً لذلك ، فالزَّجَّاج اشتهر كأحد المبرِّزين في النحو ، غير أن إسهامه العلمي وصل إلى اللغة والشعر . فعندما أُوكِل إلى الزَّجَّاج تفسير كتاب « جامع المنطق » لمَحْبرة النديم بأمر الخليفة المعتضد ، قال النديم : « فاستعار الزَّجَّاج كتب اللغة من ثعلب ، وأبو سعيد السُّكَّري ، وغيرهما ، لأنه كان ضعيف العلم باللغة » [١] . والضعف هنا ليس الضعف الذي قد يتبادر إلى أذهاننا وتصورنا في الوقت الحاضر ، هذا إذا صحَّ قول النديم السابق .

ولم يُطل القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي إلا وللنحو في العراق مدرستان تميزتا تميزاً تاماً ، هما : مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة . وكان لكل منهما منهج خاص في معالجة النحو [٢] ، والاستشهاد باللغة في إثبات قضاياه . فقد عُنيت مدرسة البصرة بالسماع المباشر عن الأعراب ، بينما اعتمدت مدرسة الكوفة على الرواية والقياس ، وتوسعت فيهما .

وبوجه عام ، قام النحو في المدرستين على « دراسات ، واصطلاحات في التصريف ، والاشتقاق ، والإعراب ، وما يتعلق بالبناء العام للكلمة ، وعرض بعض المظاهر اللغوية التي تُبنى على ما للأصوات من خصائص عند تأليفها مع بعضها البعض في ثنايا الكلمات ، كالإدغام ، والإمالة ، والإبدال ، وغيرها » [٣] .

واستطاع سيبويه البصري ، أن يكون أول عالم يُكرِّس مجهوده الذهني بصورة متخصصة إلى حد كبير في علم النحو ، ممن تتلمذ على الرعيل الأول من أئمة اللغة ، بفضل كتابه « الكتاب » ، [٤] الذي يعد أول كتاب في النحو العربي يصل إلينا في صورة تكاد تكون متكاملة ، وعلى درجة كبيرة من الثقة والإطمئنان ، ويعد نَقْلَةً للنحو العربي ،

---

(١) الفهرست ، ص ٩٥ .

(٢) انظر مناهج كلا المدرستين في : شوقي ضيف : المدارس النحوية ، ص ١٥٩ ـ ١٦٣ . حيث بسط فيه الحديث عن منهج كل مدرسة .

(٣) أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٣٠٥ . حسين الحاج : حضارة العرب ، ص ٨٩ .

(٤) مطبوع بتحقيق : عبد السلام هارون ، دار القلم ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م .

ومظهراً من مظاهر تطور دَرْسه . كما استطاع أن يعزل عن النحو كثيراً من القضايا البعيدة عن ميدانه بشكل واضح ، بعد أن كانت معالم الدَّرْس النحوي من قبله غير واضحة ، ولم يكن له تخطيط معين ولا منهج محدد ، الأمر الذي مهد الطريق للمباحث النحوية الخالصة (١) .

وحول سيبويه وكتابة ، كان ازدهار مدرسة البصرة النحوية ، إذ أصبح كتابه ، فيما بعد ، محوراً لدراسات علماء البصرة والكوفة على السواء (٢) .

وواصل علماء البصرة من بعد سيبويه الجهود الحثيثة في خدمة النحو والصرف ، ومحاولة تطويرهما ، غير أن هذا التطور كان في الشكل لا في الجوهر ، تطوراً في نظام التأليف لا في موضوع التأليف ، تطوراً في أسلوب الطرح والمعالجة لا في القضايا نفسها . هذا التوليد للاتجاهات والموضوعات المطروقة ، كان له أكبر الأثر في بقاء المدرسة البصرية أكثر مما كان يُتَوقع لها . إذ استمرت من أواخر القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي إلى أوائل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي (٣) .

وشهدت فترة نفوذ الأتراك بزوغ أسماء عديدة لعلماء من البصرة ، كانت لهم جهودهم المؤثرة في النحو بشكل عام ، ومدرسة البصرة بشكل خاص ، وذلك على يد أركان المذهب في ذلك الوقت ، كأبي عثمان المازني (ت ٢٤٩هـ/٨٦٣م) ، والمبرِّد (ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م) .

وتَكْمن أهمية هذين الرجلين ، أن المازني يعتبر إمام الطبقة السابعة ، أما المبرِّد فهو رأس الطبقة الثامنة (٤) ، فكل واحد منهما كان له أثر في خَلَفه . وشهد ذلك العصر إنتاج رجال هاتين الطبقتين .

---

(١) حسن عون : تطور الدرس النحوي ، ص ٣١ ــ ٣٢ . ولهذا يقرر الكثير من متتبعي تاريخ تطور الدراسات النحوية : أن سيبويه ومدرسته البصرية أصحاب الفضل الأول في إقامة علم النحو العربي ، ووضع قواعده وأصوله .

(٢) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص ١٤٥ .

(٣) حسن عون : تطور الدرس النحوي ، ص ٦٢ .

(٤) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٨٧ ، ١٠١ .

وكان للمازني والمبرِّد أكبر الأثر في استكمال قواعد المذهب البصري ، فأوضحوا معالمه ، ونقدوا ، واستدركوا ، وصحَّحوا ما في كتاب سيبويه من مآخذ ، وبسطوا ما فيه من إشارات ، وأوضحوه للناس ، وأذاعوه في الآفاق [١] .

وفي المقابل ، قامت مدرسة الكوفة بدورها في تطور الدراسات النحوية والصرفية ، جنباً إلى جنب مع مدرسة البصرة ، التي سبقتها في الوجود ، وعلى يد علمائها تتلمذ الكوفيون وأخذوا عنهم النحو ، وكما كان كتاب سيبويه مصدر دراسات البصريين ، كان كذلك بالنسبة للكوفيين .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أنه لا يوجد تباين بين المدرستين في الأركان العامة للنحو ، بل إن الكوفة أخذت هذه الأركان عن البصرة ، غير أنها جعلت لنفسها مذهباً نحوياً ، له مبادئه ، وأُسسه ، وطابعه المميز له [٢] .

وكما كان المازني والمبرِّد رأسا المذهب البصري في تلك الفترة . كان ابن السِّكِّيت (ت ٢٤٤هـ/٨٥٨م) ، وثعلب (ت ٢٩١هـ/٩٠٤م) المنافحين عن مذهب الكوفيين في ذلك العصر .

وفي القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي ، شهد ميدان النحو والصرف خلافاً بين المدرستين زادت حدته ، وبشكل ظاهر ، في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، بزعامة المبرد وثعلب . غير أن هذا النزاع سرعان ما خف ومِيضَهُ بعد وفاتهما [٣] .

ولقد شغل هذا الخلاف الباحثين أجيالاً ، وصُنِّفت فيه الكتب في تلك الفترة ، وبعدها [٤] .

---

(١) عمر كحالة : اللغة العربية وعلومها ، ص ١١٥ .

(٢) شوقي ضيف : المدارس النحوية ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٣) عمر كحالة : اللغة العربية وعلومها ، ص ١١٨ . أحمد أمين : ظهر الإسلام (١١٥/٢) .

(٤) صنف ابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ/١١٨١م) كتاب « الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين » ، وهو مطبوع بتحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م . وهو أجمع كتاب في هذا الخصوص ، إذ عرض فيه مصنفه (١٢١ مسألة) من مسائل الخلاف بين المدرستين ، وهي ليست كل المسائل ، وإنما هناك مسائل أخرى كثيرة مبثوثة في كتب النحو هنا وهناك . شوقي ضيف : المدارس النحوية ، ص ١٥٥ . كما ظهرت ، خلال فترة البحث ، كُتب تبحث في هذا الموضوع باسم « اختلاف النحاة أو النحويين » ، أو كتب تدحض آراء هذه المدرسة ، أو تلك .

ويرجع هذا الخلاف ، في الأساس ، إلى تمسُّك كل فريق بما سمع في البيئة المحيطة به ، أما الخلاف بينهما في طرق اشتقاق الألفاظ ، وفي الدفاع عن بعض أوجه الإعراب ، وفي إقامة الأدلة على رأي دون رأي ، إنما هو من عمل العلماء المتأخرين ، لا سيما المبرد وثعلب [١] .

ولقد خرج المذهب البصري من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، قوي البناء ، كثير الأنصار ، كثير التأليف ، لأن المذهب الكوفي ، مع صفاء جوهره ومتانة أساسه ، لم يجد من مؤسِسيه ، ولا من تلاميذهم ، من يصنع فيه كتاباً كبيراً مستقلاً يصبح عمدة المذهب ككتاب سيبويه ، الذي كان مادة نحاة البصرة في دراساتهم . فلم يترك الكِسائي الكوفي سوى مختصر في النحو للمبتدئين ، لم يبق له أثر إلا في الأندلس .

أما ثعلب ، وهو رأس المذهب الكوفي بعد الفرَّاء ، فكان على شاكلة الكِسائي ، وكان اهتمامه منصباً على اقراء تلاميذه كُتب الكِسائي والفرَّاء ، وشرحها ، والتعليق على مسائلها . فلم يجمع أحد من الكوفيين كتاباً جامعاً لقواعد النحو الكوفي كما فعل البصريون . فكان لهذا الأمر أثره الكبير في اختفاء المذهب الكوفي ، الذي لم يدم أكثر من قرن ونصف [٢] .

ومنذ أواسط القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، حدث نوع من التقارب التمازج بين المدرستين ، البصرية والكوفية ، تمخَّض عنه في بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، ظهور مدرسة نحوية جديدة في بغداد ، أُطلق عليها اصطلاحاً : « المدرسة البغدادية » ، بعد أن انتقل إليها علماء البصرة والكوفة [٣] .

وقام منهج المدرسة البغدادية على مبدأ الانتخاب من آراء المدرستين ، البصرية والكوفية ، والجمع بين مزاياهما وتوحيدهما في مذهب جديد ، دون تعصب إلى هؤلاء

---

(١) عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، (٢/٤٧ ـ ٤٨) .

(٢) عمر كحالة : اللغة العربية وعلومها ، ص ١١٨ ـ ١١٩ .

(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ، (٢/١١٥) .

ولا إلى هؤلاء ، مع إضافة الآراء المبتكرة . ولقد مرَّ المذهب البغدادي بأطوار متعاقبة حتى أوفى على غايته [١] . وكانت هناك نزعتان أو اتجاهان للمدرسة البغدادية ، هما [٢] :

١ ـ **اتجاهاً مبكراً** ، نزع فيه أصحابه، كابن كَيْسان ، وابن شُقَيْر، وابن الخيَّاط ، إلى آراء المدرسة الكوفية ، وأكثروا من الاحتجاج لها ، مع فتح الأبواب لكثير من آراء المدرسة البصرية ، وأيضاً فتح باب الاجتهاد لبعض الآراء الجديدة .

٢ ـ **اتجاهاً تالياً** ، مال فيه أصحابه ، كالزَّجَّاجي ، ثم أبو علي الفَارسي وابن جِنِّي فيما بعد ، إلى آراء المدرسة البصرية ، وهو الاتجاه الذي ساد ، فيما بعد ، جميع البيئات التي عُنيت بدراسة النحو بما فيها مدرسة بغداد .

ولعل من أهم ما أوجد هاتين النزعتين عند المدرسة البغدادية ، أن نُحاتها الأوائل قد تتلمذوا على المبرِّد وثعلب ، وبذلك نشأ جيل من النُّحاة يحمل آراء مدرستيهما ، ويُعنى بالخوض في مصنفات أعلامهما ، والخروج من ذلك بآراء نحوية مبتكرة وجديدة ، مصبوغة بما أهدتهم إليه عقولهم .

غير أن البغداديين كانوا كالكوفيين ، في عدم عنايتهم بالأصول النظرية لمذهبهم الجديد ، فلم يضعوا لهم مرجعاً لآراء مذهبهم ككتاب سيبويه .

وعلى الرغم من ذلك ، كان لمدرسة بغداد ، كمذهب له أسسه وقواعده على غرار مذهبي : البصرة ، والكوفة ، إتجاهاً نحوياً واضح المعالم ، وإن لم يُفرد في ديوان خاص .

وبسبب هذا الأمر ، شكَّكَ بعض الباحثين المعاصرين في وجود المذهب البغدادي هذا ، لعدم وجود منهج أو قواعد ثابتة له ، ولكن وجدت بعض مسائل نحوية تنسب إلى البغداديين في كتاب « أدب الكاتب » لابن قتيبة في باب تعريف العدد المُنْكر [٣] .

---

(١) شوقي ضيف : المدارس النحوية ، ص ٢٤٥ . العصر العباسي الثاني ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ .

(٢) الزجاجي : الإيضاح في علل النحو ، ص ٧٨ ـ ٧٩ . شوقي ضيف : المدارس النحوية ، ص ٢٤٨ .

(٣) ابن قتيبة : أدب الكاتب ، ص ٢١٤ ـ ٢١٧ . عمر كحالة : اللغة العربية وعلومها ، ص ١٢٠ .

وإذا كان بعض الباحثين [١] ، يُرجع السبب في ظهور المدرسة البغدادية كنتيجة لعامل الخلاف الذي حدث بين المدرسة البصرية ، والمدرسة الكوفية . فإن ثمة ظروف أخرى كان لها أثر كبير في ذلك .

ففي تلك الفترة التي ظهرت فيها مدرسة بغداد ، كانت مدينة بغداد قد أضحت حاضرة العلم والعلماء ، ومقصد طلاب العلم من أصقاع العالم الإسلامي ، فالحركة العلمية فيها مزدهرة ، وأبواب العلم مشرعة ، إذاً هناك عامل حضاري قد جذب علماء البصرة والكوفة إلى القدوم إلى بغداد ، والمشاركة في هذا التفاعل العلمي الحضاري ، فدرس عليهم أبناء بغداد النحو .

وفي المقابل كان علماء العراق ، بشكل عام ، قد أخذوا أنفسهم على الترحال في طلب العلم ، سواء داخل العراق أو خارجه ، ولهذا لم يكن بمستغرب أن يكون التلقي عن علماء البصرة ، والكوفة قد حدث فيهما .

وهناك عامل آخر ، قد يكون سياسياً ، لعب دوراً كبيراً في قدوم علماء البصرة ، والكوفة إلى عاصمة الخلافة العباسية . إذ كان الكوفيون أوفر حظاً ، وأقرب إلى نفوس خلفاء بني العباس ، واتخاذهم مؤدبين لأولادهم ، إضافة إلى أن الكوفة وأهلها كانوا شيعة لبني العباس .

ولقد كانت مصنفات نحاة العراق خلال القرنين : الثالث ، والرابع الهجريين/التاسع ، والعاشر الميلاديين تسير في اتجاهين رئيسيين ، هما [٢] :

١ ـ اتجاه ينصب على المادة النحوية نفسها ، وقد اتجه إلى ذلك عدداً محدوداً من العلماء ، كان تركيزهم على طريقة جمعها ، وتصنيفها ، وأسلوب عرضها ، دون المساس بجوهر المادة ومضمونها . وخير من يمثل هذا الاتجاه: المبرِّد ، من خلال كتابه « المُقْتَضَب ».

٢ ـ تصنيف يتجه إلى موضوعات تخدم من قريب أو بعيد المادة النحوية ، يلقي الضوء على ما أجمل فيها ، وما استغلق منها . بعضها تكفَّل بخواص النحو ، وأسراره ،

---

(١) أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٣٠٦ . عمر كحالة : اللغة العربية وعلومها ، ص ١١٩ .

(٢) حسن عون : تطور الدرس النحوي ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

وتعليل قواعده ، وأحكامه . وبعضها تكفَّل بتطبيق الأحكام النحوية متمثلة في كُتب « إعراب القرآن » .

فهذين الاتجاهين ، على الرغم من عدم التطرق إلى جوهر مادة النحو بعد سيبويه ، يمكن اعتبارهما مظهراً من مظاهر تطور الدراسات النحوية في ذلك الوقت . وسوف يتضح ذلك عند استعراض مصنفات علماء الفترة في الصفحات المقبلة .

ولقد زخر العراق بالعديد من علماء النحو ، والصرف ، بعضهم كان متخصصاً فيه ، والبعض الآخر كان مشاركاً في نشاطه ، مع كونه أحد أرباب اللغة ، أو الأدب .

ومن أبرز هؤلاء العلماء ، **أبو يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت** (ت ٢٤٤هـ/٨٥٨م) ، وقد مرت ترجمته في باب اللغة .

وهو أحد نحاة بغداد الذين أثَّروا في الدراسات النحوية والصرفية . وكان ينحو مذهب الكوفيين ، وهو يقول : « أنا أعلم من أبي بالنحو ، وأبي أعلم مني بالشعر واللغة » . وروى العلم عن : الأصمعي ، والفراء ، وأبي عبيدة ، وجماعة غيرهم . وكان يتكسَّب بالنحو .

ولابن السكيت مصنفات في النحو ، والصرف ، منها : كتاب « المقصور والممدود »، كتاب « المذكر والمؤنث » ، كتاب « المثنى والمبني والمكنى » ، كتاب « فعل وأفعل » [1] .

أما **أبو عثمان بكر بن محمد المازني** (ت ٢٤٩هـ/٨٦٣م) ، فكان أحد رؤساء المذهب البصري المؤثرين في مسيرة الدرس النحوي والصرفي ، وشيخ البصريين على وقته ، وإليه انتهى علم البصريين مع أبي عمر الجرمي ، كما يذكر السيرافي . وكان من فضلاء الناس ، وثقاتهم ، مع ورع وزهد .

وكان أبو عثمان مع علوه في النحو ، متَّسِعاً في الرواية ، أخذ العلم عن : أبي عبيدة ، والأصمعي ، وأبي زيد الأنصاري ، ومحبوب بن الحسن ، وغيرهم . وأخذ عنه جماعة ، فيهم : المبرد ، والفضل اليزيدي ، وعبد الله بن أبي سعد الوراق ، وخلق آخرين .

---

(١) البغدادي : هدية العارفين ، (٥٣٧/٢) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٢٠٨/٢) .

وورد المازني بغداد ، وأخذ عنه أهلها ، ومنهم : الحارث بن أبي أسامه ، ومحمد بن أبي الجهم السمرى ، وموسى بن سهل الجوني .

واشتهرت مناظراته ، ومحاوراته العلمية مع ابن السِّكِّيت ، التي كانت تجري بينهما في مجلس الخليفة المتوكل ، ووزيره محمد بن عبد الملك الزَّيات .

وكانت شخصية المازني محط إعجاب العلماء في وقته . فوصفوه بما هو أهل له . فقال عنه بكّار بن قُتيبه القاضي : « ما رأيت نحوياً قط يشبه الفقهاء ، إلا حبّان بن هلال ، والمازني » . كما أثنى عليه معاصره الجاحظ في كتابه « البلدان » ، وقد ذكر فضل البصرة ورجالها : « وفينا اليوم ثلاثة رجال نحويون ليس في الأرض مثلهم ، ولا يدرك مثلهم ، يعنى في الاحتجاج والتقريب ، منهم : أبو عثمان بكر بن محمد المازني ... » . أما تلميذه المبِّرد فأثنى عليه بقوله : « لم يكن بعد سيبويه أعلم من أبي عثمان بالنحو » [١] .

ووضع المازني مصنفات عدة في النحو ، والصرف ، وصفها ياقوت الحموي بأنها لطاف . ومن هذه المؤلفات : كتاب « الألف واللام » ، كتاب « التصريف » ، كتاب « الديباج في جوامع كتاب سيبويه » ، كتاب « علل النحو » ، كتاب « تفاسير كتاب سيبويه » ، كتاب « ما تلحن فيه العامة » ، كتاب « العَروض » ، كتاب « القوافي » [٢] .

ويعد **أبو إسحاق إبراهيم بن سفيان الزيادي** (ت ٢٤٩هـ/ م) من نحاة البصرة المبرِّزين ، وممن روى اللغة . قرأ على الأصمعي ، وروى عنه ، وعن أبي عبيدة ، ونظرائهما . وأخذ عنه المبرد ، وغيره . وكان أحد المهتمين بالشعر ، حتى شُبِّه بالأصمعي في معرفته للشعر ومعانيه . قرأ على سيبويه كتابه ، ولم يتمه .

---

(١) انظر ترجمة المازني في : السيرافي : أخبار النحويين البصريين ص ٨٥ ـ ٩٥ . ابن حبان : مشاهير علماء الأمصار ، ص ١٥٣ . النديم : الفهرست ، ص ٨٩ ـ ٩٠ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٧/٩٣ ـ ٩٤). ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٤٠ ـ ١٤٥ . القفطي : إنباه الرواة ، (١/٢٨١ ـ ٢٩١) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٧/١٠٧ ـ ١٢٨) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١/٢٨٣ ـ ٢٨٦) . اليماني : إشارة التعيين ص ٦١ ـ ٦٢ . ابن كثير : البداية والنهاية ، (١٠/٣٥٢ ـ ٣٥٣) .

(٢) ابن خير : فهرسة ابن خير ، ص ٢٧٩ ، ٣٥٩ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٧/١٢٢) .

ولأبي إسحاق نكت على كتاب سيبويه ، وخلاف في بعض المواضع ، ذكرها أبو سعيد السيرافي في شرح الكتاب [١] .

وساهم أبو إسحاق في إثراء الدراسات النحوية بما وضعه فيها ، وفي اللغة ، والأدب أيضاً من مؤلفات . ومنها : كتاب « شرح نكت كتاب سيبويه » ، كتاب « النقط والشكل » ، كتاب « أسماء السحاب والرياح والأمطار » ، كتاب « تنميق الأخبار » ، كتاب « الأمثال » [٢] .

ومن نحاة الكوفة المشهورين خلال فترة نفوذ الأتراك ، **أبو جعفر محمد بن عبد الله بن قادم** (ت بعد ٢٥١هـ/٨٦٥م) . صحب الفراء ، ومن أعيان أصحابه . وأخذ ثعلب العلم عنه . وكان أبو جعفر حسن النظر في عِلل النحو .

تولى تأديب المعتز بن المتوكل . ثم أراده المعتز ، عندما تولى الخلافة ، بسوء ، فعلم ابن قادم بذلك فخرج من بيته في سنة (٢٥١هـ/٨٦٥م) ، ولم يعد . وكان المعتز قد حقد عليه لتَعسُّفه في تأديبه له [٣] .

ولابن قادم مصنفات عدة في النحو ، منها : كتاب « الكافي في النحو » ، كتاب « مختصر النحو » ، كتاب « غريب الحديث » ، كتاب « الملوك » في النحو [٤] .

كذلك برز في تلك الفترة ، **أبو جعفر أحمد بن عبيد المعروف بأبي عصيدة** (ت ٢٧٣هـ/٨٨٦م) ، وكان أحد النحاة الذين تصدَّروا للإقراء بسُرَّ مَنْ رأى ، محدثاً عن

---

(١) انظر ترجمة الزِّيَادي في : السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ص ٩٧ ـ ٩٨ . النديم : الفهرست ، ص ٩١ . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٥٧ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١/١٥٨ ـ ١٦١) . السيوطي : بغية الوعاة (١/٤١٤) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٩١ .

(٣) انظر ترجمة ابن قَادِم في : المصدر السابق ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ . الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ . اليغموري : نور القبس ، ص ٣١٤ . القفطي : إنباه الرواة ، (٣/١٥٦ ـ ١٥٨) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٨/٢٠٧ ـ ٢٠٩) . اليماني : إشارة التعيين ، ص ٣١٦ . ابن قاضي شهبة : طبقات النحاة واللغويين ، ص ١٣٧ .

(٤) البغدادي : هدية العارفين ، (٢/١٥) .

الأصمعي ، ومحمد بن مصعب القرقساني . وهو معدود في نحاة الكوفة . سمع الحديث ، ورواه ، غير أنه لا يُتابع على جُل حديثه . وأخذ عنه العلم : أبو محمد القاسم الأنباري ، وأحمد بن الحسن بن سفيان ، وعلي بن محمد المصري ، وغيرهم .

وكان أبو عَصِيدة ممن وقع عليه الاختيار ، مع ابن قادم ، لتولي مهمة تأديب ولدي الخليفة المتوكل : المنتصر ، والمعتز [١] .

أما مؤلفات أبي عصيدة في النحو ، والصرف ، فمنها : كتاب « المقصور والممدود » ، كتاب « المذكر والمؤنث » ، كتاب « الزيادات من معاني الشعر ليعقوب ابن السكيت » ، كتاب « عيون الأخبار والأشعار » [٢] .

أما **أبو العباس محمد بن يزيد المبرد** (ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م) ، والذي سلفت ترجمته ، فإليه انتهى علم النحو بعد طبقة أبي عمر الجرمي ، والمازني . وعنهما ، وعن أبي حاتم السجستاني أخذ العلم . وعلى المازني كان يُعوِّل . ويقال أنه بدأ بقرأة كتاب سيبويه على الجرمي ، وختمه على المازني .

ومما يدل على ما بلغه المبِّرد من منزلة عالية بين أقرانه ، كأنجب تلاميذ المازني ، ما رواه سهل البهزي وإبراهيم المسمعي بقولهما : « رأينا محمد بن يزيد ، وهو حَدث السِّن ، متصدراً في حلقة أبي عثمان المازني يقرأ عليه كتاب سيبويه ، وأبو عثمان في تلك الحلقة كأحد من فيها » [٣] .

إضافة إلى ما سبق ، كان للمبرِّد شعراً وُصف بالجودة والكثرة ، ولكنه لا يدَّعيه ، ولا يفخر به .

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٥٨/٤) . القفطي : إنباه الرواة ، (٢٥٨/٤) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء (٢٢٨/٣ ـ ٢٣٢) .

(٢) البغدادي : هدية العارفين ، (٥١/١) .

(٣) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٠١ .

وكما ساهم المبرِّد في إثراء علم اللغة بمؤلفاته ، وكان الحال نفسه في النحو والصرف ، منها : كتاب « المقتضب » [١] ، كتاب « المذكر والمؤنث » [٢] ، كتاب « المدخل إلى النحو » ، كتاب « المدخل إلى سيبويه » ، كتاب « المقصور والممدود » ، كتاب « الرد على سيبويه » ، كتاب « إعراب القرآن » ، كتاب « الزيادة المنتزعة من سيبويه » ، كتاب « الإعراب » ، كتاب « فقر كتاب سيبويه » ، كتاب « فقر كتاب الأوسط للأخفش » ، كتاب « التصريف » [٣] .

وظهر خلال فترة الأتراك أيضاً ، **أبو بكر محمد بن عثمان البغدادي المعروف بالجعد** (ت ٢٨٨هـ/٩٠١م) ، أحد نحاة بغداد المعدودين ، ممن خلط بين المذهب البصري والمذهب الكوفي في النحو . وكانت له شهرة في العلم ، وتقدم في الفهم . وهو أحد أصحاب ابن كَيْسان النحوي ، الملازمين له [٤] .

وفي النحو والصرف ، كانت للجَعْد مؤلفات عدة ، منها : كتاب « المقصور والممدود » ، كتاب « الهجاء » ، كتاب « المذكر والمؤنث » ، كتاب « مختصر في النحو » ، كتاب « الألفات » [٥] .

كما برز من علماء النحو ، **أبو علي أحمد بن جعفر الدينوري** (ت ٢٨٩هـ/٩٠٢م) ، وكان حسن المعرفة بالنحو ، أخذ عن المازني بالبصرة كتاب سيبويه ، ثم دخل بغداد ، وقرأه ثانيةً على المبرِّد .

وكان خَتَنه ثعلب ، كثيراً ما يعاتبه على اجتيازه له إلى المبرِّد ، ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، فلم يكن أبو علي يلتفت إلى قوله .

---

(١) مطبوع بتحقيق : محمد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٦٣م .

(٢) مطبوع بتحقيق : رمضان عبد التواب ، وصلاح الدين الهادي ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٤) انظر مصادر ترجمته في مبحث علم اللغة .

(٥) النديم : الهرسيت ، ص ١٣١ .

ونزل أبو علي في آخر حياته مصر ، ومكث بها حتى وفاته [١] .

ومن كتبه في النحو : كتاب « المهذب في النحو » ، وذكر في صدره اختلاف الكوفيين والبصريين ، وعزى مسألة إلى صاحبها ، ولم ينتصر لواحد منهم ، ولا احتج لمقالته . وله أيضاً ، كتاب « ضمائر القرآن » ، وكتاب « إصلاح المنطق » [٢] .

ويعتبر **أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب** (ت ٢٩١هـ/٩٠٤م) ، وقد سبق الحديث عن ترجمته في مبحث علم اللغة ، رأس الكوفيين في النحو . وحفظ كتب أستاذه الفرّاء وعمره خمس وعشرون سنة ، كما يذكر هو بنفسه ، وفي ذلك إشارة إلى نجابة ثعلب المبكرة ، وتمكنه من صناعة النحو ، حتى قال ابن عبد الملك التاريخي : « ثعلب فاروق النحويين » [٣] .

وكان ثعلب ، كما تشير المصادر ، يدرس كتب الفرّاء ، والكِسائي درساً ، ولم يكن يعلم مذهب البصريين ، ولا مستخرجاً للقياس ، ولا طالباً له ، وكان يقول : « قال الفرّاء ، وقال الكِسائي ، فإذا سُئل عن البرهان ، لم يأت بشيء » [٤] .

ووضع ثعلب مصنفات في نحو العربية ، وصرفها ، منها : كتاب « مجالس ثعلب » ، [٥] وهو من أهم كتب ثعلب ، إن لم يكن أهمها على الأطلاق . فقد اشتمل الكتاب على ضروب شتَّى من علوم العربية ، وضمت في تضاعيفه كثيراً من المسائل النحوية على مذهب الكوفيين ، مما جعل هذه المجالس من أهم الوثائق العلمية في بيان مذهب الكوفيين . مع استعراض ثعلب لبعض آراء أهل البصرة في أماكن مبثوثة من الكتاب . كما يعد هذا الكتاب من مصادر علوم القرآن ، والحديث ، من خلال عرض المصنِّف لآراء علماء اللغة

---

(١) انظر ترجمة الدِّيْنَوَري في: الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين، ص ٢١٥ ، ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٣٩/٢ ـ ٢٤٠) . اليماني : إشارة التعيين ، ص ٢٧ الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٢٨٥/٦ ـ ٢٨٦) . السيوطي : بغية الوعاة ، (٣٠١/١) .

(٢) القفطي : إنباه الرواة ، (٦٩/١) . حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١٠٨٧/٢ ، ١٩١٤) .

(٣) القفطي : إنباه الرواه ، (١٧٦/١) .

(٤) المصدر السابق ، (١٧٩/١) .

(٥) مطبوع بتحقيق : عبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٦م .

لبعض قضاياهما . وكذلك ما أورده من أشعار العرب ، وأراجيزهم ، وأخبارهم ، وأهمية ذلك بالنسبة لأهل الأدب ، والأخبار .

وفي هذا الكتاب ، يتضح أسلوب ثعلب ، وذوقه ، وصدق ما يورده ، بأسلوب يُطمئن القارىء بصحة ما يجد فيه [١] .

ومن مصنفات ثعلب النحوية : كتاب « إعراب القرآن » ، كتاب « الهجاء » ، كتاب « مجاز الكلام وتصاريفه » ، كتاب « اختلاف النحويين » ، كتاب « الموفقي » مختصر في النحو ، كتاب « ما ينصرف وما لا ينصرف » ، كتاب « حد النحو » ، كتاب « المصون » [٢].

كما برز في تلك الفترة ، **أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان النحوي** (ت ٢٩٩هـ/٩١١م) ، كواحد من أشهر نحاة بغداد ممن جمع المذهبين ، وكان أحد المذكورين بالعلم ، والموصوفين بالفهم . أخذ عن : المبرد ، وثعلب . وبرع في النحو ، حتى قال أبو بكر بن مجاهد : « كان أبو الحسن بن كَيْسان أنحى [٣] من الشيخين ، يعنى المبرِّد ، وثعلب » .

ومزج ابن كيسان بين المذهبين : البصري والكوفي ، وانتخب منهما ما غلب على ظنه صحته ، وترك التعصُّب لأحد الفريقين على الآخر ، وكان يميل إلى رأي البصريين . ولابن كَيْسان مجلس مع إسماعيل القاضي عقب صلاة الجمعة بجامع المنصور ، وكان إسماعيل مُفتَتِناً بما يأتي به ابن كَيْسان من مقاييسه العربية [٤] .

---

(١) ثعلب : مجالس ثعلب ، (٢٤/١) مقدمة المحقق .

(٢) البغدادي : هدية العارفين ، (٥٤/١) .

(٣) أنحى : أفعل تفضيل ، أي : أكثر نحواً . ابن منظور : لسان العرب ، (٣١٠/١٥) .

(٤) انظر ترجمة ابن كيسان في : النديم : الفهرست ، ص ١٢٩ . الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ١٥٢ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٣٥/١) . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٧٨ . القفطي : إنباه الرواة ، (٥٧/٣ ـ ٥٩) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٣٧/١٧ ـ ١٤١) . اليماني : إشارة التعيين ، ص ٢٨٩ . السيوطي : بغية الوعاة ، (١٨/١ ـ ١٩) .

ولابن كيسان مصنفات وُصِفت بأنها : حسان ، وجيدة . لما ضمته من غرائب القياسات . ومن هذه المصنفات : كتاب « المهذب في النحو » ، كتاب « الشاذاني » ، كتاب « المذكر والمؤنث » ، كتاب « المقصور والممدود » ، كتاب « اللامات » ، كتاب « الهجاء » ، كتاب « مختصر النحو » ، كتاب « حد الفاعل والمفعول به » ، كتاب « اختلاف البصريين والكوفيين » ، كتاب « الكافي » ، كتاب « التصاريف » ، كتاب « المسائل على مذهب النحويين » ، كتاب « المختار في علل النحو » [١] .

ومن علماء النحو أيضاً ، **أبو جعفر أحمد بن يزداد الطبري** (كان حيا سنة ٣٠٤هـ/٩١٦م) ، أحد المتبصرين باللغة ، الحاذقين في النحو ، سكن بغداد ، وحدّث بها عن : نصير بن يوسف ، وهاشم بن عبد العزيز ، صاحبي الكسائي . وكان يميل إلى مذهب البصريين في النحو . وتصدَّر لإقراء النحو ، وإفادته الطلبة . وروى عنه جماعة ، فيهم : أحمد بن جعفر بن مسلم ، وعمر بن محمد بن سيف الكاتب ، وغيرهم . وكان مؤدباً في دار الوزير ابن الفُرَات [٢] .

ومن مؤلفات أبي جعفر في النحو ، والصرف : كتاب « المقصور والممدود » ، كتاب « المذكر والمؤنث » ، كتاب « صورة الهمز » ، كتاب « التصريف » ، كتاب « النحو » ، كتاب « غريب القرآن » [٣] .

ويعتبر ، **أبو محمد سلمه بن عاصم النحوي** (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) أحد نحاة الكوفة ، ورواتها الثقات . روى عن الفرّاء كتبه كلها ، وكان ملازماً له . وحدّث عن : ثعلب ، وإدريس بن عبد الكريم الحدّاد ، وغيرهم .

وكان أديباً ، فاضلاً ، عالماً . وفي هذا الصدد يقول ثعلب : « وكان سَلَمَه حافظاً لتأديَة ما في الكُتب » .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٣٩/١٧) .

(٢) انظر ترجمة الطبري في : النديم : الفهرست ، ص ٩٤ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٢٥/٥ـ١٢٦) القفطي : إنباه الرواة (١٦٣/١) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٩٣/٤ ـ ١٩٤) . الجزري : غاية النهاية ، (١١٤/١) .

(٣) البغدادي : هدية العارفين ، (٥٦/١) .

ولسلمة أسلوب خاص في تأليف الكتب . فقد أثنى أبو بكر الأنباري على كتاب سَلَمَة المسمَّى « معاني القرآن » ، ووصفه بأنه أجود الكتب في طريقة تصنيفه ، إذ كان لا يحضر مجلس أستاذه الفرَّاء يوم الإملاء ، وإنما يأخذ تلك المجالس ممن حضر ، ثم يتدبرها ، ويُعلق عليها ، ويَتتبع مواطن السهو ، فيناظر عليها الفرَّاء ، فيرجع عنه ، فيكون ما أثبته صحيحاً ، منقَّحاً . وكان أبو محمد ثقة فيما يرويه ، فقد سمع ثعلب منه كتابي : « معاني القرآن » ، و« الحدود » للفرَّاء [١] .

وترك أبو محمد مصنفات في مجال اللغة ، والنحو ، منها : كتاب « المسلوك في العربية » ، كتاب « غريب الحديث » ، كتاب « معاني القرآن » [٢] .

وشهدت فترة نفوذ الأتراك بروز **أبو إسحاق إبراهيم بن السري المعروف بالزجاج** (ت ٣١١هـ/٩٢٣م) ، كأحد الذين شاركوا بقوة في مسيرة علوم العربية بشكل عام ، والنحوية والصرفية على وجه الخصوص . ولقد ذكر طرفاً من سيرته في اللغة . وأخذ الزَّجَّاج النحو عن المبرِّد مقابل درهم واحد كل يوم ، إذ كان المبرِّد لا يعلِّم إلا بأُجرة ، وعلى قدرها . وهو أقدم أصحاب المبرِّد قراءة عليه . كما أخذ العلم عن ثعلب أيضاً .

وبرع الزَّجَّاج في النحو ، فكان من المتفق عليهم بالتمكُّن ، فيذكر أبو بكر محمد بن مَبْرَمَان : أنه قصد محمد بن كَيْسان ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، فامتنع ، وقال له : « إذهب إلى أهله ، يشير إلى الزَّجَّاج » . وقد سلف بنا الحديث عن ترجمة الزَّجَّاج في مبحث علم اللغة .

وكان إسهام الزَّجَّاج كبيراً في إثراء الدراسات النحوية ، والصرفية بمؤلفات حِسان ، ومن هذه المصنفات : كتاب « إعراب القرآن » [٣] ، كتاب « فعلت وأفعلت » [٤] ،

---

(١) انظر ترجمة ابن عاصم في : النديم : الفهرست ، ص ١٠٧ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٣٤/٩) . القفطي : إنباه الرواة ، (٥٦/٢ ـ ٥٨) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٤٢/١١ ـ ٢٤٣) .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٤٣/١١) .

(٣) مطبوع بتحقيق : إبراهيم الأبياري ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .

(٤) مطبوع بتحقيق : محمد خفاجي ، مكتبة التوحيد ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م .

كتاب « ما ينصرف وما لا ينصرف » [١] ، كتاب « مختصر في النحو » ، كتاب « الفرق بين المؤنث والمذكر » ، كتاب « الأمالي » في النحو ، كتاب « المقصور والممدود » [٢] .

وممن انتهت إليه رياسة البصريين بعد الزَّجَّاج ، **أبو بكر محمد بن السري المعروف بابن السراج** (ت ٣١٦هـ/٩٢٨م) ، وقد وردت ترجمته في مبحث اللغة ، وكان من أَحْدث تلاميذ المبرِّد سناً ، مع ذكائه وفطنته . وكان المبرِّد يميل إليه ، ويقربه ، ويشرح له ما أغمض عليه ، ويأنس به .

وأخذ العلم عن ابن السَّرّاج جمهرة من العلماء ، فيهم : أبو القاسم الزجاجي ، وأبو سعيد السيرافي ، وأبو علي الفارسي ، وعلي بن عيسى الرماني ، وغيرهم . ونقل عنه الجوهري في كتاب « الصِّحاح » في مواضع عدة .

أما مؤلفات ابن السَّرّاج في النحو ، فمنها : كتاب « الأصول في النحو » [٣] ، وهو أكبر مصنفاته وأحسنها عند أهل العربية ، ومن أجلِّ الكتب المصنفة في بابه . فقد جمع فيه أصول علم العربية ، وأخذ مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب ، وإليه المرجع عند اضطراب النقل ، واختلافه [٤] . ومن كتبه أيضاً ، كتاب « الموجز في النحو » [٥] ، كتاب « شرح كتاب سيبويه » ، كتاب « جمل الأصول » ، كتاب « أصول العربية وجمع مقاييسها » ، كتاب « علل النحو » [٦] .

ومن نحاة بغداد أيضاً ، **أبو بكر أحمد بن الحسن البغدادي المعروف بابن شقير** (ت ٣١٧هـ/٩٢٩م) . وكان يخلط المذهبين ، وله ميل إلى مذهب الكوفيين . أخذ عن أحمد بن عبيد الله بن ناصح تصانيف الواقدي في المغازي ، والسِّيَر . وأخذ عنه : أبو بكر بن شاذان ، وإبراهيم بن أحمد الخرقي .

---

(١) مطبوع بتحقيق : هدى قراعة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧١م .

(٢) البغدادي : هدية العارفين ، (٥/١) .

(٣) مطبوع بتحقيق : عبد الحسين الفتلي ، مطبعة النعمان ، النجف ، د . ت .

(٤) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٨٦ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣٣٩/٤) .

(٥) مطبوع بتحقيق : مصطفى الشويمي ، وابن سالم دامرجي ، مؤسسة بدران ، بيروت ، ١٩٦٥م .

(٦) البغدادي : هدية العارفين ، (٣٠/٢) . القفطي : إنباه الرواة ، (١٤٨/٣ ، ١٤٩) .

ويُصنَّف ابن شُقَيْر في طبقة أبي بكر ابن السَّرَّاج ، وأبي بكر محمد بن مبرمان ، وأبي بكر الخياط [١] .

ولابن شُقَيْر كتب في النحو والصرف ، منها : كتاب « مختصر في النحو » ، كتاب « المقصور والممدود » ، كتاب « المذكر والمؤنث » . ويذكر ياقوت الحموي أنه قرأ في كتاب ابن مسعدة : أن الكتاب المنسوب للخليل ويسمى « الجُمَل » هو من تصنيف ابن شُقَيْر [٢] .

وشارك **أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفه المعروف بنفطويه** (ت ٣٢٣هـ/٩٣٥م) في نشاط النحو والصرف خلال فترة نفوذ الأتراك ، وسبق إيراد ترجمته في اللغة ، أخذ نَفْطَوَيه النحو عن : المبرد ، وثعلب . وكان يخلط بين المذهبين : البصري ، والكوفي ، ملماً بالحديث ، والعربية . سمع من : محمد بن الجهم ، وعبد الله بن إسحاق . وعنه أخذ : المعافى بن زكريا ، وأبو عبيد الله المرزباني ، وغيرهم .

ولِنَفْطَوَيه مصنفات في النحو ، منها : كتاب « المقنع في النحو » ، كتاب « المذكر والمؤنث » ، كتاب « الرد على المفضل بن سلمه في نقضه على الخليل » [٣] و كتاب « المقصور والممدود » [٤] .

وكان **أبو الحسين عبد الله بن محمد الخزاز النحوي** (ت ٣٢٥هـ/٩٣٧م) أحد نحاة بغداد المبرِّزين ، ممن جمع بين آراء البصريين ، والكوفيين . حدّث عن : المبرد ، وثعلب . وكان ثقة . وتميز بمُلاحة الخط ، حتى يذكر القفطي : أنه رأى بخط الخَزَّاز كتاب « شعر أبي تمام » ، وهو في غاية الإتقان والجودة [٥] .

---

(١) انظر ترجمة ابن شُقَيْر في : السيرافي : أخبار النحويين البصريين ، ص ١١٤ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٨٩/٤) . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٨٧ ــ ١٨٨ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء (١١/٣) .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١١/٣) . البغدادي : هدية العارفين ، (٥٨/١) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ١٣١ .

(٤) نشر بتحقيق : حسن شاذلي، مجلة كلية الآداب ، جامعة الرياض ، مج٤ ، ١٩٧٥ ــ ١٩٦٧م .ص ٩٣ــ١٣٠ .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ١٣١ــ١٣٢ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٢٣/١٠) . القفطي : إنباه الرواة ، (١٣٥/٢) .

وللخَزَّاز إسهام مسبق في علوم القرآن بمصنفات غزيرة الفوائد ، وكذلك الحال في النحو والصرف . ومنها : كتاب « المختصر في النحو » ، كتاب « معاني القرآن » ، كتاب « المقصور والممدود » ، كتاب « المذكر والمؤنث » ، كتاب « الفسيح في عالم اللغة ومنطوقها » [١] .

ومن العلماء النحويين أيضاً ، **أبو الطيب محمد بن أحمد الأعرابي المعروف بالوشاء** (ت ٣٢٥هـ/٩٣٧م) ، وقد مرت بنا سيرته في مبحث اللغة ، وهو أحد الأدباء الظرفاء وكان نحوياً ، معلماً في مكتب العامة ببغداد . والغالب عليه الأدب ، والأخبار .

وللوَشّاء مصنفات في النحو والصرف ، منها : كتاب « المقصور والممدود » [٢] ، كتاب « مختصر في النحو » ، كتاب « جامع النحو » ، كتاب « المذكر والمؤنث » [٣] .

كما برز في ذلك الوقت ، **أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري** (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م) . ويُعد من المكثرين في تأليف المصنفات في فنون العربية بوجه عام . وكان من أعلم الناس بالنحو ، وأكثرهم حفظاً له ، وتعرفنا على طرفاً من سيرته العلمية فيما مضى من مبحث علم اللغة .

ومن إسهامات أبو بكر في النحو والصرف : كتاب « المذكر والمؤنث » [٤] ، كتاب « الهاءات في كتاب الله تعالى » [٥] ، كتاب « شرح الألفات المبتدئات في الأسماء والأفعال » [٦] ، كتاب « ضمائر القرآن » ، كتاب « الكافي » ، كتاب « المقصور والممدود » ، كتاب « الواضح في النحو » كبير ، كتاب « الهجاء » [٧] وغيرها .

---

(١) السيوطي : بغية الوعاة ، (٢/٥٥) .

(٢) نشر بتحقيق : رمضان عبد التواب ، مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ع٧ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، ص ٦٥ ـ ١٢٥ .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ١٣٦ .

(٤) مطبوع بتحقيق : طارق الجنابي ، وزارة الثقافة العراقية ، بغداد ، ١٩٧٨م .

(٥) نشر بتحقيق : نوار آل ياسين ، مجلة البلاغ ، ١٩٧٦م ، ع٤ (ص ٦٨ ـ ٧٣) . ع٥ (ص ٦٢ ـ ٧٢) .

(٦) نشر بتحقيق : حسن شاذلي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الرياض ، مج٦ ، ١٩٧٩م (تحت عنوان : مختصر في الألفات) .

(٧) البغدادي : هدية العارفين ، (٢/٣٥) .

ومن أبرز نحاة العراق الذين أثّروا في الدَرْس النحوي والصرفي ، **أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي المعروف بالزجاجي** (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م) ، وكان من أفاضل أهل النحو . أخذ عن الزجاج ، ولازمه حتى نُسب إليه ، وكذلك أخذ عن : ابن السراج ، وعلي بن سليمان الأخفش ، وأبي جعفر الطبري ، وأبي بكر الأنباري ، وابن كيسان ، وأبي موسى الحامض ، ومحمد بن العباس اليزيدي ، وابن دريد ، وغيرهم .

وكان من طبقة أبي سعيد السيرافي ، وأبي علي الفارسي . سافر إلى دمشق ودَرَّس بجامعها [١] .

واشتهر الزَّجَّاجي بزحم مصنفاته في اللغة ، والنحو والصرف ، ومنها : كتاب « الإيضاح في علل النحو » [٢] ، وهو أقدم كتاب في بابه وصل إلينا . ويتطرق إلى جوانب من الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين ، وهو في ذلك سابق لابن الأنْباري (ت ٥٧٧هـ/١١٨١م) في كتابه « الإنصاف » ، وللعُكْبُري (ت ٦١٦هـ/١٢١٩م) في كتابه « المسائل الخلافية » [٣] .

وللزَّجَّاجي أيضاً ، كتاب « الجمل » [٤] ، يقول عنه ابن خلكان : « وهو من الكتب المباركة ، لم يشتغل به أحد إلا وانتفع به » [٥] ، وقال القفطي : « وهو كتاب المصريين ، وأهل المغرب ، وأهل الحجاز ، واليمن ، والشام إلى أن اشتغل الناس بـ « اللمع » لابن جِنِّي، و « الإيضاح » لأبي علي الفارسي » [٦] . وهذه القيمة للكتاب ، هي التي تُفسر لنا ازدحام

---

(١) انظر ترجمة الزَّجَّاجي في : ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ٢٢٧ . القفطي : إنباه الرواة ، (٢/١٦٠ـ ١٦١) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/١٣٦) . اليماني : إشارة التعيين ، ص ١٨٠ـ١٨١ . ابن كثير : البداية والنهاية ، (١١/٢٢٥) ، السيوطي : بغية الوعاة ، (٢/٧٧) .

(٢) مطبوع بتحقيق : مازن المبارك ، دار النفائس ، بيروت ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

(٣) الزجاجي : الإيضاح في علل النحو ، ص ١٦ ـ ١٧ . (مقدمة المحقق) .

(٤) مطبوع بتحقيق : علي الحمد ، مؤسسة الرسالة ، دمشق ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(٥) وفيات الأعيان ، (٣/١٣٦) .

(٦) إنباه الرواة ، (٢/١٦١) .

العلماء على شرحه ، والتعليق عليه ، حتى وُضِع له في المغرب مائة وعشرون شرحاً [١] . وذكر بروكلمان (١٧ مخطوطاً) جميعها وُضِعت في شرح هذا الكتاب [٢] .

وللزَّجَّاجي أيضاً ، كتاب «اشتقاق أسماء الله تعالى» [٣] ، كتاب « الأمالي » [٤] ، كتاب « حروف المعاني » [٥] ، كتاب « اللامات » [٦] ، كتاب « مجالس العلماء » [٧] ، كتاب « المخترع في القوافي » ، كتاب « شرح كتاب الألف واللام للمازني » [٨] ، كتاب « الهجاء » [٩] ، كتاب « مختصر كتاب الزاهر لأبي بكر الأنباري » [١٠] .

وممن أسهم بقوة في ميدان الدراسات النحوية ، **أبو محمد عبد الله بن جعفر الفسوي المعروف بدرستويه** (ت ٣٤٧هـ/٩٥٨م) . سكن بغداد . وكان فاضلاً مُفنناً في علوم كثيرة ، متعصباً لمذهب البصريين ، وله ردود على المفضل بن سلمة . لقي المبرد ، وثعلب ، وابن قتيبة الدينوري ، وأخذ عنهم . وقرأ كتاب سيبويه على المبرد ، وبرع في ذلك . وأخذ عنه جماعة ، منهم : أبو عبيد الله المرزباني ، وأبو الحسن الدارقطني ، وغيرهم . وسُئل عنه ابن الأنباري فقال : ثقة [١١] .

---

(١) الزجاجي : الإيضاح في علل النحو ، ص ٤ . (مقدمة المحقق) .

(٢) تاريخ الأدب العربي ، (٢/١٧٣ ـ ١٧٥) .

(٣) مطبوع بتحقيق : عبد الحسين المبارك ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٩٧٤م .

(٤) مطبوع بتحقيق : عبد السلام هارون ، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م .

(٥) مطبوع بتحقيق : علي الحمد ، دار الأمل ، عمان ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

(٦) مطبوع بتحقيق : مازن المبارك ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

(٧) مطبوع بتحقيق : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي : القاهرة ، دار الرفاعي : الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

(٨) البغدادي : هدية العارفين ، (١/٥١٣) .

(٩) الزجاجي : الجمل ، ص ٢٩١ .

(١٠) مخطوط بدار الكتب المصرية في القاهرة ، برقم (٥٥٧ لغة) .

(١١) انظر ترجمة ابن دَرَسْتَوَيْه في : النديم : الفهرست ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ٢١٣ ـ ٢١٤ . ابن الجوزي : المنتظم (٦/٣٨٨) . القفطي : إنباه الرواة (٢/١١٣ ـ ١١٤) . اليماني : إشارة التعيين ، ص ١٦٢ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/٤٤ ـ ٤٥) .

ولابن درستويه مصنفات في نحو العربية ، وتصريفها ، منها : كتاب « تصحيح الفصيح » [١] ، كتاب « شرح ما يكتب بالياء من الأسماء المقصورة والأفعال » [٢] ، كتاب « الكتاب » [٣] ، كتاب « الإرشاد في النحو » ، كتاب « المقصور والممدود » ، كتاب « أسرار النحو » ، كتاب « نقض كتاب ابن الراوندي على النحويين » ، كتاب « الانتصار لكتاب العين » ، كتاب « الهجاء » ، كتاب « المذكر والمؤنث » كتاب « غريب الحديث » ، كتاب « معاني الشعر » ، كتاب « التوسط بين الأخفش وثعلب في معاني القرآن واختيار أبي محمد في ذلك » ، كتاب « تفسير المفضليات » ، لم يتمه ، كتاب « شرح المقتضب » ، لم يتمه ، كتاب « الرد على ثعلب في اختلاف النحويين » ، كتاب « الكلام على ابن قتيبة في تصحيف العلماء » ، كتاب « النصرة لسيبويه على جماعة النحويين » ، كتاب « مناظرة سيبويه للمبرد » ، وغيرها من المصنفات [٤] .

---

(١) مطبوع بتحقيق : عبد الله الجبوري ، رئاسة ديوان الأوقاف العراقية ، بغداد ، ١٩٧٥م .

(٢) نشر بتحقيق : محمد المختون ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، مج٢٣ ، ج٢ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

(٣) مطبوع بتحقيق : إبراهيم السامرائي ، وعبد الحسين الفتلي ، دار الكتب الثقافية ، الكويت ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ١٠٠ .

المبحث الثالث

علـــم الأدب

يعتبر الأدب من أعرق مظاهر النشاط الإنساني عند العرب ، وأبرز الفنون التي تألقت فيها شخصيتهم ، وتجلت خلالها سماتهم ، وملامحهم .

وللأدب في القرنين : الثالث ، والرابع الهجريين/التاسع ، والعاشر الميلاديين ، مفهوم خاص ، يقوم على الإجادة في فني : المنظوم ، المنثور ، وعلى أساليب العرب ومناحيهم ، والأخذ من كل علم من علوم العربية ، والشرعية مما لا يسع تركه [١] .

وهناك عوامل مهمة أثرت بشكل أو بآخر في سير الدراسات الأدبية ، شعراً ونثراً ، في ذلك العصر ، وأفرزت مجموعة من الخصائص تميز بها الأدب في العراق ، خلال فترة نفوذ الأتراك [٢] . ويمكن أن نحددها في العوامل التالية :

١ ـ البيئة العامة . ذلك أن العراق حفل بالأحداث التاريخية ، والتقلبات السياسية ، والتطورات الاجتماعية ، كانت لها الأثر الواضح في تطور الأدب بشكل عام ، فضلاً عن نضج العقول بالثقافة ، واتساع المدارك والفكر .

٢ ـ ترجمة التراث اليوناني المتعلق بالفلسفة ، والمنطق ، والأدب ، وكذلك الأدب الفارسي ، وما صاحب ذلك من ظهور نزعة جدلية سيطرة على فكر العديد من أدباء العراق ، شعراء ونثريين ، ومحاولتهم إخضاع الأدب العربي للأدب اليوناني ، أو الفارسي ، وهذا العامل ظهر في النثر أكثر منه في الشعر ، كما سنرى .

٣ ـ التيارات والاتجاهات الفكرية المسيطرة على اتجاهات الأدباء في ذلك الوقت . فقد أخذ كل أديب ينتصر لعقيدته الدينية ، ومذهبه الفكري ، كالإعتزال ، وغيره ، وذلك من خلال أعمالهم الشعرية ، والنثرية .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦ .

(٢) انظر عن هذه الخصائص : عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، (٢/٤٠٧ ـ ٤١٢) . محمد أبو الأنوار : الشعر العباسي ، ٩٤ ـ ١٠٠ .

ووجود هذه العوامل مجتمعة ، وسيطرتها على الأدب في ذلك الوقت ، جعل الحديث عن حال الأدب مترامي الأطراف ، مُتشعِّب السبل ، مما أوجد نوعاً من الصعوبة في تتبع هذا الأمر .

وسوف يكون تناول موضوع الأدب في العراق ، في ذلك الوقت ، من خلال الحديث عن فرعيه : الشعر ، والنثر .

١ ــ الشعر :

إن التطور الحضاري للعراق في ذلك الوقت ، بعد احتكاك العرب بحضارات الأمم الأخرى ، وتسرب ثقافاتها ، وتأثرهم بأساليب حياتها ، جعل للحياة في العراق مظهراً جديداً ، سياسياً ، واجتماعياً ، أثر بقوة في حياتهم الأدبية ، لا سيما الشعر ، فانتابه التطور في لغته ، وأسلوبه ، وأغراضه ، وهو ما أدى إلي خلق ألوان من الشعر تستمد مادتها من وضع الحياة الجديدة .

فعندما حل القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، أصبح الشعر مستقراً على أسس وقواعد واضحة المعالم ، في لغته وأسلوبه وأغراضه ، حددها ابن قُتيبة الدِّيْنَوَري (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) في مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » ⟨١⟩ .

وظهر منذ منتصف هذا القرن ما يسمى بالصنعة الشعرية أو فن البديع ⟨٢⟩ ، كالتشبيه ، والاستعارة ، والمحسنات اللفظية ، وغيرها ، والإكثار منها . وهو الاتجاه الجديد في الشعر ، والمعروف باتجاه التعميق والإثراء الفني للجديد المُحْدَث ، والقديم الموروث . وتزعَّم هذا الاتجاه من شعراء الفترة : ابن الرُّومي (ت ٢٨٣هـ/٨٩٦م) ، وابن المعتز (ت ٢٩٦هـ/٩٠٩م) . ويدخل في هذا الاتجاه ، في إطاره العام ، اتجاه الإثراء الفني للتراث الشعري بزعامة البُحْتُري (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) ، الذي أصَّل هذا الاتجاه في

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ص ٣١ . أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٣٣٥ ــ ٣٣٧ . نهلة حسين : الشعر في البصرة ، ص ١٠٩ ــ ١٢٢ .

(٢) فن البديع : « علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ، ووضوح الدلالة . وفائدته : تعرف أحوال الشعر ، وما يدخل فيه من المُحَسِّنات ، وغيرها » . الأنصاري : اللؤلؤ النظيم ، الورقة : (٢ أ) .

الموروث القديم [١] ، باعتباره ممثل عامود الشعر ، أو الشعر القديم ، أمام الصنعة الشعرية وروُّادها ، كابن الرومي ، وابن المعتز ، ومن قبلهما أبو تمَّام (ت ٢٣١هـ/٨٤٥م) [٢] ، والذي يسبق فترة دراستنا .

وقد حدَّد قُدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م) حدود الشعر بقوله : ((إنه قول موزون مُقَفَّى يدل على معنى)) [٣] .

أما أغراض الشعر وموضوعاته ، فقد لحقها التغيير ، على ضوء الطور الجديد الذي انتقل إليه الشعر بعد تطور الحياة في العراق في ذلك الوقت . ذلك أنه حدثت إضافات متنوعة على الأغراض الشعرية الكبرى في الشعر القديم ، وهي : المدح ، والهجاء ، والفخر ، والرثاء ، والوصف ، والغزل ، والتي عليها مدار بقية الأغراض الناشئة تبعاً لظروف العصر [٤] . فمثلاً ، احتل شعر المديح رقعة واسعة في الشعر العباسي ، لأنه شعر الخلفاء ، والأمراء ، وباب الرِّزق الواسع للشعراء ، وسلَّم الطموح إلى المناصب العليا . وتبعاً للتغير الاجتماعي ، تغيَّر غرض شعر المديح في هذا العصر عنه في الشعر القديم ، وتولَّد من المديح شعر التهاني ، الذي تحول إليه شعر المديح في بعض جوانبه ، مع ظهور مناسبات جديدة طرأت على الحياة الاجتماعية في العراق نتيجة الاحتكاك بالفُرْس ، كالاحتفال بأعياد النَّيْروز ، والمَهْرجان .

ويمكن القول : أن الأغراض الشعرية خلال تلك الفترة تناولت الأغراض السابقة ، إضافة إلى شعر الأغراض الذاتية (الشكوى ، والحكمة ، والإخوانيات) .

---

(١) محمد أبو الأنوار : الشعر العباسي ، ص ١١٢ ـ ١١٣ .

(٢) ظل موضوع المقارنة بين أبي تمام والبحتري ردهاً من الزمن مدار بحث نُقَّاد الأدب ، قديماً وحديثاً ، على اعتبار أن كل واحداً منهما يمثل اتجاهاً جديداً للشعر في عصره ، لا سيما وأنهما معاصرين لبعضهما ، حتى لنجد أبو القاسم الآمدي يُصنِّف كتابه المشهور « الموازنة بين أبي تمام والبحتري » . وهو مطبوع بتحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٤٤م .

(٣) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، ص ٦٤ .

(٤) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص ٢٢٨ . وقد أسهب المؤلف في حديثه عن هذا الجانب ، يُفضِّل الرجوع إليه .

وشهد هذا العصر اهتماماً واضحاً من العلماء ، والأدباء بالشعر التعليمي [١] ، وذلك رغبة منهم في تبسيط العلوم أمام طالبيها ، وسهولة حفظها . ومن أبرز من عني بهذا الموضوع من العلماء والأدباء : علي بن الجَهْم ، وابن المُعتز ، وابن دُرَيْد .

فهذا علي بن الجَهْم ينظم قصيدة « المُحَبَّرة في التاريخ » تقع في : ثلاثمائة وثلاثين بيتاً [٢] . تناول فيها التاريخ منذ بدء الخليقة حتى خلافة المستعين . ذاكراً فيها قصة خلق آدم وحوّاء ، وما حدث لهما مع إبليس ، وما آل إليه أمرهما ، ثم يتعرّض لقصة قابيل وهابيل ، ثم يستعرض الأنبياء والرسل تاريخياً ، بادئاً بنوح عليه السلام إلى أن وصل إلى البعثة المحمدية ، ذاكراً الأحداث التي صاحبت تاريخ الأنبياء والرُّسل عليهم الصلاة والسلام. ثم يتحدَّث عن مجيء البعثة المحمدية ، ويصور أثرها على البشرية بقوله [٣] :

ثم أزالَ الظلمةَ الضياءُ ... وعاودتْ جِدّتها الأشياءُ

ودانتِ الشعوبُ والأحياءُ ... وجاءَ ما ليس به خفاءُ

أتاهمُ المنتجبُ الأوّاه ... محمدٌ صلى عليه اللهُ

ثم يقول عن بيعة الخليفة المستعين [٤] :

وبايعوا بعد الرضا لأحمدِ ... المستعينِ بالإلَهِ الأوحدِ

وكان في العشرين من ولاتِها ... من آل عباسٍ ومن حُماتِها

أما الأمير الشاعر عبد الله بن المعتز ، فقد قام بنَظْم أُرجوزة تقع في : أربعمائة وثمانية عشر بيتاً [٥] ، يَسرد فيها حياة الخليفة المعتضد ، وأحداث عصره ، مصوِّراً استقرار الأوضاع السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية على وقته بعد سيادة الاضطراب

---

(١) الشعر التعليمي : هو نَظْم موضوع معين في أبيات شعرية جامعة له وذلك في مختلف العلوم .

(٢) ابن الجهم : الديوان ، ص ٢٢٧ ــ ٢٥١ .

(٣) المصدر السابق : ص ٢٤٢ .

(٤) المصدر السابق : ص ٢٥٠ .

(٥) ابن المعتز : الديوان ، ص ٤٨١ ــ ٥٠٥ .

عليها من قبل . والإنجازات العظيمة التي حققها الخليفة المعتضد ، وما عَمَّ البلاد في عهده من العدل ، والرخاء ، والأمن ، والاستقرار . مع مقارنة ذلك كله مع العصر الذي سبق فترة خلافته ، وما حدث فيه من سطوة الأتراك الفظيعة على مقاليد الأمور ، وما صاحب ذلك من أحداث تَنِمُّ على سوء الأحوال في منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي .

ويذكر ابن المعتز غرضه من هذه الأرجوزة ، وأنها كتاب لأيام الخليفة المعتضد ، مع ثنائه عليه ، إذ يقول [١] :

هـذا كتـابُ سـيَرِ الإمـامِ	مُهَذَّبـاً مـن جَـوهَرِ الكَـلامِ
أعني أبا العباس خيرَ الخَلْقِ	للمُلْـكِ قَـولُ عالـم بالحــقِّ
قـام بأمـر المُلكِ لمّا ضَـاعَا	وكانَ نَهباً في الوَرى مُشاعاً

أما أبو بكر بن دُرَيْدَ ، عالم اللغة ، فقد عُنيَ بتضمين ديوانه بعض المعارف اللغوية . ففي مقصورته [٢] التي مدح بها والى الأهواز ، عبد الله بن ميكال ، وابنه إسماعيل ، يبني قافيتها على الحرف المقصور ، وجعلها في (٢٥٠ بيتاً) . وتكمن أهميتها بأنه ضمنها ، كما يقال ، ثُلُث المقصور في اللغة [٣] .

ولابن دُرَيْد قصائد أخرى تتضح فيها الغاية اللغوية التعليمية التي ابتغاها ، ومن ذلك قصيدته في « المقصور والممدود » [٤] ، وقد اشتملت على : سبع وخمسين كلمة مقصورة ، ومثلها ممدودة من نفس مادتها [٥] .

وفي الديوان أيضاً ، بجانب ما سبق ، ثلاث مقطوعات [٦] ، أودع في الأولى ما يُذَكَّر من أعضاء الجسم ولا يُؤَنَّث ، وفي ثانيها ما يُؤَنَّث ولا يُذَكَّر ، وفي ثالثها

---

(١) المصدر السابق : ص ٤٨١ .

(٢) وهي منشورة ضمن ديوان بن دريد المطبوع .

(٣) البغدادي : خزانة الأدب ، (٣/١٠٥) .

(٤) ابن دريد : الديوان ، ص ٢٩ .

(٥) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص ٢٥٣ .

(٦) ابن دريد : الديوان ، ص ١٢٣ وما بعدها . شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص ٢٥٤ .

ما يجوز فيه التَّذْكير والتَّأْنيث . وعلى هذا النحو ، سَخَّر ابن دُرَيْد الشعر ليحمل مواداً لغوية تعليمية .

إن الروح العلمية الطاغية على بيئة العراق في ذلك الوقت ، جعلت الشعراء يندمجون مع هذا الوضع بأشكال عدة ، خاصة وأن الكثير منهم كانوا علماء قبل أن يكونوا شعراء . فنجد الكثير منهم انبرى لجمع عيون الشعر العربي في الجاهلية والإسلام ، وظهرت مجموعة من المُصنَّفات التي تتناول مختلف الموضوعات الشعرية ، لا سيما العَروض ، وطبقات الشعراء ، أو إفراد مُصنَّف مستقل يجمع فيه أشعار القبائل العربية على حده ، وغيرها من صور التأليف .

ذلك أن الشعراء وجدوا اللغويين يهتمون ، على نحو ما مرَّ في باب اللغة ، بالشعر الغريب ، ليتخذوا منه مادةً للتعليم ، فأراد الشعراء أن يقفوا بالدارسين على طرائف الشعر القديم والحديث [١] .

ولقد نال الشعر ، خلال تلك الفترة ، اهتمام علماء اللغة والأدب على السواء ، وكذلك بعض الفقهاء ، والمؤرخين ، فصنفوا الكتب التي تبحث في الموضوعات المذكورة سابقاً . فصنف **أبو العباس محمد بن الحسن المعروف بالأحول** (ت ٢٥٠هـ/٨٦٤م) كتابي : « ديوان شعر ذي الرمة » ، و« دواوين جماعة من العرب » [٢] .

أما المؤرخ **أبو زيد عمر بن شبة النميري** (ت ٢٦٢هـ/٨٧٦م) . فقد أسهم في هذا المضمار بمصنفات منها : كتاب « الشعر والشعراء » ، وكتاب « أشعار الشعراء » وكتاب « الاستعانة بالشعر وما جاء في اللغات » [٣] .

وقام **أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري** (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م) . بعمل أشعار جماعة من الفحول ، وقطعة من شعر القبائل ، فمنها : ديوان « امرىء القيس » ، وديوان « النابغتان » ، وديوان « قيس بن الحطيم » ، وديوان « تميم بن أبي مقبل » ، وديوان

---

(١) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص ١٨١ .

(٢) القفطي : إنباه الرواة (٩٢/٣) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ١٠٨ .

« أشعار اللصوص » ، وديوان « هدبه بن خشرم » ، وديوان « الأعشى » ، وديوان « مزاحم العقيلي » ، وديوان « أبو نواس » ، وكتاب « الأبيات السائرة » [١] ، وديوان « الأخطل » [٢] ، وديوان « شعراء هذيل » [٣] ، كتاب « شرح ديوان كعب بن زهير » [٤] ، وهناك عدد كبير من الدواوين التي صنفها السُّكَّري لشعراء آخرين غير ما ذكر [٥] .

وصنف **أبو الفضل أحمد بن طيفور البغدادي** (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) الأديب والمؤرخ ، كتباً عدة في موضوعات شعرية مختلفة تظهر من عناوينها ، منها : كتاب « أسماء الشعراء الأوائل » ، كتاب « ألقاب الشعراء ومن عرف بالكنى ، ومن عرف بإسمه » ، كتاب « من أنشد شعراً فأجيب بكلام » ، كتاب « مقاتل الشعراء » ، كتاب « الجامع في الشعراء وأخبارهم » .

ومن كتبه في اختيارات أشعار الشعراء ، وأخبارهم : كتاب « اختيار شعر بكر بن النطاح » ، كتاب « اختيار شعر دعبل بن علي » ، كتاب « اختيار شعر منصور النمري » ، كتاب « اختيار شعر العتابي » ، كتاب « اختيار شعر أبي العتاهية » ، كتاب « أخبار بشّار والاختيار من شعره » ،كتاب « أخبار ابن هرمة ومختار شعره » ، وغيرها من المصنفات [٦].

ووضع **أبو بكر محمد بن عثمان الشيباني** (ت ٢٨٨هـ/٩٠١م) . كتاب « العروض » . في حين أسهم **أبو عبد الله هارون بن علي المنجم** (ت ٢٨٨هـ/٩٠١م) بمجموعة من المصنفات ، منها : كتاب « البارع » ، وهو في أخبار الشعراء المولَّدين ، جمع فيه (١٦١ شاعراً) ، وافتتحه بذكر بشار بن برد ، وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح ،

---

(١) البغدادي : هدية العارفين ، (١/٢٦٧) .

(٢) مطبوع بتحقيق : أنطوان صالحاني ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٨٩١م .

(٣) تقوم دار الكتب المصرية بطبع الكتاب بأكمله . وكان قد خرج منه ثلاثة أجزاء : الأول سنة ١٣٦٤هـ ، والثاني ١٣٦٨هـ ، والثالث سنة ١٣٦٩هـ .

(٤) نشرته دار الكتب المصرية بالقاهرة ، سنة ١٣٦٩هـ .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٢٥٣ـ٢٥٤ . وقد أثنى النديم على أبي سعيد ، ووصفه بأنه : أحسن وجوّد في هذه الأعمال .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .

واختار فيه من شعر كل واحدٍ عيونه ، وهو من الكتب النفيسة . فقد مَخَّض أشعارهم ، وأثبت منها زُبدتها ، وترك زَبدها . وذكر ابن خلكان هذا الكتاب ، وقال : بأن ((كتاب « الخريدة » للعماد الأصفهاني ، وكتاب الحظيري ، والباخرزي ، والثعالبي فروع عليه ، وهو الأصل الذي نسجوا على منواله)) [١]. ولهارون أيضاً كتاب « اختيار الشعراء الكبير » [٢].

أما الوزير **أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح** (٢٩٦هـ/٩٠٩م) . فقد صنف كتباً عدة في الشعر والشعراء ، منها : كتاب « الورقة » [٣] في أخبار الشعراء . وقد تضمن الحديث فيه عن : (٦٣ شاعراً) من الشعراء المغمورين ، أو قالوا الشعر ولم يُعدوا في الشعراء [٤] . وله أيضاً ، كتاب « الشعر والشعراء » ، وكتاب « الأربعة في أخبار الشعراء » ، وكتاب « من سمي من الشعراء عمراً في الجاهلية والإسلام » [٥] .

وكان **أبو عبد الله محمد بن خلف المرزباني** (ت ٣٠٩هـ/٩٢١م) . ممن شارك في هذا المضمار بمجموعة من المؤلفات ، منها : كتاب « أخبار عبيد الله بن قيس الرقيات ومختار شعره » ، كتاب « المتيمين » ، كتاب « ألقاب الشعراء » ، كتاب « الشعر والشعراء » [٦] .

وصنف **أبو بكر محمد بن السري المعروف بابن السراج** (ت ٣١٦هـ/٩٢٨م) كتاب « العَروض » [٧] .

وقام **أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري** (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م) . بعمل عدة دواوين لفحول شعراء العرب ، وشرحها . منها : « ديوان زهير بن أبي سلمى » ، و « ديوان النابغة الجعدي » ، و « ديوان الأعشى » ، وكتاب « شعر الراعي » [٨] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٦/٧٨ ـ ٧٩) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٢٣٢ .

(٣) مطبوع بتحقيق : عبد الوهاب عزام ، وعبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٦م .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٥ . (مقدمة المحقق) .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٢٠٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

(٧) نشر بتحقيق : عبد الحسين الفتلي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ع١٥ ، ١٩٧٢م .

(٨) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٨/٣١٣) .

وكان **لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي** (ت ٣٣٥هـ/٩٤٦م) إسهام أيضاً في جمع الشعر ، وأخبار الشعراء . فهو أديب ، وشاعر مبرِّز في زمانه . ومن أهم ما وضعه في هذا الأمر : كتاب « الأوراق » ، وهو عبارة عن ثلاثة كتب في كتاب واحد ، الأول بعنوان « أخبار الشعراء المحدثين » ، والثاني « أخبار الراضي بالله والمتقي لله » ، والثالث « أشعار أولاد الخلفاء » (١) . وإن كان الكتاب الثاني يُصنف ضمن كتب التاريخ ، والسِّير ، ولكن أهميته تكمن في كشف الصولي عن الخليفة الراضي كواحد من شعراء العصر المشهورين .

وللصولي أيضاً ، كتاب « أخبار أبي تمام » ، وكتاب « العباس بن الأحنف ومختار شعره » ، وكتاب « شرح الحماسة » (٢) .

وهناك العديد من المصنفات لا يسمح المقام هنا بذكرها جميعاً ، إذ أن هناك من المُصنفين من صنَّف كتاباً واحداً فقط في هذا المضمار ، وهم كُثر ، ولذا آثرنا ذكر المشهورين ، ممن تميّز بوفرة الإنتاج في هذا الأمر .

إن عملية استقصاء جميع الشعراء البارزين في العراق خلال فترة نفوذ الأتراك يُعد ضرباً من المستحيل ، فالأسماء كثيرة جداً ، والشعر في ذلك الوقت لم يقتصر على فئة من العلماء ، والأدباء . فالشعر أصبح ، في ذلك الوقت ، نوعاً من الترف لا صناعة ، ولذا اشترك في نَظْم الشعر ، علماء اللغة ، والدين ، والمؤرخون ، وعلماء العلوم الصرفة ، واختلفوا فيما بينهم في الكثرة والقلة .

والذي يَعنينا في هذا المقام ، الأسماء التي اشتهرت في ميدان الشعر ، والغرض الشعري الذي اتسمت به .

ومن هؤلاء الشعراء ، **أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المعروف بعتاهية** (٢٤٤هـ/٨٥٨م) ، ووالده أبو العَتَاهيَة ، الشاعر المشهور ، وكان عَتَاهيَة شاعراً سلك طريقة

---

(١) مطبوع بتحقيق : ج . هيورث ، دار المسيرة ، بيروت . نشرت أجزائه الثلاثة منفردة . الكتاب الأول نشر عام ١٤٠١هـ/١٩٨٢م ، والثاني عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، والثالث عام ١٤٠١هـ/١٩٨٢م . ثم نُشرت جميعها في كتاب واحد بعنوان : « الأوراق » .

(٢) البغدادي : هدية العارفين ، (٣٨/٢) .

أبيه في نظم شعر الزهد . وأحد الفقهاء ممن تولى القضاء بُرهة ، وأخذ عنه الكبار ، كعالم الأنساب أحمد بن أبي خيثمة ، والحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا ، والمبرد ، وأبو إسحاق الحربي الحافظ ، وغيرهم [١] .

من شعر أبي عبد الله في الزهد ، قوله [٢] :

يالاهياً مُقبلاً على أملهْ	وطرفه للفناء في عملهْ
كَم لذَّة لامرىء يُسَرُّ بِها	لعلّها مِنه مُنتهى أجلهْ

ومن شعراء العصر البارزين أيضاً ، **أبو علي دعبل بن علي الخزاعي** (ت ٢٤٦هـ/٨٦٠م) . شاعر مطبوع ، مجيداً مُولعاً بالهجاء ، وأحد شعرائه المشهورين : وكان أستاذه في نَظْم الشعر مسلم بن الوليد الأنصاري . ولم يَسلم أحد من لسانه ، حتى الخلفاء ، والوزراء .

وإذا كان الهجاء غالب على شعر دِعْبِل ، فإن له أيضاً مديح ، وغزل جيدان . وتميّز شعره بجزالة المعاني ، والألفاظ ، ومتانةالتركيب .

وأجمع المترجمون له على خُبث لسانه ، وفُحش هجائه . الأمر الذي ألَّب عليه خصومه ، ونَشبت عداوة ، ومُهاجاة بينه وبين أبي سعد المخزومي الشاعر [٣] .

وصنّف دِعْبِل كتاب « طبقات الشعراء » [٤] ، وله « ديوان شعر » [٥] .

---

(١) انظر ترجمة عَتَاهِيّة في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٤/٢ ـ ٣٦) . القفطي : المحمدون من الشعراء ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ . الزركلي : الأعلام ، (٣٤/٦) .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٦/٢) .

(٣) انظر ترجمة دِعْبِل في : ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ص ٥٨٢ ـ ٥٨٤ . ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٨ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٨٢/٨ ـ ٣٨٥) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٩٩/١١ ـ ١١٢) .

(٤) المرزباني : الموشح ، ص ٣٤٤ .

(٥) جمع ضياء حسين الأعلمي أشعار دعبل من المصادر التاريخية ، والأدبية في كتاب بعنوان : « ديوان دعبل الخزاعي » ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م . أما ديوان دعبل الأصلي فهو مفقود .

ومن جيدِ شعره ، تائيته المشهورة في آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منها [١] :

مدارسُ آياتٍ خَلَتْ من تلاوةٍ	ومنزلُ وَحيٍ مُقفرُ العَرَصَاتِ
لآلِ رسول الله بالْخَيْفِ من مِنى	وبالرُّكنِ والتَّعريفِ والجَمَرَاتِ
ديارُ عليٍّ والحسينِ وجعفرٍ	وحمزةُ والسجَّادِ ذي الثَّفِنات

وممن عاصر دعبل الخزاعي من مشاهير شعراء العراق الهجَّائين ، **أبو الحسن علي بن الجهم القرشي** (ت ٢٤٩هـ/٨٦٣م) ، أحد المقتدرين على الشعر في عصره . اتصل بالخليفة المعتصم ، ثم المتوكل ، وكانت له عند الأخير مكانة رفيعة أفسدها الوُشاة ، فأبعده المتوكل إلي خُرَاسان سنة (٢٣٩هـ/٨٥٣م) .

وتميّز ابن الجهم في شعره بعدم التكلُّف ، وسهولة الألفاظ ، مع صفائها وشفافيتها، وجمال الجَرْس ، والأداء ، وقدرته على التصرف بالمعاني [٢] .

أما أشعار ابن الجَهْم ، فهي موزعة بين المديح ، والغزل ، والحكمة ، والفخر ، والوصف ، والهجاء .

وكان ابن الجَهْم مخلصاً للخلافة العباسية ، فخوراً بالتشيُّع لها ، فنراه يفخر بموطنه خراسان التي ناصرت العباسيين في دعوتهم ، وفي نفس الوقت يُبدي إخلاصه للعباسيين ، وهذا نراه في قوله للمتوكل [٣] .

مَذهبي واضحٌ وأصْلي خُراسا	نُ وعِزِّي بِعِزِّكُمْ موصولُ

---

(١) دعبل الخزاعي : الديوان ، ص ٥٩ . وفيه القصيدة كاملة ، ص ٥٦ ـ ٦٥ .

(٢) انظر ترجمة ابن الجَهْم في : ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص ٣١٩ . المسعودي : مروج الذهب ، (٤/١١١ ـ ١١٤) . المرزباني : معجم الشعراء ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١١/٣٦٧ ـ ٣٦٩) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/٣٥٥ ـ ٣٥٨) . ابن كثير : البداية والنهاية ، (١١/٤) .

(٣) ابن الجهم : الديوان ، ص ١٨٢ .

هذه السِّمة جعلت منه ، وخاصة في عهد المتوكل ، داعيةً لأعماله ، ممجداً لها ، حتى وصفه البعض [١] بأنه أداة إعلام للدولة العباسية في ذلك الوقت .

وعلى الرغم من إظهار ابن الجهم حبه للدين ، والسُّنة . إلا أنه كان مُنحرفاً عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وكانت جُل مدائح ابن الجهم في الخليفة المتوكل ، للصلة الوثيقة التي تربطه به ، وكذلك توافق وجهات النظر بينهما في الوقوف ضد أهل الاعتزال ، وأهل الذمة . وديوانه مليء بالقصائد التي يمدح فيها المتوكل ، ويلبسه الصفات الحسنة ، ويصفه بصورة رائعة في معانيها . ومن ذلك قوله في الرائية التي مدح بها المتوكل ، مصوراً أيضاً ، محاربته لأهل البدع والضلال ، كقوله [٢] :

به سلمَ الإسلامُ من كُل مُلحدٍ ... وحلَّ بأهلِ الزَّيْغِ قاصمةُ الظهرِ

إمامُ هدىً جَلّى عن الدين بعدما ... تعادتْ على أشياعهِ شيعُ الكفرِ

وعندما نُزعت ثياب ابن الجهم عنه بعد وفاته ، وُجِدَ فيها رقعة ، وقد كتب فيها [٣] :

يا رَحْمتاً للغريبِ في البلدِ النـ ... ـازح ماذا بنفسه صَنَعا

فارَقَ أحبابه فما انتَفَعُوا ... بالعيش من بعدهِ ولا انتَفَعا

ومن الشعراء الذين ظهروا خلال تلك الفترة ، وعُدُّو من أعلام الشعر العباسي ، **أبو الحسن علي بن العباس بن جريج المعروف بابن الرومي** (ت ٢٨٣هـ/٨٩٦م) ، أحد الشعراء الذين وضعوا لشعرهم رسماً واضحاً وخطاً بيِّنا ، إذا قُرِيء شعره عُرف بأنه لابن الرُّومي . ولد ، ونشأ ببغداد . وقد عاصر تسعة من الخلفاء ، من المعتصم وحتى المعتضد [٤] .

---

(١) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص ٢٥٨ .

(٢) ابن الجهم : الديوان ، ص ١٣٩ ــ ١٤٠ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/٣٥٦) .

(٤) انظر ترجمة ابن الرومي في : المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٢٨٣ ــ ٢٨٤) . المرزباني : معجم الشعراء ، ص ١٢٨ ــ ١٣٠ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٢/٢٣ ــ ٢٦) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/٣٥٨ ــ ٣٦٢) .

كان ابن الرومي مضطرب النفس ، لا يملك أعصابه ، فظهرت عليه أربعة أعراض بعضها تابع لبعض وهي : الطيرة ، والتشاؤم ، والغرور ، وسوء المخالفة للناس .

وهذا كله قد أعطاه من الحياة صورة رديئة . فقد كان كارهاً للحياة ، ويعتقد بأنه مظلوم فيها ، فهو أبداً يشكو إدبار الدُّنيا عنه وإقبالها على مَنْ هُم أقل منه كما يرى ، كما كان سيء المعاشرة للنـاس ، كثير التوثب عليهم ، يهجوا الأكابر ، وينابذ الأصدقاء ، حتى قطعه الناس ، وكرهه من كان له محباً [١] .

أما فنون ابن الرومي وأغراضة فكثيرة جداً ، منها : المديح ، والعتاب ، والفخر ، والهجـاء ، والغـزل ، والحكمـة ، والرثاء ، والوصف . وقد امـتـاز في مـعظم هذه الفنون ، وخصوصاً في الأغراض الوجدانية ، كالغزل ، والرثاء ، والوصف . وتميّز شعر ابن الرومي بالعمق في المعانـي لدرجـة المبالغـة ، ولـذا تميَّزت قصائده بأنها طويلة . وكان لا يتكلف في شعره [٢] .

ويغلب الوصف والتشبيه على شعر ابن الرومي ، فقد أجاد في وصف الطبيعة بما فيها من مخلوقات ، ووصف المآكل ، والمشارب [٣] .

وشعر ابن الرومي في الطبيعة ، يقف فيه موقف الإنسان الشاعر ، الذي يجد في الطبيعة صورة نفسه ، ومن ذلك : قوله في وصف الغروب [٤] .

وقد رَنَّقتْ شمسُ الأصيل ونَفضتْ　　　على الأفقِ الغربي ورساً مذعذعا

ووَدَّعـتْ الدُّنيـا لتقضـيِ نَحْبهـا　　　وشـوّل باقـي عمرهـا فتَشَعْشَعَا

---

(١) أبو العلاء المعري : رسالـة الغفـران ، ص ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨١ . ويصـور ابن القـارح في رسالته (ص ٤٠) [الملحقة برسالة الغفران] ، شدة تطيُّر ابن الرومي ، وأنها سبب علِته التي مات منها . وأيضاً انظر : ابن رشيق : العمـدة فـي صناعـة الشعر ونقده ، (٥٤/١) . ومثالاً على ذلك ، انظر في : ديوانه (١٧٣/١) .

(٢) المرزباني : معجم الشعراء ، ص ١٢٨ .

(٣) الحصري : زهر الآداب ، (٣٤٢/٢/١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨) .

(٣) ابن الرومي : الديوان ، (١١٦/٤) .

أما رثاء ابن الرومي ، فكان مصدره المعاناة الاجتماعية التي عاش فيها ابن الرومي من جـراء فَقْدِه لكثـير من أفراد أسرته وهو على قيد الحياة ، فقد تُوفيت أمه ، وأخوه ، وزوجته ، ومعظم أولادة أيضاً ، فعاش في معاناةٌ مزمنة ، صاحبته حتى فاته .

ومن جيد رثاء ابن الرومي ، مرثيته في ابنه الأوسط محمد ، وهي أجمل مرثية ، كما يذكر ذلك مؤرخوا الأدب ، ويقول في مطلعها [١] :

بُكاؤ كما يُشفي وإن كان لا يُجدي	فجودا فقد أُودي نظيركما عندي
بُنَيَّ الذي أهدتـه كفّـاى للثّـرى	فيا عزَّةَ المُهْدَى ويا حسرة المُهْدِي
تُوخىّ حمامُ الموتِ أوسطَ صبيـَتي	فللهِ كيـف اختـارَ واسطـة العَقدِ

ويقول في آخرها :

ومن كان يَستَهـدي حبيباً هديـةً	فطيفُ خيالٍ منك في النومِ أستهدي
عليكَ سـلامُ اللـهِ مـني تحيـةً	ومـن كلِ غيثٍ صادقِ البرقِ والرعدِ

ولم يكن لابن الرومي ديوان جامع لشعره . وإنما رواه عنه المُسَيَّبي ، ثم عمله أبو بكر الصُّولي ، ورتَّبه على الحروف ، وجمعه أبو الطيب ، ورّاق محمد بن عبدوس الجَهْشياري ، من جميع النسخ ، فزاد على كل نسخة مما هو على الحروف ، وغيرها نحو ألف بيت [٢] .

ومن شعراء البيت العباسي المبرِّزين ، **أبو العباس عبد الله بن المعتز** (ت ٢٩٦هـ/٩٠٩م) ، وكان أديباً ، شاعراً ، مصنفاً ، ناقداً ، ممن يجيد النظم والنثر ، واسع بثقافة عصره .

أخذ علوم الدين ، واللغة ، والأدب ، عن كبار مشايخ عصره ، كصعودا ، والمبرد ، وأبي جعفر بن زياد الضبى ، صاحب القراءات والنحو ، وأبي الحسن الدمشقي ، وكان

---

(١) المصدر السابق ، (٥٢/٥ ـ ٥٤) .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣٥٨/٣) .

مؤدبه ، وأبي علي الغزي ، وثعلب . كما أخذ اللغة عن الأعراب الفصحاء ، الذين كانوا يقدمون إلى سُرَّمَنْ رأى [١] . وكان محباً للعلم ، والعلماء ، مُقدِّماً لهم . وكانت داره مغاثاً لأهل العلم والأدب .

لقد كان لنشأته العلمية الأثر الكبير في بروزه كأحد أدباء عصره المشهورين ، وأصبحت له منزلة شريفة في الشعر ، جعلت من ترجموا له يثنون عليه ، وعلى شعره . فقد قال الصولى عنه : ((شاعر مفلق ، حسن الطبع ، واسع الفكر ، كثير الحفظ ، والعلم ، يُحسن فَنَّي : النظم ، والنثر ، من شعراء بني هاشم المتقدمين ، وعلمائهم)) [٢] .

وكانت ثقافة ابن المعتز عربية إسلامية صرفة ، لم تتأثر نفسه بالنهضة الفكرية العباسية القائمة ، ولا بالثقافة الجديدة المحدثة ، وإنما كان تأثرها بالترف المادي الذي كان يعيش فيه من جهة ، وبالمآسي التي مرت به ، كقتل أبيه ، ونَفْيه مع جدته « قبيحة » إلى مكة، وحالة الاضطراب التي يعيشها القصر العباسي ، حيث سطوة الأتراك وأمراء الجيش على الحياة بداخله من جهة أخرى ، فظهرت صورة ذلك كله في شعر تَجلت فيه نعومة العيش وترفه ، وعبقت منه رائحة الأسى والحزن .

وكان ابن المعتز في شعره ، قريب المأخذ ، سهل اللفظ ، جيد القريحة ، حسن الإبداع للمعاني ، والاختراع لها ، مع رِقة في الأسلوب منشأها حياة النعيم التي كان يعيش فيها [٣] .

أما فنونه الشعرية ، فهي : الفخر ، والمدح ، والرثاء ، والهجاء ، والوصف ، والغزل ، والزهد ، والعتاب [٤] .

---

(١) انظر ترجمة ابن المُعْتز في : الصولي : أشعار أولاد الخلفاء ، ص ١٠٧ ـ ١١٧ . المسعودي : مروج الذهب ، (٢٩٣/٤ ـ ٢٩٥) . النديم : الفهرست ، ص ١٨٦ . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٧٦ ـ ١٧٧ . ابن خلكان : وفيات الأعيان (٧٦/٣ ـ ٨٠) . الحصري : زهر الآداب ، (٢١٩/١/١ ـ ٢٢٠) .

(٢) الصولي : أشعار أولاد الخلفاء ، ص ١٠٧ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ، (٢٩٣/٤) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٧٦/٣) .

(٤) الصولي : أشعار أولاد الخلفاء ، ص ١١٣ . وأورد الصولي في كتابه (ص ١٠٩ ـ ٢٩٦) ، العديد من القصائد ، والمقطوعات الشعرية لابن المعتز في أغراضٍ شتى .

ولقد طرق ابن المعتز هذه الفنون المختلفة ، ولكن الفن الذي عُني به عناية خاصة ، وأنفق فيه جهداً حقيقياً هو : الوصف . وكان شغوفاً به ، وخاصة الوصف المادي للأشياء الجميلة ، وهو ما يتلائم مع مزاجه المترَف ، فهو يقول الشعر إرضاءً لنفسه ، وتصويراً لِحسِّه ، فبُرىء من كذب المدح ، ولؤم الهجاء ، الذي لم يكن يحتاج إليه ، فانصرف إلى وصف الطبيعة ، ومجالس الأنس ، والقصور ، والأديرة ، ومطاردة الصيد ، ومراسله الإخوان [١] . ومن ذلك قوله يصف الهلال [٢] :

وانظرْ إليه كزورقٍ من فضةٍ ... قد أثْقَلَتْهُ حُمولةٌ من عَنْبرِ

وكانت لابن المعتز عناية خاصة بالشعر التعليمي ، والذي يذهب فيه الشعراء مذهب التعليم ، كما مرَّ معنا في بداية هذا المبحث ، وكانت تربطة بالمعتضد روابط وشيجة ، وله فيه مدائح كثيرة ، فكان أكثر الخلفاء مدحاً من قِبل ابن المعتز [٣] .

ولا يقل نثر ابن المعتز ، كما سنرى فيما بعد ، عن شعره في نقاء الأسلوب ، وجودة اللفظ ، ودقة التخيُّل وله رسائل نثرية إخوانيه مع بعض رجال عصره ، لا تخلو من الدُّعابة ، والمعاتبة ، والتهنئة ، وغير ذلك من الأغراض .

ولم يكن ابن المعتز ، مجرد شاعر وناثر فقط . بل كان أحد المؤلفين في الأدب ، بفضل جهوده في التأليف الخاص بالنقد الأدبي ، وما وضعه من مؤلفاته في هذا الشأن ، كما سنرى في موضوع النقد الأدبي .

وفي باب التأليف ، وضع ابن المعتز مصنفات عدة . منها : كتاب « الزهر والرياض » ، كتاب « أشعار الملوك » ، كتاب « الجوارح والصيد » ، كتاب « الآداب » ، كتاب

---

(١) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، ص ١٥٩ . أحمد الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ٢٠٥ .

(٢) ابن المعتز : الديوان ، ص ٢٤٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

« حلى الأخبار » <١> ، كتاب « فصول التماثيل في تباشير السرور » <٢> ، كتاب « طبقات الشعراء » <٣> ، وهو أجلُّ كتب ابن المعتز ، وأكثرها شهرة ، يعرض فيه ألواناً من الشعر لطائفة من الشعراء المُحْدَثين ، أو شعراء الدولة العباسية ، حيث يجمع أشتاتاً من أخبارهم ، ونوادرهم . ولهذا ، كان كتابه من أعظم المصادر التي لا يستغني عنها مؤرخ ، أو أديب . ولا نجد في غيره ما اشتمل عليه ، فقد أثبت أشعاراً تزيد على (ألف وخمسمائة بيت) لا توجد في كتاب سواه <٤> .

وينفرد ابن المعتز بأخبار لا توجد في غيره من المصادر ، فهو على سبيل المثال ، ينفرد بوصف نثري رائع لما كان عليه مجلس الخليفة الأمين ، وما كان فيه البرَامِكة من ترفٍ ونعيم <٥> .

كما برز من الشعراء خلال فترة نفوذ الأتراك ، **أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن بسام** (ت ٣٠٢هـ/٩١٥م) . وكان شاعراً ، وكتباً منشئاً ، ومترسلاً ، وأديباً مصنفاً للكتب ، ولكن الشعر كان الغالب عليه ، وهو من بيت كتابة ، فجدُّهُ نَصْر بن بسام كان يتولى دواوين : الخاتم ، والنفقات ، والأزمة ، أيام الخليفة المعتصم . وعاش في بيت اشتهر بالوجاهة والغنى .

وكان ابن بسَّام لَسِناً ، فصيحاً ، نشأ هجاءً ، خبيث اللسان ، لم يَسلم منه خليفة ، ولا أمير ، ولا وزير ، ولا رجل من جلة الناس وأفاضلهم . حتى أبيه ، وإخوته ، وسائر أهل

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ١٨٦ .

(٢) نشر بتحقيق : جورج قنازع ، وفهد أبو خضرة ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م . وهو كتاب يبحث عن الشراب ، وخصائصه ، وأدواته ، وآدابه ، وعاداته ، وعن تحليله ، وتحريمه . وهو إلى جانب ذلك ينقل كثيراً من أقوال الحكماء ، والأطباء ، التي تدور حول أصناف الشراب ، وأحواله ، وتأثيره على الإنسان .

(٣) مطبوع بتحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٦م .

(٤) ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص ٥ . (مقدمة المحقق) .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

بيته ، لم يسلموا من هجائه [١] . بل له قصيدة جمع فيها رؤساء الدولة في ذلك العصر . ومنها قوله [٢] :

أيرجو الموفقُ نَصْرَ الإلهِ ... وأمرُ العبادِ إلى دانية

وظلَّ ابن بُلْبُلِ يُدْعَى الوزير ... ولم يَكُ في الأعصر الخالية

وإسحاق عمران يدعى الأمير ... لداهيــة أيمــا داهيــة

فهذي الخلافة قد ودَّعتْ ... وظَلَّتْ على عرشها خاوية

ومن الطريف ، أن الخلفاء والوزراء كانوا يَتَّقون هجاءه بالصلات ، والجوائز . وفي بعض الأحيان بالمناصب ، كما فعل الوزير القاسم بن عبيد الله عندما ولاَّه بريد الصَّيْمَرة [٣] ليكُفَّ عن هجائه [٤] .

وروى عن ابن بسَّام آدابه : أبو بكر الصولى ، وأبو سهل بن زياد ، وغيرهم [٥] . وكان لابن بسَّام مصنفات تُبرز شخصيته كأحد الشعراء الكتَّاب. منها : كتاب « ديوان رسائله » ، كتاب « مناقضات الشعراء » ، كتاب « أخبار الأحوص » ، كتاب « أخبار عمر بن أبي ربيعة » ، كتاب « المعاقرين » [٦] .

---

(١) انظر ترجمة ابن بَسَّام في : ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص ٣٨٦ . المسعودي : مروج الذهب ، (٢٩٧/٤ ـ ٣٠٤) . النديم : الفهرست ، ص ٢٤٢ . المرزباني : معجم الشعراء ص ١٣٥ ـ ١٣٦ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٣٩/١٤ ـ ١٥٢) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣٦٣/٣ ـ ٣٦٦) . الصفدي : الوافي بالوفيات ، (١٤٩/٢٢ ـ ١٥٢) . اليافعي : مرآة الجنان ، (٢٣٨/٢ ـ ٢٣٩) .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ، (٢٩٨/٤) . الثعالبي : خاص الخاص ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

(٣) الصَّيْمَرة : إحدى مدن إقليم الجبال الغربية على طريق (همدان ـ بغداد) . وهي مدينة ذات صبغة زراعية وفيرة . الإصطخري : مسالك الممالك ، ص ٢٠٠ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٤٣٩/٣) .

(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٤٥/١٤) .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٦٣/١٣) .

(٦) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٤١/١٤ ـ ١٤٢) .

ومن شعراء البصرة الذين اشتهروا في ذلك الوقت ، **أبو القاسم نصر بن أحمد البصري المعروف بالخبزأرزي** (ت ٣٣٠هـ/٩٤٢م) ، أحد الشعراء الظرفاء المطبوعين ، المجوِّدين على البديهة .

وكان أبو القاسم أُمِّياً ، لا يقرأ ولا يكتب ، وكان خبّازاً يخبز خبز الأُرْز في دكانه بسوق « المِرْبَد » في البصرة ، فكان يخبز وهو ينشد الشعر ، والناس يجتمعون حوله ، ويزدحمون عليه ، للاستمتاع بشعره ، وهم يتعجبون من حاله وأمره .

وأصبح دكانه مقصد أصحابه من كبار شعراء البصرة ، كأبي عبد الله الأكْفَاني ، وأبي الحسين بن لَنْكَكْ ، وأبي عبد الله المُفَجَّع البصري ، وأبي الحسن السَّمَّاك ، وغيرهم . فكان دكانه أشبه بالمنتدى ينشدون فيه أشعارهم ، ويردُّون على أبي القاسم في الأبيات التي يَنْظمها وهو جالس يخبز على طابقه . وكان ابن لَنْكَكْ ، مع علو قدره يجلس إليه ويتردد على دكانه . وكانت بينهما مَودَّة أكيدة (١) .

وكان أبو القاسم مشهوراً بالظرف ، والملاحة ، فعندما جاءه ابن لَنْكَكْ وجماعة الشعراء المذكورين آنفاً في يوم العيد يهنئونه ، كان مشغولاً بإيقاد الحطب تحت الطابق ، فزاد في الوقود وانتشر الدخان في المكان ، فنهضوا حين تزايد الدخان ، فقال أبو القاسم لابن لَنْكَكْ : متى أراك يا أبا الحسين ؟ ، فقال له : إذا اتسخت ثيابي . فمضى في طريقه ، وحدثت مكاتبات شعرية بينهما حول هذا الموقف ، مُعرباً كل واحدٍ منهما في أبياته ما يحمله للآخر من محبة وودٍّ كبيرين (٢) .

وعُني ابن لَنْكَكْ بجمع شعر أبي القاسم في ديوان (٣) ، وأكثر شعره في الغزل . وله بعض المقطوعات في عدد من الأغراض الوجدانية .

---

(١) انظر ترجمة الخُبْزَأُرْزي في : المسعودي : مروج الذهب ، (٣٥٢/٤ ـ ٣٥٣) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٩٦/١٣ ـ ٢٩٩) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢١٨/١٩ ـ ٢٢٢) . الثعالبي : يتيمة الدهر ، (٤٢٨/٢ ـ ٤٣٢) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣٧٦/٥ ـ ٣٨٢) .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٩٨/١٣ـ٢٩٩) . وسترد نماذج من هذه المكاتبات عند الحديث عن موضوع : الرسائل الإخوانية في الصفحات المقبلة .

(٣) نشر بتحقيق : محمد حسن آل ياسين ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج ٤٠ ، ج١ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، ص ٩٢ ـ ١٣٦ .

وتميّز شعر الخُبْزَأُرْزي بالرِقَّة ، وسهولة التراكيب ، وموافقة معانيه لعامة الناس ، ولذا أصبح شعره يدور على كل لسان ، سواء من عامة الناس ، أو خاصتهم [١] . ويبدوا على بعضه بشكل واضح أنه من وحي الساعة ، أو ما يشبه الارتجال ، وهو ما حَمل النديم على أن يصف شعر الخُبْزَ أُرْزي بأنه ((رقيق الألفاظ ، غير بصير بصناعة الشعر)) [٢] .

ومن شعره في الحكمة ، قوله [٣] :

إذَا مـا لسـانُ المَرْءِ أُكْثِرَ هَذْرُهُ ... فَذَاكَ لسـانٌ بالبـلاءِ مُوَكَّلُ

إذا شِئتَ أن تَحْيَا عَزِيزاً مُسَلَّماً ... فَدَبِّرْ ومَيِّزْ ما تَقـولُ وتَفعلُ

ومما يؤسف له ، أن نجد نقصاً كبيراً في تاريخ هذا الشاعر ، وسبب ذلك قلة المعلومات عنه ، وابتعاد المؤرخين عن رصد تفاصيل سيرته ، لأنه لم يكن من تلك « الفئة » التي تستأثر عادة باهتمام المؤلفين ، والجامعين للأخبار في ذلك الوقت . فقد سكتت المصادر عن أخبار هذا الشاعر بعد قدومه بغداد سنة (٣٢٥هـ/٩٣٧م) ، ولم تذكر عنه شيئاً بعد ذلك .

ويبقي **أبو بكر محمد بن يحيى الصولي** (ت ٣٣٥هـ/٩٤٧م) . أحد أبرز الأدباء الشعراء ، الذين ظهروا خلال فترة نفوذ الأتراك . فهو من بيت كتابة وشعر ، تقلَّد أصحابه كثيراً من الأعمال السلطانية ، كعمه إبراهيم بن العباس الصُّولي الكاتب ، الذي كان أكبر كاتب في دواوين المتوكل .

ولقد نشأ أبو بكر ببغداد نشأةً علميةً مبكرةً . فتتلمذ على جماعة من علماء عصره ببغداد من المحدثين ، والفقهاء ، واللغويين ، والإخباريين ، والأدباء ، والشعراء ، ومن هؤلاء العلماء ، والأدباء : أبي داود السجستاني ، والمبرد ، وثعلب ، وأبو الحسن الدارقطني ، وجماعة سواهم .

---

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ، (٤٢٨/٢) . عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، (٤٣٠/٢ ـ ٤٣١) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٢٧٧ .

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٢١/١٩) .

فشب الصُّولي شاعراً ، عالماً بفنون الأدب وحفظها ، حسن المعرفة بأخبار الملك ، والخلفاء ، ومآثر الأشراف ، وطبقات الشعراء . واسع الرواية ، حاذقاً بتصنيف الكتب ، ووضع الأشياء منها في مواضعها ، جمَّاعاً لها . وكانت خزانة كتبه وجمال ترتيبها حديث معاصريه . فأصبح الصُّولي مطلباً للخلفاء منذ عهد المعتضد .

ونتيجة لاتصاله بالخلفاء ، فقد بلغ الصُّولي من الثراء درجة عالية ، فعاش في رغد من العيش ، لما كان يصله منهم من الصلات ، والجوائز ، والخُلَع [١] .

وكان الصُّولي شاعراً مكثراً ، وله مقدرة فائقة ، وقدم ثابتة ، وشعره ، وإن لم يمكن في المرتبة الأولى ، إلا أنه قوي عذب ، لا تنقصه جزالة الصياغة ، ولا روعة الخيال . وأكثر شعر الصولي يدور حول المديح ، الذي يَتكسَّب من خلاله الشعراء ، والغزل ، وإن كان شعره في المديح أكثر [٢] .

ومما يؤسف له ، أن ديوانه لم يصل إلينا ، وإنما وصلت إلينا طائفة من شعره منبثة في بطون كتب الأدب .

ومن مدائحه في الخليفة الراضي قوله [٣] :

خَليفةٌ أُكمِلَتْ فَضائِلُهُ	فَفرْعُهُ طيِّبٌ ومَحْتِدُهُ
تَعَبَّدَ المَجدَ فهو يَمْلِكُهُ	طَارِفُهُ عِنْدَهُ ومُتْلَدُهُ
سيفٌ على مَنْ عَصَاك مُتَّقِدٌ	تُطْغي بهِ طُغْيانَهُ وتُغْمِدُهُ

ويظل كتاب « الأوراق » أبرز وأشهر مصنفات الصُّولي مع كتابه « أدب الكُتَّاب » في تاريخ الأدب العربي . وسبق لنا الحديث عن الأول ، أما الثاني فسيأتي الحديث عنه في

---

(١) انظر ترجمة الصُّولي في : النديم : الفهرست ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ . المرزباني : معجم الشعراء ، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣/٢٤٧ ـ ٤٣٢) . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص٢٠٤ ـ ٢٠٦. ابن الجوزي : المنتظم ، (٦/٣٥٩ ـ ٣٦١) . القفطي : إنباه الرواة (٣/٢٣٣ ـ ٢٣٦) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٩/١٠٩ ـ ١١١) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤/٣٥٦ ـ ٣٦١) .

(٢) القفطي : إنباه الرواة ، (٣/٢٣٣ ، ٢٣٤) . شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص ٣٨٥ .

(٣) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ١١١ ـ ١١٤ .

موضوع النثر . ومن مصنفات الصُّولي الأخرى : كتاب « الوزراء » ، كتاب « العبادة » ، كتاب « الشبان » ، كتاب « رمضان » ، كتاب « الشامل في علم القرآن » ، ولم يتمه ، كتاب « الغرر » [١] .

وفوق ذلك كان الصُّولي أحد مصادر كبار أدباء عصره فيما يُوردِونَهُ في مصنفاتهم الشهيرة . كأبي الفرج الأصفهاني ، الذي يروي في كتابه « الأغاني » نحو : (ثلثمائة خبر) عن الصولي [٢] . أما أبو عبد الله المرزباني ، فإننا نراه في كتابه « المُوشَّح » يروي الكثير من الأخبار عن الصُّولي أيضاً ، بلغت نحو : (٢٦ خبراً) [٣] .

٢ ــ النثــــر :

عند أُفول القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي ، وبزوغ فجر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، أصبح النثر يقف جنباً إلى جنب مع الشعر ، فلم يبق الشعر اللسان الوحيد الذي يترجم حال الأمة في ذلك الوقت ، بل أصبح النثر ، الذي استأثر بالحياة العقلية ، الميدان الفسيح لتصوير الوضع الراهن في ذلك الوقت ، بصورة أكثر شمولية ، ودقة ، وموضوعية من الشعر [٤] .

والنثر هو ذلك اللون من التعبير الذي يلجأ إليه الكاتب ، أوالمتكلم لإثارة المتعة الأدبية في نفس القاري ، والسامع ، ليدركا ما أدركه ، ويشعرا بشعوره [٥] .

وللنثر صور عدة شهدتها الساحة الأدبية في العراق خلال فترة النفوذ التركي ، هي :

أ ــ الخطابة :

لقد كان للخطابة السياسية والدينية ، قبل هذا العصر ، مكانة في النفوس ، وأثر في قلوب الأمة ، وكان للخلفاء الأولين من القدرة في السيطرة على الأمور ما جعل للخطابة

---

(١) النديم : الفهرست ،ص ٢٤٣ .

(٢) الصولي : أخبار الشعراء المحدثين ، ص (ى) مقدمة المحقق .

(٣) انظر : الموشح ، على سبيل المثال ، ص ٥٩ ، ٧٦ ، ٩٠ ، ١٣٤ ، ١٧٢ ، ٢٢٦ ، ٢٤٥ ، ٣١٦ ، ٣٦٥ ، ٤٠٤ ، ٤١٧ .

(٤) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، ص ٥٢ ــ ٥٦ .

(٥) محمد حجاب : بلاغة الكتاب ، ص ٥٠ ، ٨٠ .

شأناً رفيعاً في تفعيل دورها في توعية الخليفة لرعيته ، وبَثُّ روح الحماس في قلوبهم ، وقلوب الجيش .

ومنذ سيطرة الأتراك والموالي على مقاليد السلطة والجيس ، قلَّ النِّضال بالسنان واللسان ، وضعفت الخطابة على ألسن الخلفاء ، لضعف القدرة عليها ، وقلة الدواعي إليها ، والأمر بيدِ العجم لا العرب ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، كما تقول الحكمة المشهورة . فلم يكن الخليفة يملك قوة التأثير في أمته حتى لو اتيحت له فرصة الخطابة .

ولم يكن يخطب من خلفاء تلك الفترة سوى الخليفة المهتدي ، الذي كان يطمح أن يكون عمر بن عبد العزيز العباسيين ،فكان يذهب إلى المسجد الجامع بسُرَّمَنْ رأى كل جمعة، ويخطب في الناس ، ويَؤُمهم (١) . وقد حاول كلاً من : المعتضد في عيد الفطر ، والراضي ، أن يفعلا مثله ، ولكن لم تُؤثِّر خطبهم (٢) . ولم يُؤثَر عن غير هؤلاء الثلاثة أن أحداً من الخلفاء الآخرين من كان يخطب في محفل ، أو يوم الجمعة .

أما الخطب الدينية العامة ، فقد ظلت مزدهرة في المساجد ، وفي خطب الجمع والعيدين ، ونشطت نشاطاً كبيراً ، فقد كانت تعقد حلقات للوعَّاظ ، والقصّاصين ، وكان الناس يجتمعون حولهم .

فكانت الخطابة الوعظية تؤدي دورها في تهذيب النفس ، وردعها عن غيِّها ، والتأليف بين القلوب . وكان هؤلاء الوعَّاظ ، والقصَّاصين موضع اهتمام الدولة ، ورعايتها .

أما القصَّاصين الذين كانوا يجلسون للناس في الطرقات ، ويَقصُّون عليهم من الأخبار الهزلية ، والمبتذله ، فكانت الدولة تقف لهم بالمرصاد . فقد أصدر الخليفة المعتمد أمره سنة (٢٧٩هـ/٨٩٢م) ، يقضي بمنع جلوس هؤلاء القصَّاصين في الطرقات ، وملاحقتهم ، وإلقاء القبض عليهم (٣) .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، (١٨٣/٤) .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٣١/١٠) . شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص ٥٢٦ ـ ٥٢٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، (٤٥٣/٧) .

ب ــ الكتابة الفنية :

تعد الكتابة مرآة العقل ، وتتأثر بما ينال المدارك ، والمشاعر من عوامل ، ومؤثرات حضارية ، مادية ومعنوية .

ولقد كان للوضع الجديد الذي عاش فيه العراق خلال فترة نفوذ الأتراك ، أثر عظيم في إفساح المجال أمام الكتّاب ، الذين أخذوا في ترويض أقلامهم على كل فن ، ويجولون بها في كل ميدان ، معتمدين على بلاغتهم في التعبير عما يجيش في نفوسهم ، ومتأثرين بالروافد الفكرية الجديدة في تعابيرهم ، وألفاظهم ، وفي الموضوعات التي يتناولونها .

فازدهرت الكتابة في هذا العصر لكثرة الدواعي إليها ، وقوة الحافز عليها ، ولم تعد الكتابة مقصورة على إنشاء رسائل الدواوين فقط ، ولكن تجاوزتها إلى أغراض شتى : كالإخوانيات ، والقصص ، والتوقيعات ، والعهود ، وإنشاء الكتب في مختلف الموضوعات ، وغيرها من المجالات التي لم يكن للكتابة بأكثرها سابق عهد . وزاحمت الخطابة ، والشعر في دواعيهما ، وأغراضهما [١] .

فأصبحت الكتابة بذلك ، في بعض جوانبها ، أكثر من الخطابة ، والشعر في التأثير على المجتمع ثقافياً ، وفكرياً . فهي أشمل في تناول القضايا ، وما تفرزه ظروف العصر ، والتعبير عنها بصورة قريبة من أذهان العامة ، مما لا يتوفر في الشعر ، والخطابة .

ومنذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، مال الكتّاب ، وخاصة كتّاب الدواوين ورسائل الخلفاء ، إلى الإسهاب ، والاستطراد ، والترادف ، كما أخذ الكتّاب يعنون بالسجع ، واستخدموه لتجميل بعض الجُمَل بتعابير موسيقية موزونة ، ومالوا إلى تضمين رسائلهم الأشعار والأمثال ، ورأوا أن التكرار في اللفظ أبلغ للمعنى [٢] .

١ ــ الرسائل الديوانية :

كانت الدواوين ، منذ أن انتقلت عاصمة الخلافة إلى سُرَّمَنْ رأى قد استقرت أسسها ، وكانت تقابلها دواوين فرعية في المدن الكبيرة ، كما كان للوزراء والقُوَّاد ، وحتى نساء الخلفاء والأمراء ، دواوين خاصة بهم .

---

(١) محمد حجاب : بلاغة الكتاب ، ص ١٠٩ ــ ١٢٧ .

(٢) ابن قتيبة : أدب الكاتب ، ص ١٦ . أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٣٢٥ ــ ٣٢٦ .

هذا التنوع في الدواوين أدى إلى تنوع الكتَّاب ، فأصبح هناك كتَّاب الخراج ، وكتَّاب النفقات ، وكتَّاب الجيش ، وكتَّاب البريد ، وكتَّاب الضياع ، وكتَّاب الرسائل ، وكاتب لديوان الوزير ، أو القائد ، وكاتب لأم الخليفة ، أو زوجته ، وهكذا .

هذاالأمر أدى إلى نشاط الكتابة ، وأصبحت هذه الوظيفة ، مع مرور الوقت ، من أرقى الوظائف التي يستطيع صاحبها أن يحقق لنفسه الجاه ، والمال . مما جعل لكاتب الديوان ، ولا سيما ديوان الرسائل ، مكانه مرموقه في الدولة ، اكتسبها من طبيعة عمله ، فهو الرجل الأول في الديوان الذي يتولى مهمة الكتابة فيه ، وكاتم سرِّه ، والمسيطر على ما يحدث فيه ، وكثيراً منهم من وصل إلى منصب الوزارة .

ولكن يبقى كتَّاب ديوان الرسائل ، هم أساطين البلاغة والبيان ، لأن كتابة غيرهم من كتاب الدواوين الأخرى لا تعتمد على فنٍ ، ولا تقوم على ذوق .

وتأتي هذه الأهمية من أهمية الديوان نفسه ، فمن المعروف ، أن هذا الديوان يختص بتحرير كتب الخليفة ، وأوامره إلى الولاة ، والقواد ، وكبار الموظفين ، وكتب التقليد ، وتحرير الرسائل السياسية الموجَّهة إلى ملوك الدول الأجنبية ، فهو لذلك أخطر الدواوين ، حيث يصدر صاحب الديوان الكتب بعد أن يختم عليها بخاتم الخليفة ، إذاً أسرار الدولة محفوظة لديه .

ولأهمية هذا الديوان في شؤون الخلافة ، فإن هناك شروط دقيقة ، ومهمة لابد أن تتوفر في الرجل الذي يتولى هذه المهمة ، استوعبها قُدامة بن جعفر في الرسالة التي وجَّهها إلى الكتَّاب ، وأهمها : أن يكون كتوماً للأسرار ، صاحب ثقافة عالية تساعده أثناء كتابة الرسائل ، وأن يكون على قدر كبير من البلاغة والبيان ، وغيرها من الصفات [١] .

ومنذ الربع الأول من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي أخذ كتَّاب الرسائل الديوانية يصطنعون السجع في جوانب من رسائلهم على نحو ما نراه من الرسالة التي كتبها سعيد بن عبد الملك كاتب الخليفة المهتدي في التنويه بخروج الخليفة في عيد الفطر ،

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص ٢٥ .

وخطبته في ذلك اليوم . فيقول فيها ((... فأدام الله صلاحها (الأمة) ، ولا أخلاها من بركة رعايته ، ومن ولايته وسياسته ، ولا زالت في كَنَف السلامة بسلامته ، وظِل العافية بعافيته ، وعلى سبيل نجاة هدايته ...)) [١] .

وبنهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، وبداية القرن الرابع ، أصبحت الرسائل الديوانية تُوشَّى بالسَّجع ، وتخرج مسجوعة بالكامل منذ خلافة المقتدر (٢٩٥ـ٣٢٠هـ/٩٠٨ـ٩٣٢م) [٢] . ومن ذلك كتاب الوزير علي بن الفرات عن المقتدر في إسقاط المواريث ، نسخته : ((بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين المقتدر بالله يُؤثر في الأمور كلها ما قرَّبه من الله عزَّ وجلْ ، واجتلب له جزيل مثوبته ، وواسع رحمته ، وحسنته ، العائدة على كافة رعيته ، كما جعل الله في طبعه ، وأولج في بيته من التعطف عليها ، وإيصال المنافع إليها ، وإبطال رسوم الجور التي كانت تعامل بها ، جارياً مع أحكام الكتاب والسُّنة ، عاملاً بالآثار عن الأفاضل من الأئمة ، وعلى الله يتوكَّل أمير المؤمنين ، وإليه يفوض ، وبه يستعين ...)) [٣] .

وظهر خلال تلك الفترة العديد من كتَّاب الدواوين ، الذين برزوا في ميدان الكتابة الديوانية ، منهم من تقلَّد رئاسة ديوان الرسائل للخلفاء ، ومنهم من تبوّأ منصب الوزارة ، حتى لنجد أحمد بن إسماعيل الأنباري الكاتب (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) يضع كتاباً بعنوان : « طبقات الكتَّاب » [٤] مما يدل على كثرة عددهم ، وهو أول مُصنَّف يظهر في بابه .

فمن أبرز الأدب الكتاب ، **أبو إسحاق إبراهيم بن العباس الصولي** (ت ٢٤٣هـ/٨٥٧م) ، الشاعر الكاتب ، تولى ديوان الضِياع بسُرَّمَنْ رأى في عهد المتوكل . وخاله العباس بن الأحْنف ، الشاعر المشهور .

---

(١) أحمد زكي : جمهرة رسائل العرب ، (٤/٣٠٠ ـ ٣٠١) . وانظر كتاب الخليفة المتوكل إلى أهل حِمْص الخارجين عليه بخط إبراهيم الصُّولي في : ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١/١٨٧ ـ ١٨٨) .

(٢) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص ٥٥٩ .

(٣) القرطبي : صلة تاريخ الطبري ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٤) النديم : الفهرست ص ٢٠٠ .

عمل كاتباً في دواوين الدولة منذ عـهد الخليفة المأمـون ، وكان مقرباً من الخليفة المتوكل ، حظياً عنده ، فقرّبه منذ ولاية عـهده ، وولاّة ديوان النفقات سنة (٢٣٣هـ/٨٤٧م) ، وولاه أيضاً ديوان الرسـائل ، واختص بكتابته ، فكتب له كثيراً من الرسـائل التي صدرت عنه في شتى شؤئن الدولة ، وفتوح ، وكتب سلامة ، وتعزيات ، وغير ذلك [١] .

ومن أشـهر هـذه الرسـائل ، كتاب عقـد المتوكل البيعة بولاية العهد لبنيه الثلاثة : المنتصر ، والمعتز ، والمؤيد . سنة (٢٣٥هـ/٨٤٩م) [٢] . وكتاب المتوكل إلى عُمَّاله بالآفاق بشأن النصارى في نفس السنة [٣] .

وتميز الصولي في رسـائله الديوانية ، بتصدير هذه الرسـائل ، أو تحميداتها التي يستفتح بها رسائله ، لما توفر فيها من سمات بلاغية ، وجمالية رفيعه . على نحو ما يلقانا في استفتاحه لرسالة الخميس [٤] ، التي كتبها إلى الولايات المختلفة تحمل التبشير بتَسنُّم المتوكل لمنصب الخلافة .

ولم تقل شـهـرة الصولـي ، وموهبتـه فـي الشعـر عن موهبته كأحد كتّاب عصره المرموقين .

فهو أحد الشعراء المتمكنين ، وله « ديوان شعر » وصفه ابن خلكان بأنه: نخب [٥]. أما ابن الجراح فقد نعته بأنه : ((أشعر نظرائه الكتّاب ، وأرقهم لساناً)) [٦] . في حين أُعجب دعبل بن علي الخزاعي الشاعر بشعر الصولي ، حتى قال : ((لو تكسَّب إبراهيم بن العباس بالشعر لتركنا في غير شيء)) [٧] .

---

(١) انظر ترجمة أبي إسحاق الصولي في : ابن الجراح : الورقـة ، ص ١٣٦ . المسعـودي : مـروج الذهـب ، (١٠٦/٤ ـ ١٠٩) . النديم : الفهرست ، ص ١٩٦ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١١٧/٦ ـ ١١ ذ ٨) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٦٤/١ ـ ١٩٨) . ابن الأبار : إعتاب الكتاب ، ص ١٤٦ ـ ١٥٢ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (١٧٦/٩ ـ ١٨٠) .

(٣) المصدر السابق : (١٧٢/٩ ـ ١٧٤) .

(٤) أحمد زكي : جمهرة رسائل العرب ، (١٧٢/٤ ـ ١٧٤) .

(٥) وفيات الأعيان ، (٤٤/١) . وذكر النديم : أنه يقع في (عشرين ورقة) . الفهرست ، ص ٢٧٢ .

(٦) الورقة ، ص ١٣٦ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

ولإبراهيم الصُّولي إسهامات في ميدان التأليف . فمن تصانيفه : كتاب « ديوان رسائله » ، كتاب « الدولة » ، كتاب « الطبيخ » ، كتاب « العطر » (١) .

ومن الوزراء الكتَّاب في ذلك الوقت **أبو علي الحسن بن وهب** (ت ٢٥٠هـ/٩٦٤م) . وكان يكتب للوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، وقد تولى ديوان الرسائل ، وهو أحد الشعراء المترسِّلين ، وله « ديوان رسائل » . كما تميّز بمُلاحه الخط ، ومدحه أبو تمام في ذلك (٢) .

وكذلك ، **أبو الهيثم خالد بن يزيد التميمي الكاتب** (ت ٢٦٢هـ/٨٧٦م) ، أحد كتَّاب الجيش ببغداد . وله « ديوان شعر » يقع في : مائتي ورقة ، عمله أبو بكر الصُّولي على الحروف (٣) .

ومن الوزراء الكتاب في ذلك الوقت أيضاً ، **أبو أيوب سليمان بن وهب** (ت ٢٧٢هـ/٨٨٥م) ، تولى الوزارة للخليفة المهتدي ، ثم للمعتمد من بعده . وكان هو وأخوه ، الحسن بن سهل الملقب بذي الرياستين ، من أعيان عصرهما . وتنقَّل سليمان في الدواوين ، والوازرة . وقال عنه ابن الطقطقي : ((أحد كتَّاب الدنيا ، ورؤسائها ، فضلاً ، وأدباً ، وكتابة ، وأحد عقلاء العالم ، وذوي الرأي منهم)) . وله « ديوان رسائل » (٤) .

ومن الكتاب البارزين أيضاً ، **أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن المدبر الكاتب** (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) ، أحد الكتّاب المترَسلِين ، ممن تميّز شعرهم بالرقة ، وكان

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٩٨/١) .

(٢) الصولي : أدب الكتاب ، ص ٣٧ ـ ٣٨ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٣٤/٢٠ ـ ٣٦) التراجم الإضافية .

(٣) ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٦ . النديم : الفهرست ، ص ٢٧١ . ابن الجوزي : المنتظم ، (٣٥/٥ ـ ٣٩) . وأورد ابن الجوزي نماذج من شعره . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢٣٢/٢ ـ ٢٣٧) .

(٤) ابن الأبار : إعتاب الكتاب ، ص ١٣٨ ـ ١٤٤ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤١٥/٢ ـ ٤١٨) . ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ١٨٣ .

يتولى ديوان الضياع للخليفة المتوكل ، ثم وُزِّر للمعتمد ، وتوفي وهو على ديوان الضِياع في عهد المعتضد ، ولابن المُدْبِر « الرسالة العَذْراء » (١) .

ويُذكر في هذا المقام **أبو علي أحمد بن إسماعيل بن الخطيب الأنباري** (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) ، كأحد الأدباء الكتَّاب ، وكان بليغاً ، مترسلاً ، شاعراً ، متقدماً في صناعة البلاغة . وقد تولى الوزارة في عهد الخليفة المنتصر ، وعهد إليه بكتابة الكتب التي تصدر عنه . وأغلب رسائله في الإخوانيات ، خاصة بينه وبين ابن المعتز .

ولابن الخطيب من المؤلفات : « ديوان رسائل » في نحو ألف ورقة ، وكتاب « طبقات الكتاب » ، وكتاب « أسماع المجموع المنقول من الرقاع » في الأخبار ، وكتاب « صفه النفس » ، وله « ديوان شعر » ، يقع في خمسين ورقة (٢) .

ومن كتَّاب العصر الوزراء ، **أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح** (ت ٢٩٦هـ/٩٠٩م) ، وزير ابن المعتز في يوم خلافته . وهو عم الوزير علي بن عيسى بن الجَرَّاح . أخذ عن العلماء ، والفصحاء ، والشعراء ، وكتب بخطه مالا يحصى كثرة وكان من علماء الكتَّاب ، عارفاً بأيام الناس .

وله كتب أغلبها في الشعر ، وهي : كتاب « الوزراء » ، كتاب « الأربعة » ، كتاب « الورقة » ، وقد مر الحديث عنه ، كتاب « الشعر والشعراء » ، كتاب « من سمي من الشعراء عمراً في الجاهلية والإسلام » (٣) .

وبرز من الكتّاب أيضاً ، **أبو الحسن محمد بن جعفر بن ثوابة** (ت ٣١٢هـ/٩٢٤م) ، وهو من أسرة عَمِلت في دواوين الخلافة ، وتولى رئاسة ديوان

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٣١/١٠) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٢٦/١ ـ ٢٣٢) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٢٧٤/٢٠٠ . البغدادي : هدية العارفين ، (٥٣/١ ـ ٥٤) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٢٠٦ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٥٥/٥) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٨٩/٦) .

الرسائل في عهد الخليفة المعتضد ، وظل على هذا المنصب في عهد المقتدر، فكان أكبر كاتب في دواوينه . وكان أبو الحسن أحد الكتّاب البلغاء ، الذين أخذوا أنفسهم بالسَّجع في كل ما يَصدر عنه . وله « ديوان رسائل » (١) .

ومن كتاب العصر المرموقين ، **أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي** (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م) ، أحد الكتّاب البلغاء الفصحاء ، المتقدمين في علم المنطق ، والفلسفة . وقد اشتغل قدامة بعلوم اللغة ، والأدب ونقده ، والحساب . وكان حسن التصنيف للكتب مع الإيجاز في اللفظ ، والسهولة في التركيب ، والتقريب للمعاني . وشاب أسلوبه شيء من الضعف ، وهو أمر ناتج عن رغبته في التقرير العلمي ، والتقسيم المنطقي (٢) .

ولُقدامة مصنفات أدبية ، وصلنا منها : كتاب « الخراج وصنعة الكتابة » (٣) ، وأتى في هذا الكتاب بكل ما يحتاج إليه الكاتب . كتاب « جواهر الألفاظ » (٤) ، كتاب « نقد الشعر » ، كتاب « نقد النثر » (٥) ، كتاب « السياسة » ، كتاب « البلدان » ، كتاب « زهر الربيع » ، كتاب « نزهة القلوب » ، كتاب « الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام » (٦) .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٨/٩٦ ـ ٩٨) . الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٣١١ ـ ٣٢٠هـ) ، ص ٥٢١ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٢٠٩ . ابن الجوزي : المنتظم ، (٦/٣٦٣) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٧/١٢ ـ ١٥) . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، (٣/٢٩٧ ـ ٢٩٨) . عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، (٢/٤٣٤ ـ ٤٣٦) .

(٣) مطبوع بتحقيق : محمد حسين الزبيدي ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد ، د.ط ، ١٩٨١م .

(٤) مطبوع بتحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

(٥) سيرد الحديث عن هذين الكتابين في موضوع النقد الأدبي في هذا المبحث .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ٢٠٩ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٧/١٣) .

٢ ــ الرسائل الإخوانية [١] .

وهي من الأساليب النثرية التي اتسع استخدامها في ذلك العصر بشكل كبير ، وتعددت أغراضها ، وتنوعت ، تبعاً للمعطيات الحضارية الجديدة ، فمثلاً شاع بين المتراسلين تبادل التهنئة بأعياد الفرس : كالنَّيْروز ، والمَهْرجان .

ومما ساعد على ازدهار الإخوانيات ، وجود الكتَّاب البلاغيين المتمكنين في ذلك الوقت ، وكذلك الشعراء النابهين . وتزخر كتب الأدب بالكثير من الرسائل الإخوانية في شتى الأغراض .

فمن رسائل التهنئة ، ما بعث به عبد الله بن المعتز إلى الوزير عبيد الله بن سليمان يُهنئه بقدومه من سفر ، إذ يقول : ((الحمد لله على ما امتن به على الوزير ـ أعزَّه الله ـ من جميل السلامة ، وحسن الإيابة ، حمداً يستمد أمرمزيده ، وإخلاصاً مستدعياً لقبوله ...)) [٢] .

وكتب الحسن بن وهب إلى القاسم بن الحسن بن سهل ، يُعزِّيه في والده : ((مَدَّ الله في عمرك ، موفوراً غير منتقص ، وممنوحاً غير ممتحن ، ومُعطي غير مستلب)) [٣] .

وكان بعض الكتَّاب يوجِّهون الدعوات إلى أصدقائهم من خلال وصف مكان الدعوة بصورة تُحفِّز على الحضور ، فقد كتب الحسين بن الحسن بن سهل إلى صديق له يدعوه

---

(١) هي رسائل يتبادلها الإخون (الأصدقاء ، والأقارب على السواء) . قد تكون نثرية ، أو شعرية ، وإن كانت في النثر أكثر ، تدور حول أغراض وجدانية خاصة بالمتراسلين من العتاب ، والتشوق ، والشكر ، واللوم ، واستنجاز وعد ، وطلب معروف ، والتعزية . وقد تتناول أحياناً بحثاً أدبياً ، أو جدلاً نظرياً ، أو نقداً ، أو نصحاً . والمهم في هذه الرسائل أنها كانت تُصاغ صياغةً أنيقةً ، مُثقلةً أحياناً بأوجه البلاغة ، موازنةً ، وسجعاً ، واستعارة ، وتوريةً ، مع ميل ظاهر إلى الاقتباس من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، ومن الأمثال ، والأشعار ، مما يدل على مقدرة لغوية ، وبراعة أدبية ، وإحاطة بعدد من وجوه المعرفة . عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ، (٢/٤١١ ـ ٤١٢) .

(٢) الصولي : أشعار أولاد الخلفاء ، ص ٢٨٨ .

(٣) أحمد زكي : جمهرة رسائل العرب ، (٤/٢٥) .

لحضور مأدبة قائلاً : ((نحن في مأدبه لنا ، تَشرُف على روضة ، تُضاحك الشمس حسناً ، قد باتت السماء تعلها ، فهي شرقة بمائها ، حالية بنوارها ، فرأيك فينا ، لنكون على سواء من استمتاع بعضنا ببعض)) [١] .

وقد يحدث أن يَعد أحد الأصدقاء أفاه بإنجاز أمر . ولكنه لم يفعل ، فيرسل إليه صاحب الوعد ، ويَحثه على إنجاز ما وعده به ، وهو ما قام به الجاحظ عندما كتب إلى صديق وعده بشيء ولم ينجز وعده قائلاً : ((أما بعد ، فإن شجرة وعدك قد أورقت ، فليكن ثمرها سالماً من جرائح المطل ، والسلام)) [٢] .

وكان الاشتياق للأصدقاء مدعاة لأن يكتب أحدهم إلى صديق له يُفسح له شوقه إلى رؤيته ، كما فعل ابن المعتز عندما أرسل إلى أحد أصدقائه برسالة قال فيها : ((إني لأسف على كل يوم فارغ منك ، وكل لحظة لا تؤنسها رؤيتك ، وسقيا لدهر كان موسوماً بالاجتماع معك ، معموراً بلقائك ، جمع الله شمل سروري بك ، وعمَّر بقائي بالنظر إليك)) [٣] .

غير أن هذه الرسائل لم تكن قاصرة على الأغراض التي ذكرت ، بل شملت التنبيه على أمر ما أيضاً ،فقد أغفل إبراهيم بن العباس الصَّولى كتابة التاريخ في كتابين بعث بهما إلي أبي خليفة الفضل بن حَبَاب الجُمَحي في أمور أرادها ، فكتب إليه القاضي بعد الكتاب الثاني : ((وصل كتابك ـ أعزك الله ـ مبهم الأوان ، مظلم المكان ، فأدى خبراً ماالقرب فيه بأولى من البعد ، فإذا كتبت ـ أكرمك الله تعالى ـ فلتكن كتبك موسومة بتاريخ ، لأعرف أدنى آثارك ، وأقرب أخبارك ، إن شاء الله تعالى)) [٤] .

٣ ـــ التوقيعات . [٥]

وكان يختص بها ديوان « التوقيع » ، إذ تُرفع رقاع الشكاوي إلى الخليفة ، مع شرح لما فيها ، فينظر فيها الخليفة ، ويبدي مرئياته حيالها ، فيوقِّع صاحب الديوان بخطه بما أَوعَز به الخليفة .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، (١٩٢/٢) .

(٢) المصدر السابق (٧٥/١) .

(٣) الصولي : أشعار أولاد الخلفاء ، ص ٢٩٢ .

(٤) أحمد زكي : جمهرة رسائل العرب ، (١٩٢/٤ ـ ١٩٣) .

(٥) هي ما يُعلِّقه الخليفة ، أو الأمير ، أو الوزير ، أو الرئيس على ما يُقدم إليه من الكتب ، والشكاوي بشكل يجمع بين الإيجاز ، وجمال العبارة ، وقوتها . وقد تكون آية ، أو مثلاً ، أو بيت شعر . أحمد الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ١٥٩ .

هذه التوقيعات التي يكتبها صاحب الديوان لابد أن تكون غاية في البلاغة ، وتكون من الجمل المختصرة اللفظ ، المؤدية للمعنى (١) .

فأصبحت التوقيعات أحدالأساليب النثرية التي تظهرفيها براعة كتَّابها ، وأصبحت مظهراً من مظاهر الكتابة الفنية في ذلك الوقت .

ولم تكن التوقيعات ، خلال تلك الفترة ، قاصرة على ما يصدر عن صاحب ديوان التوقيعات عن الخليفة ، بل كان لبعض الأمراء ، والوزراء ، توقيعات على مارُفع لهم من رقاع في مختلف القضايا، احتفظت ببعضها كتب التاريخ ، والأدب .

ومن الأمثلة على توقيع الخلفاء ، ما وقَّعه الخليفة المتوكل على الرسالة التي كتبها إبراهيم بن العباس الصُّولي إلى عبد الرحمن بن يحيى بن خاقان ، يُعزيه في وفاة والده ، إذ جاءت نسخة التوقيع بخط المتوكل مانصه : ((يا عبد الرحمن ، ثِق بالله ، بالذي لك عند أمير المؤمنين ، وطِب نفساً ، ولا تحمل على نفسك من الغم مالا ينفعك ، لا بل يضرك ، ويَغتم به أمير المؤمنين ، وهذا خط أمير المؤمنين إليك ، والسلام)) (٢) .

ومن توقيعات الأمراء ، توقيع محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد إلى الكتَّاب ، وقد ضاقت الحاجة بهم للكوَاغِد (الورق) في أيام فتنة المستعين والمعتز ، نصَّه : (دققوا الأقلام ، وأوجزوا الكلام ، فإن القراطيس لا تُرام ، والسلام)) (٣) .

ووقَّع الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب في شأن أحد عُمَّاله : ((أنا قادر على إخراج هذه النعرة من رأسه ، والوغرة من صدره ، والنخوة من نفسه)) (٤) .

أما علي بن عيسى الوزير ، فقد كتب إليه بعض عُمَّاله كتاباً تفاصح فيه ، فوقَّع الوزير في رده إليه : ((دعني من تشديقك ، وتقعيرك ، وتفاصح على نظيرك ، فخير الكلام ما قلَّ ودل ولم يُمل)) (٥) .

---

(١) حسني ناعسة : الكتابة الفنية ، ص ٢٤٣ .

(٢) أحمد زكي : جمهرة رسائل العرب ، (١٨٦/٤) .

(٣) الثعالبي : خاص الخاص ، ص ٩٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

٤ ــ التأليف الأدبي :

ويقصد به التأليف في الأدب في نطاق مفهومة في القرنين : الثالث ، والرابع الهجريين/التاسع ، والعاشر الميلاديين ، وكان التأليف الأدبي متداخلاً مع التأليف في علوم اللغة بفروعها ، والنحو ، والصرف ، والأخبار ، والأنساب ، والشعر ، والنوادر . فتجد في الكتاب الواحد لِماماً من هذه العلوم .

واعتباراً من النصف الثاني من القرن الثاني الهجري تقريباً الثامن الميلادي ، ظهر التأليف الأدبي الدقيق على يد نخبة من المعنيين بالأدب . كالجاحظ ، وابن قتيبه الدينوري ، وابن طيفور ، والمبرد ، وثعلب ، وأبي بكر الصولي ، وغيرهم كثير . فأصاب الثراء المكتبة الأدبية بسبب ضخامة التأليف الأدبي كماً ، وكيفاً [١] .

فمنذ عصر أبو عثمان الجاحظ ، أخذ الأدباء المُصنِّفون ، يطرقون موضوعات في الأدب طرقاً واضحاً ، ومباشراً في شكل كتاب ، أو رسالة . يحشد لها الأديب كل ثقافته ، بحيث يخرج موضوعاً متكاملاً ، ومشتملاً على ضروب من المعرفة ، بحيث يُحدث نوعاً من التشويق للقاريء ، من خلال التنوّع في العرض بشكل لا يبعث الملل على القاريء .

ولم يزدحم قُطرٌ إسلامي بأصحاب الأدب في فترة تاريخية معينة كازدحامهم في العراق خلال فترة النفوذ التركي ، بأعداد هائلة من الأدباء ، الذين أسهموا في التراث الأدبي الإسلامي بما انتجته قرائحهم بشكل لم يسبق له مثيل . ونظرة في كتب التراجم وفهرست الكتب تبرهن على ذلك . ولكن سوف نقصر الحديث عن بعض المبِّرزين منهم فقط .

ويبقي ، **أبو عثمان عمرو بن بحر البصري المعروف بالجاحظ** (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) ، أبرز أدباء عصره غير مدافع . ولسنا هنا بصدد البحث في الجاحظ ، فخبره أشهر من أن يُستقصي ، وأشغل الباحثين ، فخرجت العديد من الدراسات التي تناولت شخصية الجاحظ الأدبية من كافة جوانبها [٢] .

---

(١) مصطفى الشكعة : مناهج التأليف عند العلماء العرب ، ص ١٠١ ــ ١٠٢ .

(٢) انظر هذه الدراسات في : عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، (٣١٦/٢ ــ ٣١٧) .

ولد الجاحظ ، ونشأ بالبصرة . وفيها تلقى العلم والثقافة ، وهي يومئذ مهد العلم ومركزاً اجتمعت فيه تيارات فكرية ، وفنيّة متعددة .

وأخذ العلم عن كبار علماء عصره ، فأخذ اللغة عن الأصمعي ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى ، والأخفش . وعلى يد أبي إسحاق النظّام ، رأس الاعتزال في وقته ، تلقى علم الكلام (١) .

لقد كان الجاحظ يكتنز في ذاكرته أحداثاً عديدة ، ومتنوعة ، سواء على الصعيد العام ، كموقفه من القضايا العلمية ، أو الخاص ، على صعيد الحياة اليومية ، فأتاح له هذا الأمر أن يكتب في موضوعات عديدة مختلفة ، ومتباينة أحياناً . فنراه يكتب عن الشعوبية ، ويرد على النصارى ، ويؤلف في علم البيان ، ونراه أيضاً يكتب عن البُرْصان ، والعرجان ، والمغنين ، والبخلاء . والقاء نظرة على عناوين مصنفاته من كتب ، ورسائل نلمس هذا الأمر .

إن مكانة الجاحظ العلمية ، ومنهجه ، جعله قادراً على نقل الكتابة إلى طور جديد في الأسلوب ، والعرض . ونهج للمترسِّلين ، والمصنِّفين طريقةً في الإنشاء ، تقوم على ((سهولة العبارة ، وجزالتها ، وتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة ، أو مرسلة . وزيادة الإطناب في الألفاظ ، والجُمَل ، والاستطراد ، ومزج الجد بالهزل لرفع سآمه القارىء . وتحليل للمعنى ، واستقصائه ، وتحكيم العقل ، والمنطق ، والاعتراض بالجمل الدعائية)) (٢) .

وحرص الجاحظ في مؤلفاته أن يجمع بين بساطة العبارة وجمالها ، وأن يكون مؤلفه موجه إلى جمهرة القراء لا إلى طائفة بعينها . وهو عنه بقوله : ((وليس الكتاب إلى

---

(١) انظر ترجمة الجاحظ في : المسعودي : مروج الذهب ، (٤/١٩٥ ـ ١٩٦) . النديم : الفهرست ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٦ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٢/٢١٢ ـ ٢٢٠) . ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٤٨ ـ ١٥١ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٦/٧٤ ـ ١١٤) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/٤٧٠ ـ ٤٧٥) . الذهبي : سير أعلام النبلاء ، (١١/٥٢٦ ـ ٥٣٠) . ابن نباتة : سرح العيون ، ص ٢٤٨ ـ ٢٦٠ . ابن حجر : لسان الميزان ، (٤/٣٥٥ ـ ٣٥٧) . شارل بلا : الجاحظ ، ترجمة : إبراهيم الكيلاني ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .

(٢) أحمد الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ١٥٧ .

شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الرواية ، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة ، والحشو ، ويحطه عن غريب الإعراب ، ووحشي الكلام)) [١] .

ويوجه نصيحة لمن ينشد السداد في الكتابة بأن ((يكون رقيق حواشي اللسان ، عذب ينابيع البيان ، إذا حاور سدَّد سهم الصواب إلى غرض المعنى ، لا يُكِّلم العامة بكلام الخاصة ، ولا الخاصة بكلام العامة)) [٢] . كما يُشدد على التلائم ، ومطابقة الكلام لحال سامعية [٣] .

وعند تصفُّح بعض كتبه فإن النزعة إلي الجدل ، والمناظرة [٤] تبدو واضحة تماماً ، ففي كثير من الأحيان يعتمد هذا المسلك عند مقارنته بين الأشياء ، فيجعلها في شخصيات تمثل أطراف القضية ، وهو ما يظهر بوضوح في كتابه « الحيوان » .

إن الدقة التي تميز بها الجاحظ ، جعلته يجنح إلى الوصف الدقيق عند تناوله لقضايا اجتماعية ، فهو ينقل الواقع بكل تفاصيله ، ودقائقه ، وكل ما يجري في مُدن العراق من صور الحياة المختلفة ، الأمر الذي جعل من أدبه ، أدباً واقعياً ، يصور مجتمعه ، وكل ما فيه من أخلاق ، وعادات ، وتناقضات ، لدرجة أنه لا يتورَّع من ذكر أمور قد تكون صعبة في طرحها بشكل علني [٥] ، ولعل كتاب « البخلاء » [٦] هو أكثر الكتب التي تُجسد عناية الجاحظ ، وتميزه بدقة الوصف والتصوير ، كما يُصور هذا الكتاب ما اتسمت به شخصية الجاحظ من ميلٍ إلى النكتة ، والنوادر المضحكة .

ومما يدل على سمو مكانة الجاحظ الأدبية ، انتشار مصنفاته في الآفاق ، فقد قيل لأبي هفَّان : لِمَ لا تهجوا الجاحظ وقد ندَّدَ بك ، وآخذ بمُخَنَّقِكَ ؟ فقال : ((أمثلي يُخدع عن

---

(١) الجاحظ : الحيوان ، (١/١٠) .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٦/٨٧) .

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين (١/١٠٠ ، ١٤٧ ـ ١٤٨) .

(٤) ابن المعتز : البديع ، ص ٥٣ .

(٥) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص ٥٩٢ ـ ٥٩٣ .

(٦) انظر على سبيل المثال : قصة الكندي ، ص ١٢٩ . وقصة أسد بن جاني ، ص ١٥٩ في كتاب « البخلاء » .

عقله ! ، والله لو وضع رسالة في أرْنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرةً ، ولو قلت فيه ألف بيتٍ لما طَنَّ منها بيتٌ في ألف سنة)) [١] .

وبلغ الجاحظ من المكانة المرموقة عند ملوك الآفاق الإسلامية ، أن أمراء الأندلس ، كانوا يرفعون منزلة من تتلمذ على يد الجاحظ ، ويقرِّبونه منهم [٢] .

أما إنتاج الجاحظ الأدبي ، فهو يُعد في الرَّعيل الأول من مؤلفي عصره ، وكتّابه [٣] . ويذكر سبط ابن الجوزي ، أن مصنفات الجاحظ بلغت زُهاء (٣٦٠ كتاباً) في ألوان شتّى من المعرفة ، وقد رأى أكثرها في مشهد أبي حنيفة النُّعمان ببغداد [٤] . وفي ذلك يقول المسعودي : ((ولا يُعلم أحد من الرواة ، وأهل العلم ، أكثر كتباً منه)) [٥] . وذكر له ياقوت الحموي فهرست كتبه ، ورسائله ، فأثبت منها (١٣٠ كتاباً) [٦] . وتدور مصنفات الجاحظ حول ألوان أدبية خمسه ، هي : الرسائل الأدبية في موضوعات شتّى ، والإخوانيات ، والمناظرة ، والقصص ، والنوادر [٧] . ووصف الوزير ابن العميد كُتب الجاحظ بأنها ((تُعلِّم العقل أولاً والأدب ثانياً)) [٨] .

ومن أشهر مصنفات الجاحظ : كتاب « البيان والتبين » [٩] ، كتاب « أمل الأمل » [١٠] ، كتاب «البخلاء» [١١] ، كتاب « الحيوان » [١٢] ، كتاب « البرصان والعرجان

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٦/٩٩) .

(٢) المصدر السابق ، (١٦/١٠٤) .

(٣) الجاحظ : الحيوان ، (١/٦) . مقدمة المحقق .

(٤) مرآة الزمان ، (١/٢٩٨) .

(٥) المسعودي : مروج الذهب ، (٤/١٩٥) .

(٦) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٦/١٠٦ ـ ١١٠) .

(٧) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص ٦٠١ ـ ٦٠٨ .

(٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣/٤٧٣) .

(٩) مطبوع بتحقيق : حسن السندوبي ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

(١٠) مطبوع بتحقيق : رمضان ششن ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م .

(١١) مطبوع بتحقيق : محمد سويد ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

(١٢) مطبوع بتحقيق : عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ت .

والعميان والحولان » [١] ، كتاب البلدان » [٢] ، كتاب « التاج في أخلاق الملوك » [٣] ، كتاب « التبصر بالتجارة » [٤] ، كتاب « تهذيب الأخلاق » [٥] ، كتاب « رسائل الجاحظ » [٦] ، كتاب « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » [٧] ، كتاب « ذم العلوم ومدحها » [٨] ، كتاب « الرد على المشبهة » [٩] ، كتاب « سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف » [١٠] ، كتاب « العثمانية » [١١] ، كتاب « العرافة والزجر والفراسة على مذهب الفرس » [١٢] ، كتاب « في البلاغة والإيجاز » [١٣]، كتاب « المحاسن والأضداد » [١٤] ، كتاب « النبل والتنبل وذم الكبر » [١٥] ، رسالة « في مدح الكتب والحث على جمعها » [١٦] . وغيرها الكثير من الكتب التي أوردتها المصادر ، ولم تُذكر هنا خشية الإطالة [١٧] .

---

(١) مطبوع بتحقيق : عبد السلام هارون ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٨٢م .

(٢) نشر بتحقيق : شارل بللا ، مجلة المشرق ، ع ٦٩ ، ١٩٦٩م .

(٣) مطبوع بتحقيق : فوزي عطوي ، بيروت ، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت ، ١٩٧٠م .

(٤) مطبوع بتحقيق : حسن عبد الوهاب ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٦٦م .

(٥) مطبوع بتحقيق : محمد كرد علي ، المطبعة البطريركية الأرثوذكسية ، دمشق ، ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م .

(٦) ظهرت من الرسائل (٩ طبعات) تفاوت محققوها في مقدار الرسائل التي قاموا بنشرها ، والغالب فيها التكرار ، ونذكر من هذه الكتب : رسائل الجاحظ ، بتحقيق : عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١١هـ/١٩٩١م . رسائل الجاحظ ، بتحقيق : حسن السندوبي ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م . رسائل الجاحظ ، بتحقيق : محمد الحاجري ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٢م . رسائل الجاحظ ، بتحقيق : ريشر Rescher ، شتوتجارت (ألمانيا الإتحادية) ، ١٩٣١م .

(٧) مطبوع بتحقيق : محمد راغب الطباخ ، المطبعة العلمية ، حلب ، ١٩٢٨م .

(٨) نشر بتحقيق : شارل بللا ، مجلة المشرق ، مج ٥٠ ، ١٩٥٦م ، ص ٧٠ ـ ٧٨ .

(٩) مطبوع بتحقيق : حاتم الضامن ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٧٩م .

(١٠) نشرته دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

(١١) مطبوع بتحقيق : عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، د.ت .

(١٢) مطبوع بتحقيق : inostrantsev ، أكاديمية العلوم السوفياتية ، الإتحاد السوفيتي ، ١٩٠٧م .

(١٣) نشر بتحقيق : حاتم الضامن ، مجلة البلاغ ، بغداد ، ع٩ ، ١٩٧٨م .

(١٤) مطبوع بتحقيق : فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٩م .

(١٥) نشر بتحقيق : حاتم الضامن ، مجلة المورد ، مج ٧ ، ع٤ ، ١٩٧٨م .

(١٦) نشرت بتحقيق : إبراهيم السامرائي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج ٢ ، ١٩٦١م ، ص ٣٣١ ـ ٣٤٢ .

(١٧) انظر : النديم : الفهرست ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٦/١٠٦ ـ ١١٠) .

ومن أدباء العصر المرموقين ، **أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري** (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) ، ولقد ذُكر طرفاً من سيرته في مبحث علم اللغة ، وكان فقيهاً عالماً ، وأديباً ناقداً ، ورأس المذهب البغدادي في اللغة ، والنحو . وممن اشتهر بغزارة التصنيف في معارف شتىًّ .

وفي ميدان الأدب . كان لابن قُتَيْبة إسهام واضح ، تمثَّل في مصنفاته التي صاغها بقلمه في الأدب ، ونقده . وكانت الشعوبية ، ورجالها خصوم ابن قُتَيْبة على الدوام ، بل هو أحد خصومها ، والمدافعين عن العربية ، وعلومها ، وثقافتها ، وصنَّف في ذلك كتاباً وسمه بـ « فضل العرب على العجم أوالعرب وعلومها » (١) ، وكان الفرس يحملون لواء الشعوبية ، ويبذلون قصارى جهدهم في الدعوة إليها ، وإلى كتب الأدب الفارسية ، بل والأجنبية عموماً ، من يونانية ، وهندية . فكان لابد من العمل على إدخال هذه الموروثات في مجرى نهر الثقافة العربية الإسلامية ، بحيث تتلاشى فيه نهائياً ، ولا يُصح لها وجود مستقل ، وإنما يرتبط وجودها بوجود الثقافة العربية الإسلامية العامة (٢) .

وهذا ما فعله ابن قُتَيْبة ، فصنَّف كتابه « عيون الأخبار » (٣) ، فمضى يُنسق مختارات ، ومقتطفات من الأداب جميعها ، ويَسْبكها في أسلوب أدبي يمتاز بالوضوح .

وهناك مصنفات أدبية أخرى لابن قُتَيْبة ، منها : كتاب « الشعر والشعراء » (٤) ، كتاب « الأشربة » (٥) ، كتاب « الميسر والقداح » (٦) ، كتاب « الحكاية » ، كتاب « ديوان الكتّاب » ، كتاب « فرائد الدر » ، كتاب « المراتب والمناقب من عيون الشعر » ، كتاب « حكم الأمثال » ، كتاب « العلم » ، كتاب « آداب العشرة » ، وغيرها من المصنفات (٧) .

---

(١) نشره محمد كرد علي ضمن كتاب « رسائل البلغاء » ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٣١هـ/١٩١٣م .

(٢) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، ص ٦١٢ ـ ٦١٣ .

(٣) نشرته دار الكتاب العربي ، بيروت ، د.ت ، عن نسخة دار الكتب المصرية ، المطبوعة بإشراف : أحمد زكي العدوي ، سنة ١٩٢٥م .

(٤) مطبوع بتحقيق : محمد العريان ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م .

(٥) مطبوع بتحقيق : محمد كرد علي ، المجمع العلمي العربي بدمشق ، بيروت ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م .

(٦) مطبوع بتحقيق : محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ .

(٧) النديم : الفهرست ، ص ١٢٤ .

ومن أدباء العصر الذين أسهموا في التأليف الأدبي ، **أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان الأجري** (ت ٣٠٩هـ/٩٢١م) ، أحد حفاظ الأخبار ، والأشعار ، وصاحب نوادر ، وملح . حدَّث عن جماعة فيهم : أحمد بن منصور الرمادي ، والزبير بن بكّار ، وعبد الله بن أبي سعد الورّاق ، وأحمد بن أبي خيثمة ، وعيسى بن عبد الله الطيالسي ، وأبي بكر بن أبي الدنيا ، ونحوهم . وروى عنه : أبو بكر الأنباري النحوي ، وأبو جعفر بن برية الهاشمي ، وأبو الفضل بن المتوكل ، وجماعة آخرهم ، أبو عمر بن حيوة .

وكان أبو بكر أحد النَّقلة للكتب الفارسية إلى العربية ، وله أكثر من خمسين كتاباً من كتب الفرس [١] .

ولقد وضع أبو بكر العديد من المصنفات في ميدان الأدب ، منها : كتاب « فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » [٢] ، كتاب « من توفى عنها زوجها ، فأظهرت الغموم وباحت بالمكتوم » [٣] ، كتاب « المتيمين » ، كتاب « المعصومين » ، كتاب « الروض والزهر »، كتاب « الجلساء والندماء » ، كتاب « ألقاب الشعراء » ، كتاب « الشعر والشعراء » ، كتاب « الهدايا » ، كتاب « ذم الثقلاء » ، كتاب « أخبار العرجى » ، كتاب « وصف الفارس والفرس » ، كتاب « الحماسة » ، كتاب « وصف السيف » ، كتاب « وصف القلم » ، وغيرها [٤] .

كما برز أيضاً ، خلال تلك الفترة ، من أدباء العراق ، **أبو الطيب محمد بن أحمد المعروف بالوشاء** (ت ٣٢٥هـ/٩٣٧م) ، وقد مرَّ بنا طرفاً من أخباره في مبحث علم اللغة . وكان من أهل الأدب الظرفاء ، مليح الأخبار ، حسن التصنيف . وسلف الحديث بنا عن إسهام الوَشَّاء في ميدان اللغة ، وكان له إسهام آخر في باب الأدب تمثَّل في كتبه

---

(١) انظر ترجمة ابن المَرْزُبان في : النديم : الفهرست ، ص ٢٤١ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٣٧/٥ ـ ٢٣٩) . ابن الجوزي : المنتظم ، (١٦٥/٦) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٥٢/١٩) . الصفدي : الوافي بالوفيات ، (٤٤/٣ ـ ٤٥) .

(٢) مطبوع بتحقيق : إبراهيم يوسف ، مطبعة محمود توفيق ، القاهرة ، ١٣٤١هـ/١٩٢٤م .

(٣) نشر بتحقيق : عبد العزيز المانع ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، مج ٨ ، ١٩٨١م .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٢٤١ . البغدادي : هدية العارفين ، (٢٦/٢) .

الأدبية ، والتي كان لبعضها شهرةٌ في عصره ، ومن هذه المؤلفات : كتاب « الظرف والظرفاء » [١] ، كتاب « الموشح » ، كتاب « الزاهر والأزهار » كتاب « الحنين إلى الأوطان » ، كتاب « أخبار المتظرفات » ، كتاب « سلسلة الذهب » ، كتاب « السلوان » ، وغيرها [٢] .

والمقام هنا لا يسمح باستعراض جميع الأسماء التي ظهرت في سماء التأليف الأدبي ، وإلا فهي كثيرة ، ويطول بنا البحث لو أردنا استقصائها . وتكفينا الأسماء المذكورة لكي تُبرز لنا ازدهار الأدب في ذلك العصر .

جـ ـ النقد الأدبي :

نشطت في هذا العصر الدراسات النقدية للشعر والنثر ، ودخلت منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي في منعطفٍ جديد يتناسب مع ما بلغه الأدب العباسي في هذا العهد من ازدهار . حيث أخذ النقد الأدبي في الاستقلال بالبحث ، والتأليف على أيدي النُّقّاد من علماء اللغة ، والأدب ، وغيرهم من الذين خاضوا في أصول الموازنات ، والبلاغة ، وموازين النقد [٣] .

وتدور قضايا النقد الأدبي في ذلك العصر حول ثلاث قضايا تمحورت حولها الدراسات النقدية . وهي :

١ ـ الطبقات : حيث قسَّمت فئة من النقاد الشعراء القدماء إلى طبقات دون مقاييس محددة واضحة ، إنما هي أحكام مطلقة ، تدور حول إجادة الشاعر في التعبير عن معنى من المعاني في قوة ، وإحكام ، لم يَتسنَّيا لغيره في نظر الناقد .

٢ ـ اللفظ والمعنى : ذلك أن حركة التجديد التي ظهرت في الشعر العربي ، واستمرت طوال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، وظهر في إثرها فن البَديع ،

---

(١) مطبوع بتحقيق : فهمي سعد ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

(٢) القفطي : إنباه الرواة ، (٣/٦٢) .

(٣) ثعلب : قواعد الشعر ، ص ١٩ (مقدمة المحقق) .

وما استحدثه الكتَّاب العباسيين من أساليب جديدة في الكتابة ، دفعت النُّقّاد إلى دراسة هذه الأساليب باعتبارها فنوناً في القول ، سواءً كانت شعراً ، أو نثراً . وانقسم النُّقّاد أمام هذا الأمر إلى فريقين ، فريق يرى أن المُعوَّل على الألفاظ ، أي الأسلوب في التعبير ، أما المعاني فهي مبذولة في الطريق ، وفريق آخر يرى عكس ذلك .

٣ ــ السرقات : وقد أشغلت النُّقّاد فترات طويلة ، واقتطعت من مجهود النقد العباسي جانباً كبيراً وتتصل هذه القضية بسابقتها ، لأنها تقوم عليها ، وربما فاقتها خطورة . ومصدر هذه الخطورة ، أن هناك سرقات واضحة المعالم ، كأن يَسْرق شاعر ما أبياتاً كما هي لشاعر آخر . غير أن الأمر اختلف بعد ظهور قضية « اللفظ والمعنى » ، فتغيّرت نظرة بعض النُّقّاد من قضية السَّرقات ، فكانوا بالمرصاد لأصحاب التجديد في الشعر ، حيث المعاني ، والأساليب . فلم يَتقبل النُّقّاد هذا الأمر ، وأتهموا أساليبهم بالضعف ، ورموهم بالسرقة ، والإتكاء على القدماء في معانيهم ، وأساليبهم كذلك [١] .

وكان القائمون على حركة النقد ، والبلاغة أو البيان ، ينتمون إلى بيئات ثقافية متنوعة ، فرضها الوضع الثقافي للعراق في ذلك الوقت ، ولكل بيئة طرائقها في النقد ، والبيان ، يرتكز عليها أصحابها في دراسة تلك القضايا ، فهناك بيئة اللغويين المحافظين ، وبيئة المعتزلة المعتدلين ، وبيئة المتفلسفة والمترجمين الحداثيين [٢] .

وتبعاً لذلك ، ظهرت الدراسات التي تبحث في هذه القضايا الثلاث ، حاول بعض أصحابها أن يشرِّعوا للنقد ، ويصنعوا له معاييره ، ومقاييسه ، مع ملاحظة أن بعض هذه الدراسات قد جمعت بين النقد والبلاغة ، فتناولت أصول البيان العربي ، ومذاهبه ، بالبحث والتحليل على نحو « رسالة البلاغة » [٣] للمبرِّد .

---

(١) محمد سلام : تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ، ص ٦٩ ـ ٨١ .

(٢) انظر عن هذه البيئات ، شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ، ص ٦٢ وما بعدها . ويمثل المبرد ، وابن قتيبة الدينوري ، وابن المعتز ، وغيرهم بيئة اللغويين . في حين ممثل بيئة المعتزلة الجاحظ . أما بيئة المتفلسفة ، والمترجمين ، فمن أنصارها : قدامة بن جعفر ، وإسحاق بن إبراهيم الكاتب .

(٣) نشرت بتحقيق : رمضان عبد التواب ، حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، مج ١٠ ، ١٩٦٤م ، ص ٤١ـ١١٤ .

هذا التنوُّع في الطرح حول هذه الموضوعات الثلاث ، يعد ظاهرة صحية للحركة الأدبية في العراق في تلك الحقبة الزمنية .

وظهرت في تلك الفترة مصنَّفات نحى فيها أصحابها إلى جمع شعر الشعراء الجاهليين ، والإسلاميين ، والمُحْدَثين ، إمَّا بأن أفردوا لكل شاعر كتاب خاص به ، أوجمعوا أشعار قبيلة معينة في كتاب واحد ، أو جعلوا الشعراء في طبقات ، قد تكون شاملة لجميع الشعراء ، أو خاصة بالمُحْدَثين ، وفق معاييرهم النقدية ، وقد تم استعراض الصورة الأولى ، والثانية من هذا الموضوع [١] . أما من أشهر كتب طبقات الشعراء التي ظهرت في ذلك الوقت : ما صنف بعنوان « طبقات الشعراء » لكل من : دِعْبِل بن علي الخزاعي ، ومحمد بن حبيب الهاشمي ، وابن قُتَيْبة الدِّيْنَوَري ، وابن المعتز [٢] .

أما ابن قتيبة الدينوري فقد صنَّف كتاب « الشعر والشعراء » [٣] ، كما ألَّف محمد بن داود بن الجَرَّاح كتاب « الورقة » [٤] . في حين كتب الصولي كتابه « الأوراق » [٥] . والذي بين أيدينا من هذه الكتب لا يخلوا من آراء نقدية ، يُطلقها صاحب الكتاب على ما يورده من أشعار لمن ترجم لهم في كتابه ، فنرى الكثير منهم يقول : وفلان أشعر الناس لقوله كذا ، ومن جيد شعر فلان ، وفلان أشعر من فلان ، وهذا البيت عقيم ، .... إلخ .

وممن كتب في موضوع السرقات ابن السِّكِّيت (ت ٢٤٤هـ/٨٥٨م) حيث صنَّف كتاباً بعنوان « سرقات الشعراء وما اتفقوا عليه » [٦] . أما أبو الفضل أحمد بن طَيْفور البغدادي (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) فقد صنف كتابين في هذا الموضوع ، الأول : « سرقات الشعراء » ، والثاني : « سرقات البحتري من أبي تمام » [٧] . ولابن المعتز كتاباً بعنوان « السرقات » [٨] .

---

(١) انظر موضوع الشعر في هذا المبحث .

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١١٠٢/٢) .

(٣) سبق الحديث عنه في موضوع الشعر .

(٤) سبق الحديث عنه في موضوع الشعر .

(٥) سبق الحديث عنه في موضوع الشعر .

(٦) البغدادي : إيضاح المكنون ، (١٣/٢) .

(٧) النديم : الفهرست ، ص ٢٣٦ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

ومنذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، أصبحت قواعد الشعر العربي من حيث وضعه ، وانتحاله ، وكل ما يتعلق بحدوده ، وألفاظه ، ومعانيه ، وأغراضه ، ونعته وعيوبه ، ثابتة ، واضحة المعالم [١] . وذلك بفضل ما أنتجته قريحة علماء العراق ، وأدبائه على السواء ، من مؤلفات تبحث في نقد الشعر ، والنثر .

فمن الدراسات التي وضعت في نقد الشعر : كتابي : « معاني الشعر » [٢] ، ومقدمة « الشعر والشعراء » لابن قُتَيْبة الدِّيْنَوَري [٣] . وكتاب « قواعد الشعر » للمبرِّد » [٤] . وكتاب « قواعد الشعر » لأبي العباس ثَعْلب [٥] ، وكتاب « الشعر » لأبي العباس النَّاشِىء الأكبر المعروف بابن شِرْشِير [٦] ، وأيضاً كتاب « البديع لابن المعتز » [٧] . وكذلك كتاب « نقد الشعر » لقُدَامة بن جعفر [٨] .

أما الدراسات التي وضعها النُّقَّاد في النثر ، فمنها : كتاب « أدب الكاتب » لابن قُتَيْبة الدِّيْنَوَري [٩] ، و« الرسالة العَذْراء » لإبراهيم بن المُدْبِر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٣م) [١٠] . وكتاب « البرهان في وجوه البيان » لإسحاق بن إبراهيم بن وَهْب الكاتب (ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م) [١١] ، وأيضاً ، كتاب « أدب الكتَّاب » لأبي بكر الصُّولي [١٢] .

---

(١) أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٣٣٩ .

(٢) البغدادي : هدية العارفين ، (٤٤١/١) .

(٣) انظر المقدمة في كتاب « الشعر والشعراء » ص ٢١ ـ ٥٠ . حيث ضمنها ابن قتيبة آرائه النقدية في الشعر .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٩٣ .

(٥) مطبوع بتحقيق : محمد خفاجي ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

(٦) الحصري : زهر الآداب ، (٦٨٥/٣/٢) ، وينقل عنه الحصري في مواضع عدة من كتابه .

(٧) مطبوع بتحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م .

(٨) مطبوع بتحقيق : أغناطيوس كراتشكوفسكي ، مؤسسة لوزاك ، لندن ، ١٩٣٥م .

(٩) مطبوع بتحقيق : محمد خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

(١٠) مطبوعة بتحقيق : زكي مبارك ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م .

(١١) مطبوع بتحقيق : حفني شرف ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

(١٢) مطبوع بتحقيق : أحمد بسبح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤ .

وهناك مؤلفات تعرّضت لنقد الشعر والنثر معاً ، منها: كتابي : « البيان والتبيين » ، و « الحيوان » للجاحظ [١] . وكتاب « الكامل » للمبرِّد [٢] .

وينبغي الإشارة إلى أن المصنَّفات التي تناولت النقد الأدبي كانت تدخل معها دراسات بلاغية ، وذلك لما لآراء النُّقّاد البلاغية من أثر في الردِّ على من يدَّعون أن المُحسِّنات البيانية ، والبديعية التي يَستخدمها الشعراء في قصائدهم ، إنما مرده إلى البلاغة اليونانية، وهذا الأمر يظهر بجلاء في دافع تأليف ابن المعتز لكتاب « البديع » ، الذي مرَّ ذكره .

---

(١) سبق الحديث عنها .

(٢) مطبوع بتحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، والسيد شحاته ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٢٧٦هـ/١٩٥٦م .

الفصل الثالث

العلوم الاجتماعية

المبحث الأول : علم التأريخ .

المبحث الثاني : علم الجغرافيا .

المبحث الأول

علم التأريخ

أدرك مؤرخوا العراق في ذلك الوقت أهمية التأريخ [١] في حياةالأمة الحضارية ، ودوره الكبير في حفظ العلوم ،والمعارف من الفناء ، ونرى المسعودي المؤرخ يؤمن بهذا المبدأ، إذ يقول : ((ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر ، لبَطل أول العلم ، وضاع آخره ، إذا كان كل علم من الأخبار يُستخرج ، وكل حكمة منها تُستنبط ، والفقه منها يُستشار ، وأصحاب القياس عليها يَبنون ، وأهل المقالات بها يَحتجون ، ومعرفة الناس منها تُؤخذ ، وأمثال الحكماء فيها تُوجد ، ومكارم الأخلاق ، ومعاليها منها تُقتبس ، وآداب سياسة الملك ، والحزم منها تُلتمس)) [٢] .

وأصبح علم التأريخ جزءاً من النهضة العلمية التي شهدها العراق خلال القرنين : الثالث ، ووالرابع الهجريين/التاسع ، والعاشر الميلاديين . ولذا فقد تأثرت الكتابة التاريخية بالمؤثرات ، والمتغيرات الثقافية من جهة ، وبالتيارات والاتجاهات العامة في المجتمع من جهة أخرى . فأصاب التطور علم التأريخ ضمن قواعد معينة ، شمل مؤرخيه ، ومادته ، ومنهجه [٣] .

وشهد القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي مرحلة جديدة في تطور الكتابة التاريخية ، بفضل وفرة المادة التأريخية التي استعان بها المؤرخون في وضع مصنَّفاتهم ، وذلك عن طريق ثلاثة مصادر ، هي :

---

(١) علم التاريخ : فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين ، والتوقيت . وموضوعه : الإنسان ، والزمان. ومسائله : أحوالها المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان ، وفي الزمان . السخاوي : الإعلان بالتوبيخ ، ص ٧ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ، (٦٧/٢) . وانظر أيضاً ، ما قاله خليفة بن خياط عن أهمية التاريخ في كتابه « تاريخ خليفة بن خياط » ، ص ١٢ ــ ١٥ .

(٣) هاري بارنز : تاريخ الكتابة التاريخية ، ص ١٣٧ . عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، ص ١٣١ .

١ ـ الرحلات العلمية . والتي نشطت وبشكل كبير خلال هذا القرن ، والتي قام بها المؤرخون لأصقاع العالم الإسلامي في سبيل جمع المعلومات ، والمُعاينة الشخصية لِما سوف يُضمِّنونه كتبهم .

وقد ترتب على هذا الأمر نتائج بالغة الأهمية من ناحية التأثير ، والتأثر في الأفكار والتوجيُّهات ، والأساليب التأريخية بين مؤرخي الأمصار الإسلامية ، كما أن المبادىء الإسلامية التي تُؤثر في الكتابة التأريخية سادت البيئات الإسلامية ، ومن ضمنها العراق ، بعد أن كانت قاصرة على مدرسة المدينة التاريخية . كل هذا أدى إلى تَبلْور فكرة الكتابة التأريخية المُدعَّمة بالأسانيد [١] .

٢ ـ ما خلَّفته حركة الترجمة من مصنفات تأريخية فارسية ، ويونانية ، وسريانية ، قام النقلة بترجمتها إلى العربية ، فزودت المؤرخين المسلمين بمادة تأريخية جيدة عن هذه الأمم ، وحضارتها ، استعانوا بها في مؤلفاتهم التي بحثت في التأريخ العالمي . ونجد بعض المؤرخين قد ساهم في هذا الأمر ، فقد نقل أحمد بن يحيى البَلاذُري (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) كتاب « عهد أردشير » من الفارسية إلى العربية [٢] .

وفي هـذا العصر يدخل المأثور الفارسي لأول مرة في صلب التدوين التأريخي عند العرب ، وظل أحد المصادر المعتمدة عند مؤرخي العراق في كتابتهم عن تأريخ الدولة السَّاسانية ، وملوكها ، وأخبارهم .

كما كانت المصادر الإغريقية (اليونانية) ، والسريانية ، من مصادر معلومات المؤرخين في هذا العصر عن أخبار ، وحضارات تلك الأمم .

أما معلوماتهم عن تأريخ العهد القديم ، وملوك آشور ، وبابل ، فترجع أيضاً إلى المصادر الأغريقية ، والسريانية خاصة، وربما إلى المصادر اليهودية في بعض الأحيان .

---

(١) شوقي الجمل : علم التاريخ ، ص ٤٧ . عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، ص ١٣٥ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ١٨١ .

وليس من الضروري أن تكون هذه المصادر المعتمدة من قبل المؤرخين في هذا العصر دائماً كُتب تأريخ بالمعنى الدقيق [١] .

وتشير الدلائل إلى أن مؤرخي العراق في هذه الفترة قد توفرت لديهم معرفة بمصادر تأريخية عن الأمم غير المسلمة التي تحدثوا عنها في مؤلفاتهم [٢] .

غير أن لهذه المصادر أثر سيء في كثير من الأحيان على التأريخ الإسلامي ، خاصة وأن أغلب المؤرخين الذين جاءوا بعد فترة نفوذ الأتراك ، اعتمدوا في مصنفاتهم على ما كتبه مؤرخوا العراق في تلك الفترة ، وأخذوا بكل ما جاء فيها .

ذلك أن المصادر المترجمة قد تسرَّبت من خلالها الكثير من الإسرائيليات ، والأساطير اليهودية ، والنصرانية ، والفارسية ، عندما تجاوز التاريخ نطاق الميدان الإسلامي ، وابتعاد بعض المؤرخين عن الواقعية ، واحترام المقاييس النقدية ، وهما شرطان أساسيان في أي تدوين تأريخي [٣] .

٣ ـ مصنفات المؤرخين السابقين لفترة نفوذ الأتراك ، ورواياتهم ، وكانت المعين الأكبر الذي استمد منه مؤرخي العراق المادة التأريخية عن الحقبة التأريخية السابقة لهم ، لا سيما سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومغازيه ، وسيرة الصحابة رضوا الله عليهم أجمعين ، وتأريخ بني أمية ، وبداية دولة بني العباس .

---

(١) روزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ، ص ١١٤ ـ ١١٥ . ويتوسع روزنثال في هذه النقطة ، ويُفرد لها صفحات واسعة من كتابه ، انظر : ص ١٠٦ ـ ١١٧ .

(٢) بعض المؤرخين في هذه الفترة يُصرِّحون في مؤلفاتهم بأسماء مصادرهم التي اعتمدوا عليها في كثير مما يوردونه في كتبهم ، فنجد اليعقوبي مثلاً في كتابه « تاريخ اليعقوبي » يعتمد في مواضع من كتابه على : التوراة ، والإنجيل . انظر على سبيل المثال : ص ٦٥ ـ ٧٢ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١٠٨ . كما أنه يستعرض فحوى العديد من مصنفات حكماء اليونان ، وفلاسفتهم ، فهو يتحدث عما يتضمنه كتابي « الفصول » ، و« تقدمه المعرفة » لأبقراط من موضوعات ، انظر : ص ١٢٧ ـ ١٣٦ للكتاب الأول ، وص ١٣٦ ـ ١٣٩ للكتاب الثاني .كما نجد ابن قتيبة الدينوري يذكر في بعض المواضع من كتابه « المعارف » أنه اعتمد على التوراة ، والإنجيل . انظر على سبيل المثال : ص ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٣٤ . ويقول في (ص ٣٤) : ((ووجدت في كتب سِيَر العجم ، أن ...)) .

(٣) هاملتون جب : دراسات في حضارة الإسلام ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

٤ ـ الآثار . وهي أقل المصادر التي اعتمد عليها المؤرخون في مدوناتهم التاريخية في تلك الفترة . غير أن بعضهم قد استعان بها في جوانب من مصنفاته ، كما فعل محمد بن عَبْدوس الجَهْشَيَاري (ت ٣٣١هـ/٩٤٣م) في كتابه « الوزراء والكتَّاب » [١] . حيث استند على النص المكتوب على مينائي : صور ، وعكّا ، في إيراد خبر إصلاح زياد بن أبي الورد الأشْجَعي لهذين المينائين بأمر الخليفة مروان بن محمد الأموي (١٢٧ـ١٣٢هـ/٧٤٤ـ٧٤٩م) ، وكان زياد يكتب لمروان على النفقات [٢] .

ومنذ العقد الثالث من القرن الثالث الهجري تقريباً ، دخل علم التأريخ مرحلة جديدة متطورة بفضل ظهور طبقة من المؤرخين لا تحدهم مدرسة تأريخية معينة ، أو اتجاه سابق ، بل أفادوا من كل الروافد السابقة ، وربطها في سياق تأريخي متصل وفق النظرة التي تُعبِّر عن وحدة الأمة [٣] . ووضعوا بجهودهم الخيِّرة خطوط علم التأريخ ، وركّزوا الآراء ، والأفكار التأريخية التي سار عليها مؤرخوا العصور التالية [٤] .

وفي النصف الثاني من هذا القرن ، وبعد تطور حركة الترجمة ، بدأ التأليف في « التأريخ العالمي » ، وهو ما يميز هذه المرحلة ، وهو يبدأ بخلق آدم عليه السلام ، ثم عرض موجز للتأريخ العالمي على نطاق يتسع ، أو يضيق تمهيداً لإيراد التأريخ الإسلامي ذاته ، والذي قد يطول ، وقد يقصر تبعاً لهدف المؤرخ . وقد يكون تأريخاً عاماً عن الإسلام حتى فترة معينة يتوقف عندها المؤرخ .

ودخل بذلك التصنيف الموضوعي في التأريخ ، فصاحب التأريخ للأنساب والمغازي ، والسِّيَر ، التأليف في التاريخ العام [٥] . وذلك على يد ثُلة من المؤرخين ظهروا في هذا

---

(١) مطبوع بتحقيق : مصطفى السقا ، وآخرون ، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده ، القاهرة ، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م .

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص ٨٠ .

(٣) هاملتون جب : دراسات في حضارة الإسلام ، ص ١٥٣ . محمد عثمان : المدخل إلى التاريخ الإسلامي ، ص ١٦٠ .

(٤) عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، ص ١٣٠ .

(٥) أحمد رمضان : تطور علم التاريخ الإسلامي ، مجلة الدارة ، الرياض ، ع٢ ، ص ٥١ .

العصر ، كأبي بشر هارون بن حاتم البَزَّاز (ت ٢٤٩هـ/٨٦٣م) في كتابه « التأريخ » [١] ، وابن قُتَيْبة الدِّيْنَوَري (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) في كتابه « المعارف » [٢] ، وأبي بكر ابن أبي خَيْثَمة (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) في كتابه « التأريخ الكبير » [٣] ، وابن خُرْدَاذْبَة (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) في كتابه « التأريخ [٤] ، وأبي حنيفة الدِّيْنَوَري (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) في كتابه « الأخبار الطوال » [٥] ، واليعقوبي (ت ٢٩٢هـ/٩٠٥م) في كتابه « تأريخ اليعقوبي » [٦] ، وكذلك الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) في كتابه « تأريخ الرسل والملوك » [٧] .

كما ظل التوثيق التاريخي عند أغلب مؤرخي هذا القرن يقوم على أساس إيراد مصدر الخبر ، سواءً كان رواية ، أو مصدر مكتوب [٨] .

وهذا الأمر نراه بصورة واضحة في مصنفات البَلاذُري ، والطبري ، وإن كان عند الطبري أكثر وضوحاً . مما يعطي دلالة على تطبيق مبكر لمنهج المحدِّثين على التأريخ . الأمر الذي أكسب أصحاب هذا المنهج قدراً من الواقعية ، واحترام المقاييس النقدية ، وهما شرطان أساسيان في أي تدوين تأريخي أصيل .

---

(١) مخطوط بالخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٤٠/مجاميع) ، الأوراق : [٢١١ ـ ٢١٨] . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي (١/٢/١٤٥) .

(٢) نشرته دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

(٣) مخطوط ، بمكتبة القرويين في فاس ، برقم (٢٤٤) ، توجد قطع واحدة من القسمين : الثامن ، والتاسع ، (١٠ورقات) ، سنة ٦١٠هـ . ويقول فؤاد سزكين : ((ويبدو من القِطع التي وصلت إلينا ، أنه كان كتاباً في تاريخ العالم)) . تاريخ التراث العربي ، (١/٢/١٥٢) . وهو أحد المصادر المباشرة للطبري في كتابه « تاريخ الرسل والملوك » ، والتي اعتمد عليها بكثرة ، لاسيما في الجزء السابع . انظر على سبيل المثال : (٨٦/١ ، ١٦٦) ، (٤١٧/٤ ، ٤١٩ ، ٤٥٢) ، (١٦٨/٥ ، ١٦٩ ، ٢١٥) ، (٦٦/٦ ، ١٢٨ ، ٥٣٠ ، ٥٣٥) ، (١٢٩/٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥١) ، (٢٩٤/٨) .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ، (١٤/١) .

(٥) مطبوع بتحقيق : عمر الطباع ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ، بيروت ، د.ت .

(٦) مطبوع بتحقيق : عبد الأمير مهنا ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

(٧) سبق الحديث عنه ، وانظر ثبت المصادر والمراجع .

(٨) هاري بارنز : تاريخ الكتابة التاريخية ، ص ١٣٧ .

إن الأرتباط بين علم الحديث ، والتأريخ عند العلماء الذين خاضوا في هذين العلمين ، يظل مستمراً مؤثراً في تناولهم للرويات التأريخية . ولذا ، فإنه من الصعب أن نضع فترةً تأريخيةً ينتهي عندها الاعتماد على منهج المحدِّثين في الكتابة التأريخية ، وإلى الأبد ، كما يذهب إليه البعض [١] ، ويجعلون الطبري آخر رجال هذا المنهج ، وهذا أمر لا يتفق مع الحقائق التأريخية .

ذلك أن أغلب من يسير على منهج نقد سَنَد الروايات التأريخية هم أهل الحديث ، ولذا ، فإن هذا المنهج باقٍ ما بقي رجال الحديث . فالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م) أحد رجال القرن الخامس الهجري ، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢٢م) من أئمة القرن الثامن الهجري في الحديث ، والتأريخ . وكلاهما اتبع المنهج نفسه . وإن كان عند ابن كثير أكثر دقة عنه عند الخطيب البغدادي ، وغيرهم كثير لو أردنا الاستقصاء .

إن الأمر يتعلق بوجهة نظر علماء القرآن ، والحديث بالنسبة لما يوردونه في كتبهم المتعلقة بعلوم القرآن ، وعلوم الحديث ، وطبقات رواتهما . وهما مصدرا التشريع الإسلامي ، الأمر الذي طغى على أسلوبهم في تناول القضايا ، سواء المتعلقة بالرجال ، أو الوقائع ، والأحداث التاريخية .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن علم التأريخ نشأ في أحضان علم الحديث ، وخاصة فيما يتعلق بكُتب الطبقات ، والتراجم ، وهو ما يصوره سفيان الثوري في قوله : ((لما استعمل الرُّواة الكذب ، استعملنا لهم التأريخ)) [٢] ، وذلك قبل التدوين التأريخي العام ، فتأثر كتَّابه بروح النقد لما يُوردونه ، متأثرين بمنهج المحدِّثين على نحو ما نجده في كتاب « أنساب الأشراف » [٣] للبلاذُري ، و« تاريخ خليفة بن خياط » [٤] ، و« طبقات خليفة بن خياط » [٥] .

---

(١) محمد ريان : علم التاريخ عند المسلمين وتطوره ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق ، ع٣٣ ، ٣٤ ، ص ٩٥ ـ ٩٦ .

(٢) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ ، ص ٩ .

(٣) طبع الكتاب متفرقاً في أماكن ، وفترات مختلفة ، وطبع أخيراً كاملاً بتحقيق : سهيل زكار ، ورياض زركلي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

(٤) مطبوع بتحقيق : مصطفى فواز ، وحكمت كشلي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

(٥) مطبوع بتحقيق : أكرم ضياء العمري ، دار طيبة ، الرياض ، ١٩٨٣م .

وينبغي الالتفات إلى أن استخدام منهج المحدِّثين في سرد سَنَد الرواية ، قد يؤدي في بعض الأحيان إلي نوع من الضعف في الرواية التأريخية ، إذا ما طَبق المؤرخ معايير النقد الخاصة بعلم الرجال (الجرح والتعديل) ، فالطبري مثلاً ، يُفضل الروايات التأريخية التي أوردها سيف بن عمر على روايات الواقدي ، لأن الثاني مُتهم عند المحدِّثين ، على الرغم من أنه ثقة في حقل التأريخ ، لا سيما في المغازي ، والسِّيَر ، وهو ما أجمع عليه المؤرخون السابقون ، واللاحقون ممن ترجم له ⟨١⟩ .

ويمكن القول أن الإسناد في الرواية التأريخية ، والذي كان سائداً في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، بدأ يفقد وظيفته في هذا العصر ، واتجه إلى الزوال ، وأخذ التأريخ بهذا الشكل يدخل في طور جديد ، حيث أخذ العرض الأدبي يبرز في الكتابةالتاريخية ، بعد حذف الأسانيد ، واختصار الرواية ، وذلك منذ أوائل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، على يد المؤرخ أبو الحسن المسعودي (ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م) بعد المؤرخ الطبري ، الذي كان خاتمة طور التأريخ في القرن الثالث الهجري ، إذ بلغ التدوين التأريخي ذروته بكتابه « تأريخ الرسل والملوك » ، واعتمد عليه المؤرخون من بعده ، مثل : مسكويه ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، والذهبي ⟨٢⟩ .

وأدى تعقيد النظم الحكومية ، وظهور طبقة من الكتَّاب ، ورجال الدولة ، والمتصلون بهم ، الذين شاركوا في التدوين التأريخي ، لا سيما السياسي منه ، لم تعد كافية وحدها لكتابة التأريخ ⟨٣⟩ بعد ظهور مصادر جديدة لكثير من الأخبار التي لا تستند في إيرادها على راوٍ لها فقط ، وإنما على مكاتبات ، وعهود ، ورسائل ديوانية ، وأحداث معاصرة للمؤرخ ، تجعل الكتابة التأريخية تدخل في طور جديد في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، الذي شهد تغيُّراً ملحوظاً على الساحة السياسية ، ونمو إيجابي للحياة العلمية ، ومتغيرات اجتماعية ، واقتصادية ، تأثر بها المؤرخون في كتابتهم التأريخية ، سلباً ، أو إيجاباً .

---

(١) انظر عن هذه النقطة : هاملتون جب : دراسات في حضارة الإسلام ، ص ١٥٦ . محمد ترحيني : المؤرخون والتاريخ عند العرب ، ص ٥٤ ـ ٥٧ .

(٢) محمد ريان : علم التاريخ عند المسلمين وتطوره ، ص ٧٥ ، ٩٥ ، ٩٦ .

(٣) هاملتون جب : دراسات في حضارة الإسلام ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

ولقد اتخذ التدوين التأريخي طُرقاً عدة ، تبعاً لطبيعة الموضوعات المطروقة ، ومدى علاقتها بالنواحي السياسية ، أو الاجتماعية أو الاقتصادية ، أو الفكرية الراهنة . وهذه الطُرق هي :

١ ــ التدوين الموضوعي :

وهو التأليف في موضوع معين ، ومستقل ، تبعاً للهدف الذي يبتغية المؤرخ من وراء طَرْق هذا الموضوع . فعلى سبيل المثال ، مسألة تعيين الخرَاج ، وفرض الجِزْية على أهل البلاد المفتوحة ، واختلاف المؤرخين بشأنها : هل فتحت عنوة ، أو صلحاً ؟ ، حملت البَلاذُري على تصنيف كتابه « فتوح البلدان » [١] . موضحاً في حديثه عن كل مدينة فتحت ، هل كان فتحها عنوة ، أو صلحاً ؟ . وفي هذا أهمية تشريعية بالغة ، لارتباطها بتنظيم شؤون مال المسلمين .

موضوع الاهتمام بالمعوقين في المجتمع ، دفع الجاحظ إلي وضع كتابه « البرصان والعرجان والعميان والحولان » [٢] ، ليثبت أن هذه الصفات ارتبطت أحياناً بالشرف ، والأعمال الجليلة ، حتى أنها أصبحت موضع فخر ، ومجال تباه لأصحابها ، وذلك بإيراد أخبارهم [٣] .

وكان تأريخ الوزراء والوزارة ، ومسيرة الإنشاء ، من الموضوعات التي شغلت الكتَّاب في هذا العصر ، فأخرج أبو عبيد الله الجَهْشياري (ت ٣٣١هـ/٩٤٣م) كتابه « الوزراء والكتَّاب » . في حين صنف القاضي محمد بن خلف المعروف بوكيع (ت ٣٠٦هـ/٩١٨م) كتاب « أخبار القضاة » [٤] .

---

(١) مطبوع بتحقيق : رضوان محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

(٢) مطبوع بتحقيق : عبد السلام هارون ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٨٢م .

(٣) عبد الرحمن الشيخ : كتب الأخبار مرحلة من مراحل الكتابة التاريخية ، مجلة عالم الكتب ، مج٨ ، ع١ ، ص ٢٩ .

(٤) نشرته دار عالم الكتب ، بيروت ، د.ت .

وكان مبدأ تقليد الناس للخلفاء في شتى مناحي الحياة ، في المأكل ، والمشرب ، والملبس ، والزهد ، والعمران ، والجود ، والكرم ، وغيرها مبعثاً لليعقوبي بأن يجمع أخباراً لنماذج من هذه التقاليد ، ويضمنها كتابه الموسوم بـ « مُشاكلة الناس لزمانهم » [١] في نظرة مقتضية حول هذا الموضوع منذ عهد الخلفاء الراشدين وحتى عهد الخليفة المعتضد .

وكانت الفتن ، وطبقات المجتمع ، وغيرها ميداناً فسيحاً أيضاً لكتب الأخبار . ويمكن أن نلحظ هذا في كتاب « عيون الأخبار » لابن قُتَيْبة الدِّيْنَوَري .

أيضاً ، كانت أخبار القبائل العربية وسيرتها من الموضوعات التي تطرَّق إليها الإخباريين ، على منوال كتاب « أخبار قريش » لأبي بكر بن أبي الدُّنيا (ت ٢٨١هـ/٨٩٤م) [٢] .

ولقيت بعض المدن العراقية الكبيرة اهتمام أبنائها من أهل العلم ، والأدب ، الذين ترجموا هذا الاهتمام في صورة مؤلفات عنها ، كما فعل أبو العباس أحمد بن الطَّيِّب السَّرَخْسي (ت ٢٨٦هـ/٨٩٩م) عندما صنَّف كتابه « فضائل بغداد وأخبارها » [٣] ، وكذلك المحدِّث والفقية ، أبو يحيى زكريا بن يحيى البصري السَّاجي (ت ٣٠٧هـ/٩١٩م) ، الذي وضع مؤلفاً عن البصرة بعنوان : « تاريخ البصرة » [٤] ، وكان أحد مصادر ياقوت الحموي في كتابه « معجم البلدان » ، وابن حجر في « لسان الميزان » [٥] .

وفي المقابل ، كان بعض المؤرخين لا يهدف في تصنيفه ، الحديث عن موضوع معين ، وإنما يقوم بجمع أخبار في موضوعات شتى ، بهدف الترويح ، والتسلية من خلال تنوّع موضوعات الكتاب ، وقد اتخذ أبو جعفر محمد بن عبد الله الحَضْرمي الكوفي

---

(١) مطبوع بتحقيق : وليم ملورد ، دار الكتب الجديدة ، ١٩٦٢م . وانظر مقدمة المحقق .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٣٢٢ .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٩٤ .

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٧٣/١) .

(٥) انظر : المصدر السابق ، (٧٣/١) ، (١٧٧/٢ ، ٤٩٣) ، (٣٠٠/٣) ، (٧٥/٤ ، ٤٤٤ ، ٤٧٦) ، (٩٣/٥ ، ٢٣٩ ، ٣١٧ ، ٣٣٢) . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٢١٨/٢/١) .

(ت ٢٩٧هـ/٩٠٩م) هذا المنهج في كتابه « أخبار وحكايات » [١] . وكذلك قُدَامة بن جعفر في كتابه « زهر الربيع » [٢] . والموضوع يطول لو أردنا التوسع في ذلك .

٢ ــ التدوين الحولي :

لقد كان ترتيب الأحداث التاريخية على السنين منهجاً سار عليه بعض مؤرخي العصر ، كأبي حسّان الحسن بن عثمان الزِّيادي (٢٤٢هـ/٨٥٦م) في كتابه « التأريخ على السنين » [٣] ، وخليفة بن خياط في تأريخه ، والطبري في تأريخه أيضاً .

ولا نجد بعد الطبري مؤرخاً يأخذ على عاتقه جمع المواد عن تأريخ صدر الإسلام ، والنظر فيها من جديد ، وإنما المصنفون من بعده ، إما نقله للروايات عنه ، كمسكويه ، وابن الأثير ، وابن الجوزي ، وإما مؤرخون يبتدئون من حيث انتهي ، كما فعل محمد بن عبد الملك الهمذاني في كتابه « تكملة تأريخ الطبري » [٤] .

ومنذ منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، أصبح النموذج الرئيسي للتأليف التأريخي ، هو : التدوين الحولي ، مُصدَّراً بموجز للتأريخ العام [٥] .

غير أن هذه الكتب ، كانت في مجملها ، تواريخ سياسية جافة ، إذ التركيز فيها منصباً على الأوضاع السياسية بمختلف أوجُهِهَا ، دون التعرض للأوضاع الدينية ، أو الاجتماعية ، أو الثقافية ، إلا لماماً ، وقد لا تذكر .

---

(١) مخطوط بمكتبة تشستربتي في دبلن (أيرلنده) ، برقم (٢/٣٨٤٩ مجاميع) ، الأوراق : [٢٦ ـ ٣٢] ، ٥٩٧هـ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ، (١٦/١) .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٥٧/٧) . وهو أحد المصادر التي اعتمد عليها ابن طيفور في كتاب « بغداد » ، اذ ينقل عنه في مواضع عدة ، انظر على سبيل المثال : ص ٩ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٣٤ ، ٨١ ، ١٠١ ، ١١٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٤) نشر مع كتاب « تاريخ الرسل والملوك » للطبري ، في الجزء (١١) من الكتاب ، ومعه « صلة تاريخ الطبري » لعريب بن سعد القرطبي ، انظر ثبت المصادر والمراجع .

(٥) هاملتون جب : دراسات في حضارة الإسلام ، ص ١٥٨ .

٣ ــ التدوين بحسب الشخصيات ، والأسر الحاكمة :

وهو منهج نحى إليه بعض المؤرخين ، ويكون ترتيب الأحداث على التسلسل التأريخي للأنبياء ، وملوك الأرض حتى الفترة التي يتوقف عندها المؤرخ ، وهو منهج أكثر اتساقاً في الترتيب من التأريخ الحولي ، من حيث وحدة الموضوع .

ويخصص المؤرخ عادة ترجمة للحاكم ، إما في السنة التي تولي فيها السلطة ، أو في سنة وفاته ، مع إعطاء نبذة في بعض الأحيان ، عن بعض مظاهره الخُلقية ، وعدد أولاده ، ونسائه ، وأسمائهم ، وأسماء وزرائه ، ومن توفى في عهده من العلماء ، والأدباء ، على نحو ما نجده عند اليعقوبي في تأريخه ، وكذلك الجهشياري في كتابه السابق ، والصولي في كتابه « أخبار الراضي بالله والمتقي لله » [١] ، وأيضاً المسعودي في كتبه : « مروج الذهب » ، و« التنبيه والإشراف » ، و« مشاكلة الناس لزمانهم » ، و« أخبار الزمان ومن أباده الحدثان » ، وكذلك أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ/٨٦٠م) في كتابيه « تأريخ الخلفاء » [٢] ، و« المُحَبَّر » [٣] . وأيضاً ، أبو الفضل محمد بن أحمد بن عبد الحميد الكاتب (٢٨٧هـ/٩٠٠م) في مصنفه « أخبار خلفاء بني العباس »[٤] . وأبو عبد الله محمد بن العباس اليَزِيدي (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) في كتابه « مناقب بني العباس » [٥] .

وتميز اليعقوبي عن غيره في هذا المنهج ، بإيراده للظواهر الفلكية « الأنواء » في كتابه بشكل واسع [٦] .

---

(١) مطبوع بتحقيق : ج . هيورث ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ١٧١ .

(٣) مطبوع بتحقيق : إيلزة ليختن شتيتر ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ـ الدكن ، ١٩٤٢م .

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص ٢٨١ . وقد استقى الجهشياري من كتاب أبي الفضل قائمة من قوائم الخراج أيام الرشيد ، ص ٢٨١ ــ ٢٨٨ .

(٥) القفطي : إنباه الرواة ، (١٩٩/٣) .

(٦) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، (٣٢٧/١ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٤٤٤) ، (٢٧/٢ ، ٥٦ ، ٧٥ ، ١٢٣ ، ١٨٧ ، ١٨٨) ، وغيرها من المواضع .

أما البَلاذُري فقد طبق المبدأ النسبي في كتابه « أنساب الأشراف » ، وهو يريد القول : بأن أعضاء الأُسر البارزة كانوا ، في الوقت نفسه ، زعماء الحياة السياسية . فكان مبدأه الأساسي في الترتيب ، هو العلاقات القبلية ، والعائلة للشخصيات التاريخية ، على الرغم من أن تراجم الخلفاء كانت طاغية عليه . أما منهجه فهو على صورة تأريخ الخبر ، والدول .

وهذا النمط من التأليف عند البَلاذُري لم يعد مناسباً للوضع الجديد في العراق ، سواء من الناحية السياسية ، أو الاجتماعية ، ذلك أن المعايير التي احتذاها البَلاذُري لم يَعد لها وجود في العراق خلال عصر نفوذ الأتراك ، وفي هذا الصدد يقول روزنتال : ((والحقيقة أن العوامل التي شكَّلت تأريخ الإسلام لم تعد تتركّز على الأنماط النسبية منذ زمن البلاذري ، ومنذ أن امتد الإسلام وراء حدود جزيرة العرب ، واجتاز الحدود الجامدة للمجتمع البدوي (القبلي) ، لذلك لم يكن التأريخ النسبي الذي هو على نمط كتاب « الأنساب » أداة ملائمة لكتابة تاريخ المدينة الإسلامية المعقدة)) [١] .

ومن المؤرخين من يجعل عاصمة الخلافة ، وأحداثها بمثابة المرآة التي تعكس الوضع السياسي للدولة ، فنجد أبو الفضل أحمد بن طاهر المعروف بابن طَيْفور (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) يصنِّف كتاباً بعنوان « بغداد » [٢] ، ولكنه يتحدث عن أخبار الدولة العباسية من خلال تتبعه لأخبار الخلفاء العباسيين ، ووصل بكتابه هذا إلى آخر أيام المهتدي ، وزاد ابنه عبيد الله (ت ٣١٥هـ/٩٢٧م) إلى أيام المقتدر ، ولم يتمه [٣] .

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين ، ص ١٣٦ .

(٢) لم يظفر الباحثون من هذا الكتاب إلا بالجزء السادس ، وهو يحتوي على أخبار الخليفة المأمون منذ دخوله بغداد سنة (٢٠٤هـ/٨١٩م) إلى وفاته سنة (٢١٨هـ/٨٣٣م) . وقد طبع هذا الجزء بتحقيق : محمد زاهد الكوثري ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م . وأعيد طبعه في عام ١٤١٥هـ/١٩٩٤م عن الطبعة السابقة .

(٣) ابن طيفور : بغداد ، ص ٧ . (مقدمة المحقق) .

٤ ــ التدوين في التراجم والطبقات :

كان ميدان التراجم ، والطبقات ، من فروع التأريخ التي بدأ التأليف فيها مبكراً ، فسِيَر العلماء ، كانت في نظر المستفيدين منها ، من العلماء وطلاب العلم ، هي التأريخ الصحيح للأمة على نحوٍ أصدق من بقية المصنفات التأريخية ، السياسية في طابعها ومحتواها ، كما وأن في سيرة علماء الأمة خير ما يقتدي به الإنسان بعد سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم .

واختلفت عناوين هذه التراجم ، كاستخدام لفظ « أخبار » على نحو كتاب « أخبار الشيوخ وأخلاقهم » [١] لأبي بكر أحمد بن محمد المَرْوَزي (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م) وكتاب « أخبار المنصور » [٢] لعمر بن شبَّة (ت ٢٦٢هـ/٨٧٦م) . وكتابي أبي بكر الصُّولي (ت ٣٣٥هـ/٩٤٦م) : « أخبار البحتري » [٣] ، و« أخبار أبي تمام » [٤] . وكتابي : « أخبار ذي الرمة » ، و« أخبار حماد عجرد » لأبي محمد إسحاق الموصلي (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م) [٥] ، وكتاب « أخبار المقتدر بالله » لابن عبدوس الجهشياري [٦] .

وفي بعض الأحيان تكون خاصة بالأسماء والكُنى ، على نحو ما صنفه علي بن عبد المعروف بابن المديني (ت ٢٣٤هـ/٨٤٨م) في كتابه « الأسماء والكني » [٧] ،

---

(١) توجد نسخة مخطوطة للجزء الثالث من هذا الكتاب بالمكتبة ، المركزية في الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، برقم (٣/٧٤٢٨) تراجم ، عدد أوراقها (١٨ ورقة) ، وهي مصورة عن نسخة دار الكتب الظاهرية ، دمشق ، وقد كتب على صفحة العنوان : « الجزء الثالث من أخبار الشيوخ وأخلاقهم » . يستعرض فيه المؤلف أخبار العلماء ، وما جاء عنهم من أقوال ، سواء صدرت عنهم ، أو قيلت فيهم .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ١٨٠ .

(٣) مطبوع بتحقيق : صالح الأشتر ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٥٨م .

(٤) مطبوع بتحقيق : خليل عساكر وآخرون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧م .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٢٢٧ .

(٦) المسعودي : مروج الذهب ، (٢٩٣/٤) ، وذكر المسعودي أن هذا الكتاب يقع في ألف ورقة ، وأنه امتلك جزء منه .

(٧) النديم : الفهرست ، ص ٣٨١ .

والقاضي أبو عبد الله محمد بن أحمد المُقَدَّمي (٣٠١هـ/٩١٤م) في كتابه « أسماء المحدثين وكناهم » [١] .

ويمكن أن يكون التطور التأريخي لعلم من العلوم موضوعاً يستحق التصنيف من خلال تتبع علماء الفن ، وأسماءهم ، وأعمارهم ، وما أسهموا به في كل حقبه تأريخية مرَّ بها هذا العلم ، أو الفن ، وهو ما قام به إسحاق بن حنين العبادي في كتابه « تأريخ الأطباء والفلاسفة » [٢] .

وتأخذ بعض كتب التراجم صورة التواريخ المحلية ، كما صنع أسلم بن سَهْل الواسطي المعروف ببَحْشَل (ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م) في كتابه « تأريخ واسط » [٣] ، إذ صرف عنايته في هذا الكتاب إلى ذكر أشهر محدثي مدينة واسط ، الذين نشأوا فيها ، أو قَدِموا إليها ، وذكر شيء من أخبار بعضهم .

كما ظهرت كتب في طبقات العلماء في مختلف العلوم ، وخاصة طبقات المحدِّثين والفقهاء ، وعلماء اللغة ، والنحو ، والأدب . ووجودها في تلك الفترة إشارة واضحة لمواكبة التأريخ لحركة النقد ، سواء في العلوم الشرعية ، أو العلوم اللغوية والأدبية . ومن أمثلة ذلك : كتاب « طبقات النحاة البصريين » للمبرِّد ، وهو أول من سنَّف في هذا الموضوع [٤] ، وكذلك « طبقات القراء » لخليفة بن خياط [٥] ، وأيضاً ، كتاب « طبقات الشعراء » [٦] لأبي حسّان

---

(١) مخطوط مصور في معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، برقم (٧٦٢) التاريخ والتراجم . ويقوم منهج المُقَدَّمي في كتابه هذا ، على ذكر كُنى المحدِّثين المشهورة ، ثم يورد أسمائهم بعد ذكر كناهم ، وهكذا إلى آخر الكتاب .

(٢) طبع مع كتاب « طبقات الأطباء والحكماء » لابن جلجل ، بتحقيق : فؤاد سيد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(٣) مطبوع بتحقيق : كوركيس عواد ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١١٠٧/٢) .

(٥) البغدادي : هدية العارفين ، (٣٥٠/١) .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ١٧٦ .

الحسن بن عثمان الزِّيادي (ت ٢٤٣هـ/٨٥٧م) ، وكتاب « طبقات الأسماء المفردة » [١] للمحدِّث أبي بكر أحمد بن هارون البَرْذَعي المعروف بالبَرْدِيجي (ت ٣٠١هـ/٩١٣م) .

ومن الأمور الهامة التي ينبغي الإشارة إليها في هذا المقام ، هي العلاقة الوطيدة بين علمي : التأريخ ، والجغرافيا .

فقد وُجِد في هذا العصر أسماد شهيرة في ميدان التأريخ ، كانوا في الوقت نفسه من المبرِّزين في ميدان الجغرافيا ، ولهم مصنفات مشهورة فيه ، كاليعقوبي ، والمسعودي ، اللذان سجَّلا الكثير من المعلومات في مؤلفاتهم التأريخية ، معتمدين على ما جمعوه من مادة علمية من خلال رحلاتهم الواسعة في شتى أصقاع العالم الإسلامي ، وغير الإسلامي . ونظرة في مؤلفاتهم نَلْمح إسهام الجغرافيا في التأريخ ، والتي يمثلها « أدب الرحلة » بشكل واضح وجلي ، والعكس صحيح ، فإن كثير من كتب الجغرافيا ، لا سيما كتب « البلدان » ، بها زخم كبير من المعلومات التأريخية .

ويعتبر المسعودي أول من جمع بين التأريخ والجغرافيا ، وذلك في كتابه « مروج الذهب » ، إذ خصص كتب كثيرة من كتابه هذا [٢] للنواحي الجغرافية لدرجة يمكن معها اعتبار الجزء الأول من هذا الكتاب ، كتاباً جغرافياً أكثر منه تأريخياً . فنجد المسعودي يتحدث عن وصف الأرض ، وشكلها ، ويتحدث عن المدن ، ومواقعها . وتفسير بعض الظواهر الجغرافية بعد إيراد أخبارها . كما يتناول الحديث عن المحيطات ، والأنهار ، والبحار ، لعلة في تسمية بعضها ، وكذا الجُزر ، وحدود المدن ، والأقاليم ، وأبرز المعالم الموجودة بها ، مع بيان لتأريخها ، وغير ذلك مما يدخل في نطاق علم الجغرافيا ، كما اتبع النهج نفسه في كتابه « أخبار الزمان ومن أباده الحدثان » [٣] .

ويمكن القول بأن علم التأريخ قد تقدَّم في هذا العصر ، وأصبح له منهج مرسوم ، ومعالم واضحة ، سار عليها مؤرخوا العصور التالية .

---

(١) مطبوع بتحقيق : سكينه الشهابي ، مكتبة طلاس ، دمشق ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

(٢) مروج الذهب ، (١/٨٦ ــ ١٢٩ ، ١٤٧ ــ ١٥٨ ، ١٨٢ ــ ١٨٦ ، ٢١٣ ، ٢٣٩ ــ ٢٤٠ ، ٢٥٠ ــ ٢٥٧ ، ٢٦٦ ــ ٢٧٥) .

(٣) المصدر السابق ، (١/٩) .

والمؤرخون في هذه الحقبه التأريخية كُثُير ، والعلة في ذلك ، أن التأريخ كان علماً مفتوحاً لكل أصحاب العلوم ، والمعارف في ذلك الوقت [١] ، ويمكن أن نلمس هذا الأمر من أسماء من ساهم في التأليف التأريخي من علماء الشريعة ، واللغة ، والأدب ، والجغرافيا ، والطب ، والفلك ، وغيرهم مما يجعل الأمر أكثر صعوبة فيما لو أردنا استقصاء كل من ألَّف في التأريخ ، ولكن سوف يكون الحديث مقصوراً على أعلام المؤرخين ، الذين أسهموا في بنائه ، وجعلوه ، ابتداءً من هذا العصر ، علماً له قواعده ، وأُسسه ، ومثالاً يَحتذيه من جاء بعدهم من المؤرخين .

فمن أبرز مؤرخي هذا العصر ، **أبو بكر عبد الله بن محمد القبسي المعروف بابن أبي شيبة** (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م) . أحد أعلام المؤرخين في وقته ، وأحد أئمة الحديث [٢] . وكما كان مبرِّزاً في الحديث ، كان كذلك في التأريخ ، بما أسهم به ميدان التدوين التأريخي ، ومن ذلك : كتاب « التأريخ » ، وكتاب « الفتن » ، وكتاب « صفين » ، وكتاب « الجمل » ، وكتاب « الفتوح » [٣] .

وممن برز في علم الأنساب ، **أبو عبد الله مصعب بن عبد الله الزبيري** (ت ٢٣٦هـ/٨٥٠م) سكن بغداد ، وحدَّث بها عن : عبد العزيز الداروَرْدي ، والضحاك بن عثمان ، وإبراهيم بن سعد ، وعبد العزيز بن أبي حاتم ، وغيرهم . وكتب عنه : يحيى بن معين ، وأبو خيثمة . وروى عنه : ابن أخيه ، الزبير بن بكار ، وأحمد بن خيثمة ، وإبراهيم الحربي ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل ، وخلق سواهم . وله شعر أورده المرزباني في كتابه .

---

(١) كان العلماء الكبار يهتمون بتاريخ العلوم التي يدرسونها ، وهو أمر مهم ولا شك ، فالخلْفِية التاريخية لها انعكاسها الايجابي على بروز الإنسان فيما يتعلمه ، فقد كان ثابت بن قرة الطبيب (ت ٢٨٨هـ/٩٠١م) على سبيل المثال ، يتمتع بدراية واسعة بتاريخ الأطباء ، وخاصة اليونان ، من حيث ترتيبهم الزمني ، وأسمائهم ، والحقب التاريخية التي عاشوا فيها ... الخ . انظر : القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٠٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، (٣١٥/١١) . وانظر طرفاً من سيرته في مبحث علوم الحديث ، ص .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٣٧٨ .

وكـان أبـو عبـد اللـه عـالماً بالأنسـاب ، ووصـفـه العباس بن بشر بأنه ((أفـقـه قـريش في النَّسب)) . وسُئل يحيى بن معين عنه ، فقال : ثقـة . كمـا نعتـه بأنه عـالم بالنسب [١] .

وترك أبو عبد الله الزُّبَيْري مؤلفات في الأنساب ، منها : كتاب « نسب قريش » [٢]، وكتاب « النسب الكبير » [٣] .

ومـن رواة الحديـث المؤرخـين ، **أبـو عمـرو خليفـة بـن خيـاط العصفري** (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) ، أحد رواة الحديث المشهورين . وقد وردت ترجمته من قبل في مبحث علوم الحديث .

وكـان أحـد العـارفين بالأنسـاب ، والسِّيَر ، وأيام الناس [٤] . خلَّف العـديد من المصنفات التاريخية ، منها : كتاب « التأريخ » [٥] ، كتاب « الطبقات » [٦] ، كتاب « طبقات القراء » ، كتاب « تأريخ الزمني والعرجان والمرضي والعميان » [٧] .

ويُعد **أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية** (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م) ، أحد العلماء البغداديين في الأنساب ، والأخبار ، والقبائل ، واللغة . مكثر من روايتها ، مُوَثَّقاً في روايته . اتخذ التأديب مهنة له .

وقد أُعجب به أبوالعباس ثعلب ، وقال عنه : ((كان والله حافظاً صدوقاً)) .

---

(١) انظر ترجمة الزُّبَيْري في : النديم : الفهرست ، ص ١٧٦ . المرزباني : معجم الشعراء ، ص ٢٩٣ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١١٢/٣ ـ ١١٤) .

(٢) مطبوع بتحقيق : ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣م .

(٣) البغدادي : هدية العارفين ، (٤٦٢/٢) .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢٤٣/٢ ـ ٢٤٤) .

(٥) مطبوع بعنوان « تاريخ خليفة بن خياط » . سبق الحديث عنه .

(٦) مطبوع بعنوان « طبقات خليفة بن خياط » . سبق الحديث عنه .

(٧) النديم : الفهرست ، ص ٣٨٢ .

روى أبو جعفر عن : هشام الكلبي، وابن الأعرابي ، وقُطْرب ، وأبي عبيدة ، وأبي اليقظان ، وغيرهم . وروى عنه : محمد بن أحمد بن أبي عرابة ، وأبو سعيد السكري ، وغيرهم [١] .

وخلَّد أبو جعفر ذكره في مضمار التأريخ ، بما تركه من مصنَّفات في مختلف الموضوعات التأريخية ، ومن هذه المؤلفات : كتاب « المحبر » ، كتاب « أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام ، وأسماء من قتل من الشعراء » [٢] ، كتاب « ألقاب الشعراء ، ومن يعرف منهم بأمه » [٣] ، كتاب « الأمثال ، وما جاء اسمان ، أحدهما أشهر من صاحبه ، فسميا به » [٤] ، كتاب « أمهات النبي صلى الله عليه وسلم » [٥] ، كتاب « من نسب إلى أمه من الشعراء » [٦] ، كتاب « كنى الشعراء ، ومن غلبت كنيته على إسمه » [٧] ، كتاب « مختلف القبائل ومؤتلفها » [٨] ، كتاب « المنمق في أخبار قريش » [٩] ، كتاب « النسب » ، كتاب « العمائر والربائع في النسب » ، كتاب « المؤتلف والمختلف في النسب » ، كتاب « المذهب في أخبار الشعراء وطبقاتهم » ، كتاب « تأريخ الخلفاء » ، كتاب « من سمى ببيت قاله » ، كتاب « مقاتل الفرسان » ، كتاب « ألقاب اليمن ومضر ربيعة » ، كتاب « أمهات أعيان بني عبد المطلب » ، كتاب « أمهات السبعة من قريش » ، كتاب « الأرحام التي بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أصحابه سوى

---

(١) انظر ترجمة ابن حَبِيب في : المصدر السابق ، ص ١٧١ـ١٧٢ . الخطيب البغدادي:تاريخ بغداد ، (٢/٢٧٧ ـ ٢٧٨) . القفطي : إنباه الرواة (٣/١١٩ ـ ١٢١). ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٨/١١٢ ـ ١١٧) .

(٢) مطبوع بتحقيق : عبد السلام هارون ، ضمن كتابه « نوادر المخطوطات » ، (٢/١٢١ ـ ١٩٧) .

(٣) مطبوع ضمن كتاب « نوادر المخطوطات » ، (٢/٣٢١ ـ ٣٥٤) .

(٤) منشور بتحقيق : محمد حميد الله ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، مج٤ ، ١٩٥٦م ، ص ٣٥ ـ ٤٥ .

(٥) مطبوع بتحقيق : حسين محفوظ ، شركة النشر والطباعة العراقية ، بغداد ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م .

(٦) مطبوع بتحقيق : عبد السلام هارون ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

(٧) مطبوع ضمن كتاب « نوادر المخطوطات » ، (٢/٢٩٩ ـ ٣١٩) .

(٨) مطبوع بتحقيق : حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض ، ١٤٠٠هـ/١٩٨١م .

(٩) مطبوع بتحقيق : خورشيد أحمد ، دائرة المعارف العثمانية ، حيد آباد ـ الدكن ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .

العصبة » ، كتاب « الألقاب » ، ويشتمل علي ألقاب القبائل . كتاب « القبائل الكبير » [١] ، وذكر النديم ، أنه شاهد نسخة من هذا الكتاب عند أبي القاسم بن أبي الخطاب بن الفرات في ورقٍ طَلْحي ، يقع في (نِّيف وعشرون جزءاً) ، وفي كل جزء مائتا ورقة وأكثر . ولهذه النسخة فهرست لما يحتوي عليه من القبائل ، والأيام بخط سِنْدي بن علي الورّاق في ورق طَلْحي نحو (١٥ ورقه) [٢] .

ومن المؤرخين الذين ظهروا في هذا العصر ، **أبو عبد الله محمد بن صالح المعروف بابن النطاح** (ت ٢٥٢هـ/٨٦٦م) ، أحد المؤرخين العالمين بالأنساب ، راوية للسِّيَر ، والسُّنَن . وهو بصري ، قدم بغداد ، وحدَّث بها عن : يوسف بن عطية الصفار ، وعون بن كهمس ، والمنذر بن زناد الطائي ، وغيرهم . وروى عنه : أحمد بن علي الخزاز ، وبشر بن موسى الأسدي ، وأحمد بن القاسم الجوهري ، والهيثم بن خلف الدوري ، وآخرون سواهم .

ويعتبر ابن النَّطَّاح أول من صنَّف في أخبار الدولة العباسية كتاباً وسمه بـ « الدولة » [٣] .

ولابن النَّطَّاح مؤلفات في الأخبار ، والأنساب . فبالإضافة إلى كتاب « الدولة » ، له كتاب « أفخاذ العرب » ، كتاب « أنساب أزد عمان » ، كتاب « الرد على أبي عبيدة في كتاب الديباج » ، كتاب « مقتل زيد بن علي عليهما السلام » [٤] .

أما المؤرخ ، **أبو جعفر أحمد بن الحارث الخزاز** (ت ٢٥٨هـ/٨٧٢م) . فكان من أهل الفهم والمعرفة . روى عن أبي الحسن المدائني تصانيفه . وحدَّث عنه : أبو بكر بن أبي الدنيا ، وأبو سعيد السكري ، وأبو أحمد الجريري ، وجماعة سواهم .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ١٧١ ـ ١٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٣) انظر ترجمة ابن النَّطَّاح في : المسعودي : مروج الذهب ، (١٤/١) . النديم : الفهرست ، ص ١٧٢ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٣٥٧/٥ ـ ٣٥٨) .

(٤) البغدادي : هدية العارفين ، (١٥/٢) .

وكان أبو جعفر مكثراً من الرواية ، موصوفاً بالثقة . وكان شاعراً [١] ، أورد ياقوت الحموي بعضاً من شعره [٢] .

وكان أبو جعفر مهتماً بالتأريخ ، ووصف البلدان . وله في التأريخ : كتاب « أسماء الخلفاء وكناهم والصحابة » ، كتاب « مغازي البحر في دولة بني هاشم » ، كتاب «القبائل» ، كتاب « الأشراف » ، كتاب « أبناء السراري » ، كتاب « مغازي النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه وأزواجه » ، كتاب « أخبار أبي العباس » ، كتاب « الأخبار والنوادر » ، كتاب « النسب » ، كتاب « جمهرة نسب الحارث بن كعب ، وأخبارهم في الجاهلية » [٣] .

وعند ذكرنا لأبرز المؤرخين في هذه الفترة لابد من ذكر **أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري** (ت ٢٦٢هـ/٨٧٦م) . واسم والده (زيد) وشَبَّه لقب له . وأبو زيد أحد أبرز رواة الحديث ، والقراءات ، وممن اشتهر برواية الأخبار ، والنوادر ، والعلم بالسير ، وأيام الناس ، وسعة الإطلاع ، مع صدق فيما يرويه . أخذ القراءة عن جبلة بن مالك عن المفضل بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود . وسمع القراءات من : محبوب بن الحسن ، وعبد الوهاب الثقفي ، وعمرو بن علي ، وغيرهم . وروي القراءة عنه : عبد الله بن سليمان ، وعبد الله بن عمر الوراق ، وأحمد بن فرج ، وغيرهم . وسمع منه : أبو محمد بن الجارود . وقد روى عنه ابن ماجة في سُنَنِه .

ووصفه أبو حاتم الرازي بأنه صَدوق ، ووثقه الدار قطني [٤] .

ولابن شَبَّة مصنفات اشتهرت في وقته ، ولا تزال أحد المصادر التأريخية المهمة في الموضوعات التي صُنِّفت فيها .

---

(١) انظر ترجمة الخزّاز في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٢٢/٤ ـ ١٢٣) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٣/٣ ـ ٨) .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٤/٣ ـ ٥ ، ٦ ، ٧) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ١٦٩ .

(٤) انظر ترجمة ابن شَبَّة في : النديم : الفهرست ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٠٨/١١ ـ ٢١٠) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٤١/٥) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،(٦٠/١٦ ـ ٦٢) . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤٤٠/٣) . ابن كثير : البداية والنهاية ، (٣٥/١١) .

ومن أبرز هذه المصنَّفات : كتاب « تاريخ المدينة المنورة » [١] ، كتاب « جمهرة أشعار العرب » [٢] ، كتاب « أخبار أهل البصرة ، أو تأريخ البصرة » ، كتاب « أخبار أمراء البصرة » ، كتاب « الكوفة » ، كتاب « أخبار أمراء الكوفة » ، كتاب « أخبار أمراء المدينة » ، كتاب « أخبار مكة » ، كتاب « أخبار أمراء مكة » ، كتاب « مقتل عثمان بن عفان » ، كتاب « النسب » ، كتاب « أخبار بنى نمير » ، كتاب « فضائل البصرة » ، كتاب « التأريخ » ، كتاب « أخبار المنصور » ، كتاب « أخبار مجنون بنى عامر » ، كتاب « أخبار محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن الهاشمي القرشي » ، كتاب « النحو ومن كان يلحن من النحويين » [٣] .

وممن أسهم في تطور الكتابة التاريخية من مؤرخي هذا العصر ، **أبو الحسن أحمد بن يحيى البلاذري** (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) . من أهل بغداد ، ارتحل في طلب العلم ، فسمع بدمشق : هشام بن عمار ، وأبا حفص عمر بن سعيد ، وغيرهم . وبأنطاكية : محمد بن عبد الرحمن بن سهم ، وأحمد بن مراد الأنطاكي . وسمع بالعراق : عفان بن مسلم ، وعبد الأعلى بن حماد ، وعلي بن المديني ، وعبد الله بن صالح العجلي ، وأبا عبيد القاسم بن سلام ، وأبا الحسن المدائني ، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي ، وآخرين سواهم . وروى عنه : يحيى بن النديم ، وأحمد بن عبد الله بن عمار ، وأبو يوسف القاضي ، ويعقوب نعيم الأرزني ، وغيرهم . ولقد تنوعت مواهب البَلاَذُرِي ، فكان كاتباً أديباً ، شاعراً ، راويةً للأخبار ، نسَّابة ، متقناً . واتصل بالخليفة المأمون ، ومدحه ، كما جالس المتوكل ، والمستعين ، ومات في أيام المعتمد .

كما اتصل البَلاَذُرِي ببعض وزراء الدولة العباسية ، منهم : عبد الله بن يحيى بن خاقان ، وأبا الصقر إسماعيل بن بُلْبُلْ [٤] .

---

(١) مطبوع بتحقيق : فهيم محمود شلتوت ، دار الأصفهاني ، جدة ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية في القاهرة ، برقم (١١٩٤ أدب) ، ١٩٩ ورقة ، ١٣١هـ .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ١٨٠ . البغدادي : هدية العارفين (١/ ٧٨٠) . وذكر فؤاد سزكين في كتابه « تاريخ التراث العربي » ، المصادر التاريخية التي استقى أصحابها بعض مواد كتبهم من مصنفات ابن شبَّة . (١/٢/٢٠٥ ـ ٢٠٧) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٥/٨٩ ـ ١٠٢) .

وقد مرَّ الحديث عن مساهمة البلاذري في حركة التعريب ، إذ قام بترجمة كتاب « عهد أردشير » من الفارسية إلى العربية ، وانتفع به في مؤلفاته التاريخية .

وترك البلاذري جملة من كتب التأريخ منها : كتاب « فتوح البلدان » [١] ، كتاب « أنساب الأشراف » [٢] ، كتاب « الأخبار والأنساب » [٣] ، وذكر النديم : أن شعر البلاذري يقع في خمسين ورقة [٤] .

ويُعد **أبو جعفر محمد بن جرير الطبري** (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) . أحد أبرز مؤرخي العراق في ذلك الوقت ، ومر معنا في الصفحات السابقة شيء من نشاطه في علم التأريخ وذكرت ترجمته في مواضع عدة ، نظراً لإسهاماته في مجال الدراسات الشرعية ، واللغة ، والنحو . غير أن الطبري اكتسب شهرته من خلال تفسيره ، وتأريخه .

واتباع الطبري في تأريخه لمنهج المحدثين طاغ ، وواضح . فهو يذكر في كل حادثة سَندها ، ويَسرد في الحوادث المهمة الروايات المختلفة في الموضوع الواحد ، مما يمكّن القارىء من الموازنة بين الروايات ، ترجيحها .

وذكرنا من قبل ، أن تأريخ الطبري يعتبر عمدة المؤرخين في التأريخ حتى السنة التي توقف عندها كتابه ، وهي سنة (٣٠٢هـ/٩١٥م) ، إذ أن جميع من جاء بعده قد اعتمد عليه في إيراد ما يختص بالتأريخ الإسلامي حتى تلك السنة ، ثم يكمل مادته من الكتب التي كتبت بعد ذلك العام .

---

(١) سبق الحديث عنه . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية على يد المستشرق (هامكر) في حين ترجمه فيليب خوري وآخرون إلى الإنجليزية ، ونقله إلى الألمانية المستشرق (ريشر) . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١٥٣/٢/١) . وقد امتدح المسعودي هذا الكتاب بقوله : ((ولا نعلم في فتوح البلدان أحسن منه)) ، مروج الذهب (١٤/١) .

(٢) سبق الحديث عنه .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ١٨١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٢ . وقد أورد ياقوت الحموي مقطوعات من شعر البَلَاذُري في مناسبات مختلفة ، معجم الأدباء ، (٩٣/٥ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢) .

ومكانة كتاب « تأريخ الرسل والملوك » قد صورها المسعودي مما يُغني عن الزيادة عليه ، إذ يقول : ((وأما تأريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الزاهي على المؤلفات ، والزائد على الكتب المصنفات ، فقد جمع أنواع الأخبار ، وحوى فنون الآثار ، واشتمل على صنوف العلم ، وهو كتاب ، تكْثُر فائدته ، وتنْفع عائدته . وكيف لا يكون ذلك ومؤلفه فقيه عصره ، وناسك دهره ، إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار ، وحَملة السُّنَن والآثار)) [١] .

ومن المحدِّثين الذين أسهموا في ميدان التاريخ ، **أبو القاسم عبد الله بن محمد بن المرزبان البغوي** (ت ٣١٧هـ/٩٢٩م) ، أحد أبرز حفَّاظ الحديث على وقته ومُسنِدهم . سمع : علي بن الجعد ، وخلف بن هشام ، وأبا نصر التمار ، ويحيى الحماني ، وعلي بن المديني ، وأحمد بن حنبل ، وخلقاً سواهم .

وروى عنه جماعة ، منهم : أبو بكر القطيعي ، وأبو حفص الزيات ، والدار قطني ، وأبو حفص بن شاهين ، وآخر من حدَّث عنه : أبو مسلم محمد بن أحمد الكاتب . وروى عنه خلق كثير ، لأنه عمَّر طويلاً ، وتفرَّد بأسانيد عالية ، ومولده كان سنة (٢١٤هـ/٨٢٩م) .

وكان أبو القاسم أحد العلماء الذين أُشتهروا بالوِراقة . قال عنه الدار قطني : ((كان البغوي قلَّ أن يتكلم على الحديث ، فإذا تكلم كان كلامه كالمِسْار في السَّاج)) . أما الخطيب البغدادي فقال عنه : ((كان ثقة ، ثبتاً ، فهماً ، عارفاً)) [٢] .

واهتم أبو القاسم في مؤلفاته بالرجال وتأريخهم ، فألَّف كتباً عدة ، تجمع بين معرفة رجال الحديث ، والتراجم . ومن هذه المصنفات : كتاب « تأريخ وفاة الشيوخ » [٣] ،

---

(١) مروج الذهب ، (١/١٥) .

(٢) انظر عن البغوي في : النديم : الفهرست ، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١٠/١١١ ـ ١١٧) . ابن الجوزي : المنتظم ، (٦/٢٢٧ ـ ٢٣٠) . ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (١/١٩٠ ـ ١٩٢) . الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٣١١ ـ ٣٢٠هـ) ، ص ٥٣٨ . ابن كثير : البداية والنهاية ، (١١/١٦٣ ـ ١٦٣) .

(٣) مخطوط بخزانة الظاهرية بدمشق ، برقم (١٠٦/مجاميع) ، الأوراق : [١٦٨أ ـ ١٧٦ب] ، القرن ٥هـ ، فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (١/١/٣٤٦) .

كتاب « معجم الصحابة »[١] ، كتاب « المعجم الكبير » ، كتاب « المعجم الصغير »[١] ، كتاب « حكايات شعبة وعمر بن مرة »[٣] .

وهذا **أبو العباس أحمد بن عبد الله الثقفي الكاتب** (ت ٣١٩هـ/٩٣١م) ، أحد الكتَّاب المؤرخين . من أهل الكوفة ، وصحب محمد بن داود الجراح الكاتب . وكان يتوكَّل للوزير القاسم بن عبيد الله ، وولده .

حدَّث أبو العباس عن : عثمان بن أبي شيبة ، وسليمان بن أبي شيخ ، وعمر بن شبة ، ومحمد بن داود بن الجراح ، وغيرهم . وروى عنه : أبو بكر بن الجعابي القاضي ، ومحمد بن عبد الله القطان ، ومحمد بن أحمد بن المتيم ، وإسماعيل بن محمد بن زنجي الكاتب ، وأبو عمر بن حيويه ، وأبو الفرج الأصفهاني ، وآخرون[٤] .

ولأبي العباس إسهام في المكتبة التاريخية في هذا العصر ، من خلال العديد من المؤلفات التي وضعها في موضوعات شتىً ، يَنِمُّ بعضها عن تشيُّعِه . ومن هذه المصنفات : كتاب « المبيضة » في أخبار مقاتل آل أبي طالب ، كتاب « مثالب أبي نواس » ، كتاب « أخبار سليمان بن أبي شيخ » ، كتاب « الزيادات في أخبار الوزراء » ، كتاب « أخبار حجر بن عدي » ، كتاب « أخبار أبي نواس » ، كتاب « أخبار ابن الرومي والاختيار من شعره » ، كتاب « رسالة في بني أمية » ، كتاب « رسالة في تفصيل بني هاشم وأوليائهم ، وذم بني أمية وأتباعهم » ، كتاب « أخبار أبي العتاهية » ، كتاب « أخبار عبد الله بن معاوية بن جعفر » ، كتاب « رسالة في مثالب معاوية » ، كتاب « صفين » ، كتاب « الجمل »[٥] .

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٣١١ ـ ٣٢٠هـ) ، ص ٥٤١ ، وذكر الذهبي أن هذا الكتاب يقع في مجلدين .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٣٤٨ .

(٣) مخطوط بخزانة الظاهرية بدمشق ، برقم (٢١/مجاميع) ، الأوراق : [١٦ ـ ٢١] ، ٦٦٤هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي (٣٤٦/١/١) .

(٤) انظر ترجمة الثقفي في : النديم : الفهرست ، ص ٢٤٠ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٥٢/٤ ـ ٢٥٣) . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٣٢/٣ ـ ٢٤٢) .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٢٤٠ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٤٢/٣) . البغدادي : هدية العارفين ، (٥٨/١) .

ومن اشتهر من المؤرخين في ذلك الوقت ، **أبو بكر محمد بن أحمد الخزاعي المعروف بابن أبي الأزهر** (ت ٣٢٥هـ/٩٣٧م) أحد الإخباريين الذين برزوا في علم النحو أيضاً . حدَّث عن إسحاق بن أبي إسرائيل ، ومحمد بن سليمان اللوين ، وأبي كريب محمد بن العلاء ، والزبير بن بكَّار ، والحسين بن عبد الرحمن الاحتياطي ، ومحمد بن يزيد المبرد ، وروى عن : حماد بن إسحاق الموصلي عن أبيه كتاب « الأغاني » . وكان أبو بكر مستملي أبو العباس المبرد .

وقد روى عنه جماعة : منهم . أبو بكر بن شاذان ، وأبو الحسن الدار قطني ، ويوسف بن عمر القواس ، والمعافى بن زكريا . واتهمه الخطيب البغدادي بأنه : غير موثوق فيما يرويه ، ويضع الأحاديث على الثقات . وكذا قال أبو الفتح عبيد الله بن أحمد النحوي ، ومحمد بن عمران [١] .

ولأبي بكر مصنفات في الأخبار ، والسِّيَر . منها : كتاب « الهرج والمرج في أخبار المستعين والمعتز » ، كتاب « أخبار قدماء البلغاء » ، كتاب « أخبار عقلاء المجانين » [٢] .

ومن أبرز الأدباء المؤرخين ، **أبو بكر محمد بن يحيى الصولي** (ت ٣٣٥هـ/٩٤٧م) . ورأينا من قبل مكانة أبو بكر الصولي كأحد أدباء عصره المشهورين ، وممن نادم الخلفاء ، والوزراء . وكان أبو بكر حسن المعرفة بأخبار المُلْك ، والخلفاء ، وأفاد من منادمته للعديد منهم في جمع أخبارهم ، وأشعارهم ، وأشعار بعضهم .

وكانت سعة روايته ، وقوة حفظه ، خير معين له في مصنفاته التاريخية التي تناول فيها أخبار الخلفاء ، وسِيرَهم ، وجمع أشعار بعضهم ، ودوَّن أخبار من تقدَّم ، وتأخر من الوزراء ، والكتَّاب ، والرؤساء ، والشعراء ، وغيرهم . وأهم ما يميز مؤلفات الصُّولي التاريخية أنه ((ذكر غرائب لم تقع لغيره ، وأشياء تفرَّد بها ، لأنه شاهدها بنفسه)) [٣] ،

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٨٨/٣ ـ ٢٩١) . السيوطي : بغية الوعاة ، (٢٤٢/١) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٢٣٨ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ، (١٥/١) . ويعد الصولي أكثر المصادر التي اعتمد عليها المَرْزُباني في كتابه « المَوَشَّح » ، إذ نجد على رأس أكثر الأخبار التي وردت فيه : حدثنا الصولي ، أو حدثنا أبو بكر .. الخ . انظر على سبيل المثال : ص ٥١ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٧٦ ، ٩٠ ، ١٣٤ ، ١٧٢ ، ٢٥٥ ، ٢٩٨ ، ٣١١ ، ٣٦٥ ، ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٣٩١ ، ٤٠٤ ، ٤١٦ . كما كان الصولي أحد المصادر المعتمدة عند أبي الفرج الأصفهاني ، فيذكر محقق كتاب « أخبار الشعراء المُحْدَثين » للصولي : أن أبا الفرج روى في كتابه « الأغاني » نحو ثلثمائة خبر عن الصولي .

وهو ما يجعل لمصنفاته التاريخية ذا قيمة عالية ، جعلت المؤرخين يعتمدون عليه في تدوين أخبار الخلفاء في عصره .

ومن أبرز ما وضعه الصولي في ميدان الدراسات التأريخية : كتاب « الأوراق » ، وهو مجموعة كُتب في كتاب واحد ، لم يُعثر منه إلا على ثلاثة فقط ، وهي : كتاب « أخبار الشعراء المحدثين » ، وكتاب « أخبار الراضي بالله والمتقي لله » ، كتاب « أشعار أولاد الخلفاء » . وقد سلف بنا الحديث عنها .

أما كتاب « أخبار الراضي بالله والمتقي لله » فهو ما بقي من كتاب كبير تناول فيه الصولي أخبار الخلفاء من لَدن بني أمية حتى عصره ، وأخبار شعرائهم ، ووزرائهم . ويقول المسعودي في هذا الصدد : ((وكذلك سلك محمد بن يحيى الصولي في كتابه المترجم بكتاب (الأوراق) في أخبار الخلفاء من بني العباس ، وبني أمية ، وشعرائهم ، ووزرائهم)) [١] . ومما يدل على أن هذا الكتاب قد ضاع أكثره ، ما صرَّح به الصولي عند بداية حديثه عن سيرة الراضي ، بقوله : ((قد فرغنا ولله الحمد من ذكر أخبار القاهر ، والأحداث في أيامه ، ونحن نذكر الآن بيعة الراضي بالله ، وما كان من أمره ، والأحداث في أيامه إن شاء الله)) [٢] .

وللصولي أيضاً من المصنفات : كتاب « أخبار أبي تمام » ، كتاب « أخبار البحتري » ، كتاب « الوزراء » ، كتاب « أخبار القرامطة » ، كتاب « أخبار أبي عمرو بن العلاء » ، كتاب « أخبار ابن هرمة » ، كتاب « أخبار السيد الحميري » ، كتاب أخبار إسحاق بن إبراهيم » [٣] ، كتاب « أخبار أبي سعيد الجبائي » ، كتاب « العباس بن الأحنف ومختار شعره » [٤] .

وما الأسماء السابقة ، إلا نماذج فقط لأبرز من تخصص في علم التأريخ ، أو أسهم فيه بشكل كبير ، وإن لم يكن مؤرخاً في الأصل .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، (١/١٥) .

(٢) أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ١ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤/٣٥٦) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٢٣٤ .

وعلم التأريخ ، هو الميدان الذي شهد مشاركة العديد من أصحاب العلوم ، والفنون ، وهو أمر نابع عن أثر علم التأريخ كأحد المُرتكزات الرئيسية للعلوم في حفظ مصادرها ، ومرجعياتها على مرِّ السِّنين . ولهذا السبب ، نجد المحدِّث ، والفقيه ، واللغوي ، والأديب ، والجغرافي ، والطبيب ، والفيلسوف ، جميعهم شاركوا في أحد فروع علم التأريخ .

ولو أردنا استقصاء كل من وضع مصنفاً في كل فرع من فروع التأريخ خلال تلك الفترة ، لخرجنا عن مدار البحث . ذلك أن بعض العلماء في مختلف العلوم شاركوا في بعض فروع التأريخ بكتاب أو كتابين ، وجل مصنفاتهم في تخصصهم الدقيق . لذا يصعب أن نعتبرهم ممن رسموا منهج التأريخ في هذا العصر ، كعلم له قواعده ، وأُسسه الواضحة .

فنجد **أحمد بن عبيد المعروف بأبي عصيدة النحوي** (ت ٢٧٣هـ/٨٨٦م) يصنِّف كتاباً بعنوان « عيون الأخبار » (١) ، ويؤلف **محمد بن داود بن الجراح** (ت ٢٩٦هـ/٩٠٩م) كتاب « أخبار الوزراء » (٢) ، ومن قبله نجد المحدِّث **أبو العباس أحمد بن علي الأبار** (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) يصنِّف كتاباً في التأريخ (٣) . وهذا **قسطا بن لوقا البعلبكي** (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) الطبيب ، والمترجم فله كتاب بعنوان « الفردوس في التأريخ » (٤) . وترك **أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي النحوي** (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) من تراثه كتابين في التأريخ ، الأول : « مناقب بني العباس » ، والثاني : « أخبار اليزيديين » (٥) . أما الطبيب **أبو بكر الرازي** (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م) . فقد أسهم في هذا الميدان بكتاب « سير الخلفاء » (٦) . وكان عالم اللغة **أبو بكر بن دريد**

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ١١٦ .

(٢) البغدادي : هدية العارفين ، (٢٢/٢) .

(٣) السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٢٨٥ .

(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٣٠ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان (٣٣٨/٤) .

(٦) المسعودي : مروج الذهب ، (١٥/١) .

(ت ٣٢١هـ/٩٣٣م) ممن اشتهر كأحد العالمين بالأخبار ، والأنساب ، وإن لم يترك مصنفاً في ذلك [١] . **أما أبو عبد الله إبراهيم بن محمد المعروف بنفطويه** النحوي (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م) فله كتاب « التأريخ » [٢] .

---

(١) القفطي : المحمدون من الشعراء ، ص ٢٠١ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ، (١٥/١) . ووصفه المسعودي بأنه : ((محشوٌّ من مَلَاحة كتب الخاصة ، مملوء من فوائد السادة)) .

المبحث الثاني

علـــم الجغرافيـــا

لم تكن كلمة « جغرافيا » [١] معروفه لدى العرب في ذلك العصر بالمعنى الحديث إلا في وقت متأخر . إذ لم يحالوا أن يجدوا لها مقابلاً في اللغة ، فظلت هذه الكلمة عندهم مصطلحاً يستعملونه في الحديث عن المفاهيم الجغرافية اليونانية ، وعلماً على مصنفات علمائهم الجغرافية ، لا سيما بطليموس القلوذي ، كما يسميه العرب ، ومارينوس الصوري [٢] . وفسَّر المسعودي كلمة « جغرافيا » بأنها تعني : قَطْع الأرض ، أي مَسْحُها [٣] .

واستعملت هذه الكلمة لأول مرة بمعنى « علم الجغرافيا » في رسائل إخوان الصفا [٤] ، وحتى في هذا الموضع فُسِّرَت بأنها « صورة الأرض » ، وظل هذا المعنى شائعاً في العصور الوسطى .

فلم يكن مفهوم الجغرافيا عند المهتمين به في ذلك الوقت علماً محدداً تحديداً جيداً له مدلوله الخاص ، وإنما توزَّعت معارفهم الجغرافية بين مناهج عدة ، ومواضيع قائمة بذاتها ، تُمثل أقسام الجغرافيا اليوم : الوصفية ، والرياضية ، والإقليمية ، والبشرية ، والاقتصادية ، في مؤلفات كانت موسومة بعناوين ، قد لا يدل الكثير منها على مضامينها على نحو : « تقويم البلدان » ، « البلدان » ، « صورة الأرض » ، « عجائب البلدان » ، « المسالك والممالك » . إضافة إلى المصنَّفات التي وضعها علماء اللغة والأدب في موضوعات مختلفة تدخل في مجملها تحت ما يُسمى بالجغرافيا الوصفية . وجميع هذه المصنفات تبحث بوجهٍ عام في أحد ثلاثة محاور [٥] :

---

(١) علم الجغرافيا : « هو العلم بأحوال الأرض من حيث تقسيمها إلى : الأقاليم ، والجبال ، والأنهار ، وما يختلف حال السكان باختلافه » . حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١/٥٩٠) .

(٢) المصدر السابق ، (١/٩٥٠) . كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ص ٨٩ ، ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٣) المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ٣٠ .

(٤) رسائل إخوان الصفا ، (١/١٥٨) .

(٥) محمود كمال: الجغرافية والخرائط عند العرب ، حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، مج٣ ، ص ٢٠٩.

١ ـ معرفة الطرق البرية ، والبحرية .

٢ ـ معرفة المسافات بين البلدان ، والمحطات المهمة .

٣ ـ دراسة الأقاليم بوجه عام ، سياسياً ، واجتماعياً ، واقتصادياً ، ودينياً . أو التركيز على أحد هذه الجوانب .

وأخذت طائفتان من علماء ذلك العصر على عاتقها الخوض في هذه المحاور الثلاثة، فكان لها الفضل في النهضة العلمية للجغرافيا آنذاك ، وكانت بداية قوية ، كما سنرى ، في إرساء قواعد هذا العلم ، ورسم ملامح شخصيته ، حتى أصبح علماً واضح المعالم في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/الثامن الميلادي . وهاتين الطائفتين هما [١] :

أ ـ **طبقة أهل اللغة والأدب** . والذين اهتموا بذكر أسماء الأماكن العربية ، والمنازل البدوية الواردة في أخبارهم ، وأشعارهم ، ومعالجة ذلك الأمر معالجة لغوية ، أدبية .

ب ـ **طبقة الجغرافيين والمؤرخين وأهل العلوم التطبيقية** . وهؤلاء وجَّهوا عنايتهم إلى ذكر البلدان والممالك ، ووصفِها ، وتعيين مسافات الطرق والمسالك .

وأخذ علماء كل طبقة يصنِّفون الكتب الجغرافية وفق مناهجهم العلمية ، ومقصادهم أيضاً . فظهر في تلك الفترة نتاج كل طائفة في هذا الميدان العلمي .

ولقد سبق أهل اللغة والأدب غيرهم في نشأة الجغرافيا العربية ، لا سيما في العراق ، الذي يُعد أهم مراكز المعرفة الجغرافية في تلك الفترة ، وذلك منذ أيام خلف بن حيَّان البصري المعروف بخلف الأحْمر (ت ١٨٠هـ/٧٩٦م) ، الذي صنف كتاباً بعنوان « جبال العرب » [٢] ، ومن بعده هشام بن محمد الكَلْبي (ت ٢٠٤هـ/٨١٩م) ، الذي تُنسب إليه عدة مصنَّفات في هذا الجانب ، منها : كتاب « الأنهار » ، وكتاب « الأقاليم » . وكتاب « البلدان الصغير » ، وكتاب « قسمة الأرضين » ، وكتاب « أسواق العرب » ، وغيرها من المؤلفات [٣] .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (١١/١) .

(٢) القفطي : إنباه الرواة ، (٣٨٥/١) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ١٥٥ .

ولذا نستطيع القول : بأن جهود علماء اللغة في هذا الأمر ظلت متواترة حتى بلغت، خلال فترة نفوذ الأتراك ، إلى أقصى درجات الازدهار . فقد بدأت النهضة العلمية في الجغرافيا في ذلك الوقت ببُطء ملحوظ ، بالنسبة لنشأة الجغرافيا ، على يد علماء اللغة والأدب ، عندما بدأوا في جمع اللغة ومفرداتها ، والأشعار من الأعراب . ولقد حوى ما جمعوه تراثاً جغرافياً لا يستهان به ، فعنوا بتحديد البقاع ، والمنازل ، التي وردت فيما جمعوه ، وفي آي القرآن الكريم ، وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وصنَّفوا في ذلك كتباً ، ورسائل ، تحمل عناوينها المتعددة مضامينها الجغرافية المختلفة . وذلك قبل ظهور طائفة البلدانيين .

فصنَّف أحمد بن إبراهيم بن حمدون النديم (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) كتاب « أسماء الجبال والمياه والأودية » [١] . ووضع محمد بن إدريس بن أبي حفصة كتابين : الأول : «مناهل العرب» ، والثاني : « اليمامة » [٢] . وكانا أحد مصادر ياقوت في معجم بلدانه [٣] . أما شَمَّر بن حمدون الهَرَوي (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) فقد صنَّف كتاب « الجبال والأودية » [٤] . في حين أسهم أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) في هذا الميدان بمؤلَّفه « الأمصار وعجائب البلدان » [٥] ، وهو يتحدَّث في هذا الكتاب عن مكة ، وقريش ، والمدينة ، ومصر ،

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٢٠٤/٢) .

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (١١/١) .

(٣) أخذ ياقوت عن ابن أبي حَفْصة وصف بعض المواقع على طريق (البصرة ـ مكة) ، وطريق (اليمامة ـ مكة) . وكذلك وصف الكثير من الأماكن بالبحرين ، ونجد ، وهجر . كما اعتمد ياقوت على كتاب ابن أبي حفصة الثاني بالذات في وصف قُرى اليمامة ، ومياهها ، وجبالها ، ووديانها ، ورياضها . انظر في ذلك كله : معجم البلدان ، (١٠٢/١ ، ١٢٧ ، ٢٢٦) ، (٢٧٧/٢ ، ٢٩٨ ، ٣١٢ ، ٤٥٣) ، (١٧٠/٣ ، ٢٢١) ، (٣٩٧/٤ ، ٤١٧) ، (١٩/٥ ، ١٠٧ ، ١٥٢ ، ١٩٦) . حسين نصار : التراث الجغرافي اللغوي عند العرب ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج١٤ ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

(٤) البغدادي : هدية العارفين ، (٤١٨/١) .

(٥) توجد قطعة منه محفوظة في المتحف البريطاني ، برقم (١١٢٩) بعنوان « الأوطان والبلدان » . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (١٢٠/٣) .

والبصرة ، مع ذكر طابع السُّكان في تلك البلدان [١] . ووصف ابن حوقل هذا الكتاب بأنه : « كتاب نفيس في معرفة الأمصار » [٢] .

وكان هذا الكتاب أحد المصادر المعتمدة لدى المسعودي [٣] ، وياقوت الحموي [٤] في مؤلفاتهم . أما أحمد بن محمد البَرْقي (ت ٢٧٤هـ/٨٨٧م) فله كتاب « البلدان » [٥] . في حين صنف أبو سعيد السُّكَّري (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م) كتاب « المناهل والقرى » [٦] . وألَّف أحمد بن الحسن السَّكُوني كتاب « أسماء مياه العرب » [٧] . وقد اعتمد عليه ياقوت في كثير من المواضع [٨] .

ونجد عالم اللغة أبو علي الحسن بن عبد الله الأصفهاني المعروف بلُغْدَة (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) يضع مصنَّفاً مهماً في ميدان الجغرافيا الوصفية ، ألا وهو كتاب « بلاد العرب » [٩] . وهو يبحث في جغرافية جزيرة العرب ، وما فيها من : مياه ، وجبال ، وقرى ، ومنازل ، ومعادن ، وحصون . كما يحتوي على معلومات متفرقة عن توزيع النباتات في مناطق الجزيرة ، ويبحث بالدرجة الأولى ، توزيع السكان ، أو القبائل المقيمة في الجزيرة العربية ، كقبائل عقيل ، وخفاجة ، وعامر ، وربيعة ، وعوف ، .... إلخ ، مع بيان لمواطن سُكناها ، والمياه التابعه لها ، مستعيناً في كثير من الأحيان بشواهد من الشعر ، الأمر الذي جعل من هذا الكتاب أحد المصادر المهمة لدراسة الأدب العربي في عصوره الأولى .

---

(١) المرجع السابق ، (٣/١٢٠) .

(٢) صورة الأرض ، ص ٣٧٢ .

(٣) مروج الذهب ، (١/٩٩) . والتنبيه والإشراف ، ص ٤٩ .

(٤) معجم البلدان ، (١/١٤٣ ، ١٩٣ ، ٢٠٥) ، (٢/٤٦٧) .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٣٦٩ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

(٧) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (١/١١) .

(٨) وقد ذكره ياقوت في معجمه ، وكان أحد مصادره في (٥٥ موضعاً) تقريباً . انظر على سبيل المثال : (١/٩٤، ٢٠٣) ، (٢/٢١٤ ، ٢٧٥ ، ٣٣٩ ، ٤٣٧) ، (٣/٢٢ ، ١٥٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٨) ، (٤/٤٢ ، ٥١ ، ٧٠ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ١٠٣) ، (٥/٢٩ ، ٤٨ ، ١٠٥ ، ١٥٩ ، ١٩٥ ، ٢٢٦ ، ٢٥٥ ، ٣٤٧ ، ٣٧٧) .

(٩) مطبوع بتحقيق : حمد الجاسر ، وصالح العلي ، دار اليمامة ، الرياض ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

ولعل أهم ما يميز هذا المصنَّف ، أن مؤلفه يُعد أول من نهج في تحديد المواضع على أساس المشاهدة ، والخبرة الكاملتين .

كما تميز هذا الكتاب ، أن مؤلفه يذكر لنا المواضع التي تتفق في الإسم ، ولكنها تختلف باختلاف القبائل التي كانت تسكن في تلك المواضع .

وتعتبر كُتب « النَّوادِر » [١] من أقدم مصنفات اللغة التي اشتملت على معلومات جغرافية ، إذ تحتوي على أقوال فصيحة مُستجادة ، كانت مصادر مهمة ، لا للمعاجم العربية فحسب ، بل لكثيرمن المعلومات الجغرافية ، لا سيما فيما يتعلق بمنازل القبائل ، وأسماء المواضع ، والمياه ، والجبال ، ونحو ذلك [٢] .

ونأخذ مثالاً على ذلك كتاب « النوادر » لأبي زياد يزيد بن عبد الله الكِلابي [٣] . وهو كتاب مفقود ، ولكن ياقوت قد احتفظ بشيء منه ، ويقول عن أبي زياد وكتابه : ((من طبقة أهل الأدب الذين قصدوا إلى ذكر الأماكن العربية ، والمنازل البدوية ، وذكر في نوادره من ذلك صدراً صالحاً وقفت على أكثره)) [٤] ، ويُورِد ياقوت في أجزاء من كتابه بعض المعلومات التي استند في إيرادها على كتاب أبي زياد هذا [٥] .

ويتبين مما نقله ياقوت ، أن أبا زياد تناول بالبحث كلاً من : اليمن ، واليمامة . غير أن أغلب النصوص التي ذكرها ياقوت عن أبي زياد تتركّز على العشائر ، ومواطنها . فأساس تنظيم معلوماته هي العشائر ، أما الأماكن فقد كان ذكرها تابعاً لها .

كما يبدو مما نقله ياقوت ، أن أبا زياد اهتم بعشائر بني كِلَاب ، ومواطنها ، كربيعه ، ومالك ، وبني أبي بكر ، وبني عمرو بن كلاب ، ووقّاص ، وغيرهم . مع اهتمام أقل

---

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ، (٢/١٩٨٠ ـ ١٩٨١) . وانظر مؤلفات علماء اللغة ، والأدب في الفصل الثاني من هذا الباب .

(٢) حبيب الراوي : المصادر اللغوية للجغرافية عند العرب ، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، مج ٨ ، ص ٤٥ .

(٣) ذكر دعبل الخزاعي : أن أبا زياد شاعر من بني عامر بن كلاب . قدم بغداد أيام المهدي حين أصابت الناس المجاعة ، ونزل قطيعة العباس بن محمد ، وأقام بها أربعين سنة ، وبها مات . النديم : الفهرست ، ص ٧٠ .

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (١/١١) .

(٥) المصدر السابق : (٢/٣٨٧ ، ٤٤٥ ، ٤٦٢ ، ٤٧٨) ، (٣/٢٨٦) ، (٤/٤١٦ ، ٤٣٤) ، (٥/١٣ ، ٧٦ ، ٣٩٠) .

بالقبائل ، والعشائر الأخرى ، كنمير ، وتميم ، وفزارة ، وسليم ، وزيد ، وغيرهم . حيث ذكرها أبو زياد بشكل مُقتضب ، وقد يكون مرجع ذلك قِلة معلوماته ، أو قِلة ما نقله ياقوت عنه .

ويمكن القول : أن دور علماء اللغة ، والأدب في نشأة الفكر الجغرافي العربي قد مرَّ بثلاثة مراحل [١] :

المرحلة الأولى : جمع المادة الجغرافية من الأعراب والرواة ضمن قصائد الشعر الجاهلي والإسلامي ، ونوادر اللغه ، والتعليق على ما ورد في القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

المرحلة الثانية : إفراد كل موضوع من موضوعات الظواهر الجوية ، والتضاريسية بكتاب مستقل . كالمطر ، والجبال ، والأودية ، ونحو ذلك .

المرحلة الثالثة : تناول الموضوعات الجغرافية في كتب مستقلة ، بعضها يتعلق بالأنواء ، والبعض الأخر بالمسالك والممالك ، وقسم بالمعاجم .

وفي المعاجم لم يكتفوا بتحديد أسماء المواضع ، بل حدَّدوا المصطلحات الجغرافية ، كحالات السحاب ، وأنواع الكثبان ، والجبال ، والطُرق ، والأراضي [٢] . وربما أَوْرَدوا من المعاني مالا نعثر عليه في قواميس اللغة ، على نحو ما يوجد في كتاب « بلاد العرب » للأصفهاني ، المشار إليه سابقاً ، عن كلمة « النخلة » ، بأن من معانيها : الوادي [٣] ، وهو ما لم تذكره معاجم اللغة ، وقواميسها .

إن ما أنتجته قريحه علماء اللغة والأدب في ميدان الجغرافيا ، خلال هذا العصر ، من مفردات ومصطلحات في مؤلفات لغوية ، بعضها وصل إلينا والبعض الآخر امتدت إليه يد الضياع فلم تصل إلينا إلا أسمائها . فإنه يغلب عليها أمران :

---

(١) حبيب الراوي : المصادر اللغوية للجغرافية عند العرب ، ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٣ .

(٣) الأصفهاني : بلاد العرب ، ص ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٧٤ ، ٣٧٨ .

الأول : الانصراف التام لجزيرة العرب كمحور لهذه الدراسات . على الرغم من أن أصحابها من أهل العراق .

الثاني : النظرة اللغوية من قِبَل علماء اللغة والأدب للموضوعات الجغرافية التي يطرقونها . فكان اهتمامهم منصباً في كثير من الأحيان على الإسم أكثر من المُسمَّى . فهم يرون أنه أمراً لغوياً ، لهدف لغوي ، وبمنهج لغوي ، فلا يحسب القائمون على هذا الأمر بأنهم يعالجون شيئاً بعيداً عن اللغة .

إن هذه النظرة ناشئة عن نظرة علماء العصر لعلم الجغرافيا ، بأنه علم يدخل تحت لواء الآداب ، التي لا مناص لمن آراد أن يكون أديباً الإلمام بشذرات منه . ولذا تظهر الجغرافيا هنا أكثر صلة باللغة العربية ، مما دفع ببعض الباحثين [١] ، إلى التقرير بأن علم الجغرافيا دخل في أصله عند العرب من باب الشعر والأدب منذ فترة ترجع إلى ما قبل الإسلام .

إن بعض الأمور السلبية التي يقع فيها بعض أصحاب هذه الطبقة من المؤلفين عند تعرضهم لبعض القضايا الجغرافية مدعاة إلى القول : بأنهم يفتقدون لأهم الأدوات العلمية عند الحديث عن البلدان ، أوالأقاليم التي تقع خارج الجزيرة العربية ، وهي المشاهدة المباشرة عن طريق الرحلات ، الأمر الذي أوقع أحد علماء العراق وأدبائه المرموقين ، وهو الجاحظ ، في خطأ فادح ، حيث ذكر في كتابه السابق « الأمصار وعجائب البلدان » ، كما يقول المسعودي [٢] ، أن نهري : النيل ، السنِّد يَنْبُعان معاً من مصب واحد . واستدل على ذلك باتفاق زيادتهما ، ووجود التماسيح فيهما ، وأن سبيل زراعتهم في البلدين واحد .

وبالطبع هذا القول لا يتفق مع الواقع ، والحقيقة . ولعل الجاحظ ، الذي لم يكن جغرافياً قط ، استمد هذا القول من مصادر غير موثوقة .

ولقد جرَّ أمر كهذا على الجاحظ ، انتقاد معاصرية الجغرافيين كالمسعودي ، الذي استغرب مثل هذا القول [٣] ، وكذلك البيروني ، الذي قال : ((حتى ظن الجاحظ بسلامة

---

(١) إبراهيم شوكت : تفكير العرب الجغرافي وعلاقة اليونان به ، مجلة الأستاذ ، مج٩ .

(٢) التنبيه والإشراف ، ص ٤٩ .

(٣) مروج الذهب ، (٩٩/١) .

قلبه ، وبُعده عــن معرفــة مجاري الأنهار ، وصور البحار ، أن نهر مَهْران (السند) شعبة من النيل)) [١] .

وعلى الرغم من ذلك ، فـإن الجاحظ لم يكن يحصـر نشـاطه في حـدود ضـيـقـة كاللغويين ، فانعكست في مادته الجغرافية شخصيته الأدبية الفريدة بما تمتاز به من سعة في الأفق ، وتنوع في الموضوعات التي يَطرقُها ، وملاحظاته الفنية الدقيقة ، وإن كان يفتقر إلى الترتيب في مؤلفاته .

وتضم مؤلفات الجاحظ الأدبية مادة جغرافية ضخمة ، ويَحفل كتابه « الحيوان » على سبيل المثال ، بالكثير من المعلومات عن الجغرافيا الاقتصادية المتعلقة بتوزيع أنواع الحيوان في أقطار الأرض ، وكذلك عن عجائب البلدان .

غير أن اهتمام الجاحـظ بالجغرافيـا الاقتصادية قد جسَّده بشكل كبير في كتابه « التبصر بالتجارة » [٢] ، ويمثل هذا الكتاب ، على وجه العموم ، أهمية كبرى بالنسبة للتاريخ الحضاري الإسلامي ، ويمكن اعتباره أول محاولة للمسلمين في الجغرافيا الاقتصادية [٣] .

وإذا كان هذا الكتاب يمثل أهمية لأرباب الصناعة ، والتجارة ، والمشتغلين بعلم الاقتصاد. إلا أن أهميته الجغرافية تكمن في حديثه عن السلع التجارية المتبادلة بين العراق ، والمراكز التجارية الأخرى ، وأسعارها ، والمعايير التي يُحكم من خلالها على جودة السلعة .

وجعل كتابه هذا ينتظم في ستة أبواب . خصص كل باب للحديث عن سلعة معينة ، كالجواهر ، والطيور ، والثياب ، والعطور ، وغيرها .

وللجاحظ أسلوب، أو ميل إلى نمط معين في الكتابة ، وهــو ما يسمى بالفضائل ، أو الخصائص، أي صفات ومحاسن الحواضر الكبرى ، أو مساوئها ، حيث يدور الحديث

---

(١) تحقيق ما للهند ، ص ١٤٥ .

(٢) مطبوع بتحقيق : حسن حسني عبد الوهاب ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٦٦م .

(٣) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ص ١٤٣ .

أحياناً عن مواطني تلك الحواظر أكثر مما يدور على الحواضر نفسها . فنجد الجاحظ يتحدَّث في متقطفات له عند المَقْدسي [١] ، وابن خُرْدَاذْبَه [٢] ، وابن الفَقيه [٣] ، تدور حول أهل دمشق، وعن عجائب البصرة ومساوءها ومحاسنها ، وعن ميزة مصر ، وغيرها من الحواضر الإسلامية الأخرى ،. كالرَّيّ ، ونَيْسَابور ، وسَمَرْقَنْد ، وبَلْخ ، وبغداد ، والكوفة .

ولم يكن ميدان الجغرافيا خالياً لأهل اللغة والأدب ، بل كانت الطائفة الأخرى من الجغرافيين ، والمؤرخين ، وأهل العلوم التطبيقية ، من رياضيين ، وفلكيين ، وأطباء ، وغيرهم، جميعهم كانت لهم إسهامات محمودة على الجغرافيا العربية في ذلك العصر .

وإسهام المؤرخين في الدراسات الجغرافية يدفعنا إلى الإشارة للعلاقة الوثيقة بين التاريخ والجغرافيا في ذلك الوقت . ذلك أن أقدم الذين كتبوا في التاريخ ، هم أنفسهم من كتب في الجغرافيا ، وهو أمر نابع ، كما ذكرنا من قبل ، من كون هذين العِلْمين في نظر أصحاب الثقافة فَرعَين متلازمين من شجرة المعارف العامة ، التي كانوا يطلقون عليها اسم « الأدب » بوجه عام . ومما يؤكد هذا الأمر ويوثقه ، ابتداء العديد من المؤرخين في مصنفاتهم التاريخية بمقدمة جغرافية تمثل الإطار المكاني للحقبة التاريخية التي سوف يتناولونها في مصنفاتهم .

وفي المقابل لا تخلوا أغلب الكتب الجغرافية من إلماحات تاريخية مهمة ، ثم إن المادة التي تحويها كتب البلدان ، والمسالك ، والممالك ، قد اتصفت في منهجها العام بالطابع الوصفي (الجغرافيا الوصفية) الذي يتكىء على التاريخ كثيراً عند سرد التاريخ المتعاقب للموضع الجغرافي المراد وصفه .

ولهذا ، نرى أن الكثير من المؤلفات الجغرافية ، يمكن أن يُؤَلَّف منهامادة تاريخية ، أو لغوية ، أو أدبية . وتعليل ذلك ، أن طائفة من أولئك الكتَّاب الجغرافيين ، كانوا من أهل

---

(١) أحسن التقاسيم ، ص ٤١ .

(٢) المسالك والممالك ، ص ١٤٦ .

(٣) مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٣٢ .

اللغة ، والأدب ، والتاريخ . وما ابن قُتَيْبة الدِّيْنَوري ، والجاحظ ، واليعقوبي ، والأصفهاني ، إلا نماذج قليلة على ذلك الأمر [١] .

ويذهب بعض الباحثين [٢] إلى أبعد من ذلك ، فيرى أن المؤلفات التي خلَّفها جغرافيوا القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، تقدم لنا الكثير من المعلومات التي تنتمي إلى علم التاريخ أكثر من انتمائها إلى علم الجغرافيا ، يستطيع الدارس معها ، بالتحليل والمقارنة ، أن يستخرج من هذه المؤلفات ، ومن زاوية تاريخية ، العديد من الدراسات ، سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، ودينية .

ولَّما كان البحث في أحوال الأقاليم ودراستها وليد النهضة العلمية التي ظهرت في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي [٣] ، سارت مصنفات الطائفة الثانية من الجغرافيين في اتجاهين رئيسيين ، لكل منهما بواعثه وظروفه ، أَثَّرتا في ظهوره ، وتطوره وهما :

الاتجاه الأول : الاتجاه الرياضي ، والذي عُني في المقام الأول بعلم الأطوال والعروض ، ومن ثم سُمِّيَ هذا الاتجاه « بالجغرافيا الرياضية » ، أو « تقويم البلدان » .

الاتجاه الثاني : الاتجاه الوصفي ، والذي اهتم بوصف المسالك ، والممالك ، والعجائب ، والرحلات . ولذا سُمِّيَ « بالجغرافيا الوصفية » . ويشترك في هذا الاتجاه بعض أهل اللغة ، كالأصفهاني .

أما الاتجاه الأول : فإن لحركة الترجمة المزدهرة في ذلك العصر ، أثر بارز في ظهور فئة من الجغرافيين العرب الذين اتخذوا من نهج المدرسة الجغرافية اليونانية نِبْراساً لهم ، من خلال كتب الجغرافيا التي تم نقلها إلى العربية لأبرز جغرافي اليونان ، لا سيما بطليموس ، ومارينوس الصوري .

---

(١) للتوسع ، انظر : أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٣٨٨ .

(٢) حامد غنيم : جغرافيوا القرن الرابع الهجري ، مجلة الدارة ، ع١ ، السنة الخامسة ، ص ٣٦ .

(٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية ، (٢/٧) .

وكان التأثير اليوناني على الجغرافيا العربية على أشده خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ⟨١⟩ ، وبمعنى أدق تأثير بطليموس ومصنفاته . وهذا الأثر يتضح في أمرين إثنين ⟨٢⟩ .

١ ـ اعتماد الجغرافيون العرب على ما عَيَّنَهُ بطليموس بالنسبه للمواقع ، وتحديدها على خطوط الطول ودوائر العرض . وما يتعلق بشكل الأرض ، وحجمها ، وموقعها بين الأفلاك .

٢ ـ تقسيم العالم إلى أقسام (أقاليم) ⟨٣⟩ على نحو ما هو موجود عند بطليموس ، وإن اختلف البعض منهم عنه من حيث عدد هذه الأقاليم ، أو الأقسام .

وتعتبر الجغرافيا الرياضية ، أول ما قام به الجغرافيون العرب بمراجعته من العلوم الجغرافية مراجعة جذرية ، ذلك أن هذا النمط من الجغرافيا يرجع إلى أيام الخليفة المأمون عندما ازدهرت حركة الترجمة عن اليونانية ، ومن بينها المصنَّفات الجغرافية . وقيام الجغرافيون في ذلك الوقت ، بدعم من الخليفة المأمون ، بإجراء الكثير من التصحيحات لِما وصلهم من الجغرافيا اليونانية ، وأدخلوا عليها إضافات مهمة ⟨٤⟩ .

---

(١) كرامرز وآخرون : الجغرافية عند المسلمين ، ص ٩٥ .

(٢) نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص ١٧ ـ ١٨ .

(٣) كان الجغرافيون العرب في ذلك الوقت يُقسِّمون الأرض ، على غرار بطليموس ، إلى قسمين : الأول : الأرض المسكونة . الثاني : الأرض القفاز .

أما الأرض المسكونة ، أو المعمورة فتتكون من (٧٧ درجة ونصف) ، منها (١١ درجة) تحت خط الإستواء ، و (٦٦ درجة ونصف) فوق خط الاستواء ، في النصف الشمالي من الكرة الأرضية . وتنقسم الأرض المعمورة إلى سبعة مناطق (أقاليم) ، ويشار إليها بخطوط وهمية تنطلق من المغرب إلى المشرق . ويمثل خط نصف النهار ، نقطة الانطلاق بالنسبة للجزائر الخالدات (الكناري) التي تعتبر أقصى نقطة في الناحية الغربية ، والتي تُستعمل لقياس خطوط الطول .

وينقسم كل واحد من هذه الأقاليم على خطوط الطول إلى عشرة أجزاء متوالية ، من المغرب إلى المشرق . ويتضمن كل جزء منها معلومات جغرافية عما يوجد بها ، من مدن ، وجبال ، وأنهار ، وبحار ، وجزر ، وعيون . وكذلك المسافات الفاصلة بينها . للتوسع ، انظر : الخوارزمي : صورة الأرض . البشير صفير : الجغرافيا عند العرب ، ص ٣١ .

(٤) للتعرف على التقدم الجغرافي في عهد المأمون بشكل أوسع ، انظر : محمد الهويمل : الحركة العلمية في خلافة المأمون ، ص ١٥٦ ـ ١٥٨ . (رسالة ماجستير غير منشورة) .

إن خضوع بعض جغرافي العرب في ذلك الوقت لما جاء به اليونان في الجغرافيا ، وأخذه على علاته ، قد أدى إلى إقاعة التقدم الجغرافي عند المسلمين لوقت ما [١] .

ويجدر بنا أن نضرب أمثلة على أبرز الأسماء العراقية التي كان لها حضور مميز في تاريخ الجغرافيا الوصفية عند المسلمين ، من أبرزهم ، **أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي** (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م) أحد علماء الرياضة والفلك المبرِّزين [٢] . ويُعد الخَوَارَزْمي أول عالم مسلم في الجغرافيا الرياضية من خلال مصنَّفه « صورة الأرض » [٣]، الذي يعتبر أول مُصنَّف عربي في الجغرافيا عموماً نعرفه معرفة مباشرة [٤] .

ونظراً لغلبة الرياضة ، والفلك على الخَوَارَزْمي ، باعتبارهما مجاله الأصلي ، فقد وضع كتابه المذكور على هيئة جداول فلكية . فهناك جدول للمدن ، وآخر للجبال ، ثم وصف للبحار ، ثم الجزر ، فالعيون ، والأنهار ، في كل إقليم من الأقاليم السبعة التي اعتمد فيها على حسابات العلماء اليونان ، إلا أنه يُعيِّن المواقع الجغرافية للأمكنة والأقاليم كما وجدت عقب الفتح الإسلامي [٥] .

أما خارطات الخَوَارَزْمي الأربع التي أُرفقت مع الكتاب ، فإنها تُظهر الكثير من الأصالة والابتكار ، وتختلف اختلافاً كلياً عن الخارطات التي ظهرت بعده . وتكمن أهمية خرائط الخوارزمي ، بأنها تمثل أقدم ما وصل إلى أيدينا من آثار الكارتوغرافيا [٦] العربية، لا سيما خارطته لنهر النيل ، والتي تحمل في طياتها المعرفة المبكرة لمجراه في ذلك

---

(١) ناقش عبد الرحمن حميدة في كتابه « أعلام الجغرافيين العرب » هذا الموضوع بشيء من الوضوح . ص ٥١ ـ ٥٢ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٣٨ـ٤٣٩ . وسوف نتعرف على جهود الخوارزمي في الرياضيات والفلك في مبحث : العلوم الرياضية .

(٣) مطبوع بتحقيق : هانس مزيك ، مطبعة أدلف هولز هوزن ، فينا (النمسا) ، ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م .

(٤) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ص ١٠٥ .

(٥) توماس أرنولد (وآخرون) : تراث الإسلام ، ص ١٣٣ .

(٦) الكارتوغرافيا : علم رسم الخرائط .

الوقت [١] . مع ملاحظة أن هذه الخرائط قد رُسمت بشكل منظور ، وهو ما اشتهرت به خرائط الجغرافيين في ذلك الوقت .

ويرى المستشرق الألماني كرامرز ، أن الخُوَارَزْمي في كتابه هذا قد جمع نتائج أبحاث العلماء المسلمين الأوائل في هذا الموضوع [٢] ، إضافة إلى أن الخُوَارَزْمي سطَّر في كتابه معلومات ثمينة عن القارة الإفريقية التي كانت مجهولة في ذلك الوقت ، جعلت منه مصدراً مهماً للباحثين في التاريخ ، والجغرافيا عن تلك القارة [٣] .

وكان **أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي** (ت ٢٦٠هـ/٨٧٤م تقريباً) الفيلسوف والعالم الموسوعي ، امتداداً لتأثير المدرسة اليونانية في الجغرافيا العربية بعد الخوارزمي . ويبدأ ارتباط الكِنْدي بالجغرافيا اليونانية مع أول ترجمة تمَّت لكتاب بطليموس « المدخل إلى الجغرافيا » ، إذ تُنسب إليه أول ترجمة لهذا الكتاب [٤] .

وأغلب الظن أن تأثيرها قد ظهر في رسائله التي أسهم بها في ميدان الجغرافيا ، والتي عالج فيها موضوعات جغرافية متنوعة ، وفق منهج تظهر فيه النزعة الفلسفية ، من حيث تعليلها ، وبيان أسبابها . ومن هذه الرسائل : « رسم المعمور من الأرض » ، و رسالة « في البحار والمد والجزر » [٥] ، و رسالة « في العلة التي يبرد أعلى الجو ويسخن ما قرب من الأرض » ، ورسالة « في العلة التي لها تكون بعض المواضع لا تكاد تمطر » ، ورسالة « في علل أحداث الجو » ، ورسالة « في علة كون الضباب والأسباب المحدثة له » ، ورسالة

---

(١) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ص ١١٢ .

(٢) توماس أرنولد وآخرون : تراث الاسلام ، ص ١٣٣ .

(٣) علي الدفاع : رواد علم الجغرافيا ، ص ٦٣ .

(٤) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٩٨ .

(٥) المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ٤٢٤ . واستعان المسعودي بهذه الرسائل في مقدمة كتابه المذكور ، كما استعان بالرسالة الثانية في الفصل الذي أفرده في كتابه المذكور (ص ٤٦ ـ ٥٠) للحديث عن المحيط الهندي ، أو كما يسميه المسعودي (البحر الحَبَشي) .

« في علة كون الثلج والبرد والصواعق والرعد والزمهرير » [١] ، ورسالة « في العلة الفاعلة للمد والجزر » [٢] ، وغيرها من المصنفات .

أما **أبو العباس أحمد بن محمد الطيب السرخسي** (ت ٢٨٦هـ/٨٩٩م) ، فكان أحد المتأثرين ، كأستاذه الكندي ، بالمدرسة الجغرافية اليونانية . وتُمثل شخصية أبي العباس نموذجاً للعلماء الموسوعيين ، والذين وُجِدوا بكثرة في ذلك العصر ، بجمعه بين الفلسفة والعلوم الدقيقة من جهة ، وبروزه كأحد أدباء عصره المرموقين من جهة أخرى ، واتصاله ببلاط الخليفة المعتضد ، وبلغ عنده من المكانة أن أُوْكل إليه وظيفة الحسبة [٣] .

وفي الميدان الجغرافي ، يُعتبر أبو العباس من المنتمين إلى المنهج الرياضي الجغرافي ذو النزعة اليونانية ، وله رسالة على منوال رسالة أستاذه الكندي ، بعنوان : رسالة « في البحار والمياه والجبال » [٤] ، الأمر الذي جعل المسعودي يربط بينهما دائماً عند وصفه للبحار .

ومن ناحية أخرى ، نرى السَّرَخْسِي يصرف جزءاً من اهتماماته الجغرافية إلى التأليف في نمط البلدانيات ، فنراه يُصنف كتاب « المسالك والممالك » [٥] ، والذي كان أحد مصادر ياقوت في كثير من المواضع [٦] . ولأبي العباس أيضاً ، كتاب « فضائل بغداد

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٨٩ ــ ٢٩٣ .

(٢) نشرت ضمن كتاب « رسائل الكندي الفلسفية » بتحقيق : محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م .

(٣) انظر ترجمة السَّرَخْسِي في : النديم : الفهرست ، ص ٤٢١ ــ ٤٢٢ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٧٧ ــ ٧٨ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٩٣ ــ ٢٩٥ . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٣٥ . العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (١٨/٩ ــ ١٩) .

(٤) المسعودي: التنبيه والإشراف ، ص ٤٦ . وكان أحد مصادره عند حديثه عن المحيط الهندي (البحر الحبشي).

(٥) البغدادي : هدية العارفين ، (٥٣/١) .

(٦) معجم البلدان ، (١٣٢/١ ، ١٣٣ ، ١٤٧ ، ٢٣٩) ، (٣٩/٢ ، ٣١٥ ، ٤٦٦) ، (٢٨/٤ ، ٤٣٩) ، (٢٨٨/٥ ، ٣٩٩) .

وأخبارها » ، وكتاب « منفعة الجبال » [١] ، وكتاب « في أحداث الجو » ، وكتاب « في كون الضباب » ، وغيرها [٢] .

واستمر استخدام الجداول الفلكية في تعيين أطوال وعروض المواضع الجغرافية الموزعة على الأقاليم السبعة ، وفق المنهج اليوناني . ويحتل **أبو عبد الله محمد بن جابر البتاني** (ت ٣١٧هـ/٩٢٩م تقريباً) العالم الفكي [٣] ، بكتابه « الزيج الصابىء » [٤] ،

مكانة مرموقة في هذاالمضمار . وتأتي أهمية هذا الكتاب الفلكي بالنسبة للجغرافيا الرياضية ، في الفصل السادس من مقدمة الكتاب ، الذي يعطي فيه البَتَّاني وصفاً عاماً للأرض ، ويخُص البحار بالتفصيل في حديثه .

ويرى المستشرق الإيطالي نلينو ، أن مادة البَتَّاني الجغرافية في هذا الفصل ترتفع إلى كتاب بطليموس المُترجم من السريانية إلى العربية على يد ثابت بن قُرَّة [٥] . ويعتبر كراتشكو فسكي وصف البَتَّاني للعالم أتمَّ وصفٍ عرفته العصور السابقة مأخوذ عن جغرافي المدرسة اليونانية [٦] .

والمعلومات الجغرافية في كتاب البَتَّاني ليست قاصرة على هذا الفصل ، وإنما هي مبثوثة في ثنايا الكتاب ، إذ أن لجداوله الجغرافية أهمية كبيرة في إعطاء ثبتاً بأسماء نحو (٢٧٣ موضعاً) موزعة على مجموعتين ، مع بيان موضعها من خلال خطوط الطول ، ودوائر العرض .

وفي النصف الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، ظهرت شخصية جغرافية غامضة في هويتها ، سار صاحبها على نهج المدرسة اليونانية في الجغرافيا ،

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٤٢٢ .

(٢) البغدادي : هدية العارفين ، (٥٣/١) .

(٣) انظر ترجمته في مبحث الفلك .

(٤) مطبوع بتحقيق : كرلو نلينو ، ميلانو ، ١٨٩٩م .

(٥) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ص ١١٧ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١١٧ .

ألا وهو « **سهراب** » ، ولا يعرف عن هذه الشخصية سوى ما أشار هو عن نفسه في مقدمة كتابه « عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة » [١] . حيث يقول باقتضاب : ((قال جامعه أفقر الورى سُهَراب ...)) [٢] .

ومن خلال النظر في كتاب سُهْراب ، نستطيع القول : بأن سُهْراب قد احتذا حذو الخوارزمي في كتابه « صورة الأرض » في مادة كتابه ومنهجه ، وإن اختلف عنه من حيث طريقة العَرْض والتبويب [٣] . ولذا ، فهو امتداد لتأثيرات مُصنَّف الخوارزمي المذكور على الجغرافيا الرياضية في ذلك العصر .

ويُحدد كراتشكو فسكي تاريخ تأليف سُهْراب لهذا الكتاب ، وفقاً للاستقرار الداخلي لمادة الكتاب ، بين عامي (٢٨٩ـ٣٣٤هـ/٩٠٢ـ٩٤٥م) [٤] .

أما تبويب سُهْراب لمصنَّفه ، فهو كتبويب بقية كُتب الجغرافيا الرياضية العربية المتأثرة باليونان إلى حد ما ، فهو يُورد في البداية المدن الموجودة في كل إقليم من الأقاليم السبعة ، ثم وصف البحار ، فالجزر ، ثم الجبال ، وبعد ذلك الأنهار ، والعيون ، ثم توزيع الأنهار ، والعيون على الأقاليم السبعة .

وتكمن الأهمية الرئيسة لكتاب سُهْراب ، في كثرة المعلومات المستقاة من المصادر العربية ، رغبة منه بأن يكون كتاباً موافقاً لحاجات العصر ، وهذا ما نلحظه في وصفه الدقيق لقنوات مُدن العرق المائية ، وطريقة خروجها من نهري : دجلة ، والفرات ، والعودة إليهما مما لا يوجد في أي مصدر جغرافي آخر [٥] .

---

(١) مطبوع بتحقيق : هانس فون مزيك ، مطبعة أدلف هولزهوزن ، فينا (النمسا) ، ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م .

(٢) عجائب الأقاليم السبعة ، ص ٥ .

(٣) انظر المقارنة التي عقدها كراتشكوفسكي بين كتابي : الخوارزمي ، وسهراب . تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ص ١١٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٥) عجائب الأقاليم السبعة ، ص ١١٨ ـ ١٣٧ . كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ص ١١٥ .

أما الاتجاه الثاني : في التأليف الجغرافي الخاص بطائفة البلدانيين ، الذي عرف في تلك الفترة ، فهو الاتجاه الوصفي . فمنذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، بدأت الجغرافيا الوصفية في التَّشَكُّل ، وأَخْذِ أنماط ثابتة في الكتابة ، كما هو الحال في الجغرافيا الرياضية ، التي سبقتها . حيث أخذ بعض الجغرافيين على عاتقهم مواصلة ما أسهم به أهل اللغة والأدب في ميدان الجغرافيا .

وإذا كان اهتمام أهل اللغة في تلك المؤلفات قد تركَّز على الجانب اللغوي في تناولهم للمادة الجغرافية ، إضافة إلى تركيزهم على شبه جزيرة العرب وتضاريسها ، كإطار مكاني لمصنفاتهم ، فإن البلدانيين قد وجَّهوا عنايتهم إلى وصف تلك المواضع الجغرافية وصفاً دقيقاً من جميع النواحي . كما كانت شبه الجزيرة العربية إحدى المناطق التي جرى الاهتمام بها من قِبل الجغرافيين الوصفيين مع غيرها من البلدان الأخرى ، إسلامية وغير إسلامية ، وهذا يعني دخول الجغرافيا الوصفية ، والإقليمية في مرحلة جديدة من مراحل الكتابة على نمط البلدانيات .

وإذا كانت تأدية فريضة الحج ، وطلب العلم ، والتجارة ، وتنظيم البريد ، ومعرفة الطرق والمسالك بين البلدان الإسلامية ، بواعث مهمة في اهتمام العرب بالجغرافيا الوصفية [١] ، وأثَّرت بدورها في تقدم المعلومات الجغرافية ، وظهور كُتب البلدانيات ، فإن اتساع رقعة العالم الإسلامي ، التي امتدت من حدود الصين الغربية شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، وسيطرة روح الأمة الواحدة التي أوجدها الدين الإسلامي ، وتفشي الأمن ، جعلت التَّنقُّل بين أرجاء العالم الإسلامي أمراً ميسوراً . كما أن تعدد البيئات المتنوعة التي وُجِدت داخل الدولة الإسلامية [٢] قد أسهم بدور فعّال في إثراء المادة الجغرافية لدى

---

(١) انظر عن هذا الأمر بشيء من التوسع : جورج غريب : أدب الرحلة ، ص ٢٦ ـ ٢٧ . أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٣٩٧ . أحمد رمضان : الرحلة والرحالة المسلمون ، ص ٧ـ١٤ . عمر كحالة : التاريخ والجغرافيا في العصور الوسطى ، ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

(٢) هذه القضية تحتاج إلى شيء من التفصيل ، وليس المقام هنا ليسمح بذلك ، وهي متصلة بقضية المؤثرات الهندية ، والفارسية ، واليونانية على الجغرافيا العربية في ذلك الوقت ، والتي اتخذت صوراً مختلفة ، كانت الترجمة العامل الأول في انتقالها . انظر عن هذا الموضوع : كرامرز وآخرون : الجغرافية عند المسلمين ، ص ٩١ ـ ١٠٣ .

الجغرافيين ، إضافة إلى دراية الشعوب الإسلامية المتاخمة للممالك غير الإسلامية ، والمتصلة بها تحت ظروف مختلفة ، أسهم بفاعلية في تزويد الجغرافيين بمعلومات جغرافية قيِّمة عن تلك الأقطار التي لم تصل إليها أقدام أكثر الرحَّالة الجغرافيين العراقيين ، وهو الأمر الذي دفع ببعض الجغرافيين ، كاليعقوبي إلى أن يسلك في منهجه الجغرافي التَّقصي عن المعلومات الجغرافية الواردة في كتابه « البلدان » (١) ، عن طريق سؤاله للأشخاص القادمين منها ، ويقول في هذا الصدد : « فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ، ومِصْره . فإذا ذكر لي محل داره ، وموضع قراره ، سألته عن بلده ذلك ، وما هو زَرْعه ، وساكنيه من هم : عرب ، أو عجم . وعن لباسهم ، ودياناتهم ، ومقالاتهم ، والغالبين عليه ، ومسافة ذلك البلد ، وما يقرب منه من البلدان » (٢) .

أما أهم خصائص ، ومميزات جُغرافيَّة المسالك والممالك الأساسية في ذلك الوقت ، فيوجزها المستشرق أندريه ميكيل بقوله : « إنها جغرافية عقلية ، بمعنى أنها تعني ذاتها وموضوعها ، أي دار الإسلام . وهي جغرافية بشرية شاملة ، لأنها تعالج جميع ما تعتقد أنه يهم دراسة الإنسان على أرضه ، وهي جغرافية حسِّية عاشها أصحابها في مغامراتهم ، وربطوا في النهاية معظم معطياتها بمشاهدتهم المباشرة ، وهي جغرافية مكتوبة أخيراً ، لأنها لا تفصل تسجيل معطياتها عن إمكانية تناقلها » (٣) .

ويُعتبر **أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة** (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) أول جغرافي يصلنا عنه مصنَّف كامل في الجغرافيا الوصفية ، وهو كتاب « المسالك والممالك » (٤) ، وإن كان ما وصل إلينا في رواية ملخصة لا تمثل المسودة الأصلية للمؤلف (٥) .

---

(١) مطبوع بتحقيق : دي غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٩٢م مع كتاب « الأعلاق النفسية » لابن رستة .

(٢) البلدان ، ص ٢٣٢ . وتطبق حالياً بعض الجامعات الأمريكية هذا المنهج في الكتابة التاريخية .

(٣) أندريه ميكيل : جغرافية دار الإسلام البشرية ، (٩٦/٢/١) .

(٤) مطبوع بتحقيق : محمد مخزوم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

(٥) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١١ (مقدمة المحقق) .

وينسب ابن خُرْدَاذَبَه إلى أسرة فارسية اعتنقت الإسلام ، وكان جده مجوسياً ، وذاع صيت والده ، وكان حاكماً على طَبَرِسْتان ، بسبب إخضاعه لبعض مناطق الدَّيْلَم ، التي لم تدخل ضمن أراضي الخلافة الإسلامية إلى ذلك الوقت .

وكان أبو القاسم قد نشأ ببغداد ، وتلقى تعليمه فيها ، وتتلمذ ردحاً من الزمن على إسحاق المَوْصِلي لدراسة الموسيقي . ونظراً لمكانة أسرته ، اتصل ابن خُرْدَاذَبَه ببلاط الخليفة المعتمد بسُرَّ مَنْ رأى (١) .

ولم يكن مصنف ابن خُرْدَاذَبَه بالنسبة له ، سوى حدث ثانوي عابر في مجال نشاطه الأدبي (٢) ، لأنه لم يتحكم في ظهوره نزعته الأدبية ، بل طبيعة المنصب الذي كان يَشغله في الدولة وهو : صاحب البريد في إقليم الجِبَال ، فنراه في مقدمة كتابه (٣) يصرِّح بأنه وضع كتابه هذا إستجابة لطلب إحدى الشخصيات العباسية المرموقة (٤) .

وابن خُرْدَاذَبَه لا يعتمد في كتابه أسلوباً واضحاً ، أو نظاماً دقيقاً في طريقة تأليفه ، خاصة من ناحية التبويب ، كما يلاحظ من قراءة الفهرس .

وتجدر الإشارة إلى أن كتاب ابن خُرْدَاذَبَه لم يكن قاصراً في موضوعه على العالم الإسلامي فقط ، بل امتد إلى مناطق غير إسلامية أيضاً ، استقى المؤلف بعض أخبارها من مصادر فارسية ، كما أخذ عن بطليموس صفة الأرض وشكلها ، وأودعها كتابه (٥) .

---

(١) انظر ترجمة ابن خُرْدَاذَبَه في : النديم : الفهرست ، ص ٢٣٩ . البغدادي : هدية العارفين ، (١/٦٤٥) . الزركلي : الأعلام (٤/١٩٠) .

(٢) من خلال سيرته ومصنفاته ، فإن ابن خرداذبة يدخل في طائفة الأدباء الجغرافيين . وله من الكتب : « اللهو والملاهي » ، كتاب « الشراب » ، كتاب « الأنواء » ، كتاب « الندماء والجلساء » . النديم : الفهرست ، ص ٢٣٩ .

(٣) المسالك والممالك ، ص ١٣ .

(٤) ومما يؤيد هذا الأمر ، أن أسلوب ابن خرداذبه ، وهو أديب بارز ، اتسم بالجفاف في عرض مادة كتابه ، ولم يهتم بالأسلوب ، لأنه لم يكن ينظر إلى كتابه بأنه كتاب أدبي ، بقدر ما هو كتاب مُعد لجمهور معين . عبد الرحمن حميدة : أعلام الجغرافيين العرب ، ص ٩١ .

(٥) المسالك والممالك ، ص ١٣ ، ١٥ .

ويمتاز كتاب ابن خُرْدَاذْبَه بالدقة المتناهية في تقدير الخَرَاج [١] . كما أن دقة وصفه للطرق ، والمسالك جعل منه مصدراً مهماً لمن جاء بعده من الجغرافيين الذين أخذوا عنه عند وضع مصنفاتهم ، كاليعقوبي ، وابن رُسْتَة ، وابن الفقيه ، وابن حَوْقل ، والمقْدسي ، والجيِهاني ، وغيرهم .

وقد نال هذا الكتاب إعجاب المؤرخين الجغرافيين ، فقد عدَّه المسعودي [٢] من الكتب النفسية . ووصف صاحبه بأنه « إماماً في التأليف ، متبرعاً في مَلاحة التصنيف ، أتبعه من يُعتمد عليه ، وأخذ منه ، ووطىء على عقبه ، وقَفَا أثره » [٣] .

ويمثل **أبو الحسن أحمد بن يحيى البغدادي البلاذري** (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) نموذجاً لعلاقة التاريخ بالجغرافيا ، فقد حفظ لنا مادة هامة في الجغرافيا التاريخية ، ضمنها كتابه « فتوح البلدان » [٤] ، إذ يقدِّم لنا تفاصيل ، ومعلومات جغرافية عن البقاع التي وصلها الفتح الإسلامي ، وأيضاً معلومات تدخل ضمن ما يعرف بالجغرافيا السُّكّانية ، وأخرى تختص بالجغرافيا الاقتصادية ، الأمر الذي دفع ببعض المؤسسات العلمية الغربية إلى الاهتمام ببعض أجزاء الكتاب ، وترجمته [٥] .

إضافة إلى ما سبق ، فقد أسهم البَلاَذُري في ميدان الجغرافيا بمصنفين ، لم يصلا إلينا مع الأسف ، هما : كتاب « البلدان الكبير » ولم يتمه ، وكتاب « البلدان الصغير » [٦] .

وإلى طبقة موظفي الدولة الذين أسهموا في الجغرافيا الوصفية ، ينتمي **أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي** (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م) . وهو في وضعه كثير الشبه بابن خرداذبه في جمعه بين الأدب ، والعمل الإداري في الدولة .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠ (مقدمة المحقق) .

(٢) مروج الذهب ، (١٤/١) .

(٣) المصدر السابق ، (١٤/١) .

(٤) سبق الحديث عنه . وانظر ثبت المصادر والمراجع .

(٥) يذكر كراتشكوفسكي أن المادة التي يُوردها البلاذري عن أذربيجان ، وأرمينيا قد تُرجمت إلى اللغة الروسية. تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ص ١٧٦ .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ١٨١ .

لقد أكسبت الوظائف التي عمل بها قدامة خبرة بالشئون الإدارية والمالية ، ومعرفة المسالك والممالك ، والاطلاع عن كثب على أوضاع الدولة الاقتصادية ، استطاع قدامة من خلالها أن يجمع مادة جغرافية جيدة ضمَّنها كتابه « الخراج وصنعة الكتابة » ، الذي جعله مدخلاً لعمَّال الدولة . فقد أورد وصفاً متكاملاً لطرق البريد ، والولايات ، مع إيراد معلومات مهمة عن تقسيم الأراضي ، وجباية الخَراج . ويرد في ثنايا العَرْض وصف للجبال ، والأنهار في الأقاليم السبعة ، متأثراً في هذا التقسيم بالمدرسة اليونانية ، وهو أمر ليس بمستغرب ، إذ أن قدامة ، وكما مر معنا ، من أدباء العصر المتأثرين بالفلسفة اليونانية إلى أبعد الحدود .

إضافة إلى ما سبق ، فإن التأليف في المسالك والممالك قد لقي عناية واضحة من علماء العصر وأدبائه ، فظهرت مصنفات في هذا النمط من الكتابة الجغرافية ، ولكن مع الأسف لم يصل إلينا أي منها ، فممن صنَّف كتاباً بعنوان « المسالك والممالك » : أبو جعفر أحمد بن الحارث بن المبارك البغدادي المعروف بالخَزَّاز (ت ٢٥٨هـ/٨٧٢م) (١) ، وأبو العباس جعفر بن أحمد المَرْوَزي (ت ٢٧٤هـ/٨٨٧م) (٢) . أما أبو حنيفة أحمد بن داود الدِّيْنَوَري (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) فقد صنَّف كتاباً بعنوان « البلدان » (٣) .

وإلى جانب الأنماط المذكورة للجغرافيا الرياضية ، والوصفية ، ثبت في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي أيضاً ، الصورة النهائية للرحلات ، حيث بدأ التأليف عن الرحلة عند الرحالة الجغرافيين العراقيين ، ولكن هذا التدوين لم يكن في مؤلفات قائمة بذاتها ، وإنما أدمجت المادة الخاصة بأخبار الرحلات في كتب التاريخ ، والبلدان . على أن التأليف في الرحلة بمعناه الصحيح قد بدأ في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي (٤) .

---

(١) النديم : الفهرست : ص ١٦٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .

(٣) ابن الأنباري : نزهة الألباء ، ص ١٨١ .

(٤) أحمد رمضان : الرحالة المسلمون ، ١٧ . نقولا زيادة : الجغرافيا والرحلات عند العرب ، ص ١٤٨ .

وعلى الرغم من تعدد بواعث الرحلة ، وهي نفسها البواعث على الاهتمام بوصف البلدان ، والمسالك والممالك ، إلا أن ما وصل إلينا من آثار عن أدب الرحلة في ذلك العصر ، لا يُعبِّر إطلاقاً ، فيما لو أخذناه مؤشراً ، عن واقع هذا النمط من الجغرافيا الوصفية . والذي يدفعنا إلى هذا القول ، أن المناخ الاقتصادي (التجارة) ، والثقافي (طلب العلم) كان مناسباً ، ومغرياً في نفس الوقت للتجّار ، المصدر الأول للمعلومات عن الممالك غير الإسلامية ، وطلاب العلم ، لكي يحتفظوا لنا بمادة جغرافية ثمينة عن الشعوب غير الإسلامية من جميع النواحي ، وكذلك عن الشعوب الإسلامية التي كانت داخل حدود الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ، من خلال تدوينهم لمشاهداتهم الحيَّة ، إلا أن شيئاً من ذلك ، على ما وصلنا ، لم يحدث إلا على يد شخصية ليس لها علاقة بأدب الرحلة ، أو الجغرافيا عموماً ، وحتى دافع رحلته لم يكن ذاتياً ، وإنما بدافع سياسي ، هذه الشخصية هي شخصية « ابن فَضْلان » ، وتُعد رسالته المشهورة عن الشعوب التي كانت تعيش على ضفاف نهر « الفُولجا » في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، من الدراسات الرائدة والمهمة في مجال الأنثروبولوجيا [١] .

واشتهرت مدونات ابن فَضْلان عن رحلته إلى بلاد الصقالبة باسم « رسالة ابن فَضْلان » [٢] .

أما صاحبها ، فهو : **أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد** ، مولى محمد بن سليمان رسول الخليفة المقتدر وقائده ، الذي شتت شمل الطولونيين ، وأعاد مصر إلى حظيرة الخلافة سنة (٢٩٢هـ/٩٠٥م) [٣] . هذا كل ما جاء عن شخصية ابن فَضْلان في المصادر التاريخية ، وليست هناك معلومات مؤكدة عن نشأة ابن فَضْلان ، أو حياته ، أو مؤلفاته غير هذه الرسالة .

---

(١) الأنثروبولوجيا : علم تاريخ الإنسان .

(٢) مطبوعة بتحقيق : سامي الدهان ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨ .

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (١/٣٢٢) .

ومن خلال استقراء رسالة ابن فَضْلان ، وتحليلها ، فإن الرسالة تدل على أن الرجل كان متميزاً بثقافة دينيــة ، وأدب رفيــع ، وأسلوب جميل ، ووَرَع ، وخلق ، وحب لنشر الإسلام ، وصدق في الحديث وتغلب عليه سذاجــة ، لعلها ترجع إلى كِبَر سنه ، أو إلى طبيعته الخاصة [١] .

أما رسالته ، فهي عبارة عن تقرير خاص بالمهمة التي أرسله إليها الخليفة المقتدر إلى ملــك الصَّقالبة ، حيث أرسل الأخير إلى الخليفة وفداً برئاسة عبد الله بن باشتو الخَزَري ، حمل معه رسالة إلى الخليفة تتضمن المطالب التالية [٢] :

١ ـ أن يرسل إليه من يُفقِّه الناس في الدين ، ويُعرفهم شرائع الإسلام .

٢ ـ بناء مسجداً لهم ، ومنبراً ليُدعى عليه للخليفة .

٣ ـ بناء حصن يمنع المسلمين من التعرُّض لهجمات جيرانهم من ملوك الخَزَر اليهود .

فأجاب الخليفة على جميع هذه المطالب ، وأرسل وفداً برئاسة سَوْسَن الرسي ، وكان ابن فضلان فقيه الرحلة ، والمشرف على الفقهاء ، والمعلمين هناك [٣] . وأنجز الوفد هذه المهمة بنجاح .

وقد غادرت البعثة بغداد في الحادي عشر من شهر صفر عام (٣٠٩هـ/٩٢١م) ، سالكةً طريق الحاج ، وقد مرت البعثة في طريقها بهَمَذان ، والرَّيّ ، ونَيْسَابور ، ومَرْو ، وبُخارى ، حيث التقى فيها ابن فضــلان بوزيــر السامانيين ، والعالم الجغرافــي الشهــير « الجيهاني » ، ثم ساروا مع نهر جَيْحون إلى خُوَارِزَم عند بحــر « آرال » ، وعــبروا صحراء « أوست أورت » ، ثم نهر « يايق » ، فوصلوا إلى حوض الفُولجا . ووصلت البعثة إلى بلاد البُلْغَار الصقالبة في الثامن عشر من شهر محــرم سنــة (٣١٠هـ/٩٢٢م) [٤] . ولم يُعرف عن خط الرجعة ، لأن خاتمة الرسالة فقدت .

---

(١) محمد الحريري : رحلة ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة واسكندينافية ، مجلة عالم الكتب ، مج١٢ ، ع١ ، ص ١٠٥ .

(٢) ابن فضلان : الرسالة ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(٤) انظر خط سير الرحلة في المصدر السابق ، ص ٧٣ وما بعدها .

ومن خلال ما سبق، نجد أن الدافع لرحلة ابن فَضْلان هو تنفيذ أمر الخليفة المقتدر، ولم يكن دافعاً ذاتياً . وعلى الرغم من ذلك ، فإن ابن فَضْلان ، بعمله هذا ، يعطي إشارة ذات دلالات هامة ، وهي تمتع أهل العراق في ذلك الوقت بالحس ، والذوق الأدبي ، وإن لم يكن العمل الذي يكتبون عنه يدخل في صميم اتجاهاتهم وميولهم.وما أسلوب ابن فَضْلان، الذي تميّز بالدقة في الوصف [١] ، والسهولة في العبارة في تقريره عن الرحلة ، الذي دفعه للخليفة المقتدر ، كرسالة زاهية عن أدب الرحلة في ذلك الوقت ، إلا مصداقاً لذلك .

وقد أمدت رسالة ابن فضلان معاصريه من الجغرافيين بمعلومات وافية ، وصورة حية للظروف السياسية في العالم الإسلامي ، والعلاقات مع الدول المتاخمة في آسيا الوسطى ، أو الأصقاع النائية التي كانت تُمثل العالم المتمدن في ذلك الوقت ، مثل حوض الفُولجا . كما تحفل الرسالة بمادة غزيرة عن العادات ، والتقاليد لدى القبائل التركية البدوية في آسيا الوسطى ، وبعض الشعوب المقيمة في أوروبا الشرقية ، كالبُلْغار ، والرُّوس ، والخَزَر . أصبح معها ابن فضلان صاحب فضل على الجغرافيين والمؤرخين على حد سواء ، كابن حوقل ، والمسعودي ، الذين استندوا في معلوماتهم عن تلك الأصقاع على ابن فضلان ، وإن لم يذكروا اسمه ، أو رسالته [٢] ، وشَذَّ عنهم ياقوت الحموي ، الذي يذكر صراحة ابن فضلان في كل موضع يستند فيه على رسالته من كتابه « معجم البلدان » [٣] .

ونظراً لأهمية رسالة ابن فضلان ، فقد تنبَّهت المؤسسات العلمية الغربية إلى أهمية هذه الرسالة ، فأخذ المستشرقون منذ القرن التاسع عشر الميلادي يَعنون بها دراسةً ، وتعليقاً ، وترجمةً [٤] .

(١) إن دقة وصف ابن فضلان لمراسم دفن أحد الزعماء الروس ، مكّنت أحد الرّسّامين الروس في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، أن يرسم لوحة حية لتلك المناسبة ، معتمداً على وصف ابن فضلان لها ، واللوحة محفوظة في المتحف التاريخي بموسكو ، كما ذكر ذلك المستشرق الروس : فلاديمير مينورسكى . زكي حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص ٣١ .

(٢) ابن فضلان : الرسالة ، ص ٣٣ ـ ٣٤ (مقدمة المحقق) .

(٣) معجم البلدان : (٣٢٢/١ ، ٤٨٦) ، (٣٩٧/٢) ، (٧٩/٣) .

(٤) انظر عن هذا الأمر : مقدمة سامي الدهان لرسالة ابن فضلان ، ص ٤٤ ـ ٤٧ . فوزي العنتيل : رسالة ابن فضلان في وصف رحلته إلى بلاد البلغار والخزر ، سلسلة تراث الإنسانية ، مج ٨ ، ص ١١٨ ـ ١٢٠ . محمد الحريري : رحلة ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة واسكندينافية ، ص ١٠٦ . أحمد البقالي : ابن فضلان في مملكة روثغار ، مجلة الدارة ، ع٣ ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

وكانت الاضطرابات السياسية في العراق في منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، وسقوط البصرة في يد ثوار الزِّنْج سنة (٢٥٦هـ/٨٧٠م) قد أجبرت أحد أعيانها وأثريائها ، ويدعي : سليمان بن وَهْب ، على الخروج منها ، واستقر رأيه على القيام برحلة طويلة إلى الصين . وانطلق من ميناء « سِيراف » على الخليج الفارسي ، ووصل إلى عاصمة الصين خمدان (أو سينانغو) [١] .

وقد دوَّن وصف ابن وَهْب عن بلاد الصين ، وأخبار رحلته في بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي أبو زيد الحسن السِيرافي ، وهو من أهل البصرة ، وضمَّنها مع « رحلة التاجر سليمان » في كتاب « سلسلة التواريخ » [٢] . وقد اقتطف المسعودي منها عند حديثه عن ملوك الصين ، وعاصمتهم ، ومُدنهم الأخرى [٣] .

وتمتاز هذه الرحلة بالوصف الدقيق للطرق التجارية ، وبعض العادات ، والنظم الاجتماعية ، مع قلة الأساطير والخرافات ، التي كانت الطابع العام لأغلب الرحَّالة التجَّار في ذلك العصر [٤] .

ولوَصف ابن وَهْب أهمية خاصة ، كما يقول كراتشكو فسكي ، إذ بعد قليل من ذلك وفي عام (٢٦٤هـ/٨٧٧م) تم القضاء على المستعمرة العربية « بمدينة كانتون » الصينية ، نتيجةً للحروب الداخلية ، فانقطعت الصلات المباشرة بين العرب والصين ، وأصبح ميناء « كَلَه بَره » بشبه جزيرة الملايو آخر ميناء تصل إليه السفن العربية . ولم يتجدد الاتصال بالصين إلا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي [٥] .

إن الاهتمام الواسع بالموضوعات الجغرافية يتضح بصورة أكثر شمولية ، ودقة ، وتحرِّياً في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، والذي شهد ظهور فئة من الجغرافيين أضحت المواضيع الجغرافية على أيديهم أكثر وضوحاً ، وتنوّعاً في الطرح ، وتميَّزوا بقصر

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، (١/١٤٢) .

(٢) مطبوع بتحقيق : م . رينودر ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ، ١٢٦٦هـ/١٨١١م .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ، (١/١٤٢ ـ ١٤٦) .

(٤) أحمد رمضان : الرحلة والرحالة المسلمون ، ص ٤١ .

(٥) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

مادتهم الجغرافية على بلاد الإسلام ، مع إهمال الأقطار الواقعة خارج حدوده [١] ، معتمدين على الرحلة ، والمشاهدة الشخصية، ونقصد بهذه الفئة، أبو زيد البَلْخي (ت ٣٢٢هـ/٩٣٤م)، وأبو إسحاق الإصطَخْري (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) ، وابن حَوْقَل (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) ، والمقْدِسي (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) . وبلغ فن رسم الخارطات الجغرافية العربية على أيديهم درجة من الرقي ، حتى أن كراتشكوفسكي [٢] اعتبر خارطات هؤلاء الجغرافيين خير ممثل لما يعرف باسم « أطلس الإسلام » .

وعلى الرغم من معاصرة البعض من هؤلاء الجغرافيين المذكورين آنفاً لفترة الدراسة ، إلا أن أيّاً منهم لم يكن من أهل العراق ، وإن كان ابن حَوْقَل يذكر في مقدمة كتابه [٣] أنه : ابتدأ رحلته من بغداد في شهر رمضان سنة (٣٣١هـ/٩٤٣م) ، إلا أنه ليس لدينا دليل علمي قوي يسمح لنا بأن نعتبر ابن حَوْقَل أحد الجغرافيين العراقيين ، وهو ما ينطبق على المسعودي .

وخلاصة القول ، أن ما جاء في مصنفات هؤلاء الجغرافيين ، هو خلاصة المعلومات، والآراء الجغرافية التي توصَّل إليها العرب خلال القرنين : الثالث، والرابع الهجريين/التاسع ، والعاشر الميلاديين .

---

(١) الإصطخري : المسالك والممالك ، ص ١٥ . ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٢ ـ ٣ ، ٥ ـ ٦ . المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٣ .

(٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ص ٢١٢ .

(٣) صورة الأرض ، ص ٣ .

الفصل الرابع

العلــوم التطبيقية

المبحث الأول : العلوم الطبيــة .

المبحث الثاني : العلوم الطبيعية .

المبحث الثالث : العلوم الرياضية .

المبحث الأول

العلـــوم الطبيـــة

إن الحديث عن العلوم الطبية ، يقتضي تناول فرعيها : الطب ، والصيدلة كلاً على حده ، ذلك أن العلاقة وطيدة بينهما في ممارستهما على أرض الواقع .

أولاً : علم الطب :

لقد كان علم الطب (١) ، أحد ميادين العلوم البحتة التي شملها التطور في العراق خلال فترة نفوذ الأتراك ، بفضل حركة الترجمة النشطة للكتب الطبية اليونانية ، إضافة إلى الاستـفـادة المبكرة من مـصنفـات علمـاء السند ، والهند في الطب منذ القـرن الثـاني الهجري/الثامن الميلادي ، والتي استمرت في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي أيضاً ، عندما أرسل الأمـير الموفـق ، نائـب الخليفة المعتمد (٢٥٦هـ ــ ٢٧٩هـ/٨٧٠ ــ ٨٩٢م) وفـداً إلى تلك البلاد للتحقق مـن بعـض المسائـل الطبيـة مـع علمائهـا ، والبحث عن الأدوية الجديدة (٢) .

وكـان لاهتـمـام الدولة في ذلك الوقت ، بالطب والأطبـاء ، أدى ولا شك إلى إيجـاد المناخ المناسب لازدهار الطب . وهذا الاهتمام أخذ اتجاهين رئيسيين : الأول : شخصي . والثاني : رسمي .

الأول : الاتجاه الشخصي :

كان للتسامح الديني ، وازدهار الثقافة والعلم في العراق خلال حكم العباسيين مصدر جَذبٍ لأطباء الشام ، ومصر ، وفارس ، والهند ، الذين جاءوا إلى بغداد يحملون معهم

---

(١) علم الطب : « هي صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح . وفائدته : استعمال أسباب الصحة ، والإعلام بها » . ابن سينا : القانون في الطب ، (٣/١) الأنصاري : اللؤلؤ النظيم ، الورقة : (٣أ) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٠٥ .

( ) عبد الله الطرازي : جهود العرب في تطوير علم الطب ، أبحاث المؤتمر السنوي العاشر لتاريخ العلوم عند العرب ، ص ٢٣٣ .

العلوم ، والمعرفة الطبية ، فاجتمع في بغداد خليط من الأطباء من مختلف القوميات ، والنِّحَل ، مع قلة من الأطباء العرب .

وكان اهتمام خلفاء بني العباس بالأطباء لا نظير له ، وما ذُكر في غير هذا الموضع [١] يكفي ليكون برهاناً واضحاً على الظروف المهيئة للأطباء في ذلك الوقت ، وتوفير أسباب النجاح لهم ، لا سيما الذين كانوا يخدمون في قصور الخلفاء .

الثاني : الاتجاه الرسمي :

يقول المصطفي صلى الله عليه وسلم : ((من تَطبَّب ولم يعلم منه طب قبل ذلك فهو ضامن)) [٢] أي مسؤل عن الضرر شرعاً .

وبهذا وضع الإسلام الأساس السليم لمن يريد الدخول في هذه المهنة ، بأنه سوف يُعاقب على إهماله ، ويحاسب على خطئه ، أي تطبيق مبدأ « الحسْبَة » على الأطباء .

ولقد احتل موضوع تنظيم المهن الطبية التخصصية ، ومعرفة آداب الطبيب وواجباته ، والتزاماته ، حيِّزاً مهما في اهتمامات الدولة ، خاصة مع ازدياد أعداد الأطباء الكبيرة في العراق ، إذ بلغ عددهم في بغداد وحدها ، نحو : (٨٦٠ طبيباً) ، عدا الأطباء المشهورين في الصناعة ، وكذلك الذين كانوا في خدمة الخلفاء [٣] .

غير أن تطبيق مبدأ المراقبة على المهن الطبية لم يظهر إلا في سنة (٣١٩هـ/٩٣١م)، عندما أمر الخليفة المقتدر مُحتسبه إبراهيم بن محمد بن بطحا بمنع جميع الأطباء من مزاولة مهنة الطب إلا بعد الحصول على ترخيص من رئيس الأطباء « سِنان بن ثابت بن قُرَّة » ، حيث أمره الخليفة بامتحانهم ، وان يُطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه من

---

(١) انظر مبحث اهتمام الخلفاء بالحركة العلمية .

(٢) أبو داود : السنن ، (١٩٥/٤) ، رقم (٤٥٨٦) . النسائي : السنن ، (٥٢/٨) ، رقم (٤٨٣٠) . ابن ماجة : السنن ، (١١٤٨/٢) ، رقم (٣٤٦٦) .

(٣) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٩١ .

صناعة الطب ، ودخل هذا الامتحان العدد المذكور (٨٦٠ طبيباً) [١] ، وبلغ عدد من اجتازه ، ورُخِّص له بمزاولة المهنة : (٦٨ طبيباً) [٢] .

هذا الأمر يحمل في طياته عدة أمور ينبغي الإشارة إليها ، وهي :

١ ـ أن هذا العدد الضخم للأطباء ، وفي بغداد وحدها ، لم يكونوا جميعاً أطباء بالمعنى الصحيح ، وإنما كانوا مزيجاً من : الفصَّادين ، والمُجبِّرين ، والمُحجِّمين ، والكوّائين والكَحَّالين ، وغيرهم . ويمارسون هذه الأعمال طلباً للرزق فقط ، إذ كانت مهنة الطب من المهن المُريحة [٣]. ومن شواهد ذلك ، أن سناناً قال لأحد المتحنين ، وكان شيخاً كبيراً: ((لا تهجم على مريض بما لم تعلم ، ولا تشير بفَصْد ، ولا بدواء مُسْهِلٍ ، إلا لما قرب من الأمراض ، فقال له الشيخ : هذا مذهبي مُذ كنت ، ما تعديت السَّكَنْجَبين ، والجُلَّاب ، ثم انصرف)) [٤] .

٢ ـ الفوضوية التي كانت عليها ممارسة مهنة الطب في العراق قبل صدور أمر الخليفة المقتدر ، بدليل الخطأ الطبي لأحد هؤلاء الأطباء ، الذي أدي إلى وفاة أحد المرضى ، مما دعى بالخليفة المقتدر إلى وضع حدٍ لهذا الأمر .

٣ ـ أن تسامح الخلفاء العباسيين مع أهل الذِّمة ، قد أدى إلى ازدياد عدد من يمارسون الطب في ذلك الوقت ، يقابلها كساد في طبابة أهل البلد من العرب ، وهو ما يتضح في قصة أبو الحارث أَسد بن جَاني ، وهو أحد أطباء بغداد يومئذ وصديق الجاحظ ، عندما كَسَدت سوقه ، فلم يقصده أحد للمعالجة ، فقال قائل له : ((السنة وَبِئَة ، والأمراض فاشية ، وأنت عالم ، ولك صبر وخدمة ، ولك بَيان ، ومعرفة ، فمن أين تُوْتَى في هذا الكساد ؟ ، فقال أبو الحارث : أما واحدة فإني عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٠٢ .

(٢) عبد الرزاق زقزوق : تاريخ الطب عند العرب ، أبحاث المؤتمر السنوي الثالث للجمعية السورية لتاريخ العلوم ، ص ٢١٧ .

(٣) كان لأحمد بن وصيف الكَحَّال ، دكان ببغداد يمارس فيه الكِحالة ، وكان يتقاضى (٨٠ درهماً) مقابل عملية قَدْح العين . ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٨١ .

(٤) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٩١ .

أن أتطبَّب ، لا بل قبل أن أُخلَق ، أن المسلمين لا يفلحون في الطب . وإسمى أسد ، وكان ينبغي أن يكون إسمي : صليباً ، وجبرائيل ، ويوحنا ، وبطرس . وكُنيتي أبو الحارث ، وكان ينبغي أن تكون : أبو عيسى ، وأبو زكريا ، وأبو إبراهيم . وعليَّ رداء قطن أبيض ، وكان ينبغي أن يكون ردائي حريراً أسود . ولفظي لفظُ عربي ، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جُنْدَيْ سَابور)) [١] .

وكان هناك جهاز لمراقبة مهنة الطب من قِبل الخليفة يتولاها شخصان [٢] :

١ ـ **المحتسب** : وكانت وظيفته في الغالب ذات جانب إنساني ، وديني في صناعة الطب .

٢ ـ **رئيس الأطباء** : ووظيفته كانت مهنية بحته ، ولهذا نرى أن الخليفة المعتضد لم يُعين ثابت بن قُرَّة ، وهو صديقة وفلكية ، رئيساً للأطباء في بغداد . بل عيَّن في هذا المنصب طبيبه « غَالِب » ، وذلك لأنه أقدر في ممارسة الطب من ثابت .

ولقد تناولت بعض كُتب الطب [٣] ، والحسبة [٤] ، الشروط المتعلقة بالطبيب ، والتزاماته ، وآدابه ، وأخلاق ممارسته لمهنة الطب ، وواجباته نحو المريض والمجتمع ، والرقابة على أعمال الأطباء ، والسلوك المهني لهم ، على اختلاف اختصاصاتهم الطبية .

وأُنشئت البيمارستانات (المستشفيات) في العراق في تلك الفترة على يد الخلفاء والأمراء ، والوزراء ، والقُوَّاد . وكانت إلى جانب وظيفتها الأساسية ، وهي مداواة المرضى ، معاهد علمية ، ومدارس لتعليم الطب [٥] .

---

(١) الجاحظ : البخلاء ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ . وإذا كان كلام ابن جاني فيه شيء من الواقعية ، إلا أن هذا لا يعني خلو الساحة من الأطباء العرب ، ولعل ابن جاني يقصد بقوله هذا ، تصوير طغيان أهل الذِّمة في ممارسة مهنة الطب ، لدرجة غيرّت مفاهيم الناس في ذلك الوقت ، وأن هؤلاء الأجناب هم أهل الطب الحُذَّاق .

(٢) رحاب عكاوي : الموجز في تاريخ الطب ، ص ١٩٩ .

(٣) ابن ربن الطبري : فردوس الحكمة ، ص ٥٥٨ ـ ٥٦٠ . الرازي : أخلاق الطبيب (بأكمله) . المرشد أو الفصول ، ص ١١٨ ـ ١٢٥ . الرهاوي : أدب الطبيب ، ص ٣٩ ـ ٥٩ . أبو العلاء صاعد : التشويق الطبي ، ص ٨١ ـ ٨٨ .

(٤) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٣١٨ . الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٩٧ ـ ١٠٢ . ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص ١٦٥ ـ ١٦٩ .

(٥) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، ص ٣ ـ ٤ .

وكان بالعراق في ذلك الوقت ثمانية بيمارستانات ، هي :

١ ـ بيمارستان صاعد : [١]

وانتهت رياسة هذا البيمارستان إلى الطبيب أبي منصور صَاعِد بن بِشْر بن عبدوس (كان حياً سنة ٢٧٧هـ/٨٩٠م) ، الذي كان في أول مره قَاصداً في هذا البيمارستان ببغداد ، وما زال يترقى في صناعة الطب حتى انتهت إليه رياسة هذا البيمارستان [٢] .

ولقد خلط بعض الباحثين [٣] بين هذا البيمارستان ، وبيمارستان بدر ، غلام المعتضد ، القادم ذكره ، وضنُّوا بأنه اسم لبيمارستان واحد . ولم يشر إلى هذا البيمارستان على أنه أحد بيمارستانات بغداد المستقلة إلا يعقوب الكَشْكَري في كُنَّاشه [٤] .

ولا يُعرف عن تأريخ تأسيس هذا البيمارستان على وجه التحديد ، غير أن أقدم ذكر له يرجع إلى أيام وزارة إسماعيل بن بُلْبُلْ إبَّان حكم الخليفة المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ/٨٧٠ ـ ٨٩٢م) . وكان صاعد مقدماً لديهما ، وصاحب حَظوة عند الوزير ، خاصة عندما نجح في علاج ابن أخته من مرض أَلمَّ به ، عجز عنه أطباء بغداد [٥] .

ولم تذكر المصادر معلومات عن موقع هذا البيمارستان في بغداد ، غير أن هناك نصَّاً عند الصابىء في كتابه « الوزراء » ، يُفيد بأن البيمارستان الصاعدي لم يكن يوجد غيره في بغداد في بداية خلافة المعتضد ، وبشكل أدق ، أوائل وزارة عبيد الله بن سليمان (٢٧٩ ـ ٢٨٨هـ/٨٩٢ ـ ٩٠١م) ، حيث يقول : (نفقات البيمارستان الصاعدي ، ولم يكن

---

(١) لم تشر المصادر إلى الشخصية التي نُسب إليها هذا المستشفى ، هل هو صاعد الطبيب ، بسبب لزومه هذا البيمارستان ، أم الوزير صاعد بن مَخْلد الملقب بذي الرِّياستين (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) ، الذي اشتهر بفعل الخير ، والعطف على الفقراء ، ووصلت مكارمه بتشييده لهذه المستشفى . وإن كان الاحتمال الأول أقرب للصواب .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣١٣ .

(٣) كمال السامرائي : مختصر تاريخ الطب العربي ، (١/٦٠٥) .

(٤) الكناش في الطب ، الورقة : (١١ ب) .

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .

يومئذ غيره ، وأرزاق المتطببين ، والمثّانين ، والكحّالين ، ومن يخدم المغلوبين على عقولهم ، والبّوابين ، والخبّازين ، وغيرهم ، وأثمان الطعام ، والأشربه ... أربعمائة وخمسين ديناراً في الشهر)) [١] .

كما أُلحقت ببيمارستان صاعد ، صيدلية يبدوا أنها كبيرة ، تُركَّب فيها الأدوية وفق قوائم تعرف بـ « نسخة البيمارستانات » [٢] .

وتميز هذا البيمارستان من الناحية الطبية ، بأنه شهد ، لأول مرة في تأريخ الطب ، استخدام الأدوية الباردة في تدبير الأمراض ، التي كانت تُعالج قديماً بالأدوية الحارة ، كالفَالِج [٣] ، واللَّقْوَة [٤] ، وغيرها . وذلك على يد الطبيب صاعِد ، خلافاً للأسلوب القديم الذي كان يعتمد على الأدوية الحارة في علاج الأمراض . فأخذ صاعد ، كما يذكر ابن بطلان ، « المرضى بالفَصْد ، والتبريد ، والترطيب ، ومنعهم من الغذاء ، ورفع عن البيمارستان المعاجين الحارة ، والأدوية الحارة ، ونقل تدبير المرضى إلى ماء الشعير ، ومياه البُزُور » [٥] .

وممن عمل في هذا البيمارستان أيضاً : يعقوب الكَشْكَري الطبيب ، وإبراهيم بن زَيْتونة البصري [٦] .

٢ ـ بيمارستان بدر :

وقد أسسه أبو النَّجم بَدْر الحَمَامي ، غلام الخليفة المعتضد ، في محلة المُخَرِّم ببغداد ، وكانت النفقة عليه من ارتفاع وقف شُجاع أم الخليفة المتوكل . ويبدو أن مهمة الإشراف كانت موكلة إلى الطبيب سِنان بن ثابت بن قُرَّة ، وهو ما يظهر من الكتاب الذي

---

(١) الوزراء ، ص ١٦ ـ ١٧ .

(٢) مريزن عسيري : كناش الكشكري ، مجلة المؤرخ العربي ، مج١ ، ع٢ ، ص ١٢٤ .

(٣) الفَالِج : هو استرخاء أحد الجانبين من الإنسان (الشلل النصفي) . الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٥٤.

(٤) اللَّقْوَة : أن يتعوّج وجه الإنسان فلا يقدر على تغميض إحدى عينيه . المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣١٣ .

(٦) الكشكري : الكناش في الطب ، الورقة : (٤٨ ب) ، (٥٢ ب) .

بعثه إلى الوزير علي بن عيسى يشكو إليه تأخير وَهْب بن محمد الكَلْوَذَاني ، مُدبِّر الوقف ، صرف نفقة البيمارستان المُخصصة له من هذا الوقف لعدة شهور (١) .

وممن عمل في هذا البيمارستان من الأطباء ، يعقوب الكَشْكَري (٢) .

٣ ــ بيمارستان علي بن عيسى الوزير :

وقد شيده الوزير علي بن عيسى بن الجَرَّاح (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م) في محلة الحَرْبية ببغداد سنة (٣٠٢هـ/٩١٤م) ، وكان يُنفق عليه من ماله الخاص . وعهد بالإشراف عليه إلى طبيبه الخاص أبي عثمان سعيد بن يعقوب الدِّمشقي (٣) .

٤ ــ بيمارستان السيدة أم المقتدر :

وقد اتخذ ه لها سنان بن ثابت في سوق يحيى ببغداد ، وبناه على نهر دجلة ، وافتتح هذا البيمارستان في المحرم سنة (٣٠٦هـ/٩١٨م) ، وجلس فيه سنان ، ورتب المتطببين ، واستقبل المرضى . وكانت النفقة على هذا البيمارستان في كل شهر : ستمائة دينار ، أي سبعة آلاف ومائتي دينار سنوياً . وكان يتولى أمر هذه النفقات : يوسف بن يحيى المُنجِّم (٤). وكان يعقوب الكَشْكَري أحد الأطباء الذين عملوا في هذا البيمارستان (٥).

٥ ــ البيمارستان المقتدري :

وقد أمر ببنائه الخليفة المقتدر ، بناءً على مشورة سنان بن ثابت له . واتخذه له سنان في باب الشام ببغداد ، وسمَّاه : البيمارستان المقتدري ، وذلك في سنة (٣٠٦هـ/٩١٨م) . وكانت النفقة على هذا البيمارستان في كل شهر : مائتي دينار ، أي ألفان وأربعمائة دينار في السنة (٦) .

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ .

(٢) الكشكري : الكناش في الطب ، الورقة : (١٣٠ ب) .

(٣) الشهرزوري : نزهة الأرواح ، (٢/٦) . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣١٦ .

(٤) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ . العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٩/٢٢٥) .

(٥) الكشكري : الكناش في الطب ، الورقة : (٢٩٠ أ) .

(٦) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٩٤ .

٦ ـ بيمارستان ابن الفرات :

وقد أسسه الوزير أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م) في خلافة المقتدر ، واتخذه في درب المُفَضَّل ببغداد ، وممن تولى رئاسته سنان بن ثابت بن قُرَّة الطبيب ، وذلك سنة (٣١٣هـ/٩٢٥م) بأمر الوزير محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان (١) .

٧ ـ بيمارستان بجكم التركي :

وقد شيده ببغداد أمير الأمراء بَجْكُم التركي سنة (٣٢٩هـ/٩٤٠م) ، ليعالج فيه الفقراء ويُعَلّلون . وتولى هذا الأمر سنان بن ثابت (٢) .

٨ ـ بيمارستان باب المحول :

وقد أُنشيء هذا البيمارستان في محلة باب المُحَوَّل بجانب الكَرْخ ببغداد ، ولا يعرف مؤسسه ، ولا حتى تاريخ تأسيسه ، ولكن ورد ذكره لأول مرة في قصة حدثت لأبي بكر الأنباري (ت ٣٢٨هـ/٣٩٣م) مع أحد نزلاء هذا البيمارستان ، أوردها القفطي ، يقول أبو بكر : ((دخلت البيمارستان بباب المُحَوَّل ، فسمعت صوت رجل ...)) (٣) .

وبعد ذكر البيماريتانات التي كانت موجودة في العراق ، أبَّان نفوذ الأتراك ، هناك جملة أمور ينبغي الإشارة إليها .

أ ـ أن عدد البيمارستانات في العراق في تلك الفترة ، بلغ ثمانية بيمارستانات ، وليست ستة كما تذهب أغلب المصادر ، والمراجع التي كتبت عن هذا الأمر .

ب ـ مراعاة مواقع توزيع البيمارستانات في أنحاء مدينة بغداد (٤) ، وهو أمر بالغ الأهمية . فنلاحظ من خلال المقارنة بين مواقع هذه البيمارستانات المذكورة ، عدا البيمارستان

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٠٥ .

(٢) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري ، ص ٣٢٦ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٩٣ .

(٣) القفطي : إنباه الرواة ، (٣/٢٠٥ ـ ٢٠٦) .

(٤) راجع خريطة بغداد في ملحق رقم (٥) في آخر الرسالة .

الصاعدي ، وبيمارستان بَجْكُم ، اللذان لم تحدد المصادر موقعهما في بغداد ، نجد أن واحداً منها يقع في وسط بغداد ، وآخر في شمالها ، وثالث في شمالها الشرقي ، ورابع في شمالها الغربي ، وخامس في جنوبها ، وسادس في جنوبها الشرقي . أي توزيع المرافق الصحية بشكل صحيح بحسب الكثافة السكانية ، وأوضاعها المعيشية .

جـ ـ تفاوت ميزانيات البيمارستانات ، التي جاء ذكر نفقاتها « الشهرية » ، وفي ذلك إشارة إلى اختلاف مستوى هذه البيمارستانات عن بعضها البعض ، تبعاً لحجم طاقة العمل التي يؤديها البيمارستان ، وهو أمر خاضع لأمور عدة .

د ـ وجود مبدأ التكافل الاجتماعي ، الذي تمليه الشريعة الإسلامية السمحة على أفراد المجتمع ، والذي يتمثَّل في مجَّانية العلاج لكافة طبقات المجتمع ، وتفعيل دور الدولة ، والمجتمع في الاهتمام بفئة المُعاقين .

هـ ـ ما بلغته البيمارستانات في العراق ، في ذلك الوقت من مستوى راقٍ من الناحية الهيكلية ، سواء في النواحي الطبية ، أو التشغيلية . فمن الناحية الطبية ، نجد أن تلك البيمارستانات كانت مزودة بكادر طبي يتولى مهمة علاج المرضى في عيادات خُصصت لكل فرع من فروع الطب ، وممرضين يتولون رعاية المرضى ، وصيادلة يشرفون على تحضير الأدوية ، والعقاقير اللازمة . ومن الناحية التشغيلية فهناك كادر إداري يتولى مهمة الإشراف على إدارة المستشفى ، كالمدير الطبي ، وموظفين مختصين بالنواحي المالية ، وفئة أخرى من الكوادر البشرية ، تعمل في المرافق الخدمية للمستشفى ، كالطبَّاخين ، والبوَّابين ، وعمَّال النظافة ، وغيرهم .

وإذا كان هذا العدد من المستشفيات في بغداد وحدها ، والذي يدل دلالة واضحة على ازدهار الطب ، وعلومه في حاضرة الخلافة العباسية ، فإن المهارة الطبية لم تكن قاصرة على أطباء بغداد فقط ، وإنما شاركهم فيها أطباء المدن العراقية الكبيرة الأخرى ، وإن سكتت المصادر عن ذلك . بل وتميز أطباء بعض المدن بمهارة في أحد فروع الطب على

أقرانهم في المدن الأخرى . فقد اشتهر أطباء البصرة بالحذق في علاج أمراض العين، نتيجة لما اكتسبوه من خبرة نظراً لانتشار أمراض العين فيها ، بسبب حرارة جَوِّها [١] .

كما ظهر في تلك الفترة البيمارستانات المُتَنقِّلة ، التي لم تكن مشيدة ، وثابتة في موضع معين ، كالبيمارستانات السابقة . ومما دعى إلى ظهور هذا النمط من البيمارستانات ، وجود فئات من المجتمع تمنعها حالتها من الذهاب إلى بيمارستانات المدينة ، ونقصد بذلك : نزلاء السجون . ولهذا نرى الدولة قد كفلت لهذه الفئة الرعاية الطبية اللازمة ، حيث أن كثرة أعدادهم في مكان واحد ، مدعاة لانتشار الأمراض المُعْدية بسرعة ، الأمر الذي دفع بعلي بن عيسى بن الجَرَّاح ، وكان يتقلد الدواوين أيام وزارة حامد بن العباس سنة (٣٠٦هـ/٩١٨م) للخليفة المقتدر ، أن يبعث إلى الطبيب سنان بن ثابت توقيعاً [٢] ، يأمره فيه بأن يُفرِد لنزلاء السجون أطباء يدخلون عليهم بصفة يومية ، ويَتفقدون أحوالهم ، مع أخذ المواد الطبية اللازمة لهذا الأمر ، من الأدوية وخلافه .

كما كان انتشار الأوبئة في بعض مناطق العراق مدعاة إلى تواجد فريق طبي يُشرف على علاج المصابين بالأمراض الوبائية ، والمُعدية ، لا سيما في المناطق التي تكثر فيها الزراعة ، والمستنقعات المائية .

وكان هذا الأمر محل عناية الدولة أيضاً ، فقد أمر علي بن عيسى سنان بن ثابت ، في توقيع آخر [٣] ، يأمره فيه بإرسال بعثة طبية مجهزة بالأدوية ، والأشربة ، لتطوف في قرى منطقة السَّوَاد في جنوب العراق ، لتفشي الأمراض ، والأوبئة فيها ، نظراً لطبيعة أراضيها الزراعية ، وخلوها من المستشفيات ، والأطباء .

ولقد كفلت الدولة العلاج لكل أفراد المجتمع على اختلاف نحلهم وأعراقهم ، مع إعطاء الأولوية في العلاج للمسلمين [٤] .

---

(١) الكشكري : الكناش في الطب ، الورقة : (٥٢) . ويصف الكشكري زيارته لجنوب العراق ، وملاحظته لانتشار أمراض العين بالبصرة ، واصفاً مهارة أطبائها في اكتشاف العلاجات المناسبة لها ، واحتفاظهم بأسرارها .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٠١ . انظر نصَّ التوقيع في ملحق رقم (٣) في آخر الرسالة .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠١ . انظر نصَّ التوقيع في ملحق رقم (٣) في آخر الرسالة .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٠١ . انظر توقيع علي بن عيسى للطبيب سنان بن ثابت وتوجيهه له بعلاج يهود السَّواد . ملحق رقم (٣) في آخر الرسالة .

لقد كان لهذه البيمارستانات ، والضوابط التي أقرتها الدولة لتنظيم ممارسة مهنة الطب ، إضافة إلى رعاية الخلفاء للطب والأطباء ، وما خلفته حركة الترجمة من الكتب الطبية الخاصة بالأمم التي سبقت المسلمين في هذا المجال ، كل هذا ولا شك ، قد أسهم في ظهور طائفة من الأطباء في العراق أدلوا بدلوهم في تأريخ الطب ، وأودعوا ما توصلوا إليه مصنفاتهم القيِّمة ، والتي كان لها عظيم الأثر في علم الطب من بعدهم .

ومن خلال هذه المصنفات ، نجد أن أطباء العراق ، قد مارسوا التطبيق العملي في مختلف فروع الطب ، كأمراض السرطان ، والأورام ، والأسنان ، والكسور ، وجراحة الأعصاب ، ورفع الحَصى من المثانة ، وأمراض العين ، وأمراض النساء والولادة ، والأمراض الجلدية ، والأمراض النفسية ، وأمراض الأطفال ، كالإسهال والربو ، والبول في الفراش ، والتَّشنُّجات ، والحوَل ، وأنواع الديدان التي تصيب الجهاز الهضمي ، وشلل الأطفال ، والحُمِّيات [١] .

أما علم التشريح ، فلم نقف على نصٍّ صريح يفيد بأن الأطباء في هذا الوقت عاينوا تشريح الجُثَث الآدمية . أما ما جاء في مؤلفاتهم ، التي تكلَّموا فيها عن هذا الفرع الطبي ، وما توصلوا إليه من استنتاجات ، وما اهتدوا إليه من دقائق أعضاء الجسم ، وعملها . فإن مصدر معلوماتهم التشريحية اعتمد على [٢] :

١ ــ كتب اليونان ، لا سيما أبقراط ، وجالينوس .

---

(١) إن طبيعة البحث لا تسمح باستعراض إنجازات الأطباء في فترة الدراسة في فروع الطب بشكل مستقل ، ولكن للتعرُّف عليها مجتمعة ، وبصورة وافية ، يمكن الرجوع إلى المؤلفات التي صنَّفها الباحثون المعاصرون عن إنجازات أطباء العرب والمسلمين في كتب مستقلة بفرع من فروع الطب . أو مجتمعة في كتب تتحدث عن تأريخ الطب عند المسلمين . انظر أيضاً ثبت المراجع لهذا البحث .

(٢) محمود الحاج : الطب عند العرب والمسلمين ، ص ٩٩ .

٢ ـ التشريح المقارن . وذلك عن طريق تشريح الحيوانات [١] .

٣ ـ مشاهدة الهياكل العظمية في المقابر .

٤ ـ ملاحظة الجروح التي تنتج عن الحوادث ، والحروب .

والعلة في ذلك ، أن التشريح لم يكن مباحاً في الإسلام في ذلك الوقت ، وكانت الدولة تلتزم بهذا الأمر ، فلم تكن تسمح بممارسة التشريح ، بل وتعاقب من يقوم به [٢] .

ولكننا نلمح في بعض كتابات هؤلاء الأطباء تأكيداً على أهمية التشريح في التعرُّف على علل الأعضاء الباطنة ، على نحو ما نجده في قول الرازي : ((يحتاج في استدراك علل الأعضاء الباطنة إلى العلم بجواهرها أولاً ، بأن تكون قد شوهدت بالتشريح)) [٣] ، بل ويشترط في امتحان الطبيب لممارسة المهنة، أن يُسأل عن التشريح ومنافع الأعضاء [٤].

غير أنه يمكن القول بأن أطباء العراق قد ساهموا في تقدُّم المعارف في التشريح من زاوية أخرى ، فقد صنَّفوا ، ورتبَّوا تآليف جالينوس بطريقة منطقية واضحة ، وجعلوا فهمها سهلاً ميسراً [٥] .

---

(١) هناك نماذج عديدة على ممارسة أطباء تلك الفترة تشريح الحيوانات ، فقد كان يُوحنا بن مَاسَويه يشرِّح « القِرَدة » ، فقد شرَّح قرداً ، ووضع فيه كتاباً حسناً . العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٩/٢١٤ ـ ٢١٥) . أما ثابت بن قُرَّة فقد شرح طائر « مالك الحزين » ، ووضع فيه كتاباً . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١١٩ .

(٢) يقول يوحنا بن ماسوية عن ابنه ، وكان متخلفاً عقلياً ، : ((ولولا كثرة فُضول السلطان ، ودخوله فيما لا يَعْنيه لشرَّحتُ إبني هذا حيَّاً ، مثل ما كان جالينوس يشرح القرود ، والناس .. ولكن السلطان يمنع من ذلك)) . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٥٢ .

(٣) أبو بكر الرازي : المرشد أو الفصول ، ص ٦٦ . والرازي كان أول من وصف الفرع الحنجري العائد ، وقال عنه : أنه قد يكون مزدوجاً من الجهة اليُمنى أحياناً . أمين خير الله : الطب العربي ، ص ١٦٩ .

(٤) أبو بكر الرازي : محنة الطبيب ، ص ٥٠٤ .

(٥) عبد الناصر كعدان : علاج الكسور عند الأطباء العرب ، ص ٢٣ .

إن أثر الفلسفة في الطب الواضح عند اليونان ، استمر أيضاً عند أطباء العراق في تلك الفترة ، فقد كانوا متأثرين بنظرية الأخلاط الأربعة [١] ، واتخاذها أساساً في الأمراض ، وعللِها [٢] .

ولقد اعتمد الأطباء في تلك الفترة على التجربة كأحد ملامح المنهج العلمي عندهم . فمنذ منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، بدأ التركيز على الأخذ بالأساليب العلمية ، والاهتمام بالتجريب العملي [٣] . خاصة وأن الإسلام يحثُّ على التأكد من صحة الشيء قبل الحكم عليه عملاً بقول المصطفي صلى الله عليه وسلم ((لا حليم إلا ذو عَثْرة ، ولا حكيم إلا ذو تَجْربة)) [٤] ، فقد كانت التجربة لديهم مُوجَّهة مدروسة ، لا سيما عند

---

(١) تقول هذه النظرية : أن كل الأشياء مكونة من عناصر أربعة ، هي : التراب ، والهواء ، والماء ، والنار . ولها صفات أربع هي : البرودة للتراب والماء ، والحرارة للنار والهواء ، والجفاف للتراب والنار ، والرطوبة للماء والهواء . ويقابل هذه العناصر ، والصفات أخلاط أربعة في جسم الإنسان هي : الدم ، والبَلْغم ، والمُرَّة الصَّفراء ، والمُرَّة السوداء ، ثم جمعوا بين العناصر الأربعة ، والصفات الأربع بطريق الضم والتبادل على النحو التالي : الدم له خواص الهواء = الحرارة + الرطوبة . المُرَّة الصَّفراء لها خواص النار = الحرارة + الجفاف . البَلْغم له خواص الماء = البرودة + الرطوبة . المُرَّة السَّوداء لها خواص التراب = البرودة + الجفاف .

واعتبرت هذه النظرية الصحة ، والمرض هما نتيجة توازن هذه الأخلاط . وأن وظائف الجسم الإنساني عبارة عن تبادل دائم بين الحار ، والبارد ، والرطب ، والجاف ، وبصورة أخرى ، أن العافية البدنية هي حالة من التوازن بين سوائل الجسم الناتجة من انهضام الأكل وعناصره الأربعة . جورج سارتون : تاريخ العلم ، (٢٢١/٢ ـ ٢٢٢) . جلال موسى ، منهج البحث العلمي عند العرب ص ١٧٦ ـ ١٧٧ . عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ، ص ٨٢ .

(٢) ابن ربن الطبري : فردوس الحكمة ، ص ٤٠ ـ ٤٣ . حنين بن إسحاق : المسائل في الطب ، ص ٢ ـ ٩ . ابن قرة : الذخيرة في علم الطب ، ص ٢ ، ٤ ، ٥ ، ١٢ ـ ١٤ ، ١٣٢ ـ ١٣٣ . الرازي : المرشد أو الفصول ، ص ٤٩ ـ ٥٢ . المدخل الصغير إلى علم الطب ، ص ١١٠ ـ ١١٢ .

(٣) عامر النجار : في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ، ص ٨٨ .

(٤) البخاري : الأدب المفرد ، ص ١٩٩ . الترمذي : السنن ، (٣٧٩/٤) ، رقم (٢٠٣٣) . ابن حنبل : المسند ، (٨/٣) .

الـرازي في كثـير من مصنفـاته ، ككتـاب « الخـواص » ، وكـتـاب « منافع الأغـذية ودفع مضارها » ، وكتاب « الحاوي » [١] . وكذلك يعقوب الكَشْكَري ، الذي برهـن من خلال كتابه « الكُنَّاش فـي الطب » على مكانته كـأحد الأطباء المهرة ، المتمرسين في عصره ، علماً ، وعملاً ، فأوصله الاعتماد على التجربة العلمية إلى نتائج إيجابية عالية [٢] .

وأخـذ الجـانب العـملي في التطبيق يبرز ، واهتم الأطباء ، وخـصـوصـاً منذ عـهد الرازي ، بدراسة سَيْر المرض ، وتطوره (الملاحظات السريرية) [٣] .

ومع أن الطب في تلك الفترة لم يخرج في جانبه النظري عن النظريات التي سادت عـهد اليـونان ، إلا أنه كـان قائمـاً أيضـاً ، على التـجربة والمشـاهدة ، وتفنيد آراء اليـونان ، والاعتراض عليها . ورفض الأخذ بنظريات أبقراط ، وجالينوس لخطأ يجدونه عندهم [٤] .

ومن جـهة أخرى ، فـقد كان للأطباء في هذا الوقت ، الفضل الأول في إحيـاء الطب النظري ، الذي وصل إلى القمة في كتب جالينوس ، والتمسك بالمعالجة الأبقراطية التي تقوم على مـشـاهـدة المريـض بجانب سريره بعد أن ضـاع مـوقفه قبل الإسـلام ، وخـاصـة عند اللَّاتين ، وذلك بعد أن غطى عليه الطب الشعبي ، والخرافي . وهـو ما يمكن اعتباره من أهم مآثر الطب عند المسلمين في تاريخ الطب [٥] .

وينبـغي الإشـارة إلى التطور في مجال تشـخيص الأمراض ، الذي كـان يرتكز على التَّفْسَرة [٦] ، والنبض ، وهو من مخلفات اليونان الطبية ، حيث أصبح التشخيص لا يقتصر

---

(١) ناقش هذا الأمر بشكل مستوعب كلاً من : جلال موسى : منهج البحث العلمي عند العرب ، ص ١٤٣ ـ ٢٢٠. هناء فوزي : مناهج الأطباء العرب ، ص ٦٩ ـ ٧١ ، وغيرهم .

(٢) مريزن عسيري : كناش الكشكري ، ص ١٠٢ . وسـوف يأتي الحـديث عن هذا الأمـر في مـوضـعـه من هذا المبحث .

(٣) عبد الرزاق زقزوق : تاريخ الطب عند العرب . أبحاث المؤتمر السنوي الثالث للجمعية السورية لتاريخ العلوم، ص ٢١٦ .

(٤) جلال موسى : منهج البحث العلمي عند العرب ، ص ١٧٦ .

(٥) فؤاد سزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ، ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٦) التَّفْسَرة : هي الاستدلال على علة المريض من خلال النظر إلى بوله . ويشـترط الرازي مـجـموعـة لضـمان نجاحها . المرشد أو الفصول ، ص ٦٩ ـ ٧١ .

على ذلك فقط ، بل أصبح احتقان الوجه ، ومراقبة درجة الحرارة ، والرَّعْشة ، والعينين ، والتَّنفُّس ، والأظافر ، من وسائل التشخيص المعتمدة في هذا الشأن [١] .

والطب في الدولة الإسلامية على مدى ازدهاره فيما بين القرنين : الثالث ، والسادس الهجريين/التاسع ، والثاني عشر الميلادي ، كان طباً للأصحاء بقدر ما كان للمرضى ، أو كما قال سنان بن ثابت : ((إن موضوع صناعتنا ، حفظ الصحة ، لامداواة الأمراض)) [٢] . فكان مفهوم الطب الوقائي في دفع الأمراض ، من خصائص الطب العراقي خاصة ، والعربي بشكل عام [٣] .

وكان بعض الأطباء يصرف جزءاً من جهده في وضع مؤلفات يمكن أن نُسمِّيها « كُتب في الإسعاف الأولي » ، على نحو ما نجده عند الرازي في كتابيه : « من لا يحضره طبيب » ، و « بُرءُ ساعة » ، وعيسى بن مَاسَة في كتابه « من لا يحضره طبيب » [٤] . فهذه الكتب ، وغيرها ، التي صُنِّفت على هذا النمط ، تضم مختلف الأمراض بأسمائها ، وطرق العلاج ، وأسماء العقاقير ، والأدوية التي كانت متوفرة في الأسواق المحلية ، والتي يمكن أن يحصل عليها جميع فئات المجتمع [٥] ، وكذلك احتوائها على الكثير من الوصْفات الطبية التي تُستعمل في الأسعاف الأولي ، وخاصة عند غياب الطبيب .

كما تميّز التأليف في هذا العصر ، بظهور الاتجاه الموسوعي في تصنيف الكتب الطبية ، وهو ما سوف يتضح عند استعراض أطباء العراق في تلك الفترة .

ويمكن القول : بأن الطب في العراق كان خلاصة ممزوجة لتجارب الأمم المختلفة ، كاليونان ، والفرس ، والهنود ، حتى ظهر الطب العربي علماً واقعياً ، له مدارسه ، وكتبه ،

---

(١) وليم الخازن : الحضارة العباسية ، ص ١١٧ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٠٨ .

(٣) كمال السامرائي : مختصر تاريخ الطب العربي ، ص ٢٧٤ ــ ٢٧٥ .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٦ .

(٥) كان الأطباء يدركون بأن المجتمع يتفاوت مستوى أفراده المعيشي ، ولذا لم يكن الكثير منهم يستطيع أن يأتي بالأدوية المجلوبة من خارج البلاد ، فهي غالية الثمن ، ولا تُجلب إلا لِعِلّية المجتمع من الأفراد . محمد البابا : طب الفقراء وطب الأغنياء ، أبحاث المؤتمر السنوي الثامن لتاريخ العلوم عند العرب، ص ١٣٥ــ١٤٥ .

وآلاتـه ، اعتمـد أصحابـه فـي عـلاج مرضاهم بما اكتسبوه من تجارب علمية ذاتية ، مع الاستـفـادة من تراث تلك الأمم ، وخـاصـة اليـونـان ، ونظرياتهـم في تشـخيص الأمراض الصعبة ، حتى بلغ هذا العلم ذروته ابتـداءً من أبي بكر الرازي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، ومن جاء بعده [١] .

وازدحم ميدان الطب باعداد كبيرة من الأطباء ، غير أن هناك أطباء كانت لهم مشاركات علمية فعّالة في ميدان الطب ، كان لها دور كبير في رسم معالم هذا العلم في فترة نفوذ الأتراك .

وممـن اشتهـر بالطـب فـي تلـك الفـترة ، **أبـو زكريـا يوحنـا بن ماسويه** (ت ٢٤٣هـ/٨٥٧م) . اتخـذ له والده علمـاء ، وحكمـاء يعلّمـونه الطب . فكان أحـد الأطباء المبصرين بصناعة الطب ، والتأليف فيها . خدم الخلفاء العباسين ، من لدن المأمون وحتى المتوكل . وكان مقدَّماً عندهم ، ونال ثقتهم . فكانوا لا يتناولون شيئاً من الأطعمة ، والأشربة إلا بإشرافه . وكان الطب مصدر ثراء ليوحنا ، الذي صرَّح بأنه اكتسب من صناعة الطب ألف ألف درهم [٢] .

وكان لاهتمامات ابن ماسويه العلمية المتنوعـة أثر فـي بـروزه من بين أقرانـه . فقد كان أحد النَّقَلة من اليونانية إلى العربية ، إضافة إلى كونه أحد رُعاة حركة الترجمة .

ولابن ماسويه إسهامات بارزة في الطب [٣] ، جاء ذكرها في الدراسات المتعلقة بالإنجازات الطبية في الدولة الإسلامية بشكل عام ، والعراق على وجه الخصوص ، في مختلف ميادين الطب ، والتي كان لابن ماسويه شرف المساهمة فيها ، فيوُحَنّا أول من تحدَّث

---

(١) عبد الله الطرازي : جهود العرب في تطوير علم الطب ، ص ٢٢٧ .

(٢) انظر ترجمة ابن مَاسَويه في : النديم : الفهرست ، ص ٤٦٥ . الرهاوي : أدب الطبيب ، ص ٢٢٠، ٢٢٧ ـ ٢٢٨ . ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ص ٦٥ ـ ٦٦ . صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٠١ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٤٦ ـ ٢٥٥ . العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٢٠٨/٩ ـ ٢١٨) .

(٣) يذكر ابن أبي أصيبعة نماذج من استطبابات ابن ماسويه في مختلف العلل . عيون الأنباء : ص ٢٤٧ ، ٢٤٨، ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

عن الجُذَام ، ووضع فيه كتاباً بعنوان : « كتاب في الجذام » [١] ، غير أن هذا الكتاب قد فُقد ، ولكن كثيراً ما يُستَشهدُ به في الكتابات العلمية لعلماء المسلمين في الطب [٢] .

ويبدو من عناوين مصنفات يُوحَنَّا ، أن جزءاً من جهوده الطبية قد صرفه إلى أمراض النساء والولادة ، وعلم الأجِنَّة ، وأمراض العين ، مع تركيزه على الأخيره .

ومن أبرز مصنفات يُوحَنَّا الطبية : كتاب « دَغْل العين » [٣] ، وهو ينتظم في (٤٧ فصلاً) صدَّره المؤلف بقائمة لعناوينها في مقدمة كتابه ، وهي تتناول موضوعات عدة ، وهي : ((في ما هية العين ، وكيفيتها ، وتركيبها ، وعدد رطوباتها ، وحُجُبها ، وعضلها ، وعصبها ، وأسمائها ، ومنفعة كل واحد منها ، ومن أين ابتدائها ، وإلى أين انتهائها ، وجميع الأدواء العارضة لكل واحد منها ، وعلاج ذلك ، بشرح موجز مختصر ، وبالله التوفيق)) [٤] .

ومن خلال تَصفُّح فصول هذا الكتاب ، نجد أن يُوحَنَّا يعتمد ، وبشكل كبير على المصادر اليونانية مع اهتمامه الشديد لإيجاد ما يقابل المصطلحات العربية لأجزاء العين في اللغة اليونانية [٥] ، وكأن ابن مَاسَوَيه يهدف بذلك ، إلى المساهمة في شرح المصطلحات اليونانية الخاصة بالعين وأجزائها ، تبسيطاً على طلاب الطب عند قراءتهم للكتب الطبية اليونانية .

ويمكن القول ، أن يُوحَنَّا بن مَاسَوَيه يُعد أقدم من درس تشريح العين بتفاصيلها الدقيقة خلال تلك الفترة ، فهو بذلك يَسبق حنين بن إسحاق وكتابه « العشر مقالات في العين » ، وخاصة في الجانب التشريحي .

---

(١) ابن جلجل : طبقات الأطباء الحكماء ، ص ٦٦ .

(٢) لسلي ماركويز : حواريون وأطباء مسلمون ، ص ١٧ .

(٣) مخطوط مصدر بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة ، برقم (٤٦٦ طب) ، (٢٧ ورقة) ، ٤٩٣هـ .

(٤) المصدر السابق ، الورقة : (١ أ) .

(٥) المصدر السابق ، الورقة : (٢ أ) ، (٣ ب) ، (٤ أ . ب) ، (٨ ب) ، (١٤ ب) ، (١٥ أ) ، وغيرها .

ومن مصنفات يُوحَنَّا أيضاً ، كتاب « الحُمِّيَّات » [١] ، ينهج فيه مؤلفه المنهج اليوناني من حيث التأثر بنظرية الأخلاط الأربعة وتجسيدها [٢] . ، والنزعة الفلسفية ، والمنطقية في طريقة تناوله لموضوع الحُمَّى ، وما هي ، وكيف هي ، ولِمَ هي ، وما هو حدُّها ، وعلى منوال ذلك سار في بسط حديثه في هذا الكتاب عن هذه الأمور ، مع تفريع لكل واحد منها ، والقول بالطبيعة . مما يجعل كتابه كتاباً طبيًّاً فلسفياً ، لا سيما وأنه يعتمد كثيراً على كتب فلاسفة اليونان وأطبائهم ، كأرسطاطاليس ، وجالينوس ، وفيلغريوس ، وغيرهم .

ويُفرد ابن مَاسَوَيه الجزء الأكبر من كتابه ، إن لم يكن كله ، للحديث عن أنواع الحُمِّيَّات ، وتعريفاتها ، بشكل مفصَّل ، ودقيق ، مُدعِّماً مَؤلَّفه برسوم توضيحية للتقسيمات لكي تسهل على القاريء فهمها بلغت : (٢٩ لوحة) ، ذاكراً في كل ذلك : التعريف بالمرض ، والأسباب ، والعلاج .

ووصل إلينا من مصنفات ابن ماسويه كذلك : كتاب « خواص الأغذية والبقول والفواكه والألبان ، وأعضاء الحيوان ، والأبازير ، والأفاويه » [٣] .

وهو ليس بالكتاب بالمعنى الصحيح ، وإنما هو أقرب إلى الرسالة ، تدخل في باب الطب الوقائي ، يتحدث فيه مؤلفه عن أصناف الأغذية التي يستخدمها الإنسان في معيشته ، موضحاً خواص كل صنف منها ، ومدى فاعليته لجسم الإنسان ، وتعيين الفوائد التي يمكن من خلالها الاستفادة منها لكل عضو من أعضاء الإنسان ، وما هي الأضرار التي تنجُم عنها . فهو يتحدث في البداية عن خواص الأغذية [٤] التي تُكوِّن بشكل رئيسى غذاء الإنسان ، وهي : الحبوب ، كالأرز ، والشعير ، والباقلاء ، والحنطة ، والعدس ، والدخن ، واللوبيا ، وغيرها . ثم ينتقل في حديثه عن خواص البقولات [٥] ، كالكزبرة ، والنعناع ، والكرَّاثْ ، والكرنب ، والباذنجان ، والشبت ، والفجل ، والبصل ، والجزر ، والخس ،

---

(١) مخطوط مصور بدار الكتب المصرية في القاهرة ، برقم (١٧ طب/تيمور) ، (٨٠ورقة) .

(٢) المصدر السابق ، الورقة : (٣ أ) ، (٤ أ) ، (١٢ أ) ، (١٩ ب) ، (٣٠ أ) ، (٣٤ ب) .

(٣) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، برقم (٤٥٦ طب) ، (٤ ورقات) .

(٤) المصدر السابق ، الورقة : (١ ب) .

(٥) المصدر السابق ، الورقة : (٢ أ) .

والراسن ، وغيرها . وبعد ذلك يُعرِّج على الفواكهة ، ويأخذ في الحديث عن خواص أنواع الفاكهة <١> ، من حيث فوائدها ، وأضرارها ، كالرُّمان ، والسفرجل ، والتفاح ، والخوخ ، والأجاص ، والبطيخ ، والخيار ، والتين ، والعنب ، والكمَّثرى ، وقصب السكر ، ... إلخ .

ثم يستعرض خواص اللحوم <٢> ، كلحوم الماعز ، والضأن ، والبقر ، والعجول ، والتيوس ، والجزور ، والأرانب، والإبل ، وحمار الوحش، والدجاج ، والبط ، والنعام ، وغيرها. ثم يتحدث عن خواص شحوم بعض الحيوانات ، كالماعز <٣> ، والبقر ، والبط ، والدجاج . كما يتطرق يُوحَنَّا إلى الحديث عن خواص أعضاء الحيوان <٤> التي يستخدمها الإنسان في غذائه : كالدماغ ، والنخاع ، والمخ ، والذنب ، والأمعاء ، واللسان ، والكراع ، وغيرها .

ثم ينتقل ابن مَاسَوَيه للحديث عن خواص الألبان ومشتقاتها <٥> . وأخيراً يتعرض للحديث عن خواص الأبازير <٦> ، كالفلفل ، والكمون ، والكراويا ، والزنجبيل ، والزعتر ، والزعفران ، والخولنجان ... إلخ .

ومن مصنفات يُوحَنَّا الطبية الأخرى : مقابلة « في الجنين وكونه في الرحم » <٧> ، كتاب « النوادر الطبية التي كتب بها يوحنا بن ماسوية إلى حنين بن إسحاق » <٨> ، كتاب

---

(١) المصدر السابق ، الورقة : (٢ ب) .

(٢) المصدر السابق ، الورقة : (٣ أ) .

(٣) المصدر السابق ، الورقة : (٣ أ) .

(٤) المصدر السابق ، الورقة : (٣ ب) .

(٥) المصدر السابق ، الورقة : (٤ أ) .

(٦) المصدر السابق ، الورقة : (٤ أ) .

(٧) أورسولا فاير : علم الأجنة لدى يوحنا بن ماسوية ، مجلة تاريخ العلوم العربية ، مج٤ ، ع١ ، ص ٩٤ . يقول فاير (ص ٩٥) : ((إن رسالة ابن ماسويه تعطينا فكرة عن التفكير في علم الأجنَّة الذي كان سائداً في العصور الإسلامية الأولى ، والذي كان يُعالج بإيجاز فيسيولوجية نشوء الجنين . معتمداً في المحل الأول على رسائل أبي قراط في « الولادة » ، و « طبيعة الطفل » ، وعلى رسالة جالينوس في « المني » . بينما خصَّص القسم الأكبر من النص لأدوار الحمل ، وتكوّن الجنين في الرَّحِم ، وتبيانها بحجج نظرية العدد اليونانية)) .

(٨) مطبوع بتحقيق : بولس سباط ، د . ن ، القاهرة ، ١٩٣٤م .

« المشجر » [١]، كتاب « في الفصد والحجامة » ، كتاب «في الجذام» ، كتاب « الرجحان » في المعدة ، كتاب « القولنج » ، كتاب « السلوك والسنونات » ، كتاب « علاج الصداع » ، كتاب « دفع ضرر الأغذية » ، كتاب « الإسهال » ، كتاب « لم امتنع الأطباء من علاج الحوامل في بعض شهور حملهن » ، كتاب « مجسة العروق » ، كتاب « الصوت والبحة » ، كتاب « علاج النساء اللاتي لا يحبلن » ، كتاب « السدر والدوار » ، كتاب « المرة السوداء » [٢] .

ومن معاصري ابن مَاسَوَيه ، **أبو الحسن علي بن سهل (ربن) الطبري** (ت ٢٤٧هـ/٨٦١م) ، أصله من مَرْو من أعمال طَبَرسْتِان ، من أسرة يهودية برعت في العلوم ، وتولّت أهم الأعمال لولاة طَبَرسْتِان .

وقام والده ـ وكان أحد أعيان مَرْو ، وذوي الأحساب ، والآداب ، وله نفاذ في الطب والفلسفة ـ بتعليمه وتثقيفه ، وعلّمه العربية ، والسُّريانية ، وشيء من اليونانية ، وكذلك الطب ، والهندسة ، والفلسفة .

ثم أقام بالعراق ، ومارس بها مهنة الطب ، ثم توجَّه إلى الريّ ، وتتلمذ على يديه أبو بكر الرازي ، ثم عاد إلى بغداد في عهد المعتصم ، ولما تسنَّم المتوكل الخلافة ، دعاه إلى الإسلام ، فلبى ابن ربن دعوته ، واعتنقه ، فلقَّبه المتوكل بلقب « مولى أمير المؤمنين » ، ولشرف فضله جعله من ندمائه [٣] . واستطاع الطبري أن يستثمر تمكُّنه من السُّريانية في الاطلاع على بعض الكُنَّاشات التي قام بوضعها الأطباء القدماء ، أمثال : أبقراط ، وجالينوس ، وسرجيوس ، وأَهْرن ، وغيرهم . كما درس أثناء مقامه ببغداد مؤلفات يوحنا بن ماسويه ، وحنين بن إسحاق ، وترجماته ، وكتب الهند [٤] ، حتى قال : ((على أني قد

---

(١) مخطوط بمكتبة رامبور بالهند ، برقم (٤٩٣ : ٢٠٤) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٤/٢٦٦) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٥ . ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٦٥ ـ ٦٦ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٥٥ .

(٣) ابن ربن الطبري : فردوس الحكمة ، ص ١ . النديم : الفهرست ، ص ٤٦٦ . صاعد الأندلسي : طبقات الأمم، ص ١٥٣ . البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام ، ص ٢٢ ـ ٢٣ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٨٧ ـ ٢٣١ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤١٤ . الشهرزوري : نزهة الأرواح ، (٢/٨ ـ ٩) . العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٩/٢٥٣ ـ ٢٥٤) .

(٤) ابن ربن الطبري : فردوس الحكمة ، ص ١ ، ٨ .

فَتشْت كتباً كثيرة من كتب الحكماء المحمودين المشهورين ، وأخذت صفوها ، وثمارها ، وطرائف معانيها ، فلم يَشذَّ عني ، ولم يَفُتْني من أصولها ، وفصولها ، وفروعها إلا اليسير القليل)) <١> . الأمر الذي دفع بابن رَبّن إلى أن يجمع كل معارفه التي تحصَّل عليها بين دفتي كتابه « فردوس الحكمة » <٢> . وهو عبارة عن موسوعة طبية تُعتبر أقدم تأليف جامع لفنون الطب عند العرب ، فقد أراد من كتابه هذا أن يكون ((كتاباً جامعاً لمحاسن كتب الأولين ، والآخرين ، ليكون زماماً لها كلها ، وإماماً محيطاً لجوامع الكُنَّاشات ، كنز من كنوز الصناعة ، وكُنَّاش يحيط بأكثر مما يتمناه المُتَمني ، ويبلغه الواصف من علم الطب ، ومعرفة أصول هذا العالم)) <٣> . ولم يخل الكتاب من بعض المباحث الفلسفية ، والنباتية ، والحيوانية ، والفلكية ، والرياضية ، وغيرها ، إضافة إلى تخصيصه المبحث السادس من الكتاب للصيدلة <٤> .

وقد رام المصنف في تأليفه هذا أن يحتذي حذو منطق أرسطو ، ويبني عليه كتابه ، فكان الطبري مُبتدع هذا المنهج في التأليف الطبي . وأخذ به من جاء بعده من الأطباء ، كأبي بكر الرازي ، وعلي بن العباس الأهوازي ، وبلغ الذروة عند ابن سينا <٥> . ولأن الطبري لم يُرزق قوة الاجتهاد ، والجراءة ، وحُرية الخيال في حل المعضلات العلمية ، فقد جَرَّ عليه اتباع هذا المنهج اضطراب الترتيب ، وضعف التعابير ، والمصطلحات العلمية ، فظهر الخلل فيه من جهات شتىً .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد استقبل أطباء عصره هذا الكتاب بالحفاوة والتقدير ، وكان مصدراً للعديد من الأطباء المعاصرين له ، والمتأخرين في مؤلفاتهم الطبية <٦> .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٢) مطبوع بتحقيق : محمد زبير الصديقي ، مطبعة أفتاب ، برلين (ألمانيا الإتحادية) ، ١٩٢٨م .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٧٤ ـ ٥٠٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص « يج » . (مقدمة المحقق) .

(٦) محمد البابا : الأقرباذينات أودساتير الأدوية العربية . أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، ص ٥٨٢ . وكان محمد بن جرير الطبري يطالع كتاب ابن ربن « فردوس الحكمة » وهو في علة لزم معها الفراش . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٤٨/١٨) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٢٦٣/٤).

وسجل الطبري في كتابه هذا أول وصف لحكّة الجَرَب ، ومع أنه وصف القرَّاد المسبب لهذا الداء ، إلا أنه لم يشر إليه بأنه سبب الجَرَب ، وإنما أشارت إليه الطبيبة هِلْد جَارد في كتابها « فن الطب » (١) .

ولابن ربن مصنفات أخرى ، سوى فردوس الحكمة ، ومنها : كتاب « حفظ الصحة » (٢) ، كتاب « ترتيب الأغذية » ، كتاب « في الحجامة » ، كتاب « منافع الأدوية والأطعمة والعقاقير » ، كتاب « كناش الحضرة » ، كتاب « تحفة الملوك » (٣) .

كما اشتهر في ذلك الوقت في ميدان الطب ، **عيسى بن ماسة** (ت بعد ٢٤٧هـ/٨٦١م) ، أحد الأطباء المتقدمين في صناعته ، وأحد أربابها المشهورين ، وكانت لابن مَاسَة طريقة حسنة في علاج الأمراض (٤) .

وترك ابن مَاسَة عدد من المؤلفات الطبية ، منها : كتاب « قوى الأغذية » ، ومن هذا الكتاب يستدل ، كما يقول القفطي ، على حسن طريقته في صناعته ، كتاب « من لا يحضره طبيب » ، كتاب « مسائل في النسل » ، كتاب « الذرية » ، كتاب « الرؤيا » ، وفي هذا الكتاب يُعلل ابن مَاسَة امتناعه عن معالجة الحوامل ، كتاب « في الفصد والحجامة » ، كتاب « رسالة في استعمال الحمام » ، كتاب « في طلوع الكواكب التي ذكرها بقراط » (٥) .

وكان **بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع** (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م) ، أحد أطباء السريان الذين بلغوا من الثراء الفاحش ما لم يبلغه غيره من الأطباء ، حتى يقال أنه كان يضاهي الخليفة المتوكل في اللباس ، والفرش (٦) . خدم بالطب خلفاء بني العباس من لدن

---

(١) لسلي ماركويز : حواريون وأطباء مسلمون ، ص ١٨ .

(٢) مخطوط بمكتبة بودليانا باكسفورد في لندن ، برقم (٥٧٨/١) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٦ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤١٤ .

(٤) انظر ترجمة ابن مَاسَة في : النديم : الفهرست ، ص ٤٦٦ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٤٦ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٥٧ .

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٥٧ .

(٦) العمري : مسالة الأبصار (مخطوط) ، (١٨٦/٩) . ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

الرشيد وحتى المهتدي ، وبلغ عندهم المنزلة الرفيعة . وكانوا يثقون به في معالجة أمهات أولادهم ، نظراً لمهارته الطبية [١] .

وكان بَخْتَيشوع أحد الراعين لحركة الترجمة في ذلك الوقت ، ونقل له حنين بن إسحاق العديد من مصنفات جالينوس من اليونانية إلى السريانية ، والعربية [٢] .

واشتهر بَخْتَيشوع كأحد أطباء العراق المتميزين في مهنته ، وله استطبابات ، وإرشادات طبية لبعض الأمراض مذكورة في الكتب التي أرَّخت للطب ، والأطباء . كما كان يؤمن بأهمية الأنواء في تناول العلاج [٣] .

وكان لبَخْتَيشوع مصنفات في الطب إلى جانب ممارسته له ، ومنها : كتاب « التذكرة » صنَّفه لابنه جبرائيل [٤] ، وكتاب « في الحجامة » على طريقة المسألة والجواب ، ويبدو أنه صنَّفه لابنه أيضاً [٥] .

واشتهر العالم الموسوعي ، **أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي** (ت ٢٦٠هـ/٨٧٤م) كأحد الأطباء المشهورين في وقته ، وكما كان له إسهام في العلوم التطبيقية ، والفلسفية ، والمنطق ، كان له أثر في ميدان الطب خلال فترة نفوذ الأتراك ، وقد مرَّ بنا شيء من ترجمته [٦] .

وكان الكندي أحد النَّقلة المتميزين ، حتى عدَّه أبو مَعْشر البَلْخي أحد حُذَّاق الترجمة الأربعة في الإسلام ، مع حنين بن إسحاق ، وثابت بن قرة ، وعمر بن فرخان الطبري [٧] .

---

(١) الرهاوي : أدب الطبيب ، ص ٢٢٢ . النديم : الفهرست ، ص ٤٦٦ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٠١ .

(٣) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٠٢ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٦ .

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٠٩ .

(٦) عن الكِنْدي انظر : ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ٧٣ ـ ٧٤ . صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٣٤ ـ ١٣٦ . البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام ، ص ٤١ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٨ . الشهرزوري : نزهة الأرواح ، (٢/٢٢ ـ ٢٤) . ابن نباتة : سرح العيون ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٤ .

(٧) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٨٦ .

ومن وصايا الكندي الطبية : (وليتق الله تعالى المتُطبِّب ، ولا يُخاطر ، فليس عن الأنفس عِوض)) . وقوله أيضاً : ((وكما يُحب أن يقال له ـ الطيب ـ أنه كان سبب عافية العليل وبرئه ، كذلك فليحذر أن يقال أنه كان سبب تلفه ، وموته)) [١] .

وترك الكندي في ميدان الطب مؤلفات عدة ، منها : رسالة « في علة الجُذام وأشفيته » [٢] ، ويبدو أن هذا الكتاب قد فُقد ، ولكن وَصْفته الطبية التي توصي بعدد من العلاجات للجذام قد بقيت. وكان الكندي أول من حاول وضع وصفه طبية لعلاج مرض الجُذام بالمتواليات الجيومترية (الهندسية) [٣] . ورسالة « في وجع المعدة والنقرس » ، رسالة « في الطب البقراطي » ، رسالة « في الغذاء والدواء المهلك » ، رسالة « في كيفية الدماغ » ، رسالة « في عضة الكلْب والكلِب » ، رسالة « في الأعراض الحادثة من البلغم وعلة موت الفجأة » ، رسالة « في أقسام الحميات » ، رسالة « في علاج الطحال الجاسي منذ الأعراض السوداوية» ، رسالة «في قدر منفعة صناعة الطب » ، وغيرها من المصنفات [٤] .

وبعد **أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي** (ت ٢٦٤هـ/٨٧٧م) أشهر المترجمين في تاريخ الترجمة غير مدافع ، وأحد أطباء عصره المرموقين ، درس الطب في مدرسة جُنْدَيْسابور على يوحنا بن ماسويه ، ودخل البصرة سنة (٢١١هـ/٨٢٦م) ، على الأرجح ، وخدم بالطب كلاً من : المأمون ، والمعتصم ، والمتوكل ، وعاش حتى أيام المعتمد ، وحَظِيَ بمكانة رفيعة عند المتوكل ، وجعله رئيس الأطباء ببغداد .

وإلى حُنين بن إسحاق يرجع الفضل الأوفر في توضيح معاني كتب أبقرط ، وجالينوس الطبية ، وقيامه بتلخيصها أحسن تلخيص [٥] .

---

(١) المصدر السابق ،ص ٢٨٨ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤١٨ .

(٣) لسلي ماركويز : حواريون وأطباء مسلمون ، ص ١٨ .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٤١٨ . البغدادي : هدية العارفين ، (٢/٥٤٠ ـ ٥٤١) .

(٥) انظر ترجمة حُنَيْن في: النديم :الفهرست ، ص ٤٦٣ـ٤٦٤ . ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٦٨ ـ ٧٠ . صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٠١ ـ ١٠٣ . البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام ، ص ١٦ ـ ١٨ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٧٤ـ١٧٧ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٥٧ ـ ٢٧٤ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢/٢١٧ ـ ٢١٨) . الشهرزوري : نزهة الأرواح ، (٢/١ ـ ٢) . العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٩/٢١٨ ـ ٢٢١) . ابن كثير : البداية والنهاية ، (١١/٣٢) . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ . تاريخ الزمان ، ص ٤٣ .

وكان حنين أحد الأطباء المهرة ، لا سيما في أمراض العين (الكِحالة) [١] ، وكان محل ثقة معاصريه من الأطباء ، وبعضهم نقلوا عنه في مصنفاتهم الطبية [٢] .

أما مؤلفات حنين الطبية فإنها تعتبر مرآة عاكسة لكتب أطباء اليونان ، التي استنفذ في ترجمتها أهم قسط من نشاطه العلمي ، وأتاحت له فرصة الاطلاع على هذه الكتب ، مما لم يتوفر لأحد غيره ، فاستعان بها بشكل جيد في إخراج مصنفاته الطبية .

وأغلب مصنفات حنين تبحث في غذاء المرضى الناقهين ، والعلاجات المختلفة ، والأعراض ، والنبض ، والحمى ، والبول ، وعلم الصحة ، والطب البيطري ، وأخبار متفرقة عن الفلاسفة ، والأطباء الأقدمين . ومن هذه المصنفات : رسالة « في حفظ الأسنان واللثة واستصلاحها » [٣] ، وتعتبر هذه الرسالة أول مُصنَّف مستقل يصل إلينا في طب الأسنان في تاريخ الطب العربي . ويتناول المؤلف في كتابه هذا الوسائل الواقية للأسنان ، واللثة ، وحمايتهما ، ويحصرها في الوسائل التالية :

١ ـ تَجنُّب فساد الطعام والشراب في المعدة [٤] . وله خمسة أسباب ينبغي تجنبها ، وهي [٥] :

أ ـ أن يكون الطعام والشراب في نفسه سريع الفساد ، كالبطيخ ، والمشمش ، والسمك الرديء ، واللبن .

---

(١) فرات خطاب : الكحالة عند العرب ، ص ٢٤ ـ ٢٦ .

(٢) ابن قرة : الذخيرة في علم الطب ، ص ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ .

(٣) مخطوط بدار الكتب الظاهرية بدمشق ، برقم (٤٥١٦) ، (١٤ ورقة) ، ٦٧٥هـ . ويوجد نقص في المخطوط ، فهناك بتر في المعلومات بعد نهاية الورقة (٤ أ) . إذ كُتِب في أسفل آخر سطر منها كلمة « والناس » . أي أن الورقة (٤ ب) ينبغي أن تبدأ بهذه الكلمة ، كما هي عادة الورَّاقين في ذلك الوقت ، غير أنها تبدأ بعبارة : ((ثَلج ، أو مِن تناول شيء مُبرَّد ..)) ، ولهذا لا نعلم عن حجم هذا الجزء المبتور ، وما مقداره بالنسبة لبقية المخطوط .

(٤) رسالة في حفظ الأسنان واللثة ، الورقة : (٢ أ) .

(٥) المصدر السابق ، الورقة : (٣ أ . ب) .

ب ـ أن يكون الطعام غير متوافق للتناول له ، كأن تكون المعدة حارة مفرطة الحرارة ، فيتناول صاحبها طعاماً حاراً ، والعكس كذلك ، أو يكون غير مُشتهٍ له ، ذلك لأن المعدة لن تقبله ، ويبقى طافياً في أعلاها فيفسد .

جـ ـ أن يكون الطعام ، أو الشراب بأكثر من مقدار احتمال قوة المعدة (التخمة) ، وإن كان في نفسه محموداً .

د ـ تناول الطعام في غير وقته ، مما يسبب اضطراب في المعدة بين الطعام الأول ، والثاني ، فلا يسلم الأول من الفساد فيُفسدِ الثاني .

هـ ـ مخالفة مراتب تناول الغذاء في تقديم ما ينبغي أن يُقدَّم منه ، وتأخير ما ينبغي أن يؤَخَّر . فمثلاً : الفواكه الحلوة ، والأغذية الرطبة اللزجة ينبغي أن تُقدَّم ، والفواكه القابضة ، والأغذية اليابسة ينبغي أن تجعل في آخر الطعام .

٢ ـ استعمال القيء لجلاء البَلْغم ، والخلط الغليظ من المعدة، وتنقيتها ، لكي لا تتعرض الأسنان لأذى تعفن المعدة [١] .

٣ ـ تجنُّب الإكثار من مضغ الأشياء المتينة العلِكَة ، كالناطف ، والتين والتمر القاسيين . وكذا الأشياء الصلبة التي تُكسَر ، كالخبز اليابس ، واللوز ، والفستق . لأن ذلك يؤدي إلى زعزعة الأسنان ، وربما قَلعتْها ، أو كَسرَتْها [٢] .

٤ ـ تَجنُّب الأطعمة ، والسوائل الباردة جداً ، أو الساخنة جداً ، أو الخلط بينها [٣] .

٥ ـ الابتعاد عن كل طعام يطفو على المعدة ، أو سريع العفونة ، كالألبان ، والجبن ، والبصل ، والسمك المالح ، وما أشبه ذلك [٤] .

---

(١) المصدر السابق ، الورقة : (٤ أ) .

(٢) المصدر السابق ، الورقة : (٢ أ) .

(٣) المصدر السابق ، الورقة : (٢ أ) .

(٤) المصدر السابق ، الورقة : (٢ أ ـ ٢ ب) .

٦ ـ ضرورة تنظيف الأسنان باستمرار ، وتعهدها باستخدام الخِلال مع العناية بعدم الضغط على اللثة أثناء تنظيف الأسنان [١] .

وبعد ذلك يأخذ حنين في الحديث عن الأمراض المختلفة التي تصيب الأسنان ، واللثة ، وأعراضها ، والعلاج المناسب من الأدوية ، والسَّنُونات [٢] لكل مرض ، ثم يأخذ بوصف السَّنُونات الخاصة بتقوية الأسنان واللثة ، وقطع الدم السائل منها ، وأخرى لتثبيت الأسنان التي تتحرك ، ووصفة تُبيِّض الأسنان ، وتزيل السواد والأوساخ ، وسَنوناً لترطيب اللثة ، ودواء لقروحها ، وسَنوناً لتطْيب نكهة الأسنان واللثة ، وآخر لإنبات لحم اللثة [٣] ، كما يُشدِّد على أهمية العسل ، وأنه أحمد ما يتعالج به للأسنان واللثة ، ويأخذ بشرح الكيفية لهذا الأمر [٤] . وكان حنين يُسجِّل آراءه العلمية المستقلة في ثنايا كتابه عند استعراضه لأمراض الأسنان واللثة ، والعلاجات الموصوفة لها [٥] .

ومن مؤلفات حُنَين أيضاً ، كتاب « القول في خلق الإنسان ومما خلق وما ركب فيه » [٦] . وموضوع هذا الكتاب يتضح من عنوانه ، أراد به حُنَين تجسيد الآراء اليونانية في هذا الأمر ، بفرض نظرية الأخلاط الأربعة ، والصفات الأربع كأشياء مكونة ، أو تقابل التراب والماء اللذان خلق منهما الإنسان ، كما يرى حُنَين . وهو لا يفتأ في كل موضع أن يبدأ بقوله : قال جالينوس الحكيم ، أو ذكر أبقراط الحكيم ، حتى ليَظهر للقارىء أن الكتاب عبارة عن نقولات لما ذكره حكماء اليونان في هذا الشأن [٧] ، وهو أمر قد فشى في كثير من مؤلفات أطباء الفترة .

---

(١) المصدر السابق ، الورقة : (٢ ب) .

(٢) السَّنونات : جمع سَنون . وهو المسحوق الذي تُدلك به الأسنان . حيث يعجن ويجفف في الظل ، ثم يسحق كالدقيق . وله استطبابات مختلفة لعلاج الأسنان واللثة . الأنطاكي : تذكرة أولى الألباب ، ص ٢٠٣ .

(٣) المصدر السابق ، الورقة : (٤ ب ـ ١٣ أ) .

(٤) المصدر السابق : (١٣ أ ـ ١٤ أ) .

(٥) المصدر السابق : (٦ ب) ، (٧ أ ـ ب) ، (٩ ب) ، (١١ ب ـ ١٢ أ) .

(٦) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، برقم (٤٥٤ طب) ، (٢٢ ورقة) ، ٧٣٥هـ .

(٧) المصدر السابق ، الورقة : (٢ ـ ٩ أ) .

ومن المصنَّفات الطبية الأخرى لحُنَين ، كتاب « كنز الفوائد في تنويع الموائد » [١] ، ويتناول إعداد الأغذية بصورة صحيحة لفائدة الجسم ، وكذلك الأودية . كتاب « ما يستحب وما يجتنب في شهور السنة » [٢] ، وهو يبحث عن الأوقات الملائمة لتناول أصناف الأطعمة ، والأشربة خلال شهور السنة بحسب مناخاتها . كتاب « الأغذية » [٣] ، كتاب « في أوجاع المعدة [٤] ، رسالة « في تدبير الصحة في المطعم والمشرب » [٥] ، مقالة « في تدبير الناقهين » [٦] ، كتاب « الحميات » ، كتاب « في النبض » ، كتاب « في تدبير المستسقين » ، مقالة « في تقاسيم علل العين » ، مقالة « في توليد الحصاة » ، مقال « في الصرع » ، مقالة « في ضيق التنفس » ، رسالة « في قرص العود » ، رسالة « في قرص الورد » . مقالة « في قرص البنفسج » ، كتاب « في البقول وخواصها » ، مقالة « في ماء البقول » [٧] ، كتاب « في الفواكه ومنافعها » [٨] ، كتاب « معرفة قوة اللبن » [٩] ، كتاب « العشر مقالات في العين » [١٠] ، كتاب « المسائل في الطب » [١١] ، كتاب « المسائل في العين » [١٢] ، وعدد مسائله (٢٠٧ مسائل) ، صنَّفه على طريقة المسألة والجواب لولديه : إسحاق ، وداود ، وغيرها من المصنَّفات .

---

(١) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، برقم (٦٩٦ طب) ، (٩٠ ورقة) .

(٢) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، برقم (٧٠٤ طب/مجاميع) ، الكتاب الثاني ، (٥٥ ورقة) .

(٣) مخطوط بالمكتبة العمومية في باكينبور بالهند ، برقم (٤/٥/مجاميع) ، الأوراق : [١ ـ ١٠٩] ، القرن ٨هـ .

(٤) مخطوط بمكتبة الأسكوريال في مدريد ، برقم (٨٥٢/مجاميع) ، الأوراق : [٤١ أ ـ ٦٨ أ] ، ٥٧٥هـ .

(٥) مخطوط بخزانة مشهد في إيران ، برقم (٥٠٩٥) ، (٥٣ ورقة) ، القرن ١٣هـ .

(٦) مخطوط بمكتبة آياصوفيا في إسطنبول ، برقم (٣٥٩٠/مجاميع) ، الأوراق: [١٣٧ ب ـ ١٦٣ ب]، القرن ٦هـ.

(٧) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٤ . البغدادي : هدية العارفين ، (٣٣٩/١ ـ ٣٤٠) .

(٨) مخطوط بدار الكتب المصرية في القاهرة ، برقم (٥٥٠ طب/مجاميع) ، الأوراق : [١٥٢ ب ـ ١٥٩ أ] ، ٨٨٧ هـ .

(٩) مخطوط بدار الكتب في حيدر آباد بالهند ، الأصافية ، برقم (٣٦٠ طب) .

(١٠) مطبوع بتحقيق : ماكس مايرهوف ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٢٨م ، وأعادت طبعة مصوراً عن هذه النسخة ، دار صادر ، بيروت .

(١١) مطبوع بتحقيق : محمد أبو ريان ، وآخرون ، دار الجامعات المصرية ، الأسكندرية ، ١٩٧٨م .

(١٢) مطبوع بتحقيق : بول سباط ، وماكس مايرهوف ، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٣٨م .

ومن تلاميذ حنين في الطب ، **عيسى بن علي الكحال** (كان حيا سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م) ، وكان أحد الأطباء الفضلاء ، ممن اشتغل بالحكمة كأستاذه ، وبرز في صناعته ، ونال إعجاب الخلفاء ، فكان يخدم بالطب الخليفة المعتمد ، وذلك قبل توليه الخلافة ، ولما تقلّدها أحسن إلى عيسى ، ورفع شأنه ومكانته ، وخلع عليه مرات عديدة [١] .

وترك ابن الكَحَّال في ميدان الطب مصنفات ، هي : كتاب « تذكرة الكحالين » ، وعليه كان اعتماد أطباء العين حتى ظهور كتاب علي بن عيسى الكَحَّال (ت نحو ٤٠٠هـ/٩٠١م) « تذكرة الكحالين » [٢] ، كتاب « المنافع التي تستفاد من أعضاء الحيوان » ، كتاب « السموم » [٣] .

وظهر في هذه الفترة كأحد المشهورين في الطب ، **أبو الحسن ثابت بن قرة الحراني** (ت ٢٨٨هـ/٩٠١م) ، أحد علماء الهندسة ، والرياضيات ، المبرِّزين في زمانه ، وفوق ذلك كانت جزءا من اهتماماته متجهةً إلى الترجمة ، وعلم الطب ، فكان أحد الأطباء المَهَرة [٤] . غير أن الرياضيات ، والهندسة كانت غالبة عليه .

وقد دوَّن ثابت معارفه الطبية في مؤلفات وضعها في مختلف فروع الطب ، ومنها : كتاب « الذخيرة في علم الطب » [٥] ، وهو كتاب عام في علم الطب ، صنَّفه لولده سِنان ،

---

(١) انظر ترجمة عيسى الكحّال في : القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٤٧ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٧٧ .

(٢) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٤٧ . كتاب علي بن عيسى مطبوع : دائرة المعارف العثمانية ، حيد آباد ـ الدكن ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٧٧ .

(٤) انظر ترجمة ابن قُرة في : النديم : الفهرست ، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦ . ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٧٥ . البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام ، ص ٢٠ ـ ٢١ . ابن الجوزي : المنتظم ، (٢٩/٦) . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١١٤ ـ ١٢٢ . ابن أبي أصيبعة : ص ٢٩٥ ـ ٣٠٠ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣١٣/١ ـ ٣١٤) . الشهرزوري : نزهة الأرواح ، (٤/٢ ـ ٦) . العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٢٢٢/٩ ـ ٢٢٤) . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٣٤ . ولقد ذكر له ابن أبي أصيبعة نماذج من ممارساته الطبية . عيون الأنباء ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٥) مطبوع بتحقيق : جورج صبحي ، الجامعة المصرية ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٢٨م .

وعدَّه البيهقي أحد كُتب الطب النادرة [١] . رسالة « في الحصى المتولد في الكلى والمثانة » [٢] ، كتاب « الروضة في الطب » [٣] ، في النبض ، وأسباب الأمراض ، وأعراضها ، وعلاجها . رسالة « في البياض الذي يظهر في البدن » ، رسالة « في الجدري والحصبة » ، كتاب « أصناف الأمراض » ، كتاب « وجع المفاصل والنقرس » ، كتاب « في مساءلة الطبيب للمريض » ، كتاب « في تدبير الأمراض الحارة » ، كتاب « مقالة في الصفرة العارضة للبدن ، وعدد أصنافها ، وأسبابها ، وعلاجها » ، مقالة « في صفة كون الجنين » ، كتاب « في تدبير الصحة » ، كتاب « البصر والبصيرة في علم العين ، وعللها ، ومداواتها » ، كتاب « في تشريح بعض الطيور وهو مالك الحزين » . وغيرها من المصنفات [٤] .

وكان ، **إسحاق بن عمران البغدادي** (ت ٢٩٤هـ/٩٠٧م) ، أحد أطباء بغداد المتميزين أيام الخليفة المعتمد ، الذي استقر به المقام في القيروان ، بعد أن دخلها في دولة إبراهيم الثاني بن الأغلب سنة (٢٦٤هـ/٨٧٧م) ، تلبية للدعوة الموجَّهة إليه من قِبله للمُقام بالقيراون . وعند وروده عليه ، بعث إليه راحلة أَقلَّته ، وألف دينار لنفقته ، وكتاب أمان بخط يده ، أنه متى أراد الرجوع إلى وطنه انصرف . فاستقر إسحاق بالقيروان . وبه ظهر الطب بالمغرب ، وعُرفت الفلسفة . وخدم بالطب بعد إبراهيم الثاني ، ابنه عبد الله الثاني ، ثم زيادة الله الثالث آخر أمراء الأغالبة . وكان إسحاق طبيباً ماهراً ، حاذقاً ، مميزاً بتأليف الأدوية المُركَّبة ، بصيراً بالتفرقة بين العلِل ، أشبه الأوائل في علمه ، وجودة قريحته .

وكان زيادة الله مصاباً بمرض نفسي . الأمر الذي أوجد الوحشة بينهما عندما أراد إسحاق العودة إلى بغداد فرفض زيادة الله ، وانتهى الأمر بأن أمر زيادة بصلب إسحاق بعد أن فُصِد في ذراعية ، وسال دمه حتى مات [٥] .

---

(١) تاريخ حكماء الإسلام ، ص ٢١ .

(٢) مخطوط بمكتبة برلين (ألمانيا الإتحادية) ، برقم (٦٣٥٩) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (١٧٣/٤) .

(٣) مخطوط بمكتبة البودليانا باكسفورد في لندن ، برقم (٥٧٤/١) . المرجع السابق ، (١٧٣/٤) .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٤٣٦ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٩٨ ـ ٣٠٠ . البغدادي : هدية العارفين، (٢٤٦/١ ـ ٢٤٨) .

(٥) انظر ترجمة ابن عمران في : ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٨٤ ـ ٨٧ . صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٧٨ ـ ٤٧٩ . العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٣٠٧/٩ ـ ٣٠٨) .

ولإسحاق في الطب مؤلفات عديدة ، منها : كتاب « المالنخوليا » [١] ، قال عنه ابن جلجل : ((لم يسبق إلى مثله)) [٢] ، مقالة « في صفة الإيارج » ، مقالة « في صفة إطريفل » [٣] ، كتاب « نزهة النفس » ، كتاب « في الفصد » ، كتاب « في النبض » ، كتاب « الأودية المفردة » ، كتاب « العنصر والتمام » ، في الطب ، مقالة « في الاستسقاء » ، مقالة « في علل القولنج ، وأنواعه ، وشرح أدويته » ، كتاب « البول » [٤] .

واشتهر من أطباء العراق في تلك الفترة ، **قسطا بن لوقا البعلبكي** (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) ، الذي برع في علوم كثيرة سوى الطب ، منها : الفلسفة ، والهندسة ، والأعداد ، والموسيقى ، وكان فصيحاً باللغة اليونانية ، جيد العبارة العربية ، فكان أحد أعلام الترجمة إبان إزدهارها . ويرى النديم من حيث ترتيب الترجمات بأن قُسْطاً يجب ((أن يقدم على حنين لفَضله ، ونُبله ، وتقدُّمه في صناعة الطب)) [٥] .

واتصل بالخليفة المستعين ، وترجم له . وكذلك بأعيان الدولة ، والمجتمع ، كالوزير إسماعيل بن بُلْبُلْ ، والوزير إبراهيم بن المُدْبِر ، وعلي بن يحيى المُنجِّم ، نديم الخلفاء ، وغيرهم . وانتقل في شيخوخته إلى أرمينية ، واتصل بأبي الغَطْريف البطريق ، مولى الخليفة المقتدر ، وصنَّف له كتباً عدة [٦] .

---

(١) مخطوط بمكتبة ميونخ بألمانيا الإتحادية ، برقم (٨٠٥) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٢٦٨/٤) .

(٢) طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٨٥ .

(٣) قام المستشرق « أمادور غارسيا » بنشر هاتين المقالتين في بحث له بعنوان : « ثلاث وصفات في المخطوطة الشرقية رقم (٢١٥) بالمكتبة المديثية اللاورنزية بفلورنزة (إيطاليا) » مجلة تاريخ العلوم العربية ، مج٤ ، ع٢ ، ١٩٨٠م ، ص ٢٦٥ ــ ٢٨٦ (القسم الأجنبي) .

(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٧٩ . البغدادي : هدية العارفين ، (١٩٨/١) .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٤ .

(٦) انظر ترجمة قُسْطا في : النديم : الفهرست ، ص ٤٦٤ ــ ٤٦٥ . ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٧٦ . صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ٨٣ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٦٢ ــ ٢٦٣ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٢٩ ــ ٣٣١ . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٣١ .

وخلَّف قُسْطا العديد من الكتب التي قام بتأليفها في صناعة الطب ، منها : كتاب « في تدبير الأبدان في السفر للسلامة من المرض والخطر »[١] ، كتاب « في البلغم »[٢] ، كتاب « في علل الشعر »[٣] ، كتاب « في حفظ الصحة وإزالة المرض »[٤] ، كتاب « في التحرز من الزكام والنزلات التي ترد في الشتاء »[٥] ، كتاب « في الضرس »[٦] ، كتاب « في صفة الخدر ، وأنواعه ، وأسبابه ، وعلاجه »[٧] ، كتاب « في أوجاع النقرس » ، كتاب « جامع في الدخول إلى علم الطب » ، كتاب « في الإسطقسات » ، كتاب « في الأغذية على طريق القوانين الكلية » ، كتاب « في النبض ومعرفة الحميات وضرب البَحْرانات » ، كتاب « في علة الموت فجأة » ، كتاب « في أيام البُحْران في الأمراض الحادة » ، كتاب « في الأخلاط الأربعة وما تشترك فيه » ، كتاب « في الكبد وخلقتها وما يعرض فيها من الأمراض » ، كتاب « في دفع ضرر السموم » ، كتاب « في حركة الشريان » ، كتاب « في الدم » ، كتاب « في المرة الصفراء » ، كتاب « في المرة السوداء » ، كتاب « الفصد » ، وهو واحد وتسعون باباً . وغيرها من الكتب[٨] .

ويبقى ، **أبو بكر محمد بن زكريا الرازي** (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م) ، طبيب المسلمين غير مدافع ، وأشهر طبيب ظهر في العراق في تلك الفترة على الإطلاق ، وخبره أشهر من أن يستقصى . وكانت شخصيته الطبية ، ومؤلفاته الضخمة في ميدان الطب مدار

---

(١) مخطوط بالمتحف البريطاني ، برقم (٤٢٤) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٩٨/٤) .

(٢) مخطوط بمكتبة ميونخ بألمانيا الإتحادية ، برقم (٨٠٥) . المرجع السابق ، (٩٨/٤) .

(٣) مخطوط بالمتحف البريطاني ، برقم (٤٣٤) . المرجع السابق : (٩٨/٤) .

(٤) مخطوط بالمكتبة العمومية في باكينبور بالهند ، برقم (٧/٤) . المرجع السابق ، (١٠٠/٤) .

(٥) مخطوط بمكتبة آيا صوفيا في إسطنبول ، برقم (٣٧٢٤/مجاميع) ، الأوراق : [١٠٥ ب ـ ١١١ ب] . المرجع السابق ، (١٠٠/٤) .

(٦) مخطوط بمكتبة آيا صوفيا في إسطنبول ، برقم (٣٧٢٤/مجاميع) ، الأوراق : [١١١ ب ـ ١٢٣ ب] . المرجع السابق ، (١٠٠/٤) .

(٧) مخطوط بمكتبة آيا صوفيا في إسطنبول ، برقم (٣٧٢٤/مجاميع) ، الأوراق : [٢٢٢ ب ـ ٢٣٦ ب] . المرجع السابق ، (١٠٠/٤) .

(٨) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٣٠ .

العديد من الدراسات العلمية في مختلف فروع الطب ، نظراً لإسهام الرازي الواسع في كل فروع الطب بلا استثناء .

ولد الرازي ، ونشأ بالرَّيّ ، وتلقى بها تعليمه على يد علمائها ، واتجه إلى تعلُّم صناعة الطب ، ثم غادر الرَّيّ إلى بغداد ، وهناك تفتقت مهارته الطبية ، وزار بيمارستان بدر ، غلام المعتضد ، الذي لم يكن يوجد سواه عند قدوم الرازي ، وشاهد في هذا البيمارستان نشاط العلوم الطبية ، فأتاح له تقدم الطب في بغداد ، بكثرة الأطباء ، ووجود البيمارستان ، مناخ علمي مناسب لكي يمضي قُدماً نحو النجاح في علم الطب .

واتسم الرازي بحسن الأخلاق ، والرأفة بالفقراء ، وكان يجري عليهم الجرايات الواسعة ، ويعالجهم . وتولى الرازي تدبير بيمارستان الرَّيّ ، ثم بيمارستان بدر ، غلام المعتضد ، في أواخر أيام الخليفة المعتضد مدة من الزمن .

لقد كان الرازي عالماً بالعلوم الطبيعية ، والفلسفية ، وتوغل في الإلهيات ، وما فهم غرضها الأقصى . فاضطرب لذلك رأية ، فكانت له آراء ، وسمها البعض بأنها سخيفة . ومع ذلك كان الرازي طبيباً ناجحاً ، وعالماً ماهراً بالطب ، لم يكن له دأب ، ولا عناية في جل أوقاته ، إلا في الاجتهاد ، والدرس ، والتأليف ، والتطلع فيما قد دونه أطباء اليونان في كتبهم ، حتى أنه قال في بعض كتبه : ((إنه كان لي صديق نبيل يُسامرني على قراءة كتب بقرط ، وجالينوس)) .

وإذا كان الرازي يؤمن بالتجربة ، والقياس في ممارسته الطبية ، وهو أول من جسَّد هذا الأمر في ميدان الطب ، فإنه في الوقت نفسه يرى بأنه لا مناص لمن يريد أن يبرز في الطب أن يجمع بين التجربة ، والقراءة ، وتجديد المعلومات ، وكثرة الممارسة الطبية [1] .

---

(١) الرازي : أخلاق الطبيب ، ص ١٤٠ ــ ١٤٢ . المرشد أو الفصول ، ص ٣٤ ــ ٣٥ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ١١٩ .

ويرى الرازي أن توفر هذه الأمور فيمن أراد مزاولة هذه الصناعة قد تجعله يتفوق حتى على أبقراط ، فالبروز في الطب لديه ليس حُكراً على أسماء معينة ، وإنما هو أمر مشاع لكل من كانت له دُربة بصناعة الطب (١) .

واحترام الرازي لأستاذته أطباء اليونان لم تكن لتمنعه من انتقاد آرائهم الطبية إذا خالفت النتيجة التي توصل إليها بنفسه (٢) بل وقد يتجاوز الأمر إلى تصنيف المؤلفات في هذا الأمر (٣) .

ولأبي بكر الرازي استطبابات مشهورة في علاج أمراض مختلفة ، ضمَّنها مؤلفاته الضخمة ، وما أوردته كتب تراجم الأطباء (٤) .

وللرَّازي آراء طبية صائبة تتعلق بالطبيب ، والمريض ، والعلاج (٥) ، تُعد بمثابة قواعد مهمة في ممارسة مهنة الطب ، ضمَّنها في أكثر مصنفاته . بل وصنف في بعضها كُتباً مستقلة ، سوف نلحظها عند استعراض مصنفاته الطبية . واستطاع الرازي بفضل منهجه في علم الطب ، وممارسته ، أن يتوصل إلى نتائج ، اعتبرت إنجازات طبية لم يسبقه إليها أحد ، فالرازي يعد أول طبيب يُفرِّق بين الحصبة والجدري على أنها مرضين مختلفين ،

---

(١) انظر ترجمة الرازي في : النديم : الفهرست ، ص ٤٦٩ . ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٧٧ ـ ٨٠ . البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام ص ٢١ ـ ٢٢ . صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٣٧ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٧ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤١٤ ـ ٤٢١ . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٥/١٥٧ ـ ١٦١) . الشهرزوري : نزهة الأرواح ، (٢/٧ ـ ٨) . العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٩/٢٦ ـ ٢٨) . ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٤٥ . تاريخ مختصر الدول ، ص ١٣٩ .

(٢) الرازي : المرشد أو الفصول ، ص ١٧ ، ٦٦ . القولنج ، ص ٣٦ . ما الفارق ، ص ٢١٥ .

(٣) ومن ذلك قيامه بتصنيف كتاباً بعنوان : « الشكوك والمناقضات التي في كتب جالينوس » ، وهو مخطوط بمكتبة ملك بطهران ، برقم (٤٥٧٣/مجاميع) ، الكتاب الأول . وقام الباحث الإيراني : مهدي محقق ، بدراسة لهذا الكتاب في بحث له بعنوان : « كتاب الشكوك على جالينوس لمحمد بن زكريا الرازي » ، ضمن أبحاث الندوة العالمية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م . ص ١٧٥ ـ ١٨٥ .

(٤) أورد منها ابن أبي أصيبعة في كتابه « عيون الأنباء » : ص ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ . وكُتب الرازي التي سوف يمر ذكرها لاحقاً ، مليئة بمثل ذلك ، خاصة وأن الرازي كان منهجه التجربة العملية في العلاج .

(٥) الرازي : المرشد أو الفصول ، ص ١١٨ ـ ١٢٥ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ .

بينمـا كان سلفـه يظن أنهمـا مرض واحد ، كمـا أن هناك إجمـاع بين البـاحثين في تاريخ الطب ، على أن الرازي مبتكـر خيــوط الجراحة المعروفة بـ (القصاب) وتعرف بالإنجليزية (Tugtuc) وأول من قدم شرحاً مفصلاً لأمراض الأطفال ، والنساء ، والولادة ، وأمراض العين ، وجراحتـها ، والأمـراض التناسلية ، واستخــدام طرقاً مـختلفـة في عـلاج أنواع الأمراض ، فكان يُركِّز على الدلالات ، والفروق بـين الأمراض في التشخيص ، كما اشتهر بالطب العلمي (الإكلينيكي) ، ومتابعـة سيـر المرض ، ومـا ابتدعـه من تدوين المشـاهدات والتعليق عليها ، وهو عمل لم يسبقه إليه أحد من قبل [١] . ولقد مرَّ معنا إسهامات الرازي بالتـأليف في التعليم الطبي ، وأخلاق ممارسـة مـهنة الطب ، وآدابها ، والوسـائل المناسبة لامتـحـان من أراد أن ينخـرط فـي هذه المهنة . غيـر أن لأبي بكر العشـرات من المؤلفات الخـاصـة بفـروع الطب [٢] ، تربوا على (الخـمـسين كـتـابـاً) والتي تتناول مـخـتلف الإختصاصات الطبية كالجراحة ، والتشريح ، والطب الباطني ، وأمراض النسـاء والولادة ، والأطفال ، وأمراض العين ، والأمراض الجلدية ، وغيرها من الإختصاصات التي تتضح من عناوين مـؤلفاته ، ومنها : كتـاب « التجارب في الطب » [٣] . وهو كتـاب ، كمـا يتـضح في مقدمتـه ، جمعه أحد تلاميذ الرازي ، وكان الرازي يمليه على بعض تلاميذه . يتناول تجارب الرازي في علاج الحالات المرضية التي كانت تأتيه أثناء عمله بالبيمارستان ، ويصف لها العلاج المناسب ، ويشـمل الأمراض ، من الرأس إلى القدم ، جمعها في (٣٠ مرضاً) ، في مـختلف فـروع الطب . ومن مـصنفـات الرازي أيضـاً ، رسـالة « في الفَصْد » [٤] ، ويبـحث الرازي فيها عن أحد فروع علم الجراحة ، وهو الفَصْد . ويتحدث فـي البدايـة عن الكيفية ، أو الطريقة السليمة في تهيئة العروق المراد فَصْدها ، وهي : القِيفال ، والبَاسليق ، والأكْحل ، والصَّافِن . فـهـو يرى بـأن لكل عـرق من هذه العـروق وضـع تشـريحي يخـتلف عن غيـره من

---

(١) إن طبيعة البحث لا تسمح لنا بتقصي إنجازات الرازي الطبية ، ويمكن الرجوع إلى المؤلفات التي أرَّخت لعلم الطب ، وترجمت للأطباء وذكرت إنجازاتهم .

(٢) وضـع أبو الريحان البيروني رسالة بعنوان : « فهرست كتب الرازي » حققها : بول كراوس ، مطبعة القلم ، باريس ، ١٩٣٦م .

(٣) مخطوط بمكتبة أحمد الثالث في إسطنبول ، برقم (١٩٧٥) ، (١٣٣ ورقة) ، ٦٥٦هـ .

(٤) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة ، برقم (٧٧٠/مجاميع) ، الأوراق : [١٦٩ ـ ١٧١] .

العروق ، وبالتالي له طريقة معينة في البحث عنه من فوق الجلد ، ووسائل لابد من اتخاذها قبل البدء في عملية الفَصْد [١] . ومواصفات خاصة للمِبْضَع المستخدم في الفَصْد تبعاً لطبيعة العرق ، من حيث كونه صلباً ، أو ليِّناً . والجلد ، من حيث قساوته لذوي البشرة السوداء ،والرخاوة بالنسبة لأصحاب البشرة البيضاء [٢] .

ويضع الرازي الطريقة المثلى لَمسك المبضع ، بأن يكون بالوسطى والإبهام من غير أن يرسله الفاصد رسلاً ، وإنما يشدُّ عليه حتى يحافظ على استواء عملية الفصد ، أو فتح الجلد [٣] .

وبعد ذلك يُخصِّص الرازي الجزء الأخير من رسالته للحديث عن موضوع : منافع الفَصْد [٤] ، حيث يذكر فيه المنافع التي يجنيها جسم الإنسان من وراء فَصْد كل عرق من العروق التي ذُكرت سابقاً ، والدواعي التي من أجلها يُفصد العرق . ومن ذلك قوله : ((الصَّافِن ، يفصد لحرقة البول ... الأكْحل ، يفصد لأوجاع الصدر ، وضيق التنفس ... والبَاسليق من اليد اليمنى ، يفصد للعلل في الكبد ، والكلى ، ومن اليسرى لأوجاع الطحال)) [٥] . وقوله عن العروق التي في الصُّدْغَين : ((الصدغان يفصدان للشقيقة ، والصداع الصعب ، والرمد الدايم)) [٦] .

ومن مصنفات الرازي الطبية الأخرى : مقالة « في ترتيب أكل الفاكهة » [٧] ، وهو كتاب يدخل في باب الطب الوقائي ، يهدف الرازي من خلاله إلى بيان الطريقة المثلى في أكل الفاكهة تبعاً لتأثير أنواعها على فسيولوجية الجسم ، وفوائدها لأعضائه المختلفة ، وما هي التأثيرات الجانبية التي يمكن أن يُحدثها الخلل في تقديم الفاكهة في الأكل ، أو تأخيرها ،

---

(١) المصدر السابق ، الورقة : (١أ) .

(٢) المصدر السابق ، الورقة : (١أ) .

(٣) المصدر السابق ، الورقة : (١ب) .

(٤) المصدر السابق ، الورقة : (٢أ) .

(٥) المصدر السابق ، الورقة : (٢أ) .

(٦) المصدر السابق ، الورقة : (٣أ) .

(٧) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة ، برقم (٣٨٣/مجاميع) ، الأوراق : [٦٤ ــ ٦٨] ، القرن ٩هـ .

لاختلاف طبيعة تركيب أنواع الفاكهة . كتاب « في أن الحمية المفرطة والتقليل من الأغذية والاستكثار من الأدوية ضارة بالأصحاء » [١] ، كتاب « الخواص » [٢] ، كتاب « الجامع » [٣] ، ألفَّه الرازي خلال خمس عشرة سنة ، وهو يحتوي على (إثنى عشر قسما) ذكرها ابن أبي أصيبعة [٤] . كتاب « الحاوي » [٥] ، وهو أجلّ كتب الرازي ، وأعظمها في صناعة الطب ، ذلك ((أنه جمع فيه كل ما وجده متفرقاً في ذكر الأمراض ، مداولتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين ، ومن أتى بعدهم إلى زمانه ، ونسب كل شيء نقله فيه إلى قائله)) [٦] ، ووثيقة هامة لإضافات ، والمعلومات ، والمآثر الطبية التى أضافها الرازي ، وكونه مصدراً هاماً لكتب فُقدت أصولها ، سواء كانت عربية ، أو غير عربية ، على الرغم أنه ليس كتاباً بالمعنى المألوف ، وإنما سجلاً لمشاهدات الرازي . فلا غرابة في ضخامته ، واختلاف أسلوبه [٧] . كتاب « المرشد أو الفصول » [٨] وضعه لطلاب الطب ، ليكون دليلاً لهم في مهنة الطب . كتاب « القُولَنج » [٩] . ويظهر في هذا الكتاب دقة الملاحظة السريرية ، والميل إلى التجربة في إقرار الحقائق ، أو النتائج الطبية ، وهو ما اشتهر به الرازي عن غيره . كتاب « ما الفارق أوالفروق » [١٠] ، وهو مؤَلَّف على طريقة المسألة والجواب ،

---

(١) مخطوط بمكتبة أيا صوفيا في إسطنبول ، برقم (٣٧٢٥/مجاميع) ، الأوراق : [٥١أ ـ ٦٧أ] . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٤/٢٨٤) .

(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية في القاهرة ، برقم (١٤١ طب) .

(٣) عثر ألبير زكي إسكندر على جزئين من أجزاء هذا الكتاب بمكتبة بودليانا باكسفورد في لندن . انظر مقدمة المحقق لكتاب « المرشد أو الفصول » للرازي ، ص ٧ .

(٤) عيون الأنباء ، ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤ .

(٥) مطبوع بتحقيق : عبد الوهاب شرف الدين ، ومحمد خان ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ـ الدكن ، ١٩٧٤ ـ ١٩٧٩م .

(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٢١ .

(٧) محمود الحاج : الطب عند العرب والمسلمين ، ص ٧٤ .

(٨) مطبوع بتحقيق : ألبير زكي إسكندر ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٩٩٥م .

(٩) مطبوع بتحقيق : صبحي محمود حاجي ، معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، حلب ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

(١٠) مطبوع بتحقيق : سلمان قطاية ، معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، حلب ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

وفي هذا الكتاب أيضاً تتضح مميزات الرازي التي بزَّ بها عن غيره ، وهي ممارسته العملية ، واعتماده على المتابعة السريرية للمريض ، والتي أكسبته قدراً كبيراً من الواقعية في آرائه الطبية . ويناقش الرازي من خلال هذا الكتاب ، قضية صعبة يتعرَّض لها طلاب الطب ، والأطباء أنفسهم ، وهي التفريق بين الأمراض ، وهو أمر خطير . ولذا ، فإن كتابه هذا هو أول كتاب في الطب خُصِّص للتشخيص التفريقي [١] .

ومن مصنفات الرازي الأخرى : كتاب : « المدخل الصغير إلى علم الطب » [٢] ، كتاب « المنصوري » [٣] ، كتاب « الطب الروحاني » [٤] ، رسالة « في محنة الطبيب » [٥] ، كتاب « من لا يحضره طبيب أو طب الفقراء » [٦] ، كتاب « أخلاق الطبيب » [٧] ، ورسالة « تجارب البيمارستان » [٨] ، كتاب « مقالة في الحصى المتولدة في الكلى والمثانة » [٩] ، كتاب « بُرءُ ساعة » [١٠] ، كتاب « الجدري والحصبة » [١١] ، كتاب « الفاخر في الطب » [١٢] ، كتاب « المدخل إلى صناعة الطب » [١٣] ، كتاب « منافع الأغذية ودفع

---

(١) المصدر السابق ، ص «د» . (مقدمة المحقق) .

(٢) مطبوع بتحقيق : عبد اللطيف العبد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

(٣) مطبوع بتحقيق : حازم الصديقي ، معهد المخطوطات العربية ، الكويت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

(٤) مطبوع بتحقيق : عبد اللطيف العبد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

(٥) نشرت بتحقيق : ألبير زكي إسكندر ، مجلة المشرق ، مج٥٤ ، ١٩٦٠م ، ص ٤٧١ ـ ٥٢٢ .

(٦) نشرت بتحقيق : ميرزا محمد علي ، المطبوع الجعفري ، كلكتا (الهند) ، د . ت . والمخطوط الأصلي للكتاب محفوظ بمكتبة : معهد ويلكم في لندن ، برقم (٢٨) ، (١٢٩ ورقة) . وتوجد صورة منه في مكتبة معهد التراث العلمي العربي في حلب ، برقم (٢١٠٣/مجاميع) . محمد عزت : فهرس المخطوطات المصورة في مكتبة معهد التراث العلمي العربي ، ص ٩٩ .

(٧) مطبوع بتحقيق : عبد اللطيف العبد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

(٨) نشرت بتحقيق : ألبير زكي إسكندر ، مجلة المشرق ، مج٥٤ ، ١٩٦٠م ، ص ١٧١ ـ ١٧٥ .

(٩) مطبوع بتحقيق : دي كوننج ، المكتبة السلطانية ، باريس ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٩٠م .

(١٠) مطبوع بتحقيق : عزت العطار ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٩٣٦م .

(١١) مطبوع بتحقيق: فان ديك ، ترجمة: حياة الرازي ، مطبعة المدرسة الكلية السورية الإنجيلية، بيروت ، د . ت .

(١٢) مطبوع بتحقيق : دي كوننج ، المكتبة السلطانية ، باريس ، مطبعة بريل : ليدن ، ١٨٩٠م . ونشره معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية (جامعة فرانكفورت) ، دون تحقيق ، مطبعة شتوتغارت ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

(١٣) مطبوع بتحقيق : مرياكنيشون فاتكرنبيستو ، المعهد الأسباني العربي للثقافة ، جامعة سلمنقة ، أسبانيا ، ١٩٧٩م .

مضارها » [١] ، كتاب « تقاسيم العلل أو التقسيم والتشجير » [٢] ، كتاب « في علل المفاصل والنقرس وعرق النسا » ، مقالة « في العلة التي صار لها الخريف ممرضاً والربيع بالضد » ، كتاب « الرد على الجاحظ في نقض صناعة الطب » ، كتاب « الطب الملوكي في العلل وعلاج الأمراض كلها بالأغذية » ، كتاب « في الفالج » ، كتاب « في هيئة العين » ، كتاب « في هيئة الكبد » ، كتاب « في هيئة القلب » ، وغيرها من المصنفات الكثيرة جداً التي ذكرتها المصادر [٣] .

ويمكن القول : لقد ضمَّن الرازي في كتبه الثلاث : الحاوي ، والجامع ، والمنصوري ، جميع ما وصل إليه الأوائل في الطب ، والصيدلة . وتعتبر كتب الرازي عموماً من أهم المصادر العلمية في الطب ، نظراً لأمانته في النقل ، وذِكره للمصادر التي اعتمد عليها ، وخاصة إذا علمنا بأن هذه المصادر قد اندثر أكثرها [٤] .

والمجال لا يتسع لذكر جميع أطباء العراق المشهورين في ذلك الوقت ، فالعدد كبير ، والمقام غير مناسب لاستعراض سيَرهم ، ونتاجهم العلمي ، ويمكن أن نذكرهم في إلماحة سريعة ، فمنهم : **إسرائيل بن زكريا الطيفوري** (كان حياً سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م) ، متطبب الخليفة المتوكل ، ووزيره الفتح بن خاقان [٥] . وأيضاً ، **إبراهيم بن أيوب الأبرش الرهاوي** (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) ، طبيب الخليفة المعتز ، ووالدته قبيحة [٦] . كما اشتهر من أطباء ذلك الوقت ، **يحيى بن أبي حكيم الحلاجي** ، أحد أطباء المعتضد .

---

(١) نشرته بدون تحقيق ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

(٢) مطبوع بتحقيق : صبحي حمامي ، معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، حلب ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٤٧٠ ــ ٤٧٣ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٢١ ــ ٤٢٧ . البغدادي : هدية العارفين (٢/٢٧ ــ ٢٩) .

(٤) محمد البابا : القرباذينات أودساتير الأدوية العربية ، أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ، ص ٥٨٦ .

(٥) الرهاوي : أدب الطبيب ، ص ٢٢١ ــ ٢٢٢ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٢٥ .

(٦) العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٩/٢٠٧) . ولإبراهيم (٤٥ كتاباً) في الطب بالسريانية . انظر : يوسف حبي : أيوب الأبرش الرهاوي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج ٣٤ ، ج٢ ، ص ١٢٤ ــ ١٤٢ .

وله كتاب « تدبير الأبدان النحيفة التي قد غلبت عليها الصفراء » [١] . وهناك **يوحنا بن بختيشوع** (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) ، خدم بالطب الأمير الموفق ، ثم الخليفة الراضي . وصنّف كتاباً بعنوان : « فيما يحتاج إليه الطبيب من علم النجوم » [٢] . وهذا **يوسف الساهر المعروف بالقس** ، أحد الأطباء المشهورين أيام الخليفة المكتفي ، وله « كناش في الطب » [٣] . ومن أطباء الخلفاء في تلك الفترة ، سعيد بن غَالبٍ (ت ٣٠٧هـ/٩١٩م) ، وكان في خدمة المعتضد بالطب ، وكانت منزلته عنده كمنزلة أبيه من الرفعة [٤] . ونذكر من أطباء الخلفاء أيضاً ، **عيسى بن يوسف المعروف بابن العطارة** . وكان متطبب الخليفة القاهر . وبلغ من المكانه عنده ، أنه كان سفيره بينه وبين وزرائه [٥] . ومن أطباء بغداد المبرِّزين ، **داود بن ديلم البغدادي** (ت ٣٢٩هـ/٩٤٠م) أحد المجيدين في صناعته . وخدم بالطب الخليفة المعتضد ، وخصّ به ، فكانت التوقيعات تخرج بخطة ، لمحلِّه منه ، ومكانته عنده ، ونال بصناعته رفاهية زائده ، وأظهر التجمل العظيم [٦] . وكان **بختيشوع بن يوحنا** (ت ٣٢٩هـ/٩٤٠م) ، أحد العالمين بصناعة القلب ، واختص بخدمة المقتدر ، ثم الراضي ، وكان له منهما الإنعام الوافر [٧] . ولا ننسى ذكر **أحمد بن وصيف الكحال** (كان حياً سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م) ، أحد أعلام وقته في علاج أمراض العين ، وعلى يديه تتلمذ أحمد ، وعمر أبناء يونس بن أحمد الجُذَامي الأندلسي ، عندما قدما بغداد سنة

---

(١) النديم : الفهرست . ص ٤٦٧ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٧٦ . العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٢٢٢/٩) .

(٣) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٣٩٢ . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٣٦ . يقول ابن العبري : ((وسمِّي بالساهر ، لأنه كان لا ينام في الليل إلا ربعه أو أزيدَ ، ثم يسهر في طلب العلم . وقيل إنما سمِّي بالساهر ، لأن سرطاناً كان في مقدَّم رأسه يمنعه النوم . وإذا تأمل متأمل كُنَّاشه ، رأى فيه أشياء تدل على أنه كان به هذا المرض)) . (المصدر نفسه) .

(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣١١ ـ ٣١٢ .

(٥) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٥٠ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٤٣٩ .

(٧) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٧٧ .

(٣٣٠هـ/٩٤٠م) ، وأقاما بها عشرة أعوام ، ودرسوا على يد ابن وَصِيف الكِحالة ، ثم عادا إلى بلدهما [١] .

أما **يعقوب الكشكري** (كان حياً سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م) ، فقد كان أحد الأطباء المهرة المتمرِّسين في عصره علماً ، وعملاً ، وتجربة ، وأوصلته تجاربه العلمية إلى نتائج علاجية كانت تفوق توقعاته . وكان ، كالرازي ، ينهج مهنة التطبيب العملي ، ولكن المصادر ، للأسف ، لم تمدنا بمعلومات ولو قليلة عن شيء من سيرته [٢] . ولولا العثور على كتابه « الكُنَّاش في الطب » [٣] ، لَمَا كان ليعقوب خبر عن جهوده الطبيبة المغمورة .

ويتميز كتابه ((عن الكثير من الكنانيش الطبية للأطباء المسلمين ، باحتوائه على مادة علمية غزيرة فيما يخص التطبيب العملي ، والتجارب الطبية المختلفة ، والمجربات الدوائية العديدة التي قام بها المؤلف ، أو شاهدها من زملاء المهنة في بيمارستانات بغداد بشكل خاص ، وفي بعض مدن العراق الأخرى كحالات فردية . فقد وصف لنا الكثير من المعالجات ، وأعطانا صورة واضحة عن الحالات المرضية الموجودة في أيامه ، وكيف كانت تتم المعالجة لكل حالة على حدة ، ذاكراً أسماء تلك الحالات ، ويعفى أسماء أصحابها ، وكيف تعامل معها ، وكيف تمت المعالجة ، وكيف كانت النتيجة)) [٤] .

ومن معاصري الكَشْكَري من أطباء بغداد المرموقين ، **أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة الحراني** (ت ٣٣١هـ/٩٤٣م) ، وكانأحد أطباء الخليفة المقتدر مع بختيشوع بن يوحنا ، الخاصين به . وكان رئيس الأطباء في عهده . كما خدم الخليفة القاهر بالطب ،

---

(١) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٨١ ـ ٨٢ ، ١١٢ . صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

(٢) لم يأت ذكر صريح ليعقوب . وكل ما جاء عنه ، قول ابن أبي أصيبعة في ترجمته لسهل الكَوْسَج الطبيب ، وذكر عدداً من أقرانه الأطباء ، ومن بينهم قال : ((يعقوب صاحب البيمارستان)) . عيون الأنباء ، ص ٢٢٩ .

(٣) مطبوع بتحقيق : علي شيري ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م . ومخطوطة الكتاب محفوظة بمكتبة أيا صوفيا في اسطنبول ، برقم (٣٧٦١) .

(٤) مريزن عسيري : كناش الكشكري ، مجلة المؤرخ العربي ، مج١ ، ع١ ، ص ١٠٢ .

ثم الراضي ، وكان أحد ندمائه . ولمكانته العلمية فقد عُهِد إلى سنان لمكانته العلمية فقد الإشراف على البيمارستانات التي شُيِّدت ببغداد بطلب من أصحابها ، وبمشورة من سنان ، على نحو ما سبق ذكره <١> .

أما **أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الحراني** (ت ٣٦٣هـ/٩٧٤م) . فقد برع في الطب مثل أبيه ، وخدم به الخلفاء : الراضي ، والمتقي ، والمستكفي ، والمطيع . وفي سنة (٣١٣هـ/٩٢٥م) ، قلَّده الوزير محمد بن عبيد الله الخاقاني بيمارستان الوزير ابن الفُرَات بدرب المُفَضَّل في بغداد <٢> .

ومن جانب آخر ، كان لبعض الأطباء اهتمام برواية الحديث ، ومسائل الفقه . فقد كانت عند **أبي جعفر محمد بن يحيى الكحال** ، الطبيب البغدادي ، مسائل كثيرة حِسان عن الإمام أحمد ، وكان الأخير يُقدِّمه ، ويُكرِمه ، وكان من كبار أصحابه <٣> . وذكر أبو بكر الخلال ، أن **أبا الفضل عبد الرحمن الطبيب** ، قد تفرَّد بنقل بعض المسائل عن الإمام أحمد ، وأُخذت عنه ، كمسألة اللحن في قراءة القرآن الكريم ، وغيرها . وكان الإمام أحمد ، وبِشْر بن الحارث الزاهد يأنسا به ، وكان يختلف إليهما كثيراً <٤> . كما كان طبيبهما الخاص <٥> .

ثانياً : علم الصيدلة :

إن فصل علم الصيدلة <٦> عن الطب لم يكن بهدف إبراز هذا العلم ، كعلم أصبحت له استقلايته ، وسماته الخاصة فقط ، ولكن لأن النظرة قد وجِدت عند أطباء العراق منذ

---

(١) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ١٤٧ . النديم : الفهرست ، ص ٤٧٣ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٠٤ ، ١٩٠ ـ ١٩٥ .

(٢) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٨٠ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٧ .

(٣) ابن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، (٣٢٨/١) . ويذكر المؤلف بعض المسائل الأخرى .

(٤) المصدر السابق ، (٢٠٨/١) .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم ، (٢٩/٥) .

(٦) علم الصيدلة : « علم باحث عن التمييز بين النباتات المشتبهة في الشكل ، ومعرفة منابتها ، بأنها صينية ، أو هندية ، أو رومية ، ومعرفة زمانها ، بأنها صيفية أو خريفية ، ومعرفة جيدها من رديئها ، ومعرفة خواصها ، إلى غير ذلك . طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة ، (٣٤٨/١) . =

أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ؛ إذ رأوا ضرورة فصل الصيدلة عن الطب ، تبعاً للتطور العلمي في هذين المجالين ، والذي يحتّم معه هذا الأمر . وهو ما عبر عنه الرازي في الجزء (٢٢) من كتابه « الحاوي » الذي خصّصه عن الصيدلة ، وسماه « كتاب صيدلة الطب » . يقول في مقدمته لهذا الكتاب : ((المعرفة بالأدوية ، وتمييز جيدها ، ورديها ، وخالصها ، ومغشوشها ، وإن كان ليس بلازم للطبيب ، ضرورة كما يحبه جهال الناس ، فهو أحرى وأزين بها . ولذلك رأيت أن أجمع هذا الفن ، وإن لم يكن جزءاً من الطب ضرورياً ، في كتاب يخصه)) [١] . ويرى بأن الصيدلة إحدى العلوم التي لا يستغنى عنها الطب في قوله : ((وليس ينبغي أن يُعد شيء من هذا خاص من الطب ، بل صناعة خادمة له ، كخدمة الصناعة بعضها لبعض)) [٢] . ونراه يفرِّق بين الطبيب والصيدلي في عبارته : ((ولا يجوز أن يُسمى أعرف الناس بأنواع الأدوية ، وأشكالها ، وألوانها ، وخالصها ، ومغشوشها طبيباً ، بل يسمى الطبيب من عرف أفاعيل هذه في أبدان الناس)) [٣] . وفي المقابل ، كان الرازي يحبذ الجمع بينهما إذا تيسر للطبيب ذلك ، لأن الصيدلة في نظره شديدة الصلة بالطب ، ويقول في هذا الصدد : ((لا ننكر أن المعرفة بهذا الفن ـ أعني الصيدلة ـ إذا انضمت للطبيب على علمه كان أفضل ، فإنه شديد الالتصاق بصناعة الطب)) [٤] .

إن تطور صناعة الصيدلة ، وازدهارها ، والتعقيد الذي لزم معه أن يتفرَّغ لهذه الصناعة فئة لديها الخبرة ، والمهارة في العقاقير ، التي كثرت ، وتشعبت طرق تركيبها ، فأصبح من الضروري التفرغ لها ، وتكريس الوقت ، والجهد الكافيين لغرض التمكُّن من تهيئتها للمريض . فكان لهذا الأمر الأثر الكبير في تطور علم الصيدلة [٥] .

= وعُرف علم الصيدلة في ذلك الوقت بأسماء عديدة ، منها : علم الأدوية ، وعلم المفردات ، وعلم العقاقير ، وعلم الأقر باذينات ، وغيرها . علي الدفاع : إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة ، ص ١٢٣ .

(١) الرازي : الحاوي (كتاب صيدلة الطب) ، (١/٢٢) .

(٢) المصدر السابق ، (٢/٢٢) .

(٣) المصدر السابق ، (٢/٢٢) .

(٤) المصدر السابق ، (٤/٢٢) .

(٥) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ . الفاضل عمر : الطب الإسلامي عبر القرون ، ص ٢٩٠ .

إن الإنجازات التي تحققت في حقل الترجمة للكتب الطبيية ، والنباتية من اللسان اليوناني إلى العربي ، أسهم ، وبشكل كبير ، في انتقال الصيدلة في تلك الفترة إلى طور جديد ، حيث بدأت محاولات الأطباء العراقيين في إبدال أسماء الأدوية الفارسية ، واليونانية ، والهندية بالعربية . وكان لمقدمة كتاب « الحشائش » لدياسقوريدس ، الذي ترجمه إصطفن بن بُسَيل كما نعلم ، فائدة كبيرة ، تمثلت في تعريف صيادلة العراق بطريقة جمع ، وجَني ، وحفظ العقاقير ، ومعرفة أوصافها ، وأعمارها . أما تأثير الكتاب نفسه بالنسبة لزيادة عدد العقاقير المعروفة في ذلك الوقت فقد كان ظئيلاً ، إذا ما قورن بمؤلفات الأطباء الهنود، الذين جاءوا إلى بغداد في النصف الأخير من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، أمثال : منكه ، وصنجهال ، وابن بهلة ، وابن داهن ، وغيرهم . حيث أدخل هؤلاء الأطباء في مفردات الأدوية العربية أسماء جديدة لعقاقير من أصل هندي ، أو صيني ، أو فارسي [١] .

وكان للصيادلة في بغداد دكاكين خاصة بهم تقع بمحلة الكَرْخ ، ولم تشر أي من المصادر التأريخية إلى ذلك بصورة مباشرة إلا أبو بكر الصولي ، حيث يذكر في حوادث سنة (٣٢٣هـ/٩٣٥م) ما نصُّه : ((ووقع بالكَرْخ حريق عظيم في شوال ، أحرق العطَّارين ، والصيادلة ، وأصحاب الدهون ، والخرازين ، والجوهريين ، وكان عظيماً)) [٢] . ونلحظ من هذا النص أمر جدير بالأهمية ، ألا وهو وجود أصحاب المهن ذات العلاقة بالعقاقير ، وموادها في مكان واحد ، وهذا مؤشر مهم على ازدهار الصيدلة في العراق ، وبغداد على وجه الخصوص ، في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي .

وبتوفر العقاقير ، وبكميات وفيرة في هذه الأسواق ، بفضل نشاط تجارة العقاقير ، والمواد الطبيعية التي تدخل في صناعة الدواء (العطارة) ، بين العراق ، والمراكز التجارية الأخرى ، لا سيما الشرق ، كالصين ، والهند ، والسند ، وفارس . فسرعان ما دخلت هذه العقاقير في عِداد المادة الطبية التي ذكرها المؤلفون في ذلك الوقت ، لا سيما ابن ربن

---

(١) محمد البابا : مصادر الأدوية المفردة أو العقاقير في الطب العربي : أبحاث المؤتمر السنوي الثاني للجمعية السورية لتاريخ العلوم ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

(٢) الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، ص ٦٨ .

الطبري ، والكندي ، والرازي ، حتى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، وقد ذاعت على أثرها شهرة أهل الشرق ، لا سيما الهند ، كصيادلة مهرة ، حتى أصبحت العادة عند أطباء ، وصيادلة بغداد أن يكون لديهم غلام سندي يقوم بتحضير الأدوية [١] .

ومما ساعد على ارتقاء مهنة الصيدلة في العراق في ذلك الوقت ، التنظيم المهني للصيدلة من قِبل الدولة بسَنِّ الضوابط ، والقوانين لمن أراد ممارسة هذه المهنة ، وفرض الرقابة عليها ، سواء من جهة الصيدلة ، أو من جهة المواد الطبية التي تدخل في صناعة العقاقير ، والكيفية التي يتم بها ذلك ، وكان جهاز الحسْبَة هو الجهاز المنوط به القيام بذلك . فكان هذا الأمر أحد الشواهد على التقدم الحضاري الذي وصل إليه أهل العراق في هذا المجال .

ونظراً لضعف المعرفة بطرق التحاليل الكيميائية ، فقد اعترفت جميع كتب الحسْبَة بصعوبة الكشف عن طرق الغش التي كان يلجأ إليها بعض الصيادلة في تحضير العقاقير ، والأدوية المركبة . لذا ، كان المحتسب ، وأعوانه يناشدون الصيادلة دوماً بأن يجعلوا مخافة الله عزَّ وجَلْ نصب أعينهم في أعمالهم [٢] .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد وجدت بعض الطرق لكشف الغش في العقاقير المفردة ، والمركبة ، وهي وإن كانت تبدو لنا طرقاً بدائية ، إلا أنها هي المتاحة في ذلك الوقت . وحفلت كتب الحسْبَة بالأساليب المستخدمة للتحرِّي عن سلامة العقاقير المفردة ، كالأدهان الطبية ، والعطور . والعقاقير المركبة ، كالمعاجين ، والجوارشنات ، والسفوفات ، والأقراص الدوائية [٣] . كما نصَّت أنظمة الحسْبَة على أنه لا يجوز أن يقوم بتحضير الأدوية أو

---

(١) وليم الخازن : الحضارة العباسية ، ص ١٢٠ . محمد البابا : مصادر الأدوية المفردة أو العقاقير في الطب العربي ، ص ١٨٩ . علي الدفاع : الموجز في التراث العلمي ، ص ٣٠ ، ٣١ .

(٢) تذكر كتب الحسبة بعض الطرق الشائعة التي كانت يتبعها بعض الصيادلة والعطارين في غش صناعة العقاقير . انظر : الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ٤٢ . ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص ١٢٢ .

(٣) كمال شحادة : المراقبة الدوائية والطبية في أنظمة الحسبة عند العرب ، أبحاث المؤتمر السنوي الثامن عشر لتاريخ العلوم عند العرب ، ص ٢٩٣ ـ ٣٠٠ . وقام الباحث بتقصي ما ورد في كتب الحسبة عن الأساليب المتبعة في تحري سلامة العقاقير ، سواء المفردة ، أو المركبة .

العقاقير إلا من اشتهرت معرفته ، وظهرت خبرته ، وكثرت تجربته ، وشاهد تجريب العقاقير ، ومقاديرها من أربابها ، وأهل الخبرة فيها . كما لا يجوز تركيب الأدوية إلا كما جاء في الكُنّاشات الطبية المعتبرة ، والأقرباذينات [١] المعتمدة ، مثل كتاب « الأقرباذين الكبير » لسَابور بن سَهْل (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) [٢] .

وكان لنضج حقول : علم الكيمياء ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان في تلك الفترة ، كما سنرى لاحقاً ، وتزامنها مع نشاط علم الصيدلة ، قد أدى إلى تقدم علم الصيدلة وثرائه ، نظراً لإرتباطه الوثيق بهذه العلوم ، ذلك أن الأدوية : إما نباتية ، أو حيوانية ، أو كيميائية (معدنية) [٣] . ثم إن هذه الأدوية تحتاج إلى معالجة ، وإلى نسب في التركيب ، لا سيما الأدوية المركبة ، تقتضي المعرفة بالكيمياء ، وعملياتها .

وقام الصيادلة في العراق بتحضير الأدوية المفردة ، والمركبة ، وتقدموا تقدماً ملحوظاً في معرفة خواص العقاقير ، مستخدمين في عملهم مكاييل طبية خاصة للأدوية تمثلت في تلك الأواني الخاصة بكَيْل السوائل ، واليابسات التي تستخدم في التطبيب ، كالأدوية السائلة ، والحبوب ، والعقاقير المسحوقة ، وغيرها .

وكانت هذه المكاييل ((تُصنع من الزُّجاج ، حتى لا تستحيل إلى زيادة أو نقصان ... بحيث يسهل الإشراف عليها في الأسواق من قبل المحتسب ... وأُضيفت لهذه المكاييل أختام من الزجاج كُتب عليها إسم المادة المُكَالة ، وفي بعض الأحيان ثمن المَكِيل منها)) [٤] .

كما كان الأطباء والصيادلة يستخدمون وحدات الوزن الصغيرة جداً عند تقدير كمية العقار ، سواء المفرد أو المركب . ومن هذه الأوزان : الحبَّة ، والقِيرَاط ، والدَّانِق ،

---

(١) الأقرباذينات : جمع أقرباذين ، وهي رسم الأدوية ونسقها أو مجموعها ، وهو الدستور المتَّبع في تحضير الأدوية . ابن سينا : القانون في الطب (٣٠٩/٣) .

(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٩ .

(٣) القلانسي : أقرباذين القلانسي ، ص ٢٠ .

(٤) سامح فهمي : المكاييل الإسلامية للعقاقير الطبية ، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ، جامعة أم القري ، ع٥ .

والدرهم ، والمِثْقال ، والأُوقيَّة ، وغيرها [١] . وبإطلالة على المصنفات الطبية والصيدلانية ، نجد في الموضوعات الخاصة بأدوية الأمراض مثل هذه الأوزان ، وغيرها .

واستطاع القائمون على الصيدلة من تحضير الكثير من الأدوية ، والتدابير الشافية للأمراض المنتشره في ذلك الوقت ، وأودعوها مؤلفاتهم ، واتخذ هذا الأمر أنماط ثلاثة ، هي :

الأول : أن تُذكر مع موضوعات حفظ الصحة ، ومداواة المرض . أي عند ذكر الأمراض ، وعلاجاتها .

الثاني : أن تُفرد لها أبواباً قائمة بذاتها في المؤلفات الطبية التي تتسم بطابع الموسوعية . مثل : « فردوس الحكمة » لابن ربن الطبري ، و « المسائل في الطب » لحنين بن إسحاق ، و « الذخيرة في علم الطب » لثابت بن قرة ، و « الحاوي » للرازي ، وغيرها .

الثالث : أن تُفرد بمؤلفات خاصة بها ، وتحمل عناوين ذات دلالة ، وعلاقة بالصيدلة ككُتب الأقرباذين ، وقوى الأدوية وإصلاحها ، ومنافع الأغذية ودفع مضارها ، وأدوية الزينة ، وخواص الأغذية والأدوية ، والرسائل الصغيرة ، والمقالات في إحدى الأدوية بمختلف أنواعها .

ولما كان هناك عدد كبير من الأدوية المفردة النباتية ، ورد ذكرها في مؤلفات أطباء اليونان ، والهند ، التي دوَّنها الأطباء في مؤلفاتهم دون أن يتمكنوا من الحصول عليها ، والتعرُّف على خصائصها ، نظراً لعدم وجودها في بيئاتهم ، لجأوا منذ عهد يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣هـ/٨٥٧م) إلى تأليف كُتباً بعنوان « أبدال الأدوية » ، أي الاستعاضه عن الأدوية المفقودة ، أو الثمينة ، بأدوية موجودة ، أو رخيصة ، بالاستناد إلى معرفة نوعية تأثيرها وقواها ، على نحو ما سيتضح عند استعراض الإنتاج العلمي في ميدان الصيدلة .

---

(١) القلانسي : أقرباذين القلانسي ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٦ . والحبَّة = ٠,٠٥ غرام . والقِيرَاط = ٤ حبات ، أو ٠,٠٦٤ لتر . والدَّانِق = قيراطان ، أو سدس الدرهم . والدرهم = ٦ دوانيق . والمثقال = درهم وثلاثة أرباع الدرهم . والأُوقيَّة = عشرة دراهم وخمسة أسداس الدرهم . انظر : فالترهنتس : المكاييل والأوزان الإسلامية ، ص ٢٠ ، ٢٩ . أبو بكر الرازي : تقاسم العلل ، ص ٩٠٣ .

وكان الأطباء ، والصيادلة يلجأون إلى طُرق مختلفة لاختبار الأدوية ، ومعرفة طبائعها ، وقواها [١] .

ويجب الإشارة إلى أن الأطباء كانوا يفضلون الأدوية المفردة على المركبة ، حيث تكون أقل ضرراً لبدن الإنسان ، ولا يلجأون إلى المركَّب إلا لأمرين : إما لتقوية قوة الدواء ، وإما لإضعافها [٢] .

ولقد تطور علم الصيدلة في العراق خلال حقبة سطوة الأتراك ، وظهر أول متطبب غلبت عليه صفة الصيادلة ، وهو **يوحنا بن ماسويه** (ت ٢٤٣هـ/٨٥٧م) ، فأخذ عن والده ماسويه الأمور العملية من مهنة الصيدلة ، فكان يُوحَنَّا طبيباً متمكناً ، وأحد حذَّاق الصيدلة في وقته ، ومن إسهاماته في ميدان الصيدلة من ناحية التأليف : كتاب « قوى الأدوية المُسْهِلة وطبائعها ومزاجاتها ومصالحها » [٣] . ويبحث فيه مؤلفه عن الأدوية المسهلة ، ويقرر بأن لكل دواء منها خواصه التي تستوجب معها إصلاح الدواء قبل استعماله ، وتهيئته تبعاً لطبيعة بدن الإنسان أو ظروف بيئته ، واختيار الأجود منها ، والقدر المطلوب استعماله ، والوقت الذي ينبغي أن تُؤخذ فيه [٤] . ويرى ابن مَاسَوَيه أن قوى الأدوية المسهلة على ثلاثة ضروب [٥] :

الأول : الذي في طباعه الحدة . كالصبر ، والسقمونيا ، وشحم الحنظل ، والفاريقون ، وأصل السويس . وهذا الضرب من الأدوية يتطلب إصلاحه ، وتدبره قبل استعماله .

الثاني : الذي في طباعه اللين واللزوجه . كالبنفسج اليابس ، والبزرقطونا ، وغيرها . وليس لهذا الضرب حاجة للإصلاح قبل الاستعمال .

---

(١) حنين بن إسحاق : المسائل في الطب ، ص ١٣٨ـ١٤٤ . ابن سينا : القانون في الطب ، (١/٢٢٤ ـ ٢٣١).

(٢) ابن النفيس : المهذب في الكحل المجرب ، ص ٢٠٠ . نقلاً عن هناء عامر : مناهج الأطباء العرب ، ص ١٣٤ .

(٣) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة ، برقم (٦٤٩طب/مجاميع) ، الأوراق : [٦٠أـ٧٦ب] .

(٤) المصدر السابق ، الورقة : (١ب) .

(٥) المصدر السابق ، الورقة : (٢أ) .

الثالث : الذي في طباعه القبض . كالهليلج ، وما شابهه . ولا حاجة لهذا الضرب من الأدوية المسهلة أيضاً إصلاح قبل الاستعمال .

ثم يأخذ ابن مَاسَوَيه باستعراض بعض الأدوية الحادة التي تحتاج إلى إصلاح قبل استعمالها ، فإضافة إلى الأدوية الحادة السالفة الذكر ، يذكر الأفتيمون ، والأفربيون ، والمصطكى ، والتربد ، والخربق الأسود ، والأبيض ، والبسفائج ، وحب النيل ، وغيرها . مشيراً عند كل واحد منها ، فوائده ، وكيفية تهيئته قبل الاستعمال ، تبعاً لحال الأخلاط الأربعة في جسم الإنسان [١] .

ومن مصنفات يُوحَنَّا الأخرى في الصيدلة : كتاب « السواك والسنونات » ، كتاب « دفع ضرر الأغذية » ، كتاب « ماء الشعير » ، كتاب « المنجح في الصفات والعلاجات » ، كتاب « في ترتيب سقي الأدوية المسهلة بحسب الأزمنة وبحسب الأمزجة » ، كتاب « الأبدال » [٢] .

كما كان **لعلي بن سهل (ربن) الطبري** (ت ٢٤٧هـ/٨٦١م) ، نشاط في باب الصيدلة ، تمثَّل في المؤلفات التي وضعها في هذا الحقل العلمي ، ومن هذه المؤلفات : كتاب « منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير » [٣] ، كما خصَّص الباب السادس من كتابه الموسوعي « فردوس الحكمة » للحديث عن الأدوية المفردة ، والمركبة [٤] .

أما **سابور بن سهل المعروف بالكوسج** (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) ، فقد كان ممن برع في المعرفة بقوى الأدوية المفردة ، وتركيبها . وكان يشغل منصب رئيس بيمارستان جُنْدَيْسابور قبل أن يدخل بغداد ، ويتصل بخلفاء بني العباس من لدن المتوكل وحتي المهتدي ، وتوفى سابور في عهده . وكان مُقدَّماً عندهم [٥] .

---

(١) المصدر السابق ، الورقة : (٢أ ــ ٤ب) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٥ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٥٥ .

(٣) النديم : الفهرست ، ٤٦٦ .

(٤) فردوس الحكمة ، ص ٣٧٤ ــ ٥٠٠ .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٧ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٠٧ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٠٧ . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٩ .

وظهرت براعة سَابور في الصيدلة من خلال كتابه « الأقرباذين الكبير » [١] ، وهو أول أقرباذين يظهر في ذلك الوقت ، وكان المُعَوَّل عليه في البيمارستانات ، ودكاكين الصيادلة حتى ظهور أقرباذين ابن التلميذ [٢] .

وقد قسَّم سابور كتابه هذا إلى (٢٠ باباً) ذكرت فيها الأشكال الصيدلانية الآتية : الأقراص ، والحبوب ، والسفوف ، والمعاجين ، والجوارشنات ، واللعوقات ، والأشربة ، والمربيات ، والمطبوخات ، والأكحال ، والأدهان ، والمراهم الضمادات ، والحقن ، والأدوية اليابسة ، والسعوطات ، وأدوية الرُّعاف ، وأدوية القيء ، وما يُدر العرق ويحبسه [٣] .

ومن المحتمل أن يكون اختلاف عدد الأبواب بين النسخة المخطوطة ، وبين ما ذكره ابن أبي أصيبعة من أنه (١٧ باباً) ، ناجم عن فصل بعض المواضيع ، وجعلها في أبواب خاصة أثناء النسخ [٤] .

ولسَابور مصنفات أخرى في الصيدلة ، والطب ، منها : كتاب « قوى الأطعمة ومضارها ومنافعها » ، كتاب « الرد على حنين في كتابه في الفرق بين الغذاء والدواء المسهل » ، كتاب « أبدال الأدوية » ، كتاب « في النوم واليقظة » [٥] .

وكان **ليعقوب بن إسحاق الكندي** (ت ٢٦٠هـ/٨٧٣م) ، مشاركة فاعلة في الصيدلة كما كان في الطب ، ونال شهرة واسعة في تحضير الأدوية المختلفة ، مفردها ومركبها ، فصنف مؤلفات عدة في حقل الصيدلة ، منها : رسالة « في الأدوية المفردة التي يفعل بخواصها في السموم » [٦] ، حيث تناول فيها الحديث عن : (٣٧ وصفه) لعلاج

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية في القاهرة ، برقم (١٢١٢طب) ، (٦٩ ورقة) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٧ .

(٣) محمد البابا : الأقرباذينات أو دساتير الأدوية العربية ، أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ، ص ٥٧٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٥٧٩ .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٧ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٣٠ .

(٦) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة ، برقم (٢٩٢طب/مجاميع) ، الأوراق : [٥١٣أ ـ ٥١٦ب] .

سموم الحيوانات السامة بمختلفة أنواعها ، تقوم هذه الوصفات على مختلف أنواع النبات ، كالفواكه ، وأوراق الشجر ، وقشرة سيقانه ، وأغصانه ، إضافة إلى بعض البذور ، وبعض العصارات المستخلصة من تلك الأجزاء . ومن هذه الوصفات التي جاء ذكرها على سبيل المثال : حب الأترج ، عصارة التوت ، التين البري ، الزعتر (الصعتر) الجبلي ، بزر الكرفس الجبلي ، الطرخون ، الجزر البري ، الثوم ، السوسن ، الخل . ومن الأدوية الحيوانية التي ذكرها الكندي : أنفحه الأرانب . ويبين الكندي في بعض الوصفات بضرورة إضافة بعض العناصر الأخرى المقوِّية لفاعلية الدواء [١] .

ومن مصنفات الكندي الصيدلانية الأخرى : رسالة « في كيفية إسهال الأدوية وانجذاب الأخلاط » ، كتاب « في أشفية السموم » ، كتاب « الأدوية الممتحنة » ، كتاب « الأقرباذين » ، رسالة « إيضاح العلة في السمائم القاتلة السمائية » ، كتاب « جوامع الأدوية المفردة لجالينوس » ، وغيرها من المصنفات [٢] .

ومن معاصري الكِنْدي الذين برزوا في الصيدلة ، **حنين بن إسحاق العبادي** (ت ٢٦٤هـ/٨٧٧م) ، أحد أطباء عصره المرموقين ممن خدم حركة الترجمة ، وشهد ميدان الصيدلة نشاطاً ملموساً لحنين توَّجَه بمصنفات كثيرة منها : كتاب « أقرباذين » [٣] ، كتاب « في الأدوية المفردة » [٤] ، وهو اختصار لكتاب جالينوس . كتاب « في الترياق » ، كتاب « في أسرار الأدوية المركبة » ، كتاب « اللبن » ، كتاب « الأغذية » ، كتاب « اختيار أدوية علل العين » ، رسالة « في قرص الورد » ، كتاب « الفرق بين الغذاء والدواء المسهل » ، كتاب « قوس الأغذية » ، رسالة « في قرص العود » ، كتاب « في أسماء الأدوية المفردة » ، ومصنفات أخرى غيرها [٥] . كما تضمنت كُتب حنين الطبية العامة أبواباً خاصة بالأدوية ،

---

(١) المصدر السابق ، الورقة :(٨أ ـ ب) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤١٨ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٣ .

(٣) مخطوط بمكتبة البودليانا في أكسفورد (لندن) ، برقم (٤٢٨) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (١٠٧/٤) .

(٤) مخطوط بمكتبة نور عثمانية في إسطنبول ، برقم (٣٥٠٥) . المرجع السابق ، (١٠٩/٤) .

(٥) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ . البغدادي : هدية العارفين ، (٣٣٩/١ ـ ٣٤٠) .

مفردة أو مركبة . ففي كتاب « المسائل في الطب » ، أفرد حنين الفصل السادس [١] ، للحديث عن الأدوية المفردة ، والمركبة . كما خصَّص المقالات الأربعة الأخيرة من كتابه « العشر مقالات في العين » ، للحديث عن قوى الأدوية المفردة العامة ، وأدوية العين ، وأجناسها وفنون استعمالها ، إضافة إلى علاج كل مرض من أمراض العين المذكورة في المقالة السادسة من الكتاب ، مع استعراض للأدوية المركبة المذكورة في المقالة التاسعة ، التي أَلَّفها القدماء للعِلل الحادثة في العين [٢] .

ولَحِق بحنين في الصيدلة ، وبرع فيها ابن أُخته **حبيش بن الحسن الدمشقي المعروف بالأعسم** (ت قبل ٢٦٤هـ/٨٧٧م) ، وعليه تتلمذ في صناعة الطب ، وكان يَسلُك مسلكه في ترجماته ، فكان حُبَيْش ممن رمى بسهم وافر في حقل الترجمة من السُّريانية إلى العربية ، وأدى فيها جهوداً جعلت منه أحد أبرز مترجمي عصره ، حتى قال عنه خاله حنين : ((إنَّ حُبَيْشاً ذكي مطبوع على الفهم ، غير أنه ليس له اجتهاد بحسب ذكائه . بل فيه تهاون وإن كان ذكاؤه مفرطاً ، وذهنه ثاقباً)) . وكان حنين يقدِّمه ، ويُجِلُّه .

وأسدى حُبَيْش لعلم الطب خدمة عظيمة عندما قام بتحرير كتاب حنين « المسائل في الطب » من مسوداته ، وأضاف عليه بعض الأشياء قبل أن يقدِّمة للمشتغلين في حقل الطب [٣] .

وكان حُبَيْش فوق أنه طبيب ماهر ، مُصيباً في العلاجات ، صيدلانياً متمكناً ، وترك ورائه ، وإن كان لا يتناسب مع إنتاجه في الترجمة ، ما يحفظ له مكانته بين أطباء عصره ، وصيادلته ، فمن مؤلفاته : كتاب « إصلاح الأدوية المُسَّهِلة ونفي مضارها وضروب

---

(١) المسائل في الطب ، ص ١٢٧ ـ ٢١٢ .

(٢) العشر مقالات في العين ، ص ١٤٧ ـ ٢١٦ .

(٣) انظر ترجمة حُبَيْش في : النديم : الفهرست ، ص ٤٦٧ . البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام ، ص ١٩ ـ ٢٠ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٧٣ ـ ١٧٧ . ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٤٣ . تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٨ . ويعلل ابن العبري قلة مصنفات حبيش : بأنه أمر عائد إلى تصحيف الوراقين والنساخ ، ويضنون أنه حنين لتشابههم في رسم أسمائهم ، فيكشطون إسم « حبيش » ويجعلونه « حنين » . ولهذا أمست تآليف حبيش قليلة ، وأصبح أغلبها مكتوباً بإسم حنين . تاريخ الزمان ، ص ٤٣ .

استعمالها » [١] ، وموضوع هذا الكتاب مشابة في محتواه لكتاب يوحنا بن ماسويه في الموضوع نفسه ، والذي سبق الحديث عنه . ويضع حُبَيْش تمهيداً لكتابه هذا قبل الخوض في صلب الموضوع ، إذ يلفت انتباه القاريء إلى التدبُّر في سائر الحيوانات عندما تريد أن تتخلص مما يصيبها من أشياء عارضة لصحتها ، مصوراً الفطرة التي فُطرت عليها هذه المخلوقات للقيام بذلك لحاجتها الضرورية في حفظ صحتها . ويضرب حُبَيْش أمثلة لذلك من طوائف : الطيور ، والزواحف ، والكلاب . كأن تقوم الأفاعي مثلاً عند إنتهاء فصل الشتاء ، ودخول الربيع ، بالبحث عن نبات « الرَّازيَنج » لكي تأكله ، وتمسح به عيونها ، التي أصابها الضعف ، والعمى المؤقت أثناء بياتها الشتوي ، ونحو ذلك من الأمثلة [٢] .

ثم يُعرِّج حُبَيْش على بيان خطورة الأدوية المُسْهِلة إذا ما استعملت من غير إصلاح ، وتقدير ما ينبغي أخذه ، وضرورة أخذها من قبل الأطباء المشهود لهم بالكفاءة ، وعدم سماع مشورة المتصفين منهم ، والذين يُعوِّلون في تقديرها ، وأخلاطها ، وطريقة استعمالها على ما هو مُدوَّن في بطون كتب السابقين ، من غير اعتبار لمدى ملائمتها للشخص ، أم لا . ولهذا السبب وضع حُبَيْش ، كما يقول ، كتابه هذا لكي يأمن الناس هذه الفئة من الأطباء ، الذين ليست لهم دُرْبة في صناعة الطب [٣] .

ثم يُقسِّم حُبَيْش قوى الأدوية المُسْهِلة من حيث كيفيتها إلى ستة أقسام [٤] :

الأول : القبض . والثاني : الحدة . والثالث : اللزوجة . والرابع : الحلاوة . والخامس : الملوحة . والسادس : الكيفية التي تشارك السموم ، كالأفيون ، والغربيون ، في فعلها فيُسهِل ، الشارب للدواء المُسْهِل المضافة إليه ، إسهالاً عنيفاً ، قد تجلب الموت عليه إذ لم تُحكم المقادير المضافة منها إلى الأدوية المُسْهِلة ، ونسبتها .

---

(١) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة ، برقم (٣٢٣طب/مجاميع) ، الأوراق : [١٣٩ ـ ١٦٠] ، ٨٣٦هـ .

(٢) المصدر السابق ، الورقة : (١أ) .

(٣) المصدر السابق ، الورقة : (١أ) .

(٤) المصدر السابق ، الورقة : (١أ) .

ويضرب حُبَيْش أمثلة على الأدوية المُسْهِلة بأقسامها الثلاثة : النباتية ، والحيوانية ، والكيميائية (المعدنية) ، والتي تُحدث إحدى الكيفيات الخمسة الأولى السابقة [١] .

ثم يُخصِّص حُبَيْش الجزء الأكبر من كتابه للحديث عن إصلاح الأدوية المُسْهِلة ، وتهيئتها قبل الاستعمال ، وأوقات أخذها ، والمنافع التي تؤخذ من أجلها ، ومواصفات الدواء ، كماً وكيفاً ، ونحو ذلك [٢] .

ومن مصنفات حُبَيْش الطبية ، والصيدلانية الأخرى : كتاب « الأدوية المفردة »، كتاب « الأغذية » ، كتاب « في الإستسقاء » ، كتاب « مقالة في النبض على جهة التقسيم » [٣] .

وكان **إسحاق بن حنين بن إسحاق العبادي** (ت ٢٩٨هـ/٩١٠م) ، أحد المشهورين بصحة النقل من اليونانية والسُّريانية إلى العربية . وخدم من الخلفاء العباسيين والرؤساء من خدمهم والده ، وكان منقطعاً في آخر أيامه إلى الوزير القاسم بن عبيد الله ، خَصيصاً به ، وكان القاسم يُفضي إليه بأسراره [٤] .

ويُعد إسحاق أحد الأطباء الذين اشتهروا في ذلك الوقت ، نظراً لشهرته في الترجمة أكثر من كونه طبيباً ، وكان تركيز إسحاق في ميدان العلوم الطبية في أكثره منصباً على الصيدلة ، غير أنه كان يميل إلى الفلسفة أكثر من أي علم آخر ، وما ترجماته للعديد من كتب هذا الفن إلا برهان على ذلك .

---

(١) المصدر السابق ، الورقة : (٢أ ـ ١ب) .

(٢) المصدر السابق ، الورقة : (٢أ ـ ١١ب) .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٧٦ .

(٤) انظر ترجمة إسحاق بن حنين في : النديم : الفهرست ، ص ٤٦٨ . ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٦٩ . البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام ، ص ١٨ ـ ١٩ . صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٠٣ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٨٠ . العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ، (٩/٢٢١ ـ ٢٢٢) . ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٢٣ . تاريخ مختصر الدول ، ص ١٢٨ .

وقد ترك إسحاق وراءه العديد من المؤلفات الطبية والصيدلانية ، ومنها : كتاب « الأدوية المفردة » ، كتاب « إصلاح الأدوية المسهلة » ، كتاب « الأدوية الموجودة بكل مكان » ، كتاب « كناش الخف » ، كتاب « ذكر فيه ابتداء صناعة الطب وأسماء جماعة من الحكماء والأطباء » ، كتاب « في النبض » مقسم ، كتاب « مقالة في الأشياء التي تفيد الصحة والحفظ ، وتمنع من النسيان » ، كتاب « صنعة العلاج بالحديد ش ، وغير ذلك من المصنفات [١] .

وجاء إسهام **قسطا بن لوقا البعلبكي** (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) في حقل الصيدلة امتداداً لجهوده في ميدان الطب . حيث قام قُسْطا بتأليف العديد من الكتب في علم الصيدلة ، منها : كتاب « في الأدوية المسهلة والعلاج بالإسهال » [٢] ، كتاب « في ذكر إصلاح الأدوية المسهلة ونفي ضرروه ، ومقدار الشربة منها والضروب » [٣] .

ويُعد **أبو بكر محمد بن زكريا الرازي** (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م) ، أشهر أعلام الصيدلة في وقته ، وهو أول من دعى إلى فصل الصيدلة عن الطب ، كما رأينا ، وأيضاً كان الرازي أول من ربط بين الصيدلة والكيمياء ، ووضع في ذلك كتباً عدة ، على رأسها كتاب « سر الأسرار » [٤] ، الذي يشتمل ، على حد تعبيره ، على معان ثلاثة خاصة بتركيب العقاقير ، وهي [٥] :

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٨ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٧٥ .

(٢) مخطوط بمكتبة آيا صوفيا في إسطنبول ، برقم (٣٧٢٤/مجاميع) . الأوراق : (١٧٦أ ـ ١٩٦أ) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٤/١٠٠) .

(٣) مخطوط بمكتبة آيا صوفيا في إسطنبول ، برقم (٣٧٢٤/مجاميع) . الأوراق : (٦٨أ ـ ٧٤ب) .المرجع السابق ، (٤/١٠٠) .

(٤) مطبوع بتحقيق : محمد تقي دانش ، طهران ، ١٣٤٣هـ .

(٥) شحاته قنواتي : تاريخ الصيدلة والعقاقير ، ص ١٥٦ ـ ١٦٥ . وسوف يأتي بيان هذه المعاني في موضوع الكيمياء .

١ ـ معرفة العقاقير ، وهي ثلاثة أنواع : ترابية (معدنية) ، ونباتية ، وحيوانية .

٢ ـ معرفة الآلات التي تُستعمل لتحضير العقاقير .

٣ ـ معرفة التدابير في العمليات الكيميائية التي تُستعمل لتحضير العقاقير .

وضمَّن الرازي كتبه الطبية ، أبواباً خاصة بعلم الصيدلة . ففي الجزئين : (٢٠ ، ٢١) من كتابه « الحاوي » تحدث الرازي عن قوى الأدوية المفردة ، مرتبة بحسب الحروف الأبجدية ، مبتدئاً بالأقحوان ، ومنتهياً بالياسمين ، ذاكراً عند كل واحداً منها ، ما قاله القدماء والمُحْدَثون ، مضافاً إليه ما شاهده ، وجرَّبه بنفسه .

وأحصى أحد الباحثين [١] عدد العقاقير الواردة في هذين الجزئين ، فبلغت : (٩١١ عقاراً) .

وذكرنا من قبل أنه خصَّص الجزء (٢٢) من الكتاب السابق ، للحديث عن الصيدلة كعلم مستقل عن الطب ، وعَنوَن هذا الجزء بـ « كتاب « صيدلة الطب » .

ومن خلال ما جاء في كُتب الرازي الطبية ، والصيدلانية ، يمكن القول بأن الرازي قد وضع الأُسس الصحيحة لعدة علوم صيدلانية مهمة ، وهي [٢] :

١ ـ علم العقاقير النباتية ، والحيوانية ، والترابية (المعدنية) . إذ بيَّن أوصافها ، وطريقة تحضيرها ، وكشف غشها ، وقواها ، وبديلاتها .

٢ ـ علم الكيمياء الصيدلية المعدنية . لأنه تحدث عن التدابير اللازمة لتحضير العقاقير الترابية ، مع لمحة عامة عن أعمار الأدوية (مدة حفظها) .

٣ ـ صناعة التَّجميل . ذلك لأنه أول من فَصَل أدوية الزِّينة ، وجعلها في باب خاص [٣] .

---

(١) محمد البابا : الأقرباذينات أودساتير الأدوية العربية ، ص ٥٨٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٨٦ ـ ٥٨٧ .

(٣) خصص الرازي القسم الثاني من الجزء (٢٣) من كتابه « الحاوي » لأدوية الزينة .

وكما كان الرازي غزيراً في تأليف الكتب الطبية ، فقد كان كذلك في علم الصيدلة . ومن هذه المؤلفات : كتاب « أقرباذين تقاسيم العلل » [١] ، ويُقدم الرازي في هذا الكتاب وصفات علاجية مركبة لعلاج (٦٣ نوعاً) من الأمراض الباطنة والظاهرة ، التي تصيب جسم الإنسان ، من شعر رأسه وحتى القدمين .

ويُصدِّر الرازي كتابه هذا بفهرس للأمراض التي سوف يصف الأعْلجِة المناسبة لها ، مشيراً بأن هدفه من هذا الكتاب ، أو الرسالة تقديم ملخصاً وافياً لا يستغني عنه أي طبيب ، تاركاً الإسهاب في حديثه لكي يلتزم بما نصَّ عليه في تلك المقدمة [٢] .

ثم يأخذ الرازي بتفصيل حديثه ، ذاكراً كل داء يصيب جسم الإنسان ، والعلاج المناسب له ، موضحاً المقادير المناسبة للتركيب ، طريقة تهيئة عناصر الدواء الواحد ، وما تحتاج إليه ، من طبخ ، وغسل متكرر بالماء ، أو بمواد أخرى ، وتجفيف ، ودق ، وعجن ، وسحق ، وقلي ، ونحو ذلك . مُبيناً الطريقة المثلى لاستخدام العلاج . ولا ينسى الرازي أن يذكر بعض الإرشادات ، والاحتياطات اللازمة عند القيام بذلك [٣] .

والرازي يستخدم في تركيب عقاقير كتابه على الأودية بأنواعها الثلاث : النباتية ، الحيوانية ، والمعدنية (الترابية) بصورة متوازية تقريباً من حيث مقاديرها . ويناقش الرازي في رسالته « إبدال الأدوية » [٤] ، أمراً شاع التأليف فيه ، وهو نمط التأليف في الأدوية البديلة ، والمتوفرة في البيئة المحيطة عن تلك المتواجدة في بيئات أُخرى ، جاء ذكرها في مصنفات أطباء ، وحشائشي تلك البيئات هذا من جهة ، ومن جهة أخرى مراعاة الطبقات الكادحة ، والفقيرة في المجتمع ، التي يمكن أن تستعيض بأدوية رخيصة ومتوفرة بدلاً من تلك النادرة ، أو غالية الثمن .

---

(١) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة ، برقم (٢٣٥طب/مجاميع) ، الأوراق : [٢٣٧أ - ٢٤٩أ] .

(٢) المصدر السابق ، الورقة : (١أ) .

(٣) المصدر السابق ، الورقة : (١ب - ٧ب) .

(٤) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة ، برقم (٢٧٣طب/مجاميع) ، الأوراق : [١٦١ - ١٦٥] .

هذه الأهمية لهذا النمط من التأليف عبَّر عنه الرازي بقوله : ((القول في الإبدال بحسب ما أرى جزء من أجزاء الطب العظام يستحق أن يُخص ويُفرد بكتاب)) [١] . والغرض من التأليف في الأبدال وفائدته ، كما يقول الرازي ، ((غرض نافع للطبيب ، إذ ليس كل دواء يوجد بسهولة في كل مكان ، وإذا لم تكن للطيب في هذه المواضع (بيئته) أبدال ينوب عنه عند فقده له ، عدم نفع صناعته)) [٢] .

ويعتمد الرازي في مواضع كثيرة من رسالته هذه على ما ذكره الأطباء السابقين ، وبعض المعاصرين له . كجالينوس ، وبولس القديم ، ويوحنا بن ماسوية ، وحنين بن إسحاق ، ويُكثر من الاعتماد على : جالينوس ، وابن ماسوية ، وخاصة الأخير .

ثم يَشرع الرازي بالحديث عن أبدال الأدوية [٣] ، سائراً في ذكرها على الحروف الأبجدية ، ذاكراً تحت كل حرف أسماء الأدوية المتداولة ، وبدائلها ، وكيفية صنعها ، والخطوات المتبعة في ذلك . فيبدأ بأبدال الأدوية التي تبدأ بحرف الألف ، ثم الباء ، فالجيم ، وهكذا حتى نهاية الرسالة . وفي كل ذلك ، كان الرازي يذكر أقوال من سبقوه ، ويضيف إليها معارفه ، وما أوصلته تجاربه من نتائج .

ومن مصنفات الرازي الصيدلانية الأخرى : رسالة « في السكنجبين » [٤] ، كتاب « الشراب » [٥] ، كتاب « الطين النيشابوري » [٦] ، كتاب « الأدوية المسهلة الموجودة في كل مكان « ، كتاب « الأقرباذين الكبير » ، كتاب « الأقرباذين الصغير » ، كتاب « الصيدنة » ، كتاب « علاجات الأنبة » ، وغيرها من المؤلفات [٧] .

---

(١) المصدر السابق ، الورقة : (١أ) .

(٢) المصدر السابق ، الورقة : (١أ) .

(٣) المصدر السابق ، الورقة : (١أ ـ ٣أ) .

(٤) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة ، برقم (٥٠١ طب/مجاميع) ، الأوراق : [١٢٥ ـ ١٢٨] .

(٥) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة ، برقم (٥٣١ طب/مجاميع) الكتاب الأول .

(٦) نشره : مهدي محقق ، ضمن أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص ٧٨٧ ـ ٨٤٠ .

(٧) النديم : الفهرست ، ص ٤٧٠ ـ ٤٧٣ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٢١ ـ ٤٢٧ . البغدادي : هدية العارفين ، (٢/٢٧ ـ ٢٩) .

المبحث الثاني

العلـــوم الطبيعيــة

تنقسم العلوم الطبيعية إلى عدة معارف علمية تتناول في محورها الرئيسي عنصراً من عناصر الطبيعة التي خلقها الباري عزَّ وجَلْ . وسيكون الحديث في الصفحات القادمة عن كل علم يختص بأحد هذه العناصر .

أولا : علم النبات :

لم تحدد الدراسات المتعلقة بعلم النبات [١] عند المسلمين بشكل عام ، والعراق على وجه الخصـوص ، والروافد الـتي يمكـن مــن خلالها أن تتضح صـورة هذا العلم بجلاء ، وهو أمر عائد لسببين [٢] :

الأول : أن الكثير من المصادر المهمة المتعلقة بالنبات ، والفلاحة العربية لا تزال مجهولة ، وما وصل لا يتناسب مع الواقع الذي كان عليه علم النبات ، وتَقدُّم الزراعة بشكل عام في العراق في ذلك الوقت .

الثاني : الشُّبُهات التي قامت حول بعض المسائل المعينة ، والمهمة بالنسبة للصورة الكاملة عن علم النبـات في العـراق في ذلك الوقت ، ومن ذلك ، وصم « الفـلاحـة النبطيـة » بالتزوير على أيدٍ عربية .

ودراسة علم النبات في العراق ، تقتضي تتبع المجالات التي كان محورها ، أو أحد محـاورها النبات . ولذا ، فإن هناك نـواحي أربعة يُمثل الولوج فيها جَمْع لواقع علـم النبات خلال تلك الفترة ، وهي [٣] :

---

(١) علم البنات : « هو علم يُبحث فيه عن خواص نوع النبات ، وعجائبها ، وأشكالها ، ومنافعها ، ومضـارها . وموضـوعـه : نــوع النبــات ، وفائدتــه . ومنفعــته : التــداوي بها » . طاش كبري زاده : مفتاح السعادة (٣٣١/١) .

(٢) فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٤٥٦/٤) .

(٣) أحمد عيسى : تاريخ النبات عند العرب ، ص ١٦ .

الأولى : دراسة النبات كمادة لغوية .

الثانية : دراسة النبات كأحد الأدوية المفردة ، أو العقاقير في علم الصيدلة .

الثالثة : دراسة النبات من جهة الفلاحة .

الرابعة : دراسة النبات كمادة علمية للرَّحّالة العراقيين في كتاباتهم في أدب الرحلات .

ولقد قام بعض الغيورين على اللغة العربية ، منذ القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي ، بجمع اللغة من مصادرها ، حفاظاً عليها من اللَّحْن الدخيل عليها ، على نحو ما سلف في موضعه من مبحث علم اللغة . وكانت النباتات ، بأسمائها ومُسمَّياتها ، تَشْغل حيزاً كبيراً من ألفاظ اللغة ، فدُونت معها ، وحُفظت في دواوين الشعر .

حيث قام علماء اللغة منذ ذلك الوقت بجمع المفردات النباتية ضمن المعاجم اللغوية ، ثم أفردت بمؤلفات خاصة ، أو أبواب خاصة في مؤلفات علماء اللغة ، والأدب .

ويُعتبد **أبو زيد سعيد بن عبد الملك بن قريب الأصمعي** (ت ٢١٦هـ/٨٣١م) أول من أفرد النبات بكتاب خاص أطلق عليه اسم : « كتاب النبات » [١] ، ثم توالى بعد ذلك ظهور المؤلفات التي تتمحور حول النبات من الناحية اللغوية خلال القرنين : الثالث ، والرابع الهجريين/التاسع ، والعاشر الميلاديين ، فصنف **أبو يوسف يعقوب ابن إسحاق المعروف بابن السكت** (ت ٢٤٤هـ/٨٥٨م) كتاب « النبات والشجر » [٢] ، في حين صنف **أبو جعفر محمد بن حبيب** (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م) كتاب « النبات » [٣] ، أما **أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني** (ت ٢٤٨هـ/٨٦٢م) فقد أسهم في هذا الميدان بمجموعة من المؤلفات ، منها : كتاب « النخل » [٤] ، وكتاب « الزرع » ، وكتاب « الكرم » ، وكتاب « النبات » ، وكتاب « العشب والبقل » [٥] . ووضع **أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ**

---

(١) مطبوع بتحقيق : عبد الله الغنيم ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

(٢) البغدادي : إيضاح المكنون ، (٣٤٢/٢) .

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١١٦/١٨) .

(٤) مطبوع بتحقيق : إبراهيم السامرائي ، دار اللواء : الرياض ، مؤسسة الرسالة : بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٩٢ .

(ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) كـتـاب « الزرع والنخل » [١] وكما كان **لأبي سعيد الحسن بن الحسين السكري** (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م) مشاركة في هذا الموضوع بكتاب « النبات » [٢] .

ويبقى كتاب « النبات » [٣] **لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري** (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) ، من أجلِّ كتب أبي حنيفة ، نظراً لأهميته في بابه ، فهو أول كتاب يتحدث عن النبات بوجه عام ؛ يصل إلينا فمن بين كُتب من سبقه في هذا الموضوع ، كما أنه استقصى ما جاء في اللغة من أسماء النبات ، من جهة اللغة ، أو من جهة الشرح العلمي لها ، بعد معاينة النبات في موطنه ، وما تسفر عنه ملاحظاته الميدانية ، فزاد الكثير مما هو موجود عند سابقيه ، فلم يترك شاردة ولا واردة إلا وأثبتها في مصنفه ، حتى فاق به من تقدمه من علماء اللغة ، والباحثين في النبات [٤] . الأمر الذي أصبح معه كتابه هذا ؛ العمدة والحجة لجميع من جاء بعدة [٥] ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩٣ .

(٢) البغدادي : هدية العارفين ، (٢٦٧/١) .

(٣) طبع منه الجزء الثالث ، والنصف الأول من الجزء الخامس من أصل ستة أجزاء بتحقيق : برنهارد لفين ، دار فرانز شتاينر ، فيسبادن (ألمانيا الإتحادية) ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م . وقامت دار القلم ببيروت بإعادة طباعة الكتاب عن هذه النسخة .

(٤) أحمد عيسى : تاريخ النبات عند العرب ، ص ٥٢ .

(٥) ومما يدل على ذلك ، ما جاء في لسان العرب (٣٧٩/١١) لابن منظور في كلمة « صَعْقُل » على لسان ابن بري في قوله : ((أما الصُّعْقُول لضَرْب من الكَمْأة فليس بمعروف ، ولو كان معروفاً لذكره أبو حنيفة في كتاب النبات)) .

ونقل عن هذا الكتاب العديد من علماء اللغة والصيدلة في كتبهم المشهورة ، فقد نقل عنه ابن دريد في الجمهرة ، والجوهري في الصحاح ، وابن سيدة في المحكم ، والمخصص ، وابن منظور في لسان العرب ، والفيروز آبادي في القاموس المحيط ، والزبيدي في تاج العروس ، وابن البيطار في الجامع لمفردات الأدوية . ويذكر أحمد عيسى : أن ابن البيطار نقل عن كتاب أبي حنيفة نحو (١٣٠ نوعاً) من النباتات في كتابه المذكور . تاريخ النبات عند العرب ، ص ٥٣ . عبد القادر زمامة : أبو حنيفة الدينوري والنبات ، مجلة عالم الكتب ، مج٧ ، ع٢ ، ص ١٥٩ ـ ١٦٣ .

كما استقى من كتاب أبي حنيفة ، البيروني في كتابه « الصيدنة في الطب » ، والغافقي في كتابه « الجامع في الطب » . انظر عن هذين الكتابين : محمد البابا : مصادر الأدوية المفردة أو العقاقير في الطب العربي ، أبحاث المؤتمر السنوي الثاني للجمعية السورية لتاريخ العلوم ، ص ١٧٨ .

إضافة إلى عناية فئة من العلماء بهذا الكتاب شرحاً ، واختصاراً [١] .

ومن خلال ما جاء به كتابه هذا ، فإنه يمكن القول : بأن أبا حنيفة الدينوري كان نباتياً أكثر منه صيدلانياً ، وذلك لتركيزه على وصف النبات دون إشارة إلى الفوائد الطبية إلا في القليل النادر ، ثم إن أبا حنيفة كان يستشهد على آرائه ، ومعلوماته النباتية بما جاء عن أهل اللغة ، والشعر فقط ، ولا نجده يعتمد على أي مصدر غير عربي في الجزء المنشور من كتابه [٢] .

وممن صنَّف في النبات من أهل اللغة ، سوى من ذكر ، **أبو طالب المفضل بن سلمة** (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) ، حيث صنف كتاباً بعنوان : « الزرع والنبات والنخل وأنواع الشجر » [٣] . وهناك **أبو موسى سليمان بن محمد البغدادي المعروف بالحامض** (ت ٣٠٥هـ/٩١٧م) ، الذي أسهم في هذا الباب بكتاب « النبات » [٤] . أما **أبو بكر محمد بن الحسن المعروف بابن دريد** (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م) فقد ضمَّن معجمه « الجمهرة في اللغة » الكثير من أسماء النبات ، وأوصافها ، وخواصها [٥] . ونجد **أبا عبد الله محمد بن أحمد البصري الكاتب المعروف بالمفجع** (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م) يؤلف كتاباً بعنوان « الشجر والنبات » [٦] .

---

(١) قام أبو مروان عبد الملك بن سراج (ت ٤٨٩هـ/١٠٨٦م) بشرح هذا الكتاب ، وكذلك فعل أبو عبد الله محمد بن المالقي (ت بعد ٥٢٠هـ/١١٢٦م) . المقري : نفح الطيب ، (٤/٣٦٧) .
ومن اختصر كتاب « النبات » لأبي حنيفة ، موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي المعروف بابن نقطة (ت ٦٢٩هـ/١٢٣٢م) . حاجي خليفة : كشف الظنون ، (٢/١٤٦٦) .
وعن أهمية كتاب أبي حنيفة هذا ، انظر بشيء من التوسع : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٤/٥٠٣ ـ ٥٠٨) .

(٢) عبد الحليم نصر : تاريخ العلم ، ص ٧٥ ، ١٢٠ ، ١٩١ ـ ١٩٢ . علي الدفاع : إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات ، ص ٥٧ ، ٦١ ـ ٦٣ .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ١١٦ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٩/٦١) .

(٥) يمكن الرجوع إلى كتاب « الجمهرة » وتصفحة للبحث عن ذلك ، وهي كثيرة جداً .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ١٣٣ .

ويمكن القول : أن كتب النبات التي خلّفها علماء اللغة ، والأدب ذات فائدة كبيرة بالنسبة لعلم العقاقير ، لأنها تضع وصفاً جيداً لبعض النباتات النامية في البقاع التي انتشر فيها العرب ، كما تُبين مكان انتشارها أحياناً .

غير أن اللغويين لم يَحرِصوا على ذكر التأثير الدوائي ، والاستعمال للأعشاب ، والأشجار التي قاموا بوصفها ، لكنهم حرصوا على ذكر أسمائها المختلفة ، مستشهدين بأقوال من سبقهم ، ومعاصرين لهم من الأعراب [١] ، والأشعار ، ومستندين في كثير مما يذكرونه على دقة الملاحظة ، والمعاينة ، والتتبع [٢] .

ولقد كانت العلاقة بين علم النبات من جهة ، وعلمي : الطب والصيدلة من جهة أخرى مختلطة ومتداخلة ، إذ أن تسعة أعشار العقاقير التي كانت تُستعمل في العلاج إنما هي نباتات ، أو خلاصات نباتية ، حتى كان الأطباء الصيادلة يعرفون بالعشّابين ، نظراً لمعرفتهم بخصائص الأعشاب [٣] .

وعندما نقرأ تعريب كلاً من : علم الصيدلة ، وعلم النبات ، نجد أن القاسم المشترك ، أو محورهما الأول هو : النبات . والاختلاف بينهما هو أن الأول (الصيدلة) باحث عن تمييز أحوالها في المقام الأول . أما الثاني (النبات) فهو باحث عن خواصها ، أي أن الأول أشبه للعمل ، والثاني أشبه للعلم ، وكل منهما مشترك في الآخر [٤] .

وسرى التداخل بين الصيدلة ، والنبات من جهة المفهوم ، إلى التدخل أيضاً بالنسبة للمؤلفات التي وضعت في كلا العلمين ، فالمصنفات التي أُدخلت في باب الصيدلة ، والتي تتناول قوى الأغذية المفردة النباتية ، والمركبة منها ، ومعرفة خواصها ، ودفع مضارها ، إنما هي كتب عالج مؤلفوها أيضاً موضوعات عن ماهية هذه النباتات بمختلف أنواعها ، وخصوصاً المتشابه منها .

---

(١) أبو حنيفة الدينوري : النبات ، ص ٥ ، ٧ ، ٨ ، ١٥ ، ١٦ ، ٣٥ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٦٥ ، ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ٢٠٠ ، وغيرها .

(٢) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٢٣٠ .

(٣) عبد الحليم نصر : تاريخ العلم ، ص ٧٥ .

(٤) طاش كبري زاده : مفتاح السعادة ، (٣٤٨/١) .

ويمكن القول : بأنه كانت لعلماء النبات في العراق معرفة بأجزاء النبات الطبية ، والطرق السليمة المتبعة في قطْفها ، وجنْيها ، ومكان ، وزمان حفْظها ، وتخْزينها ، حتى تحتفظ بقدراً عالياً من المادة الفاعلة التي تحتويها ، ولتُخرِج للصيادلة محتواها من المادة المستفادة في تحضير العقاقير بصورة كاملة [١] .

فبالإضافة إلى ما سبق ذكره من مصنفات في باب الصيدلة فيما يخص النبات بأنواعه ، واشكاله المختلفة ، نجد أن **أبا محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري** (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) ، يُخصِّص الباب الأخير من القسم الثالث في كتابه « عيون الأخبار » ويُعَنْوِنَهُ بـ كتاب « الطعام » [٢] . حيث يتناول فيه صنوف الأطعمة ، والأشربة التي تدخل المحاصيل الزراعية في صنعها ، وما يختص بآدابه ، وقوانينه الصحيه . وفي آخر الباب يتحدث ابن قُتَيْبة عن مضار الأطعمة ، ومنافعها [٣] ، ويأخذ باستعراض مختلف الفواكه ، والخضروات ، والبقول ، وغيرها .

ولم يكن الفصل بين النبات ، والفِلاحة [٤] أمراً راسخاً عند علماء العراق ، الذين صنَّفوا الكتب التي تتعلق بهذين الحقْلين منذ القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي [٥] ، وإن كان علم النبات قد برز كعلم مستقل من فروع العلوم الطبيعية بدءاً من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي . أما الفلاحة فلم تدخل العلوم الطبيعية إلا في زمن متأخر عن فترة نفوذ الأتراك .

ولو أردنا تقصي المواد المعينة على تقدم المعارف الخاصة بالفلاحة في العراق نجد أنها تنحصر في أمرين :

---

(١) فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٥٠١/٤) .

(٢) عيون الأخبار ، (١٩٧/٣/٢ ـ ٣٠١) .

(٣) المصدر السابق ، (٢٨١/٣/٢ ـ ٣٠١) .

(٤) علم الفلاحة : هو « معرفة أحوال النبات من حيث تنميته بالسقي ، والعلاج . وفائدته : معرفة حاله من نمو ، وغيره » . الأنصاري : اللؤلؤ النظيم ، الورقة : (٣ب) .

(٥) فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٤٥٥/٤) .

الأول : التراكمات الحضارية التي وُجِدت في العراق حتى ذلك العصر ، أي القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، والتي تضرب جذورها إلى عهود البابليين ، الذين برعوا في ميدان الزراعة ، والرَّيّ ، والأمم التي تعاقبت على أرض العراق ، وهو ما يظهر في تركيبته السكّانية ، كالساسانيين ، والأنباط ، وغيرهم . الأمر الذي عمّق الفلاحة في العراق ، وأضحت أساليبها ، وطرقها متقدمة على أيدي أهل الفلاحة ، وما اشتهار أرض السواد في العراق بهذا اللفظ إلا مصداقاً على ذلك .

الثاني : حركة الترجمة ، وتأثيرها الإيجابي على تقدم علم الفلاحة من خلال ترجمة علماء العراق ، ونَقَلَتِهِ لمصنفات الأمم السابقة ذات الباع الطويل في حقل الفلاحة ، كالروم ، والنبط ، والفرس ، إلى العربية ، واقتبسوا منها ، فحسّنوا أراضيهم ، وأدخلوا في الطب نباتات غير معروفة عند اليونايين ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذه الترجمات لم يكن تأثيرها يسري على أهل الفلاحة المِهَنيين ، فهذا أمر لم يكن ليحدث ، وإنما التأثير كان في حقل الدراسات العلمية لنباتي العراق ، وصيادلته ، وأطبائه ، فكان عوناً لهم فيما وضعوا من مصنفات تتحدث عن الفلاحة ، فكان التأثير على الفلاحة العراقية يبدأ من هنا .

ومن كتب الفلاحة المترجمة إلى العربية ، كتاب « الفلاحة النبَّطيَّة » لقُوثَامي (١) ، وقد ترجمه أبو بكر أحمد بن علي الكسْداني المعروف بابن وَحْشيَّة (ت ٢٩٦هـ/٩٠٩م) من السُّريانية القديمة إلى العربية (٢) ، ثم قام باختصار هذا الكتاب في مُؤَلّف حمل نفس العنوان « الفلاحة النبطية » (٣) . ويُعد هذا الكتاب من أهم كُتب الفلاحة ، إن لم يكن أهمها على الإطلاق ، وأسهم بشكل كبير في صياغة مفاهيم زراعية جديدة ، بما حواه من معلومات بالغة الأهمية عن أساليب الزراعة ، وأوقاتها ، والوسائل المتبعة في الحفاظ

---

(١) هناك عدة قضايا أثيرت حول هذا الكتاب ومؤلفه ، انظر في ذلك : أحمد عيسى : تاريخ النبات عند العرب ، ص ١٩٣ ـ ١٩٥ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٤٧٨/٤ ـ ٤٩٠) . محمد البابا : الآفات الزراعية وطرق مكافحتها في كتب الفلاحة العربية ، أبحاث المؤتمر السنوي العاشر لتاريخ العلوم عند العرب ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٤ .

(٢) أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٤٢٧ .

(٣) مطبوع بتحقيق : توفيق فهد ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، د . ت .

عليها من الآفات التي تُصيبها ، ونحو ذلك [١] ، خاصة وأنه شمل مادة جعلت منه أشبه بالموسوعة [٢] .

كما كان لكتاب « الفلاحة الرُّومية » [٣] لأقسطوس ، والذي قام قُسّطا بن لُوقا البَعْلَبَكي (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) بنقله من اللسان اليوناني إلى العربي ، أهمية بالغة في حقل الفِلاحة [٤] ، ولا يَقل قيمة علمية عن كتاب « الفلاحة النبطية » من حيث إفادته في جوانب لم يتطرق إليها الكتاب السابق [٥] .

وعلى الرغم من التقدم الحضاري الذي أحرزه العراق في ميدان الفلاحة ، ودوره كشريان مهم للاقتصاد في ذلك الوقت ، إلا أن جانب التأليف في هذا الحقل لم يكن يوازي ذلك التقدُّم ، وحتى المصادر المعتمدة لم تذكر على الأقل عناوين لمؤلفات يمكن من خلالها التنبؤ بالمدى الذي وصل إليه التأليف في هذا الجانب ، وربما أن ذلك عائداً ، إما إلى تقصير العلماء أنفسهم ، أو ضياع تلك المصادر ، وإن كان العامل الأول أرجح ، لأن المصادر لم تذكر ولو أسماء لمؤلفات وُضِعت في هذا الميدان ، حتى ولو لم تصل إلينا ، كما هو الحاصل في الميادين العلمية الأخرى .

---

(١) عن أهمية هذا الكتاب من الناحية الزراعية ، انظر : محمد البابا : الآفات الزراعية ، ص ٢٦٧ ـ ٢٨٤ . إبتسام فاتي : الأراضي ، أنواعها ، أوصافها ، إصلاحها في كتب الفلاحة ، أبحاث المؤتمر السنوي العاشر لتاريخ العلوم عند العرب ، ص ٣١١ ـ ٣٣٢ .

(٢) قام محمد البابا بإحصاء النباتات التي ورد ذكرها في هذا الكتاب ، وبلغ مجموعها : (٢٧٧ نوعا) ما بين نباتات ذات أزهار عطرية ، وأشجار ، وشجيرات تزيينية ، وأشجار مثمرة ، وأشجار غابات ، ونباتات زيتية ، وبقول يصنع منها الخبز ، وأعشاب طبية ، وبقول غذائية . مصادر الأدوية المفردة أو العقاقير في الطب العربي ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .

(٣) طبع في القاهرة ، د.د ، د.ط ، ١٢٩٣هـ .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١٤٤٧/٢) .

(٥) لقد سعى توفيق فهد لمعرفة مدى الارتباط بين هذين الكتابين ، فتبين أن كتاب « الفلاحة الرومية » هو مؤلف صغير في الزراعة ، أما كتاب « الفلاحة النبطية » فقد بدا كموسوعة في العلوم الزراعية النباتية . إبتسام فاتي : الأراضي ، أنواعها ، أوصافها ، إصلاحها في كتب الفلاحة ، ص ٣١١ .

وممن ألَّف في الفلاحة من علماء العراق في ذلك الوقت ، **أبو بكر ابن وحشية** ، حيث ذكرت له المصادر في هذا المجال : كتاب « الفلاحة الكبير » ، وكتاب « الفلاحة الصغير » [١] . كما قام ابن وحشية بانتقاء أسماء النباتات الطبية الموجودة في كتاب « الفلاحة النبطية » الذي ترجمه ، وجعلها على شكل كتاب وسمّاه « الفوائد المنتخبة من الأدوية الطبية المستخرجة من الفلاحة النبطية » ، واستقى من هذا الكتاب بعض علماء الأندلس ممن ألَّفوا في العقاقير ، كالشريف الإدريسي ، وغيره [٢] .

ولا تخلو بعض المصنفات التي وضعها علماء اللغة في النبات ، من معلومات تخص أمر الزراعة بأشكال مختلفة . فقد خصص أبو حنيفة الدِّيْنَوَري بابين من كتابه « النبات » للحديث عن الآفاق الزراعية ، ووصف الرعي والمراعي [٣]، وفي هذا الصدد يقول أبو حنيفة : ((قد أتيت بما حضرني ذكره في وصف الرعي والمراعي ، وما يعرض فيها من الآفات ، وحال السائمة فيها ، وما يعتريها من الأمراض عنها ، على ما استحسنت وضعه في هذا الكتاب ، وقد كنت أجزت أني مفرد لوصف الجرَاد ، وهي من أعظم آفات النبات باباً فأذكره الآن)) [٤] ، ثم يأخذ أبو حنيفة ببيان صفة الجرَاد ، والجنَادِب التي تصيب النبات .

كما لا تخلو بقية أبواب الكتاب ، وإن كان لغوياً في الأصل ، من معلومات تخصُّ الآفات الزراعية يأتي ذكرها في ثنايا الحديث دون الوقوف عندها .

ويوجد في كتاب « النَّخْل » لأبي حاتم السِّجِسْتَاني ، فوائد خاصة بالفلاحة ، عن كيفية تهيئة الأرض ، وما صفتها ، وكيف توضع فسائل النخل ، أو النواة ، ومتى يكون ذلك ، وما يتصل بالسقي ، وإعمار الأرض بالسَّماد وغيره ، وما يتصل بالآفات التي تعرض للنخلة ، ووقت الغرْس ، والإلقاح ، وحمل الثمر ، وعلاقة ذلك بالنجوم ، كطلوع نجم الشِّعْرَي ، ونحو ذلك ، مما يتصل بعلم الفلك وتطبيقاته في الحياة اليومية ، والعملية [٥] .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٤٨٦ . البغدادي : هدية العارفين ، (١/٥٥) .

(٢) محمد البابا : مصادر الأدوية المفردة أو العقاقير في الطب العربي ، ص ١٨٣ .

(٣) كتاب النبات ، ص ٣ ـ ٧٠ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٥) أبو حاتم السجستاني : كتاب النخل ، ص ١٥ ، ١٦ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٠٧ . ويبلغ مجموع المصطلحات الخاصة بالنخل ، وما يتصل بها في هذا الكتاب (٢٩٩ مصطلحاً) .

وكان النبات محل اهتمام بعض الرَّحَّالة العراقيين ، وأحد الجوانب المهمة التي حرصوا على تدوينها بالمشاهدة ، والمعاينة في مختلف البقاع والبلدان التي وطئتها أقدامهم . فهذا أحمد بن فَضْلان ، صاحب الرحلة المشهورة إلى بلاد الصَّقَالبة ، يُضمن رسالته التي كتبها عن هذه الرحلة ، ما شاهده منذ أن غادر بغداد ، من النباتات بمختلف أنواعها ، كالفواكه ، والأشجار ، والعصارات التي تُستخرج من سيقانها ، وأوصاف ذلك ، وخواصه ، ونحو ذلك ، مما شاهده في بلاد الصقالبة (١) .

---

(١) رسالة ابن فضلان ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

ثانيا : علم الحيوان :

يمكن القول بأن علم الحيوان [١] شبيه بعلم النبات من حيث تشعُّب الموارد التي ينبغي التطرق والبحث فيها ، بهدف تكوين صورة واضحة لمستوى النشاط العلمي في هذا الفرع من العلوم الطبيعية . ويمكن حصر هذه الموارد في جانبين رئيسيين : **الأول** : جانب علمي ، **والثاني** : جانب اجتماعي .

أولاً : الجانب العلمي :

ويُقصد به : الدراسات ، كلية أو جزئية ، المتعلقة بالحيوان من مختلف الجوانب التي قام بها علماء العراق ، بمختلف اختصاصاتهم العلمية . ويمكن تقسيم هذه الدراسات بحسب الميادين العلمية المنتمية لها على النحو التالي :

أ ـــ الدراسات اللغوية :

حيث قام أهل اللغة بتصنيف كتب على هيئة معاجم لغوية خلال فترة جمع اللغة . ومن الموضوعات التي تناولوها في مصنافاتهم تلك : الحيوان بأنواعه المختلفة . فقد صنف **أبو يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت** (ت ٢٤٤هـ/٨٥٨م) كتاب « الإبل » ، وكتاب « الوحوش » ، وكتاب « الحشرات » [٢] . أما **أبو جعفر محمد بن حبيب** (٢٤٥هـ/٨٥٩م) فأسهم بكتاب « الخيل » [٣] . ووضع **أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني** (ت ٢٤٨هـ/٨٦٢م) كُتباً عدة في هذا الموضوع ، منها : كتاب « الطير » ، وكتاب « الحشرات » ، وكتاب « الإبل » ، وكتاب « النحل والعسل » [٤] ، وكتاب

---

(١) علم الحيوان : « هو علم باحث عن أحوال خواص أنواع الحيوانات ، وعجائبها ، ومنافعها ، ومضارها . وموضوعه : جنس الحيوان البري ، والبحري ، والماشي ، والزاحف ، والطائر ، وغير ذلك . والغرض منه : التداوي ، والانتفاع بالحيوانات والاحتماء عن مضارها ، والوقوف على عجائب أحوالها ، وغرائب أفعالها ». حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١/٦٩٥) .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ١١٥ .

(٣) البغدادي : هدية العارفين ، (٢/١٤) .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٢/٤٣٢ ، ٤٣٣) .

« الجراد » [١] . **ولأبي محلم محمد بن سعد الشيباني** (ت ٢٤٨هـ/٨٦٢م) ، كتاب « الخيل » [٢] . وجاءت مشاركة **أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ** (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) في هذا الميدان بمؤلفات عدة ، منها : كتاب « الأسد والذئب » ، وكتاب « البغال » [٣] ، وكتاب « الحيوان » [٤] ، وسوف يأتي الحديث عنه بعد قليل . أما **أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي** (ت ٢٥٧هـ/٨٧١م) ، فقد طرق هذا الموضوع من خلال كتابين ، هما : كتاب « الإبل » ، وكتاب « الخيل » [٥] . في حين صنَّف **أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري** (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) في هذا الحقل العلمي مصنفات : منها : كتاب « الفرس » ، ستة وأربعون باباً ، وكتاب « الخيل » [٦] ، وكتاب « الجراثيم » [٧] . كما صنف **أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري** (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م) كتاب « الوحوش » ، وأثنى النديم على هذا الكتاب ومؤلفه ، ووصفه بالجودة [٨] . **ولأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر البغدادي المعروف بطيفور** (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) كتاب « الخيل » [٩] . أما **أبو موسى سليمان بن محمد الحامض** (ت ٣٠٥هـ/٩١٧م) فقد صنف في هذا المجال كتاب « الوحوش » ، رأى النديم نسخة من هذا الكتاب بخط زكريا ابن أخت أبو موسى [١٠] . وجاء **إسهام أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي** (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) في التأليف المعجمي الخاص بالحيوان عبر كتابه « الخيل » [١١] . ومن علماء اللغة والنحو المشهورين الذين ألَّفوا في هذا الموضوع ،

---

(١) البغدادي : إيضاح المكنون ، (٢/٢٨٥) .

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون ، (٢/١٤١٧) .

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٦/١٠٧ ، ١٠٨) .

(٤) مطبوع بتحقيق : عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م .

(٥) القفطي : إنباه الرواة ، (٢/٣٧١) .

(٦) النديم : الفهرست : ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٧) مخطوط بخزانة الظاهرية في دمشق ، برقم (٥٩ لغة/مجاميع) . ابن قتيبة : عيون الأخبار ، (٢/٣/٣٧) .

(٨) النديم : الفهرست ، ص ١٢٥ .

(٩) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (٣/٩١) .

(١٠) النديم : الفهرست ، ص ١٢٦ .

(١١) البغدادي : هدية العارفين ، (٢/٣٠) .

أبو الحسن علي بن سليمان المعروف بالأخفش الأصغر (ت ٣١٥هـ/٩٢٧م) بكتاب « الجراد » [١] . وهناك **أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد** (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م) ، أحد العلماء المبرِّزين في اللغة على وقته ، وكانت له بصمة في هذا الحقل العلمي من خلال كتابين هما : كتاب « الخيل الكبير » ، وكتاب « الخيل الصغير » [٢] .

وهذه المصنفات ، لم تُؤَلَّف بقصد علمي بحت ، وإنما أُريد بها أن تكون بمثابة معاجم لغوية خاصة بما أُلِّفت له ، فهي لا تبحث فيما يبحث فيه علم الحيوان ، وإنما تُعنى في المقام الأول باللغة . وعلى الرغم من ذلك ، فلم تخلو من معلومات استطرادية عن جانب من جوانب الحيوان من ناحية علمية صرفة [٣] .

وتمثل هذه الدراسات مذهب العرب اللغويين في علم الحيوان ، إذ لا نجد فيها أية تأثيرات خارجية للثقافات الأجنبية ، وبخاصة اليونانية (المترجمة) ، وإنما كان الاعتماد على الشعر ، وما جرى على لسان العرب الأقحاح .

ب ـــ الدراسات الطبية ، والصيدلانية :

كان للحيوان وأعضائه المختلفة منافع طبية ودوائية كبيرة ، ففي باب التشريح ، رأينا أطباء العراق ، كيوحنا بن ماسويه ، وثابت بن قرة ، وأبو بكر الرازي ، يستعينون بتشريح جثث الحيوانات ، وخاصة القريبة في تكوينها من جسم الإنسان من حيث الشكل الوظيفي الداخلي ، وكيفية عمل الأعضاء قُبيل وفات الحيوان .

وفي ذلك كله يكون قد تراكمت معلومات ذات قيمة عالية عن جسم الحيوان من جوانب عدة .

وفيما يتعلق بالصيدلة ، فإن العقاقير والأدوية المركبة التي استخدمت في علاج الأمراض من قبِل أطباء العراق ، تأتي أعضاء الحيوان كأحد الأدوية المفردة ، أو المركبة سواء فيما بينها ، أبو بخلطها مع النباتات ، والمعادن .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ١٣٣ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٣٢٤/٤) .

(٣) الجاحظ : الحيوان ، (١٦/١) مقدمة المحقق .

ونجد في المصنفات الطبية نماذج عديدة من الأدوية الحيوانية ، أو التي يدخل في تركيبها عضو من أعضاء الحيوان ، أو منتجاته ، كالبيض ، واللبن ، والدماغ ، والبول ، والشعر ، والمرارة ، والدم ، والقرون ، وغير ذلك . وهي مبثوثة في كتب الطب والصيدلة . إما في ثنايا الكتاب [١] ، أو أفردت في أبواب مستقلة ، تبحث في منافعها ، أو دفع مضارها ، أبو بهما معاً .

وفي هذه الدراسات التي حوت معلومات عن الحيوان ، وخصائصه ، وجوانب معلوماتية مختلفة عنه ، نجد أن أصحابها قد استعانوا بالتراث الطبي اليوناني المترجم إلى العربية [٢] . وكذلك ، وهو الأهم ، التجربة العملية للكثير من الحقائق العلمية التي تناولوها في مصنفاتهم ، وهذا يظهر بوضوح عند الرازي ، كما سلف معنا .

ج ــ الدراسات المتعلقة بعلم النبات ، والفلاحة :

لم تخلو كتب النبات والفلاحة من معلومات جيدة عن أصناف من الحيوانات ، لا سيما الحشرات والديدان التي تقتات على النبات ، وتلك التي تُفسد المزروعات ، وأسلوب مكافحتها ، ويأتي في سياق حديث مؤلفي هذه الكتب ، فوائد علمية تتعلق بأوصاف تلك الحشرة ، وطريقة تكاثرها ، وما هية غذائها من أنواع النباتات ، ونحو ذلك [٣] .

---

(١) ككتاب « العشر مقالات في العين » لحنين بن إسحاق ، وكتاب « الذخيرة في علم الطب » لثابت بن قرة ، وكتاب « تقاسيم العلل » ، وكتاب « المرشد أو الفصول » ، وكتاب « المنصوري » وهي للرازي ، جميع هذه الكتب تتضمن معلومات هنا وهناك عن هذا الأمر .

(٢) انظر مبحث الترجمة ، والمصنفات التي قام بها كل واحد من النقلة بنقلها إلى العربية في هذا الخصوص .

(٣) أبو حنيفة الدينوري : كتاب النبات ، ص ٣ ــ ٥٢ . حيث يتحدث أبو حنيفة عن آفات الحرث والنخل ، كالجرذ ، والفأر ، وصفاتها ، والفرق بينها . والديدان التي تَعْلَق بأجسام الإبل ، كالقرَاد ، والذباب ، وصفات كل واحد منها ، ووقت ظهورها في المراعي . كما يتطرق أبو حنيفة (ص ٥٣ ــ ٧٠) إلى الحديث عن صفة الجراد ، والجنادِب ، ومراحل نموها ، مع وصف كامل لأشكالها في كل مرحلة عمرية ، وأسمائها عند العرب . ويخصص أبو حنيفة جزءاً في كتابه هذا (ص ٢٥٧ ــ ٢٩٤) للحديث عن العسل ، والنحل . حيث يستعرض في حديثه عن هذا الموضوع ، حياة النحل ، والدبابير ، وأنواعها ، وطريقة معيشتها ، وشكل أجسامها ، وأجناسها ، والبيئات التي تتواجد فيها ، ومواصفات تلك البيئات ، والآفات التي يتعرّض لها النحل ، ويتلف من قبل بعض الحيوانات الآكلة له ، كالضفادع ، والدبابير ، والحشرات الخاطفة ، وغيرها . ويورد أبو حنيفة كل ذلك مدعّماً بالتجربة ، والمشاهدة ، وما جاء عن العرب شعراً ، ورواية ، بصورة تجعلنا أمام عالم مُجرب في علم الحيوان .

د ـــ كتب الرحلات :

يشكل عنصر الحيوان أحد الجوانب التي لم يفتأ الرَّحَّالة العرب ، عموماً ، من ذكرها ، والتركيز عليها ، خاصة تلك التي توجد في البقاع البعيدة عن ديار الإسلام ، ومحاولتهم جذب القاريء لمدوناتهم من خلال الوصف الخُرافي لبعض تلك الحيوانات [١] ، وحجمها ، وأفاعليها في تلك البلدان البعيدة . وربما لبُعدها عن أهل البلاد الإسلامية ، استغل بعض الرَّحَّالة هذا الأمر في إيراد أموراً عن تلك الحيوانات بشكل لا يتفق ، في كثير من الأحيان ، مع المنطق والعقل .

ونجد أحمد بن فضلان في رسالته المشهورة ، وفي مواضع عدة منها ، يصف ما شاهده من حيوانات البلدان التي مرَّ بها في رحلته ، وما صاحب ذلك من أمور ، ومواقف تتعلق بالحيوان [٢] .

هـ ـــ الدراسات المستقلة :

ويقصد بها ، تلك المؤلفات التي كان محورها الرئيسي الحيوان ، أو تلك التي تناولت في بعض أبوابها هذا المحور . فلم تقتصر هذه الدراسات على دراسة الحيوان ، وبيئته ، وصفاته ، وخصائصه فقط ، بل تجاوزته إلى دراسة سلوكه ، وطريقة معيشته ، وردود أفعاله ، وطريقة تعامله مع ما يعترضه من عقبات ، ونحو ذلك .

ففي كتاب « فردوس الحكمة » نجد **علي بن ربن الطبري** ، يبحث عن جوانب عدة تتعلق بالحيوان في المقالة الرابعة من الباب السادس [٣] . إذ يتعرض إلى منافع أعضاء (٣٩ نوعاً) من الحيوان ، بمختلف أنواعه ، وطوائفه ، وفي ثنايا حديثه تظهر معلومات تتعلق بتشريح الحيوان ، وصفات أعضائه ، وخصائصها ، ومنافعها أيضاً . ويستعين الطبري في بعض معلوماته بكتب اليونان الخاصة بالصيدلة ، وعلم الحيوان فنراه يتحدث عن

---

(١) انظر « رسالة ابن فضلان » ، على سبيل المثال : ص ٨٣ ، ١٤١ ــ ١٤٢ . وهو أمر لم تخلو منه جميع كتب الرحالة المسلمين على شاكلة : ابن فضلان ، والقزويني ، وابن بطوطة ، والمسعودي ، وغيرهم .

(٢) رسالة ابن فضلان ، ص ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٣) فردوس الحكمة ، ص ٤٢٠ ــ ٤٤٣ .

منافع أعضاء حيوانات لم تكن تعيش في بيئة أرض العرب ، أو لم تُستخدم من قِبل أهلها ، كالدب ، والخنزير ، والفيل ، وغيرها (١) .

ونجد أن ابن رَبَّن الطبري يربط بين تصرفات بعض الحيوانات وسلوكها ، وبين الظواهر الجوية التي يُستدل بها على قرب وقوعها من خلال تلك التصرفات ، ومن ذلك ، إذا رأيت الغِربان تطير بسرعة ونشاط ، وتتقلب في الهواء ، ورأيت الطير يخرج من بيت الشجر ، أو رأيت الدجاج يُكثر الاحتكاك في التراب ، فإن ذلك مما يدل على المطر والتَّبَرد ، على حد قوله ، ونحو ذلك (٢) .

كما يُظهر ابن رَبَّن الطبري اهتماماً خاصاً بطبائع الحيوان التي أودعها الخالق سبحانه وتعالى فيها ، وسلوكه ، وردود أفعاله إزاء بعض الأشياء التي تعرض له في بيئته التي يعيش فيها (٣) .

ويصرف ابن رَبَّن جزءاً من عنايته بالحيوان إلى موضوع توالد الحيوانات وتكاثرها ، ويرى أن توالد الحيوانات على أربعة أصناف (٤) :

١ ـ إرحامي . كالإبل ، والبقر ، والغنم ، والغزلان ، وهو ما يسمى بالثديات .

٢ ـ بيضي . كالطير ، والسمك .

٣ ـ نبتي وأرضي ، كالذراريح ، وديدان الأرض .

٤ ـ أوساخي . الذي يتولد من أوساخ البدن ، كالقُمَّل ، والصِّيبان (٥) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٢٠ ـ ٥٢١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٣٢ ـ ٥٣٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٦٠ ـ ٥٦١ .

(٥) الثابت علمياً أن القُمَّل يتكاثر بالبيض ، والصِّيبان هم صغار القُمَّل . وتناسبه البيئة الوسخة سواء في جسم الإنسان كشعر الرأس ، أو في الملابس ، ونحو ذلك . محمد السبع : شذرات مضيئة عن علم الحياة الحيوانية ، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

كما يتناول الطبري في كتابه هذا ، الحديث عن القوى الفاعلة للحوم بعض الحيوانات ، كالسمك ، والأرانب ، والعجول ، والماعز ، والجدي . أو أحد أجزائها ، كالكبد ، والكلية ، واللسان ، والطحال ، والجلود ، وفعلها في جسم الإنسان . أو منتجاتها ، كالأجبان ، والألبان ، وغيرها [١] .

ويبقى **أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ** أبرز علماء عصره في علم الحيوان . بفضل جهوده الكبيرة في هذا المجال من العلوم الطبيعية .

وأودع الجاحظ ما توصَّل إليه من معلومات فيما يتعلق بعلم الحيوان في كتاب مستقل وَسَمه بكتاب « الحيوان » ، والذي يُعد أول كتاب عربي جامع في علم الحيوان [٢] .

ويُقسِّم الجاحظ الحيوان إلى أربعة أقسام : شيء يمشي ، وشيء يطير ، وشيء يسبح ، وشيء يَنْساح (يمشي على بطنه) . ويرى أن كل طائر يمشي ، وليس الذي يمشي ولا يطير يسمى طائراً [٣] .

ثم يقدِّم الجاحظ ، من خلال أجزاء كتابه السبعة ، معلومات غزيرة جداً عن الحيوان ، بمختلف أنواعه ، من حيث تسميته ، وبيان جنسه ، وأنواعه ، وأشباهه ، وأعضائه ، وألوانه ، وطعامه ، وشرابه ، وسلاحه ، وصوته ، وصنعته ، ونفعه ، وضرره ، وتناسله ، وطباعه ، وتعليمه ، وأمراضه ، وعمره ، وبيان موطنه ، وأثر الطبيعة فيه ، وعلاقته بغيره من الحيوان [٤] .

أما المصادر التي اعتمد عليها في بناء مادة كتابه ، فهي [٥] :

١ ـ القرآن الكريم .

---

(١) فردوس الحكمة ، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٩ .

(٢) الجاحظ : الحيوان ، (١/ ١٤) مقدمة المحقق .

(٣) المصدر السابق ، (١/ ٢٧) .

(٤) المصدر السابق ، (٧/ ٢٦٧) .

(٥) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ .

٢ ـ الحديث الشريف .

٣ ـ الشعر العربي .

٤ ـ كُتب اليونان عن الحيوان (١) .

٥ ـ التجربة الذاتية ، والمشاهدة الحيَّة ، والاستفسار (٢) .

وكان الجاحظ يستعين بأصحاب الحيوانات ، ويحمل إليهم استفساراته ، وما يريد أن يستفهمه منهم ، فتراه يقول في مواضع من كتابه : قال صاحب الحمام ، أو قال صاحب الديك ، أو قال لي صاحب الطيور ، ونحو ذلك .

إن المعلومات التي أوردها الجاحظ في كتابه عن الحيوان كثيرة ، ومتشعبة ودقيقة ، إلى درجة أنها تحتاج إلى موضوع مستقل ، وتدل في الوقت نفسه على سعة علمه ، ومشاركته الفاعلة في هذا الميدان من العلوم الطبيعية .

واعتماد الجاحظ وبشكل رئيسي على التجربة ، والمشاهدة الحيَّة ، والملاحظة الدقيقة لكل فرضياته العلمية ، جعلت البعض (٣) يَعدُّه أول عالم من علماء الحيوان التجريبين ، والبعض الآخر يذهب إلى معنى أدق ، ويعتبره رائد علم « الغرائز والسلوك » في عالم الحيوان (٤) .

ويَعقد **ابن قتيبة الدينوري** (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) في كتابه « عيون الأخبار » أبواباً للحديث عن الحيوانات ، وطبائعها ، وشذرات من المعلومات المتعلقة بتكاثرها ، وسلوكها ، والطريقة المثلى للتعامل معها ، ونحو ذلك (٥) .

---

(١) استشهد الجاحظ في كثير من مواضع كتابه بآراء علماء اليونان . فقد استشهد بأرسطاطاليس في : (٦٢ موضعاً) . وبآراء جالينوس في : (٧ مواضع) . انظر : الجاحظ : الحيوان ، (١/١٨٥) ، (٢/٥٢ ، ٣١٩) ، (٣/٥٣٣ ، ٥٣٤) ، (٥/٥٠٢ ـ ٥٠٣ ، ٥٤١) . طه الحاجري : تخريج نصوص أرسطوطاليس من كتاب الحيوان للجاحظ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة إسكندرية ، ع٣ ، ص ١٥ ـ ٣٥ .

(٢) الجاحظ : الحيوان ، (٢/٢٥١ ـ ٢٥٢ ، ٣١٩) ، (٣/١٤٩ ـ ١٥٤ ، ٥٣٠) ، (٤/٥ ـ ٧ ، ٣٦) ، (٧/٣٥) .

(٣) أحمد الحسيني : كتاب الحيوان للجاحظ ، سلسلة تراث الإنسانية ، مج٢ ، ج١ ، ص ٢٢٣ .

(٤) محمد السبع : شذرات مضيئة عن علم الحياة الحيوانية ، ص ٣٢٦ .

(٥) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، (١/١/١٥٣ ـ ١٦٣) ، (١/٢/٧٠ ـ ١٠٥) .

ومن العلماء الذين أسهموا في حقل علم الحيوان ، **قسطا بن لوقا البعلبكي** (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) ، وذلك من خلال مصنفاته التي وضعها في هذا المضمار ، ومنها : كتاب « الحيوان الناطق » ، كتاب « في الفرق بين الحيوان الناطق وغير الناطق » (١) .

ثانياً : الجانب الاجتماعي :

لقد كان للصيد عند العرب في جاهليتهم أهمية كبيرة ، فرضتها الحاجة الاقتصادية لفئة من الناس ، ثم لم يلبث أن تطور الأمر إلى متعة عند من يجدون الكفاية المعيشية . ثم تعايشت الغايتان : طلب المتعة ، وسد الحاجة الاقتصادية (المعيشية) في ممارسة الصيد في العصور الإسلامية ، إلا أنه سرعان ما غلبت الأولى على الثانية ، خلال تلك الفترة ، دون أن تقضي عليها. وما أخبار المجتمع العباسي ، بكافة طبقاته العالية والميسورة، في وَلَعه بهذه الهواية إلا مصداقاً لذلك ، نتيجةً للتطور الحضاري في الوضع العام ، إلى درجة ما لبث معها أن تطورت هذه الهواية إلى علم أطلق عليه : « **البيزرة** » (٢) . وثمة ما يقوي الترجيح بأن التأليف في هذا العلم قد بدأ في أواخر العصر الأموي ، وأوائل العصر العباسي (٣) .

وكان علم البَيْزَرَة مزدهراً في العراق ، في ذلك الوقت ، بفضل التشجيع المستمر من قِبل خلفاء بني العباس وأمرائهم ، الذين شغفوا بهذه الهواية ، وبرع الكثير منهم فيها ، كالمتوكل ، والمعتضد ، وابن المعتز ، وغيرهم (٤) . وكان لهم رجال يختصون بخدمة طيور الصيد ، وتدريبها ، وتغذيتها ، والاهتمام بها من جميع النواحي (٥) . ولذا خصَّص الخلفاء والأمراء النفقات ، والرواتب الثابتة للقائمين عليها ، وما يحتاجون إليه في القيام بمهامهم .

---

(١) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٧٦ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٣٠ .

(٢) البَيْزَرَة : « علم يُبحث فيه عن أحوال الجوارح من حيث حفظ صحتها ، وإزالة مرضها ، ومعرفة العلامات الدالة على قوتها في الصيد ، وضعفها فيه » . حاجي خليفة : كشف الظنون ، (٢٦٥/١) .

(٣) موفق فنصه : التعريف بعلم البيزرة عند العرب ، أبحاث المؤتمر السنوي العاشر ، ص ١٥٤ . إبراهيم الهدلق : البيزرة عند العرب ، مجلة الفيصل ، ع ٢٧٦ ، ١٤٢٠هـ ، ص ٦ .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ١٨٦ ، ٢١١ .

(٥) كان القائم بهذه الوظيفة يعرف باسم « البَازْيَار » ، وجمعها « بَازْيَارِيِّين » . المرتضى : تاج العروس ، (١٦٨/١) .

فلقد بلغت أرزاق أصحاب الصيد في عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢ - ٩٠٢م) ((من البَازْيَاريِّين ، والفهَّادين ، والكلاَّبين ، والصقَّارين ، والصيَّادين ، وثمن الطعام ، والعلاج للجوارح ، وأصحاب الحِرَاب ، والسبَّاعين ، وأصحاب الشبَاك ، واللبَّابيد ، والفحَّالين ، ومن معهم من الأعوان ، والحمَّالين ، وأصحاب المرور ، وغيرهم في كل شهر .. ألفين وخمسمائة دينار)) [١] .

ولم يقتصر الشغف بالبَيْزَرَة عند أهل العراق على خلفائهم وأمرائهم ، بل شاركهم في ذلك بعض الوزراء والأعيان ، وبعضهم أَلَّف في هذا العلم .

إن بروز هذا العلم في العراق ، خلال تلك الفترة ، سرعان ما لفت أنظار المثقفين العراقيين ، فكانت البَيْزَرَة وفروعها ، مجالاً خصباً للتأليف العلمي ، الذي يتناول فيه أصحاب كتب البَيْزَرَة الأسس العلمية التي ينبغي الأخذ بها في ممارسة هذا النشاط ، سواء من قِبَل الدارسين أو الممارسين فعلاً لهواية الصيد ، أو القائمين على حيوانات الصيد . فنرى **الوزير الفتح بن خاقان** (ت ٢٤٧هـ/٨٦١م) يصنِّف كتاب « الصيد والجوارح » [٢] ، وكذلك **أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب المعروف بابن طيفور** (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) ، الأديب والمؤرخ ، يسهم في هذا المجال بكتاب « الطَّرْد » [٣] . وأيضاً الأديب والطبائعي ، **أبو العباس أحمد بن محمد الطيب السرخسي** (ت ٢٨٦هـ/٨٩٩م) ، الذي جاءت مشاركته بكتاب « الجوارح والصيد بها » [٤] . أما الأمير ، وأحد أعلام الشعر في وقته ، عبد الله بن المعتز (٢٩٦هـ/٩٠٨م) فله سهم في هذا الميدان والمتمثل في كتابه « الجوارح والصيد » [٥] . وصنف ابن أخي حِزَام للخليفة المتوكل كتاب « البَيْطَرة » [٦] .

---

(١) الصابيء : الوزراء ، ص ١٥ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، (١٧٥/١٦) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٢٣٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٢٢ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٧٧/٣) .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ٤٩٠ .

ثالثا : علم الكيمياء والمعادن :

اكتنف علم الكيمياء [١] الغموض في نشأته [٢] ، وأصل مصطلحه [٣] . وحتى في ممارسته وتعاطيه ، كان أصحابه ينسجون حوله ستاراً من السرِّية والكتمان ، وهو ما يتضح في وصية الجِلْدَكي (ت ٧٦٥هـ/١٣٦٣م) لأحد تلاميذه كما جاء في كتابه « شرح المكتسب » ، حيث قال : ((ولتكن من أهل العلم على حذر ممن يأخذه عنك . وأعلم أنه من المفترض علينا كتمان هذا العلم ، وتحريم إذاعته لغير المستحق من بني نوعنا ، وأن لا نكتمه عن أهله ، لأن وضع الأشياء في مجالها من الأمور الواجبة ، ولأن في إذاعته خراب العالم ، وفي كتمانه عن أهله تضييعاً لهم)) [٤] ، ولذا كانت الرَّمزية تُغلِّف مصطلحاتهم [٥] .

وتفسير ذلك الأمر يتطلب الإشارة أولاً إلى سيطرة النظرية القائة بإمكانية تحويل المعادن الرخيصة ، كالرصاص ، والقصدير ، والنحاس إلى معادن ثمينه ، كالذهب ، والفضة باستخدام « الإكْسِير » [٦] ، والذي يمكن من خلاله تحقيق هذه النظرية ، بإذابة تلك المعادن

---

(١) علم الكيمياء : « هو علم يُراد به سلب الجواهر المعدنية خواصها ، وإفادتها خواصاً لم تكن لها » . حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١٥٢٦/٢) .

(٢) انظر عن هذا الموضوع : فؤاد سزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ، ص ٥٣ ـ ٦٦ . جابر الشكري : قصة الكيمياء ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج٣٨ ، ج٢ ، ٣ ، كامل حمود : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٥٩.

(٣) بحث اللغويون ، والمؤرخون ، والكيميائيون في أصل كلمة « كيمياء » واشتقاقها . فمنهم من نقل عمن سبقه في الرأي من دون إضافة أو إبداء رأي ، ومنهم من أخذ الكلمة بمعناها اللغوي البحت ، ومنهم من درسها دراسة مستفيضة ، وقال رأية فيها بوضوح . ولقد ناقش جابر الشكري في بحثه (قصة الكيمياء ، ص ٢٤٥ ـ ٢٥٣) هذا الأمر بوضوح مفنداً الآراء ، ومناقشاً لها ، وما وجه الصواب فيها .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١٥٣٠/٢) . كما يتضح ذلك أيضاً في تعريف الخوارزمي للكيمياء بقوله : ((إسم هذه الصناعة الكيمياء ، وهو عربي ، واشتقاقه من كَمَى يكْمي ، إذا ستر وأخفى ، ويقال : كَمى الشهادة يكْميها إذا كتمها)) . مفاتيح العلوم ، ص ٢٢٥ .

(٥) كان يُسموا الإكسير « بالروح » ، والمعدن المراد إذابته يُسمونه « الجسد » .ابن خلدون : المقدمة ، ص٤٣٤ .

(٦) الإكسير : « هو الدواء الذي إذا طُبخ به الجَسد (النحاس ، والحديد ، والرصاص ، ... إلخ) المُذاب جعله ذهباً ، أو فضةً ، أو غيَّره إلى البياض أو الصفرة » . الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ٢٢٨ .

الرخيصة في هذا المُركَّب ، فتكتسب من جراء ذلك صفة الذهب أو الفضة [١] . وهذه النظرية إحدى التأثيرات الإغريقية ، عن طريق مدرسة الإسكندرية ، على الكيمياء العربية ، وخاصة في بداية نشأتها العربية [٢] . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فقد ترتَّب على تحقيق هذه النظرية من جانب الكيميائين العرب ، أن اكتست الكيمياء بثوب السِّحْر ، والشَّعوذه ، والخداع ، والحِيَل ، وغيرها من الأمور التي استخدموها في إقناع الآخرين بما أنتجته أيديهم ، وأنه موافق للحقيقة ، طمعاً في الحصول على المال والثروة [٣] .

وبناءً على ما تقدم ، فإنه يمكن القول : بأن السبب في سرِّية تعاطي هذه الصناعة والتَّكَتم عليها من قِبل أصحابها مرده أمران :

الأول : عدم رغبتهم باطلاع الغير على هذه الصنعة ، حسداً وخوفاً من انتشارها بين الناس ، فيفقدون بذلك فرصة احتكار إنتاج الذهب المزعوم ، هذا مع افتراض صحة اعتقادهم بإمكانية ذلك ، فلا يصلون إلى هدفهم ، وهو جمع المال والثروة من خلال ممارستهم للتزييف والدَّجَل [٤] .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤ . لقد تحققت هذه النظرية في القرن العشرين ، حيث أمكن تحويل ذرات بعض العناصر إلى ذرات عناصر أخرى من خلال (حجر فلاسفة) عصري هو : التفاعلات النووية ، حيث تُصدم نواة ذرة العنصر المراد تحويله في المفاعل النووي بدقائق سريعة الحركة ، فتتحول ذرات هذا العنصر إلى ذرات عنصر جديد . وأمكن بهذه الطريقة تحويل البلاتين ، والزئبق ، والثاليوم والأيريديوم إلى الذهب ، ولكن هذا الحلم لم يتحقق بالصورة التي أرادها الكيميائيين ، وأصحاب الصنعة القُدامى ، وذلك أن الذهب المُصَنَّع بهذه الطريقة هو ذهب مُشعٌ يشبه اليورانيوم ، ومن ثَم لا يصلح فيما يصلح له الذهب الحقيقي من استعمالات . مصطفى سليمان : تاريخ العلوم والتكنولوجيا ، ص ٢٠٢ .

(٢) أحمد عبد الرازق : الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ص ٢٨١ ، ٢٨٣ . محمد مرحبا : الموجز في تاريخ العلوم عند العرب ، ص ١٠٥ .

(٣) لقد بسط شيخ الإسلام ابن تيمية القول في هذا الأمر ، وبيَّن تحريم الإسلام له ، ووجوه ذلك ، مع بيان لحقيقة علم الكيمياء ، وأوجه الجواز فيه ، وعلاقته بالسيمياء (السحر) ، وما جاء في هذا الموضوع من تفريعات ، وتقسيمات تناولها بالشرح والتفصيل . الفتاوى ، (٣٦٨/٢٩ ـ ٣٨٨ ، ٣٨٩ ـ ٣٩١) .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٤٩ ـ ٤٥٤ . حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٢٤٧ .

الثاني : انتفاء القناعة من قِبل المجتمع بهذه الصناعة ، ويعتبرونها نوعاً من السحر والشعوذة ، التي يجب عليهم محاربتها والقضاء على من يمارسها . وأضحت هذه الصنعة ووبَاهلها مضرب مثل سرى في القوم كالمثل القائل : ((من طلب المال بالكيمياء افتقر)) ، وفي ذلك قناعة قد تولَّدت لدى المجتمع ، بأن من يريد أن يغتني باكتشاف حجر الفلاسفة ، أضاع ماله ووقته وراء سراب خدَّاع [١] . ونجد ابن الرُّومي يترجم هذا الأمر في إحدى أشعاره ، فيقول في وصف حلوى الزَّلابِية [٢] :

كأنما زيتُهُ المغليُّ حين بدا	كالكيمياء التي قالوا ولم تُصِبِ
يُلقي العجين لُجيناً من أنامله	فيستحيل شبابيكاً من الذهبِ

وعلى الرغم من دخول علم الكيمياء [٣] ، منذ جابر بن حيَّان (ت ١٩٥هـ/٨١٠م تقريباً) ، في طور جديد ، عماده التجربة العلمية والمشاهدات الدقيقة ، وليس القياس كما هو معهود في العلوم البحتة ، ورفض أي شيء باعتباره حقيقة ما لم تدعمه الملاحظة الدقيقة ، وتثبته التجربة . إلا أن نظرية التحويل لازالت تُشكِّل إحدى المحاور الرئيسة التي شهدت اختلاف المهتمين بالكيمياء ، ما بين معتقد بإمكانية التحويل كالرازي ، ورافض لها ،

---

(١) وليم الخازن : الحضارة العباسية ، ص ١٢٢ .

(٢) ابن الرومي : الديوان ، (٤١٢/١) . والزَّلابية : نوع من الحلوى ، يطلق عليها في الوقت الحاضر « المُشبَّك ».

(٣) لم يكن الكيميائيين الأوئل يسموا هذا الفرع من العلوم الطبيعية بمصطلح : الكيمياء ، أو علم الكيمياء . وإنما أطلقوا عليه : علم الصنعة ، أو الصنعة (مجردة) . كما أنهم لم يسموا أحداً سبقهم في هذا العلم : الكيميائي ، وإنما : صاحب الصنعة ، أو صاحب الحكمة ، أو الحكماء . الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ٢٢٥ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٤/٤) .

وللأسف فإن الكثير من الدارسين الغربيين لا يزالون يُطلقون مصطلح (السيمياء أو الشيمياء) على الكيمياء العربية ، الأمر الذي يعطي انطباعاً خاطئاً عنها ، إذ من المستحسن استخدام مصطلح « الكيمياء القديمة » . علي الدفاع : الموجز في التراث العلمي ، ص ٣٥ . وانظر : ألان ديبوس : تعاليم « جبر » في سيمياء وكيمياء الغرب ، مجلة تاريخ العلوم العربية ، مج ٨ ، ع١ ، ٢ ، ص ١٥٦ ـ ١٦٩ ، للتعرف على وجهة النظر الغربية حيال الكيمياء العربية من حيث توثيق الارتباط بين السيمياء (السحر والشعوذة) وبين الكيمياء العربية ، لا سيما في بداية بروزها على يد جابر بن حيان .

بل واستحالتها كالكندي [١] . وحتى جابر بن حيَّان لم يكن بمنأى عن هذا الأمر ، إذ يُقرر بإمكانية التحويل من الناحية النظرية فقط ، أما عملياً فكان يعده ضرباً من المستحيل [٢] .

لقد كان لجهود الكيميائيين في العراق نحو تحقيق هدفهم الحلم ، بما أجروه من تجارب عديدة للوصول إلى هذا الهدف ، أثر إيجابي أفضى إلى اكتسابهم المزيد من الدراية والخبرة بعلم الصنعة ، والذي تُوِّجَ بإيجاد الكيمياء التجريبية ، التي تعتمد على التجربة ، والملاحظة ، والاستنتاج ، وذلك على يد جابر بن حيَّان الكوفي [٣] .

ومما هو جدير بالذكر ، أن علماء العراق استخدموا الموازين ، والمكاييل الدقيقة ، والأجهزة ، والأدوات المتقدمة في بحوثهم الكيميائية داخل مختبراتهم المجهَّزة ، توخياً للضبط والدقة [٤] . فكتاب الرازي « سرِ الأسرار » مثلاً يحتوي على أكثر من (٣٧ آلة) سبق أن استعملها في تجاربه الكيميائية التي كان يُجريها في مختبره [٥] . وإذا اعتبر الوصول إلى تحضير الإكْسيرِ هدفاً عظيماً عند أصحاب الصنعة ، فإن هناك دوافع أخرى لا تقل أهمية في الاهتمام بالكيمياء ، ولها ارتباط وثيق بالحياة اليومية ، ودخولها في الكثير من متطلبات الحياة عموماً وهو ما يعرف « بالكيمياء الصناعية » ، فتقدمت معارفهم في الكيمياء الصناعية ، كتحضير الأدوية واعتبارها قلب الصناعات المختلفة ، وصناعة الزجاج ، وآلات الحرب ، والأسمدة الزراعية ، والأصبغة ، والمنظفات ، وغير ذلك ، بفضل جهودهم المباركة في حقل التعدين [٦] .

ولقد تحققت العديد من الإنجازات العلمية في حقل الكيمياء علــى يد فئة من العلماء صرفت جزءاً من اهتماماتها العلمية إليه ، وهو ما سنعرفه بعد قليل . إضافة إلى

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، (٤/٢٥٧ ــ ٢٥٨) .

(٢) فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٤/٨) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٥٤٦ ــ ٥٤٧ . محمد مرحبا : الموجز في تاريخ العلوم عند العرب ، ص ١٠٦ .

(٤) علي الدفاع : إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء ، ص ٦٩ ــ ٧١ .

(٥) شحاته قنواتي : تاريخ الصيدلة والعقاقير ، ص ١٦١ ــ ١٦٥ .

(٦) عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٢٢١ ــ ٢٢٢ .

تراكم الإنجازات الكيميائية السابقة لعصر نفوذ الأتراك ، فأصبح هذا العصر بمثابة وجه الكيمياء العربية بكل وضوح ، نظراً لوجود علماء من وزن الرازي ، والكندي ، وابن وَحْشية ، وغيرهم ، الذين بنوا على كيمياء جابر الشيء الكثير .

وأصبحت الكيمياء جزءاً من اهتمام بعض العلماء الذين لم يكونوا من أصحابها ، وإنما النمو الثقافي الخاص بالكيمياء أكسب البعض منهم نوعاً من الربط بين النظرية والتطبيق . فقد ذكر ابن قُتَيْبة الدِّيْنَوَري (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) : أن أصحاب المعادن (المَنَاجم) ، والحفائر إذا هموا بدخول نفق في بطن الأرض أو مغارة ، قدَّموا شمعة في طرف قناة ، فإذا ثبتت النار وظلت مشتعلة ، دخلوا في طلب ما يريدون من المعادن ، وإذا حدث العكس ، أمسكو عن الدخول . وهو ما يُعْرَف اليوم بانعدام الأكسجين في هواء المَنْجَم ، فقد عرفوا من ذلك الوقت ، أن النار تنطفيء عند انعدام الهواء ، أو عندما يكون الهواء فاسداً [١] .

ويذكر ابن الأثير أن العباسيين استخدموا في واقعة الزِّنْج سنة (٢٦٩هـ/٨٨٢م) ، دواءً (طلاءْ) يمنع احتراق الخشب [٢] .

ويمكن القول : أن حجم الإنجازات التي تحققت في تلك الفترة في ميدان الكيمياء على يد علماء العراق ، واكتشافاتهم الكيميائية يَظهر لنا من خلال كثرة ما كان مجهولاً قبلهم ، أي قبل جابر ، من المركَّبات الكيميائية التي حفلت بها مؤلفاتهم الكيميائية ، والطبية ، والصيدلانية [٣] .

وشهد ذلك العصر بروز شخصيات علمية ، كان لها إسهام بارز في ميدان العلوم الصِّرفة بشكل عام ، ونال علم الكيمياء نصيبه من هذا الجهد .

ويعتبر **أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي** (٢٦٠هـ/٨٧٤م) أحد أقطاب الكيمياء في عصره ، وتزعَّم الرأي القائل بعدم استحالة تحويل المعادن إلى ذهب أو فضة ، واعتبر هذه القضية مَضْيَعة للوقت والجهد ، وأنها تقوم على الدجل والخداع . فكان الكندي ،

(١) مصطفى سليمان : تاريخ العلوم والتكنولوجيا ، ص ٢٠٥ .

(٢) الكامل في التاريخ ، (٣٧٨/٧) .

(٣) جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٤٧٧ .

برأيه هذا ، أول كيميائي عربي رفض الفكرة القائلة بتحويل المعادن [١] ، وصنَّف في ذلك رسالتين ، الأولى سماها : رسالة « في إبطال دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة من غير معادنه » [٢] ، والثانية بعنوان : رسالة « في التنبيه على خدع الكيميائين » [٣] .

وللكندي مصنفات عدة في الكيمياء العلمية ، والتعدين أيضاً ، منها : رسالة « في قلع الآثار من الثياب وغيرها » [٤] ، ورسالة « في أنواع السيوف والحديد » [٥] ، حيث توصل الكندي في هذه الرسالة إلى صنع الحديد ، الذي نسميه اليوم الفولاذ ، كما توصل إلى تلوين السيوف بمعاملة الحديد بمحاليل الأعشاب التي تحتوي على مادة « السيَنَاميد » ، فتُكسبه لوناً يتراوح بين الأحمر والأزرق . وذكر طرقاً مختلفة لعملية التلوين . وتوصل كذلك إلى طريقة لحفظ السيوف من الصدأ ، بطلائها في أثناء طبعها بمواد تحول دون تأثير الماء والأكسجين فيها [٦] . وله أيضاً ، رسالة « في السيوف وأجناسها » [٧] ، ورسالة « في عمل السيوف » [٨] ، ورسالة « في أنواع الجواهر الثمينة وغيرها » [٩] ، وكتاب « الجواهر والأشباه » [١٠] ، وكان أحد مصادر البيروني فيما يخص بعض مواصفات الجواهر ، وأنواعها ، وألوانها ، وعيوبها ، ومواطنها ، وأسمائها [١١] . وله أيضاً ، رسالة « في أنواع الحجارة » ، ورسالة « في تلويح الزجاج » ، ورسالة « فيما يصبغ فيعطي لوناً » ، ورسالة

---

(١) أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٤١٠ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ، (٢٥٨/٤) .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٤٢١ .

(٤) نشرت بتحقيق : محمد صالحية ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، مج ٣٠ ، ج١ ، ١٩٨٦م ، ص ٨٣ ـ ١١١.

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٤٢٠ .

(٦) فاضل الطائي : أعلام العرب في الكيمياء ، ص ٩١ ـ ٩٢ .

(٧) نشرت بتحقيق : عبد الرحمن زكي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، مج ١٤ ، ج٢ ، ١٩٥٧م .

(٨) مطبوعة بتحقيق : فيصل دبدوب ، ١٩٦٢م .

(٩) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٣٧٥ .

(١٠) البيروني : الجماهر في معرفة الجواهر ، ص ٣١ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٣٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ١٢٥ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٩٢ ، ١٩٧ ، وغيرها .

« فيما يطرح على الحديد والسيوف فلا تتثلم ولا تكل » ، ورسالة « في العطر وأنواعه » ، ورسالة « في صنعة أطعمة من غير عناصرها » ، ورسالة « في كيمياء العطر » [١] .

أما كتاب « الترقق في العطر أو كيمياء العطر والتصعيدات » [٢] ، والمنسوب للكندي ، فقد حامت حوله الشكوك من قِبل الباحثين في صحة نسبته إليه . ولعل الدراسة المستفيضة التي قام بها جابر الشكري [٣] حول هذا الموضوع تُغني عن الخوض فيه ، ومن ضمن ذلك إيراده لمجموعة من الشواهد ، والقرائن التي تثبت عدم صحة نسبة هذا الكتاب للكندي ، ويمكن أن نورد منها ما جاء صراحةً في نفس الكتاب ، وهي :

١ ـ قول المؤلف في باب صَنْعَة الغَوالي [٤] ما نَصُّه : ((وهذه الصَّنْعه أخذتها من أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي ، وقدر رأيته ، وقد عمله وفقته قُدامي)) [٥] . فهل أخذ الكندي هذه الصنعة عن نفسه ؟ بالطبع لا .

٢ ـ ما جاء في حديث المؤلف عن موضوع « صنعة غالية أحمد بن علي » حيث نَصٌّ على ما يلي : ((صنعة غالية أحمد بن علي ، أخذتها منه بمصر)) [٦] . ويتضح من هذا النص ، أن المؤلف قد تعلَّم صنعة هذه الغَالية من رجل إسمه : أحمد بن علي ، وكان يقيم بمصر . ولا يوجد في سيرة الكندي ما يشير إلى أن الكندي زار مصر . وهناك الكثير من الشواهد في هذا الكتاب تدل على أن الكتاب ليس للكندي .

وكما كان **لأبي بكر أحمد بن علي الكسداني المعروف بابن وحشية** (ت ٢٩٦هـ/٩٠٩م) إسهام في علم النبات ، كان له إسهام أيضاً في علم الكيمياء ، بما

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ .

(٢) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة ، برقم (٢٤ كيمياء) ، (٨٢ ورقة) .

(٣) جابر الشكري : كتاب كيمياء العطر والتصعيدات المنسوب للكندي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج ٣٦ ، ج١ ، ص ١١٣ ـ ١٥٠ .

(٤) الغوالي : جمع غالية ، وهي نوع من العطور الثمينة المُعَتَّقَة .

(٥) الكندي : الترقق في العطر ، الورقة : (٢٦ ب) .

(٦) المصدر السابق ، الورقة : (٤٤ أ . ب) .

وضعه من مصنَّفات عدة تبحث في موضوعات مختلفة في حقل الكيمياء ، ومنها : رسالة « في الصباغة الكيمياوية » [١] ، وكتاب « الأصول الكبير في الصنعة » [٢] ، وكتاب « كنز الأسرار أو كنز الحكمة » [٣] ، وكتاب « كشف الرموز وإشارات الحكماء إلى الحجر الأعظم » [٤] ، ورسالة « في معرفة الحجر » [٥] ، وكتاب « الأصول الصغير في الصنعة » ، وكتاب « المدرجة » ، وكتاب « المذاكرات في الصنعة » [٦] ، وكتاب « الفوائد العشرون في الكيمياء » [٧] .

أما **أبو بكر محمد بن زكريا الرازي** (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م) فقد حاول التجرُّد في مصنفاته الكيميائية من الغموض ، والإبهام ، والطلاسم ، التي كانت تشوب مصنفات من سبقه في حقل الكيمياء ، وخاصة جابر بن حيان ، فعلم الكيمياء عند الرازي في الحقيقة ليس إلا ((تجريد للعناصر التجريبية الموجودة في كتب جابر ، وما تضمنته هذه الكتب من نظريات ، وأفكار عالية)) [٨] .

وتظهر أهمية الكيمياء عند الرازي عندما اعتبرها ضرورية للفيلسوف ، إذ يقول : ((أنا لا أسمي الفيلسوف فيلسوفاً إلا إذا كان قد أَلمَّ بصناعة الكيمياء ، لأنه قد استغنى

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية في القاهرة ، برقم (٧٣١طبيعة) . محمد صالحية : تنظيف الثياب من الآثار والمطبوعات والأوساخ في ضوء التراث العربي ، أبحاث الندوة العالمية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب ، ج٢ ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

(٢) مخطوط بمكتبة راغب في إسطنبول ، برقم (٤/٩٦٣ مجاميع) ، الأوراق : [٤٩ أ ـ ٦٩ ب) ، القرن ٩هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٤/٤١٦) .

(٣) مخطوط بمكتبة نور الدين عثمان في إسطنبول ، برقم (٣٦٣١/مجاميع) ، الأوراق : [١ ـ ٦٥ ب] ، القرن ١١هـ . المرجع السابق ، (٤/٤١٧) .

(٤) مخطوط غير كامل بمكتبة يوسف أغا في : في قونية (تركيا) ، برقم (٥٤٨٦) ، ٦٠٧هـ . فؤاد سزكين : تاريخالتراث العربي ، (٤/٤١٧) .

(٥) مخطوط بمكتبة جار الله ولي الدين في إسطنبول ، برقم (١٠٨٦/مجاميع) ، الأوراق : [٤٣ ب ـ ٤٨ أ] . المرجع السابق ، (٤/٤١٧) .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ٥٥٠ .

(٧) البغدادي : هدية العارفين ، (١/٥٥) .

(٨) فؤاد سزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ، ص ٦٤ .

عن التكسُّب من أوساخ الناس ، وتنزه عمًّا في أيديهم ، ولم يحتج إليهم)) [١]. ومن خلال هذا النص ، تتضح نوايا الرازي النازعة إلى جمع المال ، وهو ما يتفق مع ما اشتهر به الرازي باعتقاده القوي بإمكانية تحويل المعادن بواسطة حجر الإكسير إلى ذهب وفضة ، بل ويرُد على الكندي ، الذي أنكر إمكانية التحويل كما مر معنا ، في كتاب خاص ، وهو كتاب « الرد على الكندي رده على الصناعة » [٢] ، ولعل في القصة التي أوردها ابن أبي أصيبعة عن الرازي تطبيقاً لفكرة التحويل ، فيذكر : ((أن الرازي كان قد باع لقوم من الروم سبائك ذهب ، وساروا بها إلى بلادهم ، ثم إنهم بعد ذلك بسنين عدة ، وجدوها وقد تغيَّر لونها بعض التغير ، وتبين لهم زيفها ، فجاءوا بها إليه وأُلزم بردها)) [٣] .

ويمكن القول : بأن الرازي قد توصل إلى اكتشاف العديد من المركبات الكيميائية ، وعمليات تحضيرها ، سالكاً في بحوثه وتجاربه مسلكاً علمياً خالصاً ، الأمر الذي أدى إلى تخليد مآثره في حقل الكيمياء عبرتاريخها ، من خلال الإنجازات التي حققها في هذا الحقل العلمي ، فقد درس الزئبق ومركباته ، واستحضر منها العقاقير ، كما استطاع تحضير الكحول بالتقطير ، واهتم بالأفيون ، وجعل منه عُقاراً طبياً صالحاً في عمليات التخدير . وهو ما يظهر أيضاً ، مدى الإسهام الكبير للكيمياء في حقول الطب ، والصيدلة ، وعلم النبات ، والارتباط الوثيق بها في نظر الرازي ، وهو ما تحقق على أرض الواقع ، فكان الرازي أول من ربط بين الطب ، والصيدلة من جهة ، والكيمياء من جهة أخرى [٤] . واستطاع الرازي تحضير حامض الكبريتك ، الذي يلعب دوراً هاماً في الصناعات الكيميائية [٥] .

وإلى الرازي يرجع الفضل في بيان التدابير المعملية ، في ذلك الوقت ، المستخدمة في تحضير المركبات الكيميائية ، حيث يصف في كتابه « سِر الأسرار » [٦] وصفاً

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤١٩ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٥٥٠ .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤١٩ .

(٤) حميد موراني : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٥٨ . جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٤٧٦ .

(٥) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٢٧١ .

(٦) مطبوع مع كتاب « الأسرار » بتحقيق : محمد تقي دانش ، جامعة طهران ، ١٣٤٣هـ/١٩٦٤م .

لـ (١٣ طريقة) كان يستخدمها في مختبره الكيميائي . وهي : التنظيف ، والتقطير ، والاستنزال ، والتشويه ، والطبخ ، والتلغيم أو الألغام ، والغسل ، والتصعيد ، والتكليس ، والتصدية ، والتشميع ، والحل والتحليل ، والعقد ، وهذا الأخير هو آخر المطاف للوصول إلى الإكسير عند الرازي [١] . مستخدماً في هذه التدابير ما يزيد على (٣٧ آله) كانت عمادة في تجاربه الكيميائية [٢] . ولقد ضمَّن الرازي إنجازاته الكيميائية ، وحفظها في مؤلفاته لم تصل إلينا أكثرها مع الأسف . وما بقي منها لا يظهر براعة الرازي في حقل الكيمياء ، وإنما تعطي ملامح فقط . ومن هذه المصنفات : كتاب « المدخل التعليمي » [٣] ، وكتاب « الشواهد » [٤] ، وكتاب « شرف الصناعة » [٥] ، وكتاب « التدبير » [٦] ، وكتاب « الحجر » [٧] ، وكتاب « قانون الطلب في الصنعة » [٨] ، ورسالة « في ذكر الخمائر المذكورة في الكتب » [٩] ، والرسالة تتحدث بشكل رئيسي عن « الإكسير » ، وكيفية

---

(١) شحاته قنواتي : تاريخ الصيدلة والعقاقير ، ص ١٦٣ ـ ١٦٥ . وانظر تعريف هذه التدابير في : الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

(٢) شحاته قنواتي : تاريخ الصيدلة والعقاقير ، ص ١٦١ ـ ١٦٣ . وانظر تعريف هذه الآلات في : الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ٢٢٥ .

(٣) مخطوط بمكتبة رامبور في الهند ، برقم (١٦ كيمياء/مجاميع) ، الأوراق : [٩٣ أ ـ ٩٧ ب] ، قبل القرن ٩هـ . فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، (٤/٤١١) .

(٤) مخطوط بمكتبة أصغر مهدي في طهران ، برقم (٣١٥/مجاميع) ، الأوراق : [٥٧أ ـ ٦٧أ] ، القرن ١٠هـ . المرجع السابق ، (٤/٤١١) .

(٥) مخطوط بمكتبة جار الله ولي الدين في إسطنبول ، برقم (١٠٨٦) ، الأوراق : [٣٨ ب ـ ٤٢ ب] القرن ١٢هـ . المرجع السابق ، (٤/٤١٢) .

(٦) مخطوط بالمكتبة السابقة ، برقم (١٠٨٦) ، الأوراق : [٤٢ ب ـ ٤٣ ب] ، القرن ١٢هـ . المرجع السابق ، (٤/٤١٢) .

(٧) مخطوط بمكتبة الأسكوريال في مدريد ، برقم (٧٠٠) . المرجع السابق ، (٤/٤١٣) .

(٨) مخطوط بمكتبة جار الله ولي الدين في إسطنبول ، برقم (٢١٣٠/٨/مجاميع) ، الأوراق : [٦٦ ب ـ ٧٢ ب] ، القرن ١٠هـ . المرجع السابق ، (٤/٤١٤) .

(٩) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة ، برقم (٩٢ كيمياء/ مجاميع) ، الأوراق : [١٨ أ ـ ٢٦ ب] .

استخدامه ، وحالاته المختلفة عند القائه على الأجساد (المعادن) ، والتدابير المعتمدة في عمل ذلك كله . ونجد الرازي يتحدث عن أنواع الإكسير ، بناءً على خواصها الكيميائية أثناء التحضير المخْبري ، فنراه يذكر : إكسير البياض ، والإكسير الأحمر ، والإكسير البارد [١] . وفي هذا الجزء من الرسالة تظهر ميول الرازي واعتقاده بإمكانية التحويل بصورة جلية . ثم يُعرِّج الرازي إلى موضوع آخر يختص بقدرة الإكسير في علاج أمراض العالم بأجمعه ، من الناس ، والبهائم ، والوحوش ، والطيور إن شاء الله تعالى [٢] . مبيناً أن بعض الأمراض تتطلب أن يُخلط الإكسير مع بعض الأدوية حتى يؤتي ثماره [٣] . فيأخذ الرازي في وصف الأدوية التي يدخل فيها الإكسير ، مستعرضاً الأمراض التي يمكن أن يتم شفاءها به ، كالجدري ، والحصبة ، والحمى ، والسموم المهلكة ، والأمراض الناتجة عن الإفراط في تناول الأدوية المسهلة ، والخُرَّاجات ، والكسور ، والسرطان ، والشقيقة (الصداع النصفي) ، والجذام ، والبرص ، والبهق ، والجرب ، والطاعون ، وغيرها [٤] .

ومن مصنفات الرازي الكيميائية الأخرى : كتاب « الأسرار » ، وفي هذا الكتاب يبدوا اتجاه الرازي العلمي ، وأسلوبه في الكيمياء أكثر وضوحاً [٥]. كتاب « سر الأسرار» ، ويعتبر هذا الكتاب تنقيحاً للكتاب الأول ، وفيه يظهر بجلاء ميل الرازي إلى إمكانية تحويل المعادن إلى ذهب وفضة [٦] . كتاب « الإثبات » ، كتاب « الإكسير » [٧] ، كتاب « الرموز » [٨] .

---

(١) الرازي : رسالة في ذكر الخمائر المذكورة في الكتب ، الورقة : (١٨ أ ـ ٢٠ أ) .

(٢) المصدر السابق ، الورقة : (٢٠ أ) .

(٣) المصدر السابق ، الورقة : (٢٠ ب) .

(٤) المصدر السابق ، الورقة : (٢٠ ب ـ ٢٦ ب) .

(٥) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ص ٢٦٩ .

(٦) علي الدفاع : إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

(٧) ذكر هذين الكتابين أبو مسلمة المجريطي في كتابه « رتبة الحكيم » .

(٨) النديم : الفهرست ، ص ٥٥٠ .

إضافة إلى ما سبق ، فإن هناك إسهامات في إثراء المكتبة الكيميائية من قبل علماء لم يكونوا من أرباب الصنعة ، وإنما تبعاً لظاهرة ذلك العصر الواضحة في ميدان الإنتاج العلمي ، إذا أن كثيراً من العلماء قد شاركوا في أكثر من فن ، إضافة إلى تركيزهم في تخصصهم الدقيق .

فالطبيب **يوحنا بن ماسويه** (ت ٢٤٣هـ/٨٥٧م) ، كانت له مشاركة في حقل الكيمياء بمؤلفات ، منها : كتاب « جواهر الطيب المفردة » [١] ، وكتاب « الجواهر وصفاتها ، وفي أي بلد هي ، وصفة الغواصين والبحار » [٢] . **ولأبي إسحاق إبراهيم بن العباس الصولي الكاتب** (ت ٢٤٣هـ) كتاب « العطر » [٣] . أما **أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ** (٢٥٥هـ/٨٦٩م) فقد كانت له عناية بالجواهر ، والأحجار الكريمة ، والعطور ، حيث يعقد في كتابه « التبصر بالتجارة » أبواباً يتطرق فيها إلى الحديث عن وسائل معرفة الذهب ، والفضة واختبارهما [٤] ، وكذلك معرفة الجواهر النفيسة ، وتقدير قيمتها ، وصفاتها ، وأنواعها [٥] . كما يتناول في كتابه هذا ، الحديث عن الطيب والعطر ، وكيفية التحقق من جودتها ، من خلال الكشف عن خواصها [٦] . وللجاحظ أيضاً ، كتاب « العطر » [٧] . **ولأبي طالب المفضل بن سلمة** (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) ، كتاب « العطر وأجناسه » [٨] . في حين وضع **قسطا بن لوقا البعلبكي** (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) في حقل الكيمياء رسالة « في الخضاب » [٩] .

---

(١) نشر بتحقيق : بولس سباط ، مجلة المعهد الفرنسي ، مج١٩ ، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧م ، ص ٥ ـ ٧ .

(٢) مطبوع بتحقيق : عماد عبد السلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ١٩٦ .

(٤) الجاحظ : التبصر بالتجارة ، ص ١٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٧) الثعالبي : ثمار القلوب ، ص ٤٢٣ . وأخذ عنه الثعالبي عند حديثه عن العود الهندي وامتحان جودته .

(٨) النديم : الفهرست ، ص ٤٩٣ .

(٩) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٣٠ .

رابعا : علم الفيزياء :

لم يكن لعلم الفيزياء [١] في تلك الفترة ، وحتى القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي هوية ، أو مجالاً محدداً تماماً ، وإنما توزَّعت مباحث هذا العلم في علوم أخرى ، كالكيمياء ، والفلك ، وعلم الأرض (الجيولوجيا) ، والأرصاد ، والهندسة ، ... إلخ [٢] .

ولقد وجه بعض علماء العراق عنايتهم إلى دراسة موضوعات متنوعة تتعلق بالطبيعة ، كالبصريات (علم المناظر) ، والصوت ، والجاذبية ، وحركة الأجسام ، والآثار العلوية ، وغيرها من المباحث التي تندرج تحت ما يطلق عليه اليوم « علم الفيزياء » ، والتي سوف يأتي بيانها في السطور القادمة .

وكان لتراث اليونان في تلك المعارف الخاصة بالفيزياء ، أثره الإيجابي في بناء هذا العلم عند المسلمين ، وذلك بفضل عملية الترجمة لبعض ما كتبه علماء اليونان في هذه الميادين ، كأرسطاليس ، وأقليدس ، وأرخميدس ، وهيرون ، وأفلاطون ، وغيرهم [٣] . ثم عكف علماء العراق على تمحيص ما كتبه هؤلاء ، واستعانوا بالتجربة للتثبُّت من صحة نتائجهم ، وصححوا أخطاءهم ، واستكملوا ما شرعوا فيه من بحوث ، ثم توَّجوا جهودهم بالنتائج التي توصلَّوا إليها ، والتي لم يسبقهم إليها أحد ، والاكتشافات التي اهتدوا إليها في مباحث علم الفيزياء [٤] ، وإن لم تكن بدرجة واحدة ، الأمر الذي رسَّخ بدوره إسهام الحضارة الإسلامية في حقل علم الطبيعة .

---

(١) لفظة « فيزياء » : مقتبسة عن اليونانية : Physikos ، أو Phusike أو Physis و التي تعني : الطبيعة ، أو دراسة الطبيعة . والفيزياء : « علم يختص بدراسة أساسيات الطبيعة لغرض اكتشاف القوانين التي وضعها الله سبحانه وتعالى لينضبط بها سير الكون بما فيه » . وليم الخازن : الحضارة العباسية ، ص ١٢٤ . مصطفى سليمان : تاريخ العلوم والتكنولوجيا ، ص ٣٩٩ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٠٤ . مصطفى سليمان : تاريخ العلوم والتكنولوجيا ، ص ٣٩٩ .

(٣) انظر مبحث الترجمة ، والترجمات التي قام بها النقلة بالنسبة للمصنفات الخاصة بفروع الفيزياء .

(٤) أحمد عبد الرازق : الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ص ١٠٣ .

وإذا كان علماء اليونان استندوا على الفلسفة المجردة في سعيهم لفهم الطبيعة دون أن يكون للتجربة دور في تلك المحاولات ، فإن علماء المسلمين عموماً ، والعراق بشكل خاص ، أخذوا هذا الأساس الضعيف من اليونان [١] وجعلوا منه قاعدةً صلبة لعلم الطبيعة ، تستند على التجربة ، والاستقراء ، والتأمل العميق [٢] ، وإن لم يستغن البعض منهم عن الآراء الفلسفية في دراساتهم ، لا سيما الكندي .

ومن خلال مصنفاتهم في مباحث علم الفيزياء ، سجّل علماء العراق ما توصلوا إليه من آراء ، ونتائج علمية مهمة في تلك المباحث ، أثّرت إيجابياً في جهود العلماء المسلمين الذين أعقبوهم .

ويعد **أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي** (ت ٢٦٠هـ/٨٧٤م) ، أكثر علماء العراق إسهاماً في الدراسات الفيزيائية في تلك الفترة ، بفضل كتبه ، ورسائله التي صنّفها في فروع العلوم الطبيعية .

ففي علم الضوء [٣] ، يُعد الكندي أول من درس الظواهر الضوئية في تأريخ العلوم الإسلامية [٤] ، وأشهر من درس الضوء وخواصه حتى ظهور الحسن بن الهيثم . فقد عرف

---

(١) جلال موسى : منهج البحث العلمي عند العرب ، ص ١١٥ .

(٢) إن أبرز ما يتميز به العلماء المسلمين عن غيرهم ، تأملهم الدائم لما يوجد من حولهم ، وهو أمر نابع من التوجيهات الربانية الداعية إلى التأمل في كل ما هو موجود في هذا الكون . وهذه الميزة تعد مدخلاً لكثير من العلماء في تسجيل آرائهم العلمية في موضوع قد لا يكونون من المهتمين بدراسته بصورة متخصصة ، ومن هذا الباب نجد الجغرافي والبلداني ابن خرداذبة (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) يُقدّم رأيه الشخصي في موضوع الجاذبية ، والذي يعد من آراء المسلمين الأولى في هذا الموضوع . يقول ابن خرداذبة : ((وبنية الخلق على الأرض أن النسيم جاذب لما في أبدانهم من الخفة ، والأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل ، لأن الأرض بمنزلة الحجر الذي يجتذب الحديد)) . المسالك والممالك ، ص ١٥ .

(٣) ويسميه العرب علم البصريات ، أو علم المناظر ، وهو : « علم يتعرف منه أحوال المبصرات في كميتها ، وكيفيتها باعتبار قربها وبعدها عن المناظر ، واختلاف شكلها ، وأوضاعها ، وما يتوسط بين المناظر والمبصرات ، وعلل ذلك . ومنفعته : معرفة ما يغلط فيه البصر من أحوال المبصرات ، ويستعان به على مساحة الأجرام البعيدة ، والرؤيا المحرمة أيضاً » . الفارابي : إحصاء العلوم ، ص ٥٤ ــ ٥٧ . أنور الرفاعي الإنسان العربي والحضارة ، ص ٤٨٠ ، ٤٨١ .

(٤) سيد رضوان : العلوم والفنون عند العرب ، ص ٧٨ .

الكندي سير الضوء ، وزوايا سقوطه ، وانعكاسه . إلا أن دراساته وملاحظاته اقتصرت على إيضاح الظواهر ، وتعريف الزوايا بدون قياس ، وهو ما أتمه ابن الهيثم بعد ذلك ، إذ تمكن من قياس زوايا السقوط ، والانعكاس (١) .

ويرى الكندي فيما يختص بسرعة الضوء ، بأن الضوء لا يحتاج إلى زمن لانتقاله ، ومن ثَم رؤيته ، نظراً لسرعته الكبيرة . وأخذ الكندي برأي أقليدس في تفسيره لعملية الإبصار ، وهو أن العين تُرسل بأشعتها على الأجسام فتراها (٢) .

وصنَّف الكندي كُتباً مستقلة تعالج القضايا السابقة من علم الضوء ، منها : رسالة « في اختلاف المناظر » ، ورسالة « في فصل ما بين التسيير وعمل الشعاع » ، رسالة « في البرهان على الجسم السائر ، وماهية الأضواء والإظلام » (٣) .

وكان موضوع الشُّعَاعات ، أي أشعة الشمس ، إحدى القضايا التي وجَّه الكندي جزءاً من جهوده لدراستها ، فتحدث عن « المرآيا المحرقة » (٤) ، وذكر في كتبه المصنفة عنها ، عن كيفية عمل هذه المرآيا ، وذكر أنه يعرف عشرين شكلاً لها ، وأنه بهذا الصورة يمكننا الإحراق على أي بُعد شئنا . كما كشف النقاب عن كيفية صنع المرآة المحرقة التي ينعكس منها أربعة وعشرون شعاعاً على نقطة واحدة (٥) .

---

(١) أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٤١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٧ .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ .

(٤) المرآيا المحرقة : « هو علم يُتعرف منه أحوال الخطوط الشعاعية المنعطفة ، والمنعكسة ، والمنكسرة ، ومواقعها ، وزواياها ، ومراجعها ، وكيفية عمل المرآيا المحرقة بانعكاس أشعة الشمس عنها ونصبها ، ومحاذاتها . ومنفعته بليغة في محاصرات المدن والقلاع » . حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١٦٥٢/٢) .

(٥) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٦ . مختار الدين أحمد : أبو يوسف الكندي ورسالته في الشعاعات ، مجلة المجمع العلمي الهندي ، مج٣ ، ع١ ، ٢ ، ص ٢٧٠ .

وضمن الكندي معارفه في « المرآيا المحرقة » في مصنفات خاصة بها ، ومنها : رسالة « في مطارح الشعاع » [١] ، رسالة « فيم عمل المرآيا المحرقه » ، رسالة « في سعار المرآة » ، رسالة « في اختلاف مناظر المرآة » [٢] .

ويتطرق الكندي إلى ماهية الكون ، ويُقدم تفسيراً لكون لون السماء أزرق ، بأن السبب في ذلك يعود إلى امتزاج ظلام السماء مع ذرات الغبار ، والبخار المضيئة بنور الشمس ، لذلك لا يوجد اللون بحد ذاته ، بل هو لوناً ظاهرياً فقط [٣] . ويضع الكندي رسالة في هذا الشأن بعنوان : « رسالة في علة اللون اللازوردي الذي يرى في الجو من جهة السماء ويضن أنه لون السماء » [٤] . وله رسالة أخرى في موضوع اللون بعنوان : رسالة « في الجرم الحامل بطباعة اللون من العناصر الأربعة والذي هو علة اللون في غيره » [٥] .

كما أسهم الكندي في ميدان « الآثار العلوية » [٦] ، ومن أهم ما قدّمه الكندي في الآثار العلوية هو قانون « إنبساط الأحجام » [٧] ، مما جعله أول عالم يُؤسس هذا العلم على

---

(١) مطبوعة بتحقيق : يحيى الهاشمي ، د . ن ، حلب ، ١٩٦٧م . وفي المقال السابق لمختار الدين أحمد ، يتحدث فيه عن رسالة للكندي بعنوان : رسالة « في الشعاع » ، تبحث في عمل المرآيا المحرقة ، وهي مخطوطة بمكتبة خدابخش في بانكيبور بالهند ، برقم (٢٠٤٨) . ولا ندري هل هي نفسها التي نشرها الهاشمي ، أم أنها رسالة أخرى غيرها .

(٢) البغدادي : هدية العارفين ، (٢/٥٤٠ ، ٥٤٤) .

(٣) الكندي : رسالة في علة اللون اللازوردي ، ص ١٠٨ . محمد أبو ريدة :رسائل الكندي الفلسفية ، (٢/١٠٢) .

(٤) مطبوعة بتحقيق : محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م .

(٥) مطبوعة ضمن رسائل الكندي الفلسفية بتحقيق : محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م .

(٦) علم الآثار العلوية : هو ترجمة حرفية للكلمة اليونانية Meteorologia ، ويعني : « معرفة الأشياء ، والتغيرات التي تقع في الجو ، وتتم على أساسه التنبؤات الجوية » . ويطلق عليه أيضاً « علم الظواهر الجوية » . سيد رضوان : العلوم والفنون عند العرب ، ص ٨٦ .

(٧) ينص قانون « إنبساط الأحجام » على أن : « كل جسم برد انقبض ، واحتاج إلى مكان أصغر من مكانه قبل برده . وكل جسم حمي انبسط ، واحتاج إلى مكان أعظم من مكانه قبل حميه » . الكندي : رسالة في العلة التي لها تكون بعض المواضع لا تكاد تمطر ، ص ٧١ .

القانون المذكور ، واعتبره الكندي المبدأ الأساسي لحدوث الظواهر الجوية ، وهو أول تعريف موجز لهذا القانون ، الذي كان معروفاً لدى علماء الأغريق [١] . ولقد ناقش الكندي من خلال رسائله التي وضعها في هذا الميدان ، الكثير من الظواهر الجوية ، والتي خالف في كثير منها آراء اليونانين ، لا سيما أرسطاطاليس ، فتحدث عن علة حدوث المطر ، وكيفيته ، وحدوث الرياح ، وتعليل حدوث الثلج ، والبرد ، والمد ، والجزر .

ومن رسائل الكندي في هذا الحقل الفيزيائي : رسالة « في العلة الفاعلة للمد والجزر » [٢] .

وعلى الرغم من أن الكندي لم يتوصل إلى أن العلة في حدوثهما جاذبية القمر ، فإن هذه الرسالة تُعد أوسع ، وأكمل تصويراً لحوادث المد والجزر حتى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي [٣] . وله أيضاً ، رسالة « في علة كون الضباب » ، ورسالة « في العلة التي لها تكون بعض المواضع لا تكاد تمطر » ، رسالة « في علة الثلج ، والبرد ، والبرق ، والصواعق ، والرعد ، والزمهرير » ، ورسالة « في العلة التي لها يبرد أعلى الجو ويسخن ما قرب من الأرض » [٤] .

ويُعتبر الكندي أول علماء المسلمين الذين درسوا ظاهرة الصوت ، وكتب عنها . ففسَّر علةِ صوت الرعد ، ولماذا يُرى البرق قبل سماع الرعد ، بأن ذلك يرجع إلى أن البصر يدرك محسوساته بلا زمان . أما الصوت فإن إدراكه يحتاج إلى زمن يستغرقه حتى يصل إلى السَّامع ، أي أن سرعة الضوء أكبر من سرعة الصوت [٥] .

ونظـراً لاهتمـام العلماء بالصـوت مـن جملـة اهتمامهم بالغناء والموسيقى ، في أكثر الأحيان ، فقد اقتصروا في أبحاثهم التي قاموا بها في علم الصوت ، على نشأته ،

---

(١) فؤاد سزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) مطبوعة ضمن رسائل الكندي الفلسفية بتحقيق : محمد عبد الهادي أبو ريدة .

(٣) فؤاد سزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٤) جميع هذه الرسائل طبعت ضمن رسائل الكندي الفلسفية بتحقيق : محمد عبد الهادي أبو ريدة .

(٥) الكندي : رسالة في علة الثلج والبرد ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

وقوتـــه ، وأقسامـه ، إذ لم يُخَصْ بدراســات علميــة لذاتها علــى منـوال بقيــة حقـول علم الفيزياء [١] .

كما تناول الكندي في علم الفيزياء ، موضوع حركة الأجسام بالبحث والدراسة ، ويرى بأن الأجسام تتحرك بطبيعتها ، وأنها من أول إبداعها (خلقها) متحركة ، ولا زالت ، ويظهر ذلك واضحاً مـن كتبـه التي وضعها فــي الـرد علــى ما قــال بتوقــف الأجسام ، أو سُكونها [٢] . وهــي : كتـاب « في أن الجسم في أول إبداعه لا سـاكن ولا متـحـرك ظن باطل » ، كتاب « في الرد على من زعم أن للأجــرام في هويتها فــي الجو توقفات » ، كتاب « في بطلان قول من زعم أن بين الحركة الطبيعية والعرضية سكون » [٣] .

وفي موضوع الجاذبية [٤] ، سـعى الكندي إلى إثبات صيَغ القـوانين التي تحكم سقوط الأجسام ، وهو موضوع لم يلق كبير اهتمام من علماء المسلمين عموماً [٥] ، ويذكر أن له كتاباً في قوانين التجاذب [٦] .

ومن مـعـاصـري الكندي الذي صـرفـوا جانبـاً من حياتهم العلميـة في الدراسـات الفيزيائية ، **أبو الحسن ثابت بن قرة الحراني** (ت ٢٨٨هـ/٩٠١م) ، الذي تطرق إلى موضوع الجاذبية ، وبحث في سقوط الأجسام ، وأدرك قوة التجاذب بين الأجسام عندما تختلف كُتْلَتُها ، والمسافة التي تقطعها ، والزمن الذي تستغرقه عملية الجذب ، وهو ما يتضح في تفسيره لعملية سقوط قطعة من الطـين علـى الأرض و حيث يقول : ((إن المَدَرَة [٧]

---

(١) كامل حمود : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٧٨ . أنور الرفاعي : الإنسان العربي والحضارة ، ص ٤٨٦ .

(٢) أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٤١٩ .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٤١٩ .

(٤) كان العلماء المسلمون يسمون الجاذبية ، أو قوة الجذب « بالقوة الطبيعية » ، أو « الميل الطبيعي » . سيد رضوان : العلوم والفنون عند العرب ، ص ٨٥ .

(٥) توماس أرنولد (وآخرون) : تراث الإسلام ، ص ٥٨٢ .

(٦) أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٤٢٠ .

(٧) المَدَرَة : قطع الطين اليابس . ابن منظور : لسان العرب ، (٥/١٦٢) .

إنما تعـود إلى السفلى ، لأن بينها وبين كلية الأرض مشابهة في كل الأعراض ، أعني البرودة ، واليبوسة ، والكثافة ، والشيء ينجذب إلى مثله ، والأصغر ينجذب إلى الأعظم منه)) [١] ، أي أن الأجسام تنجذب من فوق إلى تحت لأن وزنها النوعي أثقل من وزن الهواء [٢] .

وفي فرع الآثار العلوية ، كان **أبو العباس الفضل بن حاتم النيريزي** (ت نحو ٣١٠هـ/٩٢٢م) أحد علماء عصره الذين برعوا في علم الفلك ، وله إسهام في حقل الفيزياء من خلال دراساته عن الظواهر الجوية ، ويضع ، ولأول مرة ، رسالة في آلات قياس ارتفاع الغيوم ، والأبخرة ، وهذه الرسالة تُعد مرحلة جديدة في تأريخ الآثار العلوية [٣] ، وهي بعنوان : رسالة « في معرفة الآلات التي يعلم بها أبعاد الأشياء الشاخصة في الهواء ، والتي على بسيط الأرض ، وأغوار الأودية ، والآبار ، وعروض الأنهار » [٤] ، ومحتوى الرسالة واضح من خلال عنوانها المفصَّل ، ضمنها النيريزي (١٦ رسمة هندسية) توضيحية ، وشارحة لآرائه [٥] . وللنيريزي كتاب آخر في الآثار العلوية بعنوان : « أحداث الجو » [٦] .

ويُعد **أبو بكر محمد بن زكريا الرازي** (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م) أحد أقطاب الدراسات الفيزيائية في العراق في تلك الفترة ، بفضل مشاركته الفاعلة في جوانب من موضوعاتها . فقد تصدى الرازي لدراسة الضوء ، وعملية الإبصار ، ووضع كتابين في هذا الأمر ، الأول : كتاب : « في كيفية الإبصار » [٧] ، يبين فيه أن عملية الإبصار تكون عن

---

(١) جلال شوقي : تراث العرب في الميكانيكا ، ص ٧٦ .

(٢) كامل حمود : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٧٦ .

(٣) فؤاد سزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ، ص ١١٠ .

(٤) مخطوط بمكتبة آيا صوفيا في إسطنبول ، برقم (٤٨٣٠/مجاميع) ، الأوراق : [٢١٥ أ ـ ٢٢٤ ب] ، ٦٢٦هـ .

(٥) النيريزي : رسالة في معرفة الآلات التي يعلم بها أبعاد الأشياء : الورقة : (٢ أ.ب ، ٣ أ.ب ، ٥ أ.ب ، ٦ أ.ب ، ٧ ب ، ٩ أ.ب) .

(٦) النديم : الفهرست ، ص ٤٤٤ .

(٧) البغدادي : هدية العارفين ، (٢/٢٨) .

طريق خروج الضوء من الجسم المنظور الذي تراه العين ، ناقضاً بذلك رأي أقليدس القائل : بأن الإبصار يكون بشعاع يخرج من العين على الجسم المنظور [١] . أما الكتاب الثاني ، فهو : كتاب « العلة التي من أجلها تضيق النواظر في النور ، وتتسع في الظلمة » [٢] . وهو متمم في موضوعه للكتاب الأول ، إذ يتناول فيه ، من خلال عنوانه ، أثر قوة الضوء الواقع على بؤبؤ العين ، وضعفه [٣] .

وفي موضوع حركة الأجسام ، يؤيد الرازي ما ذهب إليه الكندي من أن الأجسام تتحرك بطبيعتها من أول خلقها ، وأضاف الرازي إلى هذا الرأي ما يوضحه ، إذ يرى بأن الحركة المذكورة ليست مرئية ولكنها معلومة ، وأنها من الجسم نفسه وهي طبيعة فيه . وللرازي كتابان يبحثان في هذا الأمر ، هما : كتاب « في أن الجسم يتحرك من ذاته وأن الحركة مبدأ طبيعته » ، وكتاب « في أن الحركة ليست مرئية بل معلومة » [٤] . وفي الجاذبية صنَّف الرازي كتاب « في علة جذب حجر المغناطيس » [٥] .

أما **أبو إسحاق إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة الحراني** (ت ٣٢٥هـ/٩٤٦م) الرياضي ، والفكلي البارز ، فقد كانت له آراء في علم الآثار العلوية ضمنها كتابه المفقود : « الإبانة عن الطريقة المعترفة » [٦] ، والذي اعتبره مؤرخي العلوم [٧] أهم كتاب في تأريخ الآثار العلوية عند المسلمين . ففي الكتاب نقد لآراء أرسطاطاليس في تعليله للظواهر الجوية ، والمنهج التقليدي الأعمى لآرائه عند معاصريه ، معتمداً في نقده على التجربة الشخصية [٨] .

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٢٢ .

(٢) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٧٦ .

(٣) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٤٧١ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٧٢ .

(٦) سيد رضوان : العلوم والفنون عند العرب ، ص ٨٨ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٨٨ . فؤاد سزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ، ص ١١٠ .

(٨) فؤاد سزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ، ص ١١٠ ـ ١١١ .

خامسا : علم الحيل (الميكانيكا) :

عُني علماء العراق بعلم الحِيَل [١] ، والذي يُعد مدخلاً لجميع فروع علم الفيزياء ، وأساساً لفهم الظواهر الطبيعية ، بسبب عنايته بدراسة حركة الأجسام وتغير مواضعها وهو مبني على قواعد الحركة ، وتوازن الثقل ورفعة ، ودفعة بطرق هندسية آلية [٢] .

واعتمد علماء الحيل بصفة أساسية على ما وصلهم من كتب تراثية في هذا الفن ، فأخذوا في دراستها ، واستيعابها ، فأضافوا عليه الشيء الكثير ، وأظهروا أثر علماء المسلمين ، وخاصة في تلك الفترة ، في علم الحيل . وتمحور هذا العلم حول موضوعين رئيسيين ، هما [٣] :

١ ـ وسائط جر الأثقال ورفعها بالقوة اليسيرة .

٢ ـ آلات حركات الماء ، وصعنة الأواني العجيبة [٤] ، التي تتحرك ذاتياً وبجهد أقل لأداء عمل من الأعمال .

فمضى علماء العراق في دراساتهم المتخصصة ، وممارستهم العلمية لهذا الميدان الممتع والحيوي في نفس الوقت ، يعنون بهذين الموضوعين ، كما سيأتي عند استعراض جهودهم في علم الحيل .

---

(١) علم الحيل : « هو علم يبحث في الآلات الميكانيكية ، والتجهيزات الهيدروليكية » بنو موسى بن شاكر : كتاب الحيل ، ص « نو » (مقدمة المحقق) . حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ص ٢٨٣ .

(٢) الفارابي : إحصاء العلوم ، ص ٦٣ . سيد رضوان : العلوم والفنون عند العرب ، ص ٨٢ . ومن خلال حديث الفارابي عن علم الحيل ، نجد أن مفهومه لم يكن محدداً في ذلك الوقت ، والفارابي توفي سنة (٣٣٩هـ/١٩٥٠م) ، أي أنه كان معاصراً لنشاط العلوم في العراق في ذلك الوقت ، وممن أقام بها مدة ، وإن لم يكن من أهل العراق .

(٣) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ٢١٥ .

(٤) كان بعض علماء المسلمين يُطلقون على هذا القسم من علم الحيل إسم « الآلات الروحانية » ، لارتياح النفس بعجائب حركات هذه الآلات . القلقشندي : صبح الأعشى ، (٤٧٦/١) . . طاش كبري زاده : مفتاح السعادة ، (٣٧٩/١) .

ويعتبر الوقت شيئاً ثميناً في حياة المسلم ، فكانت فئة من العلماء ، في تلك الفترة ، قد ركّزت جهودها في موضوع الآلات الخاصة بالوقت ، كالساعات بأنواعها ، والمِزْوَلة ، والإسطرلاب [١] ، وغيرها ، نظراً لأهميتها الدينية في تحديد أوقات الصلاة ، دون الاعتماد على ملاحظة النجوم ، والكواكب ، وضرورتها العلمية في ميدان الفلك . وكان أهل العراق في تلك الفترة يعتمدون في معرفة الوقت على الإسْطرِلاب في النهار ، والبَنْكَامات [٢] بالليل [٣].

وقد ترتَّب على العناية بعلم الحِيَل ، الاهتمام بخواص المادة ، من صلبة ، وسائله ، فأولى علماء العراق موضوع تحديد الأوزان النوعية [٤] لتلك المواد ، وتعيين ثقلها اهتمامهم ، واتخذوا لذلك أنواعاً من الموازين ، منها « القَبَّان » [٥] ، والميزان العادي ذي الكفتين المتساويتين في الوزن ، وموازين حسّاسه ، ودقيقة كالميزان الطبيعي للرازي [٦] . مسخرين في عمل تلك الموازين دراساتهم التي قاموا بها في علم مراكز الأثقال [٧] .

وصنفوا العديد من الكتب في الموازين ، وأنواعها ، وأغراضها [٨] ، كما سيأتي ذكره في حينه . وكانت مدينة « حَرَّان » [٩] مشهورة بصناعة الموازين ، وكانت مضرب المثل في صحتها ، ودقتها [١٠] .

---

(١) المزولة ، والإسطرلاب : آلات فلكية ، سيتم التعرف عليها في موضوع الفلك .

(٢) البَنْكَامات : جمع بَنْكَام ، وهي الساعة الرملية . المعجم الوسيط ، ص ٩١ .

(٣) مصطفى سليمان : تاريخ العلوم والتكنولوجيا ، ص ٤٢٣ .

(٤) الوزن النوعي : هو النسبة بين وزن المادة وبين وزن حجم مساو لحجمها من الماء . أحمد عبد الرازق : الحضارة الإسلامية ، ص ١٢٩ .

(٥) القَبَّان : فارسي معرّب ، وهو الميزان ، وكانوا يسمونه بإسمه اليوناني « القرسطون » ، ويستخدم لوزن الأحمال الثقيلة ، وهيئته : عبارة عن ذراع طويلة مقسمة ، ينقل عليها جسم ثقيل يسمى « الرُّمّانة » لتعيين وزن ما يوزن . الجواليقي : المعرب ، ص ٢٧٥ . الرازي : مختار الصحاح ، ص ٤٥٨ . المعجم الوسيط ، ص ٧٤٧ .

(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٢٣ .

(٧) علم مراكز الأثقال : « وهو علم يتعرف منه كيفية استخراج مركز ثقل الجسم المحمول . والمراد بمركز الثقل : حد في الجسم ، عنده يتعادل بالنسبة إلى الحامل . ومنفعته : معرفة كيفية معادلة الأجسام العظيمة بما دونها لتوسط المسافة » . طاش كبري زاده : مفتاح السعادة ، (٣١٢/١ ـ ٣١٣) .

(٨) أحمد عبد الرازق : الحضارة الإسلامية ، ص ١٠٤ .

(٩) حَرَّان : مدينة في ديار مُضر بإقليم الجزيرة ، وحالياً تقع في الجنوب الشرقي من جمهورية تركيا . ياقوت الحموي : المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، ص ١٢٤ .

(١٠) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

كما ظهرت في علم الحِيَل براعة علماء العراق في عمل الآلات العجيبة بمختلف أنواعها ، وأشكالها ، ومنفعتها ، والتي تسمى بالآلات الروحانية ، ويُعتبر أبناء موسى بن شاكر أشهر أعلام هذا القسم من علم الحِيَل في ذلك الوقت ، على ما سيأتي ذكره .

واختلفت الأهداف من وراء عمل الآلات العجيبة ، بعضها للمنفعة المعيشية ، وبعضها للتسلية والاستمتاع برؤيتها وهي تعمل .ويذكر الدَّميري[١] :أن محمد بن إسماعيل السَّعدي رأي عند القاضي أبو محمد يحيى بن أكْثَم المَرْوَزي (ت ٢٤٢هـ/٨٥٦م) آلة عجيبة محفوظة داخل صندوق ، وعندما يتم فتحه يخرج منه شيء له رأس كرأس الإنسان ومن أسفله إلى سُرَّته على هيئة زَاغ [٢] ، وفي صدره وظهره سلعتان ، وعندما تقول له : من أنت ؟ ، ينهض هذا الجسم ، وينشد (٧ أبيات) شعرية ، وبعد انتهائه من الإنشاد يأخذ بالصياح : زاغ ، زاغ ، ثم يَنطرح في الصندوق .

ويجدر بنا القول ، أن علم الحِيَل لم يكن يقتصر على الجانب العملي الصناعي فقط ، بل كانت هناك دراسات علمية نظرية ذات قيمة كبرى ليست في الناحية العملية فحسب ، وإينما في الاختراعات الهامة أيضاً ، وهي تتعلق بمفهوم الجاذبية ، ومفهوم الحركة ، وقوانينها ، وتصادم الأجسام ، وتساقطها ، وطبيعة الزمان والمكان ، ومفهوم القوة ، وأنواعها ، وغير ذلك من المباحث الدقيقة ، والمهمة [٣] .

وحفل العراق بعلماء أثْروا علم الحِيَل باختراعاتهم ، ودراساتهم النظرية بلغت درجة من الرُّقي ، حتى أصبحت تلك الحقبة التاريخية مرحلة مهمة وخطيرة في تاريخ علم الحِيَل ، لوجود علماء كانوا بمثابة المؤسسي لهذا العلم في صورته الإسلامية ، إذ لم يكن لأحد قبلهم في أعقاب الحضارة اليونانية عناية بهذا العلم ، أو حتى دراسته بحجم الإنجاز الذي تم في تلك الفترة ، سواء في العراق ، أو بقية أمصار العالم الإسلامي .

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ، (٢/٣ ـ ٤) .

(٢) الزَّاغ : طائر صغير من فصيلة الغِرْبان . ابن منظور : لسان العرب ، (٤٣٢/٨) .

(٣) سيد رضوان : العلوم والفنون عند العرب ، ص ٨٣ .

ويُعد **بنو موسى بن شاكر المنجم** (القرن ٣هـ/٩م) ، من أكثر شخصيات العصر شهرةً ، وإسهاماً في ميدان علم الحِيَل ، وهو استكمالاً لدورهم في تطوير العلوم الرياضية ، والهندسية ، والفلكية ، من خلال مؤلفاتهم ودورهم الفعَّال في ازدهار حركة الترجمة .

لقد اشتـــهر بنو موسى بن شاكر بهذا الإسم ، وهو : محمد ، وأحمد ، والحسن . ولا يُعرفون إلا بهذا الإسم .

ولم تمدنا المصادر بسيرة عن حياتهم ، ولا عن تواريخ ولادتهم ، ووفاتهم ، سوى محمد ، الذي توفي سنة (٢٥٩هـ/٨٧٣م) [١] ، وكان تَسلْسلَهم يُذكر هكذا ، مما يعني أن محمداً كان أكبرهم .

ووجد بنو موسى بن شاكر كل تقدير واحترام في ظل الخلفاء الذين عاصروهم ، من لدن المأمون وحتى المعتضد ، لا سيما المأمون ، الذي تكفل بتربيتهم بعد وفاة والدهم ، وأصبح لهم د ور علمي بارز في عهده [٢] .

وكان بعض الخلفاء يَعْهدون إليهم ببعض المهمات الاستكشافية [٣] . وأسند الخليفة المتوكل إليهم مشروع إنشاء قناة الجَعْفري ، فكلَّفوا بدورهم للقيام بهذا العمل المهندس أحمد بن كَثير الفَرْغَاني . وكان الخليفة المتوكل مُغرماً بالآلات المتحركة ، واستعان في ذلك ببني موسى بن شاكر [٤] .

وكان لمحمد ، أخوهم الأكبر ، عناية بالسياسة ، وكانت له بعض المهام في هذا الأمر على عهد الخليفة المستعين [٥] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (١٦٣/٥) .

(٢) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٤٤٢ .

(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ٩٥ . المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ١١٦ . المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٧٧ . البيروني : الآثار الباقية ، ص ٢٩٠ .

(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ١٨٦ ـ ٢٨٧ .

(٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٢٥٣/٩ ، ٢٩٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤) .

وبلغ بنو موسى ، بحكم المنزلة العالية التي وصلوا إليها من الثراء ، ما أن جعلهم يُصنَّفون من طبقة الأثرياء ، وخاصة محمد ، وأحمد ، فقد كان مدخول محمد ((في كل سنة بالحضرة (العاصمة) ، وفارس ، ودمشق ، وغيرها ، نحو : أربعمائة ألف دينار ، ومدخول أحمد أخيه نحو: سبعين ألف دينار)) [١] .

ولقد كان بنو موسى بن شاكر ممن تناهوا في طلب العلوم القديمة ، وبذلوا أموالهم في سبيل ذلك . وكان الغالب عليهم من العلوم : الهندسة ، والحيل ، والحركات ، والموسيقى ، والنجوم ، وكانت جهودهم في الأخيرة أقل من غيرها [٢] .

أما محمد فقد كان وافر الحظ من الهندسة ، والفلك ، وجمع كتب النجوم ، والهندسة ، والعدد ، والمنطق . في حين كان أحمد من البارعين في صناعة الحِيَل ،وبلغ فيها منزلة رفيعة لا توازي إلا العلماء المتحقّقين بعلم الحِيَل [٣] . ويذكر عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، أنه رأى عند الخليفة المعتز ((الآلة التي عملها أحمد بن موسى المهندس من الصِّفْر ، يُرسل فيها الماء فَيسمع لها زمر السُّرناي)) [٤] .

أما الأخ الثالث : ، وهو الحسن ، فَوُصف بأن له طبع عجيب في الهندسة لا يُدانيه أحد ، وله فيها استخراجات لم يسبقه إليها أحد [٥] .

وقد ارتبطت إنجازات بني موسى بن شاكر العلمية بعلم الحِيَل بشكل خاص ، بفضل كتابهم « الحِيَل » [٦] ، الذي يُعد أول كتاب للمسلمين في هذا العلم يصل إلينا [٧] .

---

(١) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٤٤٢ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٣٥ . صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٤١ ــ ١٤٢ . زيجريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ١١٣ ــ ١٢٧ .

(٣) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٤٤٢ .

(٤) الشابشتي : الديارات ، ص ١١٠ ــ ١١١ . والسُّرناي : آلة طرب ينفخ فيها كالمزمار .

(٥) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٤٤٢ .

(٦) مطبوع بتحقيق : أحمد الحسن ، معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، حلب ، ١٩٨١م .

(٧) مصطفى سليمان : تاريخ العلوم والتكنولوجيا ، ص ٤٢٩ .

وقد لقي هذا الكتاب قُبولاً واستحساناً كبيرين عند المؤرخين [١] . ويحتوي هذا الكتاب على (مائة عملية) ميكانيكية ، عشرون منها ذات قيمة علمية ، كالمِعلَف المخصص لشرب الحيوانات المنزلية الصغيرة ، وألعاب للتسلية ، وأجهزة تُعطي كمية من السوائل على فترات زمنية معينة ، وآلات تمتلىء تلقائياً ، ويُصب فيها الزيت تلقائياً أيضاً ولا تنطفىء إذا تعرَّضت للريح (الفانوس السحري) ، وآلات تصدر منها أصوات معينة بصورة تلقائية عند ارتفاع مياه الرَّيّ في الحقول إلى حد معين عند سَقيها ، وفوارات (نوافير) مياه ترسم صوراً متعددة بالمياه الصاعدة منها ، وآلات فلكية تُصدر أصواتاً موسيقية تُعلن غياب نجم معين في قبة السماء ، أو ظهور نجم آخر ، مع ظهور صورة النجوم التي تظهر ، واختفاء صورة النجوم الغائبة ، ونحو ذلك [٢] .

وتميّز بنو موسى بن شاكر في تأليفهم لهذا الكتاب ، باستخدام أوعية وأجهزة بالغة التعقيد ، تعتمد على مبادىء توازن السائل بالدرجة الأولى ، واستخدامهم للتصاميم التي تعمل بالتحكُّم الذَّاتي ، وهو ما لم يتوفر في مصنفات علماء الحِيَل السابقون لهم ، واللاحقون [٣] .

ومن مصنفات بني موسى في علم الحيل أيضاً : رسالة « في الآلة التي تزمر بنفسها » [٤] ، ولعلها هي الآلة التي رآها عبيد الله بن طاهر عند الخليفة المعتز . كتاب « القرسطون » [٥] ، كتاب « في الآلات الحربية » [٦] .

---

(١) ومن ذلك قول ابن خلكان في ترجمته لمحمد بن موسى بن شاكر : ((ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر ، يشتمل على كل غريبة ، ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب ، وأمتعها ، وهو مجلد واحد)) . وفيات الأعيان ، (١٦٢/٥) .

(٢) انظر وصف الآلات المائية التي في كتاب « الحيل » في مقدمة المحقق للكتاب ، ص ٧٧ ـ ٨٨ . وهو أمر يثير الدهشة للمدى الذي وصل إليه علماء الحيل في تلك الفترة ، والعقلية الإسلامية المتقدة بالإبداع ، والفكر الصافي .

(٣) حول مقارنة كتاب « الحيل » لبني موسى بن شاكر وما كتبه علماء الحِيَل اللاحقين لهم ، كبديع الزمان الجزري ، وتقي الدين الدمشقي من الناحية العلمية ، وكذلك المبادىء ، أو الوسائل العشرة التي استخدمها بنو موسى في تصميم تجهيزات كتاب « الحيل » . انظر مقدمة المحقق ، ص ٥٦ ـ ٦٩ .

(٤) نشرت بتحقيق : لويس شيخو ، مجلة المشرق ، مج٦ ، ١٩٠٦م ، ص ٤٤٤ ـ ٤٥٨ .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٤٣٥ .

(٦) حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١٤٥/١) .

ومن أبرز العلماء الذين أسهموا في علم الحِيَل ، **أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي** (ت ٢٦٠هـ/٨٧٤م) ، الذي كانت له جهوداً ملموسة في موضوع الساعات ، فوضع فيها العديد من المؤلفات ، منها : رسالة « في استخراج خط نصف النهار وسمت القبلة بالهندسة » ، رسالة « في عمل الرخامة بالهندسة » ، رسالة « في استخراج الساعات على نصف كرة بالهندسة » ، رسالة « في عمل الساعات على صفيحة تنصب على السطح الموازي للأفق خير من غيرها »[١] . وفي باب عمل الأواني العجيبة ، فاللكندي كتاب « في عمل القُمْقَمْ الصيَّاح » ، ورسالة « في أركان الحيل »[٢] .

ويُعد **أبو الحسن ثابت بن قرة الحراني** (٢٨٨هـ/٩٠١م) ، من أبرز علماء الحِيَل في الجانب النظري ، من خلال تفعيله لهذا الأمر عن طريق مؤلفاته العديدة التي أثرى بها المكتبة الإسلامية في مجال علم الحيل .

ففي الموازين ، صنَّف ثابت كتباً عدة ، منها : كتاب « القرسطون »[٣] ، كتاب « في صفة إستواء الوزن واختلافه ، وشرائط ذلك » ، كتاب « في أجناس ما توزن به الأدوية » ، كتاب « في أن سبيل الأثقال التي تعلق على عمود واحد مفصلة هي سبيلها إذا جعلت ثقلاً واحداً مبثوثاً في جميع العمود على تساو »[٤] .

وفي الساعات والمزاول ، وضع ثابت كتابين ، الأول : كتاب « في آلات الساعات التي تسمى رخامات »[٥] ، وكتاب « في أشكال الخطوط التي يمر عليها ظل القياس »[٦] . ومن خلال النظر في الكتاب الأول ، نجد أن موضوع الكتاب الثاني هو أحد محاور الكتاب

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٤١٧ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٩٠ .

(٣) مخطوط بمكتبة برلين (ألمانيا الإتحادية) ، برقم (٦٠٢٣) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (١٧٥/٤) .

(٤) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١١٧ ، ١١٩ ، ٣١٦ .

(٥) مخطوط بدار الكتب المصرية في القاهرة ، برقم (١٠٤٧ ميقات) ، (١١٨ ورقة) ، ٣٧٠هـ .

(٦) البغدادي : هدية العارفين ، (٢٤٦/١) .

الأول ، والذي يناقش فيه ثابت موضوع معرفة الوقت في النهار من خلال خطوط ترسم على سطوح رخامية ذات دلالة في معرفة مقدار الوقت الذي انقضى ، وذلك بوقوع ظل النهار على هذه الخطوط ، أو فيما بينها .

أما **قسطا بن لوقا البعلبكي** (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) ، فكانت له مشاركة في موضوع الموازين بكتبه : « الوزن والكيل » [١] ، وكتاب « القرسطون » ، وكتاب « في الآلة التي ترسم عليها الجوامع وتعمل منها النتائج » [٢] .

---

(١) مخطوط بمكتبة آيا صوفيا في إسطنبول ، برقم (٣٧٢٤/مجاميع) ، الأوراق : [٦٨أ ــ ٧٤ب] . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٤/١٠٠) .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٣٠ .

المبحث الثالث

العلـــوم الرياضيـــة

تُعتبر العلوم الرياضية [١] من أوائل العلوم التي لَقيت عناية علماء العراق منذ وقت مبكر ، لِما تشكله من أهمية ترتبط بحياتهم المعيشية من جهة ، وحاجة العلوم التطبيقية الأخرى لها في جوانب متعددة من موضوعاتها من جهة أخرى .

أما فروع العلوم الرياضية في تلك الفترة ، فهي : علم الحساب ، وعلم الجبر والمقابلة ، وعلم الهندسة ، وعلم حساب المثلثات ، وعلم الهيئة (الفلك) [٢] . وتشترك جميع هذه الفروع بأنها تعتمد في ممارستها على العدد [٣] . وكانت الإحاطة بالعلوم الرياضية من الأمور المهمة التي ينبغي لكُتَّاب الدواوين إمعان النظر فيها ، لحاجتهم إليها في أعمالهم الديوانية . وفي هذا الصدد ، يقول ابن قتيبة الدينوري : ((ولابد له – أي الكاتب – من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين ، حتى يعرف المثلث القائم الزاوية ، والمثلث الحاد ، والمثلث المنفرج ، ومساقط الأحجار ، والمربعات المختلفات ، والقسي ، والمدورات ، والعمودين ، ويمتحن معرفته بالعمل في الأرضين لا في الدفاتر ، فإن المخبر ليس كالمُعاين ، وكانت العجم تقول : من لم يكن عالماً بإجراء المياه ، وحفر فرض المشارب ، وردم المهاوي ، ومجاري الأيام في الزيادة والنقص ، ودوران الشمس ، ومطالع النجوم ، وحال القمر في استهلاله وأفعاله ، ووزن الموازين ، وذرع المثلث ، والمربع ، والمختلف الزوايا ، ونصب القناطر ، والجسور ، والدوالي ،

---

(١) العلوم الرياضية : « هي العلوم الباحثة عن أمور يَصحُّ تجرُّدها عن المادة في الذهن فقط ، وتنحصر في أربعة أقسام ، لأن نظرها إما عن الكم المتصل أو عن الكم المنفصل .. فالأول : الهندسة . والثاني : الهيئة . والثالث : العدد . والعرابع : الموسيقى . » طاش كبري زاده : مفتاح السعادة . (٣٠٨/١) .

(٢) سيرد بيان العلة التي من أجلها أُعتبر علم الهيئة من العلوم الرياضية عند الحديث عنه في الصفحات القادمة.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ، مقالة سوتر ، (٣٧١/٧) .

والنواعير على المياه ، وحال أدوات الصناع ، ودقائق الحساب ، كان ناقصاً في حال كتابته)) [١] .

وسنتعرّف على العلوم الرياضية ، وعن حالها في عصر نفوذ الأتراك ، ثم يتبعه استعراض لأبرز الأسماء الناشطة في فروع العلوم الرياضية ، تطبيقاً وتصنيفاً .

أولاً : علم الحساب :

يُعد علم الحساب [٢] من العلوم النافعة في الحياة اليومية ، والتي حرص أهل العراق على تعليمه لأولادهم منذ وقت مبكر .

وكان أهل العراق يستخدمون الحروف الهجائية مكان الأرقام في إجراء العمليات الحسابية ، وهي الطريقة التي عرفت باسم « حساب الجُمَّل » [٣] ، غير أنهم سرعان ما راق

---

(١) أدب الكاتب ، ص ٩ ـ ١٠ . وفي ذلك دلالة أيضاً ، على معرفة ابن قتيبة بالعلوم الرياضية ، وحسن درايته بها ، وهي بالتالي إشارة إلى شيوع المعرفة بالعلوم الرياضية بين علماء العراق ، وأدبائه ونرى ذلك أيضاً عند أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزَّجَّاجي (ت ٣٤٠هـ/٩٥١م) في كتابه « تفسير رسالة أدب الكاتب » أي مقدمة ابن قتيبة لكتابه السابق (أدب الكاتب) . حيث نجد الزجاجي عند شرحه للنص السابق لابن قتيبة ، يُفصح عما يمتلكه من معرفة جيدة بالعلوم الرياضية ، والفوائد الجمة التي يضيفها أثناء شرحه، وتعضيده لهذا الشرح بتسعة رسومات هندسية توضيحية ، بشكل يَنمُّ على درايته بتلك العلوم . انظر : الزجاجي : تفسير رسالة أدب الكاتب ، ص ١٤٦ ـ ١٦٣ .

(٢) علم الحساب : ويعرف في ذلك الوقت بعلم العدد ، وهو : « يدرس الأعداد الحسابية من حيث دلالتها على الأشياء ، وهو علم العدد العملي . ومن حيث هي مطلقة ، وهو علم العدد النظري . وعلم العدد النظري يتناول: علاقات الأعداد ، ونِسَبها ، وخصائصها ، وجمعها ، وطرحها ، وضربها ، وقسمتها ، ونحو ذلك » . الفارابي : إحصاء العلوم ، ص ٤٩ .

(٣) حساب الجُمَّل : هو نظام ترقيم يقوم على استخدام الحروف الهجائية المرتبة ترتيباً أبجدياً للتعبير عن القيمة الدلالية للأعداد ، وذلك على الترتيب التالي ، وهو المعتمد عند أهل المشرق عموماً : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ضظغ . وقد ورث أهل العراق هذه الطريقة عن بعض الأمم الساميَّة ، ويرى البعض أنها ترجع إلى العصر اليوناني بدلالة ظهورها على بعض النقوش اليونانية التي ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد . للتوسع ، انظر : الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٧٦ ـ ١٧٨ . علي الدفاع : إسهام علماء المسلمين في الرياضيات ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .

لهم نظام الترقيم الهندي ، فأخذوا من الرموز المعروفة لديهم ما يناسبهم ، وهي عبارة عن تسعة أشكال سَنَسكْرِيتية (هندية) كان يستعملها أهل الهند في العصور القديمة [١] .

ومهما اختلفت الروايات في نسبة اكتشاف الأرقام إلى الهنود أو إلى المسلمين ، فمن المُسَلَّم به ، أن رياضي العراق ، ومنذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، استخدموا هذه الأرقام وأدخلوا النظام العَشْري [٢] ، الذي أعطى سهولة في كتابة أي عدد مهما بلغت درجة تعقيده [٣] .

ولقد ظهر استعمال الأرقام الهندية ، ولأول مرة في كتاب « الجبر والمقابلة » [٤] ، لمحمد بن موسى الخُوَارَزْمي (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م) [٥] . وإليه يعزى تبسيطها وإيجازها ، وجعلها أسهل مأخذاً [٦] . ومع ذلك ، فقد استمر استعمال (حساب الجُمَّل) في العمليات الحسابية ، حتى بعد شيوع الأرقام الهندية ، إلى النصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، جنباً إلى جنب مع الأرقام الهندية ، وهو ما نجده في مؤلفات أبو الريحان البَيْروني (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) الجغرافية ، والفلكية .

---

(١) البيروني : تحقيق ما للهند ، ص ١٢٢ ـ ١٢٤ ، ١٢٩ .

(٢) النِّظام العَشْري : هو نظام يقوم على فكرة منازل العدد ، حيث يُعبر بمقتضاه عن جميع الأعداد باستخدام عشرة رموز من (٠) إلى (٩) ، حيث يتخذ كل رمز قيمة ناشئة عن موضعه ، أو موقعه ، أي حسب وقوع الرقم في خانة الآحاد ، أو العشرات ، أو المئات ، .. الخ . ولقد فاتت تلك الفكرة علماء اليونان ، وتوصَّل إليها علماء المسلمين ، والتي تعد من أكثر نتائج الفكر البشري عطاءً . علي الدفاع : إسهام علماء المسلمين في الرياضيات ، ص ٤١ .

(٣) إن أهمية تبسيط كتابة الأرقام المعقدة يمكن أن ندركه لو تخيَّلنا مصير التقنية الحديثة المعتمدة على الأرقام في عملها لو استخدمت أساليب اليونان العقيمة في الحساب .

(٤) مطبوع بتحقيق : علي مشرفة ، ومحمد مرسي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

(٥) سيد رضوان : العلوم والفنون عند العرب ، ص ٤٠ .

(٦) صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ٥٨ .

ثانياً : علم الجبر والمقابلة :

شهدت فترة نفوذ الأتراك أول إسهام للمسلمين في حقل الجبر والمقابلة [١] على يد محمد بن موسى الخُوَارَزْمي بمصنفه السابق « الجبر والمقابلة » ، والذي يُعد أيضاً ، أول مُؤَلَّف في تاريخ هذا العلم بصورة علمية [٢] .

وتأتي أهمية هذا العلم كونه ذا قيمة كبرى في الشريعة الإسلامية ، وذلك في المسائل المتعلقة بالميراث ، والتجارة ، ونحو ذلك ، مما يُشكل دافعاً رئيسياً وراء اهتمام علماء العراق بهذا الفن الرياضي ، وهو ما يُعبر عنه الخوارزمي في دوافعة نحو تأليف كتابه السابق ، إذ يقول : ((أَلَّفت من كتاب الجبر والمقابلة كتاباً مختصراً حاصراً للطيف الحساب ، وجليلة لما يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ، ووصاياتهم ، وفي مقاسمتهم ، وأحكامهم ، وتجارتهم، وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين ، وكَري الأنهار ، والهندسة ، وغير ذلك من وجوهه وفنونه)) [٣] .

وعلى الرغم من إجماع مؤرخوا العلوم [٤] على أن علم الجبر في صورته الحديثة من وضع علماء العرب والمسلمين ، وعلى رأسهم الخوارزمي . إلا أن البعض منهم [٥] ، يرى بأنه من الخطأ الافتراض بأن الخوارزمي مؤسس الجبر ، وإنما جدير بأن يكون أول شخص يُخصص للجبر كتاباً يجعله ذا إستقلالية عن علم الحساب .

---

(١) علم الجبر والمقابلة : هو صناعة يُستخرج بها العدد المجهول من قِبل المعلوم المفروض ، إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك . ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٩٦ .

وسُمي هذا العلم بذلك ، لما يقع في المسائل من جبر النقصانات والاستثناءات . ومن المقابلة بالتشبيهات وإلقائها . الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٧٩ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٩٧ .

(٣) الخوارزمي : الجبر والمقابلة ، ص ١٦ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٦٧ . عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ١٩٦ ـ ١٩٧ . قدري طوقان : العلوم عند العرب ، ص ١٠٤ . أحمد الملا : اثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ، ص ١٥٤ . جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٤٥٥ . ويُعلق المستشرق الأمريكي ستانوود كُب حول هذا الأمر بقوله : ((ويدين علم الجبر بالكثير لعلماء الرياضيات الموهوبين في العصر الإسلامي . واسمه يدل على قدر هذا الدين ، لأن اسم الجبر نفسه عربي ، ويعني الربط بين شيء وآخر)) . المسلمون في تاريخ الحضارة ، ص ٩٩ .

(٥) فؤاد سزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ، ص ٧٠ .

والمبعث على هذا الرأي مصدره وجود كتاباً لديوفنطس اليوناني الإسكندري في الجبر بعنوان « صناعة الجبر » [١] ، والذي قام بنقله إلى اللسان العربي قسطا بن لوقا البعلبكي [٢] .

ولكن لا يعني وجود كلمة « الجبر » في عنوان الكتاب تأكيد على أسبقية ديوفنطس في التأليف ، وإنما هو مصطلح شاع استخدامه في العراق منذ ظهور كتاب الخوارزمي [٣] المتوفى في منتصف العقد الرابع من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، كما نعلم ، وترجمة كتاب ديوفنطس جرت في فترة لاحقة لوفاة الخوارزمي على يد قسطا بن لوقا (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن رشدي راشد محقق كتاب ديوفنطس ، وهو أستاذ متخصص في علم الرياضيات ، يؤكد أسبقية الخوارزمي من الناحية العلمية البحتة حيث يقول : ((وما نقوله الآن يختلف تماماً عمَّ يُكرره كثير من المؤرخين مثل « هيث » ، حينما يلصقون بشكل عام وغامض ، اسم ديوفنوطس بالجبر ، وما نقوله هو : أن أعمال ديوفنطس لم تكن جبرية ، ولكنها كانت تحتوي على أدوات جبرية ، سيستفاد منها عندما تكوَّن ، فيما بعد ، بكثير على يد الخوارزمي ، ومن اتبعه الجبر نفسه)) [٤] ، أي أن المعادلات الجبرية التي عالجها ديوفنطس كانت تُعد من أبواب الحساب ، أو الهندسة عند الإغريق [٥] .

لقد قطع رياضيوا العراق شوطاً كبيراً في هذا الحقل الرياضي ، وحقَّقوا العديد من الإنجازات العلمية ، فتوصلَّوا إلى حل معادلات رياضية من الدرجة الأولى ، والثانية والثالثة [٦] . ويُثمِّن بعض مؤرخي الرياضيات قيام علماء العراق بحل المعادلات التكعيبية (الدرجة الثالثة) بوساطة قطوع المخروط ، ويعتبروه من أهم الأعمال التي قام بها المسلمون

---

(١) مطبوع بتحقيق : رشدي راشد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٦٥ .

(٣) سيد رضوان : العلوم والفنون عند العرب ، ص ٤٣ .

(٤) ديوفنطس : صناعة الجبر ، ص ٢٠ (مقدمة المحقق) .

(٥) سيد رضوان : العلوم والفنون عند العرب ، ص ٤٣ .

(٦) أنور الرفاعي : تاريخ العلوم في الإسلام ، ص ١٥٩ . قدري طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، ص ٣٥ .

في علم الجبر والمقابلة . وما أن يُشرف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي على الإنتهاء حتى تكون مباديء الجبر الأوليَّة قد هَذبت ، ورُتبت ، ونُظمت في مؤلفات أبي بكر الكَرْخي ، لا سيما كتاب « الفخري » [1] .

---

(١) قدري طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، ص ٣٠ . عادل أنبوبا الجبر عند العرب ، مجلة تاريخ العلوم العربية ، مج٢ ، ع١ ، ص ٥٩ ـ ٦١ .

ثالثاً : علم الهندسة :

يُعتبر علم الهندسة من العلوم الحيوية التي تلعب دوراً كبيراً في التقدم الحضاري للمجتمعات . وقد لقي على يد فئة من علماءالعراق كل عناية . واهتمام ، نظراً لِما للهندسة من المكانة الأولى في توفير الوسائل والحاجات المادية للإنسان ، وهي من ثَم ذات أثر بعيد في تحديد الأحوال المعاشية ، ورسم الأهداف وتحقيقها على الصعيدين : الاقتصادي ، والاجتماعي لأي مجتمع إنساني .

ولم يكن العراق ، في تلك الفترة ، بيئة جديدة للمعارف الهندسية ، وإنما كان بقعة لتراكمات حضارية متعاقبة في الهندسة ، إذ قدَّم العراقيون القدامي منجزات هندسية متميزة ، وابتكارات رائعة ، مما كان له أعمق الأثر في التقدم الحضاري ، وما رسَّخه العراقيون من قواعد أساسية للهندسة منذ نشأة حضارات وادي الرافدين في عصر ما قبل التاريخ ، وما حققه العبيديون ، والسومريون ، والأكاديون ، والبابليون في شتى مجالات الهندسة ، كالهندسة الزراعية ، وهندسة الرَّيّ ، وهندسة البناء ، وهندسة الطرق والجسور ، والهندسة الميكانيكية ، وهندسة المساحة ، والهندسة العسكرية ، وغيرها [١] .

وكان للكتب اليونانية في الهندسة المنقولة إلى العربية دور مؤثر في تفعيل الدراسات الهندسية في العراق في تلك الفترة ، لا سيما كتاب « أصول الهندسة » لأقليدس [٢] ، الذي يُعد من أشهر الكتب الإغريقية التي ترجمها علماء العراق أكثر من مرة في ترجمات مُذَّيلة بتعليقات ، وهوامش ، مع حواش ، وإضافات .

وفي فترة نفوذ الأتراك ، قام ثابت بن قُرَّة الحرَّاني (ت ٢٨٨هـ/٩٠١م) بتهذيب كتاب أقليدس وإصلاحه في نسخة معتبرة ، تلقَّاها علماء الرياضيات بالقبول [٣] . في حين تناول غيره من علماء الرياضة هذا الكتاب بالشرح ، والتعليق ، والتوضيح ، كما صنع يعقوب

---

(١) لمزيد من الفائدة حول هذا الموضوع ، انظر : جميل الملائكة : أساسيات الهندسة في العراق القديم ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج٢٤ ، ج١ ، ص ٢٢ ـ ١٣٩ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٢٧ .

(٣) مخطوط بمكتبة الفاتح في إسطنبول ، برقم (٣٤٢٩) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (١٧١/٤) .

بن إسحاق الكِنْدِي (ت ٢٦٠هـ/٨٧٤م) في رسالته « أغراض كتاب أقليدس » ، ورسالتة الأخرى : « إصلاح كتاب أقليدس » [١] ، وقُسْطا بن لُوقا البَعْلَبَكي (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) في كتابيه : « شكوى أقليدس » ، و « استخراج المسائل العددية من المقالة الثالثة من كتاب أقليدس » [٢] .

ويأتي الاهتمام بكتاب أقليدس على هذا النحو على إعتبار أنه ((مبدأ العلوم الهندسية على الإطلاق)) [٣] ، إذ يمتاز بكونه أول كتاب توجد فيه روح البرّهنة الرياضية السليمة ، التي أصبحت فيما بعد ، مناراً للبراهين المنطقية في كثير من فروع المعرفة ، ولذا عُدَّ هذا الكتاب من أعظم الكتب التعليمية التي أثَّرت في تطور الرياضيات منذ حدود عام (٣٠٠ ق.م) وحتى اليوم [٤] .

فأخذ علماء العراق الرياضيين بإكمال نواقص هندسة أقليدس ، وزادوا عليها مسائل وقضايا جديدة ، ضمّنوها صفحات مؤلفاتهم الهندسية ، جاءوا ببراهين على ما ذكره أقليدس دون أن يبرهن عليه ، ووضعوا مسائل هندسية جديدة ، وكثيراً ما استطاعوا تعميم قضايا هندسية كانت محصورة في إطار محدد [٥] .

وتناول رياضيوا العراق أيضاً المصطلحات الهندسية اليونانية التي جاءت في كتاب أقليدس ، فأزالوا عنها ما كان يَنتابُها من الغموض ، وأجروا عليها بعض الإضافات ، وعرّفوها تعريفاً أكثر وضوحاً من ذي قبل ، وقسّموها إلى أقسام ، كالخطوط ، والزوايا ، والعمود ، والوتر ، وغيرها [٦] .

---

(١) البغدادي : هدية العارفين ، (٥٣٩/٢) .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٣٠ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٩٨ .

(٤) محمد الظاهر : نظرية التوازي وأثر العرب فيها ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج٥ ، ص ١٤١ . وفي هذا البحص يناقش كاتبه أثر كتاب أقليدس في الهندسة عند المسلمين عموماً ، ومناقشة جهود المسلمين ، ومن ضمنهم علماء العراق في محاولة إثبات نظرية التوازي التي لم يصل فيها أقليدس إلى حل .

(٥) فؤاد سزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ، ص ٧٤ ــ ٧٥ .

(٦) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٨١ ــ ١٨٩ . أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٤٤٧ .

وظهرت على الساحة العلمية في ذلك الوقت ، العديد من المحاور في الهندسة كانت بمثابة القضايا التي شغلت علماء العراق في ذلك الوقت ، وامتد بعضها إلى الفترة اللاحقة لفترة نفوذ الأتراك .

ومن هذه القضايا ، نظرية الخطوط المتوازية ، أو نظرية التَّوازي [١] ، وتَسْبيع الدائرة [٢] ، وهي قضايا كانت مُثارة منذ أيام اليونانيين [٣] .

كما لقيت دراسة هندسة الأشكال الكُرَوية ، والمخروطات ، وتسطيح الكرة ، وغيرها من الموضوعات عناية رياضي العراق ، وكانت لهم فيها استنباطات جليلة ، لا سيما في موضوع تسطيح الكرة ، والذي يُعتبر من الموضوعات الهندسية العسيرة [٤] .

إن ازدهار العراق خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلادي، والرُّقي المادي المتُمثِّل في مظاهر العمران الرائعة التي وصفتها المصادر التاريخية . فكانت المشاريع التنموية ، والفنون الزُّخرفية كل ذلك مرآة لمدى تقدُّم علم الهندسة في العراق بفروعه المختلفة .

---

(١) روز نفيلد : نظرية الخطوط المتوازية ، ص ٨ . ويستعرض المؤلف في كتابه هذا جهود علماء المسلمين ، ومن ضمنهم علماء العراق في تلك الفترة ، كأبي يوسف الكندي ، وثابت بن قرة ، وأبي العباس اليزيدي ، ومباحثهم في نظرية المتوازيات ، والنتائج الإيجابية التي تحققت في هذا الأمر .

(٢) يقصد بتسبيع الدائرة : عمل شكل مُسَبَّع في الدائرة متساوي الأضلاع ، بتقاطع خطوط مستقيمة ودوائر . عادل أنبوبا : قضية هندسية ومهندسون في القرن الرابع الهجري (تسبيع الدائرة) ، مجلة تاريخ العلوم العربية ، ع٢ ، ص ٧٣ .

(٣) هذه القضية انقدحت لأول مرة عند المسلمين في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي عندما نقل ثابت بن قرة مقالة منسوبة إلى اليوناني « أرشميدس » في تسبيع الدائرة ، وقد تَلَف نَصُّها اليوناني ، ولكن حفظتها(لتاريخ الهندسة) ترجمتها العربية التي قام بها ثابت . وتوجد نسخة منها بدار الكتب المصرية في القاهرة ، برقم (٤٨ رياضة/ مجاميع) ، الأوراق : [١٠٥ب ــ ١١٠أ] . ولقد قضى ثابت ، ثم ابنه سنان ومن بعدهم حفيدة إبراهيم ، جهوداً في ذلك ، ولكن لم يتأت لهم ولا لغيرهم من المهندسين المعاصرين حل هذه القضية المستعصية ، وظلَّت هذه القضية مُستغلقاً حتى بعد منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي . انظر : المقال السابق ، ص ٧٣ ــ ٧٤ ، ٧٥ ــ ٧٦ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

رابعاً : علم حساب المثلثات :

عندما تلقّى الرياضيون والفلكيون العراقيون المعلومات الخاصة بعلم حساب المثلثات من الإغريق ، لم تكن تُلبّي أو تساير خط التطوير لبقية العلوم الرياضية ، والعلوم ذات العلاقة . فاضطروا إلى تطويرها لمقاييسهم في الجغرافيا ، وعلم الفلك ، والهندسة [١] .

وبفضل تكثيف جهود علماء العراق بدءاً من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، للقيام بدراسات مستفيضة في موضوعاته ، برز علم حساب المثلثات كعلم مستقل عن الفلك ، بعد أن كان يُعالج على مدى قرون عديدة في أبواب كُتب علم الفلك ، كخادم له ولعلم الجغرافيا أيضاً [٢] .

ومنذ منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، أخذ رياضيوا العراق ، في محاولات مستمرة ، باستخدام حساب المثلثات لإيجاد طريقة تُسهِّل لهم حساب مسافات مختلفة على الكرة الأرضية بطريقة غير مباشرة ، وذلك على يد علماء من أمثال : الخوارزمي ، وثابت بن قرة ، والبتاني ، وأحمد بن عبد الله الحاسب ، وغيرهم [٣] .

وإذا كان حساب المثلثات عند المسلمين قام على نظرية بطليموس ، إلا أنه سرعان ما اصطبغ بصبغة إسلامية خاصة ، فاتخذ عندهم شكلاً جبرياً بدلاً من الشكل الهندسي عند بطليموس .

ولذلك كله ، اعتبر مؤرخوا العلوم أن علم حساب المثلثات علماً عربياً خالصاً ، كما اعتبروا الهندسة علماً يونانياً [٤] .

---

(١) فؤاد سزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ، ص ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٣) علي الدفاع : إسهام علماء المسلمين في الرياضيات ، ص ٨٤ . ويضرب الدفاع مثالاً لاستخدامات حساب المثلثات في قياس مسافات يستحيل مادياً قياسها ، كقياس إرتفاع الهرم الأكبر في مصر ، على سبيل المثال .

(٤) قدري طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، ص ٥١ .

خامساً : علم الهيئة (الفلك) :

يُعد علم الهيئة [١] أحـد العلوم الرياضـيـة في ذلك الوقت [٢] ، وهـو أمـر واقـع وملموس ، نظراً لتداخله مع بقية العلوم الرياضية السابقة ، ومصدر هذا التداخل هو حاجة الفلكي إلى تلك العلوم أثناء قيامه بأرصاده الفلكية ، والشاهد على ذلك ، أن أكثر العلماء الذين اشتغلوا بالرياضيات (الحساب ، والهندسة ، والجبر والمقابلة ، وحساب المثلثات) ، هم أنفسهم الذين أثْروا الدراسات الفلكية ، وهو ما سنلحظه عند استعراض العلماء البارزين في العلوم الرياضية .

وجذور معرفة أهل العراق بعلم الهيئة ضاربة في أعماق التاريخ ، إذ كانت أُسسه الأولى قد وضِعت في بلادهم منذ عهد البابليين [٣] ، وفي العهد الإسلامي زادت العناية بهذا العلم لأهميته الكبيرة لبعض الواجبات الدينية ، إضافة إلى اهتمام الخلفاء العباسيين بالأمور الفلكية [٤] ، ولذا أُعتبر علم الهيئة من العلوم الرفيعة عند علماء العراق ، وذلك للفوائد الجمَّة التي يجنيها من عُني بدراسـة هـذا العلـم ، ويُجملها البتَّاني (ت ٣١٧هـ/٩٢٩م) بقوله : ((إن من أشرف العلوم منزلة ، وأسنَها مرتبة ، وأحسنها حلية ، وأعلقها بالقلوب ، وألمها بالنفوس ، وأشدها تحديداً للفكر والنظر ، وتذكيـة للفهم ، ورياضـة للعقـل بعـد العلم ، بما لا يسع الإنسان جهله من شرائع الدين وسنته ، علم صناعة النجوم ، لما في ذلك من

---

(١) علم الهيئة ، ويعرف « بعلم صناعة النجوم » أيضاً : « وهو العلم الذي يُعرف منه أحوال الأجرام البسيطة ، العلوية والسفلية ، وأشكالها ، وأوضاعها ، ومقاديرها ، وأبعادها » . الأنصاري : اللؤلؤ النظيم ، الورقة : (٢ب) . طاش كبري زاده : مفتاح السعادة ، (٣٧٢/١) . وناقش عبد الأمير مؤمن في كتابه « التراث الفلكي » ، ص ١٧ ـ ٢٩ ، قضية اختلاف مصطلحات علم الفلك في ذلك الوقت ، والميادين التي كانت تندرِج تحته ، والفرق بينه وبين التَّنجيم .

(٢) المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص ١٢ .

(٣) أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ص ٤٦٠ .

(٤) انظر عن دوافع الاهتمام بعلم الفلك في تلك الفترة : علي الدفاع : أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك ، ص ٣٠ ـ ٣١ .

جسم الحظ ، وعظيم الانتفاع بمعرفة مدة السنين ، والشهور ، والمواقيت .. ومعرفة كُنْه عظمة الخالق (عز وجل) ، وسعة حكمته ، وجليل قدرته ، ولطيف صنعه)) [١] .

ويُعتبر كتاب « المجَسْطي » لبطليموس [٢] ، من أهم كتب اليونان المنقولة إلى العربية ، التي ساعدت على تقدم علم الفلك [٣] في العراق خلال فترة نفوذ الأتراك ، والتي تعتبر فترة مهمة في بداية ازدهار الدراسات الفلكية في تاريخ العلوم الإسلامية وقام بنقله إسحاق بن حنين ، وأصلحه ثابت بن قرة [٤] .

كما كان لترجمة كتاب « المقالات الأربع في أحكام النجوم » لبطليموس أيضاً ، على يد إبراهيم بن الصلّت ، وأصلحه حنين بن إسحاق [٥] ، إضافة إلى كتاب « أصول الهندسة » لأقليدس ، السابق ذكره ، من تأثير واضح في علم الهيئة في ذلك الوقت ، إذ استعان بها علماء الفلك ، وتعلّموا منها فن وضع البراهين الهندسية ، ونجحوا في تطبيقها عملياً في الفلك ، والمتمثلة في الأرصاد التي قاموا بها [٦] .

ولم يقف علماء العراق موقف المتلقِّي إزاء المعارف الفلكية للأمم التي سبقتهم في هذا الأمر ، كاليونان ، والبابليين ، والهنود ، والسُّريان ، وغيرهم . وإنما قاموا ، كما فعلوا في بقية العلوم التطبيقية الأخرى ، بتمحيص آراء فلكي تلك الأمم التي وصلت مؤلفاتهم إليهم ، وأمعنوا النظر فيها بفضل عملية الترجمة النشطة في تلك الفترة ، فزادوا عليها ، وأوضحوا مستغلقها ، وصححو أخطائهم التي وقعوا فيها على نحو ما فعل : الفَضل بن حاتم النَّيْرِيزي ، ومحمد بن جابر البتَّاني بكتاب « المجسطي » ، وعضَّدوا دراساتهم النظرية بالقيام بعملية الرَّصد ، وجميع الطرق العملية التي توضِّح مصداقية النظريات من عَدمِها [٧] .

---

(١) الزيج الصابيء ، ص ٦ .

(٢) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٩٦ .

(٣) كرلو نلينو : علم الفلك ، ص ٢٢٠ .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٤٣٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٣٠ .

(٦) أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٤٦١ .

(٧) البتاني : الزيج الصابي ، ص ٧ . صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ٩٠ ـ ٩١ .

فتوصلّوا إلى نتائج ذات قيمة عالية في تاريخ الفلك العام ، فتمكّنوا من تحديد مواقع عدد كبير من النجوم ، وطول السنة الشمسية ، وقالوا بدوران الأرض حول محورها ، كما ضبطوا حركة أوْج الشمس [١] ، ورصدوا الإعتدالين ، الخريفي والربيعي ، كما قالوا بكروية الأرض ، وحركتها حول الشمس [٢] .

ومن النتائج المهمة التي توصلّ إليها علماء العراق في علم الهيئة ، أن جعلوه علماً رياضياً مستنداً على أعمال الأرصاد ، وعلى الأصول الحسابية والهندسية لتعليل الظواهر الفكلية [٣] ، وأخرجوا ، لأول مرة ، أزياجاً فلكية [٤] ، واستخدموا في تحديد أبعاد الكواكب والمسافات « حساب الجُمَّل ، وضمَّنوها مصنفاتهم الفلكية بدلاً من الأرقام ، على الرغم من شيوع الأخيرة في ذلك الوقت [٥] . واشتهر عدد من الأزياج منسوبة إلى العلماء الذين قاموا بعملها . ومن اشهرها في ذلك الوقت [٦] .

١ ـ زيج محمد بن موسى الخُوَارَزْمي (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م) .

٢ ـ زيج أبو معَشْر جعفر بن محمد البَلْخي (ت ٢٧٢هـ/٨٨٥م) .

٣ ـ زيج جمال الدين أبي القسام بن محفوظ المَنَجِّم البغدادي ، كان في عهد المقتدر (ت ٢٩٥هـ/٩٠٨م) .

---

(١) أوْج الشمس : أي أبعد نقطة في الأرض تصل إليها الشمس . الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٩٨ .

(٢) عن هذه المنجزات وغيرها ، انظر : المسعودي : مروج الذهب ، (٨٦/١) . حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ص ١٨٧ ـ ١٩٤ . قدري طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، ص ٨٢ ، ١٠٤. حميد موراني : تاريخ العلوم عند العرب ص ٦٩ ـ ٧٠ . كامل حمود : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ، وغيرها من الكتب التي أرَّخت للعلوم عند المسلمين .

(٣) عبد الحميد صبرة : تاريخ العلوم عند العرب ومشكلاته ، أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ، ص ٦٣ .

(٤) الزِّيج : جداول فلكية يُعرف منها سير النجوم ، ويُستخرج بواسطتها التقويم سنة وسنة . المعجم الوسيط ، ص ٤٣٣ .

(٥) ويمثل كتاب « الزيج الصابيء » للبتَّاني أكبر الشواهد على استخدام الحروف بدلاً من الأرقام في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي .

(٦) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ص ٢٠٠ .

واستكمالاً للمنجزات العلمية ، أقيمت في العراق المراصد الفلكية التي استعان بها علماء الفلك في القيام بأرصادهم ، وتسجيل النتائج . وقد أنشأ الخليفة المأمون أول مرصد في العراق بضاحية الشَّمَّاسِيَّة في بغداد [١] . كما أنشأ بنو موسى بن شاكر مرصدين في العراق ، **الأول** على طرف الجسر المتصل بباب الطَّاق في بغداد [٢] ، **والثاني** أقاموه بمدينة سُرَّمَنْ رأى ، وكانت فيه آلة ذات شكل دائري تحمل صور النجوم ، ورموز الحيوانات في سطحها ، وتُديرها قوة مائية ، وكان كلما غاب نجم في قبة السماء اختفت صورته في اللحظة ذاتها في الآلة ، وإذا ما ظهر نجم في قبة السماء ظهرت صورته في الخط الأفقي من الآلة ، كما يذكر ابن رَبَّن الطبري (ت ٢٤٧هـ/٨٦١م) ، الذي زار هذا المَرْصد [٣] . وهناك مرصد بني الأعْلَم ببغداد [٤] .

ومن خلال الاهتمام بعمليات الرَّصد ، وإنشاء المراصد الفلكية ، كانت هناك عناية بآلات الرصد ، وكيفية استخدامها . حيث استخدم فلكيوا العراق العديد من آلات الرصد ، كالأُصْطُرْلاب [٥] ، والمِزْوَلة ، ذات الأوْتار ، وذات الحلْق ، وذات الجـيْب ، وذات الشُّعْبـتين ، وغيرهـا [٦] . وصنَّف بعض الفلكيين كتبـاً عن بعض هذه الآلات ، وخاصـة الإصطرلاب ، كما سيُذكر في حينه عند استعراض مولفات علماء العلوم الرياضية .

---

(١) صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٣٣ . والشَّمَّاسِيَّة : وتسمى « باب بغداد » أيضاً ، وهي موضع يقع في الجانب الشمالي الشرقي من بغداد . اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٥٤ .

(٢) عبد الأمير مؤمن : التراث الفلكي ، ص ٨٤ . وباب الطَّاق : أحد ضواحي مدينة بغداد الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (١/١١٦) .

(٣) ابن ربن الطبري : فردوس الحكمة ، ص ٥٤٨ .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ، (١/٩٠٧) . ومن فلكي هذا المرصد ، علي بن الحسن العلوي المعروف بابن الأعْلَم (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م) ، صاحب الزيج . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٣٥ .

(٥) يضم متحف الكويت الوطني أقدم أصطرلاباً مؤرخ معروف حتى الآن ، صنعه رجل يُدعى : نسطولس سنة (٣١٥هـ/٩٢٨م) ، كما هـو موجود على ظهر كُرسِيِّه ، وذكر السِّجْزِي أن إسم نسطولس هو : محمد بن عبد الله المعروف بنسطولس (كذا بالنون) ، وصفه بأنه : كان حاذقاً ، ذكياً في استخراج الآلات النجومية ، لطيف الكف في صنعتها . حصة الصباح : العلوم عند المسلمين ، ص ١٧ .

(٦) انظر عن هذه الآلات ، وتعريفها ، الخوارزمي : مفتاح العلوم ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

ولقد تصدَّى للعلوم الرياضية الخمسة السابقة ، العديد من علماء العراق ، الذين تناولوا مختلف الموضوعات التي جاءت في هذه العلوم ، وكان للكثير منهم الأثر الكبير في تاريخ العلوم الرياضية العام .

ومن أبرز هؤلاء العلماء ، **أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي** (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م) الذي توزَّعت جهوده بين فروع العلوم الرياضية ، وكان له في بعض هذه العلوم قصب السبق بين علماء المسلمين ، كتبسيطه لحساب العدد الهندي [١] ، وإخراجه لأول كتاب يَفصل علم الجبر عن الحساب ويجعله علماً قائماً بذاته ، كما رأينا .

وكان الخوارزمي من أوائل من قاموا بحساب الجداول الفلكية ، وجداول حساب المثلثات [٢] . ويتناول الخوارزمي في أحد فصول كتابه « الجبر والمقابلة » ، وهو : باب المساحة ، العديد من القضايا الهندسية مع إيراده للرسومات التوضيحية [٣] . كما كانت للخوارزمي مكانة في الفلك من خلال أزياجه (جداوله) الفلكية .

ومن أهم ما تركه الخوارزمي من مؤلفات في العلوم الرياضية : كتاب « الجبر والمقابلة » ، وسق لنا الحديث عنه ، كتاب « الزيج الأول » ، كتاب « الزيج الثاني » ، وعلى هذين الزيجين كان تعويل الناس قبل الرصد ، وبعده [٤] . كتاب « الرخامة » ، كتاب « العمل بالأصطرلاب » ، كتاب « عمل الأصطرلاب » [٥] .

ومن المتقدمين في علم الهيئة بالعراق أيضاً ، **محمد بن عبد الله بن عمر بن البازيار البغدادي** (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م) ، وهو تلميذ العالم الفلكي المُحاسبي أحمد بن عبد الله المعروف بحَبَش (ت ٢٢٠هـ/٨٣٥م) ، وعلى يديه تلقَّى معارفه في علم الهيئة ، وكان البازيار أحد المتقدمين في أحكام النجوم منذ أيام الخليفة الواثق ، وكان في جملة

---

(١) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٦٧ .

(٢) على الدفاع : اسهام علماء المسلمين في الرياضيات ، ص ٦٢ .

(٣) الجبر والمقابلة ، ص ٥٤ ـ ٦٦ .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩

(٥) البغدادي : هدية العارفين ، (٢/٩) .

ندمائه [١] . وترك ابن البازيار عدداً من الكتب الفلكية ، منها : كتاب « الزيج » ، كتاب « القرنات وتحويل سني العالم » ، كتاب « المواليد وتحويل سنيها » [٢] .

ومن العلماء المشهورين في ميدان العلوم الرياضية ، **أبو العباس أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني** (كان حياً سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م) . ولد بفَرْغَنه [٣] ، وعاش ببغداد ، وكان أحد كبار علماء الفلك وأحكام النجوم . خدم في الفلك الخليفة المأمون لبراعته في علم أحكام النجوم [٤] .

وحدّد الفرغاني أحكام الكواكب بالنسبة للأرض ، وهي : ١/٣٩ من حجم الأرض ، عطارد (١,٣٢٠٠٠) ، الزهرة (١,٣٧) ، الشمس (١٦٦ ضعفاً) للأرض ، المريخ (١٥,٨) ، المشتري (٩٥ ضعفاً) للأرض ، زحل (٩٠ ضعفاً) للأرض [٥] .

كما كان الفرغاني بارزاً في علم الهندسة ، مما دفع بالخليفة المتوكل أن يعهد إليه في سنة (٢٤٧هـ/٨٦١م) بناء « مقياس النِّيل » بأرض الجزيرة في مصر . وهو المقياس الكبير المعروف « بالجديد » ، ونجح الفرغاني في بناء المشروع وكتب اسمه عليه ، وكانت النفقة عليه كبيرة [٦] .

وفي عهد المتوكل أيضاً ، كما مَرَّ معنا ، تولّى الفرغاني مهمة إنجاز مشروع نهر الجَعْفَري ، الذي قرر المتوكل حفره ليوصل المياه إلى مدينة المُتَوَكِّلِيَّة التي بناها شمالي سُرَّمَنْ رأي ، على الرغم من أن المتوكل قد عهد بهذا العمل إلى أبناء موسى بن شاكر ،

---

(١) القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٨٦ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٤٠ .

(٣) فَرْغَانه : إحدى مدن بلاد ما وراء النهر الواسعة ، ومن ولاياتها : خُجَنْدَة . وهي اليوم أهم مقاطعة في جمهورية قِرْغيزيا ، إحدى الجمهوريات الروسية المستقلة . النرشخي : تاريخ بخاري ، ص ٢٨ . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٢٥٣/٤) . سيد رضوان : فتوح البلدان للبلاذري ، مجلة عالم الكتب ، مج٦ ، ع٣ ، ص ٤٠٠ .

(٤) صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٤١ .

(٥) ألدوميلي : العلم عند العرب ، ص ١٦٧ .

(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٨٦ .

الذين عهدوا بدورهم إلى الفرغاني هذه المهمة ، وأنجز الأخير هذه المهمة ، إلا أن هناك خطأً حدث في حساب ارتفاع صدر النهر عن مستوى الماء في نهر دجلة ، فلم يجرِ فيه الماء بصورة مستديمة .

وترك الفرغاني الكثير من المصنفات في العلوم الرياضية ، خاصة في علم الهيئة ومن هذه المصنفات : كتاب « المدخل إلى علم النجوم » (١) ، وأثنى عليه صاعد الأندلسي بقوله : ((وهو كتاب لطيف الجرم ، عظيم الفائدة ، يتضمن ثلاثين باباً احتوت على جوامع كتاب المجسطي ، بأهذب لفظ وأبين عبارة)) (٢) ، كتاب « الجمع والتفريق » (٣) . ولقد حدث خلط عند بعض الباحثين بين أحمد الفرغاني ووالده في نسبة بعض المؤلفات (٤) .

وفي هذا العصر ، كان **لبني موسى بن شاكر** (القرن ٣هـ/٩م) ، جهوداً واضحة في فروع العلم الرياضي ، إضافة إلى جهودهم في حقلي : الفيزياء ، وعلم الحيل ، وسجَّلوا العديد من المنجزات العلمية في العلوم الرياضية (٥) ، ولقد اشتهر أخوهم الأكبر ، **محمد** ، بتقدمه في الهندسة . أما **أحمد** ، فكان له ميل إلى علم الهيئة وصنف فيه أيضاً . أما أصغرهم ، **الحسن** ، فقد كان أحد المنفردين في حقل الهندسة وحساب المثلثات ، على نحو ما تم ذكره في موضع سابق .

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ٤٤٨ .

(٢) صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٤١ .

(٣) النديم : الفهرست ، ص ٤٤٨ .

(٤) أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٤٨٥ . حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ص ٢٠٣ . حيث نسبوا في ترجماتهم للفَرْغَاني كتباً هي في الأصل لوالده ، محمد بن كثير ، وكان أحد المتقدمين في صناعة التنجيم ، ومن كتبه التي نسبها عبد الباقي ، ونجيب إلى أحمد : كتاب « الفصول » ، كتاب « اختيار المجسطي » ، كتاب « عمل الرخامات » . النديم : الفهرست ، ص ٤٤٤ .

(٥) انظر عن هذه المنجزات على سبيل المثال : بنو موسى بن شاكر الحيل ، ص ٢٤ ـ ٣٠ (مقدمة المحقق) . عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ . رشدي راشد : تاريخ الرياضيات العربية ، ص ٢٤ ، ٦٣ ، ٢٣٠ .

وتوزَّعت مؤلفات بني موسى بن شاكر بين فروع العلوم الرياضية ، ومنها : كتاب « معرفة مساحة الأشكال البسيطة والكروية » [١] ، كتاب « مقدمة كتاب المخروطات » [٢] . كتاب « الدرجات في طبائع البروج » [٣] ، كتاب « أحكام الدرج للمواليد » [٤] ، كتاب « الشكل المدور المستطيل » للحسن ، كتاب « حركة الفلك الأولى » ، لمحمد ، كتاب « الشكل الهندسي الذي بين جالينوس أمره » لمحمد ، كتاب « أنه ليس في خارج كرة الكواكب الثابتة كرة تاسعة » لأحمد ، كتاب « في أولية العالم » لمحمد ، كتاب « مساحة الكرة وقسمة الزواية بثلاثة أقسام متساوية » ، كتاب « الجداول الفلكية » ، كتاب « أرصاد أحوال الهواء » ، كتاب « حول الكرة » ، كتاب « علة الأصطرلاب » [٥] .

ومن معاصري بني موسى بن شاكر في حقل العلوم الرياضية ، **أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي** (ت ٢٦٠هـ/٨٧٤م) ، الذي تميز بالموسوعية وتعدد العلوم التي عُني بدراستها والتأليف فيها ، ومنها العلوم الرياضية . ويعتبر الكندي العلوم الرياضية أم الفلسفة ، وتَنص إحدى رسائله على أنه لا تنال الفلسفة إلا بعلم الرياضيات [٦] .

وفي ميدان الفلك ، كانت للكندي دراسات وممارسات عملية للأرصاد ، ومنها رصده لأحد المُذَنَّبات التي ظهرت في سماء العراق سنة (٢٢٢هـ/٨٣٧م) ، وقام برصده وتتبع حركته ، ثم وضع أربع رسائل ضمَّنها نتائج هذه المهمة العلمية ، وهي : رسالة « في ما رصد من الأثر العظيم في سنة ٢٢٢هـ » ، رسالة « في الكوكب ذي الذؤابة ، رسالة « في الكوكب الذي ظهر ورصد إياماً ثم اضمحل » ، رسالة في الأثر الذي يظهر في الجو ويسمى كوكباً » [٧] .

---

(١) مخطوط بمكتبة برلين (ألمانيا الإتحادية) برقم (٥٨٣٨) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (١٦٧/٤) .

(٢) مخطوط بمكتبة آيا صوفيا في إسطنبول ، برقم (٢٧٦٢) ، ٤١٥هـ . المرجع السابق ، (١٦٨/٤) .

(٣) مخطوط بمكتبة نور عثمانية في إسطنبول ، برقم (٢٨٠٠) . المرجع السابق ، (١٦٨/٤) .

(٤) مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني في لندن ، برقم (٥٠١) . المرجع السابق ، (١٦٨/٤) .

(٥) النديم : الفهرست ، ص ٤٣٥ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٣١٦ .

(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٨٩ .

(٧) البغدادي : هدية العارفين ، (٥٤٣/٢) .

وللكندي كتباً ، ورسائل عدة في ميدان العلوم الرياضية ، وهي ، بالإضافة إلى ما سبق : كتاب « دوائر همرج » [١] ، رسالة « في المدخل إلى الأرثماطيقي » ، رسالة « في استعمال الحساب الهندي » ، رسالة « في تأليف الأعداد » ، رسالة « في الكمية المضافة » ، كتاب « في التوحيد من جهة العدد » ، كتاب « في الحيل العددية وعلم أضمارها » ، رسالة « في التوحيد من جهة العدد » ، كتاب « في أن الكرة أعظم الأشكال الجرمية ، والدائرة أعظم من جميع الأشكال البسيطة » ، رسالة « في تسطيح الكرة » ، رسالة « في عمل السمت على كرة » ، رسالة « في أغراض كتاب أقليدس » ، رسالة « في إصلاح كتاب أقليدس » ، كتاب « في تقريب وتر الدائرة » ، كتاب « في كيفية عمل دائرة مساوية لسطح إسطوانة مفروضة » ، كتاب « قسمة الدائرة ثلاثة أقسام » ، رسالة « في عمل آلة يعرب بها بعد المعاينات » ، رسالة « في معرفة أبعاد قلل الجبال » ، رسالة « في تركيب الأفلاك » ، كتاب « في أن طبيعة الفلك مخالفة لطبائع العناصر الأربعة ، وأنها طبيعة خامسة » ، رسالة « في المناظر الفلكية » ، رسالة « في سرعة ما يرى من حركة الكواكب إذا كانت في الأفق ، وإبطائها كلما علت » ، كتاب « في إيضاح علة رجوع الكواكب » ، رسالة « في رجوع الكواكب المتحيرة » ، رسالة « في ما ينسب إليه كل بلد من البلدان إلى برج من البروج وكوكب من الكواكب » ، رسالة « في علل الأوضاع النجومية » ، رسالة « في أن رؤية الهلال لا تضبط بالتحقيق ، وإنما بالقول فيه بالتقريب » ، رسالة « في الاستدلال بالكسوفات » ، رسالة « في تقدمة المعرفة بالاستدلال بالأشخاص السماوية » ، رسالة « في دلائل النحسين [٢] في برج السرطان » ، ومصنفات أخرى [٣] .

ويُعد **أبو معشر جعفر بن محمد البلخي** (ت ٢٧٢هـ/٨٨٥م) ، الذي ولد بِبَلْخ [٤] ، وعاش ببغداد أكثر عمره ومسكنه فيها بباب خراسان ، وتوفي بواسط ، أحد

---

(١) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة ، برقم (٦٢ فلك) ، (٨١ ورقة) .

(٢) النَّحْسَيْن : كوكبا : المريخ وزحل . الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ٢٠٢ .

(٣) النديم : الفهرست ص ٤١٥ ـ ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٣ .

(٤) بَلْخ : من أجلّ مدن إقليم خُرَاسان ، وأكثرها خيراً . فُتحت أيام عثمان بن عفان (رضي الله عنه) على يد الأحنف بن قيس ، وينسب إليها العديد من مشاهير الأعلام ، وهي اليوم إحدى مدن جمهورية أفغانستان الشمالية . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (١/٤٧٩ ـ ٤٨٠) . الذهبي : الأمصار ذوات الآثار ، ص ٨٦ ـ ٨٨ .

علماء العصر الذين اشتهروا في صناعة أحكام النجوم ، ويقال أنه تعلَّم هذه الصنعة بعد السابعة والأربعين من عمره ، فأحسن الإصابة فيها ، وأصبح من المبرِّزين في وقته ، علماً وتأليفاً . وكان أبو معشر مع ذلك من أعلم الناس بسيَر الفرس ، وأخبار سائر العجم [١] . كما كان أحد مُنجِّمي عدد من الخلفاء العباسيين ، كالمستعين ، ثم المعتز ، وكذلك الأمراء ، كالأمير الموفق [٢] .

وخلَّف أبو معشر العديد من المصنفات في علم الهيئة ، منها : كتاب « أحكام المواليد » [٣] ، وهو كتاب في التنجيم أكثر منه في دراسة الفلك . كتاب « المدخل الكبير إلى علم أحكام النجوم » [٤] ، كتاب « مواليد الرجال والنساء » [٥] ، كتاب « القرانات في البروج الإثنى عشر واتصالات الكواكب بعضها البعض » [٦] ، كتاب « أحكام تحويل سني المواليد » [٧] ، كتاب « اختيارات الساعات » [٨] ، كتاب « النكت والأسرار » [٩] ، رسالة « في علم الأصطرلاب » [١٠] ، كتاب « مسائل القمر » [١١] ، وغيرها من المصنفات [١٢] .

---

(١) انظر ترجمة البَلْخي في : النديم : الفهرست ، ص ٤٤١ ـ ٤٤٢ . صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، (٤٧٦/١ ـ ٤٨٠) . الذهبي : الأمصار ذوات الآثار ، ص ٨٦ ـ ٨٨ .

(٢) التنوخي : الفرج بعد الشدة . (٩٣/١ ـ ٩٤) . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٥٣ .

(٣) مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية في القاهرة ، برقم (٤ فلك) ، (١٦ ورقة) .

(٤) مخطوط بمكتبة نور عثمانية في إسطنبول ، برقم (٢٨٠٦) . كارل روكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٢٠٧/٤) .

(٥) مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني في لندن ، برقم (٤٢٥ ، رقم٤) . المرجع السابق ، (٢٠٧/٤) .

(٦) مخطوط بمكتبة طوب قابو سراي في إسطنبول ، برقم (٣٤٤٦ ، رقم٦) . المرجع السابق ، (٢٠٧/٤) .

(٧) مخطوط بالمكتبة الأهلية في باريس ، برقم (٢٥٨٨) . المرجع السابق ، (٢٠٨/٤) .

(٨) مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني في لندن ، برقم (٤٤٥ ، رقم ١٢) . المرجع السابق ، (٢٠٨/٤) .

(٩) مخطوط بالمكتبة السابقة ، برقم (١١٢١٤) . المرجع السابق ، (٢٠٨/٤) .

(١٠) مخطوط بالمكتبة السابقة ، برقم (٤٤٥) . المرجع السابق ، (٢٠٩/٤) .

(١١) مخطوط بمكتبة برلين (ألمانيا الإتحادية) ، برقم (٦٦١٧، رقم١) . المرجع السابق ، (٢١٠/٤) .

(١٢) البغدادي : هدية العارفين ، (٢٥١/١) .

من العلماء الذين صرفوا شطراً من حياتهم العلمية في علم الهيئة ، **أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري** (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) ، الإخباري النباتي ، إذ كان متفنناً في علوم كثيرة ، كما رأينا ، وفي حقل الفلك كان لأبي حنيفة مؤلفات ، منها : كتاب « الزيج » ، كتاب « القبلة والزوال » ، كتاب « الرد على رصد الأصفهاني » ، كتاب « البحث في حساب الهند » ، كتاب « حساب الدور » ، كتاب « الجبر والمقابلة » ، كتاب « نوادر الجبر » [١] .

ونجد **أبو العباس أحمد بن الطيب السرخسي** (ت ٢٨٦هـ/٨٩٩م) ، المُتفنن ، كمعاصره أبو حنيفة الدينوري ، في علوم شتى ، ومنها العلوم الرياضية . إذ صنف فيها المؤلفات التالية : كتاب « المدخل إلى صناعة النجوم » ، كتاب « قران النحسين في برج السرطان » ، كتاب « الأرثماطيقي والجبر والمقابلة » [٢] .

ومن أبرز علماء العلوم الرياضية الذين أسهموا بقوة في هذا الباب ، حتي غدوا أحد أعلامه الرؤساء ، **أبو الحسن ثابت بن قرة الحراني** (ت ٢٨٨هـ/٩٠١م) ، الذي رأينا جهوده علي الصعيد الطبي ، وعلى صعيد العلوم الرياضية . تناول ابن قرة ، من خلال مؤلفاته العديدة ، موضوعات تتعلق بالجانب الهندسي وحساب المثلث ، على وجه التحديد ، إذ برز في هذين العلمين أكثر من سواها .

وسجَّل ثابت في ميدان الفلك الكثير من الإضافات المهمة في هذا العلم ، فقد كانت له أرصاد مهمة للشمس جمع نتائجها بين دفتي رسالة « في سنة الشمس » وضَّح فيها رأيه في السنة الشمسية ، وما توصَّل إليه عن أَوْجُها ، وحركاتها ، وصورة تعديلها [٣] .

ولثابت إنتاج علمي كبير في العلوم الرياضية ، ومن حسن الطالع أن كثيراً من هذه المصنفات قد وصلت إليها ، ومن هذه المؤلفات : كتاب « الأعداد المتحابة » [٤] ، رسالة « في

---

(١) النديم : الفهرست ، ص ١٢٥ .

(٢) البيروني : الآثار الباقية ، ص ١٣٢ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٧٨ .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٩٥ .

(٤) مطبوع بتحقيق : أحمد سعيدان ، مطابع دار الشعب ، عمان ، ١٩٧٧م .

الأصول الهندسية لأرشميدس » [١] ، رسالة « في الحجة المنسوبة إلى سقراط ، المربع وقطره » [٢]، رسالة « في الدوائر المتماسة لأرشميدس المقتول تدقيق » [٣] ، كتاب « قسمة الزاوية المستقيمة الخطين بثلاثة أقسام متساوية » [٤] ، كتاب « في عمل شكل مجسم ذي أربع عشرة قاعدة تحيط به كرة معلومة » [٥] ، كتاب « المدخل إلى علم العدد الذي وصفه نيقوماخوس » [٦] ، كتاب « في الشكل الملقب بالقطاع والنسبة المؤلفة » [٧] ، كتاب « المفروضات » [٨] ، كتاب « في إبطاء الحركة في فلك البروج وسرعتها بحساب المواضع الخارجة من المركز » [٩] ، كتاب « في مساحة المجسمات المكافية » [١٠] ، كتاب « في مساحة قطع المخروط الذي يسمى المكافيء » ، كتاب « في أن الخطين إذا خرجا على زاويتين قائمتين التقيا » ، رسالة « إلى ابن وهب في التأني لاستخراج عمل المسائل الهندسية » ، كتاب « قسمة الزاوية المستقيمة بثلاثة أقسام متساوية » [١١] ، كتاب « في حساب رؤية الأهلة » [١٢] ، رسالة « في كيف ينبغي أن يسلك إلى نيل المطلوب من المعاني

---

(١) مطبوع بتحقيق : زين العابدين الموسوي ، دائرة المعارف العثمانية : حيد آباد ـ الدكن ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م .

(٢) نشرت بتحقيق : أيدن صايب ، مجلة أنقرة ، مج٢٢ ، ١٩٥٨م ، ص ٥٢٧ ـ ٥٤٩ .

(٣) مطبوع بتحقيق : زين العابدين الموسوي ، دائرة المعارف العثمانية : حيد آباد ـ الدكن ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م .

(٤) نشرت بتحقيق : أحمد سليم سعيدان ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، مج٢٨ ، ج١ ، ١٤٠٤هـ ، ص ٩٩ ـ ١٠٩ .

(٥) نشرت بتحقيق : رشيد العالمي ، مجلة كلية الآدب ، جامعة بغداد ، ع٥ ، ١٩٦٢م ، ص ٣٨٦ ـ ٣٩٠ .

(٦) مطبوع بتحقيق : ولهلم كوتش ، المطبعة الكاثولوكية ، بيروت ، ١٩٥٨م .

(٧) مخطوط بمكتبة الأسكوريال في مدريد ، برقم (٩٦٧ ، رقم٢) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي، (١٧٤/٤) .

(٨) مخطوط بمكتبة آيا صوفيا في إسطنبول ، برقم (٤٨٣٢، رقم٤) . المرجع السابق ، (١٧٤/٤) .

(٩) مخطوط بالمكتبة الأهلية في باريس ، برقم (٢٤٥٧، رقم١٣) . المرجع السابق ، (١٧٥/٤) .

(١٠) مخطوط بالمكتبة السابقة ، برقم (٢٤٥٧، رقم٢٤) . المرجع السابق ، (١٧٥/٤) .

(١١) جميع هذه الكتب مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس ، برقم عام (٢٤٥٧/مجاميع) أرقامها داخل هذه المجاميع على التوالي بحسب ترتيب الكتب في الأعلى : ٢٥ ، ٣٢ ، ٤٣ ، ٤٥ . المرجع السابق ، (١٧٦/٤ ، ١٧٥) .

(١٢) مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني في لندن ، برقم (٤٢٦ ، رقم ١٣) . المرجع السابق ، (١٧٦/٤) .

الهندسية » [١]، كتاب « في قطع قطوع الأسطوانة وتبسيطها » [٢] كتاب « عن المثلث قائم الزاوية » [٣] ، كتاب « في تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية » [٤] ، كتاب « في حركة الفلك » [٥]، كتاب « في مساحة الأشكال المسطحة والمجسمة » [٦] ، كتاب « في ذكر الأفلاك وحلقها وأعداد حركتها ومقدار مسيرها »[٧] .

ويعد **أبو برزة الفضل بن محمد الختلي الحاسب** (ت ٢٩٨هـ/٩١٠م) ، أحد علماء بغداد المتقدِّمين في علم الحساب وإخراج خواصه ونوادره ، وله فيه تصانيف واستنباطات [٨] . وترك أبو برزة من الكتب الرياضية : كتاب « المعاملات » ، كتاب « المساحة » [٩] ، ويحتوي الكتاب الأول على مسائل حسابية مختلفة مع حلولها ، وبعضها نادر معروف عند علماء الرياضيات ، ويتعرّض في الكتاب الثاني إلى مساحة الأشكال الهندسية المختلفة [١٠] .

وكان **لقسطا بن لوقا البعلبكي** (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م) ، دور في إثراء الدراسات الرياضية عن طريق كتبه التي بحثت في شتى المسائل الدقيقة والرئيسة فيها ، ومن هذه المصنفات :" رسالة « في العمل بالكرة ذات الكرسي » [١١] ، كتاب « العمل بالأصطرلاب

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية في القاهرة ، برقم (١٩٦/٥/مجاميع) . المرجع السابق ، (١٧٦/٤) .

(٢) مخطوط بالدار السابقة ، برقم (٢٠٢/٥/مجاميع) . المرجع السابق ، (١٧٦/٤) .

(٣) مخطوط بمكتبة الأسكوريال في مدريد ، برقم (٩٥٥، رقم ٨) . المرجع السابق ، (١٧٦/٤) .

(٤) مخطوط بمكتبة آيا صوفيا في إسطنبول ، برقم (٢٤٥٧، رقم٣) . المرجع السابق ، (١٧٧/٤) .

(٥) مخطوط بالمكتبة الأهلية في باريس ، برقم (٧١٩٥، رقم ٤) . المرجع السابق ، (١٧٨/٤) .

(٦) مخطوط بمكتبة آيا صوفيا في إسطنبول ، برقم (٧١٩٥، رقم٦) . المرجع السابق ، (١٧٨/٤) .

(٧) مخطوط بالمكتبة السابقة ، برقم (٤٨٣٢، رقم٨) . المرجع السابق ، (١٧٨/٤) .

(٨) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، (٢٧٣/١٢) . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٤٠٦ .

(٩) النديم : الفهرست ، ص ٤٤٧ .

(١٠) قدري طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، ص ١٠٨ .

(١١) مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني في لندن ، برقم (٧/١٦١٥) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٩٨/٤) .

الكروي » [١] ، رسالة « في الكرة الفلكية » [٢] ، كتاب « العمل بالكرة الفلكية » [٣] ، كتاب « البرهان على عمل حساب الخطأين » [٤] ، كتاب « هيئة الأفلاك » [٥] ، كتاب « المدخل إلى علم الهندسة على طريق المسألة والجواب » ، كتاب « استخراج المسائل العددية من المقالة الثالثة من كتاب أقليدس » ، كتاب « حساب التلاقي على جهة الحبر والمقابلة » ، تفسير ثلاث مقالات ونصف من كتاب « المسائل العددية » لبرقطوس ، كتاب « المدخل إلى علم النجوم أو المدخل إلى الهيئة وحركات الأفلاك والكواكب » [٦] .

ومن علماء العراق في تلك الفترة ، **أبو العباس الفضل بن حاتم النيريزي** (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) ، الذي اشتهر في ذلك العصر كأحد المشتغلين بالهندسة ، والفلك ، والممارسين لأعمال الرصد من خلال زَيْجِه المشهور .

ولأبي العباس في العلوم الرياضية إسهامات تجلَّت فيما تركه من مؤلفات ، منها : رسالة « في سمت القبلة » [٧] ، كتاب « شرح كتاب أقليدس » [٨] ، كتاب « عن الأصطرلاب الكروي » [٩] ، كتاب « الفصل في تخطيط الصلاة الزمانية في كل قبة أو في قبة يستعمل لها » [١٠] ، كتاب « شرح كتاب المجسطي » ، كتاب « الزيج الكبير » ، كتاب « الزيج الصغير » ، كتاب « تفسير كتاب الأربعة لبطليموس » [١١] .

---

(١) مخطوط بمكتبة أكاديمية ليدن (هولندا) ، برقم (١٠٥٣) . المرجع السابق ، (٤/٩٨) .

(٢) مخطوط بالمكتبة الملكية ببرلين (ألمانيا الإتحادية) ، برقم (٥٨٣٦) . المرجع السابق ، (٤/٩٨) .

(٣) مخطوط بمكتبة آيا صوفيا في إسطنبول ، برقم (٢٦٣٥) . المرجع السابق ، (٤/٩٩) .

(٤) مخطوط بمكتبة المكتب الهندي في لندن ، برقم (١٢/١٠٤٣) . المرجع السابق ، (٤/٩٩) .

(٥) مخطوط بمكتبة البودليانا في أكسفورد (لندن) ، برقم (٢/٨٧٩/١) . المرجع السابق ، (٤/٩٩) .

(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ .

(٧) مخطوط بالمكتبة الأهلية في باريس ، برقم (٢٤٥٧، رقم١٧) . كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، (٤/١٨٢) .

(٨) مخطوط بمكتبة أكاديمية ليدن (هولندا) ، برقم (١/٣٩٩) . المرجع السابق ، (٤/٩٢٤) .

(٩) مخطوط بمكتبة الأسكوريال في مدريد ، برقم (٩٥٦، رقم٣) . المرجع السابق ، (٤/١٨٢) .

(١٠) مخطوط بالمكتبة العمومية في باركينبور في الهند ، برقم (٢٠/٨٠، رقم٢٤٦٨) . المرجع السابق ، (٤/١٨٢) .

(١١) البغدادي : هدية العارفين ، (١/٨١٩) .

أما **أبو بكر محمد بن زكريا الرازي** (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م) ، فقد وضع بصمة تدل على تبحُّره في العلوم والمعارف المتنوعة ، حيث كانت له دراسات في فروع العلم الرياضي ، وخاصة الفلكية منها ، والتي تركَّزت حول البرهنة على كروية الأرض ، وأن الأرض ثابتة في مركز الكون ، منها : كتاب « هيئة العالم » [١] ، كتاب « في سبب وقوف الأرض وسط الفلك على استدارة » ، كتاب « في فسخ ظن من توهم أن الكواكب ليست في نهاية الاستدارة » ، رسالة « في غروب الشمس والكواكب ، وأن ذلك ليس من أجل حركة الأرض بل حركة الفلك » ، كتاب « في أنه لا يتصور لمن لا رياضة له بالبرهان أن الأرض كروية وأن الناس حولها » ، رسالة « في قطر المربع » ، رسالة « في الجبر وكيف يساق إليه وعلامة الحق فيه » [٢] .

وممن شارك بالتأليف في علم الهيئة ، **أبو القاسم عمر بن الحسين الخرقي** (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م) ، أحد فقهاء الحنابلة المشهورين في وقته ، ويظهر أن لأبي القاسم اهتمام بعلم الهيئة ، وله كتاب وحيد فيه ، وهو : كتاب « منتهى الإدراك في تقسيم الأفلاك » [٣] .

وممن عاصر الخِرقَي واشتهر في العلوم الرياضية ، **أبو إسحاق إبراهيم بن سنان الحراني** (ت ٣٢٥هـ/٩٤٦م) ، وهو حفيد ثابت بن قرة ، وكان أحد الفضلاء في علم الهندسة ، مقدَّماً فيه ، ولم يُر في زمانه أذكى منه . وله مصنفات حسان في هذا الشأن [٤] .

أما مؤلفات أبي إسحاق الرياضية ، فإننا نجده يُعدد ما أَلَّفه من كتب في إحدى رسائله ، وهي : كتاب « آلات الأظلال » ، كتاب « الدوائر المتماسة » ، كتاب « فيما كان

---

(١) أحمد عبد الباقي : معالم الحضارة العربية ، ص ٤٨٨ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ .

(٣) مطبوع بتحقيق : كرلو نلينو ، مؤسسة كايتاني ، روما ، ١٩٣٤م .

(٤) النديم : الفهرست ، ص ٤٣٦ . القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٥٧ ـ ٥٩ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٠٧ . البغدادي : هدية العارفين ، (٦/١) .

بطليموس القلوذي استعمله » ، رسالة « في استخراج المسائل الهندسية بالتحليل والتركيب » ، رسالة « في تحصيل حركات الشمس في الفلك الخارج المركز » ، مقالة « فيها إحدى وأربعون مسألة هندسية من صعاب المسائل ، في الدوائر ، والخطوط ، والمثلثات ، والدوائر المتماسة ، وغير ذلك . مقالة « المسائل المختارة » ، كتاب « في مساحة القطع المكافيء » [١] .

---

(١) ابن سنان : رسالة في وصف المعاني المستخرجة في الهندسة وعلم النجوم ، ص ٢٣ ـ ٣٠ . وهذه الرسالة طبعت ضمن « رسائل ابن سنان » ، والتي تضم (٧ رسائل) أكثرها ذكره ابن سنان ، وهذه الرسائل هي: رسالة في رسم القطوع الثلاثة ، رسالة في مساحة القطع المكافيء ، رسالة في طريق التحليل والتركيب (وهي نفسها الرسالة التي بعنوان استخراج المسائل الهندسية بالتحليل والتركيب) ، رسالة في مسائل ابن سنان (وهي نفسها مقالة المسائل المختارة) ، رسالة في حركات الشمس (وهي نفسها الرسالة التي بعنوان : رسالة في تحصيل حركات الشمس ...) رسالة في الأصطرلاب . وقد طبعت رسائل ابن سنان بتحقيق : أحمد سعيدان ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

الخاتمة

الخاتمـــة

إن القراءة المتأنية للتاريخ الإسلامي ؛ تعين ، ولا شك ، في تفسير أسباب النصر وعوامل الإخفاق . فمنه يستمد المسلمون العبر والدروس ؛ وهو الأرضية التي كان الإسلام في عصوره الزاهرة مبنياً عليها ، فكان التاريخ المرآة العاكسة لواقع المسلمين بشتَّى صوره .

وفي الصفحات الماضية إطلالة متواضعة عن فترة عاش العراق مركز الخلافة العباسية ، خلالها وضعاً سياسياً سيئاً في عمومه ؛ واكبته حركة ثقافية زاهية ، وجهوداً مباركة لعلماء العراق في شتى ميادين العلم والمعرفة . وقد أسفرت عن نتائج عدة نعرض لها في النقاط التالية :

١ ـ الأثر الفاعل لخلفاء بني العباس ، خلال تلك الفترة ، في ازدهار الحركة العلمية بفضل رعايتهم للعلم والعلماء ، وحرصهم على حماية عقيدة رعيتهم وفكرهم من كل ما يعكر صفو منبعها الصافي . وقد تجلى هذا الأمر في وجهين رئيسيين ، هما :

أ ـ وقوفهم ، منذ عهد المتوكل ، في وجه التيارات المخالفة للعقيدة الإسلامية ، سواء في تدعيهم لأهل السنة والجماعة ، أو في محاربتهم لأهل البدع والظلالات والقضاء على أصحابها . كما مر معنا في التمهيد .

ب ـ عدم تشجيعهم للنَّقَلَة على ترجمة كتب الفلسفة ، والمنطق ، والإلهيات ، ونحو ذلك ، بل ولم يسمحوا بنشر ما تمت ترجمته . على الرغم من وجود النقلة أنفسهم الذين حَظوا بتشجيع المأمون ومباركته لنقل تلك الكتب .

وما كساد سوق الفلاسفة والمنطقيين في العراق ، خلال تلك الفترة ، إلا مصداقاً لذلك .

٢ ـ تفاعل المجتمع مع معطيات العصر ، وتأثره بما هو سائد فيه . وقد اتضح هذا الأمر في مجتمع العراق في تلك الحقبة التاريخية ؛ إذ نرى محاكاة فئاته المختلفة للخلفاء في اهتمامهم بالعلم والعلماء ، وحرصهم على كسب الثقافة ، وتعليم أولادهم . فأصبحت هناك شخصيات اجتماعية كان لها دور بارز في هذه النهضة العلمية المباركة ، من أمراء ، ووزراء وقوّاد ، وتجّار ، وغيرهم . وفي هذا الأمر إشارة إلى أهمية الدعم الرسمي العام ، والمتمثل في السلطة ، وأثره على رقي المجتمع ووعيه .

٣ ـ تفعيل العلماء لدورهم في حياة الأمة ، وأثرهم في حماية ابناءها مما يشوه معتقدهم ، ومفاهيمهم ، ولغتهم ، وكل طارىء سلبي يظهر في حياتهم .

ومن هذا المنطلق سار علماء العراق ، خاصة علماء الشريعة ، واللغة ، نحو تقصي حاجات المجتمع . فانبرى علماء الشريعة للدفاع عن مذهب أهل السنة والجماعة أمام النزعات الضالة ، ونجاحهم في ذلك . وفي المقابل وتتبع علماء اللغة ما طرأ على لسان القوم من تغير خطير على لغة القرآن الكريم ، فكرسوا جهودهم العلمية نحو إيجاد حلولٍ لهذه المعضلة ، ومحاربتهم لكل ما يؤثر على سلامة اللغة ، والمحافظة عليها نقية . وتفاعل علماء الرياضة ، والفلك ، والهندسة ، والطب ، ونحوهم مع حاجات المجتمع المسلم ، وكل ما يتعلق بأمور دينهم من خلال مصنفاتهم .

٤ ـ غلبة مبدأ وحدة الأمة ، الذي غرسه الإسلام في نفوس أتباعه ، وسيطرته على حياتهم في جميع جوانبها ، ومنها الجانب الثقافي . فلم تمنع الأوضاع السياسية المتردية في العالم الإسلامي ، في ذلك الوقت ، أبنائه من التجوال بين أقطاره طلباً للعلم .

وهذا الأمر ظهرت أهميته خلال فترة نفوذ الأتراك ، والمتمثل في العلاقات العلمية بين العراق ومراكز العلم الإسلامية الأخرى ، وأثر ذلك في تلاقح العلوم ، ونشرها .

٥ ـ إن التقرير بأن الدافع الرئيسي لعلماء العراق المسلمين في تناولهم للعلوم كان نابعاً من الدين ، وليس من تأثير التراث العلمي الأجنبي أمراً لا يعلو الحقيقة .

فلقد شهدت تلك الفترة العديد من الإنجازات في كافة العلوم ، التي كان دافع أصحابها خدمة مصدري التشريع الإسلامي ، القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وتحقيق المنافع الدنيوية المشروعة . وهو ما يظهر بصورة جلية في نشاط العلوم في العراق خلال تلك الفترة ، والهدف من تناولها .

٦ ـ تعد فترة نفوذ الأتراك فترة مهمة وخطيرة في تاريخ العلوم القائمة في ذلك الوقت ، ونشاط أصحابها .

ففي العلوم الشرعية ، شهدت مباحثها ازدهاراً كبيراً ، وسعي إلى الهدف لا يعرف الكلل من قبل أربابها . فيكفي وجود أعلام يعدون من العلامات البارزة في تاريخ هذه الأمة ، كالإمام أحمد بن حنبل ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والطبري ، وابن شبة ،

وأبو إسحاق الحربي ، وغيرهم . الذين خلّفوا تراثاً ضخماً من المؤلفات ، كانت ولا زالت ترفد ابناء الأمة بالمفاهيم الإسلامية في فروع العلم الشرعي المختلفة . وشهدت تلك الفترة أيضاً آخر الأئمة المجتهدين ، وهما : ابن جرير الطبري ، وداود الظاهري . وفي تلك الفترة ، سارت العلوم اللغوية والأدبية جنباً إلى جنب مع العلوم الشرعية ، وخادمة لها . بفضل جهود كبار علمائها ، كالمازني ، والمبرد ، وثعلب ، والجاحظ ، وأبو حاتم السجستاني ، وابن دريد ، وغيرهم . والذين عُدَّت مؤلفاتهم أساساً في نشأة علوم اللغة في بعض الأمصار الإسلامية ، والعمدة في مباحثها .

كما ساهمت الدراسات اللغوية في نشأة بعض العلوم التطبيقية في ذلك الوقت ، كعلم النبات ، وعلم الحيوان . وكذلك توفير مرجعية معجمية لغوية لبقية العلوم لمقابلتها بما عند الأمم الأخرى ، وخاصة في عملية الترجمة .

وشهدت فترة نفوذ الأتراك نشاطاً ملحوظاً في حقلي العلوم الاجتماعية : التاريخ ، والجغرافيا ، بفضل وجود الطبري ، واليعقوبي ، والبلاذري ، وابن قتيبة الدينوري ، وخليفه بن خياط ، وابن شبة ، والصولي ، وابن خرداذبة ، وغيرهم ، وهي أسماء تكفي قراءاتها لندرك التقدم الحاصل في منهج الكتابة التاريخية ، واعتماد المؤرخين اللاحقين على مصنفاتهم عند كتابة مؤلفاتهم التاريخية ، كابن الأثير ، وابن الجوزي ، وابن كثير، ومسكويه ، وغيرهم .

وفي العلوم التطبيقية كان للعراق قصب السبق في التقدم ، وتأثيرها على بقية الأمصار الإسلامية الأخرى . فسجل علماء تلك العلوم نتائج مهمة في تاريخ العلوم . بل وشهدت تلك الفترة انجازات تتحقق في هذه العلوم لأول مرة .

وقراءة الصفحات الخاصة بسير العلوم في العراق خلال عصر نفوذ الأتراك تغني عن التكرار في هذا المقام .

٧ ـ إن إخلاص العمل لله سبحانه وتعالى في طلب العلم ، وحده الكفيل بأن يزرع الخالق عز وجل البركة في الأعمار ، والأعمال ، وتفتح القلوب ، والعقول . وهو ما تحقق في تلك الشخصيات العلمية الفذة ، والعقول المتقدة ، وما تمتعوا به من سعة في الحفظ ، وقوة في الإدراك ، فكان ذلك خير معين لهم في تحقيق الخير للبشرية .

الملاحق

ملحق رقم (١)

الخلفاء العباسيين خلال فترة نفوذ الأتراك

م	الخليفة	فترة الخلافة
١	المتوكل	٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ / ٨٤٧ ـ ٨٦١م
٢	المنتصر	٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ / ٨٦١ ـ ٨٦٢م
٣	المستعين	٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ / ٨٦٢ ـ ٨٦٦م
٤	المعتز	٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ / ٨٦٦ ـ ٨٦٩م
٥	المهتدي	٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ / ٨٦٩ ـ ٨٧٠م
٦	المعتمد	٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ / ٨٧٠ ـ ٨٩٢م
٧	المعتضد	٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ / ٨٩٢ ـ ٩٠٢م
٨	المكتفي	٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ / ٩٠٢ ـ ٩٠٨م
٩	المقتدر	٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ / ٩٠٨ ـ ٩٣٢م
١٠	القاهر	٣٢٠ ـ ٣٢٢هـ / ٩٣٢ ـ ٩٣٤م
١١	الراضي	٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ / ٩٣٤ ـ ٩٤٠م
١٢	المتقي	٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ / ٩٤٠ ـ ٩٤٤م
١٣	المستكفي	٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ / ٩٤٤ ـ ٩٤٦م

ملحق رقم (٣)

كتاب الخليفة المتوكل إلى عماله في الآفاق بشأن أهل الذمة (*)

((بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الله تبارك وتعالى بعزته التي لا تحاول وقدرته على ما يريد ، اصطفى الإسلام فرضيه لنفسه ، وأكرم به ملائكته ، وبعث به رسله ، وأيد به أولياءه ، وكنفه بالبر ، وحاطه بالنصر ، وحرسه من العاهه ، وأظهره على الأديان ، مبرءاً من الشبهات معصوماً من الآفات ، محبواً بمناقب الخير ، مخصوصاً من الشرائع بأطهرها وأفضله ، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها ، ومن الأحكام بأعدلها وأقنعها ، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها ، وأكرم أهله بما أحل لهم من حلاله ، وحرم عليهم من حرامه ، وبين لهم من شرائعه وأحكامه ، وحد لهم من حدوده ومناهجه ، وأعد لهم من سعة جزائه وثوابه ، فقال في كتابه فيما أمر به ونهى عنه ، وفيما حض عليه فيه ووعظ : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإِحْسَٰنِ وإِيتَاءِ ذِى القُرْبَى ويَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ ﴾ [1] . وقال فيما حرم على أهله مما غمط فيه أهل الأديان من رديء المطعم والمشرب والمنكح ، لينزههم عنه ، وليظهر به دينهم ، ليفضلهم عليهم تفضيلاً : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ والدَّمُ ولَحْمُ الخِنزِيرِ ومَا أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ بِهِ والمُنْخَنِقَةُ ... ﴾ [2] إلى آخر الآية ، ثم ختم ما حرم عليهم من ذلك في هذه الآية بحراسة دينه ، ممن عند عنه وبإتمام نعمته على أهله الذين اصطفاهم ، فقال عز وجل : ﴿ اليَوْمَ يَئِسَ الذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... ﴾ [3] الآية .

---

(١) سورة النحل ، آية (٩٠) .

(٢) سورة المائدة ، آية (٣) .

(٣) سورة المائدة ، آية (٣) .

* الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (٩/١٧٢ ـ ١٧٤) .

وقال عز وجل : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ... ﴾ [١] . وقال : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ... ﴾ [٢] ، الآية . فحرم على المسلمين من مآكل أهل الأديان أرجسها وأنجسها ، ومن شرابهم أدعاه إلى العداوة والبغضاء ، وأصده عن ذكر الله وعن الصلاة ، ومن مناكحهم أعظمها عنده وزراً ، وأولاها عند ذوى الحجى والألباب تحريماً ، ثم حباهم محاسن الأخلاق وفضائل الكرامات ، فجعلهم أهل الإيمان والأمانة ، والفضل والتراحم واليقين والصدق ، ولم يجعل في دينهم التقاطع والدابر ، ولا الحمية ولا التكبر ، ولا الخيانة ولا الغدر ، ولا التباغي ولا التظالم ، بل أمر بالأولى ونهى عن الأخرى ، ووعد وأوعد عليها جنته وناره ، وثوابه وعقابه ، فالمسلمون بما اختصهم الله من كرامته ، وجعل لهم من الفضيلة بدينهم الذي اختاره لهم ، بائنون على الأديان بشرائعهم الزاكية ، وأحكامهم المرضية الطاهرة ، وبراهينهم المنيرة ، وبتطهير الله دينهم بما أحل ، وحرم فيه لهم وعليهم ، قضاء من الله عز وجل في إعزاز دينه ، حتماً ومشيئة منه في إظهار حقه ماضية ، وإرادة منه في إتمام نعمته على أهله نافذة : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ [٣] ، وليجعل الله الفوز والعاقبة للمتقين ، والخزى في الدنيا والآخرة على الكافرين .

وقد رأى أمير المؤمنين ــ وبالله توفيقه وإرشاده ــ أن يحمل أهل الذمة جميعاً بحضرته وفي نواحى أعماله ، أقربها وأبعدها ، وأخصهم وأخسهم على تصيير طيالستهم التي يلبسونها ، من لبسها من تجارهم وكتابهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، على ألوان الثياب العسلية ، لا يتجاوز ذلك منهم متجاوز إلى غيره ، ومن قصر عن هذه الطبقة من أتباعهم

---

(١) سورة النساء ، آية (٢٣) .

(٢) سورة المائدة ، آية (٩٠) .

(٣) سورة الأنفال ، آية (٤٢) .

وأرذالهم ومن يعقد به حاله عن ليس الطيالسة منهم أخذ بتركيب خرقتين صبغهما ذلك الصبغ يكون استدارة كل واحد منهما شبراً تاماً في مثله ، على موضع أمام ثوبه الذي يلبسه ، تلقاء صدره ، ومن وراء ظهره ، وأن يؤخذ الجميع منهم في قلانسهم بتركيب أزرة عليها تخالف ألوانها ألوان القانس ، ترتفع في أماكنها التي تقع بها ، لئلا تلصق فتستر ولا ما يركب منها على حباك فتخفى ، وكذلك في سروجهم باتخاذ ركب خشب لها ، ونصب أكر على قرابيسها ، تكون نائئة عنها ، وموفية عليها ، لا يرخص لهم في إزالتها عن قرابيسهم ، وتأخيرها إلى جوانبها ، بل يتفقد ذلك منهم ، ليقع ما وقع من الذي أمر أمير المومنين بحملهم عليه ظاهراً يتبينه الناظر من غير تأمل ، وتأخذه الأعين من غير طلب ، وأن تؤخذ عبيدهم وإماؤهم ، ومن يلبس المناطق من تلك الطبقة بشد الزنانير والكساتيج مكان المناطق التي كانت في أوساطهم ، وأن توعز إلى عمالك فيما أمر به أمير المؤمنين في ذلك إيعازاً تحدوهم به إلى استقصاء ما تقدم إليهم فيه ، وتحذرهم إدهاناً وميلاً ، وتتقدم إليهم في إنزال العقوبة بمن خالف ذلك من جميع أهل الذمة عن سبيل عناد وتهوين إلى غيره ، ليقتصر الجميع منهم على طبقاتهم وأصنافهم على السبيل التي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليها ، وأخذهم بها إن شاء الله .

فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين وأمره ، وأنفذ إلى عمالك في نواحي عملك ما ورد عليك من كتاب أمير المؤمنين بما تعمل به إن شاء الله ، وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلي الله عليه وسلم وملائكته ، وأن يحفظه فيما استخلفه عليه من أمر دينه ، ويتولى ما ولاه مما لا يبلغ حقه فيه إلا بعونه ، حفظاً يحمل به ما حمله ، وولاية يقضى بها حقه منه ويوجب بها له أكمل ثوابه ، وأفضل مزيده ، إنه كريم رحيم .

وكتب إبراهيم بن العباس في شوال سنة خمس وثلاثين ومائتين)) .

ملحق رقم (٣)

توقيعات علي بن عيسى بن الجراح إلى الطبيب سنان بن ثابت الحراني (*)

١ ــ توقيع علي بن عيسى إلى الطبيب سنان بن ثابت باتخاذ مستشفى متنقل لعلاج المساجين :

((فكرت ، مد الله في عمرك ، في أمر من في الحبوس ، وأنه لا يخلو ، مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم ، أن تنالهم الأمراض ، وهم معوقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء فيما يعرض لهم . فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم ، وتحمل إليهم الأدوية والأشربة . ويطوفون في سائر الحبوس ، ويعالجون فيها المرضى ، ويزيحون عللهم فيما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة . وتقدم بأن تقام لهم المزورات لمن يحتاج إليها منهم)) .

٢ ــ توقيع علي بن عيسى إلى سنان بن ثابت باتخاذ مستشفى متنقل لعلاج أهل السواد :

((فكرت في من في السواد من أهله ، فإنه لا يخلو أن يكون فيه مرضى لا يشرف عليهم متطبب ، لخلو السواد من الأطباء . فتقدم ، مد الله في عمرك ، بانفاذ متطببين ، وخزانة للأدوية والأشربة يطوفون في السواد ، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إليه . ويعالجون من فيه من المرضى ، ثم ينتقلون إلى غيره)) .

٣ ــ توقيع علي بن عيسى إلى سنان بن ثابت بالموافقة على معالجة يهود السواد ، وحثه على التنقل في مواطن الأمراض الوبائية .

((فهمت ما كتبت به ، أكرمك الله ، وليس بيننا خلاف في أن معالجة أهل الذمة والبهائم صواب . ولكن الذي يجب تقديمه ، والعمل به ، معالجة الناس قبل البهائم ، والمسلمين قبل أهل الذمة . فإذا أفضل عن المسلمين ما لا يحتاجون إليه ، صرف في الطبقة التي بعدهم . فاعمل ، أكرمك الله ، على ذلك ، وأكتب إلى أصحابك به .

---

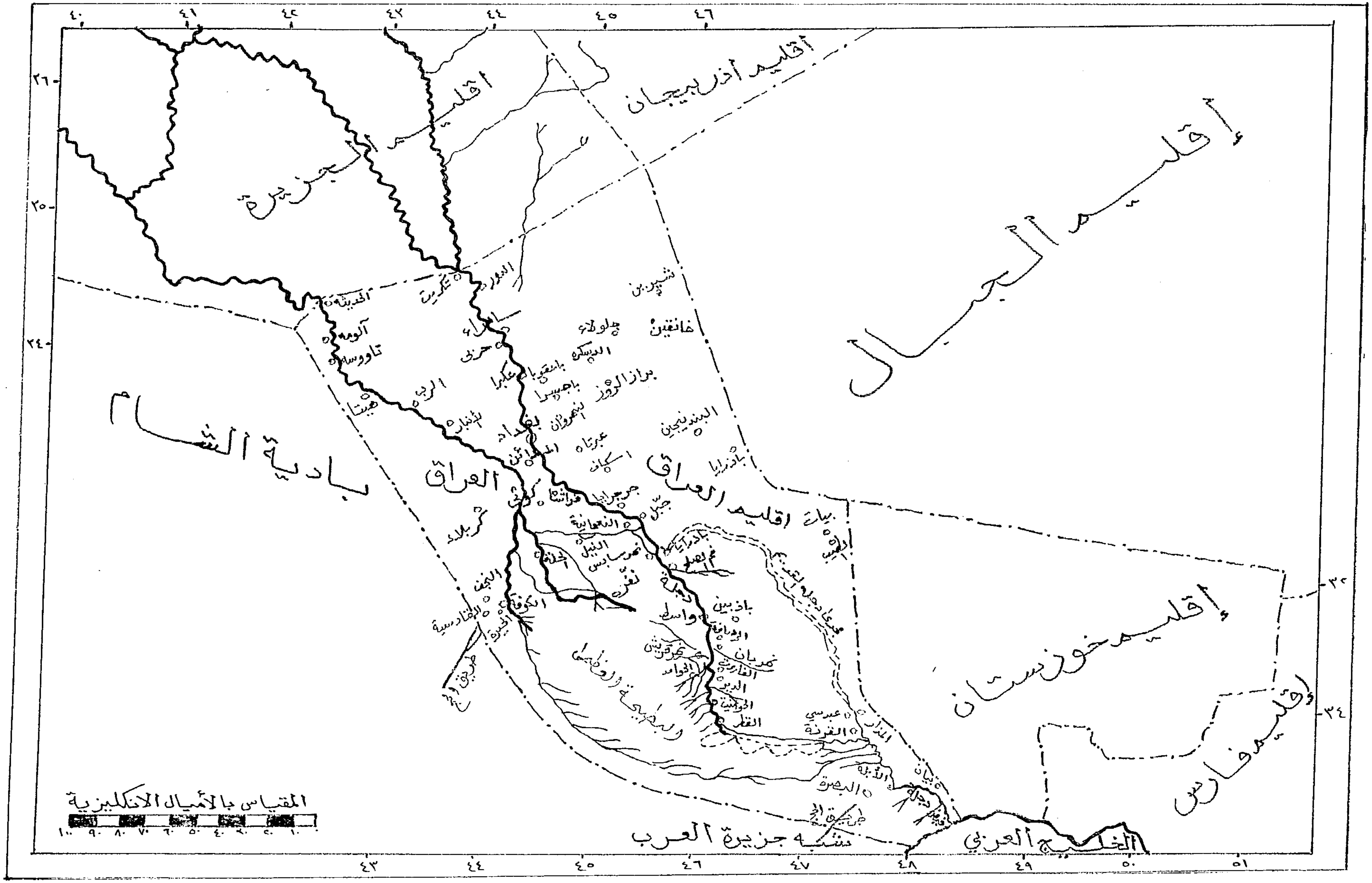
* ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٠١ .

ووصهم بالتنقـــل في القرى ، والمواضع التي فيها الأوباء الكثيرة ، والأمراض الفاشـية . وإن لم يجدوا بذرقة [١] ، توقفوا عن السير حتي تصلح لهم الطريق ، ويصح السبيل ، فإنهم إذا فعلوا هذا غنوا عن السور إن شاء الله تعالى)) .

---

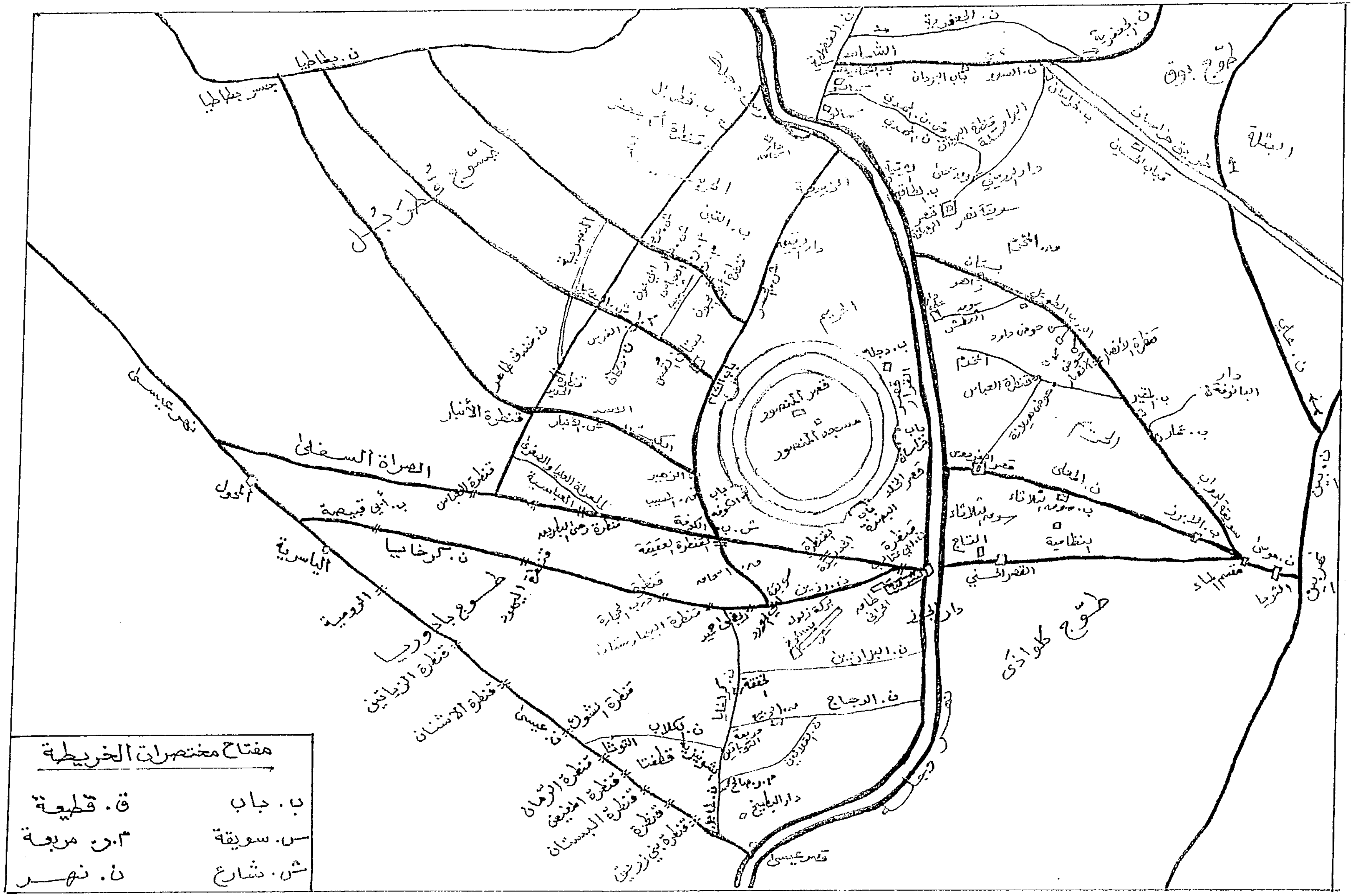
(١) تبديداً بأمال واسرافاً .

ملحق رقم (٤) خارطة إقليم العراق <*>



* المصدر / كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية .

ملحق رقم (٥) مخطط تقريبي لمدينة بغداد <※>



* المصدر / مصطفى جواد وزميله : دليل خارطة بغداد المفصل .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الخطية :

* الأنصاري : أبو يحيى زكريا الشافعي (ت ٩٢٥هـ/١٥١٩م) .

- **اللؤلؤ النظيم في روم التعلم والتعليم** . معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، رقم (٥/٧٤٢/مجاميع) .

* البلخي : أبو معشر جعفر بن محمد (ت ٢٧٢هـ/٨٨٥م) .

- **أحكام المواليد** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٤ فلك) .

* أبو بكر الرازي : محمد بن زكريا (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م) .

- **التجارب في الطب** . مكتبة طوب قابي سراي في إسطنبول ، رقم (١٩٧٥) .

- **رسالة في الفصد** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٧٧٠/مجاميع) .

- **مقالة في ترتيب أكل الفاكهة** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٣٨٣/مجاميع) .

- **أقراباذين تقاسيم العلل** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٣٣٥طب/مجاميع) .

- **أبدال الأدوية** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٢٧٣طب/مجاميع) .

* حبيش بن الحسن الأعسم (كان حياً ٢٦٤هـ/٨٧٧م) .

- **كتاب إصلاح الأدوية المسهلة ونفي مضارها وضروب استعمالها** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٣٢٣طب/مجاميع) .

- **رسالة في السكنجبين** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٥٠١طب/مجاميع) .

ـ **الشراب** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٥٠١طب/مجاميع).

ـ **رسالة في ذكر الخمائر المذكورة في الكتب** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٩٢كيمياء/مجاميع) .

* حنين بن إسحاق : أبو زيد العبادي (ت ٢٦٠هـ/٨٧٤م) .

ـ **رسالة في حفظ الأسنان واللثة واستصلاحها** . دار الكتب الظاهرية بدمشق ، رقم (٤٥١٦) .

ـ **القول في خلق الإنسان ومما خلق وما ركب فيه** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٤٥٤طب) .

ـ **ما يستحب وما يجتنب في شهور السنة** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٦٩٦طب) .

ـ **كنز الفوائد في تنويع الموائد** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٦٩٦طب) .

* الخاقاني : أبو مزاحم موسى بن عبد الله (ت ٣٢٥هـ/٩٧٣م) .

ـ **قصيدة في التجويد** . قسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، رقم (٧٠٥٩/٢ قراءات) .

* الداني : أبو عمر عثمان بن سعيد (ت ٤٤٤هـ/١٠٥٢م) .

ـ **شرح القصيدة الخاقانية** . قسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، رقم (١٤٦٩/١ قراءات) .

* ابن قرة : أبو الحسن ثابت بن قرة الحراني (ت ٢٨٨هـ/٩٠١م) .

ـ **كتاب في آلات الساعات التي تسمى رخامات** . دار الكتب المصرية بالقاهرة ، رقم (١٠٤٧ ميقات) .

* الكشكري : يعقوب (القرن ٣هـ/٩م) .

ـ **الكناش في الطب** . مكتبة آيا صوفيا بإسطنبول ، رقم (٣٧١٦) .

* الكندي : أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (ت ٢٦٠هـ/٨٧٤م) .

- **دوائر همرج** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٦٢ فلك) .

- **رسالة في الأدوية المفردة التي يفعل بخواصها في السموم** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٢٩٢طب/مجاميع) .

- **الترفق في العطر أو كيمياء العطر والتصعيدات** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٢٤ كيمياء) .

* ابن ماسويه : أبو زكريا يوحنا (ت ٢٤٣هـ/٨٥٧م) .

- **دغل العين** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٤٦٦طب) .

- **الحميات** . دار الكتب المصرية بالقاهرة ، رقم (١١٧طب تيمور) .

- **خواص الأغذية والبقول والفواكه والألبان وأعضاء الحيوان والأبازير والأفاويه** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٤٥٦طب) .

- **قوى الأدوية المسهلة وطبائعها ومزاجاتها ومصالحها** . معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم (٦٤٩طب/مجاميع) .

* ابن مقلة : أبو علي محمد بن علي (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م) .

- **أصناف الكتاب** . معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، رقم (٢٦٧ أدب) .

* النيريزي : أبو العباس الفضل بن حاتم (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) .

- **رسالة في معرفة الآلات التي يعلم بها أبعاد الأشياء الشاخصة في الهواء والتي على بسيط الأرض وأغوار الأدوية والآبار وغروض الأنهار** . مكتبة آيا صوفيا بإسطنبول ، رقم (٤٨٣٠/مجاميع) .

ثانياً : المصادر العربية والمعرَّبة المطبوعة :

* ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) .

ـ **إعتاب الكتاب** . تحقيق/صالح الأشتر ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ط١ ، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م .

ـ **الحلة السيراء** . تحقيق/حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٥م .

* ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أحمد بن القاسم السعدي (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) .

ـ **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** . تحقيق/نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* ابن أبي حاتم : أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم التميمي الرازي (ت ٣٢هـ/٩٣٩م) .

ـ **الجرح والتعديل** . دائرة المعارف العثمانية ، حيد آباد ـ الدكن ، ط١ ، ١٣٧١ـ١٣٧٣هـ/١٩٥٢ـ١٩٥٣م .

* ابن أبي يعلى : أبو الحسين محمد بن الحسين الحنبلي ، (ت ٥٢٦هـ/١١٣١م) .

ـ **طبقات الحنابلة** . دار المعرفة ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) .

ـ **الكامل في التاريخ** . دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

ـ **اللباب في تهذيب الأنساب** . دار صادر ، بيروت ، د.ط ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

* الآجري : أبو بكر محمد بن الحسين (ت ٣٦٠هـ/٩٧١م) .

ـ **أخلاق العلماء** . تصحيح/رضوان الرمالي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* ابن الأخوة : محمد بن محمد القرشي (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٩م) .

ـ **معالم القربة في أحكام الحسبة** . تحقيق/روبن ليوي ، مطبعة الفنون، كمبردج (لندن) ، ١٩٣٧م . أعادت طبعه : مكتبة المثنى ، بغداد .

* الأسنوي : أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن الأموي (ت ٧٧٢هـ/١٣٧٠م) .

- **طبقات الشافعية** . تحقيق / كمال الحوت ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

* الإصطخري : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) .

- **مسالك الممالك** . تحقيق/دي غويه ، مطبعة بريل ، ليدن (هولندا) ، د.ط ، ١٩٢٧م .

* الأصفهاني : الحسن بن عبد الله (ت ٢١٠هـ/٨٢٥م) .

- **بلاد العرب** . تحقيق/حمد الجاسر وصالح العلي ، دار اليمامة ،الرياض ، ط١،١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

* الأصفهاني : أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي (ت ٥٧٦هـ/١١٨٠م) .

- **الوجيز في ذكر المجاز والمجيز** . تحقيق/محمد البقاعي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ/١٩٩١م .

* ابن الأنباري : أبو البركات عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٧٧هـ/١١٨١م) .

- **نزهة الألباء في طبقات الأدباء** . تحقيق/إبراهيم السامرائي ، مكتبة المنار ، الزرقاء (الأردن) ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

* الأنطاكي : داود بن عمر (ت ١٠٠٨هـ/١٥٩٩م) .

- **تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب** . المكتبة الثقافية ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* البتاني : أبو عبد الله محمد بن جابر الحرلني (ت ٣١٧هـ/١٩٢٩م) .

- **الزيج الصابيء** . تحقيق/كرلو/نلينو ، د.د ، ميلانو (إيطاليا) ، د.ط ، ١٨٩٩م . أعادت طبعه: مكتبة المثنى ، بغداد ، د.ط ، ١٩٦٩م .

* البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م) .

- **الجامع الصحيح** . تحقيق / مصطفى البغا ، دار القلم ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

ـ **الأدب المفرد** . تحقيق/محمد فؤاد عبد الباقي ، المكتبة السلفية ، القاهرة، ١٣٧٥هـ .

ـ **التاريخ الكبير** . تحقيق/عبد الرحمن اليماني وأبو الوفا الأفغاني، دائرة المعارف العثمانية ، حيد آباد ـ الدكن ، ١٣٦١ـ١٣٦٢هـ/١٩٤٢ـ١٩٤٣م .

ـ **التاريخ الصغير** . تحقيق/محمود زايد ، دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* البغدادي : إسماعيل باشا بن محمد الباباني (ت ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م) .

ـ **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون** . دار الفكر ، بيروت ، د.ط ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

ـ **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون** . دار الفكر ، بيروت ، د.ط ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

* أبو بكر الرازي : محمد بن زكريا (ت ٣١٣هـ/٩٢٥م) .

ـ **المرشد أو الفصول** . تحقيق/ألبير زكي إسكندر ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

ـ **أخلاق الطبيب** . تحقيق/عبد اللطيف العبد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د.ط ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

ـ **ما الفارق** . تحقيق/سلمان قطاية ، معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، حلب ، ط١ ، ١٩٧٨م .

ـ **تقاسيم العلل** . تحقيق/صبحي حمامي ، معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، حلب ، ط١ ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

ـ **القولنج** . تحقيق/صبحي حمامي ، معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، حلب ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

ـ **المدخل الصغير إلى علم الطب** . تحقيق/عبد اللطيف العبد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط١،٢ ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

- **أخلاق الطبيب** . تحقيق/عبد اللطيف العبد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

- **الحاوي في الطب** . تصحيح/السيد عبد الوهاب وآخرون ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ـ الدكن ، ط٢ ، ١٩٧٤ـ١٩٧٩م .

* البلاذري : أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) .

- **فتوح البلدان** . تحقيق/رضوان محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

* البيروني : أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) .

- **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة** . علم الكتب ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- **الآثار الباقية عن القرون الخالية** . تحقيق/إدوارد سخاو ، ليبزك (ألمانيا الإتحادية) ، ١٩٢٣م . أعادت نشره : دار صادر ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

- **الجماهر في معرفة الجواهر** . عالم الكتب ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

* ابن البيطار : أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) .

- **تفسير كتاب دياسقوريدس** . تحقيق/إبراهيم مراد ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٩م .

* البيهقي : ظهير الدين أبو الحسن علي بن زيد (ت ٥٦٥هـ/١١٧٠م) .

- **تاريخ حكماء الإسلام** . تحقيق/محمد كرد علي ، المجمع العلمي العربي، دمشق ، د.ط ، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م .

* البيهقي : إبراهيم بن محمد (ت قبل ٣٢٠هـ/٩٣٢م) .

- **المحاسن والمساوىء** . تحقيق/محمد سويد ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

* الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) .

– **السنن** . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

* ابن تغري بردي : أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) .

– **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** . دار الكتب المصرية ، القاهرة ، د.ط ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .

* التنوخي : أبو علي المحسن بن علي (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م) .

– **الفرج بعد الشدة** . تحقيق/عبود الشالجي ، دار صادر بيروت ، د.ط ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

– **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة** . تحقيق/عبود الشالجي ، دار صادر ، بيروت ، د.ط ، ١٩٧٢م .

* ابن تيمية : تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م) .

– **الفتاوى** . جمع/عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي ، الرئاسة العامة لشئون الحرمين ، مكة المكرمة ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م .

* الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) .

– **آداب الملوك** . تحقيق/جليل العطية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٠م .

– **خاص الخاص** . دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

– **يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر** . تحقيق/مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

– **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** . تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م .

* ثعلب : أبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني (ت ٢٩١هـ/٩٠٤م) .

– **مجالس ثعلب** . تحقيق/عبد السلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٥، ١٩٨٧م .

- **قواعد الشعر** . شرح وتعليق/محمد عبد المنعم خفاجي ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

* الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر البصري (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) .

- **الحيوان** . تحقيق/عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث العربي ، ط٣ ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م .

- **البيان والتبيين** . تحقيق/حسن السندوبي ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

- **البخلاء** . تحقيق/محمد سويد ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

- **رسائل الجاحظ** . تحقيق/عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ/١٩٩١م .

- **التبصر بالتجارة** . تحقيق/حسن حسني عبد الوهاب ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، د.ط ، ١٩٦٦م .

* ابن الجراح : أبو عبد الله محمد بن داود (ت ٢٩٦هـ/٩٠٩م) .

- **الورقة** . تحقيق/عبد الوهاب عزام وعبد الستار فراج ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٦م .

* الجرجاني : الشريف علي بن محمد (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م) .

- **التعريفات** . دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

* الجزري : أبو الخير محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ/١٤٢٩م) .

- **غاية النهاية في طبقات القراء** . نشر بعناية/ج . برجستراسر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

* ابن جلجل : أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (كان حياً سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م) .

- **طبقات الأطباء والحكماء** . تحقيق/فؤاد سيد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

* ابن جماعة : بدر الدين أبو إسحاق إبراهيم بن سعد الله الكناني (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) .

- **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم** . دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* الجمحي : محمد بن سلام (ت ٢٣١هـ/٨٤٥م) .

- **طبقات الشعراء** . دار النهضة العربية ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* الجهشياري : أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ/٩٤٣م) .

- **الوزراء والكتاب** : تحقيق/مصطفى السقا وآخرون ، مطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة ، ط١ ،١٣٥٧هـ/١٩٣٨م .

* الجواليقي : أبو منصور موهوب بن أحمد (ت ٥٤٠هـ/١١٤٥م) .

- **المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم** . تحقيق/أحمد محمد شاكر ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط٣ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

* ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي البغدادي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م).

- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** . دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد - الدكن ، ط١ ، ١٣٥٧هـ .

- **الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ** . تحقيق/فؤاد عبد المنعم ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- **مناقب الإمام أحمد بن حنبل** . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، د.ت.

* أبو حاتم السجستاني : سهل بن محمد الجشمي (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) .

- **النخل** . تحقيق/إبراهيم السامرائي ، دار اللواء ، الرياض . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

* حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله القسطنطيني (ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م) .

- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** . دار الفكر ، بيروت ، د.ط، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

* ابن حبان : محمد بن حيان البستي (ت ٣٥٤هـ/١٩٦٥م) .

- **مشاهير علماء الأمصار** . دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* ابن حيان : أبو محمد عبد الله بن محمد الأنصاري (ت ٣٦٩هـ/٩٧٩م) .

- **طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها** . تحقيق/عبد الغفار البنداري وسيد كسروي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

* ابن حبيب : أبو جعفر محمد البغدادي (ت ٢٤٥هـ/٨٦٠م) .

- **المحبر** . تحقيق/إيلزة ليختن شتيتر ، دائرة المعارف العثمانية ، حيد آباد - الدكن ، ط١ ، ١٩٤٢م .

* ابن حجر : شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) .

- **لسان الميزان** . دائرة المعارف العثمانية ، حيد آباد - الدكن ، ط١ ، ١٣٢٩هـ .

- **تهذيب التهذيب** . تصحيح/أمير حسن وآخرون ، دائرة المعارف العثمانية ، حيد آباد - الدكن ، ط١ ، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م .

- **تقريب التهذيب** . تحقيق/ أبو الأشبال صغير أحمد الباكستاني ، دار العاصمة ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٦هـ .

* ابن حجة الحموي : تقي الدين أبو بكر علي بن محمد (ت ٨٣٧هـ/١٤٣٤م) .

- **ثمرات الأوراق** . تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت، ط٣ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

* الحجوي : محمد بن الحسن (ت ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) .

- **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي** . تخريج وتعليق/عبد العزيز القاريء ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ، ١٣٩٦هـ .

* الحميدي : أبو عبد الله محمد بن فتوح (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م) .

– **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس** . تصحيح وتحقيق/محمد تاويت الطنجي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د.ط ، د.ت .

* ابن حنبل : أبو عبد الله أحمد الشيباني (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م) .

– **المسند** . تحقيق/محمد الغمراوي ، المطبعة الميمنية ، القاهرة ، د.ط ، ١٣١٣هـ/١٨٩٥م .

– **سؤالات أبي داود للإمام أحمد** . تحقيق/زياد منصور ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

* أبو حنيفة الدينوري : أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) .

– **النبات** . تحقيق/برنهارد لفين ، دار فرانز شتاينر ، فيسبادن (ألمانيا الإتحادية) ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م . وأعادت طبعة : دار القلم ، بيروت .

* حنين بن إسحاق : أبو زيد العبادي (ت ٢٦٠هـ/٨٧٤م) .

– **المسائل في الطب** . تحقيق/جلال موسى ومرسي عزب ، دار الجامعات المصرية ، الإسكندرية ، ط١ ، ١٩٧٨م .

– **العشر مقالات في العين** . تحقيق/ماكس مايرهوف ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٢٨م .

* ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي (ت بعد ٣٦٧هـ/٩٧٧م) .

– **صورة الأرض** . تحقيق/جي . كرامرز وآخرون ، مطبعة بريل ، ليدن (هولندا) ، ١٩٣٩م . أعادت طبعه : دار صادر ، بيروت .

* ابن خرداذبه : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م) .

– **المسالك والممالك** . تحقيق/محمد مخزوم . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

* الخزرجي : صفي الدين أحمد بن عبد الله (ت ٩٢٣هـ/١٥١٧م) .

- **خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال** . مكتبة المطبوعات الإسلامية ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧١م .

* الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م) .

- **تاريخ بغداد** . دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

- **الرحلة في طلب الحديث** . تحقيق/نور الدين عتر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

- **تقييد العلم** . تحقيق/يوسف العش ، دار إحياء السنة النبوية ، د.م ، ط٢ ، ١٩٧٤م .

- **الجامع لأخلاق الراوي وأداب السامع** . تحقيق/محمود الطحان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- **الكفاية في علم الرواية** . تحقيق/أحمد عمر هاشم ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- **شرف أصحاب الحديث** . تحقيق/محمد أوغلي ، دار إحياء السنة النبوية، د.م ، د.ط ، ١٩٧٢م .

* ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) .

- **المقدمة** . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

* ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) .

- **وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان** . تحقيق/إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٨ـ١٩٧٢م .

* الخوارزمي : أبو عبد الله محمد بن موسى (ت بعد ٢٣٢هـ/٨٤٧م) .

- **صورة الأرض** . تحقيق/هانس مزيك ، مطبعة أدلف هولزهوزن ، فينا (النمسا) ، د. ط ، ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م .

- **الجبر والمقابلة** . تحقيق/علي مشرفة ومحمد موسى ،دار الكتاب العربي، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٨م .

* الخوارزمي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الكاتب (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م) .

- **مفاتيح العلوم** . تقديم/جودت فخر الدين ، دار المناهل ، بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ/١٩٩١م .

* ابن خير : أبو بكر محمد الأموي (ت ٥٧٥هـ/١١٧٩م) .

- **فهرسة ابن خير** . تحقيق/محمد منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

* الداني : أبو عمرو عثمان بن سعيد (ت ٤٤٤هـ/١٠٥٣م) .

- **التيسير في القراءات السبع** . تحقيق/أوتويرتزل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

* أبو داود : سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ/٨٨٨م) .

- **السنن** . تحقيق/محمد عوامة ، دار القبلة ، جدة. مؤسسة الريان ، بيروت. المكتبة المكية ، مكة المكرمة ، ط١ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

* الداوودي : شمس الدين محمد بن علي (ت ٩٤٥هـ/١٥٣٨م) .

- **طبقات المفسرين** . دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* ابن الداية : أبو جعفر أحمد بن يوسف الكاتب (ت ٣٤٠هـ/٩٥١م) .

- **المكافأة وحسن العقبى** . تحقيق/محمود محمد شاكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* ابن دريد : أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م) .

- **الملاحن** . تحقيق/عبد الإله نبهان ، وزارة الثقافة ، الجمهورية العربية السورية ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٢م .

- **صفة السرج واللجام** . تحقيق/مناف مهدي محمد ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

* دعبل الخزاعي : أبو علي دعبل بن علي (ت ٢٤٦هـ/٨٦٠م) .

ــ **الديوان** . شرح وضبط/ضياء حسين الأعلمي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

* ديوفنطس الإسكندراني (ت ٣م) .

ــ **صناعة الجبر** ، ترجمة/قسطا بن لوقا البعلبكي . تحقيق/رشدي راشد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، د.ط ، ١٩٧٥م .

* الذهبي : شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) .

ــ **معرفة القراء الكبار** . تحقيق/بشار معروف وآخرون ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

ــ **ميزان الإعتدال في نقد الرجال** . تحقيق/علي البجاوي ، شركة مكتبة ومطبعة عيسى الحلبي ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م .

ــ **تاريخ الإسلام** . تحقيق/عمر تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م .

ــ **ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل** . تحقيق/عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ، ط٥ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

ــ **تذكرة الحفاظ** ، تصحيح/عبد الرحمن المعلمي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٣٧٤هـ .

ــ **الأمصار ذوات الآثار** . تحقيق/محمود الأرناؤوط ،دار ابن كثير ، بيروت، ط١ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

ــ **العبر في خبر من غبر** . تحقيق/محمدزغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

ــ **دول الإسلام** . مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، بيروت ، د.ط ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- **سير أعلام النبلاء** . تحقيق/شعيب الأرناؤوط وآخرون ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط٦ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* الرازي : محمد بن أبي بكر عبد القادر (ت بعد ٦٦٦هـ/١٢٦٧م) .

- **مختار الصحاح** . مكتبة لبنان ، بيروت . د.ط ، ١٩٩٦م .

* الراغب الأصفهاني : أبو القاسم حسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ/١١٠٨م) .

- **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء** . تهذيب واختصار/إبراهيم زيدان ، دار الجيل ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* ابن ربن الطبري : أبو الحسن علي بن سهل (ت ٢٤٧هـ/٨٦١م) .

- **فردوس الحكمة** . تحقيق/محمد زبير الصديقي ، مطبعة أفتاب ، برلين (ألمانيا الإتحادية) ، ط١ ، ١٩٢٨م .

* ابن رشيق : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م) .

- **العمدة في صناعة الشعر ونقده** . تحقيق/مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

* الرهاوي : إسحاق بن علي (ت بعد ٢٨٨هـ/٩٠٠م) .

- **أدب الطبيب** . تحقيق/مريزن سعيد عسيري ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

* ابن الرومي : أبو الحسن علي بن العباس (ت ٢٨٣هـ/٨٩٦م) .

- **الديوان** . شرح/محمد شريف ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩١٧م .

* الزبيدي : أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي (ت ٣٧٩هـ/٩٨٩م) .

- **طبقات النحويين واللغويين** . تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٤م .

* الزجاجي : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م) .

- **الإيضاح في علل النحو** . تحقيق/مازن المبارك ، دار النفائس ، بيروت ، ط ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

- **الجمل في النحو** . تحقيق/توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

- **تفسير رسالة أدب الكاتب لابن قتيبة** . تحقيق/عبد الفتاح سليم ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

- **مجالس العلماء** . تحقيق/عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، دار الرفاعي ، الرياض ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

* الزركشي : محمد بن بهادر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) .

- **البرهان في علوم القرآن** . تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* الزرنوجي : برهان الدين (ت ٥٩١هـ/١٢٤٢م) .

- **تعليم المتعلم طريق التعلم** . تحقيق/مروان قباني ، المكتب الإسلامي، بيروت ، ط١ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

* السبكي : تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) .

- **طبقات الشافعية الكبرى** . تحقيق/محمود الطناحي وزميله ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، د.ط ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م .

* السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) .

- **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ** . تحقيق/فرانز روزنثال ، تعريب/صالح العلي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* ابن سعد : أبو عبد الله محمد الهاشمي (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م) .

- **الطبقات الكبرى** . دار التحرير ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

* السمعاني : أبو سعد عبد الكريم بن محمد التميمي (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) .

ـ **الأنساب** . مكتبة محمد أمين دمج ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

ـ **أدب الإملاء والإستملاء** . تحقيق/أحمد محمد محمود ، د.د ، مطبعة المحمودية ، جدة ، ط١ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

* ابن سنان : أبو إسحاق إبراهيم بن سنان الحراني البغدادي (ت ٣٣٥هـ/٩٤٦م) .

ـ **رسالة في وصف المعاني المستخرجة في الهندسة وعلم النجوم** . تحقيق/أحمد سعيدان ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، السلسلة التراثية ، الكويت ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

* سهراب : (القرن ٤هـ) .

ـ **عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة** . تحقيق/هانس مزيك ، مطبعة أدولف هولز هوزن ، فينا (النمسا) ، د.ط ، ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م .

* السيرافي : أبو سعيد الحسن بن عبد الله (ت ٣٦٨هـ/٩٧٨م) .

ـ **أخبار النحويين البصريين** . تحقيق/محمد إبراهيم البنا ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

* ابن سينا : أبو علي الحسن بن عبد الله (ت ٤٢٢٧هـ/١٠٣٦م) .

ـ **القانون في الطب** . المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ط١ ، ١٢٩٤هـ . أعادت طبعه : دار صادر ، بيروت .

* السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) .

ـ **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** . تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

ـ **طبقات الحفاظ** . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

ـ **طبقات المفسرين** . دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

ـ **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** . تحقيق/محمد جاد المولى وآخرون ، مكتبة الحلبي ، القاهرة ، د.ط ، د.ت .

ـ **صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام** . تحقيق/على النشار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م .

ـ **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة** . تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، د.ط ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

* الشابشتي : أبو الحسن علي بن محمد (ت ٣٨٨هـ/٩٩٨م) .

ـ **الديارات** . تحقيق/كوركيس عواد ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ط٢ ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .

* ابن شاهين : أبو حفص عمر بن أحمد (ت ٣٨٥هـ/٥٩٥م) .

ـ **تاريخ أسماء الثقات ممن نقل عنهم العلم** . تحقيق/عبد المعطي قلعجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* الشهرزوري : شمس الدين محمد بن محمود الإشراقي (ت بعد ٦٨٧هـ/١٢٨٨م) .

ـ **نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء والفلاسفة** . تحقيق/خورشيد أحمد ، دائرة المعارف العثمانية ، حيد آباد ـ الدكن ، ط١، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

* شيخ الربوة : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م) .

ـ **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر** . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

* الشيرازي : أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشافعي (ت ٤٧٦هـ/١٠٨٣م) .

ـ **طبقات الفقهاء** . تحقيق/إحسان عباس ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

* الشيزري : عبد الرحمن بن نصر (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م) .

ـ **نهاية الرتبة في طلب الحسبة** . تحقيق/السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

* الصابىء : أبو الحسن الهلال بن المحسن (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) .

ـ **الوزراء ، أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء** . تحقيق/حسن الزين ، دار الفكر الحديث ، بيروت ، د.ط ، ١٩٩٠م .

* صاعد الأندلسي : أبو القاسم صاعد بن أحمد التغلبي (ت ٤٦٢هـ/١٠٧٠م) .

ـ **طبقات الأمم** . تحقيق/حياة بو علوان ، دار الطليعة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م .

* الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م) .

ـ **نكت الهميان في نكت العميان** . الجمعية الجغرافية السلطانية ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٢٩هـ/١٩١١م .

ـ **الوافي بالوفيات** . باعتناء/هلموت ريتر ، دار فرانزشتاينر ، فيسبادن (ألمانيا الإتحادية) ، إسطنبول ، ط٢ ، ١٩٧٤م .

* ابن الصلاح : تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م) .

ـ **طبقات الفقهاء الشافعية** . تحقيق/محيى الدين نجيب ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

ـ **المقدمة** . تحقيق/صلاح عويضة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

* الصولي : أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥هـ/٩٤٧م) .

ـ **أخبار الراضي بالله والمتقي لله** . باعتناء/ج . هيورث ، دار المسيرة، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

ـ **أخبار الشعراء المحدثين** . باعتناء/ج . هيورث ، دار المسيرة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠١هـ/١٩٨٢م .

ـ **أدب الكاتب** . تحقيق/أحمد بسج، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

– **أشعار أولاد الخلفاء** . باعتناء/ج . هيورث ، دار المسيرة ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠١هـ/١٩٨٢م .

* الضبي : أحمد بن يحيى (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٣م) .

– **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس** . تحقيق/روحية السويفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

* طاش كبري زاده : عصام الدين أبو الخير أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٢هـ/١٥٥٤م) .

– **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم** . تحقيق/كامل بدوي وزميله ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٨م .

* الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) .

– **تاريخ الرسل والملوك** . تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم ، روائع التراث العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

* ابن طيفور : أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م) .

– **بغداد** . تحقيق/محمد زاهد الكوثري ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

* ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا العلوي (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م) .

– **الفخري في الآداب السلطانية** . دار صادر ، بيروت ، د.ط ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .

* الطرطوشي : أبو بكر محمد بن الوليد الفهري (ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م) .

– **سراج الملوك** . تحقيق/محمد فتحي أبو بكر ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

* ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧١م) .

– **بهجة المجالس وأنس المجالس** . تحقيق/محمد الخولي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨١م .

* ابن عبد ربه : أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م) .

- **العقد الفريد** . تحقيق/محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* ابن العبري : أبو الفرج غريفوريوس بن أهرون الملطي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) .

- **تاريخ الزمان** . تعريب/إسحاق أرملة ، دار المشرق ، بيروت ، ط١، ١٩٩١م .

- **تاريخ مختصر الدول** . وضع حواشيه/خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

* العجلي : أبو الحسن أحمد بن عبد الله (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م) .

- **تاريخ الثقات** . تحقيق/عبد المعطي قلعجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م .

* العسكري : أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م) .

- **الأوائل** . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

* العصامي : عبد الملك بن حسين المكي (ت ١١١١هـ/١٦٩٩م) .

- **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي** . المطبعة السلفية ، القاهرة ، د.ط ، ١٣٨٠هـ .

* ابن العمراني : محمد بن علي (ت ٥٨٠هـ/١١٨٤م) .

- **الإنباء في تاريخ الخلفاء** . تحقيق/قاسم السامرائي ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .

* أبو العلاء صاعد : صاعد بن الحسن الطبيب (ت بعد ٤٦٤هـ/١٠٧١م) .

- **التشويق الطبي** . تحقيق/مريزن سعيد عسيري ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، د.ط ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

* العليمي : أبو اليمن مجير الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٢٨هـ/١٥٢٢م) .

– **المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد** . تحقيق/محمد محي الدين عبد الحميد ، عالم الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

* علي بن الجهم : أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر القرشي السامي (ت ٢٤٩هـ/٨٦٣م) .

– **الديوان** . تحقيق/خليل مردم ، دار صادر ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٦م .

* ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت ١٠٨٩هـ/١٨٧٨م) .

– **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** . دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* الغزالي : أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ/١١١١م) .

– **الأدب في الدين** . تحقيق/عبد الله أبو زينة ، دار الشروق ، بيروت ، ط٤، ١٩٨٣م .

– **أيها الولد** . مكتبة الخدمات الحديثة ، جدة ، ط١ ، ١٤١٤هـ .

* الغساني : الملك الأفضل العباسي بن علي بن رسول (ت ٧٧٨هـ/١٤٧٣م) .

– **نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء** . تحقيق/نبيلة عبد المنعم ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* الفارابي : أبو نصر محمد بن محمود (ت ٣٣٩هـ/٩٥٠م) .

– **إحصاء العلوم** . تحقيق/علي بو ملحم ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط١، ١٩٩٦م .

* أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) .

– **المختصر في أخبار البشر** . دار المعرفة ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* ابن فرحون : إبراهيم بن نور الدين المالكي (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٧م) .

– **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب** . تحقيق/مأمون الجنان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

* ابن الفرضي : أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي (ت ٤٠٣هـ/١٠١٢م) .

– **تاريخ علماء الأندلس** . تحقيق/روحية السويفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

* ابن فضلان : أحمد بن فضلان بن العباس (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) .

– **رسالة ابن فضلان** . تحقيق/سامي الدهان ، دار صادر ، بيروت ، ط٣ ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

* ابن الفقيه : أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني (أواخر القرن ٣هـ/٩م) .

– **مختصر كتاب البلدان** . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

* الفيروز آبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/١٤١٥م) .

– **القاموس المحيط** . تحقيق/محمد نعيم العرقسوسي وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٥ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

* ابن قاضي شهبة : تقي الدين أحمد بن محمد (ت ٨٥١هـ/١٤٤٧م) .

– **طبقات النحاة واللغويين** . تحقيق/محسن فياض ، مطبعة النعمان ، بغداد ، ط١ ، ١٩٧٣م .

* القاضي عياض : عياض بن موسى بن عياض (ت ٥٤٤هـ/١١٤٩م) .

– **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك** . تحقيق/أحمد بكر محمود ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ط١ ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

* ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) .

– **المعارف** . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

– **الأنواء** . دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد – الدكن ، ط١ ، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م .

- **الشعر والشعراء** . راجعه وقدم له/حسن تميم ومحمد العريان ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ط٤ ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م .

- **عيون الأخبار** . تحقيق/فريق القسم الأدبي بدار الكتب المصرية برئاسة : أحمد زكي العدوي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د.ط ، د.ت ، عن نسخة دار الكتب المصرية المطبوعة سنة ١٩٢٥م .

* قدامة بن جعفر : أبو الفرج الكاتب (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م) .

- **نقد الشعر** . تحقيق/محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

- **نقد النثر** . تحقيق/طه حسين وعبد الحميد العبادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

* القرشي : محي الدين أبي محمد عبد القادر بن محمد الحنفي (ت ٧٧٥هـ/١٣٧٣م) .

- **الجواهر المضية في طبقات الحنفية** . دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد _ الدكن ، ط١ ، ١٣٧٢هـ .

* القرطبي : عريب بن سعد (ت بعد ٣٣١هـ/٩٤٣م) .

- **صلة تاريخ الطبري** . تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم ، روائع التراث العربي ، بيروت ، د.ط ، د.ت .

* ابن قرة : أبو الحسن ثابت الحرَّاني (ت ٢٨٨هـ/٩٠١م) .

- **الذخيرة في علم الطب** . تحقيق/جورجي صبحي ، الجامعة المصرية ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٢٨م .

* القضاعي : أبو عبد الله محمد بن سلامة القاضي الشافعي (ت ٤٥٤هـ/١٠٦٢م) .

- **عيون المعارف وفنون أخبار الخلائق** . تحقيق / جميل عبد الله المصري ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

* ابن قطلوبغا : أبو الفداء زين الدين قاسم السودني (ت ٨٧٩هـ/١٤٧٤م) .

– **تاج التراجم** . تحقيق / محمد خير يوسف ، دار القلم ، دمشق ، ط ١ ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

* القفطي : جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) .

– **تاريخ الحكماء** . تحقيق / يليوس ليبرت ، ليبسك ، د . ط ، ١٣٢٠هـ/١٩٠٣م . أعادت طبعة : مكتبة المثنى ، بغداد .

– **إنباه الرواة على أنباه النحاة** . تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة . مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

– **المحمدون من الشعراء وأشعارهم** . تحقيق / حسن معمري ، دار اليمامة ، الرياض ، د . ط ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .

* القلانسي : بدر الدين محمد بن بهرام السمرقندي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٥م تقريباً) .

* القلانسي : **أقرباذين القلانسي** . تحقيق / محمد زهير البابا ، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب ، حلب ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

– **مآثر الأنافة في معالم الخلافة** . تحقيق / عبد الستار أحمد فراج ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٠م .

* القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) .

– **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء** . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، د . ط ، د . ت .

* الكتاني : الشريف محمد بن جعفر (١٣٤٥هـ/١٩٢٦م) .

– **الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة** . دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* الكتبي : محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) .

– **فوات الوفيات والذيل عليها** . تحقيق / إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د . ط ، د .ت .

* ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) .

- **البداية والنهاية** . مكتبة المعارف ، بيروت ، د.ط ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

* الكشكري : يعقوب (أواخر القرن ٣هـ/٩م) .

- **كناش في الطب** . تحقيق / علي شيري ، مؤسسة عز الدين ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

* الكندي : أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (ت ٢٦٠هـ/٨٧٤م) .

- **رسالة في علة اللون اللازوردي** .

- **رسالة في علة الثلج والبرد** .

- **رسالة في العلة التي لها تكون بعض المواضع لا تكاد تمطر** .

جميعها بتحقيق / محمد عبد الهادي أبو ريدة ، رسائل الكندي الفلسفية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م .

* اللامشي : أبو المحامد بدر الدين محمد الحنفي (ت ٣٧٣هـ/٩٨٣م تقريباً) .

- **بيان كشف الألفاظ** . تحقيق / محمد الشلبي ، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ع ١ ، ١٣٩٨هـ .

* اللكنوي : أبو الحسنات محمد بن عبد الحي (ت ٩٩٠هـ/١٥٨٢م) .

- **الفوائد البهية في تراجم الحنفية** . تصحيح / محمد النعساني ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهر ، د . ط ، د . ت .

* ابن ماجه : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ/٨٨٦م) .

- **السنن** . تحقيق / محمد الأعظمي ، د . د. شركة الطباعة العربية السعودية ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

* الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي (ت ٤٥٠هـ/١١٥٥م) .

- **الأحكام السلطانية والولايات الدينية** . دار الكتب العلمية ، بيروت، د . ط . د . ت .

* ابن مجاهد : أبو بكر أحمد بن موسى التميمي البغدادي (ت ٣٢٤هـ/٩٣٥م) .

– **السبعة في القراءات** . تحقيق / شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة، ط ٢ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

* المرتضى الزبيدي : محب الدين أبي الفيض محمد بن محمد الحسيني (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) .

– **تاج العروس من جواهر القاموس** . تحقيق / نخبة من الأفاضل ، وزراة الإعلام ، سلسلة التراث العربي ، الكويت ، ط ٢ ، ١٩٦٥ ـ ١٩٨٦م .

* المرزباني : أبو عبد الله محمد بن عمران الكاتب (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م) .

– **معجم الشعراء** . تحقيق / ف . كرنكو ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١هـ/١٩٩١م .

– **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء** . تحقيق / محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

* المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) .

– **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. تحقيق/محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م .

* مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد الرازي (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م) .

– **تجارب الأمم وتعاقب الهمم** . تحقيق / هـ . ف أمدروز ، شركة التمدن الصناعية بمصر ، د . ط ، ١٣٣٢هـ/١٩١٤م . أعادت طباعة هذا الكتاب عن هذه النسخة : مكتبة المثنى ، بغداد .

– **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق** . دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ط ٢ ، د.ت .

* مسلم : أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ/٨٧٥م) .

– **الكنى والأسماء** . تحقيق / عبد الرحيم قشقري ، المجلس العلمى ، الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

- **الجامع الصحيح** . تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د . ط . د . ت .

* المظفر الغساني : يوسف بن عمر بن رسول التركماني صاحب اليمن (ت ٦٩٤هـ/١٢٩٤م) .

- **المعتمد في الأدوية المفردة** . تصحيح / مصطفى السقا ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

* ابن المعتز : أبو العباس عبد الله بن محمد المعتز العباسي (ت ٢٩٦هـ/٩٠٩م) .

- **طبقات الشعراء** . تحقيق / عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٨م .

- **الديوان** ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ، د . ط ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- **البديع** . تحقيق / أغناطيوس كراتشكوفسكي ، مؤسسة لوزاك ، لندن ، ط١ ، ١٩٣٥م .

* المعري : أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخي (ت ٤٤٩هـ/١٠٥٧م) .

- **رسالة الغفران** . تحقيق / عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١٠ ، ١٩٩٧م .

* ابن معين : أبو زكريا يحيى بن معين المري (ت ٢٣٣هـ/٨٤٨م) .

- **التاريخ** . تحقيق / أحمد نور سيف ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

* المقدسي : أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) .

- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** . باعتناء / محمد مخزوم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د . ط ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

* المقري : أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م) .

- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** . تحقيق / إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د . ط ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

* بنو موسى بن شاكر : (القرن ٣ هـ/٩م) .

– **الحيل** . تحقيق / أحمد الحسن وأخرون ، معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، حلب ، ط ١ ، ١٩٨١م .

* ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ/١٣١١م) .

– **لسان العرب** . دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، د . ت .

* ابن نباته : أبو بكر جمال الدين محمد بن محمد الفارقي (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٧م) .

– **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون** . تحقيق . محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، د . ط ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* النديم : أبو الفرج محمد بن إسحاق البغدادي الكاتب (ت ٣٨٥هـ/٩٩٥م) .

– **الفهرست** . تحقيق / يوسف طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

* النرشخي : أبو بكر محمد بن جعفر (ت ٣٤٨هـ/٩٥٩م) .

– **تاريخ بخاري** . ترجمة عن الفارسية وتحقيق/أمين بدوي ونصر الله الطرازي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٩٣م .

* النسائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ/٩١٥م)

– **السنن** . دار الفكر ، بيروت ، د . ط ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

* النووي : أبو زكريا محي الدين بن شرف الدمشقي (ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) .

– **تهذيب الأسماء واللغات** . دار الفكر، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

* الهمذاني : محمد بن عبد الملك (ت ٥٢١هـ/١١٢٧م) .

– **تكملة تاريخ الطبري** . تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، روائع التراث العربي ، بيروت ، د . ط ، د . ت .

* ابن الوردي : زين الدين أبي حفص عمر بن مظفر المصري الشافعي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م).

– **تاريخ ابن الوردي** . دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

* الوشاء : أبو الطيب محمد بن أحمد (ت ٣٢٥هـ/٩٣٧م) .

- **الظرف والظرفاء** . تحقيق / فهمي سعد ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

* وكيع : أبو بكر محمد بن خلف الضبي (ت ٣٠٦هـ/٩١٨م) .

- **أخبار القضاة** . عالم الكتب ، بيروت ، ط ١ ، د . ت .

* اليافعي : عفيف الدين عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م) .

- **مرأة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان** . مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .

* ياقوت الحموي : شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) .

- **معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب** . باعتناء/د. مرجليوث ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د . ط ، د . ت .

- **معجم البلدان** . تحقيق / وستنفيلد ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٤م . عن نسخة ليبزيك ، ١٨٦٦ ـ ١٨٧٠م .

- **المشترك وضعاً والمفترق صقعاً** . عالم الكتب ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح الكاتب (٢٩٢هـ/٩٠٥م تقريباً) .

- **البلدان** . باعتناء / دي غويه ، ليدن (هولندا) ، مطبعة بريل ، ١٨٩٢م . أعادت طبعة : دار صادر ، بيروت .

- **تاريخ اليعقوبي** . تحقيق / عبد الأمير مهنا ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

- **مشاكلة الناس لزمانهم** . تحقيق / وليم ملورد ، دار الكتاب الجديد . بيروت ، ط ١ . ١٩٦٢م .

* اليغموري : أبو المحاسن يوسف بن أحمد (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .

– **نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء** . تحقيق / رودلف زلهايم ، دار فرانتس شتاينر ، فيسبادن (ألمانيا الإتحادية) ، ط ١ ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .

* اليماني : تاج الدين أبي المحاسن عبد الباقي بن عبد المجيد القرشي (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م).

– **إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين** . تحقيق / عبد المجيد دياب ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

ثالثاً : المراجع العربية والمعربة :

* أحمد أمين :

- **ظهر الإسلام** . دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٥ ، د . ت .

* أحمد تيمور :

- **ضبط الأعلام** . مركز السنة للبحث العلمي ، القاهرة ، مؤسسة الكتب الثقافية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

* أحمد رمضان :

- **الرحلة والرحالة المسلمون** ، دار البيان العربي ، جدة ، د.ط ، د.ت .

* أحمد زكي :

- **جمهرة رسائل العرب** . مكتبة مصطفى الحلبي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م .

* أحمد الزيات :

- **تاريخ الأدب العربي** . دار المعرفة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

* أحمد شلبي :

- **الفكر الإسلامي** ، منابعه وآثاره . موسوعة النظم والحضارة الإسلامية (ج٢) ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٨ ، ١٩٨٦م .

* أحمد عبد الباقي :

- **معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري** . مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩١م .

* أحمد عبد الرازق :

- **الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى** . دار الفكر العربي ،القاهرة ، ط ١ ، ١٤١١هـ/١٩٩١م .

* أحمد عيسى :

– **تاريخ البيمارستانات في الإسلام** . دار الرائد العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

* أحمد الملا :

– **أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية** . دار الفكر ، دمشق ، ط٢ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

* أدم متز :

– **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجـري** . تعريـب/محمد عبد الهادي أبو ريدة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٥ ، د. ت .

* أمين القضاة :

– **مدرسة الحديث في البصرة حتى القرن الثالث الهجـري** . دار ابن حزم ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

* أحمد كمال :

– **الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري** . دار المعارف ، القاهرة ، د . ط ، ١٩٧١م .

* ألدوميلي :

– **العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي** .تعريب/عبد الحليم النجار وآخرون ، دار القلم ، بيروت ، د . ط ، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م .

* أمين خير الله :

– **الطب العربي** . المطبعة الأمريكانية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٤٦م .

* أندريه ميكيل :

– **جغرافية دار الإسلام البشرية** . تعـريب / إبراهيم خـوري ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي السورية ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٣م .

* أنور الرفاعي :

– **تاريخ العلوم في الإسلام** . دار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ١٩٧٢م .

– **الإنسان العربي والحضارة** . دار الفكر ، دمشق ، د . ط ، ١٩٧٠م .

* أيمن فؤاد :

– **الكتاب العربي المخطوط** . الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

* بارتولد :

– **تاريخ الحضارة الإسلامية** . تعريب / حمزة طاهر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٩٨٣م .

* البشير صفير :

– **الجغرافيا عند العرب** . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

* توماس أرنولد وآخرون :

– **تراث الإسلام** . تعريب / جرجيس فتح الله ، دار الطليعة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٧٨م .

* جلال شوقي :

– **تراث العرب في الميكانيكا** . عالم الكتب ، القاهرة ، د . ط ، ١٩٧٣م .

* جلال موسى :

– **منهج البحث العلمي عندالعرب** . دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، د.ط ، ١٩٨٨م .

* جورج سارتون :

– **تاريخ العلم** . تعريب / محمد عبد الهادي أبو ريدة وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ، د . ط ، ١٩٩١م .

* جورج غريب :

ـ **أدب الرحلة** . دار الثقافة ، بيروت ، د . ط ، ١٩٦٦م .

* جورج المقدسي :

ـ **نشأة الكليات** . تعريب / محمود سيد ، مركز النشر العلمي ، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، ط ١ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

* جوستاف لوبون :

ـ **حضارة العرب** . تعريب / عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، د.ط ، د.ت .

* حسام الدين السامرائي :

ـ **المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية** ، دار الفكر العربي ،القاهرة، ط ٢ ، ١٤٠٣هـ .

* حسن عون :

ـ **تطور الدرس النحوي** . معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، د.ط ، ١٩٧٠م .

* حسن ناعسه :

ـ **الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري** . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

* حسن إبراهيم :

ـ **تاريخ الإسلام** . دار الجيل ، بيروت . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١٣ ، ١٤١١هـ/١٩٩١م .

* حسين الحاج :

ـ **حضارة العرب في العصر العباسي** . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

* حسين مؤنس :

- **أطلس تاريخ الإسلام** . الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

* حصة الصباح :

- **العلوم عند المسلمين** . مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، الكويت ، ط ٣ ، ١٩٩٠م .

* حكمت نجيب :

- **دراسات في تاريخ العلوم عند العرب** . جامعة الموصل ، الموصل ، ط٤ ، ١٩٨٥م .

* حميد موراني :

- **تاريخ العلوم عند العرب** . دار المشرق ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٩م .

* خير الدين الزركلي :

- **الأعلام** . دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١٠ ، ١٩٩٢م .

* ربحي عليان :

- **الكتب والمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية** . بيت القرآن ، المنامة (البحرين) ، ط ١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

* رحاب عكاوي :

- **الموجز في تاريخ الطب عند العرب** . دار المناهل ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

* رشاد عتوق :

- **الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي** . معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

* رشدي راشد :

– **تاريخ الرياضيات العربية** . مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٩م .

* رشيد الجميلي :

– **حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة** . الناشر : الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع ، طرابلس (ليبيا) ، ط ١ ، ١٩٨٢م .

* رمضان عبد التواب :

– **فصول في فقه العربية** . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

* روزنفيلد وزميله :

– **نظرية الخطوط المتوازية في المصادر العربية** . تعريب / سامي شهلوب وزميله ، معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، حلب ، ط ١ ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .

* زكي حسن :

– **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى** . دار الآثار العربية ،القاهرة ، د . ط ، ١٩٤٥م .

* زيجريد هونكه :

– **شمس العرب تسطع على الغرب** . تعريب / فاروق بيضون وكمال دسوقي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ٨ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* ستانوود كب :

– **المسلمون في تاريخ الحضارة** . تعريب / محمد فتحي عثمان ، الدار السعودية ، جدة ، ط ٢ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

* سعد البشري :

- **الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس** . معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

- **الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس** . مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

* سيد رضوان :

- **العلوم والفنون عند العرب** . دار المريخ ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

* شحاتة قنواتي :

- **تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الوسيط** . دار أوراق شرقية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

* شعبان خليفة :

- **الكتب والمكتبات في العصور الوسطى** . الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

* شوقي أبو خليل :

- **أطلس التاريخ العربي** . دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٣م .

* شوقي الجمل :

- **علم التاريخ ، نشأته وتطوره** . دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٧م .

* شوقي ضيف :

- **المدارس النحوية** . دار المعارف ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٩٢م .

- **العصر العباسي الثاني** . دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٥م .

* صالح العلي :

– **العلوم عند العرب** . مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

* صبحي الصالح :

– **مباحث في علوم القرآن** . دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٩م .

* ضيف الله الزهراني :

– **النفقات وإدارتها في الدولة العباسية** . مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

– **الوزير العباسي على بن عيسى بن داود بن الجراح ، إصلاحاته الإقتصادية والإدارية** . معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

* طه حسين :

– **من حديث الشعر والنثر** . دار المعارف ، القاهرة ، ط ٨ ، ١٩٦٤م .

* عامر النجار :

– **في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية** . دار المعارف ، القاهرة ، ط٣، ١٩٩٤م .

* عبد الله عبد الدائم :

– **التربية عبر التاريخ** . دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٣م .

* عبد الله فياض :

– **الإجازات العلمية عند المسلمين** . مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ط١، ١٩٦٧م .

* عبد الأمير المؤمن :

– **التراث الفكلي عند العرب والمسلمين وأثره في علم الفلك الحديث** . معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، حلب ، ط ١ ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

* عبد الحليم منتصر :

- **تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه** .دار المعارف ،القاهرة، ط٨ ، ١٩٩٠م .

* عبد الرحمن حميدة :

- **أعلام الجغرافيين العرب** . دار الفكر، دمشق ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

* عبد الحميد العلوجي :

- **تاريخ الطب العراقي** . مطبعة أسعد ، بغداد ، ط ١ ، ١٩٦٧م .

* عبد العزيز الدوري :

- **بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب** ، دار المشرق ، بيروت ، ط٢، ١٩٩٣م .

* عبد القادر المعاضيدي :

- **واسط في العصر العباسي** . منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد ، د.ط ، ١٩٨٣م .

* عبد الكريم مجاهد :

- **الدلالة اللغوية عند العرب** . دار الضياء ، عمان ، د . ط ، ١٩٨٥م .

* عبد الناصر كعدان :

- **علاج الكسور عند الأطباء العرب** . دار القلم العربي ، حلب ، ط ١ ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

* علي أبو المكارم :

- **تقديم الفكر النحوي** . دار الثقافة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٥م .

- **المدخل إلى دراسة النحو العربي** . د . د ، د . م ، ط١ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

* علي الدفاع :

- **أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك** . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- **رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية الإسلامية** . نادي جازان الأدبي ، جازان ، ط١ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

- **الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي** . دار جون وايلي وأولاده، نيويورك ، ط ١ ، ١٩٧٩م .

- **إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة** . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

- **إسهام علماء المسلمين في الرياضيات** . تعريب/جلال شوقي ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

- **إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء** . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .

* علي العسكري :

- **العرب وعلوم الأرض** . منشأة المعارف ، الأسكندرية ، د . ط ، ١٩٧٣م .

* علي النملة :

- **الوراقة وأشهر أعلام الوراقين** . مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

* علي هاشم :

- **الأندية الأدبية في العصر العباسي** . دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

* عمر الأشقر :

– **تاريخ الفقه الإسلامي** . مكتبة الفلاح ، الكويت ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

* عمر الدقاق :

– **ملامح النثر العباسي** . دار الشرق العربي ، بيروت ، د . ط ، د . ت .

* عمر فروخ :

– **تاريخ الأدب العربي** . دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٦ ، ١٩٩٢م .

* عمر كحالة :

– **اللغة العربية وعلومها** . دار المعلم العربي ، دمشق ، د.ط . ١٣٩١هـ/١٩٧١م .

– **التاريخ والجغرافيا في العصور الوسطى** . المطبعة التعاونية ، دمشق ، ط ١ ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

* فالتر هنتس :

– **المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري** . تعريب/ كامل العسيلي ، الجامعة الأردنية ، عمان ، ط ١ ، ١٩٧٠م .

* فرات خطاب :

– **الكحالة عند العرب** . منشورات وزارة الإعلام العراقية ، سلسلة المكتبة الفولكلورية (٨) ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، د.ط ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

* فرانز روزنثال :

– **علم التاريخ عند المسلمين** . تعريب/صالح العلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

* فؤاد سزكين :

– **تاريخ التراث العربي** . تعريب / محمود فهمي حجازي وآخرون ، إدارة الثقافة والنشر ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ط ٢ ، ١٩٩١م .

- **محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية** . معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، جامعة فرانكفورت ، فرانكفورت (ألمانيا الإتحادية) ، د.ط ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

* قدري طوقان :

- **العلوم عند العرب** . دار اقرأ ، بيروت ط ٢ ، ١٩٨٣م .

* كامل حمود :

- **تاريخ العلوم عند العرب** . دار الفكر اللبناني، بيروت ، د.ط ، ١٩٩٢م.

* كراتشكوفسكي :

- **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** . تعريب/صلاح الدين عثمان هاشم ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

* كرلو نلينو :

- **علم الفلك** . مكتبة الدار العربية للكتاب ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

* كمال السامرائي :

- **مختصر تاريخ الطب العربي** . وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد، ط ١ ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

* كارل بروكلمان :

- **تاريخ الأدب العربي** . دار المعارف ، القاهرة . الأجزاء (١ ـ ٣) تعريب/ عبد الحليم النجار ، ط ٥ ، ١٩٨٣م . الأجزاء (٤ ـ ٦) تعريب/رمضان عبد التواب والسيد بكر ، ط ٣ ، ١٩٨٣م .

* كوركيس عواد :

- **خزائن الكتب القديمة في العراق** . دار الرائد العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* كي ليسترنج :

- **بلدان الخلافة الشرقية** . تعريب / كوركيس عواد وبشير فرنسيس ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

* لسلي ماركويز :

- **حواريون وأطباء مسلمون في علوم الأمراض الجلدية** . تعريب/عثمان همت ، مستشفى المانع العام ، الخبر (السعودية) ، ط١ ، ١٩٨٣م .

* محمد الأبراشي :

- **التربية الإسلامية وفلاسفتها** . دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٩م .

* محمد أبو الأنوار :

- **الشعر العباسي ، تطوره وقيمة الفنية** . دار المعارف ،القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٧م .

* محمد باشا :

- **التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنكية والقبطية** . تحقيق / محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، القاهر ، ط ١ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

* محمد ترحيني :

- **المؤرخون والتاريخ عند العرب** . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١هـ/١٩٩١م .

* محمد حجاب :

- **بلاغة الكتاب في العصر العباسي** . مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، ط ٢ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* محمد الخطيب :

- **المختصر الوجيز في علوم الحديث** . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

* محمد الخولي :

- **تاريخ فنون الحديث** . دار ابن كثير ، دمشق ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

* محمد خفاجي :

- **الحياة الأدبية في العصر العباسي** . رابطة الأدب الحديث ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٤م .

* محمد الزرقاني :

- **مناهل العرفان في علوم القرآن** . المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، د . ط ، د . ت .

* محمد السبع :

- **شذرات مضيئة عن علم الحياة الحيوانية في التراث العلمي العربي الإسلامي** . معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، حلب ، ط١ ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

* محمد سلام :

- **تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى أخر القرن الرابع الهجري** . منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ط ٣ ، ١٩٩٦م .

* محمد صالحية :

- **المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع** . معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٥م .

* محمد مرحبا :

- **الموجز في تاريخ العلوم عند العرب** . دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨١م .

* محمد عثمان :

ـ **المدخل إلى التاريخ الإسلامي** . دار النفائس ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

* محمد عزت :

ـ **فهرس المخطوطات المصورة في مكتبة معهد التراث العلمي العربي** . معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، حلب ، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* محمد حماده :

ـ **المكتبات في الإسلام** . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٥ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

* محمد محمود :

ـ **الحنابلة في بغداد** . المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

* محمد آل ياسين :

ـ **الدراسات اللغوية عند العرب** . مكتبة دار الحياة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

* محمود الحاج :

ـ **الطب عند العرب والمسلمين ، تاريخ ومساهمات** .الدار السعودية، جدة ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

* محمود الطحان :

ـ **تيسير مصطلح الحديث** . مكتبة المعارف ، الرياض ، ط ٨ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

* محمود مصطفى :

- **إعجام الأعلام** . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

* مريزن عسيري :

- **الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي** . مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٧م .

* مصطفى سليمان :

- **تاريخ العلوم والتكنولوجيا في العصور القديمة والوسطى** . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٥م .

* مصطفى الشكعة :

- **مناهج التأليف عند العلماء العرب (قسم الأدب)** . دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٩ ، ١٩٩٦م .

* مناع القطان :

- **مباحث في علوم القرآن** . مكتبة المعارف ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

* منصور الرفاعي :

- **مكانة المسجد ورسالته** . مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

* نقولا زيادة :

- **الجغرافية والرحلات عند العرب** . دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، د . ط ، ١٩٦٢م .

* نهلة حسين :

- **الشعر في البصرة خلال القرن الرابع الهجري** . المركز الثقافي ، جامعة البصرة ، سلسلة تراث البصرة (١١) ، البصرة ، د.ط ، ١٩٩١م .

* هاري بارنز :

- **تاريخ الكتابة التاريخية** ، تعريب/محمد برج ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١ ، ١٩٨٤م .

* هاملتون جب :

- **دراسات في حضارة الإسلام** . تعريب / إحسان عباس ورفاقه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٧٩م .

* هناء فوزي :

- **مناهج الأطباء العرب** . دار سعاد الصباح ، الكويت ، ط ١ ، ١٩٩٣م .

* وليم الخازن :

- **الحضارة العباسية** . دار المشرق ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٠م .

* وهبه الزحيلي :

- **الوجيز في أصول الفقه** . دار الفكر المعاصر ، بيروت . دار الفكر ، دمشق ، ط ٢ ، ١٩٩٧م .

* يحيى الجوهري :

- **الخط والكتابة في الحضارة العربية** . دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط ١ ، ١٩٩٤م .

* يوسف خوري :

- **العلوم عند العرب** . دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

* يونس السامرائي :

- **أسرة آل وهب من الأسرة الأدبية في العصر العباسي** . مطبعة المعارف ، بغداد ، ط ١ ، ١٩٧٨م .

رابعاً : الأبحاث والمقالات :

* أبحاث المؤتمر السنوي الثاني للجمعية السورية لتاريخ العلوم ـ معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، ١٩٧٧م .

ـ محمد البابا : **مصادر الأدوية المفردة أو العقاقير في الطب العربي.**

* أبحاث المؤتمر السنوي الثالث للجمعية السورية لتاريخ العلوم ـ معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، ١٩٨٠م .

ـ عبد الرزاق زقزوق : **تاريخ الطب عند العرب .**

ـ عبد المنعم صفو : **تعليم الطب عند العرب .**

* أبحاث المؤتمر السنوي الثامن لتاريخ العلوم عند العرب ـ معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حب ، ١٩٨٤م .

ـ محمد البابا : **طب الفقراء وطب الأغنياء .**

* أبحاث المؤتمر السنوي العاشر لتاريخ العلوم عند العرب ـ معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، ١٩٨٦م .

ـ إبتسام فاتي : **الأراضي ، أنواعها أوصافها إصلاحها في كتب الفلاحة .**

ـ عبد الله الطرازي : **جهود العرب في تطوير علم الطب .**

ـ محمد البابا : **الآفات الزراعية وطرق مكافحتها في كتب الفلاحة العربية .**

* أبحاث المؤتمر السنوي الثاني عشر لتاريخ العلوم عند العرب ـ معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب ، ١٩٨٨م .

ـ كمال شحادة : **المراقبة الدوائية والطبية في أنظمة الحسبه عند العرب .**

* أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ـ معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، ١٩٧٦م .

ـ عبد الجبار ناجي : **رؤية تراثية إلى علم الحيوان عند الجاحظ .**

- عبد الحميد صبره : **تاريخ العلوم عند العرب أهدافه ومشكلاته** .

- محمد البابا : **الأقرباذينات أو دساتير الأدوية العربية** .

* أبحاث الندوة العربية العالمية الرابعة لتاريخ العلوم عند العرب (ج ٢) - معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، ١٩٨٧م .

- محمد صالحيه : **تنظيف الثياب من الآثار والمطبوعات والأوساخ في ضوء التراث العربي** .

* حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس ، القاهرة .

- زاكية رشدي : **تاريخ الأدب السرياني** . مج ٣ ، ١٩٧٣م .

- محمود كمال : ا **لجغرافية والخرائط عند العرب** . مج ١٣ ، ١٩٥٥م .

* تراث الإنسانية - سلسلة تعريفية تصدر عن المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة .

- أحمد الحسيني : **كتاب الحيوان للجاحظ** . مج ٢ ، ج ١ ، ١٩٩٨م .

* مجلة آداب الرافدين - تصدر عن كلية الآداب ، جامعة الموصل ، العراق .

- أحمد العمر : **الطبري النحوي الكوفي من خلال تفسيره** . ع ٩ ، ١٩٧٨م .

- أحمد العمر : **من مصادر الدراسات النحوية** . ع ١٢ ، ١٩٨٠م .

- كاصد الزيدي : **تفسير القرآن بالقرآن** . ع ١٢ ، ١٩٨٠م .

* مجلة الأستاذ - تصدر عن كلية التربية ، جامعة بغداد ،العراق .

- إبراهيم شوكت : **تفكير العرب الجغرافي وعلاقة اليونان به** . مج٩، ١٣٨٨هـ/١٩٦١م .

- قحطان رشيد : **إبراهيم بن المدبر الشاعر** . ع ٢ ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

* مجلة آفاق الثقافة والتراث - تصدر عن إدارة البحث العلمي والنشاط الثقافي بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ، دبي .

- محمد بلاسي : **مسيرة الفكر الإشتقاقي** . ع ١٥ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

* مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ـ يصدرها مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة .

ـ سامح فهمي : **المكاييل الإسلامية للعقاقير الطبية** .ع٥ ، ١٤٠٢هـ .

* مجلة تاريخ العلوم العربية ـ تصدر عن معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ، حلب .

ـ آلان ديبوس : **تعاليم ، جبر ، في سيمياء وكيمياء الغرب** . مج ٨ ، ١ ـ ٢ ، ١٩٨٤م .

ـ أورسولا فير : **علم الأجنة لدى يوحنا بن ماسويه** . مج ٤ ، ع ١ ، ١٩٨٠م .

ـ عادل أنبوبا : **الجبر عند العرب** . مج ٢ ، ع ١ ، ١٩٨٧م .

قضية هندسية ومهندسون في القرن الرابع الهجري (تسبيع الدوائر) . ع ٢ ، ١٩٧٧م .

* مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ـ تصدر عن الجمعية الجغرافية العراقية ، بغداد .

ـ حبيب الراوي : **المصادر اللغوية للجغرافية عند العرب** . مج ٨ ، ١٩٧٤م .

* مجلة الدارة ـ تصدر عن دارة الملك عبد العزيز ، الرياض .

ـ أحمد البقالي : **رحلة ابن فضلان في مملكة روثفار** . ع ٣ ، السنة التاسعة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

ـ أحمد رمضان : **تطور علم التاريخ الإسلامي** . ع٢ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

ـ حامد غنيم : **جغرافيوا القرن الرابع الهجري** . ع ١، السنة الخامسية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

* مجلة الدراسات الإسلامية ـ يصدرها معهد الأبحاث الإسلامية ، إسلام آباد ، باكستان .

ـ عبد الله التركي : **المذهب الحنبلي** . ع ٤ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

ـ عبد الحليم عويس : **المذهب الظاهري** . ع ٤ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

- عبد القادر زبادية : **نشأة المدارس الفقهية في الإسلام** . مج ١، ع٤٤، ١٩٧٢م .

* مجلة دراسات تاريخية ـ تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب ، جامعة دمشق ، دمشق .

- محمد ريان : **علم التاريخ عند المسلمين وتطوره** . ع ٣٣ ـــ ٣٤ ، ١٩٨٩م .

* مجلة عالم الكتب ـ تصدر عن دار ثقيف للنشر والتأليف ، الرياض .

- إبراهيم السامرائي : **التصحيح اللغوي** . مج١٠،ع١ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .
- سيد رضوان : فتوح البلدان للبلاذري . مج٦ ، ع٣ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م .
- عبد الرحمن الشيخ : **كتب الأخبار مرحلة من مراحل الكتابة التاريخية** . مج ٨ ، ع ١ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- محمد الحريري : **رحلة ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة واسكندينافية** . مج ١٢ ، ع ١ ، ١٤١١هـ/١٩٩١م .

* مجلة الفيصل ـ تصدر عن دار الفيصل الثقافية ، الرياض .

- إبراهيم الهدلق : **البيزرة عند العرب** . ع ٢٧٦ ، ١٤٢٠هـ .

* مجلة كلية الآداب ـ جامعة الأسكندرية ، الأسكندرية .

- طه الحاجري : **تخريج نصوص أرسطو طاليس من كتاب الحيوان للجاحظ** . ع ٣ ، ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣م .

* مجلة المجمع العلمي العراقي ـ تصدر عن المجمع العلمي العراقي ، بغداد .

- جابر الشكري : **قصة الكيمياء** . مج ٣٨ ، ج ٢ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- جابر الشكري : **كتاب كيمياء العطر والتصعيدات المنسوب للكندي**. مج٣٦ ، ج ١ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- جميل الملائكة : **أساسيات الهندسة في العراق القديم** . مج ٢٤ ، ج ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

- محمد الظاهر : **نظرية التوازي وأثر العرب فيها** . مج ٥ ، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م .

- محمد السرحان : **التفاسير اللغوية والنحوية للقرآن الكريم** . مج٣٢ ، ج٣ – ٤ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

- يوسف حبي : **أصالة السريانية ومساهمتها في البناء الحضاري** . مج ٧ ، ١٩٨٣م .

- يوسف حبي : **أيوب الأبرش الرهاوي** . مج ٣٤ ، ج ٢ .

- يونس السامرائي : **يزيد المهلبي حياته وما تبقى من شعره** . مج ٣٢ ، ج١ ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

* مجلة المجمع العلمي الهندي – تصدر عن المجمع العلمي الهندي ، جامعة عليكرة الإسلامية ، الهند .

- مختار الدين أحمد : **أبو يوسف الكندي ورسالته في الشعاعات** . مج٣ ، ع ١ – ٢ ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

* مجلة المؤرخ العربي – تصدر عن إتحاد المورخين العرب ، القاهرة .

- مريزن عسيري : **كناش الكشكري** . مج ١ ، ع ٢ ، ١٩٩٤م .

خامساً : الرسائل الجامعية :

* محمد الهويمل :

- **الحركة العلمية في خلافة المأمون** . رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة مؤتة ، ١٩٩٦م .

* طالب الضمور :

- **التربية والتعليم في العراق في العصر العباسي الأول** . رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة مؤتة ، ١٩٩٦م .

سادساً : الموسوعات والمعاجم :

* **المعجم الوسيط** : إبراهيم أنيس ورفاقه ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

* **دائرة المعارف الإسلامية** . تأليف / جمهرة من المستشرقين ، تعريب/ إبراهيم خورشيد ورفاقه ، دار الشعب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٩م .

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات